

آنجل جثالث بالنيا

تاريخ الفكر الاندلسي

تقلى عن الإسبانية

حسبان مؤنس

أستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مكتبة الثقافة الدينية

المنشور
مكتبة الثقافة الدينية
المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

تليفون : ٩٢٢٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٤٠

الإهداء

إلى ذكرى صديقٍ آنَحِلْ جُنْثَالِثٍ بِالنَّثْيَا ، مؤلف هذا الكتاب .
آية تقدير من المدرسة الأندلسية المصرية إلى مدرسة المستشرقين الإسبان
ذات التقاليد الجليلة الباقية .

(المترجم)

الأصل الإسباني لهذا الكتاب :

ÁNGEL GONZÁLEZ PALENCIA

Historia de la Literatura Árabe-Española

(Colección Labor no. 164-165) 2ª edición. Madrid 1945.

وقد لاحظنا أن المؤلف أسقط من هذه الطبعة — بدافع الإيجاز — فقرات
لها قيمتها كانت في الطبعة الأولى التي صدرت سنة ١٩٢٨ ، فأثبتنا في هذه الترجمة
بعضها وأشرنا إلى ذلك في مواضعه .

مقدمة

هذا كتاب حفزنى على نقله إلى العربية أكثر من حافز : فقد أتدمت على ذلك عن إعزاز عميق للأندلس وتاريخه وحضارته ، وعن إجلال صادق لمؤلفه ، وعن رغبة في أن أقدم للقارىء العربى صورة عامة شاملة للفكر الأندلسى وفنوحه فى كل ميدان ، وعن إحساس بأن هذا الكتاب لم يلق نصيبه من التقدير والإنصاف ، وأخيراً عن شعور بأن الأيام — والموت العاجل — قد شغلت صاحبه عن أن يخرج به فى الصورة التى ارتسمت فى ذهنه ، وأن يبدأ صديقة معاونة ينبغى أن تمتد فتشكل ما فات ، وتضع الكتاب فى المكان الذى ينبغى له من مراجع الفكر الأندلسى ، بل العربى عامة ، بل الإنسانى إطلاقاً .

ذلك أن آنجل جنثال بالنثيا صنف هذا الكتاب ليضيفه إلى ما حمله يمينه من آثار كفاحه العلمى ، يوم تقدم لامتحانات أستاذية كرسى اللغة العربية بجامعة مدريد ، عقب تنازل شيخ المستشرقين الإسباني خيلان ريبيرا عن ذلك الكرسى مختاراً لينقطع إلى أبحاثه ودراساته عام ١٩٢٧ . وقد حشد بالنثيا بين دفتيه مادة لو فصلت بعض الشيء للمئات مجلدات ، ولكنه ألزم نفسه من الإيجاز ما جاوز المألوف ، وجمع فى نيف وثلاثمائة صفحة أهم ما كان الناس يعرفونه فى أيامه عن الفكر الأندلسى ، وأهم ما ألفه — بالعربية أو بغيرها — غير المسلمين من أهل الأندلس ما بين نصارى ويهود ، وأضاف إلى ذلك خلاصة طيبة جداً لكل الدراسات التى تعرضت لآثار الفكر الأندلسى فى الفكر الأوروبى . وإن من يعرف الأمانة البالغة التى اتصف بها جنثال بالنثيا ليتصور الجهد الذى احتمله حتى يضم ذلك كله فى غير حيز !

وإن تبلغ ثلاثمائة صفحة (من قطع صغير) من ميدان رحب خصص كميدان .

الفكر الأندلسي؟ أين هي من الشعر الأندلسي وحده؟ أين هي من الفلسفة أو من التصوف؟ أين هي من الطب والفلك والرياضة والنبات وما إلى هذه من فروع الفكر؟ وأين تبلغ وهي لا تكفي لدراسة علم واحد من أعلام الفكر الأندلسي كابن حزم أو ابن قزمان أو المعتقد أو ابن عربي أو ابن حيان؟ كم للشعر وكما للنثر؟ كم للغة وكما للتفسير؟ كم للتاريخ وكما للجغرافية؟ كم للفلسفة وكما للتصوف؟ كم للطب وكما للنبات؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي تبدو وكأنها معضلات أمام من يتعرض لمثل هذا التأليف.

ولكن الله أعانه، واستطاع أن يجمع بين الإيجاز والشمول على نحو قلما يجد الإنسان له مثيلاً، وجاء الكتاب فريداً في بابيه، فإنا نظن أن لدينا كتاباً يقاربه في تاريخ الفكر الإسلامي المشرق مثلاً، بل ما نظن أن أحداً أقدم على مثل هذه المحاولة.

بيد أن الإيجاز الشديد لم يلبث أن أضر بالكتاب، فإن الإشارات القصيرة لا تقنع، والاكتفاء بالضرورة عن الأهم، وبالأهم عن المهم، كل ذلك انتهى بأن جعل الكتاب خلاصة جافة عسيرة على القارئ، عسيرة على الباحث. ثم إن عدم ذكر المراجع، وإيراد النصوص دون إشارة — ولوتقر بنية — إلى أصلها، والاكتفاء بالمحطات عن العبارات، وافتراس المعرفة السابقة عند القارئ، كل ذلك وقف بالكثيرين عن الاستمالة بالكتاب — على عظيم قدره — وصرفهم عن ذكره بين مراجعهم، رغم اعتمادهم عليه.

لهذا كله رأيت ألا أقصر في نقل الكتاب على الترجمة سطراً بسطراً — فالكتاب كالروحة الطاوية، كلما فتحتها تبدت رسومها وزادت تفصيلها وحسناً — ولا بد إذن من تفصيل وبيان. ولكن كيف؟ إن المؤلف نفسه لم يذكر مراجعاً ولم يشر إلى أصل إلا إشارة العابر للمعجل، فهو يقول: قال ابن حزم كذا؛ أو قال ابن عربي كيت، دون أن يذكر أين، والفتوحات للكية وحدها في نيف وألفي

صفحة . . أويقول إن « الخزرجي » ألف كتاباً في الحديث : أى خزرجي ، وم
في الأندلس ألوف والوف ؟ وما إلى ذلك مما ألزمه به ظرف خاص ، هو نشر
الكتاب في سلسلة من كتب المعارف العامة ذات الحجم الواحد الصغير ، الذى
يحتمله ويقنع به القارىء المطالع أو ملتصق الفائدة اليسيرة .

كان لا بد من منهج خاص للقيام بهذه الترجمة ، منهج يتلخص في ألا أنقل
فقرة إلا والأصول التى أخذ المؤلف عنها بين يدي ، فإذا كان هذا الأصل إسبانياً
أو فرنسياً أو إنجليزياً لم أطمئن حتى أجد بين يدي أصوله العربية بدورها ، ثم
أطالع هذا كله حتى أعرف على وجه التحديد ما أراد المؤلف قوله في عبارته
للموجزة ، فإذا كان قد استغنى عن أشياء على اعتبار أن القارىء الإسباني يعرفها ،
أو ضرب صفحاً عن أخرى لأن هذا القارىء الإسباني لا يحتاج إليها ، أو استطراد
عن أشياء ثالثة لأن الحيز لا يسمح ، فإننى لم أربأساً في إيراد أطراف من هذا كله
بين أفواس سربعة ، وفاء لمقتضى الكلام أو زيادة في الإيضاح والبيان .

ومن هنا لم يكن الأمر ترجمة فقط ، بل هو ترجمة وتفسير . وقد رأيت ذلك
حقاً للقارىء العربى عندي ، إذ أن ميدان الأندلسيات ميدان بكر ، وخاصة في
فروع الفلسفة والتصوف والطب والملك والرياضيات ، والقارىء لن يفيد كثيراً
من كتاب بالغ الإيجاز ، وهولن يقنع بإشارات عابرات ، إذا نفعت طالب
الاطلاع المجرد ، لم تنفع من طلب شيئاً وراء ذلك .

وقد وجدت بعض المشقة في ترجمة عنوان الكتاب وهو Historia de la
Literatura Árábigo Española ، لأن لفظ Literatura يعنى عندنا الأدب
بمعناه المحدد الآن ، ولكن الكتاب لا يقتصر على الأدب بل يتناول التاريخ
والرحلات والفلسفة والتصوف والطب والنبات والملك والرياضيات ، أى نواحى
التفكير كلها . وقد افترح بعضهم أن أقول : الآداب العربية ، ولكنى رأيت
الآداب لا تشمل العلوم ، واستقر رأي آخر الأمر على أن أجمله « تاريخ الفكر

الأندلسي » ، وبدالى أن تلك هى أقرب لفظة عربية تعبر عن لغوى الكتاب

ولقد تكلفت هذا العناء المحجب ، رغبةً منى فى أن أسد فراغاً ظاهراً فى مكتبة العربية ، وعنايةً بكتاب أعقد أنه من أحسن وأنفع ما صنف المستشرقون ؛ فهو يمتاز — علاوة على الشمول — باعتدال فى الرأى وإنصاف فى الحكم وُبُعْدٍ عن الهوى والعصبية يجعلك تتصور فى بعض الفقرات أنك تقرأ لكتاب عربى منصف ، وإنصافه لا يقوم على الألفاظ بل على عرض الحقائق ، لا يقوم على الحساس ، بل على الجهد والعمل والصدق والتحقق ، وهى صفات امتاز بها هذا العلامة الإسباني الذى عاش عمره كله قارئاً كاتباً باحثاً محققاً ، واتمت حياته بعيد الستين وهو على قمة مجد علمى لا تحمقه جماعة كاملة من الباحثين . . . ولقد لقيته وعرفته ، وكانت بيننا مودة لم تنسأ فى أجلاها الأيام ، و « أجاز » لى نقل هذا الكتاب وروايته عنه ، على مذهب أجدادنا فى تقاليدهم الحليّة فى العلم وتحمّله والدرس ونقله .

وقد كنت أردت أن أضيف ما يقتضيه المقام من التعليقات فى الهوامش ، ولكنى وجدتها زادت واتسعت حتى أصبحت تعدل الأصل بزياداته معاً ، ففضلت أن أجمعها فى كتاب قائم بذاته يكون كالذيل على هذا الكتاب ، ولم أر بأساً فى إفرادها ، لأنها مستقلة عن الكتاب تماماً . ومن أراد الاكتفاء بما هنا فهو حسبه ، ومن طلب ما وراء ذلك فليُنظر فى « الصلة » ، أعاننا الله على إخراجها فى القريب .

وحقيق لى — قبل أن أفرغ من كلمة التقديم هذه — أن أتقدم بالشكر إلى كل من تفضل بمعاونتى فى إنجاز هذا العمل .

أشكر أستاذي المرحوم أحمد أمين ، فهو الذي رحب بفكرة نقل الكتاب
وجهه ضمن مختارات الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، وأشكر أصدقائي
وزملائي : الدكتور عبد الحليم محمود ، وعبد العزيز الإهواني ، ومحمد عبد الهادي
أبي ريدة ، ومحمود الخضيرى ، والأستاذ مصطفى عبد المجيد صالح ، والأنستين
سيلفيا لامفوس ومرثيديس جنثالث ماس ، والدكتور خايمه أوليفر آسين .

وأشكر الصديق الكريم الأستاذ إميليو غرسية غومس على ما تفضل به
من تقديم الكتاب إلى غير العرب من القراء .
والحمد لله أولا وآخراً .

عصين مؤنس

القاهرة ، مايو ١٩٥٥

الفصل الأول

مقدمة تاريخية

ف ١ :

لا تكاد توجد آثار لأى لون من الحياة الفكرية فى الأندلس خلال السنوات الأولى التى أعقبت الفتح الإسلامى لإسبانيا على يد طارق وموسى ؛ بل إن الشعب الإسبانى الذى دخل فى طاعة المسلمين — نتيجة لهذا الفتح — لم يخلف لنا آثاراً تدل على حياته الفكرية طوال عصر الولاة^(١) (٧١٠ — ٧٥٥ م) . ذلك أن الظروف التى أحاطت به لم تكن مواتية لشؤون الدرس والفكر ، فقد شغل الفاتحون بما وقع بين بعضهم وبعض من مخاصمات وحروب ، وثارَت العداوات بين قبيلة وقبيلة ، وبين البربر والعرب ، وبين القيسية واليمينية ، وبين الشامية والمدنية . ثم إن الفاتحين — جميعاً — كانوا من المحاربين ؛ وهذا وحده يكفى لتعليل انصرافهم عن الآداب وشؤون الفكر .

ولم يكن أهل البلاد — الذين دخلوا فى الإسلام ، وارتبطوا مع الفاتحين بروابط المصاهرة — فى حاجة أول الأمر إلى شىء ذى بال من الثقافة الإسلامية ؛ لأن الدخول فى الإسلام لم يكن يتطلب منهم إلا النطق بالشهادتين (وحرى بنا ألا ننسى — فى تعليل نشاط المصاهرة بين الفاتحين وأهل البلاد — أن المسلمين دخلوا إسبانيا جيوشاً منظمة ، ولم يدخلوها دخول البرابرة أفواجاً وقبائل بنسائها وأطفالها ، ومن ثم لم يكن لهم بد من اتخاذ النساء من أهل البلاد ، ومن ثم أصبح الزواج من الجانبين أسراً لا مفر منه) . ولا بد أن أولئك الإسبان — الذين دخلوا الإسلام — لم يندموا على فراقهم دينهم الأول وانتقالهم إلى العقيدة الجديدة ، فقد تحسنت ظروف حياتهم من الناحيتين القانونية والاجتماعية :

إذ انتقلوا من الرق إلى الحرية ، ولما كان المسلم الحر يكاد يكون معفى من الضرائب والجبايات في العرف الإسلامي ، فقد كان هذا وحده عاملاً على سرعة تحول أهل الجزيرة إلى الإسلام .

وقد كان القرآن في الأندلس — كما كان في غيره من البلاد الإسلامية — المصدر الوحيد للتشريع ، ولم تمس الحاجة إلى اللجوء إلى الاستعانة بسنن الرسول إلا بعد أن احتك أهل الإسلام بنظم الشعوب المفتوحة في المشرق والمغرب ، ووجدوا أنفسهم — نتيجة لهذا الاحتكاك — أمام مشاكل تشريعية وقانونية شديدة التعقيد . ونشأت عن تلك الاستعانة بالسنة في حل هذه المشاكل المذاهب الفقهية المختلفة .

وقد دخل عبد الرحمن بن معاوية (٧٥٥/١٣٨ — ٧٨٨/١٧٢) الأندلس في لحظة أشرف أمر الإسلام فيها على الانتثار والضياع ، وكان هو نفسه من القلائل الذين أفلتوا من أيدي العباسيين الذين انتزعوا الخلافة من الأمويين وتعقبهم بالقتل ، فقد رله — وهو الناجي بنفسه من الخوف — أن يستنقذ الإسلام من الزوال من الأندلس : فقد اشتدت حروب العرب ومغازاتهم بين بعضهم وبعض ، وحجى نزاع الرؤساء على الولاية حتى حازها منهم أربعة وعشرون والياً في خمس وأربعين سنة . وبدخول عبد الرحمن [وقيام دولته الأموية] أتيحت للإسبان الظروف المواتية للاتصال بالثقافة الإسلامية الشرقية اتصالاً منتظماً . وليس إلى الشك سبيل في أن أهل البلاد قد اهتموا بتعلم اللغة العربية ، لغة الدولة والدين في الإسلام ، ولا بد كذلك أن نفراً منهم ذهب إلى مكة حاجاً وعرف — عن طريق الحج — المراكز للشرقية ؛ ولكن أولئك الوافدين من الأندلسيين لا يمكن أن يكونوا قد أفادوا كثيراً من زياراتهم لهذه المراكز ، لأن الحركة الأدبية كانت إذ ذاك في أوائل أمرها فيها .

وكان الأمير عبد الرحمن يقول الشعر بين الحين والحين ، ولدينا كذلك أسماء

شعراء عاشوا في بلاطه ، منهم أبو الخثي [عاصم بن زيد بن حنظلة التميمي] ، الذي بكى في أبيات مؤثرة بصره الذي أسر بإطفاء نوره أمير أموى عقاباً للشاعر [على ميله لأخي الأمير] . ويذكر لنا المؤرخون — من بين الثورات والمؤامرات الكثيرة التي تجرد عبد الرحمن للقضاء عليها بيد حازمة — أخباراً فتنه قام بها بربر الأندلس يقودهم معلم صبيان يسمى شقيا ، جمع بين الحماس الديني والشعبذة وزعم أنه يندسب إلى علي وفاطمة ، فكأنه ردد في جوانب إسبانيا صدى الخلاف الكبير الذي صدع الإسلام من أول الأمر صدعاً عميقاً ، وهو الخلاف حول الخلافة ، فقد تحزب نفر كبير من المسلمين لأبناء فاطمة بنت الرسول ، فنشأت عن ذلك طائفة الشيعة السياسية الدينية .

وكان من الطبيعي أن يكون تصادم هذه الآراء السياسية والدينية مجدياً على الثقافة ، وأن يكون باعثاً للمسلمين على تعرف الإسلام الذي يدينون به وتعمقه . ومن هنا لم تلبث المذاهب الفقهية أن ظهرت بين المسلمين [واتبع كل واحد منها نفرٌ منهم] . وقد كان أهل الأندلس أول الأمر أوزاعية ثم تحولوا إلى مذهب مالك ، وقد حمله إليهم شبطون [بن عبد الله] ^(٣) ، أو الغازي بن قيس — الذي يؤكد ابن القوطية أنه أدخل « الموطأ » إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل ^(٤) — أو على يد نفر من الفقهاء ، وهو الأقرب إلى الاحتمال . وقد جرى الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢/٧٨٨ — ١٨٠/٧٩٦) على اختيار قضاته وأصحاب الوظائف الدينية في دولته من بين فقهاء المالكيين ، فكانت النتيجة أن انتشر هذا المذهب وثبتت قدمه في الأندلس . وسنرى في سياق هذا التاريخ الأثر الحاسم الذي كان لمذهب مالك على تطور الثقافة في الأندلس ، بسبب اتساع مدى انتشاره المستقر ، وما اتصف به من عداء لكل تجديد ، مما أثار الفتن والتفائل : وما « فتنة النصارى » في قرطبة ، و « وقعة الحفرة » في طليطلة ، و « هتيج الربض » ^(٥) المروع الذي اضطرب الحكم بن هشام الأول المعروف

بالربضى (٧٩٦/١٨٠ - ٨٢١/٢٠٦) إلى القضاء عليه بإغراقه فى الدماء ، ما هذه كلها إلا نتائج لتشدد فقهاء المالكية وعنادهم : فلم يكن الحكم هذا زنديقاً ولا خارجاً على الدين ، ولكن الفقهاء سخطوا عليه إذ لم يعجبهم خلقه - وكان يغلب عليه الاستهتار والخفة - ولم يرضهم منه إقباله على الصيد والنبيد ، وأنكروا منه أنه لم يطلق يدهم فى الأمور كما كانوا يشتهون . وكان الحكم شاعراً ، وكذلك كان غريب [بن عبد الله]^(٥) رأس ثوار طليطلة يقول الشعر . ورغم ذلك كله فإن أثر الحكم فى تطور الثقافة العربية الأندلسية لا يعدل أثر خليفته عبد الرحمن الثانى الأوسط (٨٢١/٢٠٦ - ٨٥٢/٢٣٨) .

كان عبد الرحمن الأوسط محباً للشعر ، وكان ضعيف الشخصية : ترك عنانه بيد الفقيه يحيى بن يحيى ، وطروب أحب نسائه - أى نساء عبد الرحمن - إليه ، وزرياب المغنى . وكان زرياب رجلاً فذاً ، فكان إقباله على بلاط عبد الرحمن الأوسط إيذاناً بتحول هذا البلاط [من خشونته] إلى ترف قصور الحكام وأصحاب السلطان فى المشرق . ذلك أن زرياباً لم يستهو أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية ، وملابسه ، وطريقته فى إرسال شعره ، وولائمه البديعة التى كان يتقن فى ترتيبها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذى يحتذيه القرطبيون فى إعداد ملابسهم^(٦) . ومن ذلك الحين اجتهد حكام الأندلس فى أن يكون لقصورهم مجد أدبى يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق ، فاهتموا برعاية الآداب والعلوم والفنون ، حتى تصل قرطبة إلى مستوى يضاهى ما وصلت إليه دمشق وبغداد . ومن هنا تألق فى بلاط عبد الرحمن الأوسط شعراء مثل يحيى بن الحكم بن الفزال ، الذى وصفه ابن حيان بأنه « حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها » ، والذى كان عبد الرحمن يندبه ليسفر بينه وبين غيره من الملوك^(٧) ، فكان يقوم بهذه السفارات وينشئ الأشعار متغزلاً فيمن يلقى

من النساء ، بل لقد أنشد الغزال أهل بغداد بضعة أبيات من شعره وزعم أنها لأبي نواس فلم يشك الناس في أنها للحسن بن هاني^(٨) . [ومن شعراء بلاط عبد الرحمن الأوسط تمام بن علقمة ، الذي أنشأ أرجوزة طويلة نظم فيها تاريخ افتتاح المسلمين للأندلس^(٩) ، وحسانة التميمية بنت الشاعر أبي الحسين^(١٠) (*)] .
ونبغ كذلك فقهاء كبار ذوو علم واسع ، مثل عبد الملك بن حبيب وابن الماجشون ، وأصبغ بن الفرج ، ومحمد بن مزين — وكلهم مالكيون^(١١) .

وفي ذلك الحين كان عنصر المستعربين على وشك أن يتلاشى ويختفي في العنصر العربي ، وهذا هو أقل ما نخرج به من عبارات التعجب والاستنكار التي سجلها « آلبرو القرطبي » في كتاباته ، وهي عبارات معروفة ذائعة ، صور لنا فيها شبان النصراني من أهل بلاده متضلعين في لغة العرب وشعرهم ، مفضلين ذلك على النزر اليسير من العلم والأدب الذي كان قد بقى إلى أيامهم من العصر الزاهر للآداب اللاتينية في إسبانيا ، كما تتجلى في كتابات إيزودور الإشبيلي ، ولم يبق في أذهان الناس من هذه الآداب اللاتينية بعد أيام يولوجيوس وآلبرو القرطبيين إلا معالم قليلة غير واضحة ، هي التي تسمى بآداب المستعربين . وقد ضاع أدب للمستعربين هذا كله على وجه التقريب ، ولم يبق لنا منه إلا نماذج قليلة جداً ، كتلك الأبيات التي نظمها الأسقف بنجنسئس^(١٢) ليقدّم بها كتاباً من تأليفه إلى الأسقف عبد الملك ، ومثل « تقويم الأسقف ريكيموندو » .

وعبرت بالإمارة الأموية ، بعد ذلك ، أيام عصية : ذلك أن الأمير محمد ابن عبد الرحمن (٨٥٢/٢٣٨ — ٨٨٦/٢٧٣) — وكان أناثياً بجيلاً^(١٣) — استعان بالفقهاء ، واستطاع أن يهرب البائسين من رعاياه من النصراني ويخضعهم لسلطانه . أما المسلمون من الإسبان فقد كان من بينهم نفر من الشيوخ والرؤساء لم يذعنوا بالطاعة لسلطان أمير قرطبة : من أمثال بني قسي سادة أرغون ، وعبد الرحمن بن مروان الجليلي المنتزى في ماردة وبظليوس ، وعمر بن حفصون الذي

(*) أسقط المؤلف الفقرة الواردة بين الحاصرين من الطبعة الثانية من كتابه .

تولى قيادة المستعربين في جنوب الأندلس من معقله حصن بُيشتُر في ناحية رُنْدَة ، وأولئك كلهم كانوا خارجين على سلطان إمارة قرطبة . فلجأ الأمير محمد إلى شيوخ قبائل العرب ورؤسائهم يستعين بهم على محاربة أولئك الخارجين على سلطانه ، وكان من الطبيعي أن يحاول أولئك العرب استغلال هذه الفرصة ، فكنفوا لأنفسهم في نواحيهم ، وانزواهم الآخرون بها ، وأنشأوا فيها سلطاناً مناهضاً لسلطان الأمير . واشتد النزاع بين هذه الطوائف من عرب الأندلس وبين الإمارة القرطبية ، وطال هذا النزاع واشتد أمره حتى كاد يقضى على إمارة قرطبة ، خاصة في أيام الأمير عبد الله (٢٧٥ / ٨٨٨ — ٣٠٠ / ٩١٢) .

وشاع بين الناس الليل إلى الشعر الجميل ، وشاركهم فيه الأمراء أنفسهم [مثل الأمير عبد الله]^(١٤) ، وظهر شعراء بلاط كثيرون لم يفوزوا من إعجاب جمهور الناس بنصيب كبير ، مثل القلقاط [محمد بن يحيى] وعبيدس [بن محمود]^(١٥) ، وابن عبد ربه^(١٦) ، وغيرهم . وظهر كذلك رجال يمثلون الفروسية العربية بأكل معانيها ، مثل سعيد بن جودي^(١٧) المقدام الذى قاد جماعات العرب فى صراعها مع عمر بن حفصون ، وكان ينشد الأشعار متغنياً بحمىة للميوس منه لجيجان جارية الأمير عبد الله ومغنيته .

ولقد بلغ من غرام أهل الأندلس بالشعر فى ذلك الحين أن ظهر بينهم فن شعرى جديد أقبل الناس عليه فيما بعد إقبالاً عظيماً ، هو فن الزجل والموشحة الذى ابتكره مقدّم بن معافى القبرى الضرير الذى توفى قبل سنة ٩١٢ / ٣٠٠ ، ويصاغ على نظام جديد للقوافى والأوزان ونسق جديد كذلك للأبيات . وكلا الموشحة والزجل يختلفان اختلافاً ظاهراً عن نظام القصيدة العربية ، فهما يستعملان اللغة الدارجة ويمزجان العربية فى بعض الأحيان بعبارات من اللهجات الرومانسية .

أما فى بقية صنوف الآداب فقد مضى الناس على ما قرره السلف من مناهج : ففى دراسة الفقه مضى الناس على الأسلوب التقليدى ولم يشذ عن ذلك إلا المحاولة

الجريئة التي قام بها بقي بن مخلد عندما أراد أن يلحق الناس أصول مذاهب قهية أخرى غير المالكية ، كالذهب الشافعي مثلاً . وقد كادت جراته تلك أن تكلفه حياته ، ولولا أن تدخل الأمير محمد بنفسه في الأمر — استجابة لشكوى تقدم بها الفقهاء إليه في أمر بقي — لما نجا هذا الأخير من هلاك محقق ، فقد أقر الأمير بقيًا على التدريس كما يريد ، وأتاح الفرصة بذلك للذهب الشافعي لينتشر في الأندلس ويظل مذكوراً فيه حتى سقوط الخلافة^(١٨) .

* * *

بيد أن عبد الرحمن الناصر (٩١٢/٣٠٠ — ٩٦١/٣٥٠) وفق إلى إنقاذ الحضارة الإسلامية الأندلسية الزاهرة مما كان يتهدها من الأخطار الخارجية والخلافات الداخلية . فقد كان ذا سياسة حازمة مكنت له من أن يخضع جماعات العرب لسلطانه ، وأعانتته على القضاء على قوة عمر بن حفصون (الذي كان قد فقد الكثير من جاهه بسبب ارتداده عن الإسلام واعتناقه النصرانية) ، وهاجم الناصر ممالك النصارى في الشمال ، وتدخل بمهارة فائقة في الحصومات التي كانت قائمة بين الليوينيين والقشتاليين والتبريين ، واجتهد في إضعافهم وتمكين سلطانه عليهم من هذا السبيل ، وناجز الفاطميين الذين سادوا للغرب وصقلية ، واستطاع أن يضع حداً لمطامع الشيعة في إنشاء دولة عالمية وإخضاع الناس جميعاً للمهدى أو الإمام المستتر . وكان أساس القوة التي أقام عبد الرحمن عليها سلطانه تلافية ناحية النقص التي كانت تضعف كيان جيوش الدولة الأموية الأندلسية : وهي تكوئها من قبائل منفصل بعضها عن بعض ، تحضر المواقع بأعلامها وألويتها ، فأنشأ طائفة جديدة ممتازة مخلصة لشخصه وحده ، وأضاف إلى عداد الجيش جماعات من « الموالى » الجدد كونها من عناصر ذات أصول نصرانية ، وهم المسمون « بالصقالبة » الذين كان معظمهم يجلب من بلاد أوروب الوسطى ومن بلاد النصارى في شمال إسبانيا . وقد وصف أهمية هذه الطائفة « بَرْتِوُ بِييس » في كتابه عن

« ملوك الطوائف » بقوله : « ولما كانوا يربون منذ نعومة أظفارهم في قصر الخلافة ، وتُبذل العناية في تأهيلهم بعلم طيب ، فقد انفتح أمامهم الطريق وأصبحوا يكوّنون صفوة الموظفين الإداريين ، وتولوا القيادات العسكرية . وكان عددهم وثروتهم في ازدياد ، وأصبحوا يكوّنون طائفة متميزة في كيان المجتمع الإسلامي الأندلسي »^(١٩) . أضفى عبد الرحمن الناصر على الأندلس النظام والرخاء في الداخل ، وهياً له الاحترام والتقدير في الخارج ، وزاد في موارد الثروة بتشجيع الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم حتى بلغت كلها أوجها على أيامه ، واهتم بتجميل قرطبة حتى أصبحت تضاهي بغداد بهاء وجمالاً .

وطبيعي أن يصاحب هذا التحليق السامق بعناصر الحضارة المادية تطور في نواحي العلم والأدب ، فظهر في عصره شعراء كابن عبد ربه ، وابن هاني ، والزبيدي ؛ ومؤرخون من طبقة الرازي ، وابن القوطية ، وصاحب « أخبار مجموعة » ، وألخشي . ولم يعدم نوع التأليف الموسوعي — المحجب إلى نفوس المسلمين والذي يعرف عادة « بالأدب » — ناساً يمثلونه في الأندلس ويبرزون فيه ، كابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » ، وهو أشبه بموسوعة أدبية ، تاريخية ، فلسفية . وظهرت البوادر الأولى للفلسفة على يد ابن مسرة (٨٨٣/٢٧٠ — ٩٣١/٣١٩) الذي أذاع بين مسلمي إسبانيا مبادئ المشيئة بأنباذقليس (وهو مذهب أفلوطيني يقول بوجود مادة روحية) على الرغم من معارضة الفقهاء التي لم يكن منها مفر ، ولكن هذه البذرة الأفلوطينية قدر لها أن تثمر مع الزمن وتظهر آثارها في تفكير ابن جبيرول وابن عربي .

كذلك أقبل نفر من الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك ، ولكن هذه الدراسات كانت تجري في دوائر ضيقة وفي معزل وستر عن الناس ، لأن الفقهاء وجمهرة المسلمين كانوا يحرمون تعاطيها . أقبل أولئك نفر على هذين الفنين دون نفور ، وكان أول من عفى بهما أحمد بن نصر ومسلمة بن القاسم ، فكانا

بذلك واضع البذرة التي ستزهر إزهاراً وارفاً في عهد الحكم المستنصر . كذلك خطت دراسة الطب خطوة حاسمة في الأندلس بعد ما تُرجم كتاب « ديوسقوريدس » الذي كان الإمبراطور البيزنطي قد أهداه إلى الخليفة . هذا وقد كانت دراسة الطب محل عناية الناس في الأندلس قبل ذلك بزمان ، إذ أن يونس الحرائي كان قد وفد على الأندلس من المشرق حاملاً ذلك العلم الجليل في عهد الأمير محمد .

وطبيعي أن لا تكون عناية الأندلسيين بالعلوم الدينية قد قلت عن عنايتهم بغيرها من فروع المعرفة : كانت دراسة الحديث موضع العناية البالغة ، فظهر محدثون فقهاء متحققون بالحديث من أمثال محمد بن واضح ، وابن القوطية ، وقاسم بن أصبغ ، وابن أيمن — وغيرهم كثيرون — أقبلوا على المسانيد المتواترة كمسندى البخارى ومسلم ، وأكثروا من التأليف في شرحها . وبرع في القراءات والفسير مكي بن أبي طالب . وأما الفقه المالكي فقد برع فيه عدد لا يحصى ، نذكر منهم قاسم بن أصبغ وابن أبي زمنين . وظهر في الفقه الشافعي نفر كبير من تلاميذ بقى بن مخلد نذكر منهم أبا أمية الحجارى ؛ بل كان الأمير عبد الله ابن الناصر نفسه قد بلغ من ميله إلى الفقهاء أن تأمر على أبيه مع نفر منهم بما سار به إلى حتفه مع اثنين من أعلامهم^(٢٠) . وكان الخليفة يرعى بعنايته منذر بن سعيد البلوطى الظاهرى للذهب الذى مهد طريق الظاهرية لابن حزم ، وكان تسامح عبد الرحمن من السعة بحيث كان يُحضر مجالسه الخاصة الطيب اليهودى الذائع الصيت حسداى بن شبروط . وكان من نتائج هذه الرعاية التى أضفاها الناصر على حسداى أن بدأت الدراسات اليهودية فى إسبانيا ، ولم تلبث هذه البلاد أن أصبحت مركز الدراسات العبرية ؛ وكان من نتائج عناية حسداى بهذه الدراسات العبرية أن تحسن حال إخوانه فى الدين ، مما أتاح لليهود — فيما بعد — أن يقوموا بنصيب كبير فى الثقافة الأندلسية .

وكانت مكتبة القصر التي عني بها الناصر دليلاً واضحاً على الدرجة العالية التي بلغت الثقافة الأندلسية في عصره ؛ وقد تكونت منها ومن مكتبتى الأميرين محمد والحكم مجموعة الكتب العظيمة التي كانت موضع فخر الحكم المستنصر .

وكان الحكم الثانى (المستنصر ٣٥٠/٩٦١ — ٣٦٦/٩٧٦) أكثر الخلفاء الأندلسيين تسامحاً وحرية فكر . قال دوزى : لم يحكم إسبانيا يوماً من الأيام حاكم على هذه الدرجة من العلم ، نعم إن كل من جاءوا قبله من أمراء الأندلس وخلفائها كانوا رجالاً ذوي علم وولع بجمع الكتب ، ولكن أحداً منهم لم يطلب الكتب القيمة والنادرة بهذه المهمة : فكان له فى القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلفون باستنساخ كل الكتب القيمة قديمة كانت أو حديثة ، وكان قصره حافلاً بالكتب وأهلها حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمنمنات والرسوم الجميلة . وكان فهرست مكتبته يقع فى أربع وأربعين كراسة فى كل منها عشرون ورقة — على قول ، وخمسون على قول آخر — « ليس بها إلا أسماء الدواوين لا غير ، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائمه من كل قطر » . وقد قدر بعض المؤرخين عدد مجلداتها بما يربو على أربع مائة ألف كتاب ، قرأها الحكم كلها ، وعلق على معظمها ، وكان يكتب فى أول كل مجلد أو فى آخرها « نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن » (٢١) .

وكان الحكم أعلم الناس بتاريخ الأدب ، وكانت إشارات وتعليقاته حجة يرجع إليها علماء الأندلس ، بل كانت أخبار الكتب المؤلفة فى فارس والشام كثيراً ما تتصل بعلمه قبل أن يخرجها أصحابها . وقد انتهى إلى علمه مرة أن عالماً من علماء العراق — هو أبو الفرج الأصفهاني — معنى بجمع أخبار وأشعار لشعراء العرب ومغنيهم ، « فأرسل إليه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل

أن يخرج به في العراق [وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه مختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك]^(٢٢) ، وقد بعث الأصفهاني مع نسخة كتابه بقصيدة يمدح بها الخليفة وأردفها بمؤلف له في نسب بني أمية ، فكان أنه الحكم بمنحة أخرى . وعلى الجملة فقد كان كرم الحكم على علماء الأندلسيين لا يعرف حدوداً ، وكان لهم كذلك أثر ملحوظ في بلاطه ، إذ كان يقدمهم على كل من عداهم ويشملهم برعايته ، وشمل بفضل هذا الفلاسفة أيضاً «^(٢٣) . وأطلق الحكم للرياضيين والفلكيين الحرية في إذاعة علومهم في الناس ، ومن هنا ظهرت إلى الوجود مدرسة مسلة الجريطي في مدريد ؛ ومسألة هذا هو الذي أدخل رسائل إخوان الصفاء في الأندلس . ولقيت دراسة الطب عناية عظيمة بفضل أبي القاسم الزهراوي . وكذلك نهضت دراسة النبات على يد سليمان بن جُلجل . وكان الخليفة يُحضر مجالسَه ابنَ صلاح الله القرطبي [أحمد بن عبد الوهاب ابن يونس] المعروف بآرائه المعتزلية المنحرفة ، بسبب ما كانت تذهب إليه من تحكيم العقل في مسائل الشرع والعقيدة . كذلك كان الحكم يظلل بمجانيته نفراً من الشافعيين تحولوا إلى مذهب الاعتزال ، وكان يحتفظ في مكتبته بنسخة من « كتاب الأم » للشافعي ، وعليه وفد الأديب العالم المشرق النابه أبو علي القالي ، وكان رجلاً فذاً ذا أثر ملحوظ فيمن عاصره أو جاء بعده من أهل الأندلس وإلى جانب شخصية المنصور بن أبي عامر تلاشت شخصية الضعيف المتطامن هشام بن الحكم — الملقب بالمؤيد — الذي خلف أباه على عرش الأندلس (٩٧٦/٣٦٦ — ١٠٠٥/٣٩٦) . وقد اقتضت سياسة المنصور ورغبته في تأييد مركزه أن يضيف إلى من كان يؤازره من عناصر جيش الخلافة من المولدين والصقالة عنصرأ جديداً عظيم الخطر شديد التأييد له ، فكان جيشاً من البربر الذين جلبهم من إفريقية وجمع أزمة قيادتهم بيده وحده ، وتمكن بفضل هذا الجيش الجديد من أن يوقف كل تقدم للنصارى جنوبى نهر دُويرُة ، وتمكن

من الاستيلاء على ليون وشتت ياقب و برشلونة . واستبد بالأمر وحده ، وقهر
الأندلسيين على الطاعة لحكومة استبدادية عسكرية ، فكانت النتيجة أن
اضطربت نيران الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس بعيد وفاته وبعد أن تراخت
يده الحديدية . وكان من نتائج استبداده كذلك أن تعثرت الحضارة الأندلسية
في سيرها على أيامه . ولقد كان المنصور أول أمره شغوفاً بالفلسفة ، فأنكر منه
الفقهاء ذلك ، واستطاعوا أن يثيروا عليه غضب العامة ، فرأى — وهو السياسي
الكيّس البعيد للطامع — أن يضحي بشغفه في سبيل غايته ، وأمر بإحراق كل
ما كان في مكتبة القصر من كتب الفلسفة والفلك وغيرها من العلوم التي
لا يرضى عنها الفقهاء^(٢٤) ، حتى يستعيد حب الناس له . وهكذا أعاد إلى الفقهاء
ما كان لهم من قوة وسلطان ، فكان ذلك خطوة إلى الوراء (ومن نتائجه أن
اضطر المهندس النابه الذكر عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد — الملقب بـ « إقليدس
الأندلس » أو الإقليدسى — إلى أن يهجر وطنه) ، ولكن الفقهاء رغم ذلك لم
يستطيعوا اعتراض طريق الحركة العلمية التي عظم نشاطها على عصر ملوك الطوائف .
وكان الشعر الغنائى هو اللون الأدبى الذى غلب على غيره فى بلاط المنصور .
وقد بلغ من غلبته أن أنشئ ديوان خاص للشعراء ، جعلوا فيه طبقات ، وقدرت
جوائزهم على قدر مراتبهم ، فكانوا ينالون أجزل الصلات على ما ينشئون من
شعر غالبه المديح . وكان أبرز شخصيات هذه الدائرة الأدبية التي أحاط المنصور بها
نفسه صاعد البغدادي ، والرمادي ، والوزير أبو المغيرة بن حزم . وكان بينهم
كذلك شعراء يتحدث شعراً عن تشاؤم وسوء ظن بالدنيا ، مثل ابن أبي زمنين .
بل ظهر شعراء من بين الصقالبة ، وهم طبقة اجتماعية سيكون لها في تاريخ الأندلس
بعد سقوط الخلافة شأن عظيم . وإذا استثنينا بضعة فقهاء مالسكيين من طبقة ابن
الحدّاد [محمد بن يحيى بن أحمد] وبضعة مؤرخين من طراز ابن القرضى ، الذى
كان أول من وضع معاجم الرجال بالأندلس ، فإن عصر المنصور لا يمتاز بأى

شخصية من الطراز الأول في ميدان العلوم والفنون .

كانت ثورة قرطبة على أولاد المنصور والفتنة الكبرى التي أعقبتها قاضيتين على الخلافة . وقد تطاحت على دفة الأمور خلال هذه الفتنة المبيرة طوائف شتى كان كل منها يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة وإعادة الدولة وتسيير الأمور ، فقامت عقب سقوط الخلافة حكومة في قرطبة أشبه بحكومات البلديات (عام ٤٣١/١٠٣١) ؛ وانتهى تطاحن الطوائف إلى تحزبها خلال أدوار الفتنة الأهلية في طوائف ثلاث متعادلة فيما بينها : البربر وقد استولوا على الجزء الجنوبي من الأندلس ، والصقالبة وقد انحازوا إلى شرقه واستبدوا به ، والأندلسيين وقد أقاموا دولهم فيما بقي للمسلمين من الجزيرة .

ولم يلبث بعض هذه الدويلات الناجمة أن صارت إلى جبرانها واختفت دون أن تخلف أى أثر يذكر في التاريخ الأدبي ، بينما استطاع بعضها الآخر البقاء في الميدان ، وقامت بينها منافسة حامية في ميادين العلوم والآداب . ونشأ عن هذا التنافس أن نهضت الآداب نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلامي . وقد كان هذا الازدهار نتيجة لعوامل أخرى كثيرة ، أهمها أن عصرى الإمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع من فروع الدراسات واختمرت اختاراً طويلاً ، وثانيها أن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتى نواحي الأندلس ، وكذلك تفرقت في كل ناحية مجموعات الكتب التي كانت مخزنة في مكتبات قرطبة ، وثالثها تلك الحرية التي أباحها ملوك الطوائف في شتى نواحي الحياة الاجتماعية بما فيها الناحية الدينية . وليس معنى هذا أن الفقهاء انصرفوا عما كانوا يتمسكون به من سلطان ، واكتفوا لم يحفلوا للأمر كثيراً في ذلك العصر المضطرب ؛ ولم يكن يخطر لهم ببال أن المقادير ستتيح لهم من جديد فرصة الأخذ بالتأثر في ظلال المرابطين ، فينزولون بنحوصهم أشد الانتقام .

ففي قرطبة — حيث صارت مقاليد الحكم إلى الوزير الشاعر أبي الحزم بن جهور — ظهر ابن حزم صاحب التوايف الكثيرة في كل فن ، وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين في تاريخ الأندلس . وإن التأمل في مؤلفاته وما تحويه من مادة غزيرة ليرى بوضوح أن ذلك الإنتاج الحافل لا يمكن أن يصدر إلا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغاً عظيماً . فذلك التحليل النغمي الدقيق الذي يتجلى في كتابه « طوق الحمامة » ، وهذه الملاحظات الشخصية النافذة على الرجال وأخلاقهم التي يبيدها في كتاب « الخصال » ، ذلك كله يتحدث عن بيئة ذات حضارة عالية . فأما تاريخ الأديان الذي ألفه باسم « الفصل في الملل والنحل » فقد سبق به أوروبا النصرانية ببضعة قرون — كما يقول بحق أستاذه ميغيل آسين بلاثيوس — لأن التاريخ للأديان لم يعرف في الغرب إلا في منتصف القرن التاسع عشر . أما مذهبه الفقهي « الظاهري » الذي يقوم على التفسير الحرفي للقرآن ، فلم يجد عند فقهاء عصره قبولاً ، بل تعقبوه في عنف وضيقوا عليه الخناق ، ولكن ابن حزم كان قد بعث فيه من الحيوية ما يمكن له من البقاء دهرًا طويلاً ، رغم إنكار الفقهاء له . وكانت لابن حزم مساجلات ومجادلات حامية اضطرت إلى خوضها مع الفقهاء دفاعاً عن آرائه ، ونخص بالذكر مجالس الجدل التي دارت بينه وبين أبي الوليد الباجي الفقيه الأشعري المعروف ، فقد ظل صداها يتردد في جوانب العالم الإسلامي دهرًا طويلاً ؛ وهي تدل على مواهب ابن حزم ولسانه الحاد اللاذع .

وأخمل ابن زيدون — ذلك الغرّيد الموله في ولادة — ذكر الكثيرين من معاصريه بمن كانوا أقل شأنًا منه كالحميدى ؛ وظهر مؤرخون مثل ابن حيان المحقق ذى الأسلوب القوى الجميل . ولم ينبج الأندلس بعد هذين من أربى عليهما في ميدانيهما . كذلك دام للمالكية جاهها في الأندلس بفضل فقهاء من طبقة ابن الطَّلَّاع .

ولم يتح للأدب أن يصل إلى مستوى رفيع في غرناطة ، لأن أصحاب الأسر فيها كانوا من طوائف العرب ؛ ومع ذلك فقد ظهر في سماءها من أعلام الأدب والعلم غرباء عن الأندلس — مثل المغامر المشرق أبي الفتوح الجرجاني ، وكان شاعراً فيلسوفاً فلسكياً — ورجال من جنس ولغة آخرين — مثل اليهودي صمويل بن النغدة ، الذي ارتقى بالدراسات العبرية في الأندلس إلى أوج بعيد — وأندلسيون مثل الفقيه أبي إسحاق الإلبيري الذي دفع أهل زمانه إلى خلع نير يوسف بن صمويل بن النغدة . أما الشعراء والكتّاب ذوو المواهب العالية من أهل غرناطة فقد اضطروا إلى اللجوء إلى بلاط المرية .

وعاش في المرية في أول عصر الطوائف الوزير أحمد بن عباس ، وكان رجلاً فذاً معنياً بالعلم وأهله ، وكانت له مكتبة تضم أربعائة ألف مجلد . وقد أدركت المرية أوجها الأدبي في عصر أميرها المعتصم بن صمادح (١٠٥١ / ٥٤٦ — ١٠٨٧ / ١٠٩١) ، الذي كان راعياً صادقاً للأدب والفنون والعلوم ، فالتف حوله شعراء مثل ابن شرف البرنجي ، وابن أخت غانم ، وابن الحداد الوادي آشي والسبسر الإلبيري . وكان أولاد المعتصم هذا — وهم أبو جعفر ، وعز الدولة ، ورفيع الدولة ، وأم السكرام — شعراء كلهم . كذلك عاش في بلاطه علماء مثل أبي عبيد البكري الأديب ، وكان من طلائع الجغرافيين المسلمين .

وكان الحال في إشبيلية شبيهاً بما كان عليه في « المرية » إذ طغى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب في ظل بني عباد . ولقد كان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء ، ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب . وقد وصلت الحمريات وشعر النسيب والغزل أعلى درجات الكمال في ذلك البلاط المصقول ، حيث عجز شعراء مجيدون — من طبقة علي بن حصن ، وابن حمديس الصقلي ، وأبي بكر بن زيدون ، وأبي بكر بن اللبانة ، وغيرهم كثيرون — عن إدراك ما وصل إليه ابن عمار وزير المعتمد النابه الذكر المنكود

الحظ ، من تحليق بعيد في سماء الشعر . وقصروا كذلك في ملاحظة « اعتماد » نفسها — زوج المعتمد وجارية رميك التاجر الإشبيلي قبله — فضلاً عن مجازاة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من رائع القصيد . والحق أن المعتمد وفق — في أيام سعوده ومجده — إلى درجة من التجويد مكنت له من أن يصل بشعره — في أبواب الغزل ، ووصف مجالس السرور ، ووصف الحرب والنصر — إلى آفاق استدرت إعجاب البدو أنفسهم . فلما تنكرت له الأيام ، وعانى أوصاب السجن والموان ، أخذت نفسه الفنانة تجود بدرر من الشعر لا زالت تثير في أنفسنا — إلى اليوم — الإجلال لهذا الملك الفارس الشهم الكريم .

أما بنو الأفطس ، أصحاب بطليوس ، فقد استطاعوا هم الآخرون أن يرتفعوا بالثقافة في قطرهم إلى أوج رفيع ؛ وتمكن المظفر بن الأفطس أن يجمع من مكتبته الخاصة مواد موسوعته « المظفرية » الذائمة الصيت . وقد ضم ديوان المظفر هذا ابن عبد البر أعلم أهل غرب الأندلس في زمانه بالحديث ، وكان إلى ذلك شاعراً قادراً على نهج القدماء . وفي بلاط بنى الأفطس عاش عبد المجيد بن عبدون الشاعر ، ومن مآثره تلك القصيدة التي رثى فيها بنى الأفطس لما أصابهم على أيدي المرابطين ، وهي قصيدة رصينة الصياغة إلا أنها فاترة الروح مدرسية المنهج .

وأما في طليطلة ، حيث نشر بنو ذى النون سلطانهم ، فقد طغى التأليف العلمى على ما عداه . ففي هذا البلد عاش الزرقالى ، أبرع من أنجب الأندلس من علماء الفلك ، ووضع نظرياته العلمية . وكان أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش فيلسوفاً ورياضياً . أما ابن وافد (Eben Guefet) عند مترجيه إلى العبرية واللاتينية) فكان من أوسع أطباء أهل زمانه علماً بالطب . وقد مارس هذا الفن كذلك محمد النيمى ، وكان يلقنه لطلبته بطريقة عملية تجريبية (إكلينيكية) . وكان من نابهي شعراء هذه المملكة « ابن أرفع رأسه » وعاش في طليطلة كذلك نحويون مجيدون كأبى الوليد الوقشى ، وأصحاب وثائق وشروط متمكنون من

تحرير العقود ، كابن مغيث . وأطاعت طليطلة إلى جانب هؤلاء مؤرخين نابهن ،
مثل صاعد الطليطلى والحجبارى .

وكان الحال فى سرقسطة شبيهاً بذلك : إذ كان المقتدر والمؤمن — من
بنى هود — من أنصار العلوم ومن المتجردين لرعايتها فى خمس ، وخاصة الفلسفة
والرياضيات والفلك . وقد ألف « المؤمن » كتاباً فى هذا العلم الأخير علق عليه
موسى بن ميمون . وعلى سرقسطة وفد فلاسفة كابن جبيرول وابن باجة ؛ ولقيت
رسائل إخوان الصفاء إقبالا عظيماً من أهلها ، وكان الكرماني قد حملها من
المشرق ؛ وفى ربوع سرقسطة عاش أبو بكر الطرطوشى صاحب الكتاب
اللطيف المسمى « سراج الملوك » .

وساد الشعراء فى بلنسية ومرسية على من عدام من أهل العلم والأدب ؛
فكان منهم عبد الجليل بن وهبون المرسى صاحب القصيدة المعروفة عن وقعة
الزلاقة ، وأبو عيسى بن لبثون الأديب صاحب بلدة مريبطر ، والوقشي الذى صور
الدمار الذى أنزله السيد « التميمي طور » ببلنسية ، وابن خفاجة صاحب الحمريات
الطائرة الصيت والمبدع فى شعر الغزل ووصف مجالس الأنس والسرور . ولم يخل
هذا الإقليم كذلك من رجال متضلعين فى فنون أدبية أخرى ، مثل أبى الحسن
على بن إسماعيل المعروف بابن سيده صاحب « المختص » المعروف .

بيد أن انتشار عقد الأندلس وتفرق أمره فى دول الطوائف ، كان فى ذاته
سبب ضياع أمره . لأن هذه الدويلات الصغيرة كانت على حال من الضعف
لم تستطع معها أن تثبت لهجات النصرارى الذين انتهجوا خطة تختلف عما كان
عليه المسلمون إذ ذاك ، واتجهوا إلى توحيد قوام أمام المسلمين الذين لم تتوقف

الخصومات بينهم أبدا؛ بل لقد أصبح ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة (٤٧٨ / ١٠٨٥) في مركز مكنّ له من أن يعين بعض ملوك الطوائف على بعض ، ويتدخل في شؤون مملكة بلنسية ، وعظمت قوته واشتد خطره على المسلمين حتى خافه المعتمد ودخل في ولائه وزوّجه إحدى بناته^(٢٥) . وكان الفقهاء يعتقدون أن سبب اضمحلال البلاد إنما هو انصراف أمراء الطوائف عن الدين وحدوده ، فأملوا — لهذا — أن تصلح الحال إذا استعانوا بالرابطين . وعارض الأمراء في الاستعانة بهم ما استطاعوا المعارضة ، إذ أنهم توجسوا شرا من مزاحمتهم لهم على السلطان في الأندلس ، ولسكن الغالب أن جمهور الناس ألحوا في استخدام المرابطين ، وتوجه بالفعل وفد مؤلف من قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة ووزير إشبيلية أبي بكر بن زيدون إلى إفريقية وقابلوا يوسف بن تاشفين واستصرخوه لنجدة الأندلس ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

وعبر يوسف إلى إسبانيا ثلاث مرات ، وأخذت تنعقد حوله وهو منصرف إلى الحرب في الأندلس شباك تديرين في وقت واحد : الأول دبره ملوك الطوائف للإيقاع به وأذاه ؛ وعقد أطراف الثانی الفقهاء ورموا من ورائه إلى إسلام الأندلس جملةً إلى يوسف بن تاشفين . واجتهد الفقهاء في ذلك ، وسعوا بأمراء الطوائف ، وتكلموا مع الأمير في خلعهم ؛ وانتهى الأمر باقتناعه برأيهم ، وعقد النية على استئزال أمراء الطوائف الأندلسيين عن عروشهم ، إذ تبين عجزهم عن مقاومة النصارى . ووجد أن جمهوراً كبيراً من الناس يؤيده في هذا العمل ، فاستصدر من الفقهاء فتوى بعدم صلاحية ملوك الطوائف للحكم وضرورة عزلهم ، ولم يلبث الأندلس جميعه أن دخل في دولة المرابطين .

كان إعجاب دوزى بملوك الطوائف لا يكاد يعرف حداً ، بل بلغ به الإعجاب
ببنى عباد أصحاب إشبيلية مبلغ الوله الشديد ، ومن ثم صور استيلاء المرابطين على
ممالك الطوائف تصويراً حالاً السواد : فجعل هؤلاء الأفارقة متبربرين أغاروا
على البلاد وقضوا على الأزهار الحضارى الفكرى الذى تمتعت به فى عصر الطوائف .
وقد استند دوزى إلى عبارة قصد بها عبد الواحد المراكشى المؤرخ على بن يوسف
وحده ، ولكن دوزى عظمها فجعلها تشمل المرابطين أجمعين ، وهذه العبارة هى :
« واختلّت حال أمير المسلمين [على بن يوسف بن تاشفين] رحمه الله بعد
الحميئة اختلافاً شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة : وذلك لاستيلاء أكابر
المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار
كل منهم يصرح أنه خير من أمير المسلمين وأحق بالبلاد منه . واستولى النساء
على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة
ومشوفة مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ،
وأمير المسلمين — فى ذلك كله — يتزايد تفاوله ، ويقوى ضعفه ؛ وقنع باسم امرأة
المسلمين وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، (فكان يقوم
الليل ، ويمصوم النهار مشتهراً عنه ذلك ، وأهل أمور الرعية غاية الإهمال) :
فاختل عليه — لذلك — كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها
الأولى ، لا سيما بعد أن قامت دولة الموحدين بالسوس » (٢٦) .

وقد كانت مبالغات دوزى السبب الذى دفع أستاذ المستعربين الإسباني
« فرانشيسكو قديره » إلى أن يرد عليه ويستخرج — بدقته للمهودة — العدد
الضخم من العلماء ، وأهل الآداب ، الذين تألق نورهم فى هذه الفترة ، ويثبت بهذا
خطأ وصف هذه الفترة بأنها فترة متبربرة (٢٧) .

وإليك نص ما يقوله دوزى عن الشعر (فى هذه الفترة) : « وإن أشد

ما يصدمنا في ذلك الشعر ما يسوده من روح الاستسلام الديني ، مع ما كان عليه الشعر الأندلسي من القوة والحياة قبل ذلك حين كان دنيوياً خالصاً يتحدث عن متاع الدنيا كله ، ولم تكن لتغالبه أفكار أخروية ، وكان الشعراء يتغنون بالبحر وألوان اللهو دون أن يحفلوا للدين وأهله . فكان شعرهم حياً لا يعتجّب إلا بالنشاط والحركة ، وكان الشاعر فخوراً بموهبته ، مدركاً لخطورة شأنه ، فكان يتعرض لأخطاء الأمراء بالنقد دون خوف . وكان يستثير حرارة كل تلك الخصال التي كان العرب يرون فيها نبلاً وجمالاً . وكان الحال على العكس من ذلك في حكم عليّ المرابطي : ففي ظل هذا الرجل التافه حلت النساء والفقهاء محل كبار الناس وأشرفهم . وكان الشعر صورة صادقة للعصر ، فانتقل من القوة وخلو البال والخفة واللهو إلى الجبن والجفاف والحزن والتدين . وكانت هذه الأزمان من السوء بحيث أخذت العيون ترتفع عن الأرض إلى السماء . كان أهل هذا الزمان يقاسون ويستسلمون ، في حين كان أهل العصر الذي سبقه يغالبون المقادير ؛ واختفت — لهذا — الصور الشعرية الجميلة . فإذا تصدى الشعراء للصور القديمة يحاولون تقليدها لم يلبثوا أن يتخبطوا في السخف والابتذال ، ولم تعد نسمع غير مدائح عقيمة لصاحب الأمر الذي كان معتبراً رمزاً للألوهية ولروح التقى المتصنع المبالغ فيه ، وصاحب هذا — جنباً إلى جنب — فساد شامل للعادات وانقلاب كامل لمنظما المجتمع » (٢٨) .

ونقبن مبالغة دوزي [في تشويه صورة العصر المرابطي] إذا عرفنا أن من أبناء هذا العصر ابن قزمان أجزأ شعراء الأندلس ، وحينما نرى أن ابن قزمان لم يتفرد وحده بتلك الجرأة ، بل كان له تلاميذ وأتباع عديدون . ونستطيع أن نعارض كلام دوزي بكلام أستاذي خُليان ريبيرا في مقاله عن ابن قزمان ؛ قال : « استقرت في عقول الناس [عن العصر المرابطي] صورة خيالية (أي غير

واقعية) لشعب متعصب ، عدو للفلسفة ، منحرف إلى اضطهاد الناس ؛ وذلك نتيجة لما تعود الناس أن يقرأوه من أوصاف لتاريخ هذا العصر وأحوال الدين فيه ، كتبها فقهاء . ولكن هذا الشعر (أى شعر ابن قزمان) يحمل إلينا نسima جديداً ، فهو غريب فى روحه يحمل إلينا نفحات من أجواء المجتمع العليا والدنيا . ونحن ننظر فيه بأوضح الإشارات عن هذا المجتمع الذى كان مدركاً لنفسه ، فخوراً بثقافته الأدبية المهذبة ، رغم تفرق أسرته وضياع وحدته . ولقد توافق على ذلك الزمان الأوجُ الثقافى الأدبى وأقوى درجات الاضمحلال السياسى والاجتماعى . وإن تأمل أحوال الأندلس — إذ ذاك — لبوحي إلينا بكثير من الخواطر : إذ أنه من الصعب أن نجد فترة من التاريخ الإسباني تألق فيها مثل هذا العدد من عباقرة عظماء من هذا الطراز : مفكرين وشعراء وأهل أدب ورجال علم . ويصعب جدا — كذلك — أن نجد فترة تضارع هذه فى التفكك السياسى ، وفى الأهمية الاجتماعية . فهذا الشعب ، الذى بلغ هذا المبلغ من الثقافة ، قد ترك قياده السياسى والدفاع عن أرضه إلى جموع من الأفارقة هم المرابطون .

« فى ذلك العصر وصل الإسبان من أهل الجنوب^(٢٩) (أى الأندلسيين) إلى أعلى درجات الإزهار الأدبى ، بل كان لهم أدب شعبى يجرى على أساليب أوروبية : كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية — « كعيد يناير » و « عيد القديس يوحنا » — ويسيرون أعمال زراعتهم وغيرها مما تمس إليه حاجاتهم بمقتضى التقويم الأوروبى . ثم إنهم كانوا — كما رأينا — يتحدثون لغة أوروبية ، ويدبرون أغانيهم حول مواضيع أوروبية ، ولما كانوا هم الشعب الأوروبى الوحيد الذى أزهرت عنده الفنون بشق صنوفها ، والآداب والفلسفة وغيرها إزهاراً عظيماً ، فقد أصبحوا — بهذا — المثل الذى يُحتذى ، وسوق ثمرات الفكر المقصود . وحينما نهضت أوروبا نهضتها الفلسفية والفنية والعلمية والأدبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كان الأندلسيون من أكبر شعوب

أوروبا أثرًا في الفلسفة والفلك والطب والقصص وشعر الملاحم وما إلى ذلك . ولم تزل الآثار العميقة التي خلفتها هذه النهضة إلا حينما ترددت في جوانب أوروبا هتافات النهضة الإغريقية»^(٢٠) .

والتحليل (العلمى) يؤيد ريبيرا فيما يذهب إليه . نعم إن الواقع أن شعراء هذا العصر لم يتفوقوا على غيرهم ، ولكن الواقع كذلك أن فنونا أدبية كبرى وصلت إلى أرفع درجات تطورها خلاله . ونستطيع أن نذكر من نبغ في النقد الأدبي أبا الفتح بن خاقان وأبا الحسن بن بستم ، اللذين درسا شعر عصرهما وشعر القرن الذى سبقه ، دون أن يعرضا للتيار الشعرى الشعبى الدارج الذى يمثله ديوان ابن قزمان وجميع الرجالين الآخرين الذين لا يحصيهم العدد . وظهرت في ميدان التاريخ مؤلفات ابن بشكوال والضبى ، ومؤلفات أخرى كثيرة في تواريخ النواحي . ويمكننا أن نذكر من بين كُتّاب التراجم الكثيرين ابن خير . وأما الجغرافية فقد اتسعت ثروتها بما انضاف إليها من مؤلفات أبى حامد القرناطى والإدريسى . وفي ميدان الفلسفة بدأ ابن باجة دراسات أرسططاليس . وبرع في الرياضيات ابن مسعود وابن سهل الضرير وجبر بن أفلح الإشبلى . وفي ميدان الطب نبغ أبو الصلت الدانى وابن باجة ومعاونه سفيان الأندلسى . وفي ذلك الوقت بدأ نجم ابنى زهر — أبى سروان وأبى العلا — يظهر . أما فى عالم الفقه فقد ظهر ابن أبى الخصال والقاضى عياض بن موسى . وظهر فى دراسات الحديث الرشاطى ، وفى النحو ابن الباذش وفى علوم الدين أبو بكر بن العربى تلميذ الغزالى الذائع الصيت .

* * *

وكانت الأسباب السياسية والاجتماعية التى أدت إلى الغزوة الموحدية شبيهة بتلك التى سببت ذهاب دول الطوائف ، وقد قلنا فى موضع آخر إن « الأندلسيين حينما وجدوا أنفسهم حيال حكومة ضعيفة فاسدة وقوة حرية تضعفمت وانكسرت شوكتها ، وحينما رأوا كساد تجارتهم وصناعاتهم وأحسوا أنهم فريسة

الغلاء وغزوات النصارى ، أخذوا يلعنون هؤلاء المرابطين الذين كانوا قد رجوا الخلاص على أيديهم ، وبلغ بهم الأمر أن سألو سيف الدولة — آخر بني هود وحليف الإمبراطور ألفونسو السادس — في سنة ١١٣٥/٥٣٠ أن يتفق مع ملك قشتالة على أن يعينهم على التخلص من المرابطين ، لقاء جزية ثقيلة يؤدونها له » (٣١) .

وحوالى منتصف القرن الثانى عشر ، كان الموحدون قد أصبحوا سادة الجزء كبير من مراکش ، يقودهم محمد بن تومرت الذى تسمى بالمهدى — أى « المسيح » الذى وعد النبى محمد بظهوره (٣٢) . وفى ذلك الحين كانت نيران الثورة على المرابطين تتأجج فى نواحي الأندلس جميعها ، وكان يقودها ابن قسى المرتضى تعينه طائفة من المتصوفة يسمون « المرابين » ، كان قد أنشأها أبو العباس بن العريف فى التريّة ، فاستنجد ابن قسى بعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدون وحصل على معاونته . ولم يلبث الموحدون أن احتلوا ما بقى فى أيدي المسلمين من الأندلس . ولم يتوقف تقدم الآداب فى أثناء ذلك كله ، بل بلغ من كثرة الشعراء الذين هنا وأبا يوسف يعقوب الفصور بقصائد من الشعر النصيح أو الزجل الدارج أن أسر بالآ نشدوه إلا اليتيم الأولين من قصائدهم . ومن ظهر فى هذا العصر أبو جعفر ابن سعيد صاحب النسيب المعروف فى حفصة الركونية ، وعبد الرحمن الشهبلى ، وأبو الحسين محمد بن جبير ، وأبو البقاء الرندى ، وابن الأبار ، وكلهم شعراء لهم مقامهم فى الشعر الأندلسى . وقام عقيل بن عطية ، وأبو العباس أحمد الشريشى بشرح مقامات الحريرى . وتبع فى التاريخ ابن الأبار ، وفى الجغرافية ابن جبير ، وفى الفلك البطروجى (Alpetragius) (٣٣) ، وفى الطب بنوزهر . وبرع ابن البيطار (ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد) فى النبات ، وابن قُرْطُل [أبو إسحاق إبراهيم] وابن الأقلشى [أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبى الزاهد] — وغيرها كثيرون — فى علوم الشرع ، وأبو على الشلوينى وابن السيد البطليوسى فى

النحو . وكانت الفلسفة أوفر نواحي الثقافة الإسلامية حظاً من العناية في عصر الموحدين^(٣١) . وقد غلب على هذه الفلسفة طابعان : الأول أرسطى يمثل ابن باجه وأبو بكر ابن طفيل وأبو الوليد بن رشد خاصة ، وهذا الأخير هو صاحب الفضل فيما عرفته معاهد الدرس في أوروبا النصرانية من كتابات أرسطو ، وكان — أى ابن رشد — رجلاً متديناً صرف همه إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ؛ والثاني أفلاطونى حديث يمثله محيى الدين بن عربى المتصوف « الخائر الجوال » الذى ترك آثاراً فى داخل العالم الإسلامى (نلاحظها عند ابن سبعين مثلاً) وخارجه (نلاحظها عند دانتي ورايموندو لؤلؤ) . ولسكى نستوفى الكلام عن ارتفاع شأن العلوم فى الأندلس فى القرن الثانى عشر الميلادى لا بد لنا من الإلمام بذكر محيى (يهودا) بن ليفى الذى انتفع بالفلسفة فى تفهم العقيدة الموسوية وشرح أصولها ، وموسى بن ميمون الذى اجتهد فى أن يؤدى للدين اليهودى مثل ما آداه ابن رشد للإسلام فيما يختص بعلاقتهما بالفلسفة . ولنذكر كذلك أن مؤلفات مفكرى المسلمين كانت تترجم إلى اللاتينية إذ ذاك فى طليطلة ، وكان هذا هو الطريق الذى انتقلت عن سبيله علوم اليونان وثورتها الفكرية إلى مدارس الغرب . وقد استمر هذا التأثير الإسلامى حياً فعلاً حتى عصر ألفونسو العاشر ، الذى يدين للثقافة الإسلامية بالشىء الكثير .

ومن منتصف القرن الثانى عشر الميلادى انكشفت دولة الإسلام فى الجزيرة واقتصرت على مملكة غرناطة ، وكان استغلاب النصارى للجانب الأكبر من الأندلس الإسلامى قد دفع علماءه — بصورة عامة — إلى الهجرة إلى سراكش وبلاد المشرق ، حيث استقروا ومضوا يذشرون علومهم ، وطار صيتهم . وهكذا رد الأندلس إلى المشرق ما أسلف إليه فى الأعصر الخالية .

ظل مستوى الثقافة رفيعاً فى مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، فعاش فى بلادها شعراء من طراز ابن سعيد المغربى ، وأثير الدين أبى

حيان ، ولسان الدين بن الخطيب يسترجعون ذكريات الأزمن الزاهرة الخوالى ويميدون إلى نفوسنا ذكراها . ونبغ فيها مؤرخون كابن الخطيب وابن خلدون ، ورحالون كالعبدري [رزين بن معاوية] وابن رُشيد [أبى عبد الله محمد بن عمر] ، ورياضيون كابن البناء [أبى العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي] الذى لازال كتابه « التلخيص فى أعمال الحساب » متدارساً فى جامعة فاس إلى اليوم ، أو كارقوطى [أبى بكر محمد بن أحمد] الذى قيس ألفونسو الحكيم من معارفه الشيء الكثير . وظهر فيها نحويون مثل أنير الدين أبى حيان ، الذى هجر إلى المشرق وأقام فيه بقية حياته ينشر علومه : فقد كان إلى جانب نبوغه فى النحو متحققاً بطائفة كبيرة من علوم الإسلام . وتجلى فى غرناطة كذلك علماء فى الشرع مثل محمد بن أحمد بن حرب وأبى بكر محمد بن عاصم ، الذى لازال كتابه « التحفة » متدارساً متداولاً فى فاس إلى اليوم كذلك . وظهر فيها محدثون مثل ابن سيد الناس وعمر بن نور الدين الأنصارى الذى انتقل إلى القاهرة وصار أستاذاً بها . هؤلاء جميعاً كانوا أعلاماً على قوة الحيوية التى كانت تتوفز فى كيان الثقافة الأندلسية الإسلامية ، فقد استطاعت هذه الآداب البقاء رغم قلة ما كانت تستطيع دويلة غرناطة الصغيرة أن تهيبه لها ولأصحابها من ظروف ملائمة للانتعاش ، بسبب ما كانت فيه من كفاح دائم مع النصارى .

وبعد سقوط غرناطة ، يتجلى لنا شقاء اللوريسكيين الاجتماعى فيما خلقوه لنا من أدب قليل فقير ، لا يحمل من العربية إلا أحرف مجاثها : إذ أنهم جهلوا العربية ، ولم يعودوا يعرفون غير الإسبانية ، فكتبوا بها ما عنّ لهم تدوينه ، وسجلوه بحروف عربية ؛ وهذا ما يعرف بالأدب الخُمَيَّادى أى المستعجمى . ومعظم ما لدينا من هذا الأدب مؤلفات دينية ، وكتب خرافات ، وكتب فى الشرع ؛ ولم يخل هذا الأدب من شعر مثل « فصيدة يوسف » و « تاريخ نسب الرسول » ، ولكن أهم عناصره كانت الأساطير والقصص ، مترجمة أو مقتبسة من أصول عربية .

وكان هذا من غير شك هو السبيل الذي انتقلت به إلى إسبانيا النصرانية ثروة
تصصية شرقيه كبرى ، نرى أوضح نماذجها في قصص ألف ليلة .

وقد بلغ من صدق الأدب الإسباني العربي الباهر أن تأثيره لم يقف عند
الحدود السياسية لدولة الإسلام في الأندلس ، ولهذا لم يقتصر على المسلمين وحدهم ، بل
كان له أثر بعيد عند المستعربين واليهود . فلم تسكد أسس الدراسات التلمودية
تستقر في الأندلس — بفضل ذلك الجهد الوافر الذي بذله حسداى بن شبروط
(٣٣٤ / ٩٤٥ — ٣٦٠ / ٩٧٠) — حتى أخذ الشعر العبري الحديث يظهر
إلى الوجود ويفصح عن نفسه مقلداً لنماذج من الشعر العربي ، وحتى نجد أوائل كتب
النحو العبري الرئيسية تظهر مكتوبة بالعربية (كما نجد في مؤلفات أبي زكريا
حيوج) ، ونجد كذلك ابن جبيرول ، أول فيلسوف يهودى ، يؤلف كتابه المسمى
« ينبوع الحياة » بالعربية ويقتبس مادته عن أصل عربى ، بل إننا نجد أنه كان
يقلد شعراء العرب فيما نظم من الشعر . وبُلغة العرب كذلك كتب بجميا بن فاقوذا
رسائله في الأخلاق والتصوف المسماة « الهداية إلى فرائض القلوب » . وبها ألف
أبو عمر يوسف بن صديق ، وكتب يهودا هاليثى كتابه المسمى « الخزرى » ،
واستعملها إبراهيم بن داود الطليطل ، وإبراهيم بن عنزرا^(٣٥) ، وموسى بن ميون ؛
بل إن الأفكار التى تدور حولها كتابات هؤلاء كلها عربية . وظل اليهود —
بعد زوال سلطان العرب عن البلاد بزمان طويل — يتدارسون الكتب العربية ،
ويترجمونها إلى العبرية فى همة يتجلى فيها إعزازهم العميق لها ، فاستطاعوا بذلك
الجهد أن يحتفظوا لنا فى أحيان كثيرة بترجمات عبرية للكثير مما ضاعت أصوله
من آثار الأندلسيين . بل إن أسراً يهودية — كبنى طيبون الووليين (نسبة إلى
لونل Lunel ، بلدة بجنوى فرنسا) — كرست جهودها كلها لذلك العمل
الحمود ، ألا وهو إذاعة الكتب العربية بين الناس .

وكان للأدب العربي الأندلسي في النصارى نفس الأثر الذى كان له في اليهود ، إذ كان أولئك النصارى خيرانا للمسلمين الأندلسيين ربطهم بهم الأسباب المتصلة زمانا بعد زمان ، ولم تقتصر علاقاتهما على الحرب بل قامت بينهما صلات سلمية أيضاً . وعن طريق هذه العلاقات عرف نصارى الشمال ما كان للمسلمين في الجنوب من نظم سياسية وإدارية ودينية وتجارية ، وتنبهوا إلى قدرها ، وكان من الطبيعى أن يميلوا إلى النسيج على منوالها . وعند ما كتب للنصارى التوفيق في حربهم الطويلة مع المسلمين — التى يسميها كتابهم بحرب الاسترداد La Reconquista — وتمكنوا من احتلال طليطلة عام ١٠٨٥/٤٧٨ وتقرير مصير الجزيرة بذلك ، أخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم ، بنقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم ؛ ومن ثم ظهرت في طليطلة « مدرسة المترجمين » المشهورة ، التى نقلت العلوم الإغريقية وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوروبية . وقد كان دافع النصارى إلى تدارس كتب العرب في بعض الأحيان هو الدفاع عن النصرانية ، أى الرغبة في تعرف آراء خصومهم من المسلمين لكي يستطيعوا مجادلتها وإظهار فضل عقيدتهم عليها . ومن هذا الفريق من النصارى — الذين اهتموا بدراسة لغة العرب وعلومهم — راييموندو مارنين ، ورايموندو لوليو ، والقديس پدرو بشكوال ، وغيرهم كثيرون من المتصدين للزيادة عن المسيحية من كتاب الإسبان . وفي أحيان أخرى ، نجد أثر العرب عند كتاب النصارى أعمق وأوسع مدى : فنجد في كتاباتهم طابع الفكر العربى وروحه ، دون أن نستطيع أن نتعرف أسلوبهم في المحاكاة على نحو واضح ملموس . ومن هذا الطراز دانتي البجيري الذى انتفع انتفاعا عظيما بالأساطير الإسلامية المتعلقة بقيام الساعة وأوصاف الدار الأخرى في إنشاء الكوميديا الإلهية الخالدة .

وبلغ الاهتمام بدراسة علوم العرب — من فلك ورياضيات وطب — أوجه

في إسبانيا النصرانية في عهد ألفونسو العاشر ، فترجوا « القرآن » و « النملود » و « القَبالة » ، وتداولت أيديهم كتباً عربية في الحكم والألغاز نقل أصحابها فيها حشداً من آراء فلاسفة العرب ومفكرهم ، (كما نجد في كتابي بونيوم وبوريدات) . ونقلت عن العربية كتب في الألعاب — كالشطرنج — واستعمات الموسيقى الأندلسية في صياغة الأغاني الإسبانية المعروفة بالكَنَنِيجات ، وذاعت بينهم ترجمات لكتب عربية مشرقية في الحكمة (مثل كليلة ودمنة) ، والقصص (مثل السندباد) عرفها الناس عن طريق صورها العربية ، وأنشئت مدرسة للدراسات العليا في سرسية ثم أخرى في إشبيلية ، واجتمع في هاتين المدرستين أعلام العلماء من المسلمين والنصارى واليهود ؛ وكان يشرف على هذا العمل الضخم ذلك الملك الذي استحق من التاريخ لقب « السابِيُو » ، أى العالم .

وانتشرت الأساطير والقصص الشرقية على عجل : فتجد إلى جانب « ألف

ليلة وليلة » و « السندباد » كتاب « سلوك رجال الدين » *Disciplina Clericalis* لبيدرو ألفونسو *Pedro Alfonso* ، وصوراً مختلفة لقصة بوذا (نجد نموذجاً منها في برلام ويوسافات) ، وكلها انتشرت وذاعت في أوروبا عن طريق ترجماتها العربية . وإن أسماء مثل خَوَانْ مَانُوِيل ، و (رايموندو) لوليو ، وتورميديا ، لتشهد بأجلى بيان على ما ساهم به العرب في تكوين القصص الإسباني . ويكاد يكون من المحقق أن مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة العربية قد أخذت سبيلها إلى الغرب عن طريق إسبانيا ، بدليل ما كان متداولاً منها بين مسلمى الأندلس ، وما أخذه نصاراهم عنهم منها . وكانت هناك كذلك قصص عربية فياضة بالحيوية كقصة « حى بن يقظان » لابن طفيل ، التي تعتبر نموذجاً للقصة الفلسفية ، وكالفصول الأولى من كتاب « الكريتيكون » لبالازار جرائان .

ومن الثابت أن المسلمين الأندلسيين تداولوا قصصاً ذا طابع غنائى ضاع كله ، فكانت لهم أغنيات وأساطير لها أثر ملحوظ في نشأة شعر الملاحم الإسباني

والفرنسى ، بدليل ما نجد من شواهد على وجود ذلك القصص الأندلسى فى بعض كتب التاريخ العربية ككتاب « افتتاح الأندلس » لابن القوطية . وقد كشف ريبيرا هذا القصص وانتهى إلى هذه الحقائق كلها ، وأذاعها .

وكذلك صيغت كل الأشعار الفنائية — التى نجدها فى اللغات الرومانية فى العصور الوسطى — فى أوزان وبمحور مشتقة من أوزان فن شعرى ابتكره الأندلسى مُقَدِّم القَبْرِى فى القرن العاشر الميلادى ، وهو فن الزجل والموشحة الذى انتقل مع الموسيقى الأندلسية ذات الأصل الشرقى إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، وطال بقاؤه فى إسبانيا بعد انقضاء عصور المسلمين حتى لنجد نماذج منه فى مطالع القرن السابع عشر^(٣٦) .

الفصل الثانى

الشعر

الشعر فى الجاهلية — الخصائص العامة للشعر الأندلسى

ظهرت خلال الفترة التى انقضت بين صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٣٨ وإعداد هذه الطبعة الثانية ، دراسات قيمة مشرقة عن الشعر الأندلسى . فقد نشر غرسية غومس — حين كان أستاذاً بجامعة غرناطة — كتابه المسمى « قصائد عربية أندلسية Poemas Arábigo-Andaluces » (*) فأعطانا صورة تشوق النفس عن نواحي الجمال الأدبى التى يضمها هذا الشعر . ثم أخرج للناس عام ١٩٤٠ كتيبته المسمى « قصائد الأندلس Qasidas de Andalucía » ترجم فيه إلى شعر إسبانى رصين أطرافاً من أشعار ابن زيدون وابن عمار والمعتد بن عباد صاحب إشبيلية . ثم نشر أبحاثاً متفرقة عن نواح مختلفة من الأدب الأندلسى من بينها ترجمته البديعة « لرسالة » الشنقى فى فضل الأندلس بعنوان :

Elogio del Islam Espanol por el Secundi

وفى عام ١٩٤٠ أخرج الطبعة الثانية من كتابه « قصائد عربية أندلسية » منقحة معدلة . وبعد ذلك بعامين ، أى فى ١٩٤٢ ، نشر « كتاب رايات المبرزين وشارات المميزين » لابن سعيد المغربى مع ترجمة إسبانية كاملة وتعليقات ضافية بعنوان :

El Libro de las Banderas de los Campeones

وهذا الكتاب مجموع من أشعار أهل الأندلس ، استعمله غرسية غومس كأساس

(*) نقلنا هذا الكتاب إلى العربية ونشرناه بعنوان « الشعر الأندلسى » —

لكتابه « القصائد » ، ثم نشر نصه كاملاً بعد ذلك . وعندما انتخب عضواً في « المجمع الملكي الإسباني للتاريخ » في سنة ١٩٤٣ ، ألقى في حفل استقبله بحثاً ضافياً عن ابن زمرك ، آخر شاعر فحل أطلعه الأندلس .

ومن الكتب الجليلة التي ظهرت في هذا الميدان مؤلف هنري پيريس أستاذ جامعة الجزائر المعروف : « الشعر الأندلسي الفصيح في القرن الحادي عشر ، خصائصه العامة وقيمه التاريخية » :

Henri Pérès: La Poesie Andalouse en Arabe Classique au XI Siècle. Ses Aspects Gènéraux et sa Valeur Documentaire (Paris, 1937)

درس فيه حشداً عظيماً من أشعار الأندلسيين وروبوها بحسب موضوعاتها ، وجعلها في متناول الباحثين .

وقد رأيت أن أعيد كتابة هذا الباب الثاني من كتابي حتى أضمنه نتائج هذه الدراسات الجديدة ، فحذفت معظم ما كنت أوردته في الطبعة الأولى من النصوص ، واستبدلت بها أخرى أوردتها بترجمة غرسية غومس . وإنتى لأنتهز هذه الفرصة لأعرب لصديقي وزميلتي العزيز عن أصدق شكرى على ما تفضل به من الإذن لى فى الاقتباس من كتبه ، وإن القراء ليشاركوننى فى إزجاء هذا الشكر .

ف ٢ — الشعر فى الجاهلية :

أخذ الشعراء فى الأندلس الإسلامى قصائد العرب الجاهليين نماذج ينظمون على منوالها ، كما حدث فى غير الأندلس من بلاد الإسلام . وقد كانت محاكاة هذا الشعر الجاهلى ميسورة ، أما الإتيان بأحسن منه فى بابها فقد كان عسيراً .

وكانت قصائد الجاهليين تُناقَل أول الأمر عن طريق الرواية الشفوية ، وكان أول من دونها حماد الراوية فى القرن الهجرى الثانى ، إذ دون سبعاً من غرر الشعر الجاهلى سميت « المعلقات » ، وأصحابها هم : امرؤ القيس ، وزهير بن أبى سلمى ،

والنابغة الذبياني ، وأعشى قيس ، ولييد بن أبي ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة ابن العبد . ويُجمع نقاد الأدب جميعاً على هذه المملقات السبع ، ويجعل بعضهم مملقتي الحارث بن حلزة وعنترة مكان مملقتي النابغة والأعشى .

وقد وضع بعض كتاب العصور المتأخرة حكاية جعلوها أصلاً للفظ « مملقة » — ومن هؤلاء السيوطي (٨٤٩ / ١٤٤٥ — ٩١١ / ١٥٠٥) — ذهبوا فيها إلى أن معنى اللفظ : « القصائد المملقة » ، وقالوا إن تنافس الشعراء في إنشاد قصائدهم في سوق عكاظ هو الأصل في ظهور هذه المملقات ، فكان الناس إذا أقرأوا فضل قصيدة علقوها في عكاظ أو في الكعبة . وليس لدينا عن منافسات الشعراء هذه إلا فكرة غير واضحة ، وذهبوا كذلك إلى أن هذه القصائد إنما ظهرت في مكة (لا في عكاظ) . وزعموا أنه كان على الشعراء — قبل الإسلام — أن يعرضوا ثمار قرائنهم على رجال قريش ليقضوا قضاءهم فيها ، فكان أولئك القضاة إذا أعجبهم قصيدة أذنوا لصاحبها في أن يملقها في الكعبة تشريفاً له ، كما كان الإغريق يتوجون رأس الشاعر السابق بإكليل من القار^(١) ، وتضيف هذه الأسطورة أن لبيداً — حينما اعتنق الإسلام — نزع مملقته من الكعبة ومزقها إرباً .

أما أبو زيد محمد بن علي الكرخي النحوي فقد اختار طائفة من عيون القصائد وجعلها سبع طبقات ، أولها المملقات ، وسمى رابعتها « المذهبات » . ثم اختلطت هاتان الطبقتان إحداهما بالأخرى ، ومن هنا فقد قرر بصورة قاطعة أن « هذه المملقات كانت مدونة بحروف من ذهب على قطعة من فاخر النسيج عُلقت على أستار الكعبة » .

وقال محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه المسمى « بجمهرة أشعار العرب » في سياق كلامه عن أصحاب المملقات : « والقول عندنا ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والأعشى ولييد وعمرو وطرفة . وقال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب « السموط » ، فن قال إن السبع لغيرهم فقد

خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة (*) ، فأسقط المفضل من أصحاب المعلقة
عنزة والحارث بن حازمة وأثبت الأعشى والنابعة .

وكانت المعلقة تسمى المذهب ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر
فكُتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال : مذهب فلان ،
إذا كانت أجود شعره ؛ ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل بل « كان الملك
إذا استعجيدت قصيدة يقول : « علقوا لنا هذه » ، لتكون في خزائنه » (٢) .

بيد أن عدم ورود هذه الأخبار عند أوائل المؤرخين والشرح (كالأزرق
صاحب « تاريخ مكة » وابن هشام صاحب « سيرة النبي » ، وقد سجل لنا فيها
كل ما كان في الكعبة تسجيلًا دقيقًا) ، وورودها أول مرة في إشارة لأحمد بن
محمد بن إسماعيل النعمان أبي جعفر من أهل مصر ، المتوفى في منتصف القرن
الرابع الهجري (٣) ، يذهب فيها إلى أن تلك الأخبار حكايات موضوعة لا أساس
لها من الصحة ، ثم ظهورها بعد ذلك في عصور متأخرة كعصرى ابن خلدون
(٧٢٢ / ١٣٣٢ — ٨٠٩ / ١٤٠٦) والسيوطي (٨٤٩ / ١٤٤٥ — ٩١١ / ١٥٠٥)
— كل أولئك حجج دامغة نحددنا إلى رفضها . هذا وقد أثبت بوكوك Pococke
ورايشكه Reiske ، ودى ساسى Sylvestre de Sacy بطلانها ببرهان ظاهر
الوجاهة : هو ندرة استعمال الكتابة بين العرب حتى على عهد الرسول . وإذا كان
القرآن نفسه لم يدون إلا على قطع من الجلد وسعف النخل والحجارة اللساء ، فإنه
لمن المستبعد أن تكون القصائد الوثنية قد دونت على نسيج فاخر بحروف
من ذهب .

والحقيقة أن لفظ « معلقة » يعنى معلقة فعلاً ، ولكنه يعنى كذلك « عقداً » .

(*) أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : كتاب « جهرة أشعار العرب » ، ص ٣٤

— ٣٥ ؛ الطبعة الأولى ، بولاق ١٣٠٨ هـ .

(**) حلال الدين السيوطي : « كتاب المزهرة في علوم اللغة وأنواعها » ، القاهرة

١٢٨٣ ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(†) انظر عنه « معجم الأدباء » لياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ — ٢٣٠ ، طبعة فريد رفاعي .

وقد استعمله الزمخشري بهذا المعنى عنواناً لمجموع من مختاراته الشعرية ، ويؤيد ذلك أن حماداً الراوية جمع مختاراً من القصائد وجعله في كتاب سماه « الأسماط » أى « العقود » ، مما يجعلنا نقطع بأن المعنى الحقيقي للفظ المعلقات هو العقود تصور قصائد الجاهليين حياة عصرهم بخيرها وشرها ، وذلك أمر طبيعي . ولقد أخذ الشعراء بنصيب فيما وقع بين قبائلهم من خصومات وحروب لا آخر لها ، تدور كلها حول الذباد عن شرف القبيلة والانتصاف لها إذا مس اسمها ما يشين ، أو قتل من أفرادها أحد . وقد برّز الشاعر عنتره في الحروب التي ثارت بين قبيلتي عبس وذبيان . أما امرؤ القيس الكندي فقد جَوَّب في آفاق جزيرة العرب كلها طالباً أعداءه بثأر أبيه المقتول ، وبلغ به الأمر أن قصد القسطنطينية راجياً الحصول على العون من إمبراطورها ، فمات في عودته منها عند أنقرة . وحلف الشنفرى ليقتلان مائة رجل من عبس ثأراً لصهره . وقضى عمرو بن هند ملك الحيرة أن يدفن طرفه وخاله المُتَمَسِّس حين عقاباً لها على ما قاله فيه . وسفك عمرو بن كلثوم دم هذا الملك في سورة غضب لأن أم ابن هند أهانت أمه .

وفي مقابلة هذه الخصلة الرعناء ، نجد العربي يمتاز بكرم ذهب مضرب الأمثال هند أهل الغرب . وقد جبل العربي على ذلك الندى بسبب ما يسود الصحراء من مخاوف . ومن مآثر ذلك الكرم العربي التي نضربها مثلاً ما ينسب إلى « مرّار الفَقْعَسِي » الذي يروى له أبو تمام في « الحماسة » أبياتاً يقول فيها :

آلَيْتُ لَا أَخْفَى إِذَا اللَّيْلُ جَنَّنِي سَنَا النَّارِ عَنْ سَارٍ وَلَا مَقْتَوِرٍ
فِيَا سَوْقَدَى نَارِي أَرْفَعُهَا لَعْلَهَا تَفْضِي لِسَارٍ آخَرَ اللَّيْلِ مُقْتَرٍ
وَمَاذَا عَلَيْنَا أَنْ يَوَاجِهَ نَارَنَا كَرِيمُ الْحَيَا شَاخِبُ الْمُتَحَسِّرِ
إِذَا قَالَ : « مَنْ أَنْتُمْ ؟ » لِيَعْرِفَ أَهْلَهَا رَفَعْتُ لَهُ بِاسْمِي وَلَمْ أَتَفَكَّرْ
فَبِتْنَا بِخَيْرٍ مِنْ كَرَامَةِ ضَيْفِنَا وَبِتْنَا نَهْيَ طُعْمِهِ غَيْرَ مَيْسِرٍ^(٢)

ومنها ما يروى عن حاتم طيٍّ ، الذي طلق زوجته لأنها كانت دائماً الخوف

من أن يجر كرمه الخراب عليهما . و يقول ابن قتيبة في كتاب « الشعر والشعراء » أنه « حدث -- بعد وفاة حاتم -- أن رجلاً يعرف بأبي خيبري سر بقبر حاتم ، فنزل به و نأت يفاديه : يا أبا عدى . أقر أضيافك ! فلما كان في السحر وثب أبو خيبري يصيح : و اراحلتاه ! فقال له أصحابه : ما شأنك ؟ فقال : خرج حاتم والله بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليه ؛ فنظروا إلى راحلته فإذا هي لا تنبث ، فقالوا : قد والله قراك ! فنحروها وظلوا يأكلون من لحما ، ثم أردفوه وانطلقوا . فبينما هم كذلك في مسيرهم طلع عليهم عدى بن حاتم ومعه جمل أسود قد قرنه ببعيره ، فقال : إن حاتمًا جاءني في المنام فذكر لي شتمك إياه وأنه قراك وأصحابك راحلتك ، وقد قال في ذلك أبيانا ورددها علي حتى حفظتها :

أبا خيبري وأنت امرؤ حسود العشيرة لوامها
فإذا أردت إلى رمة بدأوية صخب هامها
تبني أذاها وإعسارها وحوالك عوف وأنعامها
وأسرنى بدفع جمل مكانها إليك ، فخذ ، فأنذه (*) .

وكان امرؤ القيس قبل توجهه إلى القسطنطينية قد استودع السموأل عادية : خمسة دروع فاخرة من الزرد ؛ فلما مات امرؤ القيس أقبل أعداؤه يطلبون إلى السموأل أن يسلمهم الدروع ، وهددوه بأن يقتلوا ابنه إذا هو لم يسلمها ، فأبى أن يفعل رغم إلحاح امرأته ، مفضلاً فقد ابنه على أن يخون الأمانة .

وكان التغني بالشجاعة من أحب المواضع إلى الشعراء والعرب عامة ، وإليك مثال من شعر عنقرة :

وحليل غانية تركتُ مُجْدَلًا تمكؤ فريصته كشدق الأعم

(*) أخذ المؤلف كلامه هذا عن :

René Basset : La Poésie Arabe Anté-islamique (Paris, 1880) p. 23 sqq.

وانظر : « كتاب الشعر والشعراء » لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . طبعة دى خويه ،

لايدن ١٩٠٤ ، س ١٢٩ --- ١٣٠ .

سبقت يداى له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلور القندم
هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم
[إذ لا أزال على رحالة سابح نهدي تعاورة السكاة مكلم
طورا يجرّد للبطاس وتارة يأوى إلى حصدي القسي عمرهم]^(٣)

ويقول غرسية غومس : « إن القصيدة الجاهلية كانت تتألف من ثلاثة أقسام : مدخل غزلي يسمى « النسيب » ، ووصف رحلة الشاعر خلال الصحراء ويسمى « الرحيل » ، ثم مدح الشخص الذي تقال فيه القصيدة ، ويسمى « المديح » .

وكان وصف الأسفار المخوفة بالمخاطر من المواضيع الطروقة الشائعة في قصائد الجاهليين ؛ وكذلك وصف العواصف ، والخييل ، والجمال ، والغزلان ، وبعض أنواع السلاح ، وما إلى ذلك .

ولم يجعل الله الشعر في طبع محمد (صلعم) ، وإن كان قد وُهب بلاغة فياضة وأسلوباً أدبيّاً رائعاً . وفي القرآن آيات تغض من قدر الشعر والشعراء ، كقوله (تعالى) : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ؛ ولكن محمداً أجاز قول الشعر واستمع إليه ، لأنه رأى فيه وسيلة لتقويم اللسان وتعلم البيان . وجعل شعراء المسلمين يدفعون بشعرهم ما عسى أن يوجهه شعراء خصوم الإسلام إليه من النقد والهجاء . ويقول ابن قتيبة — موجزاً — إنه بعد أن جاء الإسلام تغير الروح والعادات والحضارة والدين ، واختلفت عما كان الحال عليه في الجاهلية ؛ ومع هذا فقد احتفظ الشعر بنفس قواعده ، وظل خاضعاً لقواعد لا يمكنه الفكك منها ... فكان على الشاعر الذي ينظم قصيدة — اتباعاً للقواعد القديمة — أن يبدأ بذكر المنازل التي ظمن عنها أهاها ، ثم يتحسر ، ويرجو أصحابه الوقوف معه ، بينما يمضي هو مع ذكريات من رحلوا عن هذه الديار إلى منازل أخرى ومياه أخرى ، ثم يدخل بعد ذلك في قسم النسيب من قصيدته : فشكو آلام الهوى . وهكذا

يستلقت الاهتمام نحو شخصه ، ثم يصف رحلاته المجهدة الفياضة بالمتاعب في ربوع الصحراء ، ثم يتحدث عن تحول دابته من طول السرى ، ويمتدحها ، ويطنب في وصفها . ثم يحتم بمدح الأمير أو الحاكم الذي ينشده قصيدته ، حتى يفوز منه بما يسمح به جوده^(٤) .

واستمر ذلك التقليد المطلق على رغم سخرية نفر من نقاد الأدب منه — ومن أولئك خلف الأحمر — مضوا يأخذون على شعراء بغداد والبصرة ودمشق انصرافهم إلى ذكر محاسن الجبال بينما لم تغب عن أبصارهم مآذن المدائن التي كانوا ولدوا فيها ، أو تغنيهم بذكر الآبار وعيون المساء وبين أيديهم الأنهار ومجاري المياه ، أو سكوتهم عن محاسن الرياض الخضراء يزينها الورد والزرجس والآس ، لجرد أن العرب لم يعرفوا هذه الأشياء . وهذا هو الذي جعل ابن بسام يقول في شأن الأندلسيين : « ... وقد مجتأ الأسماع « يادار مَيَّةَ بالعلياء فالسَّندِ » ، وملت الطباع « خلولة أطلال بريقة تهتد » ، ومجتأ « قفا نَبِكِ » في يد المتعلمين ، ورجعت على ابن حُجْر بلائمة المتكلمين ؛ فأما « أَمِنْ أَوْفَى » فعلى آثار من ذهب العنا . أما آن أن يَصَمَّ صداها ، ويُسَام مداها ؟ وكَم من نكتة أغفلتها الخطباء ، ورب مُتَرَدِّم غادرته الشعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصود ، وعزيرٌ على الفضل أن ينكر ، تقدم به الزمان أو تأخر ، ولحى الله قولم : الفضل للمتقدم ! فكَم دَفَن من إحسان ، وأخمل من فلان . ولو اقتصر المناخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير^(٥) .

ثم إن الشعر العربي — كما يقول رييرا — أصبح « وسيلة قوية من وسائل تمثيل الشعوب في كيان الأمة العربية ، ومصدراً من مصادر قوتها : استعمله العرب أشد عزائم الجنود في ميادين القتال ، وفي بث الحمية في قلوب الجماهير بذكر الوقائع الحربية في أشعار كان القصاص يرددونها في الطرقات والميادين والشوارع . وكان ذلك يثير إعجاب الجمهور »^(٦) .

ف ٣ - الشعر العربي بعد الإسلام :

على الرغم من التغيير الكامل الذى شمل حياة العرب بعد الإسلام . ظل الشعر العربى خاصصاً لقيود لم تنته ، وفى ذلك يقول غرسية غومس : « ولعل فقد الشعر علة وجوده الأولى عندما انتقل القلب النابض للإسلام من جزيرة العرب إلى دمشق القريبة من الصحراء ، وبعد أن غادر الشعر العربى هذه الأخيرة إلى بغداد ليستقر وتهدأ روحه فيها ، إذ طغت عليه العناصر الأسوية . وتأكد ذلك عندما انتقلت الخلافة من أيدي الأمويين - ذؤابة الشرف البدوى القديم ، الذين كان حب البداوة يعمر قلوبهم - إلى العباسيين الذين لبسوا ثياب المستعبد من عواهل الشرق القديم . هنالك احتبس فى الخلق ذلك الصوت الجدير العميق الذى كان يصدر عن قلب الطبيعة النابض ، وحُرم الشاعر من اللذة التى كان يجدها فى وصف الجبل وشيائه ، وتصوير شجيرات الخزامى والبحار والعرار النابتة بين كثبان الرمال ، أو فى تصوير الوقائع الدامية التى كانت تثور بين البدو بعضهم وبعض ، ولم يعد يستطيع الحديث فى حرية وانطلاق عما كان يعانى فى صحرائه من مشاق وجوع . ولم يعد الشاعر كذلك لسان القبيلة السيامى : المتحدث بمفاخرها ، المهاجم لخصومها ، المنادى بطلب ثأرها ، وإنما أصبح مداحاً مأجوراً أو هاجماً مثيراً لامداوات والأحقاد . ولم تعد حبيبته تلك البدوية الحرة الباردة الجمال ، على الرغم مما كان يشوب حسناتها من مذاجة وبدادة ، لأنها حُجبت عن الناس والنور خلف جدران الحرم اعترف على عودها فى عزلة عن الحياة ، وعاشت فى جو مثقل مظلم .

ثم إن الشاعر لم يعد يعيش فى جو الصحراء لرحب الطلق تحت أشعة الشمس الصاحية ، وإنما أصبح يقتل فى أزقة المدن بين المكتبات والقصور ومجالس الأنس والأدب والاهو ، حيث ياتمس إعجاب فتية مترفين أفسدم نعيم الحضارة . وكان بعضهم ينشد الناس شعره على هيئة شاذة تبعث على العجب ، كهذا الشاعر الموصلى

الذى حدثنا الشابشتى أنه « دخل على بعض الولاة وقد طين وجهه بطين أحمر ولبس لباداً أحمر وعمامة حمراء وأمسك عكازاً أحمر ولبس في رجله خفين أحمرين » (*). وكان لا بد للشعر من أن يتطور في الظروف الجديدة ، وثارت الخصومة بين الفدائي والمحدثين . وفيما بين أواخر القرن الثامن وأوائل العاشر طرق شعراء من طبقة بشار بن برّد وأبي العتاهية وأبي نواس وابن المعتز ونفر كثير غيرهم موضوعات جديدة « ما سرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي » (٢). وجاء بعدهم جيل جديد — كابن بكر بن أحمد الصنوبري وأبي عبد الله بن الحسين بن أحمد بن الحجاج — أبدعوا وأغربوا في اختيار الموضوعات ، فتحدثوا في شعرهم عن أزهار الرياض والبساتين وبرك الماء والأسماء والتلج والغراميات العسيرة أو المبتذلة ومجالس الشراب والجواري الغلاميات . وأغرب بعضهم في اختيار الموضوعات حتى قال بعضهم المرائي في الققط (٣). وانصرفت هم الشعراء إلى البحث عن كل غريب مسرف في الغرابة ، وطلب كل ما هو متصنع ظاهر الابتكار ، كقول أحد الخالدين :

ومدامة صفراء في قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء

فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطب والإناء سماء (٤)

وكان الشعراء يتنافسون في أن يحشدوا في أشعارهم أكبر قدر من المعاني . وعلى الرغم من أن هذا التطور مس روح الشعر بصفة خاصة دون ظاهره —

(*) « كتاب الديارات » للشابشتى ، ص ٨٦ ب .

(٢) « العمدة » لابن رشيق ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٣) الإشارة هنا إلى ما فعله ابن علاف المتوفى ٣١٨/٩٣٠ ، وقد ذكر ذلك الدميري في « حياة الحيوان » ، ج ٢ ، ص ٣٢١ . انظر إشارة آدم ميتز إلى ذلك وتعليقه عليه . انظر الترجمة العربية لكتابه « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع » ، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ١٩٤٠ ، ج ١ ، ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٤) « يتيمة الدهر » للشمالي ، ج ١ ، ص ٥١٩ . والخالديان هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سميد ، ابنا هاشم . انظر « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع » ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

فبقيت الأبحر والأوزان القديمة على حالها لم تمس ، وبقيت القوالب العامة المعقدة دون تغيير — إلا أن هذا التطور أسفر عن ظهور الخريات الخالصة ومقطعات النسيب القصيرة أو قصائد التأملات وشعر الحكمة ، وأخذت القصيدة تتحول إلى قطعة وصفية .

يبد أن المُحدَثين لم يوقفوا إلى إدراك النصر الكامل الذى سعوا إليه . إذ أن للقديم سلطاناً عظيماً على نفوس العرب خاصة ، ومن ثم كان للتراث الشعرى القديم قيمة كبرى فى تاريخ الآداب العربية ، والفصيحة(*) منها بصورة خاصة ، ذلك أنه « ديوان العرب » الذى تتبين به الأصول القديمة وتُعرف الأنساب ، بل أوصاف الطرق والمجالات النابذة ، وما كان لها من خصائص جغرافية وما كان ينبت فيها من نبات . وكان الناس جميعاً يحفظون هذا الشعر القديم ، وكان النحويون ينظرون إليه فى إجلال عميق بالغ ، وينسجون حوله الحكايات ويعارضون قصائده وأبياته فى مهارة ظاهرة .

وفى أثناء القرن العاشر الميلادى ظهرت حركة قصدت إلى إحياء الشعر القديم وتجديده نستطيع أن نسميها « حركة القديم المحدث » Neoclàsica (تزعمها أبو تمام والبحترى والمعرى) . أما الذى وصل بهذه الحركة إلى أوجها فهو أعظم شاعر أطلعت عليه العربية بعد الإسلام ، وهو أبو الطيب المتنبى (٢٩٣/٩٠٥ — ٣٥٥ / ٩٦٥) . كانت تعمر نفس المتنبى روح متوثبة تفيض حمية ، وربما حامت حول صدق إيمانه الشكوك . وكان فخوراً بنفسه عظيم الاعتداد بها ، ولهذا كان من المسير عليه أن يقسر نفسه على ما فرضته الظروف عليه من التكسب بالشعر ، وتنقلت به صروف الأيام من ممدوح لممدوح ، إذ لم يقدر له الاستغناء عنهم جملة . ومن هنا كان المتنبى جوّاب آفاق لا يكل ، عارفاً بفنون الشعر كلها قديماً وجديداً ،

(*) المراد بالفصيح هنا الشعر الذى صيغ فى اللغة الفصحى ، تمييزاً له من الشعر النارج الذى صيغ فى اللهجات الخارجة المستعملة ، كالزجل .

ومن ثم أتيح لشعره أن يكون مجامعاً لمذاهب الشعر العربي جميعاً ، وأتيح له أن يملك نواصيها كلها في توفيق نادر وملسكة طيّمة . وقد تناول المتنبي ألوان التجديد والإغراب التي أسرف المحدثون فيها واستعملها عن قدرة وتمكن ، فمما بها إلى الأوج الذي كان لها فيما سبق . وشعره يحمل بكهر بائية عبقرية ، حافل بالعواطف والأحاسيس التي يشوب بعضها الإيهام ، غفى بما يثير النفس ويحرك المواطن ، كل ذلك في قالب جميل موزن مما جعل شعره سيقاً من سيوف الحق لا أداة من أدوات العبث . ولم يعرف العرب قط الشعر القصصى أو شعر الملاحم ، ولكن المتنبي في تنفيه بوقائع سيف الدولة مع الروم — وهي صليبيات سبقت زمانها بوقت طويل — استطاع أن يحمل شعره رنيناً ووقعاً قريبين من رنين الملاحم وأوقاعها ، وإن كنا لا ننظر فيه بتلك القوة الطبيعية الجماعية (الشعبية) التي نجدناها في ملاحمنا القديمة . وسرقة شعر المتنبي هذه الحكمة العميقة التي ضمنها شعره ، وذلك القالب الغنائى الفلسفى الذى صاغ أبياته فيه ، وهذا لا يمتنعنا من القول بأن صياغة شعره الرائعة قد تضم أفكاراً عادية شائعة . بيد أن ولع المتنبي بالشعر القديم فاق ولعه بأى شئ آخر ، وقد صدر هذا الشعر عن أعماق نفسه العربية . ومن ثم كان قديراً على تصوير النفس العربية وعالمها فى أحسن صورة تصورتها العروبة ، ومن هنا أيضاً لم تكن « بدوية » المتنبي رجعة إلى القديم وإنما كانت صدى للوعى النفسى العربى الخالد .

فلما استقامت قواعد القصيدة القديمة من جديد ، وحرص الشعراء على أن يقولوا شعرهم فى حدودها ، انحصر الشعر العربى بين أسوار عالية أضاعت أفعه ضيقاً شديداً ، وإن ضم هذا الأفق أطرافاً كثيرة مما استحدثه المحدثون ، ودرج الشعر بعد ذلك بين هذه القيود ، وانحدر فى طريق الضمحلل طويل ، وغدا متشابهاً مُعاداً متعباً مجهداً .

ف ٤ - الخصائص العامة للشعر الأندلسي :

يقول غرسية غومس : « وقد نبع الشعر الأندلسي من بحر الشعر المشرق ، وتاريخه بصور لنا التطورات التي ألمنا بذكرها . فلقد كان شعراء الأندلس ولم بدراسة الشعر الجاهلي ، ولسكنهم كانوا يرون فيه شيئاً أثرباً قديماً ، فلم يكن له في نفوسهم أثر فعال ، وكذلك « المحدثون » لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد ، فيما خلا بدوات نسمها بين الحين والحين ، وبلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث . وعلة ذلك أنه في الوقت الذي ظهر فيه شعر جديد بهذا الاسم في الأندلس ، كان الشعر القديم المحدث في أوجه في المشرق .

ولا بد أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي عامة — فيما خلا بضع شواذ — فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية . ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير . وعاشوا أعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوا على الشعر من التغيير إلا أشياء تمس المعاني ، مثلهم في ذلك مثل أتباعهم من المشاركة ، فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيب بلاغية ، وأوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية الأرابيسكية(*) التي تشبه أن تكون « قصور حمراء » لفظية . فإذا كانت القصائد الأندلسية المنسقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني ، بل من الإحساس الإنساني في أحيان كثيرة ، فمن الطبيعي أن تنقصها تلك المرونة السائقة التي نجدها في الشعر القديم . ولم يكن هذا الشعر الأندلسي مقرباً بالأخيلة

(*) أرابيسك Arabesque كلمة إفريقية نجدها في اللغات الأوروبية كلها ، ومعناها عرنى الروح . ولكنها لا تستعمل إلا في مواضع الفن ، ويراد بها الزخرفة الهندسية المتشابكة التي نمرنها في الزخارف الإسلامية ، وقد رأيت أن أستعملها في صورتها الأوروبية احتفاظاً بمعناها الخاص قياساً على قولنا : « مورسكي » .

فحسب ، بل كان مثقلاً بها حُلَّ منها فوق ما يطيق . بل بلغ من حشد المعاني فيه أن استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل . وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار إذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة ، فكذلك وقع للشعر الأندلسي : لم يبق لنا منه إلا ما اقتطفه مصنفو كتب المختارات من تشبيهااته ومعانيه . وإذا نحن استثنينا بضعة دواوين وقصائد مشهورة وصلت إلينا كاملة ، فإن ما لدينا من الشعر الأندلسي قد وصل إلينا مقطّماً مبسّراً ، بل مطحوناً يتأق هشبهه الدقيق ببريق المس .

ف ٥ — موضوعات الشعر الأندلسي :

يقول غرسية غومس — في مقاله الذي أشرنا إليه في هذا الباب — إن الشعر الأندلسي طرق فنون الشعر كافة : من الزهد إلى المجاء ، ونظم شعراء الأندلس قصائد الحماسة ، والنسيب ، والمديح ، والرثاء ، والوصف بصفة خاصة . وذهب إلى أن هذا الشعر كان — بصفة عامة — فقيراً من الناحيتين الفكرية والعاطفية ، تغلب عليه قلة الصدق .

فأما فيما يتصل بما فيه من نسيب ، فإننا نظفر فيه بأبيات تتحدث عن « الحب العذري » ، وهو ضرب من الهوى اشتهرت به طائفة من القبائل البدوية ومنها « بنو عذرة » ، ووضع فيه ابن داود الظاهري (المتوفى ٢٩٧ / ٩٠٩) « كتاب الزهرة » الذي يعتبره ماسنيون « أول محاولة لوضع منهج شعري للحب الأفلاطوني » ، ونجد نماذج أخرى من هذا النظر إلى الحب فيما كتبه ابن فرج الجياني وابن حزم القرطبي وصفوان بن إدريس الرسي . وهناك — إلى جانب ذلك — قصائد أخرى يعرض الشعراء فيها مشاهد مفصلة من الحب الحسي ، يصنفون فيها ما يقع بينهم وبين المحبوب وصفاً مطوّلاً مثلاً ، وهم يرسلون هذه الأبيات على العادة بعد مهر عرييد مسرف في الاستمتاع ، ويلجأون إليها في

أوصاف ليالى الأنس التى يقضونها مع عشاقهم على ضفاف الأنهار ، متماسكين وإياهم كما يحيط السوار بالمعصم ، ويتحدثون فيها عن مجالس السرور في مواضع اللهو — « كحور مؤمل » فى غرناطة — تغنيهم البلابل وتسلمع عليهم النجوم . « ولقد كان التباين الظاهر بين الردف الثقيل والمخصر النحيل أكبر مواضع جمال الجسد الأنثوى عند شعراء الأندلس ... وكان الوضع الخاص للمرأة فى المجتمع الإسلامى سبباً فى قلة فهم الناس للجانب النفسى من حياتها وخصائصها . فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسى للموس ، أى الصورة البدنية ، فاندفعوا فى الإعجاب بها اندفاعاً عنيفاً لا يُرد ، ولم يجدوا ما يبررون به هذا الاستمرار فى الكلام فى هذه الأوصاف المملة إلا بتنميقها وإرسالها فى أساليب موتقة متنوعة مزينة بالزهور مرصعة بالدرر والياقوت ، وأضفوا على الجسد الجميل ثوباً بديعاً نسجوه من كل ما عثروا عليه فى الرياض » ؛ ويضم هذا الشعر كذلك أبياتاً كثيرة تتحدث عن الليل إلى الغلمان وحب المذكر .

وكانت الخمرىات أكثر فنون الشعر ذيوماً بين شعراء الأندلس . وكانت عادة الشرب أن يجتمعوا على الكؤوس فى البيوت أو الرياض أو على ضفاف الأنهار ، كالوادی الكبير وإثرة . ولم تكن مجالسهم مجرد اجتماعات للشراب ، وإنما اجتماعات أدبية شعرية كذلك . و « كان المجلس ينقضى بين تقارض الشعر وارتجاله ، يتخلل ذلك — بين الحين والحين — شذو جارية مغنية يصاحبها عزف العود والطنبور والقيثارة ، وتوزع أحاسيس الشمار بين زهر الأحلام وشطحات السكر ومشاعر الهوى » .

وكان ولع شعراء الأندلس بالوصف عظيماً ، وهم يبدون لنا فى أوصافهم وكأنهم يتأملون ما حولهم فى فتور وبطء وإسهاب ، كل ذلك فى أسلوب رخو بالغ الليونة . ومن أمثلة ذلك وصف أبى الحسن على بن حصن لفرخ حمام فى بطء وانتاد يذكرنا بصبر نقاشى للمنمات :

وما هاجني إلا ابن ورقاء هائف على فتن بين الجزيرة والنهر
مفستق طوق لا زوردي كل كل موشى الطلى أحوى القوادم والظهر
أدار على الياقوت أجنان أولو وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر
حديد شبي النقار داج كأنه شبي قلم من فضة مدّ في حبر
توسد من فرع الأراك أريكة ومال على طيّ الجناح مع النحر
ولما رأى دمعي مُرافاً أرابه بكأى فاستولى على النصن النضر
وحث جناحيه وصفق طائراً وطار بقلبي حيث طار ، ولا أدري (*)

وقول أبي جعفر بن عثمان المصحفي في سفر جلة :

ومصفرة تختمال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك زكي التنفس
لها ريح محبوب وقسوة قلبه ولون محبّ حلة السقم مكثس
فصفرتها من صفرتي مستعارة وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنس
فلما استتمت في القضيبي شبابها وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
مددت يدي باللفظ أبني اقتطافها لأجعلها ربحانتي وسط مجلسي
وكان لها ثوب من الزغب أغبر يرف على جسم من التبر أملس
فلما تعرت في يدي من لباسها ولم تبقي إلا في غلالة نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها في الكف حر تنفسي (**)

بيد أن هذا التباطؤ المتراخي في التعبير لم يحل دون شعرائهم وبين أن يبعثوا
في تراكيهم التشبيهية حيوية وسرعة غير عاديّتين ، فنجدهم ينتقلون بأذهانهم
انتقالات سريعة يجمعون فيها بين المتباعدات ، فيشبهون شيئاً صغيراً بشيء كبير
(الإبرة الدقيقة بالشهاب أو الكشتبان مخوذة من غير ريشة) ، أو يفعلون العكس

(*) ابن سعيد : « الرايات » ، ص ١١ .

() ابن الأثير : « الحلة » ، ص ١٤٤ .

فيشبهون شيئاً كبيراً بشيء صغير (كتشبيه مجاديف القارب بأهداب العين ، أو أوطاب الساقية بالجفون) ... ولم يغادر أولئك الشعراء شيئاً دون أن يشبهوه بشيء ، ففي عالم النبات مثلاً لم يقف الشعراء عند دائرة الزهور العليا ، بل وضعوا النبلوف ، والخرشف جنباً إلى جنب ، ولم يروا بأساً في أن يقتزن الباذنجان بالزردس . وهكذا كانت كل الأشياء عندهم سواء ، يستعملونها في تكوين صور نباتية . جمال تذكرنا بالزخارف المتشابكة التي تنقش في المرمر أو الرخام أو الجص على السواء ؛ كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن في أيديهم . ويجمع شعرهم أصداء الصعراء البعيدة — جنباً إلى جنب — مع ما كان يحيط بالشعراء في البيئة الأندلسية الزاهرة ، كالسواقي وشجر البرتقال .

ولم يظهر الأندلسيون براعة ذات بال في الشعر السياسي أو الحماسي ، ولم يوفقوا كثيراً في شعر الحكمة والتعذيب ، أما شعرهم الديني فتلقصه حرارة العاطفة ، وهم ينتقلون فيه من الوعظ المبذل إلى وجد الصوفية ، أو الثيوصوفية ، دون تدرج أو تمهيد .

ومضى الأندلسيون في المدائح على نهج من تقدمهم من الشعراء ، فأسرفوا وبالغوا . وخلت أشعارهم في هذا الباب مما يربطها بشخص المقولة فيه ، بحيث يُستطاع أن توجه إلى أى إنسان إذا استبدلنا اسمه باسم المدوح ، ونظم الأندلسيون كذلك الأهاجي — المنيعة في الغالب — والمرائي التي تتفاوت في الروح وصدق الإحساس فنجدها تارة فاترة متكلفة كما نرى في رائية ابن عبيدون في رثاء بنى الألفطس ، وتارة صادقة مؤثرة ، كما في نونية أبي البقاء الرندي في بكاء الأندلس وما أصاب بلاده على أيدي النصاري ، وأصدق ما لدينا من هذا الضرب ما قاله المعتمد في منفاه يبكي نفسه وما أصابه من زوال ملك ونفى .

وقد قال البارون فون شالك : « إن أشعار الأندلسيين تمتاز — بصفة عامة

بجزالة الألفاظ ، وجمال رنينها ، وإبداع الأخيطة ، وبعدها مداها . وبدلاً من أن يحملوا الألفاظ سراكب للأفكار ، وبدلاً من أن يدعوا القلوب تعبر عن أحاسيسها في فيض طبيعي ، نجدهم بعد قرون علينا طوفاناً من الألفاظ الرنيضة والأخيطة البراقة . وكأنما لم يفتنوا بتحريك عواطفنا وطلبوا إعشاء أبصارنا . وإن أشعارهم لأشبه بألعاب نارية تومض ثم تتلاشى في الظلام ، فتبهر العقول لحظة بوهيضا ، ولكنها لا تترك في النفس أثراً دائماً ؛ وذلك بسبب ما تحويه هذه الأشعار من الألوان المختلفة وصور التشبيهات يتوالى بعضها في إثر بعض دون هواة . وقد كان تراهي كثير من الشعراء على التفوق ، ورغبتهم في الإتيان بأحسن مما أتى به من سبقهم أو نافسهم من مشاهير الشعراء ، سبباً في إسراف الكثير من أشعارهم في ذلك التكلف إسرافاً أدى إلى ضياع قيمتها ، إذ أصبحت مجرد إيماض عابر لا يترك في النفس أثراً . أما نحن فنزن شعرهم بميزان يخالف ما اتخذوه ، ومن ثم فإن تقديرنا لأشعارهم يزداد بقدر ما يقل تكلفهم في الغوص وراء المعاني البعيدة ، وبقدر ما يطامنون من طموحهم إلى الإتيان بما لم يسبقوا إليه ، لأنهم في هذه الحالة يعبرون عن مشاعر صادقة في عبارات غير متكلفة .

« أما المواضيع التي تدور حولها أشعارهم فن أنواع مختلفة : فهم يتغنون بمباهج الحب الموصول ، ويصفون آلام الهوى الخائب ، ويصورون بالطف الألوان هناء لقاء رقيق ، ويبكون في لهجة مشبوبة آلام الفراق . وقد حرك مشاعرهم جمال الطبيعة الأندلسية ، ففضوا يمتدحون غاباتها وأنهارها وحقولها الخصيبة . ودفعهم ذلك الجلال إلى تأمل ضياء الشمس البهيج وصفاء الليالي الساجية تنيرها النجوم . وكانوا — إذا أشرقت نفوسهم بنور الإلهام — تداعت إلى أذهانهم من جديد ذكريات المواطن الأولى التي أقبل منها قومهم ، حيث كان أسلافهم يضرَبون في الفياق والتغار تحت شمس لافحة ، فكانت تصدر عن نفوسهم — بين الحين والحين — نفثات فياضة بعصبية جنسية غريبة . كانت تنبعث من

أفواههم عنيفة كأنها أعاصير صحراء . وكان لهم — إلى جانب ذلك — شعر ديني زهدي عامر بالتقى العميق والشوق إلى الله . وكانوا تارة يدعون ملوكهم وشعوبهم إلى الجهاد في سبيل الله بعبارات تتوفز حمية ، وتارة أخرى يرثون أولئك الذين استشهدوا ، ويتحسرون على المدائن التي استغلها العدو ، والمساجد التي حولها النصرى إلى كنائس ، ويكون بالدمع السخين مصير أسرام التعماء الذين يعانون آلام الأسرى في بلاد النصرى العاتية ، ويتشوقون — على غير أمل — إلى ضفاف « شذيل » الزاهرة . وكان أولئك الشعراء يتغنون بما كان لأمرائهم من أريحية وجاه ، ويطنبون في وصف بهاء قصورهم ورواء حدائق تلك القصور . وكانوا يصحبون أولئك الأسراء إلى ميادين القتال ، ويصفون طعان الأسنة ، والحراب الخفضية بالدماء ، والخليل التي تسبق الريح في عدوها . ويتوارد في أشعارهم كذلك ذكر الكؤوس المترعة بالخر تدور على الشمّار ، والنزهات الليلية في زوارق تنهذى على صفحات الماء على ضوء المشاعل ، ويصفون في هذه الأشعار تعاقب فصول السنة ، فصلاً بعد فصل ، وما يطرأ على الطبيعة أثناء ذلك من تطور . ويذكرون نوافير الماء ذات الخريز العذب ، وغصون الشجر يصالحها النسيم فيميل بعضها على بعض ، وقطرات الندى المأققة على الأزهار ، وأشعة القمر المنعكسة على الأمواج . ويصورون — في شعر رقيق — جمال البحر ، والقبّة الزرقاء ، والنجوم ، والورود ، والرجس ، وزهر الرمان . وأبدع أولئك الشعراء قصائد صوروا فيها الطُرف التي كانت تضيء على قصور السادة حوّا من الترف المصقول : كتائب البرونز ، والعنبر ، وأواني الزهر الفاخرة ، والحمامات ، ونافورات الماء المرصية ، والأسود التي تلمج الماء من أفواهها .

« أما شعرهم في الحكمة والفلسفة فيدور كله حول زوال هذه الحياة الدنيا ، وقصر أجلها ، وتقلب أحوالها ؛ ويتحدث عن القضاء الذي لا مفر للإنسان منه ، وقلة غناء خيرات هذه الدنيا ؛ ويتغنى بذكر الفضائل الخلقية والعلوم ويقدّرها

حق قدرها . وكان شعراؤهم يستحبون الإلمام في أبياتهم بذكر لحظات العيش الهنيئة : فيصفون لقاء الحبيب في الليل ، أو ساعة راحية في صحبة شاديات حسناوات . وربما صوروا جارية تقطف ثمرًا من فتن ، أو غلامًا جيلًا يسقى الشرب ، وما أشبه ذلك . كما أكتروا في التغنى بأوصاف مدائن إسبانيا وكورها ، وما فيها من مساجد وقناطر ومقايات وريف نضر ، وغير ذلك من منشآت باهرة . ثم نجد هذا الشعر — آخر الأمر — مرتبطًا في الغالب أشد الارتباط بحياة الشاعر نفسه : فهو صادر عن وحي إحساس اللحظة التي قيل فيها ، وهو إنما كان يرسل ارتجالاً على المألوف من صور الشعر السامي القديم »^(٧) .

ونحب الآن أن نضع بين يدي القارئ بعض نماذج الإنتاج الشعري للأندلسيين ، ذاكرين المقدمين من الشعراء مرتبين على حسب عصورهم . وينبغي أن ننبه إلى أنه من غير اليسور أن نلم بذكر الشعراء الأندلسيين جميعاً ، لأنهم لا يحصون كثرة . هذا ، والكثير من أولئك الشعراء أدركوا شهرة طائفة لمجرد أنهم أسهموا في بعض كبار الحوادث التاريخية ، لا لأنهم شعراء مبرزون . بينما ظل كثيرون آخرون لا يكاد يعرف من شعرهم شيء ، على الرغم من امتيازهم وتجويدهم . وإلى أن يدرس هذا الفن من الأدب الأندلسي دراسة تحليلية شاملة ، لن يكون من اليسور وضع مؤلف شامل عنه ؛ ومن ثم فإن الصفحات التالية ليست إلا مختارات من بين الشائع المعروف من هذا الشعر .

وإننا نلجؤ القارئ أن يقدر — وهو يقرأ نصوص الأشعار العربية مترجمة إلى الإسبانية — أنها أشعار منقولة تفقدها الترجمة جانباً عظيماً من بهائها وقيمتها ، شأنها في ذلك شأن كل شعر ينقل من لغة إلى لغة ؛ بل ينبغي أن يذكر أن لهذا الشعر في أصوله العربية قواعده المتعارف عليها بين أهله ، وهي قواعد تجعل القالب اللفظي الذي يصاغ فيه الشعر أول خصائص هذا النوع من التريض ،

ومن ثم فإننا نجد بعض المنظومات — التي اعتبرها نقاد الأدب العربي ومؤرخوه ممتازة في وقتها — جامدة وخالية من الجمال .

وقد فضلنا — في بعض الأحيان — أن نورد الترجمة الإسبانية التي قال بها خوان دي فاليرا لكتاب البارون دي شاك « شعر عرب إسبانيا وصقلية وفهم » *Poesía y Arte de los Árabes de Espana y Sicilia* ، لأن هذه الترجمة — على قلة دقتها — أجل بكثير من ترجمة الشعر نثراً ؛ وهي — على كل حال — تحمل إلى القارئ الفكرة الأساسية . وقد أتينا — في أحيان أخرى — بالأبيات مترجمة بأقلام دوزي أو بونس بويجس أو ريبيرا أو غيرهم ، أوقفنا بالترجمة بأنفسنا .

يتبين الإنسان في تطور الشعر الأندلسي اتجاهين أساسيين :
(١) فصيح و (ب) شعبي دارج^(٨) .

(١) الشعر الفصيح

١ — عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل — أبو الخثعمي — ابن حبيب — الحكم الرضي —
زرياب وابتكاراته — يحيى الغزال وتمام بن علقمة — الأمير عبد الله —
سعيد بن جودي — شعراء البلاط .

ف ٦ — طوائف شعراء عصر الإمارة :

لا نجد بين أيدينا مجموعاً شاملاً لشعر هذا العصر ، على الرغم من أن شيئاً من ذلك قد وجد بالفعل . فقد وصل إلينا عنوان مؤلف للأفشتين (المتوفى سنة ٩١٩/٣٠٧) — عتيق الأمير المنذر — هو : « طبقات كتاب الأندلس »^(٩) . ومن المؤكد أن هذا الكتاب كان يضم شعراً ، ووصلت إلينا كذلك أسماء شعراء

— مثل قرلمان^(١٠) ، وغريب بن عبد الله^(١١) — يطئ الناس في مدح شعرم
وما يمتاز به من طابع قروى وكان الأمراء أنفسهم يقولون الشعر ، ومن أمثلة ذلك
أن عبد الرحمن الداخل (٧٥٥/١٣٨ — ٧٨٨/١٧٢) — مؤسس الدولة الأموية
الأندلسية — رأى نخلة في حديقة قصر « الرصافة » — ولا بد أنها كانت أول
نخلة زرعت في أوروبا — فهيجت شجنه ، فقال :

يا نخل ، أنت غريبة مثلى في الغرب ، نائية عن الأصل
فابكى ، وهل تبكى مكبسة عجماء لم تطيع على خبلى ؟
لو أنها تبكى ، إدا لبكت ماء الفرات ومنبت النخل
لكسها ذهلت ، وأذهلتى بغضى بنى العباس عن أهلى^(١٢)

وقال عبد الرحمن — ردًا على قرشى استقل العطاء الذى منحه إياه — أبياتاً
أشار فيها إلى الصعاب التى أقيها فى حياته :

أشتان من قام ذا امتعاض مُنتضى الشفرتين نصلا
فجاء قفراً ، وشق بجرأ مبامياً لجة وتَحلا
دبر مُلكاً ، وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر الصبر حين أخلى
ثم دعا أهله إليه حيث اتأوا ، أن : هم أهلا
فجاء هذا طريد جوع شريد روع يخاف قتلا
فقال أمنا ، ونال شعباً ونال مالاً ، ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منم ومولى؟^(١٣)

وعاش — فى أيام الأمير عبد الرحمن هذا — أبو الحشى : عاصم بن زيد
القمي الشاعر ؛ وكان منضوياً إلى الأمير سليمان — أكبر أبناء عبد الرحمن —
فقد عليه بعض أختاب هشام — ثانى أولاد عبد الرحمن — « فدمح سليمان
ابن عبد الرحمن بشعر ، وتوهم عليه فيه أنه عرض بهشام أخيه — وكانت بينهما

مباعدة — فسلم عينيه ؛ فقال في العمی شعراً حسناً ، ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية ، فأنشده إياه ، فرق له واستعبر ، ودعا بألفي دينار فأعطاه ، وضاعف له دية العيين . وهو الشعر الذي أوله :

خضعت أم بناتي للعبدى أن قضى الله قضاءً فضي
ورأت أعمى ضرباً إنسا مشيئه في الأرض لسُ بالعصا
فانسكانت ، ثم قالت قوله — وهي حرى — بلغت منى المدى
فقوادى قريح من قولها : « ما من الأدواء داء كالعمى »^(١٤)

وقال الحكم الربضي^(١٥) ، بمد أن أخذ ثوبة أهل ربض قرطبة :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقا وقدما لأمتُ الشعب مذكنت يافعا
فمائل ثغوري : هل بها الآن تُغرة أبادرها مستنضى العزم دارعا
وشافه على الأرض القضاء جاجا كأتاف شريان الهبيد لواصعا
تنبتك أنى لم أكن عن قراهم يوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا^(١٦)
فإنى إذا حادوا جزاعا عن الردى فلم أك ذا حديد عن الموت جازعا
حيث ذمارى وانتهكت ذمارهم ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا سقيتهم مما من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منايا قدّرت ومصارعا
فهاك بلادى إننى قد تركتها مهاداً ولم أترك عليها منازعا

ف ٧ — زرياب وابتكاراته :

يحتل عبد الرحمن الأوسط (٨٢١/٢٠٦ - ٨٥٢/٢٣٨) في تاريخ الشعر الأندلسى مكاناً يفوق مكانة أسلافه . ولا يرجع السبب في ذلك بحال إلى المقطعات التي نظمها في جاريته طروب ، أو ردّاً على أبيات أخرى قالها الشاعر عبد الملك ابن الشّمر ممتدحاً الأمير وشاكراً له عطايه^(١٧) ، بل لأنه اجتذب إلى الأندلس

زرياباً الملقب (والزرياب طائر أسود غرد) الذى أدخل إلى الأندلس الموسيقى والغناء العربيين المشرقيين ، وهما فنان نهج عرب المشرق فيهما على أصول قديمة . كان زرياب تلميذاً لإسحاق الموصلى فى بغداد . ثم وقعت بينهما مجافاة ، لأن زرياباً أبدى من المهارة فى حضرة الرشيد ما فاق به أستاذه ، « فسقط فى يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره » ، فرأى زرياب الأمان من الخروج عن العراق . فخرج إلى الغرب ناجياً بنفسه من غضب أستاذه ، وعرض خدماته على الحكم الرضى ، فدعاه إلى القدوم عليه فى قرطبة ، فسار زرياب حتى بلغ الجزيرة الخضراء ، وهناك بلغه موت الحكم ؛ فلما ولى عبد الرحمن بن الحكم أدخله فى خدمته .

فرض له عبد الرحمن عطاء قدره مائتا دينار فى الشهر ، وقرر له ثلاثة آلاف دينار فى كل من العيدين ، وفرض له كذلك مائتى مئة من الشعير ، ومثلها من القمح ، هذا إلى حدائق وقصور وهبه إياها تقدر قيمتها بأربعمائة ألف دينار ؛ فأقبل زرياب وأصبح موسيقى الأمير .

كان زرياب يدعى « أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد ، فكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريته غزلان وهنيدة ، فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود مجلداً إلى مضجعه » (١٨) . وقد أضاف إلى العود وترأ خامساً — وكان إلى أيامه أربعة أوتار فحسب تقابل الطبائع البشرية الأربع — عُرِف بالوتر الأوسط الدموى الأحمر ، ووضعه تحت المثلث وفوق المثني . « وذلك أن « الزير » صبغ أصفر اللون وجُعل فى العود بمنزلة الصفراء من الجسد ؛ وصنع الوتر الثانى بده أحمر وهو من العود بمكان الدم من الجسد ، وهو فى الغالب ضعف الزير ، ولذلك سُمى « مثني » ؛ وصنع الوتر الرابع أسود ، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد وسمى « الهم » وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذى عطل من الصبغ وترك أبيض

اللون ، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد وجعل ضعف المثني في الفاظ ولذا لاك
سمى « الثالث » ؛ وقام الخامس المزيّد مقام النَّفْس من الجسد^(١٩) ، (كذا
الأصل) .

« وهو الذى اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر — معتاضاً
بها من مضراب الخشب — فأبدع في ذلك ، لاط قشر الريشة ، وقمائه وخفته على
الأصابع ، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه »^(٢٠) .

وكان زرياب شاعراً مجيداً ، ومتضلعا في فنون مختلفة « كالنجم ، وقسمة
الأقاليم السبعة ، وتصنيف بلادها وسكانها » والطبيعة ، والسياسة ، والتنجيم .
وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها . وكان سلوكه معتبرا نموذجاً
يحتذيه الناس . وكان الناس يتبعونه فيما يتخذ من ثياب وما يعمل من زينة
(تصنيف الشعر والملابس والمطور ولما كل وأسلوب ترتيب المائدة ، وما إلى
ذلك)^(٢١) .

وقد أدخل زرياب إلى الأندلس صنع الألحان على طريقة أهل الموصل ،
فغلبت على طريقة أهل الحجاز التي كان الناس يحرون عليها في الأندلس قبل
ذلك^(٢٢) ، وكان يمثلها في بلاط عبد الرحمن ثلاث من المغنيات هن : « فضل »
و « علم » و « قلم »^(٢٣) .

وقد اجتهد زرياب في تكوين مدرسته للموسيقية ، مستعينا في ذلك بأبنائه
وبناته^(٢٤) وجاريته « متعة » ، وانتهى الأمر بأن أصبحت الطريقة الأندلسية
التقليدية ، على رغم ما كان زرياب يلقى من سخريّة يحكي الغزال وتعريض ابن
عبد ربه به . وكان من تلاميذ زرياب جارية تسمى « معصبيح » ، أبى مولاها
أن يدعها تغنى للشاعر أبي عمر بن عبد ربه ، فصنع هذه الأبيات وبعث بها إليه :
يا من يضمن بصوت الطائر الفرد ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصفت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

وكان رجال الدين لا ينظرون إلى الموسيقى بعين الرضا، وكان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها أسراً محطاً لا يليق إلا بالموالي والإماء وذوى السمعة السيئة . ولم يكونوا يقبلون شهادة المغنى أو المغنية أو الناذبة ، ولم يسمحوا بأن تباع كتب الموسيقى والأناشيد علناً ، بل كان القضاة المقشددون يأمرهم بكسر آلات الموسيقى التى توجد مع المغنين فى الطرقات . ولكن سوق الفن الموسيقى نفقت فى الأندلس — على رغم ذلك كله — وذاع أمره بين الناس ذيوغاً واسماً . وكانت فرق الموسيقيين والمغنين أسراً شائعاً فى قصور الخلفاء فى عهد بنى أمية، وفى حكم النصور، وعصرى المرابطين والموحدين . وكان أولئك الخلفاء والأمراء يشترون الجوارى ذوات الصوت الحسن بمبالغ لا تصدق . وكان الموسيقيون يشربون الخمر فى طول الأندلس وعمرهه ، تدلنا على ذلك تلك الثروة الضخمة من الخمرىات التى خلفها شعراء الأندلس ، والأخبار الكثيرة المتواردة فى الخمر ومجالس الشراب فى كتب التاريخ والأدب .

ونبغ من أهل البلاد موسيقيون وضعوا ألحاناً مبتكرة على الطريقة المشرقية ، نذكر منهم عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر الحاجب — وكان شاعراً حسناً يقيم فى بيته ومع أهله حفلات موسيقية — وأبا جعفر الوقشى ، الوزير الطليطلى الذى يبدو أنه اخترع عوداً يعزف من تلقاء نفسه بلا ضرب (٢٥) .

ف ٨ — يحيى النزال ونماص بن علقمة :

وفى نفس العصر الذى عاش فيه زرياب عاش يحيى بن الحكم البكرى (٧٧٠/١٥٤ — ٨٦٤/٢٥٠) ، وكان رجلاً من طراز آخر غير طراز زرياب . وكان أصله من جيان ، وكانوا يلقبونه بالنزال لجماله . وكان رجلاً حكماً أرسله عبد الرحمن الأوسط فى سفارة إلى بلاط ملك النرمانيين ، فاستمال قلوب الناس هناك بظرفه ، وأعجبت به الملكة « تود » ونساء حاشيتها خاصة ، فكانت —

أى الملكة — لا تصبر عنه يوماً حتى توجه فيه . وقد ألهمته هذه السفارة وغيرها إلى بلاطات أخرى نصرانية أشعاراً لطيفة جميلة . وقد نفاه عبد الرحمن الأوسط من الأندلس بسبب هجائه المقدع لزياب ، فذهب إلى العراق بعيد وفاة أبي نواس شاعر الخمر ولذا ذات العيش في بلاط هارون الرشيد . « وجلس يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشرب أكذت سماءهم تأبطت زقى واحتبست عنائي
فلما أتيت الحان ناديت ربّه فتاب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العين إلا تعلّة على وجل منى ومن نظرائي
فقلت : أذقيها ! فلما أذاقها طرحتُ إليه رِيظتي وردائي
وقلتُ : أعزني بذلة استتربها بذلت له فيها طلاق نسائي
فوالله ما برت يميني ولا وفّت له غير أني ضامنٌ بوفائي
فأبّت إلى صبحي — ولم أك آتياً — فكل يفتدني وحقّ فدائي
فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له ؛ فلما أفرطوا قال لهم : « خفضوا عليكم

فإنه لي ! » فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحياتي

فلما أتم السورة بالإنشاد خجلوا واقتربوا عنه « (٢٦) .

وقد نظم النزال أرجوزة في « فتح الأندلس » قال فيها ابن حيان إنها « كانت جميلة طويلة ، عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التي جرت بين المسلمين والنصارى . وأطال الحديث عن أمراء هذا الصقع في أسلوب جميل فيه عمق ، وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس . وقد ضاعت هذه الأرجوزة » (٢٧) .

وقد نظم تمام بن عامر بن علقمة (٨٠١/١٨٤ — ٨٩٦/٢٨٣) « الأرجوزة المشهورة في ذكر فتياح الأندلس ، وتسمية ولايتها والخلفاء فيها ، ووصف حروبها

من وقت دخول طارق بن زياد مفتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم .
وكان عالماً أديباً ، ذكر ذلك ابن حيان ^(٢٨) . أى أنه فعل ما فعله يحيى
الغزال قبله .

وعاشت في عصرى الحكم الرضى وعبد الرحمن الأوسط (القرن التاسع
الميلادى) حسانة التيمية ، وكانت يتيمة استصفت أملاك أبيها فتقدمت بشكواها
إلى الأمير الحكم بن هشام ، فأمر عامل « البيرة » برد أملاك أبيها إليها . ومات
الحكم بعد ذلك بقليل ، فانهز العامل الفرصة ولم يرد إليها أموالها ؛ فازالت تلح
على عبد الرحمن الأوسط حتى أجاب مطلبها .

ف ٩ — الأمير عبد الله — سعيد بن جودي — شعراء البلاط :

من المعروف أن النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى فى التاريخ السياسى
للأندلس يتميز بوهن سلطان الأمراء (محمد والمنذر وعبد الله) ، وبازدياد نشاط
حركة القومية الإسبانية (عمر بن حفصون وبنو قسى) من ناحية ، ومن ناحية
أخرى بزيادة قوة جماعات العرب المستقرة فى النواحي ، وتمكن هؤلاء جميعاً من
تحويل الأندلس الإسلامى إلى مجموعة كبيرة من النواحي المستقلة بالفعل عن سلطان
أمير قرطبة .

وكان الأمير عبد الله يقول فى الغزل أبياتاً من طبقة عالية ، مثل قوله :

ويحى على شادن كحيل فى مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد خالطه النور والبحار
قضيب بان إذا ثنى يدير طرفاً به احورار
فصفرو ودى عليه وقف ما اطرده الليل والنهار ^(٢٩)

يبد أن أحسن شعراء هذه الفترة هو من غير شك سعيد بن جودي ^(٣٠) ،
النموذج الصادق للفارس العربى . وكان يمثل المعصية العربية فى بعض أدوار

صراها ، مع عمر بن حفصون . لقد حفظ لنا الرواة من شعره أبياتاً قالها في صدد وقفى شاد والمدينة ، وصف فيها سوء حاله في أسر عمر بن حفصون ؛ وأبياتاً أخرى ذات عاطفة مشبوبة ، قالها بعد أن فك أسرهم في سنة ٢٧٧/٨٩٠ يتغزل في « جيجان » مغنية عبد الله الذي أصبح بعد ذلك بقليل أميراً على الأندلس . ولقد ، بنى سعيد بن جودي ابن حزم في التفتى بالهوى المذرى الميثوس منه ، ومن ذلك تلك الأبيات التي بلغت أعلى درجات الرقة :

سمى أبى أن يكون الروح في بدنى فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روى عن تذكرها هذا ولم أرها يوماً ولم ترني
كأننى واسمها والدمع منسكب من مقلتي راهب صلى على وثن^(٣١)

ونجده في أبيات أخرى طوباً للحياة مستغرقاً في لذاذات العيش :

لا شيء أملح من ساق على عنق ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جموح في الصبي طلقاً وما خرجت لصرف الدهر عن طلقى
ولا اثنت لداعي الموت يوم وغى كما اثنت وحبل الحب في عنق^(٣٢)

وفي هذا العصر كذلك عاش شعراء لا يرى فيهم غرسية غومس إلا « أنظمة » لا يمتازون ببراعة : مثل بكر الكنانى ، وعباس بن ناصح ، وفر ييب بن عبد الله ، وقرئمان ، وعبيد بن محمود ، وابن سمرة ، والقلاءط ، وأبى الخشى ، وابن كلثوم ، وحسانة التيمية ، وعباس بن فراس ، تتجلى لنا في بعض شعرهم القيمة السياسية للشعر ، كالذى نعره في الشعر الجاهلى ؛ وبعضهم الآخر شعراء بلاط لا يلقى شعرهم من جمهور الناس إقبالا ولا ذيوفاً بينهم^(٣٣) .

٢ - عصر الخلافة

ابن عبد ربه - منذر بن سعيد البلوطي - ابن هاني - الزبيدي -
 شعراء المنصور - صاعد البغدادي - الرمادي - الوزير أبو المعيرة -
 ابن أبي زمنتين - ابن الهندي - الفرضي - حبيب العقلي -
 الشعراء - ابن حزم القرطبي .

ف ١٠ :

قال غرسية غومس في أسلوبه الشعري الجميل ، متحدثاً عن الأدب الأندلسي في هذا العصر :

« لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجهه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٩٢٩/٣١٧ . فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها : فلم يوفق القديس يولجيموس إلى استئثار أهل الدين من المستعربين ، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسي الذي اعتصم بوكنته في بُبَشْتُرُ (يشير إلى عمر بن حفصون) . لقد اختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التي حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة . وقد شجع عملية المزج هذه ، وعمل على تقويتها ، عامل على أكبر جانب من الأهمية وقف محايداً بعيداً عن التيارات المتضاربة كلها : ذلك هو البيت الأموي . نعم إنه كان عربياً صرفاً — ومن ثم لم يكن إسبانياً — ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشاركة خففت من عصبيته العربية ، وجعلته لا يميل إلى العرب وحفزه على التقرب من غيرهم . ولقد كانت قرطبة بلداً نصف عربى ، يتحدث أهلها العربية وعجمية أهل الأندلس ، ويختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذن . وكان بعض شعراء الأندلس يفيثون إلى ظلال البَيْع المستعربية الصغيرة ليصيبوا شيئاً من النيذ ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب

النبذ في ديور الصحراء المتأبدة في القفر . وتجلى اختلاط الأجناس بعضها ببعض ،
وتجاور الديانات بعضها لبعض ، عن جوسمخ جيل إنسانى شفاف : نفس الجو
الحضارى الذى نعرفه في بغداد أيام ألف ليلة ، خالصاً من كل ما يرتبط بالشرق
في أذهاننا أبداً من جلالة يشوبها الغموض . لقد قبس طابع الغرب من نسائم
سيرامورينا الرقيقة الريفية . كانت قرطبة تقبل كل شيء وتمثله وتحوله إلى شيء
آخر بعد تصفيته : فلقد كانت الرايات وملابس الحداد سوداء في بغداد ، فأصبحت
بيضا في الأندلس . وفي تلك الأعصر كانت الممالك النصرانية في الشمال تعيش
في جورقوى فقير ، أما ملوك إسبانيا الحقيقيون فكانوا سادة قرطبة : عبد الرحمن ،
والحكم ، والمنصور . وبين أيدينا مصاديق ذلك لأئمة للعيان . فهذه أقواس المسجد
الجامع ساحية في شبه ظل يروع النفس ، وتلك خرائب مدينة الزهراء الرائعة
تحولت اليوم إلى ملاعب لمصارعة الثيران ، وتضم الكنائس الجامعة والمتاحف
قطعا من بديع النسيج وصناديق العاج تتحدث كلها عن تلك الأعجاز التى لا يخبو
ضياؤها ، ويتحدث عنها كذلك — بأجلى بيان — الشعر الكثير الذى أثر
عن أزمانها .

ولقد عرف الأندلس على أيام الناصر (٩١٢/٣٠٠ — ٩٦١/٣٥٠) دواوين
المتنبى وغيره من أئمة القريض العربى النصيح المجدد ، وعلى قصور ذلك الخليفة
العظيم وابنه الحكم المستنصر العالم الجماع للكتب (٩٦١/٣٥٠ — ٩٧٦/٣٦٦)
والوزير الخطير العظيم السلطان المنصور بن أبى عامر (توفى عام ١٠٠٢/٣٩٣) وفد
سفراء الثقافة المشرقية : من أبى على القالى (دخل الأندلس عام ٩٤١/٣٣٠) ،
إلى صاعد البغدادي (وفد عام ٩٩٠/٣٨٠) . وعلى هذه القصور الزاهرة وفدت
كذلك سفارات نصرانية من الغرب ، ومن بيزنطة البعيدة ، حاملة معها أطباقا
بديعة من الفسيفساء وكتب ديوسقوريد التى وضعت في الأندلس بذور نهضة
العلوم الطبيعية التى بلغت أوجها في القرن الثالث عشر الميلادى . كان حشداً

جامعاً من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر في قرطبة . وفي ظلال جيوش الخلفاء المظفرة وأستها المشرعة التي لا تغلب كان الكتاب ينشئون ، والملاء يحاضرون إلى حوار عمد المسجد الجامع ؛ وانصرف الأغنياء إلى التنافس في جمع الكتب ، وغنى القيان ، ونظم الشعراء ، وعكف العلماء على تصنيف طلائع مجموعات النظم والنثر .

وإذا نحن استثنينا من استأخر من شعراء عصر الإمارة وعاش ردحاً من عصر الخلافة ، ونقرأ من الوشاحين ، وجدنا في طليعة شعراء هذا العصر ابن عبدربه (توفي عام ٩٣٩/٣٢٨) صاحب «العقد الفريد» الذي بهر العيون بمدائحه ، وابن هانيء الإلبيري (توفي عام ٩٧٢/٣٦٢) الذي لم يلبث أن غادر الأندلس ولحق بملوك المغرب والذي شبه المعري شعره «برحى تطلحن قروناً» (*) والزبيدي (المتوفى عام ٩٨٩/٣٧٩) ، وابن أبي زمنين (توفي ١٠٠٧/٣٩٨) ، وأولئك الشعراء الذين ذكرهم ابن حزم في «رسالته» ، والمصحفي (توفي عام ٩٨٢/٣٧٢) الذي جرده المنصور من طارقه وتليده وحبه ، وابن فرج الجياني (توفي عام ٩٧٦/٣٦٦) صاحب «كتاب الحقائق» الذي ضامه به «كتاب الزهرة» لابن داود الأصفهاني ، والشاعر الرقيق «الأمير الطليق» (توفي عام ١٠٠٩/٤٠٠) الذي أودع الحبس لقله أباه ، وكان يغار منه ، وابن شخيص ، والرمادي ، (توفي ١٠٢٢/٤١٣) ، وابن إدريس الجزري (توفي ١٠٠٣/٣٩٤) ، وابن دراج القسطلي (توفي ١٠٣٠/٤٢١) ، وكان شاعراً معقداً عسير الفهم مثل جُجُرة الشاعر الإسباني ، وابن برد (توفي ١٠٥٣/٤٤٥) ؛ وغيرهم كثيرون . ولا بد أن نذكر من بين الكثيرين الذين ظهروا بعد ذلك بقليل في أيام عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله — الذي لم يطل حكمه (توفي ١٠٢٤/٤١٥) — فقد أساطت به هالة من أهل الأدب ، وكان هو نفسه أدبياً .

(*) ابن خلكان : «وفيات الأعيان» ، رقم ٦٤٠ — ترجمة ابن هانيء .

وقد نظم الأندلسيون فى كل فن وباب : من الزهديات والتاريخيات إلى الثوريات التى أكثر الناس منها على عصر المنصور^(٣٤) .

ولابن فرج الجياني (توفى ٩٧٦/٣٦٦) صاحب «كتاب الخدائق» أبيات جميلة تعتبر نموذجاً للنزل العذرى عند شعراء العرب ، وقد ترجمها غرسية غومس وجعل عنوانها : « عفة » ، وهى التالية :

وطائفة الوصال عفت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فباتت دياحى الليل سافرة القناع
فلكنت النهى جمعات شوق لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما فيمنعه الكعام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثل سوى، نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات فأخذ الرياض من المراعى^(٣٥)

وأروع ما وصل إليه الشعراء فى الوصف وصل إليه أبو جعفر المصحفى (توفى ٩٨٢/٣٧٢) — وزير الحكم المستنصر وهشام المؤيد — فى تلك القطعة التى قالها فى وصف سفرجلة (ص ٤٥) (٣٦) .

ف ١١ — ابن عبد ربه — سعيد بن منذر البلوطنى :

ومن المذكورين النابيين من شعراء هذا العصر أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٨٦٠/٢٤٠ — ٩٣٩/٣٢٨) مولى بنى أمية — وكان شاعر بلاط صرف — وستحدث عنه فيما بعد (ف ٥٤) . ولم يكن ذا شاعرية ممتازة سواء فى قصائده الطوال التى تحدث فيها عن الحملات السنوية التى قام بها الناصر أو فى مقطعاته التى قالها فى مدح بنى أمية ، مثل قوله :

بالمندّر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أس^(٣٧)

و بعض أشعار ابن عبد ربه الغزالية تنبئ عن ذوق وحساسية تفوق ما يبدو في مدائحه . وقد جمع أشعاره في ديوان سماه « المحصات » أتبع فيه كل قطعة غزالية بأخرى ، في الحكمة أو الزهد ، حتى يدفع شعر الزهد أوزار الأفكار الدنيوية . ومن نسيبه قوله :

ما إن رأيت ولا سمعت بمنله درأ يعود من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقاً^(٣٧)
ومن أحسن ما قال عبد الملك بن جهور — وزير عبد الرحمن الناصر —
تلك الأبيات التي قالها في النرجس :

قد بعثنا إليك بالنرجس الـ ض حكي لون عاشق محمود
فيه ريح الحبيب عند التلاق واصفرار الحب عند الصدود^(٣٨)

ف ١٢ — ابن هاني — الزبيدي :

عاش محمد بن هاني^{*} الإشبيلي (يكنى أبا القاسم وأبا محمد ، توفي ٩٧٢/٣٦٢) حياة استهتار ، وكان « متهما بمذهب الفلاسفة . ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية ، وساءت المقالة في حق الملك بسببه واتهم بمذهبه أيضاً ، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبره ، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبعة وعشرون عاماً ... وخرج إلى المغرب ، ولقي جوهرأ القائد مولى المنصور فامتدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابني علي — وكانا بالمسيلة وهي مدينة الزاب ، وكانا واليها — فبالغا في إكرامه والإحسان إليه . فمضى خبره إلى المعز أبي تميم معد بن المنصور المبيدي . ثم توجه المعز إلى الديار المصرية فشيعه ابن هاني^{*} ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والحقاق به ، ولكنّه لقي حتفه عند « برقة » على صورة غامضة في سنة ٩٧٢ : فمن قائل إنه لما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس الأنس ، فيقال إنهم عر بدوا عليه فقتلوه . وقيل :

خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل إنه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بشبكة سراويله ، وكان ذلك بكرة يوم الأربعاء سابع ليال بقين من رجب سنة ٣٦٢ هـ^(٤٠) .

ويرجح ابن الخطيب الرواية الأولى . ويرى ابن خلكان أن القصيدة الدونية التي قالها ابن هاني في المزمع الفاطمي تعد من « غرر المدائح ونخب الشعر » ، ويقول ابن خلكان إنه لولا غلوه في المدح وإفراطه المفضي إلى الكفر لكان ديوانه من أحسن الدواوين . « وليس في المغاربة من هو في طبقة — لا من مقدميهم ولا من متأخريهم — بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندم كالمثني عند المشاركة ؛ وكانا متعاصرين » . أما المعري فقد شبه شعره الرائع الفخم « برجي تطحن قروناً » ، كما قال غرسية غومس . وقصيدته في وصف النجوم مشهورة^(٤١) .

وعلى الضد من استهتار ابن هاني* بنجد الزبيدي (أبا بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ٩١٨/٣٠٦ — ٩٨٩/٣٧٩) رجلاً جاداً . كان مؤدباً للخليفة هشام المؤيد في صباه ، فكان الذي علمه الحساب والعريية ونفعه نفعاً كبيراً ، وألف في النحو والتاريخ كتباً لها قدرها (ف ٦٠ و ٦١) ، وكان شاعراً يميل في شعره إلى الحكمة والزهد : فيذكر الخوف من الله ، وخلود الروح ، وثواب الآخرة وعقابها ، كقوله :

أبا مسلم إن الفتي بجنانه وميقوله لا بالمراكب وللبس
وليس ثياب المرء تنفي قلامه إذا كان مقصوراً على قصر النفس
وليس يفيد العلم والحلم والحجى

— أبا مسلم — طول القمود على الكرسي^(٤٢)

وله كذلك نسيب يصور آلام بعد الحبيب على نحو لطيف رقيق .

ف ١٣ — شعراء المنصور :

كان المنصور يرفع أهل الأدب . ولقد أغرم زماناً بالفلسفة ، ثم وجد أن الفقهاء يحدون في هذا ما يثيرون به مشاعر الناس عليه ، فأمر بإخراج كتب الفلسفة والفلك من بين غيرها من الكتب من مكتبة القصر وأحرقها بيده أمام نفر من العلماء الموقرين كالأصيلي وابن ذكوان والزيدي ، ليظهر للناس غيرته على الدين^(١٣) . وقد كان لهذا العمل وقع طيب في قلوب الناس ، غير أننا لا نشك في أن المنصور فعل ذلك وهو راغم ، لأن ميله إلى الأدباء — والشعراء خاصة — كان عظيماً طول حياته .

وقد قال ريييرا : « إن المنصور أنشأ بين دواوين الدولة ديواناً خاصاً سمي «ديوان الندماء» مهمته ترتيب الشعراء طبقات وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر ، وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب^(١٤) . ولقد صلب المنصور في بعض غزواته أربعون شاعراً من كل طبقة ليقولوا الشعر في غزواته » .

ومن الطبيعي ألا يخلو رجل من طراز المنصور من أعداء ينفسون عليه طماحه البعيد وتوفيقه في درك غاياته ، ومن ثم كثرت الأشعار في هجائه المقتدع . ومن اشتد في هجائه الوزير المصحفي الذي أوقع به^(١٥) ، وإبراهيم بن إدريس الحسني الشاعر . بيد أن المدائح التي قيلت في هذا القائد العظيم ووزير هشام المؤيد الخطير تربو بكثير على ما قيل فيه من هجاء . وعن أكثر في مدحه ابن دراج القسطلی (من قسطة في الجوف في البرتغال الحالية ٩٥٨/٣٤٧ — ١٠٣٠/٤٢٢) ، وكان كاتباً للحكم المستنصر والمنصور — وله مدائح وصرات طيبة ، كتلك التي قالها في صبح البشكنسية — ثم خدم بعد ذلك عبد الرحمن بن أبي عامر المعروف بشيخول ، ومحمد بن عبد الجبار المهدي ، وسليمان المستعين ، وعلى بن حمود الحسن ، والمرتضى ، وكلهم خلفاء ؛ ثم توجه بعد ذلك إلى بلنسية وسرقسطة حيث تكونت حوله حلقة من الشعراء وأهل الأدب . وأبياته تنم عن ملكة ذهنية فقيرة ،

وتكلف زائد ، وتعقيد يشبه تعقيد جنجرة الشاعر الإسباني . وإيغال أولئك المحدثين وإسرافهم في تقليد القدماء يفسر لنا إقبال الناس على الموشحات الشعبية ، التي يمد ظهورها رد فعل لهذا الشعر القديم الجدد »^(٤٦).

ف ١٤ — صاعد البغدادي :

كان صاعد البغدادي المتوفى سنة ١٠٣٦/٤١٧ أحد كبار شعراء بلاط المنصور . أقبل إلى قرطبة حوالي سنة ٩٩٠/٣٨٠ ميلادية واستطاع أن يحظى بعطف المنصور بسبب تضلعه في علوم اللغة والتاريخ ، وبسبب ذكائه وطلاوة حديثه وطيب معاشرته وبديع جوابه وحضوره وبراعته في الارتجال . وقد أكل ابن بسام هذا الوصف بقوله إنه كان « ممتعاً محسنًا للسؤال ، حاذقاً في استخراج الأموال »^(٤٧).

وقد أدخل صاعد إلى الأندلس طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي تملخص « في أن يقرأ الطالب القصيدة ، ثم يسأله الأستاذ عن معاني الألفاظ ، فيقوم بالشرح معتمداً على قائمة من المعاني يكون قد استخرجها من المعجم العربية »^(٤٨).

وكان أبو علي مدعياً ذاك براعة بالغة في هذا الباب ، وكان لا يتحرج من شيء في هذا السبيل ، حتى لقد زعم أنه قرأ جميع الكتب المعروفة . وتحكى المراجع عن جرأته في ذلك الصدد أن نفراً من خصوم صاعد « سألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جدتها حتى تومم القدم ، وترجم عليه « كتاب النكت » تأليف أبي العوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه وجعل يقبله وقال : « إني والله ! قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان . . » ، فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه وقال : « إن كنت قد قرأته كما تزعم فلما محتوى ؟ » فقال : « وأبيك بعد عهدي به ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه محتوى على لغة منشورة لا يشوبها شعر ولا خبر » فقال له المنصور : « أبعد الله مثلك ، فما

رأيت أ كذب منك ا » ، وأمر بإخراجه « (٤٩) .

وتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق « الأمالى » لأبي على القالى ، وزعم المنصور أنه يملئ « على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا يورد فيه خبراً مما أورده أبو على ، فأذن له المنصور فى ذلك . وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملئ كتابه المترجم « بالفصوص » ، فلما أكمله تتبعه أدياء الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم » ، فأمر المنصور بأن يتذف كتاب الفصوص فى النهر ، فقال بعض الشعراء :

قد غاص فى الماء كتاب الفصوص وهكذا كل ثقیل يفوص . .
فأجابه صاعد :

عاد إلى معدنه ، إنما توجد فى قعر البحار الفصوص ! (٥٠)
ونظر صاعد إلى وردة بيد المنصور فى غير وقتها لم يستم فتح ورقها فقال مرتجلاً :

أنتك أبا عامر وردة يذكر المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فنطت بأكامها راسها (٥١)
وتقدم صاعد إلى المنصور يوماً بأيل فى قيده وكتب معه بأبيات متوسطة الجودة جاء فى بعضها :

مولای ، مؤنس غربتی ، مَخَطَّقی من ظُفر أیامی ، مُنَمَّعَ مَعْقَلِ
عبد جَدَبَتْ بضبعه ورفعت من مقداره أهْدَى إلیک بأیل
سمیته غَرْسِيَّةٌ وبعثته فى حبله لیتاح فیہ تفاؤلی
[فلئن قبلت فتلک أنفس مِنَّة أسدَى بها ذو منحة وتطول
صحبَتک غاديةُ السرور وجلَّتْ أرجاء رَبِّک بالسحاب المَخْضِلِ]
فقضى الله فى سابق علمه أن غرسية بن شانجه (صاحب نبرة) من ملوك الروم — وكان أمنع من النجم — أسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد

بالأيل وسماء غرسية متفائلاً ، فزاد حب المنصور لصاعد بسبب هذا التوافق الغريب . ولم يكن صاعد ليدع فرصة تفلت إلا أظهر للمنصور شكره ، ومن ذلك أنه بعث إلى المنصور غلاماً له أسود يسمى كافور ، وقد ألبسه قيصاً كالمرقعة حاكه من خرق الأكياس والصرر التي كان يقبض فيها صلات المنصور ؛ فلما مثل بين يدي المنصور عجب من فعل صاعد بغلامه وسأله في ذلك فقال : « يا مولانا ، هنا لك الفائدة . اعلم يا مولاي أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كافور مالاً » فتهلل وقال : « لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر » ، وأمره بمال واسع وكسوة ، وكبا كافوراً أحسن كسوة^(٥٢) .

ف ١٥ — الرمادى :

وأهم من صاعد — من الناحية الأدبية — يوسف بن هارون الرمادى . والرمادى ليس نسبة إلى بلد يسمى رمادة — كما يحسب البعض — وإنما هو الصورة العربية لكنته بالإسبانية الداريجة وهى « أبو جنيس » ، والجنيس cenisa فى الإسبانية هو الرماد ، وترجمة « الرمادى » بالإسبانية على هذا El Ceniciento . وقد اتهم الرمادى بالاشتراك فى مؤامرة اشترك فى تدبيرها على المنصور جماعة من أهل الأدب — ربما كان دافعهم إلى ذلك الحسد له — فحكم المنصور عليه بأن يقطع الفاس ولا يبادل الكلام منهم أحد . فضى المسكين يهيم بين المجموع الذين كانت تزخر بهم طرقات قرطبة « وكأنه ميت » . ثم عفا عنه المنصور بعد ذلك ، لأننا نجده بين الشعراء الذين رافقوه فى حملته على برشلونة فى سنة ٩٨٦/٣٧٦ (انظر فقرة ٥٠) .

ويحكى ابن حزم عن الرمادى قصة حب رومانتيكى رائعة الجمال ، فيقول إن الشاعر كان يجتازاً عند « باب العطارين » فى قرطبة — وهذا الموضع كان يجتمع النساء — فرأى جارية مليحة « أخذت بمجامع قلبى ، وتخلل حبها جميع أعضائى » . فتبعها حتى عبرت عن طريق الجامع ، وجعل يتبعها وهى ناهضة نحو

القنطرة ، فجازها إلى الموضع المعروف بالرّبع ، فلما صار بين رياض بنى مروان — رحمه الله — المبنية على قبورهم في مقبرة الرّبع خلف النهر ، نظرته منفرداً عن الناس لا هم له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : « مالك تمشي ورأى ؟ » فأخبرها بعظيم بليته بها ، فقالت له : « دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي ، فلا مطمع لك فيّ البتة ولا إلى ما ترغبه سبيل » ، فقال : « إني أقنع بالنظر » ، فقالت : « ذلك مباح لك » ، فقال لها : « يا سيدتي ، أحرّة أم مملوكة ؟ » فقالت : « مملوكة » ، فقال لها : « ما اسمك ؟ » ، قالت : « خلوة » ، فقال لها : « ولين أنت ؟ » ، فقالت : « عليك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع الحال » ، فقال لها : « يا سيدتي ، وأين أراك بعد هذا ؟ » ، فقالت : « حيث رأيته اليوم ، في مثل تلك الساعة من كل جمعة » ، ثم قالت له : « إما تنهض أنت وإما أنهض أنا » ، فقال لها : « انهضي في حفظ الله » ، فنهضت نحو القنطرة . ولم يمكنه اتباعها ، لأنها كانت تتلفت نحوه لترى أيسارها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها ، فلم يقع لها على مسألة . قال أبو عمر ، وهو يوسف بن هارون : « فوالله لقد لازمت باب العطارين والرّبع من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعت لها على خبر ، ولا أدري أَسْمَاءٌ لَحَسَّتْهَا أم أرض بلغتها . . إن في قلبي منها لأحرّ من الجمر » . وهي « خلوة » التي يتغزل بها في أشعاره ، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سبيلها إلى سرّسطة في قصة طويلة^(٥٣) .

ف - ١٦ الوزير أبو المغيرة بن حزم :

وكانت المنصور جارية جميلة مغنية تسمى « أنس القلوب » ، وكان ذا غرام بها ، غير أنها كانت مولعة بالوزير أبي المغيرة بن حزم . فحدث ذات مرة أن كان المنصور في رياض الزاهرة وفي صحبته أبو المغيرة ، فعمّت الجارية :

قَدِمَ اللَّيْلُ عِنْدَ سَيْرِ النَّهَارِ وَبَدَأَ الْبَدْرُ مِثْلَ نِصْفِ سَوَارِ

فكأنَّ النهارَ صفحَةً خد وكأنَّ الظلامَ خطَّ عذارِ
 وكأنَّ الكؤوسَ جامدُ ماء وكأنَّ الدمامَ ذائبُ نارِ
 نظرى قد جفى على ذنوباً كيف بما جَفَنَتْه عيني اعتذارِ
 يا لقوى ، تمجبوا من غزال جائر في محبتي ، وهو جارِ
 ليت لو كان لي إليه سبيل فأقضى من حبه أوطارى
 قال أبو الفيرة بن حزم : فلما أكملت الغناء أحسست بالمغنى فقلت :

كيف ، كيف الوصول للأقار بين سمر القنى وبيض الشفار ؟
 لو علمنا بأنَّ حبَّك حقٌّ لطلبنا الحياة منك بشارِ
 وإذا ما الكرام هموا بشيء خاطروا بالنفوس في الأخطارِ

قال : فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلف في كلامه وقال لها : « قولى واصدق ، إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين ؟ » فقالت الجارية : « إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت إلا نظرة ولدت في القلب فكرة ، فتكلم الحب عن لسانى ، وجرح الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة » . ثم بكت فكأن دمعها در تناثر من عقد ، أو طل تساقط من ورد ؛ وأنشدت :

أذنبتُ ذنباً عظيماً فكيف منه اعتذارى ؟
 والله قدَّرَ هذا ولم يكن باختيارى
 والعفو أحسن شيء يكون عند اقتدار

فلم يلبث المنصور أن عفا عنها وعنه ، ووجهه الجارية (٥٤) .

وقد نقش على قبر المنصور فى « مدينة سالم » هذان البيتان :

آثاره تنبئك عن أخباره حق كأنك بالعيان تراه
 تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ، ولا يحصى الثغور سواء (٥٥)

وهذان البيتان يناقضان مناقضة ظاهرة تلك العبارة التى نقرؤها فى « مدونة

برغش Chronicon Burgense « ونصها : « في سنة ١٠٠٢ توفي المنصور ، وألحد في جهنم » .

ف ١٧ — ابن أبي زمنين — ابن المندى — حبيب الصقلي :

ونذكر ممن ظهر في عصر المنصور كذلك ، أو خلال الفترة التي تلتها إلى سقوط الخلافة ، أبا عبد الله محمد بن أبي زمنين (٩٣٥/٣٢٤ — ١٠٠٧/٣٩٨ أو ١٠٠٨ م) الذي نبغ في دراسة الفقه وألف « مدونه » المشهورة ، وشهرته بمصانينه في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين أ كبر . وقد أجمع الناس على الإعجاب بشعره الذي يغلب عليه طابع الدين وشيء من التشاؤم ؛ وإليك نموذجاً من هذا الشعر صاغه في قالب أسئلة ، وهو طراز شائع معروف :

الموت في كل حين ينشر الكفنا ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها وإن توشحت من أثوابها الحسنات
أين الأحبة والجيران ؟ ما فعلوا ؟ أين الذين هم كانوا لنا سكناً ؟
سقام الدهر كأمسا غير صافية فصيرتهم لأطباق الثرى رهناً^(٥٦)

وظهر في ذلك العصر أيضاً فقيه شاعر آخر هو أحمد بن سعيد الممداني ، ويعرف بابن المندى (٩٣٢/٣٢٠ — ١٠٠٨/٣٩٩) وكان متمكناً من أساليب تحرير الوثائق ، وقد ألف فيها كتاباً عرف « بالديوان » « شحنه بالأخبار والحكم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد والحجج ، فأتى « الديوان » كبيراً ، واخترع في علم الوثائق فنوناً وألفاظاً وفصولاً وعقداً عجيبية » ، (« صلة » ابن بشكوال ، رقم ١٩) وقد طبقت شهرته آفاق الأندلس بهذا الكتاب .

وكان أبو الوليد (ويكنى أيضاً أبا محمد) عبد الله بن محمد بن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي (٩٦٢/٣٥١ — ١٠١٣/٤٠٤) المؤرخ (انظر فقرة ٨٤) يقول شعراً لطيفاً يستلهم فيه عاطفته الدينية الغالبة عليه ، كهذه الأبيات :

أسيرُ الخطايا عند بابك واقفُ عليّ وسَلَّ مَآ به أنت عارفُ

يخاف دُتوباً لم يغبُ عنك غيبها ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُتقى وما لك في فصل القضاء مُخالف
فيا سيدى ، لا تُعزنى في صحيفتى إذا نُشرت يومَ الحساب الصحائف
وكن مؤنس في ظلمة القبر عندما يصدُ ذوو القربى ويحفو المؤلف
لئن ضاق عنى عفوك الواسع الذى أَرَجى لإسرافى فإنى لتألف^(٥٧)

وحق « الصقالية » كانوا يقولون الشعر ، وهم طائفة لعبت في ميدان السياسة أدواراً خطيرة في فترات معينة ، نبغ من بينهم شعراء مثل حبيب الصقلي ؛ وكان من صقالية هشام المؤيد ، وكان أديباً ذكياً حذراً ، ألف كتاباً في فضائل الصقالية جمع فيه الكثير من شعرهم ؛ وقد ضاع هذا الكتاب^(٥٨) .

ف ١٨ — شعراء المروانيين :

كان أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر (٩٦٣/٣٥٢ — ١٠٠٩/٤٠٠) من أظهر شعراء عصر الخلافة ، وكان حفيداً لعبد الرحمن الناصر ، ولقب « بالشريف الطليق » . « وكان فيما قيل يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم إنه استأثر بها ؛ فاشتدت غيرة مروان لذلك وانتضى سيفاً وانتهاز فرصة في بعض خلوات أبيه معها فقتله . وعُثر على القصة فسجن وهو ابن ست عشرة سنة ، ومكث في السجن ست عشرة سنة ، وعاش بعد إطلاقه ست عشر سنة ، وهذا نادر الاتفاق . ومات قريباً من سنة ٤٠٠ »^(٥٩) . وعرف في سجنه ابن مسعود ، وكان شاعراً كذلك . وقد جمع غرسية غومس « ديوان » شعره ، وأجل ما فيه قافيتته التى تنقسم أربعة أقسام : النسيب ، والخرية ، والوصف ، والفخر . ووصفه الماصفة فيها بديع رائع ، ومنها :

وغمام هطل شؤبوبة نادم الروض ، فغنى وسقى
فكان الأرض منه مطبق وكان النصب جان أطبقا

خلع البرق على أرجائه ثوبَ وثني منه لما برقا
وكان العارض الجون به آدم خلّى عليه بَلَقًا

وبرع « الشريف الطليق » كذلك في مقطعات النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات التي بلغ شعراء الأندلس فيها إلى شأو بعيد على يد ابن خفاجة^(٦٠) .

وكان سليمان المستعين — الخليفة الأموي الذي ولي الخلافة مرتين (من ربيع الأول سنة ٤٠٠ . إلى شوال سنة ٤٠٠ ، ومن شوال سنة ٤٠٣ إلى المحرم سنة ٤٠٧) وتوفي عام ١٠١٦/٤٠٧ — يقول شعراً حسناً عارض في بعضه أحياناً لهارون الرشيد في موضوع « الأنسات الثلاث » ، وقد كان لهذا الموضوع صدى بعيد في الموسيقى الأندلسية (ف ١٧٤)^(٦١) .

وكان عبد الرحمن الخامس المستظهر (توفي عام ١٠٠٩/٤٠٠) — الذي لم يملك على العرش إلا بضعة أسابيع — يرتجل أشعاراً حسناً ، وقد ربطته بابل حزن صداقة صميمة^(٦٢) .

بل كان الشعر في الأندلس يجري على ألسن النساء ، فبرع فيه منهن نفر نذكر منهن عائشة بنت أحمد ، التي عشقت أحد أبناء المنصور وتولت به ، وسريم بنت أبي يعقوب الفيصولي ، وكانت زاهدة ورعة واسعة العلم بالأدب ، وحفصة وأم العلاء الحجاريتين ، وغيرهن كثيرات^(٦٣) .

ومن أظهر شعراء هذا العصر وكتابه أبو عامر بن شهيد (٩٩٢/٣٨٢ — ١٠٣٥/٤٢٧) ، وقد أوجز غرسية غومس الكلام عنه بقوله : « إن ابن شهيد الشاعر الناقد ليمثل في نظرنا رجل الفكر العرف . لقد كان من بيت عريق فلم يصبح الأدب في يده خدمة بل سيادة . وتترأى لنا في شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث . وأما عن جانبه النقدي فقد خلف لنا « رسالة » صور فيها رحلة شاعر إلى الجنة ، سابقاً بذلك المعري ودانق إلى ذلك الموضوع . وتعرض

للأذى من ملوك الطوائف ، وألم به بعد ذلك داء عضال عانى مرارته في صبر
المتصوف ورضاء ، ووورى التراب في مقبرة « الخير » في حدائق قرطبة ، فرقد
رقدة الأبد تحت الزهور » (٦٤) .

ومن بديع شعره قطعته البانمة الجمال المسماة « بعد ليلة أنس » ، ومنها هذه
الآيات :

ولما تمدد من سكره ونام ونامت عيون العسس
دنوت إليه على قربه دنوّ رفيق إذا ما التمس
أدب إليه ديب الكرى وأسمو إليه سمو النفس
أقبل منه بياض الطلى وأرشف منه سواد اللّس
فبتّ به ليلتي ناعماً إلى أن تبسم ثغر الفلّس (٦٥)

وبيتاه اللذان يصف فيهما « العاصفة » :

وقد فغرت ظاهراً دجى كل زهرة إلى كل ضرع للغمامة حافل
ومرت جيوش المزن رهوا كأنها عساكر زنج مذهبات المناصل (٦٦)

ف ١٩ - أبو محمد علي بن حزم القرطبي ، جانبه الشعري :

وربما كان أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا في فترة انهيار الخلافة ابن حزم
القرطبي ، المكثّر في كل ناحية من نواحي الفكر والآداب (انظر ف ٦٩) .
ونجد أكبر مجموعة من شعره في « كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف » ،
وهو دراسة نفسية للحب (انظر فقرة ٦٦) الذي كتبه حوالي سنة ٤١١/١٠٢٠ .
وقد اعتبر غرسية غومس حياته « رمزاً على أحوال الأندلس على أيامه . كان
شاباً أنيقاً يفتسب إلى بيت رفيع من موالى بني أمية ، دخل ميدان السياسة
وهو بعد في مطالع الشباب ، ثم عانى أوصاب النفي واشترك في المؤامرات
والتدبيرات فيما بعد ، ثم أصبح آخر الأمر مفكراً غضب اللسان ، وجواب آفاق

ينازل العلماء والفقهاء ، ويتحدى بجدله العنيف آراء وعقائد متأصلة في الفقه والفلسفة والدين ، حتى لقد سمي نفسه في أحد كنيه « رجلاً جدياً » بل جدياً جوالاً ، حتى ایصدق عليه قوله :

لم تسفرَّ به دار ولا وطن ولا تدفأ منه قط مضجعُه
كأما صيغ من رهو السحاب فما تزال ریح إلى الآفاق تدفعه^(٦٧)

ونجد أكبر مجموعة من شعره مضمنة في تضاعيف كتابه المسمى « طوق الحمامة » (ف ٧٤) وقد ألفه سنة ٤١٠ / ١٠٢٠ ، ومقامه في الأندلس مقام كتاب « الحياة الجديدة Vita Nova » لدانتى في إيطاليا ، وهو طائفة زهر أريجة من الأقاصيص ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى للحب .

ويبدو أن ابن حزم قال الشعر وهو بعد صبي ، وكان قد درس البلاغة في شبابه على أستاذة عديدين . وكانت له قريحة طيبة تعينه على الارتجال دون تكلف ، وبين أيدينا نموذج من ارتجاله وهو قصيدة رثاء قالها في صديق له وافاه الأجل^(٦٨) . وكان ابن حزم يأخذ على الكثيرين من معاصريه الصنعة التي كانوا ينظمون بها شعرهم ، وقد سخر من الدموع الغزار التي يذرفونها « على ديار الحبيبة أو خيامها التي خلفتها » ، ويرى أن الكلام الذي أكثر الشعراء منه في وصف بهجة الوصل لا يطابق الواقع إلا في قليل . ولم يسرف ابن حزم في استعمال المجازات والتشبيهات وأضرَب البلاغة كما كان غيره يفعل ، ولم يقع في المبالغات العاطفية أو قعاقع الألفاظ إلا قليلاً ، وشعره لهذا كله طيبى واضح ، يصف أحوال النفس على فطرتها . وهو يصف ما شهدته وأحسن به إحساساً عميقاً في أسلوب جزل لطيف وشعره ينم تارة عن عاطفة حارة مشبوبة كقوله :

وددت بأن القلب شق عمدي وأدخلت فيه ، ثم أطبق في صدرى
فأصبحت فيه لا تحلّين غيره إلى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت ، فإن أمت سكنت شفاف القلب في ظلم القبر^(٦٩)

وتارة أخرى يحاق عند قم التجريد الذهني . وهو أمر غير مألوف في الشعر الأندلسي ، كقوله :

أَمِنْ عَالَمِ الْأَمْلَاكِ أَنْتَ أَمْ إِنْسِيٌّ أَبْنِ لِي ، فَقَدْ أَزْرَى بِتَمْيِيزِي الْعَمِيٍّ
أَرَى هَيْئَةً إِنْسِيَّةً ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا أَعْمَلَ التَّفَكِيرَ فَالْجَرْمُ عَلَوِيٌّ
تَبَارَكَ مَنْ سَوَّى مَذَاهِبَ خَلْقِهِ عَلَى أَنَّكَ النُّورَ الْأَنْبَقَ الطَّبِيعِيَّ
وَلَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّكَ الرُّوحَ سَاقِهِ إِلَيْنَا مِثَالٌ فِي النُّفُوسِ انْتِصَالِيٍّ
عَدِمْنَا دَلِيلًا فِي حَدُوثِكَ شَاهِدًا نَقِيسُ عَلَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّكَ مَرِيٌّ
وَلَوْلَا وَقُوعُ الْعَيْنِ فِي الْكُونِ لَمْ نَقُلْ سِوَى أَنَّكَ الْعَقْلَ الرَّفِيعَ الْحَقِيقِيَّ (٧٠)
وَقَدْ خَتَمَ غَرَسِيَّةَ غُومَسَ كَلَامَهُ عَنْ ابْنِ حَزْمَ بِقَوْلِهِ : « وَلَقَدْ كَانَ إِسْپَانِيًّا
خَالِصًا ، وَهَذَا قَوْلُهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ :

وَيَا جَوْهَرَ الصِّينِ : سَحَقًا ! فَقَدْ غَنَيْتُ بِيَاقُوتَةَ الْأَنْدَلَسِ » (٧١)

[ولما كان شعر ابن حزم يرد في سياق كتابه عن الحب ، فإن لهجته وموضوعاته تطابق المواد المختلفة التي عالجها في ذلك الكتاب ، من بدء الحب وتطوره حتى خلود ناره وتلاشيهِ . وهو يتحدث عن سلطان الهوى واستبداده وغرائبه وشكوكه وآلامه وضحاياه ، ويتحدث عما يعرض للمحبين من الغدر وعدم الثقة والسلوِّ والخذاع ، ويتغنى بجمال المرأة — والمحبوبة خاصة — وبمحلولة العتاب ، ويصف سوء العاذل المتقرب للمحبين ، ويتحدث عما يكون بين العاشقين من خصام وصلح وتواعد على اللقاء ، وما يرويه من أحلام ، وما يطرأ عليهم من السلو : أي أنه يعرض لكل الحالات العاطفية المتباينة التي يعرفها أهل الهوى] (*) (٧٢) .

وإليك نماذج من شعره في ذلك الكتاب نقلها عن « الطوق » كما نشره بطروث :

(*) من أول القوس إلى نهاية الكلام عن ابن حزم وارد في الطبعة الأولى من الكتاب الذي ترجمه ، وقد أسقطه المؤلف من الطبعة الثانية ؛ ولكن رأيت إثباته لما فيه من فائدة .

طاف الخيال على مستهتر كلفٍ لو لا ارتقابُ مزار الطيف لم ينم
لا تعجبوا إذ سرى والليل معتكر فنورده مرهب في الأرض للظلم^(٧٣)

• • •

يبكى لميت مات وهو مكرم وللحيّ أولى بالدموع الذوارف
فيا عجبا من آسف لأمرئٍ نوى وما هو للمقتول ظلماً بأسف^(٧٤)

ف ٢٠ — خصائص الشعر الأندلسي في عصر الطوائف :

قال غرسية غومس في تحليل الإنتاج الأدبي لهذا العصر وبيان خصائصه :
« كانت قرطبة الأموية — ملتقى أجناس الشرق والغرب وموضع امتزاج بعضها
ببعض — مركز توازن قلق . وعند ما انهار صرح خلافتها انثرت عقد بلادها
وتفرقت أيدي سبا ، وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب الصغار ، وأمراء
الجماعات البربرية ، وفتيان صقلية القصور » ، وزالت مع ذلك التفرق القوة الموجهة
للسياسة الأندلسية العامة ، واختفى ما هو أخطر من ذلك وهو المثل الإسباني
الأعلى . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ الأندلسي وما تعاوره من أحداث ، رأينا أنه
بينما عمل بنو أمية على تحويل الأندلس إلى قطر غربي ووقفوا في ذلك ، اجتهد
ملوك الطوائف في رد قرطبة الغريبة إلى المشرق ثانية ، فتحولت عواصمه إلى
معدادات صغيرة كثيرة . ولننصف إلى ذلك أن الظروف العامة كانت قد تغيرت
تغيراً حاسماً حول الأندلس الإسلامي : فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت
يدها إلى أوروبا : كان ذلك عصر « السيد القمبيطور » . ثم إن أهل المغرب —
فيما يلي الزقاق — نظموا أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة . وبين ناري
النصارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم
وأضعفهم الترف والبذخ ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده ،
فكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية : وسادت ذلك العصر

كله روح من البذخ المترف والإجرام السافر، من المطامع والنزوات، ومن الخفاجر والسموم. من هنا كان هذا الزمان عصراً عظيماً للشعر والشعراء، وتنافس ملوك الطوائف في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم، « ولم تزل الشعراء تتهاذى بينهم تهادى النواسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به مارآه من منافستهم في أمداحه أن حلف ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار ». كما قال الشقندي^(٧٥).

« وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه : فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزبن صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبذ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع. أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً يلقى منهم كل رعاية، ولكن عناية بنى عباد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل. وفي أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر، وكان البربر أصحاب السلطان في جنوبي الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود ووفود العناصر المشرقية على الأندلس، وابتصر نفر من أهل الأدب إلى تأليف مجموعات جيد الكلام من نظم ونثر، كالذي فعله أبو الوليد الحميري (توفي حوالي ١٠٤٠/٤٤٨ م). من تأليف كتابه « البديع في وثنى الربيع »، ومضى الناس في نظم الموشحات. ولكن أكثر ما انصرفت إليه للسكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء، ولدينا من تمارقرائهم آلاف من الأبيات؛ لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء حتى قال القزويني إن أى فلاح يحرث بأثوار في شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات. ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلوات، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين، وتخلع عليهم وظائف التدريس.

ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة . ولما اشتد عليهم الطلب وتوالى عليهم إلحاح الأمراء رفعوا أسعار أشعارهم ، حتى حلف واحد منهم لا يمدح أميراً بأقل من مائة دينار . وأدرك اليأس نفراً منهم فانصرفوا عن الشعر وعادوا إلى أريافهم وإلى ما كانوا يزاولونه قبل احترافهم الشعر من أعمال . وكان كبار القوم — من ملوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء — لا يتراسلون إلا شعراً ، فكانوا يتهادون بطاقات صغيرة تحمل عبارات الدعوات والاعتذارات والأهاجي ، أو يرفقونها بهداياهم ، أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم ، كلها منظومة شعراً يشبهون أنفسهم فيه بالنجوم والزهور ؛ أصبحت حياتهم كلها شعراً صرفاً ! ومعظم هذا الشعر متكلف زائف ، ولكنه يضم بين الحين والحين لمحات تصور أخلد العواطف الإنسانية» (٧٦) .

٣ — عصر الطوائف

- (أ) قرطبة : الوزير ابن جهور — ابن زيدون وولادة .
- (ب) لشبيلية : المعتضد — المعتمد بن عباد — المعتمد واعتاد — شعراء بلاط المعتمد — ابن حديس الصقلي — شعر المعتمد في أيام سعيه وأيام إديار حظه — شهرة الملك الشاعر .
- (ج) غرناطة : أبو الفتوح الجرجاني — أبو إسحاق الإلبيري .
- (د) المرية : الوزير ابن عباس — المعتمد بن صمداح وشعراء بلاطه — آل المعتمد .
- (هـ) بلنسية ومرسية : ابن وهبون — ابن لبون الوادي آشي — الوقشي .
- (و) بطايوس : المظفر بن الأفلح — ابن عبدون وشارح شعره ابن يدرون .
- (ز) سرقسطة : ابن باجة .

(١) قرطبة

ف ٢١ — أبو الوليد أحمد بن زيدون :

استولى الوزير أبو الحزم بن جمهور على أعنة الحكم في قاعدة خلفاء بني أمية
ببذوال ملكهم . وقد أنشد الأبيات التالية في خراب « قصور الأمويين التي
تقوضت أبنيتها ، وعوضت من أنيسها بالوحش أفنتها » :

قلت يوماً لدار قوم تقانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ؛ ولست أعلم أيناً^(٧٧)

أم شعراء قرطبة [في ذلك العصر] أبو الوليد أحمد بن زيدون الخزومي
(١٠٠٣/٣٩٤ — ١٠٧٠/٤٦٣) . تمتع ابن زيدون بمكانة عالية في المجتمع
القرطبي بفضل ما أنفق في تعليمه من عناية ، وما وهبه الله من ملكة طيبة . وقد
تجلت شاعريته وسنه تقارب العشرين ، وذلك أنه عندما توفي القاضي الفقيه ابن
ذكوان ألقى ابن زيدون على قبره سرثية بليغة . وفي خلال فترة الاضطراب
السياسي الذي سبق سقوط الخلافة ، يبدو أن ابن زيدون أخذ جانب أبي الحزم
ابن جمهور .

ثم لم تلبث العلاقات أن اتصلت بين ابن زيدون وولادة ، وكانت سليلة بيت
ملك إذ أنها بنت الخليفة الأموي محمد بن عبيد الله بن الناصر لدين الله الملقب
بالمستكني بالله ، فلما مات أبوها نزعته عن الحريم وخرجت إلى مجامع
الأدباء والعلماء .

ويذكر ابن بسام أن ولادة « كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها
حضوراً شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ونخب ، وحلاوة مورد ومصدر .
وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المصير ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو
أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهاك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة

عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة متابها . تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أتواب . على أنها — سمح الله لها ، وتعتمد زلاها — أطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، وبجاهرتها بلذاتها . كتبت — زعموا — على أحد عاتق ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشى مشيتي وأتبه تيه

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقي من محن خدي وأعطى قبلي من يشتهها
هكذا وجدت هذا الخبر ، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقله ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه ^(٧٨) .

غير أن المقرئ يقول — بعد أن يروى هذه الفقرة — إنها « كانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف » ^(٧٩) ، وهذا الكلام يناقض ما نعرفه في بعض ما بقي من شعر ولادة من فحش وقلة توقر .

ثم توثقت العلاقات بينها وبين ابن زيدون ، فكتبت إليه ذات مرة بحبيبة إياه إلى اللقاء بعد طول إلحاحه :

ترقب ، إذا جنَّ الظلام ، زيارتي فإني رأيت الليل أكرم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر ^(٨٠)
وقلد ابن زيدون أبا الطيب في أسلوبه ، فقال في بعض شعره في ولادة :
تِهْ أَحْتَمِلْ ، واستَطِّلْ أصبر ، وعِزَّ أَهْنْ

وَوَلَّ أَنْيَلْ ، وقل اسمع ، ومر أطمع ^(٨١)

بيد أن السر لم يلبث أن ذاع أمره ، وأحس الحبيبان أن هواهما في خطر . ثم إن ابن زيدون « ترك فصناً مشمراً بجماله وجنح لخصن لم يشر » ، كما يقول ابن بسام (مشيراً إلى تعلق ابن زيدون بجارية سوداء لولادة) ، فبدأ قلب ولادة يتحول عن ابن زيدون . ولقيت به في ذلك الحين أبا عامر بن عبدوس ،

وكان كلفاً بها يطمع في أن يظفر بوجدها ، غير أنه كان رجلاً جاهلاً لا ذكاء فيه ولا علم عنده ، وكان إلى جانب ذلك مغترّاً بنفسه بمحاول جهده أن يعطى جهمه بماله المريض ، وقد استطاع بفضل هذا المال أن يصبح من وزراء أبي الحزم بن جمهور — المستبد بأمور قرطبة في ذلك الحين — واجتذب ولادة ناحيته ، فثارت حفيظة ابن زيدون ، وجعل دأبه السخر من أبي عامر بن عبدوس ، وكتب إليه خطاباً على لسان ولادة أفرغ فيه تبحره الواسع في الأدب وتمكنه من اللغة ، فاشتهر أمر هذه الرسالة في قرطبة وتناقلها الناس من ذلك الحين واعتبروها غرة من أروع غرر الأدب العربي ، بدأها بقوله : « أما بعد ، أيها المصاب بعقله ، المورط بجهمه ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهاوت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أ كذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ^(٨٢) . وإنك راسلتني مستهدياً من صاتي ما صَفَرَتْ منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خأتي لما قُرِعَتْ دونه أنوف أشكالك ، مرسلًا خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك أمك ستنزل عنها إلى ، وتَخْلُف بعدها على »

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل ... »

وقد أخش ابن زيدون في هجاء ابن عبدوس في هذه الرسالة ، إلى درجة نفرت ولادة من شاعرنا وجعلتها تبذله من المحبة بغضاً شديداً . ولم يزل ابن عبدوس يدبر له ويثير عليه خصومه ، حتى جعلهم يدبرون له تهمة تبديد أموال كان قد أوتى عليها ، فزج به في السجن ، وجعل يرسل رسائل الاستعطاف من محبسه إلى أبي الحزم بن جمهور وابنه أبي الوليد -- وكان هذا الأخير صديقاً للشاعر -- فلم يسعفه واحد منهما ، فغضب يكتب إلى أصحابه دون جدوى ؛ ولم ينس مع ذلك ولادة فلما تقاعس الناس كلهم عن إسعافه تبين « أن العاجز من لا يستبد ، والمرء يهجز لا المحالة . ولم أستجز أن أكون ثالث الأذَّلين : المير والوند ، وذ كرت

أن الفرار من الظلم والحرب مما لا يطاق من سنن المسلمين» ^(٨٣)، ومن ثم قرر الحرب، ودر حيلة أفلت بها من الحبس، وربما كان أبو الوليد بن جهور قد أعانه على ذلك.

قضى ابن زيدون بعد هربه فترة من الزمن شريداً في أحواز قرطبة، مؤملاً أن يستطيع رؤية ولادة، ثم أرسل إليها «بنونيته» المشهورة يتشوق فيها إليها ويدعوها إلى اللحاق به. وقد قال فيها غرسية غومس: «لأنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون، وغرة من أبدع غرر الأدب العربي كله، عارضها ناس كثيرون ولا زالوا يعارضونها إلى اليوم».

وإليك أبياتاً منها:

ينتم وبنياً، فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا
تكاد — حين تناجيكم ضمائرنا —	يقضى علينا الأمل، لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا، فقدت	سوداً وكانت — بكم — بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألقنا	ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية	قطـوفها، فجئنا منه ماشينا
ليسقى عهدكم، عهد السرور، فما	كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
من مبلغ الملبسين بانتزاحهم	حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان — الذي ما زال يضحكننا	أنساً بقربكم — قد عاد يبيكننا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نقصّ، فقال الدهر: آمينا
فأنحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا	وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُخشى تفرّقنا	فاليوم نخفّ وما يُرجى تلاقينا
يا سارى البرق غاد القصر فاستق به	من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويانسيم الصببا بلغ تحيّننا	من لوعلى البعد حي كان يحيينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يفـيرنا	إن طالما غـير النأي المحيينا

والله ما طابت أهـواؤنا بدلا منك ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ياروضةً طالما أجنبت لواحظنا ورداً جناه الصبا غصاً ونسريفا
 وبأحياءة تملينا بزهرتها مئى ضروباً ولذات أفاثينا
 لسنا نسميك ، إجلالاً وتكرمة فقدرك المعتلى عن ذاك يغنيها
 إذ انفردت فاشورك في صفة فحبك الوصف إبضاحاً وتبينها
 كأننا لم نبت والوصل ثالنا والسعد قد غص من أجفان واشينا
 ميران في خاطر الظلاء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينها
 ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوثر المذب زقوماً وغسلينا
 إنا قرأنا الأسمى يوم النوى سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
 ولم تجبه ولادة إلى ما طلب ، فضى « يستضى بنور حياها في الليل البهيم » ،
 كما يقول ابن خاقان^(٨٤) . ثم شفع له أبو الوليد بن جهور عند أبيه حتى عفا عنه ،
 فعاد إلى قرطبة ومنى يقرض اللدائع في أبي الحزم بن جهور وآله ، تحدث في
 بعضها بما فعله أبو الحزم من تحريمه الخمر في قرطبة وأمره بكسر أوانها ، وعند ما
 توفي أبو الحزم في سنة ١٠٤٣/٤٣٥ قال فيه طائفة من المرائي^(٨٥) ، ورثى كذلك
 زوج أبي الحزم التي توفيت بعده بقليل^(٨٦) .

أما ولادة فليس لدينا من أخبارها ما يدل على أنه كانت لها بعد ذلك صلة
 بابن زيدون ، ويبدو أنها انزوت عن الناس مقتصرة على صلتها بابن عبدوس ،
 حتى أدركتها المنية في سن عالية^(٨٧) .

وقد دخل ابن زيدون بعد ذلك في خدمة أبي الوليد بن جهور ، الذي خلف
 أباه في حكومة قرطبة : فاصطنع ابن زيدون « وأوسع راتبه وجلله كرامة لم تقنعه ،
 فيما زعموا » . ثم بعثه رسولا له إلى إدريس أمير مالقة ، « فأطال الثواء هنالك ،
 واقترب من إدريس ، وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن
 جهور وصرفه عن ذلك التصرف قبل قفوله ، ثم عاد إلى جليل رأيه فيه ، وصرفه

في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس » ، فذهب إلى بلنسية و بطليوس ، واستقر به المطاف آخر الأمر في إشبيلية ، حيث وجد الميدان فسيحاً لمطامحه ، إذ أحسن المعتضد بن عباد لقاءه أَمْلاً في الانتفاع به . وقد قال فيه ابن زيدون قصيدة من روائع شعره ، وبلغ من إقبال المعتضد على ابن زيدون أن أقامه وزيراً له . وكان المعتضد مجتهداً في القضاء على جيرانه البربر ، حتى استولى على بلادهم واحدة بعد الأخرى ، وسمت هيمته إلى توحيد بلاد المسلمين في الأندلس تحت رايته ، وتشبه بأمرأء المشرق في تقدير الشعر وإعلاء شأن أهله . وقد أشاد ابن زيدون بالأعمال الحربية التي قام بها المعتضد ، خلال فترة اجتهاده في توسيع رقعة مملكة إشبيلية . وعند ما توفي المعتضد ، استطاع ابن زيدون أن يحتل من ابنه المعتمد نفس المكانة التي كانت له عند أبيه ، وصار من خواصه وصحابه ، يحالسه في خلواته ، ويسفر له في مهم رسائله على حال من التوسعة . وكان ذهابه إلى ابن عباد سنة ٤٤١ . وقد بلغ تلك المكانة على رغم سعايات الحاسدين له من الخاشية (وخاصة ابن مرتين وابن عمار اللذين عملا على إبعاده) . وكان المعتمد قد انتقل إلى قرطبة بعد استيلائه عليها ، فاصطحب ابن زيدون معه ، فعاد إلى بلده وأهله وعلت مكانته عند ابن عباد ، فزاد حسد الحاسدين له . وحدث بعد ذلك أن وقعت فتنة بإشبيلية ، بسبب رجل يهودى بطش به مسلم ، فثار له أهل ملته وتفاقم الأمر ، فعجل المعتمد بإرسال نفر من كبار رجال دولته إلى إشبيلية لثلافي الفتنة ، وأنفذ معهم ابن زيدون ، فخرج « على بقية وعك كان متألماً منه » ثم أتبعه المعتمد بابنه ، « فتمحدث الناس بقبو مكان الأديب ابن زيدون عند السلطان » . واستقر بابن زيدون وجهه « إلى أن قضى نحبه » ، وهلك بدار هجرته إشبيلية صدر رجب سنة ٦٣ « (١٥ رجب ٤٦٣ / ١٧ - ١٨ أبريل ١٠٧٠ م) ^(٨٨) .

ويصع ابن بسام ، ومن جاء بعده ، آثار ابن زيدون في أربعة أبواب ، هي : المدائح ، والرسائل ، والمراثي ، والفزل أو النسيب . وهذه الأضرُب الأربعة من

الفصائد معروفة متواترة عند القدماء ، وبالإضافة إلى هذه نظم ابن زيدون بعض شعره في بحر الرجز ، وخلف تخميسين ؛ والتخميس لون من الشعر يتكون من فقرات كل منها خمسة مصاريع ، الأربعة الأولى منها على قافية واحدة ، والخامس على قافية أخرى يلتزمها الشاعر في المصراع الخامس من كل فقرة في قصيدته كلها . وقد استعمل ابن زيدون هذه الضروب الشعرية في غزلياته التي صاغها في شبابه ، وفي مدح ممدوحيه وراثتهم حين صار شاعر بلاط (٨٩) .

ويلقب ابن زيدون بتيبولوس^(٩٠) الأندلس ، لما بين حياته وما جرى عليه من الحوادث وما عبر بذلك الشاعر اللاتيني من تشابه . بيد أننا لا نستطيع أن نقارن بين هذين الرجلين ، فقد عاشا في عالمين مختلفين ؛ ثم إن تهور ابن زيدون وعنفه لا يمكن أن يقارنا بمحلاوة تيبولوس ورقته . وربما كان ابن زيدون قد استوحى فنه من المتنبي الشاعر العربي الطائر الصيت ، فقد كان يقلده في أماليه وأحيائه تقليداً ، وهو لهذا « شاعر من طبقة الفحول القدماء وطابعهم ، وكان شعره لهذا جديراً بأن يتخذ مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء » ، كما يقول أوجست كور ، وقد ذهب إلى هذا الرأي كذلك أبو علي بن رشيح القيرواني ومحمد بن صاره الشنتريني وأحمد المقرئ .

وقد أوحى حياة ابن زيدون وقصته مع ولادة إلى كاتب مسرحي محدث فكرة قصة مسرحية في ستة فصول طبعت في القاهرة في سنة ١٣٤٧/١٩٢٨ (٩١) .

(ب) إشبيلية

ف ٢٢ — المعتصم بن عباد :

تمكن القاضي أبو القاسم محمد بن عباد (المتوفى سنة ٤٣٤/١٠٤٢) من القبض على نواصي الحكم في إشبيلية قبيل انتشار عقد خلافة بني أمية ، وخلفه

ابنه عباد الذى تلقب بالمعتضد (١٠١٢/٤٠٣ — ١٠٦٩/٤٦٢) . وقد كان ذا مزاج متناقض غريب ، يجمع بين الدهاء والقسوة ، والإحساس المترف ، والعلم الواسع ، والذوق الرفيع النفاذ . وكانت له — إلى ذلك — ذاكرة واعية ، وقرينة شاعرية طيبة ، جعلت معاصريه يضعونه فى صفوف المبرزين من الشعراء . وأحاط المعتضد نفسه بهالة من الشعراء ، جعلت همها مديحه ، وأفرغ عليهم الأموال فبدا فى حياة خلافة من العظمة . وقد سلك فى الاستبداد طريق سميحه المعتضد العباسى فى بغداد ، وحتى فى مجالات اللهو والعبث والشراب ، التى كان هو وشراؤه يسرفون فيها فى المتاع ، كان يحرص على أن يبدو رئيساً مهيباً . وكان هو وجلساؤه يرتجلون فى خلواتهم خمریات هى الغاية فى رقة الذوق وجمال الأسلوب . وربما أودع شعره من المعانى ما يمس العقيدة ، كقوله :

اشرب على وجه الصباح وانظر إلى نور الأفاح
واعلم بأنك جاهل إن لم تقل بالإصطباح^(٩٢)

وكان المعتضد لا يكل من العمل ، لا يعادل تفانيه فيه إلا تراميه على ملذاته . وكان إذا أبغض إنساناً لم ينقع غلة حقه شئ ، وقد بلغ من القسوة حدا جعله يتخذ جماجم أعدائه الذين أذاقهم الختوف أصصا يزرع فيها الزهر ، ويزين بها حديثه ويتلذذ بتأملها كما يتلذذ البخيل بالنظر إلى ماله ؛ ومع ذلك كله فقد كان يحسب نفسه خير الملوك ويقول :

هذى السعادة قد قامت على قدم وقد جلست لها فى مجلس الكرم
فإن أردت إلهى بالورى حسنًا فمَلَكْتُ زمامَ العرب والعجم
فإننى لا عدلتُ الدهرَ عن حسنٍ ولا عدلتُ بهم عن أكرم النسيم
أقارعُ الدهرَ عنهم كل ذى طاب وأطرد الدهرَ عنهم كلَّ ما عرم^(٩٣)

وكان موفقاً فى حروبه ، فتمكن من القضاء على بعض إمارات الطوائف الصغيرة فى جنوب الأندلس ، وضم أراضيها إلى إشبيلية فاتسعت رقعتها . وأوحت

إليه فتوحه بعض شعره ، ومن ذلك ما قاله بعد أن حاز رندة وحصنها :

لقد حُصِّنتِ يا رنده فصرت للكنة عقده
أفادتناك أرماح وأسيف لما حده
وأجناد أشداء بهم تنتهى الشده
غدوتُ يرونى مولى لهم ، وأرامُ عده
سأفنى مدة الأعدا إن طالت بى اللده
وتبلى بى ضلالتهم ليزداد المدى جده
فكم من عدة قُتلا ت منهم بعدها عده
نظمت رؤوسهم عقداً فخلت لبة السده^(٩٤)

وقد حفل بلاط بنى عباد بمحشد كبير من الشعراء ، تجمع الكثير من شعرهم وأودع مجموعات المأثورات الأدبية التى ظهرت فيما بعد ، ومن أولئك أبو الوليد بن حبيب (توفى ١٠٤٨/٤٤٠) وزير المعتضد ، وأبو بكر بن القوطية نديم المعتمد ، وعلى بن حصن الذى أبدع فى وصف « فرخ الحمام » بقوله :

وما حاجنى إلا ابن ورقاء هائف على فنن بين الجزيرة والنهر
مُستق طوقٍ لا زوردي كلكلٍ موشى الطلّى أحوى القوادم والظاهر
أدار على الياقوت أجفان لؤلؤٍ وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر
حديداً شبا المنقار داج كأنه شبا قلم من فضة مدّ فى حبر
نوسد من فرع الأراك أريكة ونام على طىّ الجناح مع النحر
ولما رأى دمعى مُراقاً أرابه بكأى فاستولى على النعصن النضر
وحت جناحيه ، وصفق طائراً وطار بقلبي ، حيث طار ، ولأدرى^(٩٥)

ف ٢٣ — المعتمد :

بيد أن المعتمد (١٠٤٠/٤٣٢ — ١٠٩٥/٤٨٩) — ابن المعتضد وخليفته على عرش إشبيلية — يحتل فى الأدب الأندلسى مكاناً أعظم وأهم من مكان أبيه

وهو من شعراء العربية الذين أجمع الناس على الإعجاب بهم في العالم الإسلامي كله^(٩٦). وقال غرسية غومس عن شاعريته :

« إذا كان لا بد من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله ، فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (١٠٦٨/٤٦١ - ١٠٩١/٤٨٤) . كان أبوه المعتضد (١٠٤٢/٤٣٤ - ١٠٦٩/٤٦٢) صاحب الأفاعيل الشنيعة ، وأبناؤه جميعاً - وخاصة « الراضى » الرقيق صاحب رندة - كلهم شعراء . ولكنه بزعم جميعاً وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار ، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولاً أنه كان ينظم شعراً يثير الإعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعراً حياً ، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامي كله ، فإلى بلاطه لجأ شعراء صقلية وإفريقية عندما غزا النورمان بلادهم ، واستولوا على بعضها وتهددوا الباقي » .

ف ٢٤ - المعتمد وابن عمار :

بدأ المعتمد حياته السياسية عاملاً لأبيه على ولبة ، ثم قاد جيش إشبيلية الذي حاصر شلب عام ١٠٥٢/٤٤٤ . وهنا بدأت مواهبه الشاعرية تتجلى ، فقد لقي هناك أبا بكر بن عمار ، وكان شاباً عربى الأرومة فقير المنبت درس الأدب في شلب وقرطبة ، ثم مضى يذرع نواحي الأندلس في ملابس مستفكرة بعض الشيء ، وجعل يقول المدايح فيمن يمنحه العطاء ، ولم يقصر هذه المدايح على الأمراء والرؤساء على ما جرت به عادة كبار الشعراء إذ ذاك . ثم لم يلبث أن دخل على المعتمد ، ولما كان كلاهما من عشاق المسرات والمفاخرات والشعر الجميل ، فقد توطدت بينهما أسباب المودة . وقد اندفع المعتمد في حبه ابن عمار اندفاعاً شديداً صادقاً ، في حين أن ود ابن عمار للمعتمد لم يخل من الشكوك والريب أبداً . ولم يكن كصاحبه الأمير يؤمن بدوام الرخاء والمفناء ، وإنما كان رجلاً ذاق مرارة

الخبية التي يخلفها في النفس الكفاح الدائم في سبيل العيش ، وكسب ابن عمار من حياته المجهدة كذلك شيئاً من الخبرة بطبائع البشر ، ومن ثم كانت المواجهات السوداء تطوف بنفسه ، وتلقى في روعه أنه فاقد ود المعتمد يوماً من الأيام^(٩٧) .

وقد أبدع ابن عمار في قصيدة مدح بها المعتمد ، معروفة ذائعة في الأدب العربي يقول فيها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن الشرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره	وشياً ، وقلده نداء الجوهرا
أو كالغلام زها بورده رياضه	خجلاً وتاه بأسيهٍ مُعذراً
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدد عسكرا ^(٩٨)
عباد الخضر نائل كفه	والجو قد لبس الرداء الأغبرا
يمتار - إذ يهب الخريدة - كأعبا	والطرف أجرد والحسام مجوها
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد	- ونحاه - لا يردون حتى يصدرا

الح . . .

قضى ابن عمار في إشبيلية أول الأمر زمناً رخياً ، واشتغل المعتمد به عن أمور الدولة ؛ فأنكر المعتضد ذلك وأراد أن يصرف ابنه عنه ففناه من إشبيلية ، فتوجه إلى مرسطة حيث أقام حتى مات المعتضد وصار الأمر للمعتمد ، فاستقدمه وخيره في ولاية بتولاها ، فاختار شلب ، فأجابه المعتمد إلى ما طلب والألم يلاً نفسه لفرقه ، ألم حرك شاعريته فقال بضعة أبيات ذكر بها أيام الشباب السعيدة في ذلك البلد مع صاحبه :

ألا حى أوطانى « شِلْبِ » أبا بكر وصاله : هل عهد الوصال كما أدرى ؟
وسلم على « قصر الشراجب » عن فتى له أبدأ شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد ويبيض نواعم فناهيك من غيل ، وناهيك من خدر
فكم ليلة قد بئت أنم جنحها بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
ويبيض وسمير فاعلات بهجتي فعال الصفاح البيض والأسل الشعر
وليل بسد النهر لهواً قطعته بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منم نضير كما انشق السكام عن الزهر^(٩٩)

دخل ابن عمار شلب دخول الأمراء في موكب حافل ، ولكنه لم يفكر
فضلاً لأحد من أحسنوا إليه في أيامه الخوالي . ثم جعله المعتمد وزيراً له وأعاده إلى
جانبه . وقد أخذ شاعر شلب بنصيب وافر في الدفاع عن إشبيلية وزياد النصارى
عنها ، وكانوا لا ينفكون ينهشون حدودها ويغاورون أراضيتها . وترى له في ذلك
قصة مشهورة — ذات طابع أسطوري خالص — تذكر كيف استطاع ابن عمار
صرف الأذفونش (ألفونسو السادس) عن أراضى إشبيلية « بألف حيلة وأيسر
تدبير » ، كما يقول عبد الواحد المراكشي^(١٠٠) : « فقد صنع سفرة شطرنج في غاية
الإنقان ، فبلغ خبرها الأذفونش فلما خرج للقائه سأله عنها فقال : « آتيك بها على
أن ألب معك عليها فإن غلبتني فمى لك وإن غلبتك فلى حكى » . وغلب
الأذفونش فطلب إليه ابن عمار أن يرجع فلم يسمعه إلا الارتداد^(١٠١) . وأعان ابن
عمار المعتمد على ما كان بسيله من توسيع رقعة إشبيلية ، وخاصة في الاستيلاء على
مرسية وانتزاعها من يد صاحبها ابن طاهر . وقد حاول ابن عمار في الوصول إلى ذلك
بالانفاق مع كُند برشلونة رامن بيرنجوير الثانى الملقب برأس الأسطب Capeza de
estopa ، على أن يعينه على ابن طاهر لقاء مبلغ من المال ، وتركه الرشيد بن
المعتمد رهينة عند رامن حتى يُدفع المال . ثم كتب إلى المعتمد بذلك فأبطأ عليه
رده ؛ وقلق الرشيد حين طال بقاءه بيد أمير برشلونة ، ووجد ابن عمار نفسه في
مركز حرج ، فأدركه الغضب على أميره وبعث إليه بالآيات الهائلة من
« جَيَّان » :

أَصْدَقُ ظَنِّي أَمْ أَصْبَحَ إِلَى صَحْبِي وَأَنْفَضِي غَزِيرِي أَمْ أَعُوجُ مَعَ الرِّكْبِ
 إِذَا انْقَدْتُ فِي رَأْيِي مَشَيْتُ مَعَ الْهَوَى وَإِنْ أَنْعَقْبُهُ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي
 وَإِنِّي لَتُثْنِيئِي إِلَيْكَ مَوْدَةٌ يَغْيَرُهَا مَا قَدْ تَعَرَّضَ مِنْ ذَنْبِي
 فَمَا غَرَبَ الْأَيَّامُ فِيمَا قَضَتْ بِهِ تَرِيئِي بَعْدِي عَنْكَ آئِسَ مِنْ قُرْبِي
 أَخَافُكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي وَأَرْجُوكَ لِلْحُبِّ الَّذِي لَكَ فِي قَلْبِي
 وَكَمْ قَدْ فَرَّتْ يَمْنَاكَ بِي مِنْ ضَرِيرَةٍ وَلَا غُرُوبًا أَنْ يَفْلُلَ مِنْ غُرْبِي
 وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَفْوَ مِنْكَ سَجِيَةٌ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَخْفَ مِنْ عَتْبِي
 وَلِي حَسَنَاتٌ لَوْ أُمْتُ بِبَعْضِهَا إِلَى الدَّهْرِ لَمْ يَرْتَعْ لِنَائِبَةِ مِيرْبِي^(١٠٢)

وصفح المعتمد عما بدر من ابن عمار وكتب إليه :

تَقَدَّمَ إِلَى مَا اعْتَدْتُ عِنْدِي مِنَ الرَّحْبِ وَرِدْتُ تَلَقَّكَ الْعَتْبَى حِجَابًا مِنَ الْعَتْبِ
 مَتَى تَلَقَّنِي تَلَقَّ الَّذِي قَدْ بَلَوْتَهُ صَفُوحًا عَنِ الْجَانِي رَهْوَفًا عَلَى الصَّحْبِ
 سَأُولِيكَ مِنِّي مَا عَهَدْتَ مِنَ الرِّضَا وَأَصْفَحَ عَمَّا كَانَ ، إِنْ كَانَ مِنْ ذَنْبِ
 فَمَا أَشْمَرُ الرَّحْمَنُ قَلْبِي قَسْوَةً وَلَا صَارَ نَسْيَانُ الْأَذْمَةِ مِنْ شِعْبِي
 تَكَلَّفْتَهُ أَبْنَى بِهِ لَكَ سُلُوكٌ وَكَيْفَ يَمَانِي الشَّعْرَ مَشْرُوكَ الْبِ^(١٠٣)

ثم تمكن ابن عمار من الاستيلاء على مرسية بمعاونة ابن رشيق صاحب حصن بَلَّشْ (Velez الحالية) ، فلعله العجب الشديد بنفسه وأخذ حياة الأمراء ، وجلس للناس وعلى رأسه « الطويلة » ، وهي قلنسوة المعتمد وغيره من الأمراء في المناسبات الخافلة ، وحاكى المعتمد « في التعبير وكتب : « ينفذ هذا إن شاء الله » في أسفل قرطاسه ، وتحنن في كلمتي يديه »^(١٠٤) فبدأت الشكوك تساور نفس المعتمد ، وفوجئ بالأمر فتغيرت نفسه وخشى أن يكون صديقه القديم مشغولا بالتدبير عليه . ولا يمكننا القطع بأن ابن عمار كان يفكر في الوثوب بالمعتمد ، فقد كان مخلصاً لأُميره وإن لم يتحمس له ويندفع نحوه كما كانت حال المعتمد معه ، وكان صادقاً حين قال :

[لك المثل الأعلى وما أنا حارث] ولا أنا ممن غيرته الحوادث
ولا شاركته الشمس في وإيه لينأى بحظي منك ثاب وثالث
فديتك ما للبشر لم يَسْرِ رقه ولا نفعت تلك السجايا الدماث
أظن الذي بيني وبينك أذهبت حلاته غنى الرجال الأخابث
تسكرت ، لا أنى لفضلك ناكس لدى ، ولا أنى لعمدك ناكث
[ولكن ظنون ساعدتها سخائم كما ساعدت صوت المثاني الثالث] (١٠٥)
أبعد انقضا خمس وعشرين حجة تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث
حلت يداً بي هكذا وتركنتي نهاباً وللأيام أيد عوابث
وهل أنا إلا عبد طاعتك التي إذا مت عنها قام بعدى وارث
أعد نظراً ، لا توهم الرأي إنه قديماً كبا هافٍ وأدرك رائث (١٠٦)
ستذكرني إن بان حبل وأصبحت تبين بكفّيك الحبال الرثائث
وتطلبني إن غاب للرأي حاضر وقد غاب غنى للخواطر باعث
أعوذ بعهد نطته بك أن ترى تحمل عراء العاقبات النوافث (١٠٧)

والصحيح أن ابتعاد ابن عمار الطويل عن إشبيلية أتاح الفرصة لأولئك
« الرجال الأخابث » لإفساد نفس المعتمد عليه ، وكان من بينهم الوزير أبو بكر
ابن زيدون ، ابن أبي الوليد بن زيدون شاعر قرطبة الأنف الذكر . وزاد الحال
سوءاً أن ابن عمار لم ينفذ ما أمره به المعتمد من إطلاق سراح ابن طاهر ، مما
أسرع بشاعر شلب إلى حتفه . ذلك أن ابن طاهر احتال للهرب من محبسه ،
وعاونه في ذلك ابن عبد العزيز صاحب بلنسية ، فلك الغضب ابن عمار ونظم
قصيدة يحض فيها أهل بلنسية على الوثوب بابن عبد العزيز ، قال فيها : (١٠٨)

[حَبَّرَ بلنسية ، وكانت جنة ، أن قد تدلّت في سواء النار
غدرت وفياً بالهود وقلما عثر الوفي سعى إلى القدار]
جازوا بني عبد العزيز فإنهم جرّوا إليكم أسوأ الأقدار

نوروا بهم متأولين وقلدوا ملكا يقوم على العدو بشار
 هيهات تطمع في النجاة لطالب ساع إذا ونت الكواكب سارى
 جرارٍ أذبال القنى ظنوا به قد زاركم فى الجحفل الحرار^(١٠٩)
 وعلم المعتمد بالأمر ، واطلع على قصيدة ابن عمار ، فغضب عليه غضباً شديداً
 لأن ابن عبد العزيز كان صديقاً له ، وعارض شعر ابن عمار بأبيات يسخر فيها
 منه ، قال :

كيف التفتت بالخديمة من يدى رجل الحقيقة من بنى عمار ؟
 إلى أن يقول :

الأكثرين مسوداً ومملكا ومتوجاً فى سالف الأعصار
 والموترين على العيال بزادم والضاربين لهامسة الجبار
 الناهضين من المهود إلى الملا والمنهضين الغار بعد الغار^(١١٠)
 وحركت سخريه المعتمد دواشى الغضب فى نفس ابن عمار ، وأفلت زمامه
 من يده ، فكتب قصيدة بالثقة العنف ذم فيها المعتمد وآله وزوجه الرميكية^(١١١) ،
 وحصلت فى يد المعتمد نسخة منها بخط ابن عمار ، فلما علم هذا الأخير بذلك هلمت
 نفسه ، وفر من مرسية ولجأ إلى الأذقونش فأساء استقباله وازور عنه ، فانصرف
 عنه إلى سرقسطة ومضى يعين صاحبها فى أموره ؛ ثم حاول الاستيلاء على
 « شقورة » فوقع فى أسر صاحبها فى أثناء المحاولة ، وعرض أسره أن يسلمه لمن
 يدفع فيه أكبر مبالغ ، فبذل للمعتمد أقصى ما كان الرجل يطلبه وحصل ابن عمار
 فى يده . وقد حاول ابن عمار أن يظفر بصفح المعتمد ، وجرى بينهما ما أحيى
 فى نفس الشاعر ذبالة من الأمل ، ولكن الأمل لم يلبث أن خبا بسبب سعايات
 ابن زيدون ؛ وانتهى أمر ابن عمار بأن مات قتيلاً بيد المعتمد^(١١٢) .

ف ٢٥ — اعتماد :

وهناك شخصية أخرى تجلت في بلاط المعتمد وكان لها أثر بعيد في إنتاجه الشعري ، تلك هي اعتماد الرميكية التي كانت جارية تاجر من مياسير إشبيلية يسمى « رميك » . وقد صادفها المعتمد في إحدى نزواته مع صاحبه ابن عمار وأعجب بها إذ أجازت على البديهة شطر بيت عجز عن إتمامه ابن عمار نفسه ، فاشتراها من صاحبها وتزوجها .

كان حديث اعتماد يفيض عذوبة وطلاوة وكانت طلفتها مسعدة ، حاضرة الجواب بارعة الردود ، وكانت فيها رقة طبيعية غالبية ومرح لطيف ، تشوبه سذاجة الطفولة ، ولكنها كانت تسرف في دلالها ونزواتها إلى حد يضيق عنه صبر المعتمد . ومن نزواتها للسرفة ما تحكيه الكتيب من أنها طلبت إلى المعتمد أن يريها الثلج فزرع لها أشجار اللوز على جبل قرطبة ، حتى إذا نورّ زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بالثلج الأبيض ، ومنها تمنى أن تسير في الطين برجليها كما رأت الناس يفعلون ، فأمر المعتمد بأن يذرها في رحبة القصر الكافور والطيوب وأن تعجن بماء الورد ، حتى صارت كالطين وخاضت فيه مع جواربها^(١١٣) .

وقد أبغضها الفقهاء ورموها بأنها « ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلعة والاستهتار والمجاهرة ، حتى كتب عليه أهل إشبيلية بذلك وبتعطيل صلوات الجمع عقوداً ، ورفعوها إلى أمير المسلمين »^(١١٤) . ولم تكن هي لتأق إلى أولئك الرجال الذين بذلوا قصارهم في إزالة ملك بني عباد ، ومضى المعتمد على حاله معها فلم يقصر في شيء يجلب إلى نفسها السرور . وقد بلغ من إعزازها إيائها أن صنع أبياناً يبدأ كل منها بحرف من حروف اسمها وهي :

أغائبه الشخص عن ناظري وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدر السهاد
تمسكت مني صعب الرام وصادفت مني سهل القياد

مرادى أعيالك في كل حين فياليت أنى أعطى مرادى
أقيى على العهد في بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دست اسمك الخلو في طيه وألفت [منه] حروف «اعتماد»^(١١٥)
وقال المعتد فيها كذلك شعراً كثيراً نختار منه هذه الأبيات :

كتبتُ، وعندى من فراقك ما عندى وشوقى كن قد بان عن جنة الخلد
وما خطت الأقلام إلا وأدُمى تخط سطور الشوق في صفحة الخلد
ولولا طلاب المجد زرتك طيه عميداً، كما زار الندى ورق الورد^(١١٦)

ف ٢٦ — شعراء بهو المطعم — ابن محمد بن الحسن :

ليس من الغريب — وأمير الدولة ووزيرها شاعران — أن يظفر الشعراء
بخطوة كبيرة في بلاطها . ولقد قال ابن خاقان إن المعتد « ملك قمع العدا ، وجمع
الباس والندا ، وطلع على الدنيا بدر هدى ، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه ، آونة
يراعه وآونة سناناه ، وكانت أيامه مواسم ، وثقور به مواسم ، ولياليه كلها درراً ،
وللزمان أحجالاً وغرراً ، لم يغفلها من سمات عوارف ، ولم يضحها من ظل إيناس
وارف ، ولا عطلها من مآثرة بقى أثرها باديها ، ولقى معتضيه منها إلى الفضل هاديها ،
وكانت حضرته مطمحاً لهم ، ومسرحة لآمال الأمم ، وموقفاً لكل كمي ، ومقذاً
لذى أنف حمي ، لم تخل من وفد ، ولم يصح جوها من انسجام رقد ، فاجتمع تحت
لوائه من جواهر السكاة ، ومشاهير الحماة ، أعداد يغص بهم الفضاء ، وأنجاد
يزهى بهم النفوذ والمضاء . وطلع في سمائه كل نجم متقد ، وكل ذى فهم منتقد ،
فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، وغاية لرمى هدف البيان ، ومضماراً
لإحراز خصل في كل معنى وفصل »^(١١٧) .

وإلى هذا كله كان المعتد نقادة دقيقاً للشعر لا يميز إلا الجيد منه ، وكان الجيد
يظفر منه بكرم واسع .

وقد ألقى الشاعر عبد الجليل بن وهبون بين يديه اليتيم التالين :

غاض الوفاء فما تلقاه في رجل ولا يمر بمخلوق على بال
قد صار عندهم عنقاء مُغرِبةً أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فقال المعتمد : « عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء ؟ »
فقال : « نعم » فقال : « قد أمرنا لك بألف دينار ، وبألف دينار أخرى
تنفقها » (١١٨) .

وقد حفل بلاط المعتمد بشعراء شاركوا فيما عبر به من مصروف ، ومن أولئك
ابن زيدون حاسد ابن عمار وعدوه ، والحصرى الملح في الطلب في غير حياء ، حتى
لقد لقي المعتمد في طنجة وهو في طريقه إلى المنفى فلم يستح من مطالبته بالعطاء (١١٩) ،
وابن اللبانة الداني (١٢٠) الذي يعتبر مثلاً في الوفاء وإخلاص الود ، وقد أقام إلى
جانب المعتمد يؤنسه في محبسه . وفي هذا البلاط كذلك نجد « الجارية العبادية » (١٢١)
التي أهداه إياها مجاهد صاحب دانية ، وكان لها في نفس المعتمد مكان عظيم ،
والرازي بن المعتمد نفسه ، وكان شاعراً مجيداً (١٢٢) ، وبثينة ابنة المعتمد من
اعتماد ، وقد بيعت سبيّة في وثاقها عندما استولى المرابطون على إشبيلية ، فاشتراها
تاجر إشبيلي واستخلصها من بين الأسرى ، فكتبت إلى أبيها أبياتاً بارعة تستأذنه
في الزواج من ابن منقذها (١٢٣) .

وكان عبد الجبار بن حديس الصقلي أحد شعراء بلاط المعتمد ، وأصله من
سرقوسة بصقلية ، بارح بلده عندما استولى عليها النورمان في سنة ١٠٧٨/٤٧٠ ،
وأقبل إلى الأندلس وألم ببعض نواحيها ، ثم استقر في إشبيلية ؛ فلم تلبث براءته
في ارتجال الشعر أن ظهرت ، وحظي من المعتمد بمكان جميل (١٢٤) . ولما كان
ذاهباً بالحروب وقراع الأسنة ، فقد صاحب المعتمد إلى ميادين حروبه . وعندما
أسر المعتمد ونُفي إلى أغمات رافقه ابن حديس إليها ، واجتهد في التمتعيف عنه

بقصائد جميلة ، ثم انصرف إلى إفريقية وعاش ردها من الزمن في المهديّة ، ثم انتقل إلى تونس وظل فيها إلى آخر أيامه .

و « ديوان » ابن حديس مشهور مقداول ، وقد نشر « أماري » منه جزءا وأشعاره تعرض جوانب من حياته : شبابه ومغامراته في إفريقية ، والحنين إلى وطنه الأول ، ومدائح قالها فيمن اتصل بهم من الأمراء وذوى الشأن . وأما فيما يتصل بالأندلس ، فإننا نجد في شعر ابن حديس إشارات أدبية وحربية ، وهو يذكّر إقباله على المعتمد وسجن هذا الأخير . وأحسن أشعاره تلك التي يذكّر فيها وطنه . ولابن بسام فيه رأى جميل (١٢٥) .

ف ٢٧ — شعر المعتمد في سمرقند :

يبد أن المعتمد لم يزل طول حياته أبرز الشخصيات الأدبية في عصره ، وأشعاره تنقسم بطبيعة الحال إلى قسمين : ما قاله أيام ملكه وإقبال الدهر ، وما قاله في منفاه حين اجتمعت عليه الموم وعيست له الأيام .

ومن لطيف شعره ما قاله وهو بعد أمير ، وقد أرسله أبوه المعتمد على رأس جيش رمى به مالقة ، فانهزم المعتمد من جراء إهماله فغضب أبوه غضبا شديدا ، وخاف سورة أبيه فكتب إليه أبياتا لم تلبث أن ذهبت بغضبه وأعادت إليه صفوه :
لم أوتَ من زمني شيئا ألد به فلست أعرف ما كأس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر ولا سبا خلدي غنج ولا حور
رضاك راحة نفسي ، لا فجعت به فهو العقاد الذي للدهر أدخر
وهو المدام التي أسلوبها ، فإذا عدمتها وقدت في قلبي الفكر
أجل ، ولي راحة أخرى كلّفت بها : نظم الكلي في القنا والمام تنقثر (١٢٦)
وعند ما فتح قرطبة قال متحدثا عنها كما لو كانت غانية جميلة ذات صلف :
من الملوك بشأو الأصيلد البطل هيات جاءتك « مهزّية » الدول

خطبتُ قرطبةُ الحسناء إذ منعتُ من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلاً ، حتى عرضتُ لها فأصبحتُ في سرى الخلى والخلل
عرس الملوك ، لنا في قصرها عرس كل الملوك به في مأثم الوجل
فراقبوا عن قريب — لا أبالكُم — هجوم ليث بدرع الباس مشتمل (*)

ف ٢٨ — المرابطون في إشبيلية :

ويعصور لنا المعتمد الحياة الرخية التي كان ينعم بها في إشبيلية في شعر كثير ،
منه قوله :

ولقد شربتُ الراح يسطع نورُها والليل قد مدَّ الظلام رداء
حتى تبدَّى البدر في جوزائه ملكاً تنامى بهجةً وبهاء
وتناهضتُ زهرُ النجوم يحفه لألاؤها فاستكمل اللآلئ
لما أراد تنزهاً في غربه جعل المظلة فوقه الجوزاء
وترى الكواكب كالنواكب حوله رفعت ثراها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين مواكب وكواعب جمعت سناً وسفاه
إن نشتت تلك الدروع حنادساً ملأت لنا هذى السكؤوس ضياء
وإذا تغفت هذه في مزهر لم تأل تلك على التريك غناء (*)

(*) « الفلاند » ، ص ١٢ .

كان من المؤلف عند شعراء العرب الحديث عن المدن كما لو كانت زوجات من البشر ،
وقد انتقل هذا إلى الأناشيد الشعبية الإسبانية ، ومن هذا ما نراه في الفصحة الشعرية التي تدور
حول شخصية أسطورية اسم صاحبها ابن عمار أيضاً ، وفيها نقرأ :

« وهنا ، تحدث الملك الدون خوان — استمعوا جيداً إلى ما قال :

إن أردت يا غرناطة تزوجتك ،

وأعطيك صداقاً قرطبة وإشبيلية ١ » .

[فقالت] :

« لافني متروجة أيها الملك الدون خوان — متروجة ولست بأرارة ، إن العرب الذي

يجوزني يحيى حبا عظيماً » . [المؤلف]

(٢٠) « نفح » ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ .

وقد كان المعتضد متخوفاً من ناحية المرابطين ، لا تزال المهوم تساوره بسبب نجمهم الصاعد وقوتهم المتزايدة في إفريقية ، وأراد القدر أن تصدق هذه المخاوف . في عهد ابنه المعتمد ، فقد اشتد ضغط النصارى على إشبيلية ، ووجد الرجل نفسه مضطراً إلى الاستنجاد بالمرابطين بعد تردد طويل ، ونصحه ابنه الرشيد بالعدول عن ذلك وخوفه من المرابطين ، فأجابه قائلاً : « أى بنى ، والله لا يُسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم على اللعنة على منابر الإسلام مثلما قامت على غيرى . حَرَزَ الجِمال — والله — عندى خير من رعى الخنازير » (١٢٧) .

ثم اضطر بعد ذلك إلى الاستنجاد بالسليطيين (ألفونسو السادس) عند ما اشتد بلاؤه بالمرابطين ، فأقبل ألفونسو إلى إشبيلية بعد قوات الأوان . وقد وقف الفقهاء إلى جانب المرابطين وتألّبوا على أمراء الأندلس ، ومضوا يكثرّون فيهم ويتهمونهم بالروق عن الدين ، وانقلب المرابطون من معينين للملك الطوائف إلى غزاة لبلادم ، واستولوا على معاقلم واحداً بعد واحد ، وسقطت إشبيلية في أيديهم في سنة ١٠٩١/٤٨٤ بعد صراع عنيف مع المعتمد وأبنائه . يقول ابن اللبّانة : « فلما وصل (المعتمد) إلى « باب الصباغين » وجد ابنه « مالكا » مقتولاً ، فاسترحم له ودخل القصر . وزاد الأمر بعد ذلك ، ودُخل البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولمن معه ، فأئمن جميع من له ، وأعدت له سراكب واجتاز إلى طنجة » (١٢٨) .

وصار المعتمد وأبنائه أسرى في أيدي المرابطين ، فخلعهم إلى طنجة . وقد ودعهم أهل إشبيلية وداعاً مؤثراً بلسان ابن اللبّانة حيث قال :

حموا حريمهم حتى إذا غلبوا سيقوا على نسق في حبل مقتاد
وأنزلوا عن متون الشهب واحتملوا فوثق دُهم لتلك الخليل أنداد
وعيث في كل طوق من دروعهم فصيّغَ منهم أغلال لأجباد

نسيت إلا غدادة النهر كونهم في المنشآت كأموات بالحاد
والناس فد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حُطَّ القناع فلم تُستر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها لبل يحدوبها الحادى
كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات كباد
من لى بكم يا بنى ماء السماء إذا ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى (١٢٩)

ولما بلغ المعتمد طنجة في طريقه إلى منفاه ؛ لقيه الحمصرى الشاعر ، « فجرى
معه على سوء عاداته من قبح الكدية وإفراط الإلخاف » ، وسأله جائزة ؛ فأبت
أريحيته إلا أن يبعث له بكل ما كان معه : ست وثلاثين متقالا ، « فطبع عليها
وكتب معها بقطعة شعر يعتذر عن قلتها » (١٣٠) .

ف ٢٩ - شعر المعتمد في منفاه :

وفي ظلال الأسر وآلامه ، قال المعتمد في منفاه في أغمات أصدق أشعاره
عاطفة ، وأبلغها في النفس أثرأ . بعثت معانيها في نفسه الآلام التي عاناها خلال
السنوات الأخيرة من عمره ، قال في الأغلال التي كان ينوء بها :

تعطف في ساق تعطف أرقم يساورها عضا بأنياب ضيفم
إلبك ، فلو كانت قيودك أَسْعَرَتْ تَصَرَّم منها كل كف ومعصم
مخافة من كان الرجال بسبيه ومن سيفه في جنة وجهم (١٣١)
وكانت ذكريات الأيام السعيدة الخالية تطوف بذهنه فيقول :

كدتُ حاف الندى ورب السماح وحبیب النفوس والأرواح
إذ يمينى للبذل يوم العطايا ولقبض الأرواح يوم السكافح
وشمالى لقبص كل عناف يقحم الخليل في مجال الرماح

وأنا اليوم رهن أسر وقر مستباح الحى مهبط الجناح
لا أجيب الصريح إن حضر النا س ، ولا المعتفين يوم السماح
عاد بشرى الذى عهدت عبوساً شغلتنى الأشجان عن أفراحى
فالتماحى إلى العيون كربه ولقد كانت نزهة الصلاح (*)
ويقول غرسية غومس في هذا الصدد : « وكان ألم المعتد على الحقيقة ألماً
نفسياً روحياً ، مبعثه التباين بين حياته الماضية وحياته في المنفى ، وأساسه
الاختلاف الواضح بين الحضارة التى كانت يعيش فى ظلها والبربرية التى وجد
نفسه بين أنيابها في مفاه ، ذلك الاختلاف البعيد بين قصور إشبيلية وبين
أكواخ المغرب وما فيها من مرارة :

بكى « المبارك » فى إثر ابن عباد بكى على إثر غزلان وآساد
بكت « ثرياه » ، لاغمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرامح القادى
بكى « الوحيد » ، بكى « الزاهى » وقبته والنهر « والتاج » كل ذلك باد (١٣٢)
وكان يرى فى قطرات دمه خضرة أشجار زيتون « الشرف » ، وبياض
المنازل على شواطئ النهر عند طرّيقانة ، كما يرى السحرة الأشياء فى كرة البلور .
ولقد كان يستثير شجونه أن يجد يده خلواً مما تجود به — وهو الجواد صاحب
الندى — وأن يجد سيفه عاطلاً مهملاً ، ورماحه يرين عليها الجمول والصدأ :

تبدلت من عزّ ظلّ البنود بذلّ الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سناناً ذليلاً وعضباً رقيقاً صقيلاً الحديد
فقد صار ذاك وذا أدها بعض بساقى عضّ الأسود (١٣٣)
أو :

كذا يهلك السيف فى جفنه إذا هزّ كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ولم تروه من يجيع يميني (١٣٤)

وكانت تتمثل في ذهنه مآسى حياته كلها : لقد وقعت إحدى بناته بين برائن
الأسر وبيعت رقيقة ، واشتراها تاجر وزوجها من ابنه ، ونزع واحد من بقى له
من البنين إلى الثورة وانتضى المناوشة المرابطين ، وشكت زوجه وبناته — اللاتى
كن يسرن بأرجلهن في العنبر والكافور — مرارة العقر والمهانة ، واضطرون إلى
الغزل بأيديهن ليكسبن عيشهن :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغصان مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائمة ينزلن للناس ما يملكن قطعيرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطآن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
كان كل شيء حوله يستدعى أحزانه وشجونه ، ففضى يتغنى بالرياح
والطيور خاصة ، وجعل يقول الشعر مخاطبا سربا من القطا خلقت بأجنحتها عاليا
في الفضاء :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي سوارح ، لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك — والله المعيد — حسادة ولكن حنينا : إن شكلى لها شكل
فأسرح ، لا شملى صديق ولا الحشا وجميع ، ولا عيناى يبيكهما شكل
هنيئا لها أن لم يُفَرَّق جميعها ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
وأن لم تبت — مثلى — تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
لنفسى إلى لقيا الحمام تشوف سواى يحب العيش في ساقه حجل
ألا عصم الله القطا في فراخها فإن فراخى خاها الماء والظل (١٣٥)

وينشد على لسان قرية قدت إليها :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكرّ مساء ، وقد أخنى على إلهما الدهر
وناحت، فباحث، واستراحت، بسرهما وما نطقت حرفا يسوح به سر
فالى لا أبكى ؟ أم القلب صخرة ؟ وكم صخرة في الأرض يجرى بها نهر

بكت واحداً لم يُشجِّها غير فقدته وأبكى لآلافٍ ، عديدُهم كثر
 بُنِّي صَفْصَفٌ — أو خليل موافق يمزق ذا فقر ، ويُغريق ذا بحر
 ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أو رُنْدَة القمبر
 عذرت إذا أن ضن جفنى بقطرة وأن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
 قفل للنجوم الزهر تبكيهما معي لملهما فلتحزن الأنجم الزهر^(١٣٦)
 أو يصف زوجاً من الغربان وقفا على حائط : شأن من ترميه الأيام في
 ضيق المحابس ، لا يزال يتعزى يذكر الطيور ، ولسان حاله يردد الأنشودة
 الإسبانية القديمة :

« أُنْكَلِيها رامي نبال ،

لَقاه الله شر الجزاء »^(١٣٧) .

وإن المعتمد ليذكرنا — وهو يرسف في كبوله ، وينوء تحت ثقل همومه —
 بشخصيات الملوك المؤثرة في المأسى القديمة .

وكان يتعزى أثناء هذه المحنة بروية نفر من الشعراء كان عرفان الجليل يدفعهم
 إلى زيارته في منفاه ، ومن أولئك أبو محمد الجبارى — الذى تلقى من نفحات
 المعتمد ذات مرة مالا جزيلاً افتتح به دكاناً وعاش من مكاسبه منه عيشاً رغداً —
 أقبل إلى المعتمد يواسيه ويخفف عنه ، فأسر المعتمد إليه ذات مرة أنه حفر قبره
 بيده إذ استصرخ للراطلين .

وكان يسعد إذا زاره أخلص أصدقائه ابن اللبابة الدانى الشاعر ، فأتهى إليه
 ذات مرة أن عبد الجبار بن المعتمد يحاول إقامة ملك بنى عباد من جديد ، وأنه
 استولى على أركش (حصن مجاور لإشبيلية) والجزيرة الخضراء واستقل بهما ،
 فانهشت الآمال فى نفس الأمير الأسير ، ولا زالت تهدد خياله حتى وافته المنية
 فى سنة ١٠٩١/٤٨٤ . هذا ولم يوفق عبد الجبار فيما كان ساعياً فيه ، وتلاشى
 أمره بعد قليل^(١٣٨) .

وقد نظم المعتمد أياتاً أوصى بأن تكتب على قبره ، شبه نفسه فيها « بجبل
يتهدى فوق أعواد » — ناظراً في ذلك إلى معنى ضمنه المتنبي أحد أبياته — وقد
ترجمها غرسية غومس إلى شعر إسباني :

قبرَ الغريب ، سقاك الريح الغادى	حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالعلم ، بالنعمى إذا اتصلت	بالخشب إن أجذبوا ، بالرى للصادى
بالطاعن ، الضارب ، الرامى إذا اقتتلوا	بالموت أحرّ ، بالضرغامه العادى
بالدهر فى نِقم ، بالبحر فى نِعم	بالبدر فى ظلم ، بالصدر فى النادى
نعم ، هو الحق ، حابى به قدّر	من السماء ، فوافانى لميصاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه	أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفّاك ، فارقى بما استودعت من كرم	رواك كل قطوب البرق رجّاد
يبكى أخاه الذى غيّت وابلّه	تحت الصفيح بدمع رائج غادى
حتى يمجدك دمع الطل منهمراً	من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد
ولا تزال صلاة الله دأمة	على دفينك ، لا تحصى بتعداد ^(١٣٩)

ف ٣٠ — شهرة الملك الشاعر :

وورى المعتمد فى لحده فى أغمات ، وظل قبره دهنراً طويلاً مزاراً للكثيرين
الذين كانوا يقصدونه للترحم عليه فى إجلال ، ومن زاره ووقف على قبره أبو بحر
عبد الصمد شاعره ، ولسان الدين بن الخطيب^(١٤٠) (انظر ف ٤٥) ويقول ابن
الأبار الفضاى : « ورزق من الناس حبا ورحمة ، فهم يبيكونه إلى اليوم »^(١٤١) .
« وفى الواقع أصبح الناس — على مر الأيام — يعودون بالذاكرة إلى
المعتمد ، فيرون فيه أعظم من ملك الأندلس » ، كما يقول دوزى . ومن كلام هذا
المستشرق الهولندى فى حق المعتمد : « إن أخبار كرمه ومجده ، وروح الفروسية
التي مازجت نفسه ، حبيته إلى قلوب المثقفين من أهل الأجيال التي جاءت بعده .

وكانت محنته العظيمة تثير شجون ذوى الحس المرهف من الناس ، أما عامتهم فكانوا مولعين بأخبار مغامراته وفروسيته ، حتى بدو العرب كانوا يذكرونه بإعجاب عظيم ، وكانوا بطبعهم أنقد لكلامه وأعرف بما فيه من بديع اللغة من الحضرة .

« و ذكر أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني — المعروف بابن اللبانة — أن رجلاً من أهل إشبيلية كان يحفظ هذا الشعر (شعر المعتمد) في ذلك الأمد ، ثم خرج منها نية منه إلى أقصى حى في العرب ، فأوى إلى خيمة من خيماتهم ، ولأذ بذمة راع من رعاتهم . فلما توسط القمر في بعض الليالى ، وجمع السامر ، تذكر الدولة العبادية وروثها ، فطفق ينشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاء ، فما أكلها حتى رفع رواق الخيمة التى أوى إليها رجل عن وجهه وسيم ضخم ، تدل سيا فضله على أنه سيد أهله فقال : « يا حضرى ، حياك الله . لمن هذا الكلام الذى اعذوذب مورده ، وافضوضل منبته ، وتحلت بقلادة الخلاوة بكره ، وهذر بشقشة الجزالة بكره ؟ » فقال : « هو الملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد » ، فقال العربى : « أظن هذا الملك لم يكن له من الملك إلا حظ يسير ، ونصيب حقير . فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشىء دونه » ، فعرفه الرجل بعظم رياسته ، ووصف له بعض جلالته . فتمعجب العربى من ذلك ثم قال : « ومن الملك ، إن كنت تعلم ؟ » فقال الرجل : « هو فى الصميم من تخم ، والذؤابة من يعرب » . فصرخ العربى صرخة أيقظ الحى بها من هجمته ، ثم قال : « هلموا ، هلموا ! » فتبادر القوم إليه ينثالون عليه ، فقال : « معشر قومى ، اسمعوا ما سمعته ، وعوا ما وعيته ، فإنه لفخر طلبكم ، وشرف تلاصق بكم . يا حضرى ، أنشد كلمة ابن عمناء » ، فأنشدهم القصيدة . وعرفهم العربى بما عرفه الرجل به من نسب المعتمد ، فخامرتهم السراء ، وداخلتهم العزة ، وركبوا من طربهم متون الخليل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقى الليل ، فلما رسل الليل نسيمه ، وشق الصباح أوكاد أديمه ، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الإبل فدفعها إلى الرجل ، وفعل

الجميع مثلما فعل ، فما كان رأد الضحى إلا وعنده هنيئة من الإبل . ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم»^(١٤٢).

وقد ختم دوزي كلامه عن المعتمد بن عباد بقوله : « هذا ، ولم يكن المعتمد قط حاكماً عظيماً بحال ، فقد تولى مقاليد شعب أفسد طبعه الترف ، فلم يصرف شيئاً من العناية إلى أمور رعيته . وترأى على ملذات نفسه ، ومن ثم كان عبء الحكم عليه ثقيلاً . ثم إنه كان ميالاً إلى الراحة بطبعه ، وكانت تشغله تلك الأشياء التي تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم ، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على وجهه المطلوب . ولكن أحداً من الناس لم تضم نفسه هذا القدر من الحساسية ، أو هذا الفيض الشعري الدافق الذي ضمته نفس المعتمد ؛ ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسي الأصل ، يحمل في جلال علم ثقافة فكرية وقومية ، قدر لها أن تنطوى ويذهب أسرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد»^(١٤٣) (انظر المقدمة ص ٢٢ — ٢٤ (*)) .

(ج) غرناطة

ف ٣١ — أبو الفتوح الجرجاني ، وأبو إسحاق الإلبيري :

لم يتقدم الأدب العربي تقدماً محسوساً في غرناطة التي سيطرت عليها الطوائف البربرية ، وأهم شخصية تستلفت الاهتمام فيها هو اليهودي ابن النخدة ، الذي كان يؤلف بالعبرية واجتهد في النهوض بالدراسات التلمودية . وفي ذلك العصر أقبل إلى غرناطة أبو الفتوح الجرجاني ، وهو مغامر مشرق نزل الأندلس في سنة ١٠١٥/٤٠٦ . وكان فيلسوفاً فلكياً يقول الشعر بين الحين والحين . أقام الجرجاني حيناً عند مجاهد الصقلي صاحب دانية ، ثم قصد سرقسطة حيث أقام في كنف المنذر بن هود ردحاً من الزمن ؛ واستقر به النوى آخر الأمر في غرناطة ،

(*) يقصد مقدمة الطبعة الأولى

حيث ألقى دروساً عن الشعر القديم وكتاب «الحاسة» خاصة . وقد اتهم في مؤامرة دبرت على باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، فقبض عليه وحبس به ثم قتل سنة ٤٢١/١٠٣٠ وأسر بدفنه إلى جانب أحمد بن عباس^(١٤٤) .

وقد خلف إسماعيل (صمويل^(١٤٥)) بن النغدة في الوزارة ابنه زيري بن حبوس أبوه يوسف ، ولم تكن له كياسة أبيه في مصانعة المسلمين ، فاستنار سخطهم عليه . وكان اللبكم بلسانهم في هذه المصنوعة أبو إسحاق الإلبيري الفقيه العربي ، وكان منفيّاً لأنه لم يدرك في بلاط غرناطة المركز الذي كان يرى نفسه أهلاً له ، وزاد في حنقه أن يوسف بن النغدة أمر بنفيه من غرناطة ، فانصرف إلى النسك والزهادة ، ونظم في معتكفه قصيدة يهجو يوسف بن النغدة ، ويؤايب المسلمين وباديس بن حبوس على اليهود ، قال فيها :

ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرّق عرام وخذ ما لم فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدره بل الصدر في تركهم يعشون
فقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين ؟
وكيف تكون لنا همة ونحن خول وهم ظاهرون ؟^(١٤٦)

فالتهمت عواطف الناس سخطاً على اليهود ، وتوائبوا بهم ، فتهبوا ديارهم وقتلوا من ظفروا به منهم . وكان ابن النغدة ممن لقي مصرعه في هذه المذبحة (١٠٦٦/٤٥٩) .

وقد حفظ لنا المقرئ أشعاراً أخرى لأبي إسحاق الإلبيري ، تتجلى فيها حكمته وعاطفته الدينية ، وترجم له دوزي (إلى الفرنسية) مقتطفات كثيرة من شعره نورد منها :

وذى غنى أوهمته همته أن الفنى عنه غير . نفصل
يمر أذيال عجبه بطرا واختال للكبرياء في الخلل

بزّنه أيدي الخطوب بزّته فاعتاض بعد الجديد بالسمل
 فلا تشق بالغنى فأفاته ۱۱ فقر وصرف الزمان ذو دول
 كفى بنيل الكفاف عنه غنى فكن به الدهر غير محنفل^(١٤٧)
 وقد زاره وهو على فراش الموت أحد وزراء غرناطة ، فرأى ضيق مسكنه
 فقال له : « لو اتخذت غير هذا المسكن لكان أولى بك » فقال ، وهو آخر
 شعره :

قالوا : ألا تستجيد بيتاً تعجب من حسنه البيوت ؟
 فقلت : ما ذلکم صواباً عُشّ كثير لمن يموت
 لولا شتاء ولفح قيظ وخوف لص وحفظ قوت
 ونسوة يبتغين ستراً بنيتُ بنيان عنكبوت^(١٤٨)

أما بقية دول البربر التي قامت في ذلك الحين — في مالقة والجزيرة الخضراء
 وقرمونة واستجة والمدور ورندة وأركش ومورور وشريش — فلم تنفق للأدب
 فيها سوق ، ثم انتهت بها الأمر إلى الدخول في حوزة أصحاب إشبيلية .

(د) المرية

ف ٣٢ — الوزير أحمد بن عباس :

استقل بالمرية أول انتشار الجماعة خيران الصقلي ، ثم خلفه على إمارتها زهير ،
 وكان صقلياً أيضاً . وقد تولى الوزارة له أحمد بن عباس وكان مخاصماً لابن النغدة —
 وزير بني زيري أصحاب غرناطة — لا تسكن العداوة بينهما . « وقد بذ الناس
 في وقته في أربعة أشياء : المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة »^(١٤٩) . وكان
 « جماعاً للدفاتر حتى بلغت أربعمائة ألف مجلد ، وأما الدفاتر المحرومة فلم يوقف على
 عددها لكثرتها »^(١٥٠) . ولكن غروره وصل به إلى حد الجنون ، وهو القائل :
 لي نفس لا ترتضى الدهر عمراً وجميع الأنام طراً عبيداً

لو ترقّت فوق السماك محلا لم تزل تبغى هناك صعوداً
أنا من تعلمون شيدت مجدى فى مكاني ما بين قومي وليداً
وقال أيضاً :

عيون الحوادث عني نيام وهضمي على الدهر شيء حرام
وذاع هذا البيت في الناس واستنكروه ، حتى قلب بهض الأدباء مصراعه
الأخير فقال :

سيوقظها قدر لا ينام^(١٥١)
وقد تحققت أمنية هذا الشاعر ، إذ وقع ابن عباس أسيراً بيد خصمه اللدود
باديس بن حبوس صاحب غرناطة فقتله بيده في ٢٧ ذي القعدة ٤٢٧/١٠٣٥^(١٥٢) .

ف ٣٣ — المعتصم بن صمادح صاحب المرية وشعراء بهلوله :

أما في المرية — حيث استبد بالأمر المعتصم بن معن بن صمادح وآله ، وهم
فرع من التّجيبين أصحاب مرقسطة — فقد علا أمر الآداب والعلوم في هذه
الدولة ، في عهد محمد بن معن الملقب بالمعتصم (٤٤٣/١٠٥١ — ٤٨٤/١٠٩١) ،
على الرغم من أن حدودها قد انكشفت في أيامه حتى صارت أضحوكة في أفواه أهل
الأدب . وكان المعتصم نفسه مسالماً لين الجانب محبباً إلى القلوب ، راعياً للآداب
والعلوم موقراً للدين وأهله ، باراً بوزرائه صفوحاً عن الهفوات عادلاً في أحكامه ،
وقد أحاط نفسه بهالة من الشعراء أضفوا على دولته رونقاً جليلاً^(١٥٣) .

ومن أولئك الشعراء أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف
البرجي^(١٥٤) « الحكيم الفيلسوف » (٤٤٤/١٠٥٢ — ٥٣٤/١١٣٩) ، وكان
رجلاً واسع العلم استطاع أن يصل في بلاط المرية إلى مكان مرموق . وكان قد
قصد أول أمره قصر محمد بن معن بن صمادح في زى تظهر عليه البداوة ، وألقى
بين يديه قصيدة مطامها :

مطل الليلُ بوعد الفلق وتشكى النجم طسول الأرق
ضربت ريح العبا مسك الدجى فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجر خذاً خجلاً جال من رشع الندى في عرق
جاوز الليل إلى أنجمه فتساقطن سقوط الورق^(١٥٥)
فاسترعى انتباه المعتم وأهل المجلس فأقبلوا عليه ، وكان ذلك أول
صعود أسرته .

وقد حسده بقية الشعراء لانفراده بالمكان الأحظى من نفس المعتم ، وكان
من بين أولئك الحاسدين أبو عبد الله محمد بن معمر المالكي المعروف بابن أخت
غانم^(١٥٦) — وغانم خاله النسوب إليه هو الإمام العالم أبو محمد غانم الخزرجي ،
النحوي المشهور — وكان عارفاً بالكثير من كتب النحو والفقه والشريعة
والطب ، وكان يقول الشعر في يسر ، وكانت له حافظة نادرة ؛ فغاظه أن يبلغ
البرجي هذه المكانة في ذلك الوسط الرفيع ، وهو البسيط الأصل والمنبت^(١٥٧) .
وقد جرت بين الشاعرين لهذا نقائض فياضة بالسخر البارع اللاذع .

وتتواتر في كتب الأدب قصة عن المعتم بن صمادح ، تدل على عظيم تقديره
للشعر وأهله ؛ فقد وفد عليه البرجي مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرق فيها ،
وأنشده الرائية التي مطلعها :

قامت تاجر ذيول العصب والحرير ضئيفة الخصر والميثاق والنظر
إلى أن بلغ قوله :

لم ييسق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور
فقال له المعتم : « كم في القرية التي تحرق فيها ؟ » ، فقال : « فيها نحو
خمسین بيتاً » ، فقال له : « أنا أسوئك جميعها لهذا البيت الواحد » ؛ ثم وقع له
بها وعزل عنها نظركل وال^(١٥٨) .

وقد ألف ابن شرف مجموعين من الأمثال والحكم ، أحدهما شعراً والآخر

نثراً^(١٥٩) ، وقد حوياً بين دفتيهما ما يشهد بسعة الاطلاع . ومن روائع . بكه :
 « لتكن بقليلك أغبط منك بكثير غيرك ، فإن الحى برجليه — وهما
 ثنتان — أقوى من الميت على أقدام الجملة ، وهى ثمان .
 « رب سامح بالعطاء على باخل بالقبول^(١٦٠) .

ومن اتصل بالمعتصم من شعراء ذلك العصر ابن الحداد الوادى آتى المتوفى
 عام ١٠٨٧/٤٨٠ ، وقد علت رتبته عنده حتى أسند إليه الوزارة وأحفظه . وقد
 هوى ابن الحداد صبية نصرانية كنى عن اسمها بنويرة — أو نويرة — وقال فيها
 شعراً ينم عن عاطفة مشبوبة . وكانت تنقابه بين الحين والحين حالات من اليأس
 والتشاؤم ، فيتحدث عن الزهد واعتزال الدنيا وأهلها ، ومن ذلك قوله وقد تمخبر
 قلب المعتصم عليه واضطر إلى اللحاق بشعر بنى هود :

لزمت قناعتي وقعدت عنهم فلست أرى الوزير ولا الأميرا
 وكنت سمير أشعارى سفاهاً فعدت لفلسفياى سميراً^(١٦١)
 أو قوله :

سامح أخاك إذا أتاك بزلة فخلوص شيء قلما يتمكن
 فى كل شيء آفة موجودة إن السراج — على سناه — يدخن^(١٦٢)
 وقد غضب عليه المعتصم وأقصاه لأنه — أى الشاعر — رماه بالبخل . ولم
 يكن المعتصم بالبخل ، إنما كان الكرم شيمته الحسنى^(١٦٣) ، كما تشهد بذلك
 قصائد شعرائه من أمثال عمر بن عبد الشهيد وأبى جعفر بن القراز والنحلى وابن
 بليطة وغيرهم^(١٦٤) .

ولجأ إلى المعتصم كذلك نفر من شعراء غرناطة ، لم يطبقوا العيش فى ظل
 أمرائها من البربر الذين لم يزدانوا بعلم يوطى لأهل الأدب أكنافهم . ومن أولئك
 ابن أخت غانم — الذى ألمعنا بذكره — وأبو القاسم خلف بن فرج الإلبيرى
 المعروف بالسيسر ، وكان « بائعة عصره وأعجوبة دهره » — كما يقول ابن بسام

وله أشعار لحا فيها أمراء عصره وأقذع في هجوم ، كقوله :

ناد الملوك وقل لمم : ماذا الذى أحدثتم ؟
أسلمتم الإسلام فى أسر العدا وقعدتم !
وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قتم
لا تنكروا شق العصا فصا النبي شققتم

وقد ألف كتاباً سماه « شفاء الأمراض فى انتهاك الأعراض » ، تناول فيه ما كان يدعيه أهل عصره من خصال لم تكن فيهم ، ووضعهم موضعهم الصحيح (١٦٥) .

وفى بلاط بنى صمادح هؤلاء عاش أبو عبيد البكرى الجغرافى المعروف ، وسيرد الكلام عنه مع الجغرافيين (ف ٩٥) ؛ وكان شاعراً فذاً روى له شعر كثير وخمرات تتحدث عن ميل إلى لذات العيش :

خليلى ، إني قد طربت إلى الكاس وتقت إلى شم البنفسج والآس
قوموا بنا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سرّاً من الناس
فليس علينا فى التعلل ساعة

— وإن وقعت فى عقب شعبان — من باس (١٦٦)

ف ٣٤ — آل المتصم :

وكان بنو المتصم شعراء مبرزين ، ومنهم أبو جعفر الذى خاطب محبوبته بأبيات تفيض رقة وعذوبة :

كتبتُ وقلبي ذواشتيق ووحشة ولو أنه يستطيع مرّاً يسلم
جعلتُ سواد العين فيه سواده وأبيضه طرساً وأقبلتُ ألتئم
فخيل لي أنى أقبل موضعاً يصالحه ذاك البنان المسلم (١٦٧)

وكانت أم الكرام بنت المعتصم تقول الشعر كذلك ، وكان بها هوى فنى من أهل دانية يسمى سَمَّار ، وقد قالت فيه :

يا معشر الناس ألا فاعجبوا بما جنته لوعة الحب
لولا لم ينزل بدر الدجى من أفقه العلوى للترب
حسبى بمن أهواه لو أنه فارقنى تابسه قلبى (١٦٨)

وعندما انقلب ملوك الطوائف على يوسف بن تاشفين ، ومضوا يدبرون عليه ، كان المعتصم من أكثرهم سعيًا فى ذلك التدبير . فلما استولى يوسف على غرناطة واستنزل صاحبها الأمير عبد الله ، ملك الخوف المعتصم وسعى فى كسب ود أمير المسلمين ، وكان يكيد له بالأمس ! فعجل بإرسال ابنه عبيد الله يهنئه بمحصل غرناطة فى يده ، فقبض يوسف على عبيد الله وحبسه ؛ فقال الفتى يشكو عناءه وضيق الحبس :

أبعد السنى والمعالى خمول وبعد ركوب السذاكى كُبول
ومن بعد ما كنت حرّاً عزيزاً أنا اليوم عبد أسير ذليل
حلت رسولاً بغرناطة فخل بها بى خطب جميل
وتفقت إذ جتها مرسلات وقد كان يكرم قبلى الرسول
فقدت للرية أكرم بها فما للوصول إليها سبيل (١٦٩)

وجَدَّ المعتصم فى خلاص ابنه ، فلم يسفقه به يوسف بن تاشفين إلا وهو — أى المعتصم — على فراش الموت . وقد طال مرضه ، وحاصر المرابطون قسبة المرية — والرجل فى فراش المرض — فقال : « لا إله إلا الله ، نفس علينا كل شيء حتى الموت ! » (١٧٠) . وقد أدركته المنية قبل سقوط المرية فى يد المرابطين بأشهر قلائل ، وإلى جانبه الشاعر ابن عبادة .

وبعد سقوط المرية توجه أبناء المعتصم إلى المغرب ، فأما عبيد الله فقد لجأ إلى أحد المرابطين وعاش فى كنفه « لأذمة كانت بينهما ، إلى أن انقضت مدته بين

آس وكاس»^(١٧١) . ولجأ « عز الدولة » إلى بجاية ، حيث قضى بقية عمره في أمن ورضى بما قسمه له القدر . ويذكر الشاعر الإشبيلي ابن اللبابة أنه اجتمع مع عز الدولة هذا في بجاية وقال : « فإني رأيت منه خير من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله إلا لذلك والرئاسة وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت خوله كما ينم فرند السيف وكرمه من تحت صداه ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه » .

وكان يقول الشعر ، مفرجاً عن نفسه شاكياً خول أمره :
 لك الحمد ، بعد الملك أصبح خاملاً بأرض اغتراب لا أمرٌ ولا أخلى
 وقد أصدأت فيها الجذاذة منهلٍ كما نسيت ركض الجياد بها رجلى
 فلا مسمى يصنعى لنفمة شاعرٍ وكفى لا تمتد يوماً إلى بذل^(١٧٢)
 وأشعر بنى صمداح جميعاً « رفيع الدولة » كما يقول نقاد العرب^(١٧٣) ، ومن
 مآثور شعره هذه الأبيات التالية التى وجه بها إلى صديق :

أبا العلاء كؤوس الراح مترعة وللفداى سرور فى تعاطيها
 وللنصون ثنن فوقها طرباً وللجائم سجع فى أعاليها
 فاشرب على النهر من صهباء صافية كأنما عصرت من خد ساقبها^(١٧٤)
 وقد قضى رفيع الدولة بقية أيامه فى المغرب ، مثله فى ذلك مثل أخويه ،
 معترضاً لكثير من المهانة^(١٧٥) .

ولم ابن أخ شاعر أيضاً ، هو « رشيد الدولة » بن عبيد الله ، ومن
 حريف نظمه قوله :

صبراً على نائبات الدهر إن له يوماً كما فتك الإصباح بالظلم
 إن كنت تعلم أن الله مقتدر فتق به تلق روح الله من أم
 وقل صبر الإنسان محتسباً إلا وأصبح فى فضاضة النعم^(١٧٦)
 وقد دخل فى دمار الموحدين ، وأصبح من شعرائهم للأجورين . ويقول

دورزي : « وإنه لمن عبث الأقدار أن نجد ذلك الأمير المتحدر من صلب ملك كان يرعى جيشاً من الشعراء ويمنحهم الأرزاق ، ينتهي به الأمر إلى أن تهبط به للمقادير إلى مستوى الشعراء الأجورين الذين يعيشون على أرزاق يتناولونها من سادتهم »^(١٧٧) .

(هـ) بلنسية ومرسية

ف ٣٥ — ابن وهبون — ابن لبون — الوقشي :

ونذكر من أهل شرق الأندلس أبا محمد عبد الجليل بن وهبون الرسي ، الذي تغنى بذكر وقعة الزلاقة (سنة ٤٧٩/١٠٨٦) ؛ وكان صاحباً لابن عمار ، فلما توفي قال فيه مرثية طيبة . كان ابن وهبون من فطاحل الشعر وأهل الأدب ، وقد مات قتيلاً على يد بعض جنود النصارى وهو في طريقه من لورقة إلى مرسية^(١٧٨) . ونذكر كذلك أبا عيسى بن لبون ، وكان صاحباً لقلع سجنوننتو ومريبطر ، فلما أحس اقتراب السيد القمبيطور من بلاده وتوقع بلاءه ، ترك بلاده لابن رزين صاحب « السهلة »^(١٧٩) . ونذكر أيضاً محمد بن علقمة (١٠٣٦/٤٢٨ — ١١١٥/٥٠٩) من أهل بلنسية ، وكان شاعراً ونائراً من طبقة عالية ، وهو صاحب كتاب « البيان الواضح عن الملم الفادح » الذي قص فيه أخبار بلده بلنسية في أيامه ، ووصف ما حاق بها من البلاء على يد السيد القمبيطور^(١٨٠) .

ويتما كان « السيد » محاصراً لسرقسطة (سنة ١٠٩٤/٤٨٧) ، قام الفقيه هشام بن أحمد الكنانى لللقب بالوقشي — نسبة إلى البلد الذي ولد فيه وهو وقش Huecas من أعمال طليطلة — على أسوار البلد وألقى مرثية مؤثرة بكى فيها مصاب بلنسية أثناء هذا الحصار المروع . ولم نجد أصل هذه المرثية ، ولكننا وجدنا صوراً لها مكتوبة بحروف لاتينية فيما وجدنا من نسخ « تاريخ إسبانيا العام »^(١٨١) .

وقد كان لهذه القصيدة وقع شديد على قلوب البلنسيين ، فصاروا يرددون قول صاحبها :

« إذا أنا مضيت يمينا هلكت بماء الفيضان ، وإذا ذهبت يسارا أكلني السبع ، وإذا مضيت أمامي غرقت في البحر ، فإذا التفّت خلفي أحرقتني النار » (١٨٣) .

وإزاء هذا البلاء المتواتر ، ألح أهل بلنسية على الوقشي في أن يكلم لهم القاضي أحمد بن جحاف — رئيس البلد إذ ذاك — في الاتصال بالقمبيطور وتسليم البلد له على شروط ؛ ففعل ، وأسلم البلد ، وأقيم الوقشي قاضيا له (١٨٣) .

هذا ، وقد ضاع الأصل العربي لهذه المراثية ولم يبق لنا إلا نصها مكتوبا بحروف لاتينية في « تاريخ إسبانيا العام » ، — كما قلنا — وقد درسها خليان ريبيرا وحاول أن يقرأها قراءة عربية ، وأثبت أن نصها الذي بين أيدينا إنما هو تحوير لها في اللهجة الأندلسية الدارجة في القرن الخامس عشر الميلادي .

(و) بطليوس

ف ٣٦ — المظفر بن الأفطس :

بين أيدينا من المعلومات عن إمارة بطليوس أقل مما بين أيدينا عن أى إمارة أخرى من إمارات الطوائف في ذلك العصر . كان أول من استبد بأمرها مولى فارسي الأصل يسمى سابور (توفي في ١٠ شوال ٤١٣ / ٨ نوفمبر ١٠٢٢) ، وكان رجلا أميا قام بأمر دولته ابن مسلة (١٠٢٢ / ٤١٣ — ١٠٤٥ / ٤٣٧) مؤسس أسرة بني الأفطس (ومعناه بنو القرد) ، وأصلهم من برابر مكناسة . وأكبر أسراء هذه الدولة المظفر محمد بن عبد الله بن الأفطس (١٠٤٥ / ٤٣٧ — ١٠٦٣ / ٤٤٥) والمتوكل أبو محمد عمر بن محمد بن الأفطس (١٠٦٧ / ٤٦٠ — ١٠٩٥ / ٤٨٨) ، وفي عهدهما بلغت الإمارة أوجها ؛ والأول أخو مسلة ، والثاني ابن أخيه .

وقد ألف المظفر « الكتاب المظفرى » ، نسبة إلى اسمه . ويقول المقرئ :
 « كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق
 والتأليف المائق ، المترجم « بالتذكرة » والمشتهر اسمه أيضا « بالكتاب المظفرى » ،
 فى خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسيرٍ ، ومثل وخبر ، وجميع
 ما يختص به علم الأدب . أبقاه الله للناس خالداً . وتوفى المظفر سنة ١٠٦٧/٤٦٠
 وكان يحضر العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد ، رحمه الله . وإلى المظفر أهدى عمر
 ابن عبد البر (٩٧٨/٣٦٨ — ١٠٧٠/٤٦٣) مجموع مختاراته الفريد المسمى « زينة
 المجالس » فى مجلدات ثلاثة » (١٨١) .

أما عمر المتوكل بن الأفطس — الذى كان أول من عمل على الاستنجاد
 بالمرابطين — فهو الذى أهدى إليه ابن عبدون قصيدته المشهورة (١٨٥) .

ف ٣٧ — ابن عبروه :

عاش أبو محمد عبد المجيد بن عبدون فى بلاط المتوكل بن الأفطس فى بطليوس
 وكان من أكبر شخصيات هذه الدولة ، وأصله من « يارّة » ثم قدم على
 المتوكل ، وحظى عنده وصار له صاحباً ورفيقاً ، وأقامه كاتباً له فى سنة ١٠٨٠/٤٧٣
 وتحكى الغرائب عن كثرة حفظه ، حتى قال فى شأنه أبو سروان عبد الملك بن
 زهر : « هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب . هذا أبو محمد
 عبد المجيد بن عبدون : أيسر محفوظاته كتاب الأغاني ، وما حفظه فى ذكاء خاطره
 وجودة قريحته » (١٨٦) . وكانت محفوظاته بعض أدوانه ، فقد كان ذا فهم دقيق
 ومزاج مرهف ، ومواهب ممتازة ركبها الله فى طبعه .

وعند ما طويت صفحة الدولة الأفطسية فى ١٠٩٤/٤٨٧ بوفاة المتوكل ، قال
 ابن عبدون درة شعره « القصيدة العبدونية » التى أذاعت صيته فى العالم الإسلامى
 كله على نحو لم يسمع به قبل ذلك . ويقول عبد الواحد المراكشى فى وصفها ،

إنها « قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التي أزرت على الشعر ، وزادت على
السحر ، وفعلت في الأبواب فعل الحجر ، فجلت عن أن تُسأى ، وأنفت من أن
تُضاهى ، قفل لها النغدير ، وكثر إليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديرها بأقل
وجريب ... » (١٨٧) .

وقد ترجمها إلى الفرنسية فانيان ، وعنه نقل بونس بويجيس مقتطفات منها
إلى الإسبانية ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور ؟
وإليك أبياتاً منها :

ما ليلالى أقال الله عثرتنا من الليالى وخاتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وإن زاغت عن النظر
هوت بـ « دارا » وفلت غرب قاتله وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من « بنى ساسان » ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحقت أختها طسماً وعاد على عاد وجرم منها ناقص المدر (١٨٨)
ثم مضى يذكر الدول والأسر ، والرجال الذين عدت عليهم صروف الدهر ،
حتى وصل إلى بنى الأفطس — ومن أجلهم نظم قصيدته تلك يندب ماجرته
عليهم يد الحدنان (١٨٩) .

وتتم أبيات هذه القصيدة عن علم واسع واطلاع متبحر ، (ولم يسبقه إلى
مثلا من نوعها إلا ابن زيدون في قصيدته إلى ابن عبدوس) . وقد كانت غزارة
مادتها دافعة بالكثيرين إلى وضع المؤلفات في شرحها والتعليق عليها ، وأكبر هذه
الشروح وأذيعها « شرح ابن بدرون » . وقد درس دوزى هذا الشرح ونشره ،
ويرى هذا المستشرق الكبير أن المدائح الطنانة التي أسبغها على هذه « القصيدة »
علماء فطاحل — من أمثال ابن خاقان وابن الخطيب — مبالغ فيها كل المبالغة ،
ولا تتفق مع حقيقتها . وقال : « إننا نجد في هذه للرثية — إلى جانب بعض

أبياتها ذات المعاني المبتكرة الموقفة — نجد براعة عظيمة ، وإن التبحر في العلم ليتجلى فيها على نحو يفيض فيضاً ؛ ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل قصيدته مجرد صرخة محزون يعبر عن لوعته الصادقة العميقة ، في أبيات ذات جرس جميل ، وإنما مضى يعرض كبار الرجال الذين أخنى عليهم الدهر ، وعظام الدول التي عصفت بها يد الحداث ، ويقدم لنا ثبثاً منطلوماً بمصائب الدهر — من أيام دارا ملك الفرس إلى بنى الأفطس أصحاب بطليوس — في أسلوب صحيح يخاطبه تأنيق بين الحين والحين . وهو يجهد القارئ ويبعث إلى نفسه الملل بما يلجأ إليه من اللعب بالألفاظ وما يستعمله من الأخيصة السيرة التصور . إننا لا نجد أنفسنا أمام قصيدة تثير كوامن المشاعر ، وإنما حيال عرض موفق لعم واسع مثقل بالزخارف والزينة ^(١٩٠) . وعلة ذلك أن ابن عبدون لم يألم ألماً صادقاً لما حل بيني الأفطس ، ومصداق ذلك أنه دخل بعد ذلك في خدمة الأمير اللمتوني سير بن أبي بكر ، وعاش في ظلال المرابطين إلى آخر حياته ، (توفي سنة ٥٢٩/١١٣٤) . والبون شاسع بين هذا الحزن الفاتر المصطنع ، وبين العواطف الصادقة المؤثرة التي تتجلى في قصائد المعتمد بن عباد الأخيرة .

وقد خلف لنا ابن عبدون أشعاراً وآثاراً أخرى ، كالرسالة التي كتبها عن لسان سير بن أبي بكر بن تاشفين إلى علي بن يوسف بن تاشفين « يخبر فيها بفتح مدينة شتتين » ^(١٩١) ، ورسائله التي وجه بها إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال « يخطب مودته ويستدعي من إخوانه جدته » ^(١٩٢) ، وغيرهما كثير . وقد وصف دوزي شعره في هذه الآثار بأنه : « زهور لدنة رقيقة ينبعث منها عطر جميل . . . وأشعار متناسقة فياضة بالتوفيق والجمال » ^(١٩٣) .

ومن كتب للمتوكل بن الأفطس — وليوسف بن تاشفين من بعده كذلك — أبو بكر عبد العزيز بن القبطورنة ، وقد روى له صاحب القلائد تلك الأبيات

الحسان التي بعث بها إلى الوزير أبي الحسن بن سراج :

يا سيدى ، وأبى : هدى وجلالا ورسول ودى إن طلبتُ رسولا
عرج بقرطبة إذا بلغتها بأبى الحسين ، وناده تمويلا
فإذا سعدت بنظرة من وجهه فاهد السلام لكفه تقيلا
واذكر له شوق وشكرى مجلا ولو استقطعت شرحته تفصيلا
بتحية تهدي إليه كأنما جرت على زهر الرياض ذيولا^(١٩٤)
ومنهم كذلك أخوه أبو الحسن بن سعيد بن القبطورنة ، وقد أنشد له
صاحب « القلائد » :

ذكرت سليبي وحرث الوغى كجسى ساعة فارقتها
وأبصرتُ بين القنا قدها وقد ملن نحوى ، ففانقتها^(١٩٥)
وفى بلاط بنى الأنطس كذلك عاش أبو محمد عبد الله بن سارة (توفى
١١٢٣/٥١٧) ، وله مقطعات بدیعة فى موضوعات صغيرة — كالباذنجان
والسفرجل والنارنج — ومن ذلك قوله فى هذا الأخير :

أرى شجر النارنج أبدى لنا جنى كقطر دموع ضرجتها اللواعج
كرات عقيق فى غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالج
نقبلها طورا وطورا نشمها فمن خدود بيننا ونوافج^(١٩٦)
ومنهم كذلك أبو عبد الله بن البين ؛ قال صاحب الذخيرة : اجتمع مع ابن
سارة ، فقال له ابن سارة : أجز :

هذى البسيطة كاعب أبرادها حلل الربيع وحليها الأزهار
قال ابن البين :

وكأن هذا الجو فيها عاشق قد شفه التعذيب والإضرار
فإذا شكا فالبرق قلب خافق وإذا بكى قدموعه الأمطار
فمن أجل ذلة ذا وعزة هذه تبكى السماء ويسم النوار^(١٩٧)

ولتختم كلامنا عن شعراء غريب الأندلس بذكر عبد الرحمن بن مقان
الأشبوني ، صاحب المديح الذائع في إدريس بن يحيى بن علي بن حمود صاحب
مالقة الذي يقول فيه :

قد بدا لي وضحُ الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذنين
نثر المزجُ على مفرقها درراً عامت ، فعادت كالبرين
مع فتیانِ كرامٍ نجِبٍ يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خدرشا ورَدَ الوردُ به والياسمين
وجلت آياته عامدةً سبيح الشعر على عاج الجبين
فأنثى غصناً على دعمس نقا وبدا ليل على صبح مبین^(١٩٨)

(ز) سرقسطة

ف ٣٨ — ابن باجة :

لدينا من أخبار بني هود في سرقسطة طائفة طيبة عن العلوم في دولتهم
(انظر ف ١٣٣) ، أما أخبار الشعر والشعراء في بلاطهم قليلة ، باستثناء رجل
مثل اليهودي أبي الفضل حسداى وزير المؤمنين بن هود ، وكان له اهتمام كبير بالعلوم
والطب والشعر والموسيقى . وسندع — إلى حين — ابن جبيرول (Avicibrón)
وكان شاعراً فيلسوفاً يهودياً ، لجأ فترة من الوقت إلى بلاط سرقسطة ، ونجّزى
هنا بذكر يحيى الجزار ، وأبي بكر محمد بن باجة التجيبي المعروف بابن الصائغ ،
وهو فيلسوف ممتاز (انظر ف ١٠٦) وموسيقى جليل ومؤلف موشحات وأثار
شعرية أخرى . وما يؤثر عنه أن الموت عدا على صاحب له ففصى ليلة كاملة عند
قبره ، وكان يعلم — لمعرفته بالفلك — أن القمر سيعسف تلك الليلة ، فنظم بضعة
أبيات ، وقبل أن يحين موعد استتار القمر بلحظات أنشدها بلحن محزن يفيض
شجواً^(١٩٩) .

ولما حضرته الوفاة كان ينشد :
أقول لنفسي حين قابلها الردى
فراغت فراراً منه يُسرّى إلى يُمنى :
قرى ، تحملى بعض الذى تكرهينه
فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى^(٢٠٠)

٤ — عصر المرابطين

ابن خفاجة الشقري — ابن الزقاق — أبو الملت أمية الداني

ف ٣٩ :

يعتبر عصر سيادة المرابطين على الأندلس عصر تأخر وانكماش للثقافة الأندلسية ، فقد كان يوسف بن تاشفين — أول أمراء هذه الدولة — لا يكاد يفقه العربية . أما خلفاؤه « فلم تلبث الثقافة الأندلسية أن غلبتهم على أسرهم ، فأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة » كما يقول غرسيه غومس ؛ وتولى الكتابة عنهم نفر من أهل الأدب الأندلسيين ، من أمثال ابن عبدون ، وبنى القبطونية ، وابن أبي الخصال (المتوفى عام ١١٤٥/٥٤٠) ، والصيرفي (المتوفى عام ١١٧٤/٥٧٠) .

ومن أعلام من ظهر في ذلك العصر ابن خفاجة وابن أخيه ابن الزقاق .
أما ابن خفاجة الشقري (١٠٥٨/٤٥٠ — ١١٣٨/٥٣٣) فقد وصفه ابن سعيد بقوله : « شاعر الأندلس في وصف الأزهار والأنهار وما أشبه »^(٢٠١) . وقد لقبه الناس بالجنان ، لكثرة ما وصف الرياض ، وإليك نموذجاً من شعره :

لله نهر سال في بطحاء أشعى وروداً من لى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكفنه بجر سماء
قد رقى حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء

وغدت تحف به الفصون كأنها هُدُب تحف بمقلة زرقاء
ولطالما عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب أيدي الندماء^(٢٠٢)
ومن المشهور المتداول قوله يتقزل :

غزالية الأخطا ريمية الطلى مُدامية الأملى حباية الثغر
ترنج في موشية ذهبية كما اشتبكت زهر النجوم على البدر
وقد خلعت ليلاً علينا يد الموى رداء عناق مرزقه يد الفجر^(٢٠٣)

ويقول غرسية غومس في « روضيات » ابن خفاجة : « إنها سائفة بديعة ،
تصدر عن طبع فني لمّاح ، فتبدو وكأنها مشاهد خيالية ، أو مجالس أنس خيرية ؛
ويمكن القول بأنه سبق بها شعراءنا في وصف الطبيعة على النحو الذي نعرفه .
وقد كان أثر طريقة ابن خفاجة عظيماً بعيداً ، حتى لنلس آثار هذا « الأسلوب
النفاجي » إلى نهاية عصر غرناطة » .

وأما ابن الزقاق ، فالمر في براعته يرجع إلى تلك الألوان الرقيقة التي يابجأ
إليها ليغير من صور التشبيهات التي ملها الناس لكثرة تواردها ، « فتلطف لذلك
في أن يأتي به [أى بالمعنى] في منزع يصير خَلقه في الأسماع جديداً ، وكليله في
الأفكار جديداً ، فأغرب أحسن إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل
إغراب » — كما يقول الشقندي^(٢٠٤) .

ويعتبر كلا الشاعرين — ابن خفاجة وابن الزقاق — الذروة العليا للشعر
التقديم المجدّد ، مثلهما في ذلك مثل جُنَجُرَه في الأدب الإسباني ، وليس بعدهما
إلا تقليد أو انحمار^(٢٠٥) .

أما ابن الزقاق (١٠٩٦/٤٩٠ — ١١٣٥/٥٣٠) — ابن أخت ابن
خفاجة — فله خمریات بديعة ، كقوله :

أديرها على الروض المنّدى وحكم الصبح في الظلّاء ماضى
وكأس الراح تنظر عن حباب ينوب لنا عن الحدق المراض

وما غربت نجوم الأفق لكن نقلن من السماء إلى الرياض^(٢٠٦)
 وإلى جانب^٩ نفر غفير من الشعراء المحدثين — من أمثال ابن بقی القرطبي
 (توفي ١١٤٥/٥٤٠) صاحب الغزل الرقيق^(٢٠٧)، والأعمى التطيلي^(٢٠٨) (توفي
 ١١٢٦/٥٢٠) وقد عاش في إشبيلية وعلا أسرته فيها — ظهر نفر من الزجالين
 والشاحين وأصحاب الشعر الذي لا احتشام ولا عفة فيه، كنزهون بنت التلاعي
 تلميذة الخزومي^(٢٠٩) التي كانت تعارض أبا بكر بن سعيد الوزير الغرناطي معارضات
 تنم عن ذكاء، والكنتدي^(٢١٠) الذي أكثر من التغنى بجمال الوادي الكبير
 نهر إشبيلية، وغيره كثيرون ممن سبقوا ابن قزمان إلى أفكاره ومعانيه؛ وسندرسها
 فيما بعد عند إلمامنا بأزجاله.

ويمتاز هذا العصر بظاهرة أدبية أخرى جديدة بالذكر، وهي هجرة الكثيرين
 من أهل العلم والأدب من الأندلسيين إلى المشرق، حاملين معهم علومهم وثقافتهم؛
 ومن أمثلة ذلك أبو الوليد الطرطوشي (ف ٥٦)، وأبو الصلت أمية الداني
 (١٠٦٧/٤٦٠ — ١١٦٥/٥٦١)^(٢١١) الذي خرج إلى المشرق وتجلت مواهبه

الأدبية في الإسكندرية ومصر وتونس، ومن أمثلة شعره قوله في بحجرة طليب:

ومحرورة الأحشاء لم تدر ما النوى ولم تدر ما يلقي الحب من الوجد

إذا ما بدا برق المدام رأيتها تثير غماماً في الندى من الندى

ولم أر نارا كلما شب جمرها رأيت الندامى منه في جنة الخلد^(٢١٢)

ولأبي الصلت مجموع من مختارات شعر الأندلسيين ضامى به «يتيمة الدهر»
 للعمالي، وله «الرسالة المصرية» ومؤلفات أخرى كثيرة في الطب والفلك
 والموسيقى والهندسة والنطق (ف ١٠٤).

يبد أن الاهتمام الأكبر اتجه في هذا العصر إلى مجموعات مختارات النظم
 والنثر، كما نرى في «ذخيرة» ابن بسام (ف ٩٠) و«قلائد العقيان» لابن
 خاقان (ف ٩١).

٥ - عصر الموحدين

أبو جعفر بن سعيد وخفصة الركونية — حدة بنت زياد المؤدب —
 ابن زهر — ابن صفر — ابن سهل — صفوان بن إدريس — أبو البقاء
 الرندى — ابن الأبار — أبو الحجاج اليباسى — على بن سعيد المغربي

ف ٤٠ :

اضمححل سلطان المسلمين في شبه الجزيرة اضمحلالاً واضحاً خلال عصر الموحدين ، وخفت في أنفائه قوة الأثر الذي كان للشرق على الأندلس ، وتلاشت السياسة التقليدية التي عرفها الأندلس الإسلامى طوال تاريخه قبل ذلك ، وهى سياسة التسامح بين المسلمين والنصارى ، وبدأ المستعمرون يتطلعون إلى الوثوب بالمسلمين^(٢١٣) ، وزادت أزمته حدة مع الزمن ، وعندما توالى انتصارات النصارى على مسلمى الأندلس واستولوا منهم على المعقل واحداً بعد واحد ، أصبح معتمد الأندلسيين على الأمداد الغربية ، وكانت نتيجة ذلك أن أهل المغرب نظروا إلى الأندلسيين نظرة الاستصغار والاستضعاف ، واتبرى الأندلسيون ينتصفون لأنفسهم ، ورسالة أبي الوليد المشقندى^(٢١٤) إن هى إلا مظهر لهذا المنزع عند الأندلسيين .

وقد مضى الأندلسيون خلال هذا العصر فى دراسة الفلسفة والعلوم قديماً ، وأنشأوا فى ميدان الفن عماراً جليلة ذات خطر ، كالمنارة الرائعة التى عرفت فيما بعد بالغيرالدا (La Giralda)^(٢١٥) فى إشبيلية ، وكذلك استمر الاهتمام بالشعر والحفاصة له ، وكان خلفاء الموحدين إذا ألموا بالأندلس جلسوا للشعراء يستمعون لأمداحهم وكانت كثيرة جداً ، حتى لقد حكى صاحب « كقاب روح الشعر ودوح الشجر » وهو الكاتب أبو عبد الله محمد بن الجلاب القهرى ، أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قفل من غزوة الأراك (= الأرك) المشهورة ، وكانت يوم الأربعاء ٩ شعبان سنة ١١٩٤/٥٩١ ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يتمكن

لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته ، بل كل يختص منها بالإشاد البيتين
والثلاثة المختارة ، فدخل أحد الشعراء فأنشده :

ما أنت في أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين في الرسل
أحييت بالسيف دين الماشي كما أحياء جدك عبد المؤمن بن علي
فأمر له بألني دينار ، ولم يصل أحداً غيره لكثرة الشعراء ، وأخذاً بالمثل :
« منعُ الجميع أرضي للجميع » . قال : « وانهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن
حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها »^(٢١٦) .

ومن ظهر أمره من شعراء هذا العصر وعلا نجمه في بلاط الموحدين أبو جعفر
أحمد بن عبيد الملك بن سعيد العنسي (المتوفى سنة ٥٥٩/١١٦٣) وهو من
تلاميذ ابن خفاجة . وكان يمتاز بخلق سمح جميل وذهن دقيق ، وكان يؤثر الدعة
والراحة على متاعب الاضطلاع بشؤون الدولة ، وكان مولعاً بحفصة بنت الحاج .
الشاعرة الغرناطية الذائعة الصيت الملقبة بالـ « كونية » ، وهي نسبة أبيها ، وكانت تحتل
في عصر الموحدين مكانة ولادة في قرطبة بنى جهور . وكان ولعه بها سبب موته .
استمتع أبو جعفر وحفصة بهواهما زمناً ، وأفصح كل منهما عن مشاعره في
شعر كثير . وبعض أبيات حفصة تم عن روح تهكم فكاهة لطيف . من ذلك أن
أبا جعفر قال الأبيات التالية بعد أن نعم بليلة مع صاحبتة في خيلة بحور مؤمل :
رعى الله ليلاً لم يرع بمذم عشية واراناً بحور مؤمل .
وقد خفت من نحو نجد أريجة إذا نفت هبت برى القرفل
وغرد قرى على الدوح وانثى قضيب من الريحان من فوق جدول
يرى الروضُ مسروراً بما قد بدا له : عناق وضم وارتشاف مُمَبِّل^(٢١٧)
فأجابته حفصة بأبيات تدعوه فيها إلى ترك التحليق مع الخيال والهبوط .
إلى الحقيقة الواقعة :

لعمرك ما سر الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا القل والحسد

ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ولا صدح القمرى إلالمنا وجد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله فاهو فى كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كما تكون لنا رصد^(٢١٨)
وينسب إلى الركونية هذان البيتان :

أغار عليك من عيني رقيبى ومنك ومن زمالك والمكان
ولو أنى خبأتك فى عيوني إلى يوم القيامة ما كفانى^(٢١٩)

ويشء القدر أن يتعلق بحفصة كذلك ابن للخليفة عبد المؤمن يسمى « أبو
سعيد » وكان والياً على غرناطة ، وكان أبو جعفر لا يوقره ويجاهر بالزراية به^(٢٢٠) .
ثم خرج من غرناطة ، واشترك فى تدير على الموحدىن أحكه نفر من أصحاب محمد
ابن مردانيس المنتزى على الموحدىن فى بلنسية ، وكان الإسبان يسمونه بـ « الرئى
لويو » أى « الملك لب » . وقد انكشف أمر هذه المؤامرة وأبو جعفر فى مائة
يهم بركوب البحر إلى بلنسية ، فقبض عليه وأودع السجن ثم قتل سنة ٥٥٩/١١٦٣
وقد زاره فى محبسه قبل قتله صديق له ، فدمعت عيناه حينما رآه مكبولا فقال له :
« أعلى تبكى بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها ، فأكلت صدور الدجاج ،
وشربت فى الزجاج ، ولبست الديباج ، وتمتعت بالسرائى والأزواج ، واستعملت
من الشمع السراج الوهاج ، وركبت كل هِلاج ؟ وها أنا فى يد الحجاج ، منتظراً
محبة الحلاج ، قادم على غافر لا يحتاج ، إلى إعدار ولا احتجاج » . قال ابن عمه
الذى سمع هذه المقالة : « أفلا يؤسف على من ينطق بمثل هذا الكلام ويفقد^(٢٢١) »
وعندما بلغ حفصة^(٢٢٢) خبر صاحبها لبست الحداد وحزنت عليه حزناً شديداً ،
وجعلت تنحى على نفسها باللائمة أن كانت سبب هلاك هذا المسكين .

ويغلب أن حمدة بنت زياد المؤدب عاشت فى ذلك العصر ، وكانت تلميذة
للبراق ولقيت شهرة عظيمة فى المشرق خاصة ، ومن أبياتها التى طارت كل مطار
فى الأندلس قولها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وليس لم عندى وعندك من ثار
 وشنوا على أسمعنا كل غارة وقلتُ لحاتي عند ذاك وأنصاري
 غزوتهم من ناظريك وأدمى ومن نفسى بالسيف والسييل والنار^(٢٢٢)
 وتنسب هذه الأبيات في بعض الأحيان لأختها زينب .

ف ٤١ — أبو بكر محمد بن زهر (١١١٣/٥٠٧ — ١١٩٩/٥٩٦) :

من سلالة دوحه بنى زهر التي أنجبت نفراً من مشاهير الأطباء . برع أبو بكر
 في نظم الموشحات ، وله كذلك شعر جيد ، كآيائه التي يصف فيها فصل الحمر
 في الرؤوس ، ومنها هذه الأبيات التي أوصى أن تكتب على قبره :

تأملُ بحمك يا واقفاً ولاحظ مكاناً وقننا إليه
 ترابُ الصريح على وجنتي كأنى لم أمش يوماً عليه
 أداوى الأنام حذار المنون وها أنا قد صرت رهناً لديه^(٢٢٤)

وكان ابن جُبَيْر الرحالة شاعراً محسناً يقول للمقطعات الجميلة بين الحين والحين ،
 وشعره ذو معان فلسفية كقوله :

الناس مثل ظروفٍ حشوها صبر وفوق أفواها شيء من العسل
 تفر ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخل^(٢٢٥)

وتحمل كتب الأدب بذكر نفر غفير من شعراء هذا العصر نذكر منهم
 ميمون بن الخبازة^(٢٢٦) ، ويحيى بن مُجَبَّر (توفي ١١٩١/٥٨٧) المسمى ببحتري
 الأندلس^(٢٢٧) ، وأبا أحمد بن حيون^(٢٢٨) ، وعبد البر بن فرسان^(٢٢٩) ، ويحيى بن
 غانية الميورقي^(٢٣٠) ، وابن الرفاء^(٢٣١) الذي أبدع في وصف نافورة ، ومحمد بن صفّر^(٢٣٢)
 الذي تغنى بجمال وادي التريّة وصور الد في مدخل « الوادي الكبير » بقوله :

حيث الجزيرة والخليجُ يحفها يشكو إليها ، كي تجيب جواره
 شق النسيم عليه جيب قيصة فانساب من شطيه يطلب ثاره

فتضاحكت وُرق الحمام بدوحه هزءاً ، فضم من الحياء إزاره
ومن استلهم « الوادي الكبير » طرفاً من شعره إبراهيم بن سهل المتوفى سنة
١٢٥١/٦٤٩ وكان يهودياً فأسلم ، وأدرك شهرة عظيمة لأنه « اجتمع فيه ذلان :
ذل العشق وذل اليهودية » ، قال ابن سهل :

وكأنما الأنشام فوق جنانه أعلامٌ خز فوق سُمرٍ رماح
لا غرو أن قامت عليه أسطراً لما رآته مُدَرَّعاً لكفاح
وإذا تتابع موجُّه لدفاعها مالت إليه ، وظل حلف صياح^(٢٣٣)
ووصف الرصافي (المتوفى ٥٧٢/١١٧٧) النهر في أبيات رائعة :

ومهدل الشطين تحسب أنه مُتَسَيِّل من درة لصفائه
فأدت عليه مع المعجيرة سرحة صدئت لقيئتها صفيحة مائه
وتراه أزرق في غلالة سندس كالدارع استلقى لظل لوائه^(٢٣٤)

أما أبو بحر صفوان بن إدريس (١١٦٥/٥٦١ — ١٢٠٢/٥٩٨) صاحب
« زاد المسافر » ، فقد كان شاعراً محسناً يهدي مقطعات نسيبه إلى من يتغزل
فيه ، كقوله :

يا حسنه ، والحسنُ بعض صفاته والسحر مقصور على حركاته
بدر لو أن البدر قيل له : اقترح أملاً ، لقال : أكون من هالاته
وإذا هلالُ الأفق قابل شخصه أبصرته كالشكل في مرآته
والحال ينقُط في صحيفة خده ما خط فيها الصدغ من نوناته
صاحبته ، والليل يُدنى تحته نارين من نقسى ومن وجناته
وضمته ضمَّ البخيل لماله أحنو عليه من جميع جهاته
أوثقته في ساعدى لأنه ظلي أخاف عليه من فلتاته
وأبى غفاني أن أقبل ثمره والقلب مطويٌّ على جهراته
فأعجب للتهب الجوانح غُلة يشكو الظما ، والماء في لهواته^(٢٣٥)

ف ٤٢ — أبو البقاء الرندي :

وإلى جانب من ذكرنا كان هناك شعراء تروى لهم الأبيات في كتب الأدب ،
ولكن طبقاتهم في الشعر لم تكن عالية ، ومن هؤلاء محمد بن عبد الرحمن النسائي
(١١٧٢/٥٦٨ — ١٢٢٢/٦١٩) الذي قال شعراً كثيراً في أنساب العرب أورده
ابن الخطيب في « الإحاطة »^(٢٣٦) ، وأبو القاسم إبراهيم بن فرقد (الذي عاش
في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) وهو من مَورور ، وله شعر كثير وصف
به قرطبة ومسجدها الجامع وإشبيلية ومورور ، وله كذلك قصائد يبكي فيها مصير
الأندلس^(٢٣٧) ، وأبو الربيع بن سالم^(٢٣٨) (١١٦٩/٥٦٥ — ١٢٣٦/٦٣٤) وكان
تلميذاً لابن زهر ، وقد ضاع معظم شعره ، وقد اشتهر أمره ببلاغته ومعرفته بالحديث .
وأولى أولئك جميعاً بالذكر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي ، وقد ظهر
أمره وبقي ذكره بقصيدة يندب فيها ما أقطعه من الأندلس فرناندو الثالث وجاقمه
الأول (Jaime I) ، وإليك أطرافاً منها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يُفترّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور — كما شاهدتها — دول	من سرّه زمنٌ ساءته أزمان
وهذه الدار لا تُبقي على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يَمنٍ ؟	وأين منهم أكاليل وتيجان ؟
وأين ما شاده شدّاد في إرم ؟	وأين ما ساسه في القرس ساسان ؟
[دهي الجزيرة أمر لا عزاء له	هوى له أحدٌ وانهدّ شَهلان]
أصابها العين في الإسلام فامتحن	حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية : ما شأن مرسية	وأين شاطبةٌ ، أم أين جَيّان ؟
وأين قرطبة ، دار العلوم ، فكم	من عالم قد سما فيها له شان ؟
وأين حصّ ، وما تحويه من نُزّه	ونهرها العذب فياض وملآن ؟
[بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم	واليوم هم في بلاد الكفر عبّدان]

[فلو ترام حيارى لا دليل لم عليهم من ثياب الذل ألوان]
 [ولو رأيت بكام عند بيعهم لما لك الأمر واستهوتك أحزان]
 [يارُبِّ أُمِّ وطفلي حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان]
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
 يقودها العليج للمكروه مكرهة والمين باكية والقلب حيران
 لمثل هذا يذوب القلب من كد إن كان في القلب إسلام وإيمان^(٢٣٩)
 وقد وردت هذه القصيدة كذلك في «أزهار الرياض» للمقرئ (القاهرة
 ١٩٣٩) ج ١، ص ٤٧ — ٤٩؛ وجاء اسم الرندي هناك : أبو الطيب صالح
 ابن شريف .

وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس ، وبلغ من إعجابهم بها أن
 أضافوا إليها فيما بعد فقرات عن ضياع مدن أندلسية أخرى استغلبها النصارى بعد
 ذلك مثل بسطة وغرناطة . ويقول المقرئ في شأن هذه الزيادات : « ومن له أدنى
 ذوق علم أن ما زيد فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ؛ وغالب ظني
 أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذ كان أهلها يستهضون
 هم الملوك بالشرق والغرب ، فكان بعضهم لما أعجبتهم قصيدة صالح بن شريف زاد
 فيها تلك الزيادات »^(٢٤٠) .

وقد ترجم خوان فاليرا هذه القصيدة إلى شعر إسباني في نفس البحر الشعري
 الذي صاغ فيه شاعر إسباني هو خورخيه مانريك Jorge Manrique قصيدة
 مشابهة لها في الروح — في رأى فاليرا — وقد صاغها في قالب الفقرات coplas ،
 بيد أن للدق يستبين أن قصيدة الرندي لا تشبه قصيدة مانريك إلا في ترجمة
 فاليرا الشعرية البديعة فحسب^(٢٤١) ، أما الأصل العربي فبعيد عن ذلك . وعلى من
 يريد أن يدرس هذا الموضوع أن يفعل ذلك والأصل العربي بين يديه .

ف ٤٣ - ابن الأبار :

يقول غرسية غومس : « وكان من الدلائل الواضحة على اضمحلال الأندلس مغادرة الكثيرين من أعلامه إياه إلى غير رجعة . فلم يعد الأندلسيون يخرجون إلى المشرق لطلب العلم ثم يعودون محملين ب ذخائر علومه ، كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، وإنما أصبحوا يبرحون الأندلس بزاد حافل من المعارف الأندلسية وينشرونها في أقطار نائية . وهذا ما وقع لرجال كأبي الحسين بن جبير (وقد عاد إلى الأندلس) والصابوني والشُّشْتَرى ، وعجي الدين بن عربي ، وهو أم هؤلاء جميعاً . وقد لجأ إلى بلاط الحفصيين في تونس نفر من علماء الأندلس وشعرائه مثل حازم القرطاجني (١٢١١/٦٠٨ - ١٢٨٥/٦٨٤) صاحب « القصيدة المقصورة » (التي قام على شرحها الشريف الفرناطلي ١٢٩٧/٦٩٧ - ١٣٥٩/٧٦١) وهي مرثية مشبوبة العاطفة للأندلس تتضمن ذكريات كثيرة عما كان للناس في نواحي مرسية وقرطاجنة من مسرة ومناجاة . ومن أولئك اللاجئين إلى تونس أبو الحجاج البياسي (١١٧٧/٥٧٣ - ١٢٥٥/٦٥٣) وكان لغوياً مؤرخاً شاعراً ذا إلمام نادر بما قالته العرب من شعر في الجاهلية والإسلام حتى ليقال إنه كان يحفظ « حماسة » الطائي و « ديوان » المتنبي وكل ما قاله السبعة المتقدمون من شعراء الجاهلية ، وغير ذلك كثير . وقد وضع كتاباً سماه « الحماسة » ضمنه الكثير من الحكايات والأشعار وأخبار الشعراء وما إلى ذلك ، وأورد ابن خلكان أطرافاً منه .

وأم أولئك جميعاً أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الأبار القضاعي ، فقد وصل إلينا من شعره أبيات جميلة رقيقة في النسيب ، وقصيدة ذاتمة الصيت ألقاها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص ، وكان قد قصده في سفارة أرسلها الأمير « زيان ابن أبي الحملات » الموحدى صاحب بلنسية في ذلك الحين ، وكان صاحب برشلونة قد ألح عليها بالحصار ، قال فيها :

أدرك بخيلك ، خيل الله ، أندلسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمس
وحاش مما تعانيه حشاشتها
يا الجزيرة أنجي أهلها جزراً
في كل شارقة إلام باثقة
تقاسم الروم ، لاناك مقاسمهم
وفي بلنسية منها قرطبة
مدائن حلها الإشرأك مبتسا
وصيرتها العوادي العاثات بها
فن دساكر كانت دونها حرما
يا للساجد عادت للعدي يما
إت السبيل إلى منجاتها درسا
فلم يزل منك عن النصر ملتصا
فطالما ذقت البلوى صباح مسا
للحادثات وأمسي جدها تعا
يعود مآتمها عند الصدى عرُسا
إلا عقائلها المحجوبة الإنسا
ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
جذلان وارتمل الإيمان مبيتسا
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
ومن كنائس كانت قبلها كنسا
وللنداء غدا أثناءها جرسا^(٢٤٢)

وله أبيات رقيقة قالها في حديقة ياسمين :

حديقة ياسمين لا تهيم بغيرها · الحديق
إذا جفن النمام بكى تبسم ثمرها اليق
كأطراف الأهله سا ل في أثناءها الشفق^(٢٤٣)

ومن بديع شعره الأبيات التالية في « الساقية » :

لله دولاب يدور كأنه فلك ، ولكن ما ارتقاء كوكب
نصبته فوق النهر أيدٍ قدّرت ترويمه الأرواح ساعة يُنصب
فكأنه - وهو الطليق - مقيد وكأنه - وهو الحيس - مسيب
للماء فيه تصعد وتحد كالزن تستقي البحار وتسكب
هامت به الأحداق لما نادمت منه الحديقة ساقياً لا يشرب^(٢٤٤)

ولأبي الحسن علي بن سعد الخير أبيات في هذا المعنى^(٢٤٥) .

ف ٤٤ — على بن سعيد المغربي^(٢٤٦) :

وآخر من ظهر من أعلام الشعر خلال هذا العصر هو على بن سعيد المغربي (١٢١٣/٦١٠ — ١٢٧٤/٦٧٣) الذي سنفحدث عنه كؤرخ فيما بعد، وتناول الآن جانبه كعلم من كبار مصنفى مجموعات النظم والنثر، وبين أيدينا الآن كتابه الشَّيْثُ « رايات المبرزين وغايات المميزين » (نشره إميليو غرسية غومس مع ترجمة إسبانية في مدريد عام ١٩٤٢) وهو مجموع من مختار الشعر انتقاء من كتابه « المغرب » وأهداه إلى أبي الفتح جمال الدين موسى بن يُغْمور (٥٩٩ / ١٢٠٣ — ١٢٦٥ / ٦٦٣) من كبار رجال الدولة المصرية على عهود الملك الصالح وتوران شاه ويبرس . والكتاب ينقسم قسمين : واحد عن شعراء الأندلس والثاني عن شعراء إفريقيا . والقسم الأول يتناول الكلام عن شعراء وسط الأندلس وغربه وشرقه ثم يلم بأخبار شعراء جزيرة يابسة ، وإنما اقتصر على هذه الجزيرة دون بقية الجزائر الشرقية (البليار) لأنه لم يجد شعراء ذوى قدر إلا بها . والقسم الثاني مرتب كذلك على أقسام أربعة : مراکش والمغرب الأوسط وتونس وصقلية .

والكتاب يتناول الكلام عن مائة وأربعين شاعراً أورد المؤلف لهم أربع عشرة وثلاثمائة مقطوعة من الشعر، والشعراء مرتبون بحسب المدن (إشبيلية، قرطبة، غرناطة، طليطلة، دانية، طرطوشة، تطيلة، إلخ)؛ وشعراء كل بلد مقسمون طبقات بحسب مراتبهم (الملوك، والوزراء، والسادة، والفقهاء، والشعراء، إلخ) ومرتبون ترتيباً زمنياً بحسب القرون التي ظهوروا فيها، ويتناول الكلام الفترة الواقعة بين زوال خلافة قرطبة والقرن الثالث عشر الميلادي .

وقد أورد ابن سعيد في هذا المجموع نحو ثلاثين نموذجاً من شعره، وهو يحدثنا عن ولعه بالفنن في وصف الريح والنمنن كقوله :

الريح أقوَد ما تكون فإنها تبدى خفايا الرُدف والأعكان

وتَمِيلُ الأعْصانُ بعدَ إِبائِها حقَّ تقبُّلِ أوجهِ الغدِرانِ
ولذلكَ العشاقُ يتخذونها رسلاً إلى الأحبابِ والإخوانِ^(٢٤٧)
ويقول متحدثاً عن نفسه : وبما لم يُسبقَ للملوكِ إليه قوله :
وانظر إلى سفحِ الخليجِ كطائرٍ لقي الصبا من موجهِ بجناحِ
وقوله :

والشمسُ من ألمِ الفراقِ مريضةٌ مدت لتوديعِ البحيرةِ راحاً^(٢٤٨)
وقد طار اسمُ ابنِ سعيدٍ في القرنِ الماضي (في إسبانيا) بأبياتِ ترجمها له
خوان فاليرا في شعر إسباني جميل يتحدث فيها عن وطنه وحبّه له يقول فيها :
هذه مصر ، فأين للفرج ؟ مذ نأى عنى دموعي تسكب
فارتفت النفسُ جهلاً إنما يُعرفُ الشيءُ إذا ما يذهب
أين حصنٌ ؟ أين أياي بها ؟ بعدها لم ألق شيئاً يعجب
كم تقضى لي بها من لذة حيث للنهرِ خريز مطرب
وحامُ الأيكِ تشدو حولنا والمثاني في ذراها تصخب
أى عيش قد قطعناه بها ذكره من كل نعى أطيب
ولكم بالمرج لي من لذة بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التي تذكرها بالنوى عن مهجتي لا يُسلب
ولكم في شنبوس من منى قد قضيناها ولا من يعتب
وغناء كل ذى فقر له سامع غصبا ولا من ينصب
بلدة طابت ورب غافر ليقنى ما زلت فيها أذنب
أين حسنُ النيل من نهر بها كل نقات لديه تطرب
كم به من زورق قد حله قرّ ساقٍ وعود يُضرب
... ..

وإلى مائدة يهفو هوى قلبُ صَبِّ بالنوى لا يُقلَب

أين أبراج بها قد طلما حث كاسى فى ذراها كوكب
جاءت الريح بها ثم اثنت أتراها حذرت من ترقب
... ..

هذه حال وأما حالى فى ذرى مصر ففكر متعب
[أسمع أذى محالا ليتها لم تصدق ويحما من يكذب]
[وكذا الشيء إذا غاب اتهاوا فيه وصفا كى يميل الغيب]
ها أنا فيها فريد مهمل وكلامى ولسانى مُعرب
وأرى الأحاظ تنبو عندما أكتب الطرس ، أفيه عقرب؟ (٢٤٩)

٦ - مملكة غرناطة

ابن الخطيب - ابن زمرك

ف ٤٥ - ابن الخطيب (كشاعر) :

كان الشعر الأندلسى خلال العصر الغرناطى (١٢٦٦/٦٦٥ - ١٤٩٢/٨٩٨) يلفظ آخر أنفاسه ، مثله فى ذلك مثل غيره من فروع الثقافة الإسلامية فى الأندلس : كانت كلها تعيش على أصداء الماضى . ولقد قسم غرسية غومس - فى بحثه عن ابن زمرك - العصر الغرناطى من الناحية الثقافية إلى ثلاث فترات : فترة غلب فيها التأثير النصرانى ، وكان ذلك على أول أيام دولة بنى نصر ، إذ كان أولئك الأخيرون أفصلاً (أتباعاً) صرحاء للملك قشتالة ، والفترة الثانية - خلال القرن الرابع عشر الميلادى - فترة بين بين ، اختلطت فيها المؤثرات المسيحية بالمؤثرات الشرقية الإفريقية . أما الفترة الثالثة - خلال القرن الخامس عشر - فقد غلب فيها الطابع الإفريقى المشرقى على مملكة غرناطة وثقافتها بصورة واضحة جداً . وذكر غومس كذلك أنه خلال الفترة الثانية ، كانت عناصر الحضارتين : المسيحية الغربية والمشرقية الإفريقية ، تتفاعل هذا التفاعل الذى سيتولد عنه فيما بعد كيان سياسى ثقافى خاص^(٢٥٠) . ولقد عبر ابن خلدون عن ذلك بأجلى بيان فى مقدمته ، وذلك حيث

قال : « وكأنني بالشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب ، لكن على نسبته ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالتحول والانقباض ، فبادر بالإجابة ، والله وارث الأرض ومن عليها . وإذا تبدلت الأحوال جملة ، فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث » (٢٥١) .

وتبدي لنا في عالم الشعر خلال هذا العصر شخصيتان تكادان تكونان فريدتين في بابهما : الأولى شخصية ابن الخطيب (١٣١٣/٧١٣ — ١٣٧٤/٧٧٦) أكبر مؤرخي ذلك العصر وأعظم شعرائه . ونذكر من شعره قصيدته العصماء التي وجه بها إلى أبي عنان سلطان بني مرين — وكان قصده موقفاً من قبل سلطانه محمد الثاني بالله لاستنصاره على مغالبة النصارى — ومطلعها :

خليفة الله ، ساعد القدرُ علاك ، ملاح في الدجي قرُ
ودافنتُ عنك كفتُ قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في الثائبات بدر دجي لنا ، وفي التحل كفتك المطر
والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا (٢٥٢)
وله قصيدة أخرى نحا فيها نحو القدماء وجه بها إلى السلطان أبي سالم سلطان مراکش ، يسأله فيها أن يجير محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر المخلوع عن عرش غرناطة مطلعها :

سلا ، هل لديها من مخبئة ذكر وهل أعشب الوادي وتم به الزهر
وهل باكر الوسمي داراً على اللوى عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى بأ كفافها ، والعيش فينانُ مخضر
وجوئي الذي ربي جناحي وكره فيها أنا ذا مالي جناح ولا وكر
ويقول فيها :

أقول لأظماني وقد غلها الشرى وآنسها الحادي وأوحشها الزجر

رويدك ، بعد العسر يسراً بشري يا إنجاز وعد الله ، قد ذهب العسر
ويقول فيها :

قصداك يا خير الملوك على النوى لتتصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففتنا بك الأيام عن غلوائها وقد راينا منها التعسف والكبر^(٢٥٣)
وله أبيات جيدة أوحاها إليه وقوفه بقبر المعتمد بن عباد قال فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمت رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً ويا سراج الليالى اللذات
وأنت من لو تحطى الدهر مصرعه إلى حياتي لجادت فيه أيبات
أناف قبرك في هضب يميزه فتنتحيه حقبات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علي فأنت سلطان أحياء ، وأموات
ما رؤى مثلك في ماض ، ومعتدى ألا يرى الدهر في حال ولا آت^(٢٥٤)
ونختم حديثنا عن ابن الخطيب الشاعر بهذه الأبيات الفياضة بصدق العاطفة
وجلال الإيمان ، التي قالها في محبسه « يتوقع مصيبة الموت فتجيش هوائه بالشعر
يبكي نفسه » :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاء القنوت
وكنا عظاماً ، فصرنا عظاماً وكنا نقوت ، فها نحن قوت
وكنا شمس سماء العلى غروب ، ففاحت علينا البيوت
فقل للعدى : ذهب ابن الخطيب ب وفات ، ومن لا يفوت ؟
فن كان يفرح منكم له فقل : يفرح اليوم من لا يموت^(٢٥٥)

ف ٤٦ — ابن زمر :

أما الشخصية الثانية ، وآخر علم من أعلام الشعر الأندلسي فأبو عبد الله
محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الشَّريحي المعروف بابن زمر

أو ابن زُمْرُك (١٣٣٣/٧٣٤ — ١٣٩٣/٧٩٦) تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، الذي لم يتردد في تتبعه بالأذى ، ولم يحجم عن الإفادة من موته الحزن . ولدينا الآن معلومات وافية عن أشعاره : قصائده ووصفياته ومرتبجلاته وموشحاته بفضل البحث الذي كتبه عنه غرسية غومس ، وقد أشرنا إليه . ولدينا كذلك فكرة دقيقة عن علمه باللغة وتملكه زمامها . ويتردد في بعض شعره صدى للحب العذري . وأكثر شعره دلالة على شخصه وفنه تلك الأبيات التي قالها في قفديل مضاء :

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى	ذبال بأذيال الظلام قد التفتا
يلوح سناناً حين لا تنفج الصبا	ويبدى سواراً حين تثني له العطف
قطعت به ليلاً يطارحنى الجوى	فأونة يبدو وأونة يخفى
إذا قلت لا يبدو أشال لسانه	وإن قلت لا يخبو الضياء به كفا
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى	وأهدى نسيم الروض من طيبه عرفا
لك الله يا أصباح ، أشبهت مهجتي	وقد شفها من لوعة الحب ما شفاً ^(٢٥٦)

وكان ابن زمرك معنياً — إلى جانب الدائح التي كان يقولها في السلاطين — بقرض للقطعات الوصفية ، وخاصة في صفة « الحمراء » وقصورها وبساتينها والحفلات التي كانت تقام في قصورها ، وقد جدد بذلك ذكرى أيام ابن خفاجة ودل على أنه تلميذه غير المباشر . وإليك مثالا من ذلك ما قاله في صفة حدائق « قصر شَيْبِل » وقد خرج الأمير محمد الخامس (الفنى بالله) لفرجة فيها :

يا قصرَ شَيْبِلِ وربُّكَ آهْلُ	والروض منك على الجمال قد اقتصرُ
لله بمرك والصَّبا قد سرَّدت	منه دروعاً تحت أعلام الشجر
والآسُ حف عذاره من حوله	عن كل من يهوى العذار قد اعتذر
قَبْلُ بثمر الزهر كَفَّ خليفة	يغنيك صوبُ الجود منه عن الطر
وافرش خدود الورد تحت نعاله	واجمل بها لون المضاعف عن خفر

وانظم غناء الطير فيه مدائحاً وانثر من الزهر الدرام والدرر^(٢٥٧)
ولابن زمر قصائد أخرى يصف فيها «قصور الحراء» في مجموعها . وشعره فيها
يبدو وكأنه «أنعام راقصة متدفقة» ترقص على وقعها الزهور والنجوم ، وتفيض بالأخيلة
والتشبيهات المتشابكة . وإن من يعرف هذه القصور ليجد في ذلك الشعر تصويراً
بديعاً رائعاً لها^(٢٥٨) . ويقول غومس في موضع آخر : « وقد نُقِشت بعض
أبيات ابن زمر على جدر الحراء ، وهي تكون جزءاً لا ينفصل من زخارف
قصور بني نصر » . وإليك نموذجاً منها أبياتاً كان بعضها منقوشاً على جدر
« بهو الأختين » في الحراء ، وهي من قصيدته المعروفة التي قالها في وصف دار
الملك التي ابتناها السلطان محمد الغني بالله ومطلعها :

سل الأفق بالزهر الكواكب حالياً فإني قد أودعته شرح حالياً
وحملت معتل النسيم أمانة قطعتُ بها عمر الزمان أمانياً
ويقول فيها :

ولله مبنك الجميل فإنه	يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متعنه	تُجِدُّ به نفسُ الحليم الأمانيا
وتهوى النجومُ الزهر لو تُبِتْ به	ولم تك في أفق السماء جواريا
ولو مثَلَتْ في سابقه لسابت	إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا	به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جلَّلتَه بحُلِيِّها	من الوشي تُنسى السابريَّ اليمانيا
وكم من قسيٍّ في ذراه ترفعت	على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيُّها	كظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة	فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره	فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها	على عظم الأجرام منها لآيا

به البحر دفاع العباب تخاله إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا^(٢٥٩)
... الخ

وعاش في ذلك العصر ابن الحجاج النيرى ، وقد سبق ابن الخطيب بحيل
إذ توفي سنة ١٣٦٢/٧٦٤ . وقد ولد في وادى آش وسكن في غرناطة وفيها عاش ،
وكان كاتباً ذا أسلوب فكه . ومما يقال في شأنه إنه كان عذب الحديث وطبقة
عالية في الشعر .

(ب) الاتجاه الشعبي الدارج

نظريّة ريبيرا الجديدة — الزجل والموشحة — مبتكرها مقدم
ابن معالي القبرى — تطور هذين الفنين ونضوج صناعتهما —
أوائل الزجالين — ابن نزمان وديوانه — مدرسة ابن نزمان .

ف ٤٧ — نظريّة ريبيرا الجديدة :

أصبح من الواضح — نتيجة للأبحاث التي قام بها الأستاذ خليان ريبيرا ،
أن أهل الأندلس الإسلامى كانوا يستعملون العربية الفصيحة كلفة رسمية يعلّمها
الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها ؛ أما في شؤونهم اليومية
وأحاديثهم فيما بين بعضهم وبعض فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة
أو العجمية *el romance*^(٣٠) . وليس ذلك بغريب ، لأننا إذا ذكرنا أن
عدد العرب الخالص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلاً جداً ، تبين أن لا نستطيع
اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشاركة ، ابتداءً من جيلهم الثالث
أو الرابع من بعد الفتح ؛ ولننصف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل
في ذلك الحين اللاتينية كلفة ، وأن نامها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات
أمجمية *romance* مختلفة مشتقة من اللاتينية .

وكان هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط ،

تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية . وقد ازدرى أهل الأدب الفصيح والمعنون بأسره هذا الطراز الجديد ، بينما مضى الناس جميعا يتناقلون مقطعاته سرا فيما بينهم ، وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العوام ، وما زال أمره يعظم والإقبال عليه يشتد حتى أصبح في يوم من الأيام لونا من الأدب . وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين : إحداهما « الزجل » ، والثانية « الموشحة » .

أما الزجل فشعر يصاغ في فقرات تسمى أبياتا . وتبدأ مقطوعته بيت يعرف « بالمركز » أو « السمط » ، تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد ، يتكون الفصن منها من ثلاثة مصاريع أو أكثر ، ثم يعقبها بيت في نفس وزن المركز وقافيته ، وهكذا .

وأما الموشحة فنظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين كما هو الحال في الوشاح ، وهو العقد يكون من سلكين من اللآلئ كل منهما لون . فالتسمية هنا تشير إلى طريقة تأليف القوافي ، وهي تشبه الزجل فيما عدا ذلك . أى أن الموشحة تتألف من فقرات تسمى الأبيات ، كل فقرة منها تتكون من عدد معين من أشطار البيوت في قافية واحدة ، وتعقب كل فقرة خرجة في بحر أشطار الفصن ولكن في قافية أخرى ؛ ويلتزم الوشاح قافية هذه الخرجة في كل خرجات موشحته ، أما الأغصان فقد يكون كل منها على قافية ولكن من بحر واحد .

والزجل والموشحة في واقع الأمر فن شعري واحد ، ولكن الزجل يطلق على السوق الدارج منها ؛ إذ لا بد أن يكون في اللغة الدارجة ، فقد كان يُتغنّى به في الطرقات . أما الموشحة فلا تكون إلا في العربي الفصيح ، واسمها كذلك عربي كما هو واضح ؛ وربما استطعنا أن نقول إن لفظ الموشحة يطلق على المذهب من الزجل الذي تستعمل فيه الفصحى أو ينظم في أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال (٢٦١) .

وإليك نموذجاً من أزجال ابن قزمان^(٢٦٣) (*) :

يا مليح الدنيا قول على أش أنت يا ابن ملول^(*)
أى أنا عندك وجيه يتمجج من وفيه ثم فاحلى ما تنيه
ترجع أنسك وصول⁽⁺⁾

مُرْ بَعْدَ جِيْدِهِ سَرَفْ

لَمْ يُرَا مِثْلُ نَصَفْ

وَلَسْ أَنْ إِلَّا طَرَفْ

والذى قلنا فضول^(□)

(*) زجل رقم ٩٩ طبعة جونزبرج . وقد اكتفى المؤلف بالبيتين الأولين ، ولكنى رأيت أن أورد النص الكامل له لى أعطى الفارى فكرة عن زجل كامل من أزجال ابن قزمان . وسأورد الشروح هنا فى الهامش ؛ وقد استعنت فى ذلك بصديق الدكتور عبد العزيز الإهوانى . وقد أوردت الفقرة الأولى على الهيئة التى وردت بها فى الديوان ، حتى يأخذ الفارى فكرة من طريقة كتابة الأزجال ، وأوردت الباقى كل شطر فى سطر للإيضاح .
(*) الزجل من بحر مجزوء الرمل : فاعلات فاعل ، ورسمه :

— — — — —

والفقرة الثانية من « المركز » تقرأ هكذا : عَلَّ شَلَتْ يَا بْنَ مَلُول .
(+) على اش : علام ، لماذا ؟ . ملول : ضيق الصدر . أى أنا : لاني . وجيه : ذو مقام . يتمجج : ينفر . من : الأغلب أن سحتها : منه . وإذا كانت سحتها من وفيه فيكون المعنى : ينفر منه وفيه (؟) . ثم فاحلى : اصطلاح يستعمله ابن قزمان كثيراً ومعناه : وفى أشد حالات تيهك . أنسك : رجلك ، سديك .

معنى البيت :

يا مليح الدنيا ، قُلْ

لماذا أنت متغير لا تثبت على حال

لاني عندك ذو مكانة طيبة

كيف ينفر (الإنسان) من وقته ؟

(ته ماشئت) فننما يصل تيهك أقصاه . .

سترجع وصولاً لحبيبك .

[و « أنسك » فى الأصل « السك » ، ولكن الوزن ينكسر هكذا ، ثم إن المعنى لا يفهم ؛ وقد اقترح الدكتور الإهوانى إضافة هذه النون] .

(□) مر بعد : اصطلاح أندلسى يستعمله ابن قزمان كثيراً ، ومعناه : حسنا . . =

إش لو أن يَدَا نراك
إذ نَجِي وَتَجَاكَ
كان يَحْلِين كذاك
هاذُه شَيْئًا قَبُولُ (*)

الوفا لَسْ لِحَد
غير أمين عبد الصمد
للمدح تدخل بَعْد
تُرَى ما أُلح ذا الدُّخول (**)

= أو بالعامية : خلاص . . أو : طيب ياسيدي . والهاء المفردة المضمومة معناها « هو » .
وَأَنْتَ : أَنْتَ .

معنى البيت :

حسنا . . إن إسرائفه (في الدلال) جيد

(إذ) لم يعرف الناس مثله منصفاً

(وعلى أى حال) قلست أنت إلا طرفاً (في ذلك الحب) ، وكل ما قلنا فضول ولنو .

(*) إش لو أن : وما عليك لو . . وبالعامية : فيها إيه يعنى لو . . يذا : أيضاً
كان يَحْلِين : لأنك إذ تدعى . .

معنى البيت :

وماذا عليك لو أنك سمحت لي برؤياك

فأجىء إليك وقت جفاك

لأن تركك إياي هكذا

هذا شيء قاتل . .

(*) لَسْ ، تتعلق بعْد الواو : لَسْ : ليس . لحد : لأحد . أمين عبد الصمد :
لا يفهم إذا كان المراد هنا اسم المدح كاملاً ، أو رجلاً يريد أن يصفه بأنه أمين قومه آل
عبد الصمد .

معنى البيت :

الوفاء لا يوصف به أحد

غير أمين عبد الصمد

وتدخل بعْد ذلك للمدح

وما أحسن هذا الدُّخول .

هَازَهُ يَا ابْنَ طَرْفٍ
 فَأَلْهَمَ ضَرْبَ وَكْفٍ
 أَهْنَا جَا : قَفْ ا وَوَقَفْ
 وَالْكَلَامُ فِيَّ يَطُولُ (*)
 فَكَذَلِكَ طَالُ يَذُّ فِيهِ
 إِنَّ عَالَمَ وَفْقِيهِ
 وَإِذَا قُلْتُ نَبِيهِ
 فَيَجِبُ لَكَ أَنْ تَقُولَ (**)
 وَالَّذِي مَاعُ أَقْلُ
 شَرَفَ أَجْدَادُ وَنَسْلُ
 وَالْأَصْلُ قَطَّ الْأَصْلُ
 لَا فُرُوعَ دُونَ الْأَصُولِ (†)

(*) في مستهل القسم الثاني من الزجل ، وهو قسم المدح ، يقف ابن قزمان لحظة
 لمدح نفسه ، وما أكثر ما يمدح نفسه في أزجاله .
 هَازَهُ : هذا هو ، والمراد هنا : هذه يابني طرف . فالقام : في الحال ، دون
 صموية ، دون تشكيك طويل . ضرب وكف : يعيل الفكتور الإهوان إلى اعتبار هذه العبارة
 من اصطلاحات النساخين في الأندلس ، ومعناها : آم العمل ، قرغ من الشيء . أهنا جَا : هنا
 يجيء القول ، هنا يصدق قولنا . قف ووقف : قف لتسمع بديع القول ، ووقف بالفعل لتسمع .
 معنى البيت :

تلك يابني طرف (من الشعر)

في الحال أصوغ ما أريد من القول

فإذا قلت زجلا قيل : قف لتسمع . . ويقف الإنسان

والكلام فيَّ يطول .

(*) طال : طال القول ، يطول القول . يذُّ : أيضاً . فيه : في المدوح . إِنَّ : إنه .
 المعنى :

وكذلك يطول المدح فيه أيضاً

لأنه عالم وفقه

وإذا قلت إنه نبيه

فعلبك أن تردد هذا القول أنت أيضاً .

(†) ماعُ : معه ، عنده ، ما يعمل . نسل : نسل ، والمراد به هنا : حسب . قط : =

يَا لُبَابَ كُلِّ لِبَابٍ
الْقَى رَجْلَكَ فِي الرَّكَابِ
فَانتَ فَاصْحَابُكَ شَبَابٍ
فَانتَ . فَاالدَّوْلُ هَيُولُ (*)

نَمِمْ بَيْتَةَ خَطَطٍ
الْقَضَا فِي وَالْإِثْمِ قَطُّ
وَالثَّنَا فِيهِمْ أَشْطُ
إِنَّمَا اخْتَرْتُ الْفُصُولُ (*)

== غُصْب . المعنى :

وَالَّذِي أَعْلَمَهُ مِنْ فُضَائِلِهِ أَقَلُّ مَا عِنْدَهُ
شَرَفَ أَجْدَادٍ وَمَحْتَدٍ
وَيَكْفِيهِ أَسْلُهُ الْكَرِيمُ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْأَسْلُ
إِذَا لَا فُرُوعَ دُونَ أَسْوَلٍ .

(*) الْقَى رَجْلَكَ فِي الرِّكَابِ : تَقَدَّمَ ، ادْخَلَ الْمِيدَانَ . فَانْتَ : إِذَا أَبَاكَ . فَاصْحَابُكَ :
فِي أَصْحَابِكَ ، مِنْ بَيْنِ أَقْرَانِكَ . الدَّوْلُ : الدَّوْلَةُ . هَيُولُ : هَائِلٌ ، عَظِيمٌ .
المعنى :

يَا لِبَابَ كُلِّ لِبَابٍ
تَقَدَّمَ وَادْخَلَ الْمِيدَانَ .
إِذَا أَنْكَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ شَابَ قَوًى
وَأَنْتَ فِي الدَّوْلَةِ ذُو عَمَلٍ عَظِيمٍ

(*) بَيْتَةُ : بَيْتٌ . خَطَطٌ : خَطٌّ ، جَمْعُ خَطَّةٍ ، وَهِيَ الْمَنْصِبُ الْكَبِيرُ . الْقَضَا فِي :
خَطَّةُ الْقَضَاءِ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ أَفْرَادِ هَذَا الْبَيْتِ . وَالْإِثْمُ قَطُّ : لَا يَوْجَدُ فِيهِ أَمُّ الْبَتَّةِ ، وَيَرَى الدُّكْتُورُ
الْإِمْهَوَانِي أَنَّ الْإِثْمَ هُنَا تَحْرِيفٌ لِلْإِسْمِ ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا الْإِعْتِبَارِ : إِنَّ خَطَّةَ الْقَضَاءِ وَالْإِسْمَ —
أَيَّ الشَّهْرَةِ — فِي هَذَا الْبَيْتِ وَحْدَهُ . أَشْطُ : أَطْوَلُ . الْفُصُولُ : بَعْضُ الْأَشْيَاءِ .

المعنى :

ثُمَّ لِنَهْمِ بَيْتِ تَوَلَّى أَفْرَادَهُ الْخَطَطُ وَالْوِلَايَاتُ الْكَبِيرَةُ
فَقِيمُ خَطَّةِ الْقَضَاءِ ، وَلَهُمْ وَحْدَهُمُ الشَّهْرَةُ
وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ يَطْوُلُ
وَلَسَكُنَى اكْتَفَيْتَ مِنْهُ بَعْضَهُ .

قَاسِيَ القلبَ رَحِيمَ
فَاتَقَى غَيْظَ الحَلِيمِ
وَإِذَا أُمِّلَ كَرِيمَ
وَإِذَا كُفِّلَ حَمُولَ (*)

وإلى هذا الجلال
منظرٌ لَسَ لُ مِثَالُ
أَجْ بِحَالِ دَارَةِ هِلَالُ
أَوْ بِحَالِ وَجْجِ دَشُولِ (**)

لَا نَمُوتُ حَتَّى نَرَاكَ
فَالْبَلَدُ قَاضِي كَذَاكَ
وَتَرَى غَايَةَ مُنَاكَ
وَلَا يَلْحَقُكَ خَمُولُ (†)

لَوْلَا هَمَّا فَالطَّرِيقُ
كَغْنٍ يَجِي أَكْثَرُ رَقِيقُ

(*) معنى هذا البيت واضح .

(*) وإلى هذا : وبالإضافة إلى هذا . لس : ليس . أج ، وج : وجه . دشول :

عبارة إسبانية de sol أى : شمس .
المعنى :

وبالإضافة إلى هذا الجلال

منظره ليس له مثال

له وجه كأنه دائرة الهلال

أو كأنه وجه الشمس .

(†) معنى هذا البيت واضح .

إنما هذا الدقيق

وقعت فيه العقول (*)

كف نرى خبز يبيع

أسود أسود مثل نج

في إدين تقطيج

ودقيق حمص وفول (*)

وسما مثل النحاس

ونفاق في كل راس

لس يبي ماع نمان

وبلا عرض وطول (†)

(*) فالطريق : في الطريق ، في طريق ، في حياتي . كن : كان ، أى كان هذا الشعر .

أكثر رقيق : أكثر رقة . الدقيق : المراد به دقيق القمح . وقعت : تاهت .

المعنى :

ولولا أن الموم في طريق ومن حولي

لجاء زجلي هذا أكثر رقة

ولكن حاجتي إلى الدقيق

شغلت عقل وحالت بينه وبين الإجابة .

(*) كف : كيف . خبز : خبزة : رغيف . بيع : paniza : رغيف صغير من

الخبز . نج : pez : فار . إدين : أيد . تقطيج أو نفضليج : لم أستطع معرفة معنى هذا اللفظ .

المعنى :

كيف يتاح لي أن أحصل على رغيف صغير من الخبز

ولو كان أسود مثل القار

في أيدي تقطيج

ودقيق حمص وفول ؟

(†) يريد ابن قزمان هنا أن يصف الجفاف وقلة الطر وسوء الأحوال ، وكان =

وترى عاذ ذا العمل
وقيام صخب الجبل
كل شيء كان يُحتمل.
لو سلم هذا السبيل (*)

وصحو، والليل نهار
وشتا ضيف صار
حق في مرسى غبار
إنما فيه السيل (**)

== الأندلسيون يفهمون السماء الصافية التي لا سحب فيها بالنحاس .

المعنى :

والسما صافية كأنها قبة من النحاس
وقد فاضت الرءوس والقلوب بالنفاق والخلاف
وفي مثل هذه الأحوال يستصحب النحاس
وهذا المركلة لا نهاية له .

(*) عاذ : أيضاً . صخب الجبل ، صاحب الجبل . لابد أن ابن قزمان يشيرنا إلى عدو
كان يحاصر قرطبة ويقطع السبل إليها ، ولنا نعرف إلى من يشير بالضبط . وقد يكون المراد
بصخب الجبل : أهل الجبل ، أى قطاع الطرق . السبول : السبل ، أو الطرق .

المعنى :

ثم إنك ترى أيضاً هذا العمل
بالإضافة إلى قيام صاحب الجبل
وكان كل شيء يحتمل
إلا انقطاع هذه الطرق .

(*) شتا : مطر . حق : حقا . مرسى غبار : يغلب على الظن أن هذا اسم موضع
قد يكون هو مُقام المدوح .

المعنى :

والجو صحو لا مطر فيه ، والليل كأنه نهار
والمطر قد أصبح ضعيفا
حقا إنه في مرسى غبار
فهناك تجدد السبول .

ندعو الله المحيب
والفرج من قريب
المسوا ذاب يطيب
والشتا على النزول^(*)

أر ما شيت لسن ترذ
حط قط إشيما تبيد
الله الله كذ كذ
لس نريد منه مطول^(**)

ويمكننا أن نقارن هذا الزجل برجل إسباني صريف من نفس الوزن والنوع
للشاعر الإسباني ألفاريدو فيليبا ساندينو : Alvarez de Vilasandino :

(*) من : مه . الهوى : الهواء . ذاب : الآن . على النزول : على وشك المطول .

المعنى :

لنا ندعو الله المحيب

والفرج مه قريب

أن يطيب الهواء الآن

ويأخذ المطر في المطول .

(**) أر : هات . إشيما : أى شيء ، ما . كذ : فى سرعه . مطول : مطل .

المعنى :

هات ما شئت فلست أرفض شيئاً

ضم فقط أى شيء مجده

الله الله . أسرع . أسرع !

فلست أريد مطلاً .

AA, ddda	Vivo ledó con razón amigos; toda sazón.	{ مركز أوسط
d	Vivo ledó e sin pesar,	{ أغصان
d	pues amor me fizo amar	
d	a la que podré llamar	
a	mas bella de cuantas son.	خرجة
e	Vivo ledó e vivré	{ أغصان
e	pues que de amor alcancé	
e	que serviré a la que sé	
a	que me dara galardón.	خرجة

وترجمته :

إننى بإرفاق أحيا حياة مريحة
كل أيام حياتى ، وأنا محق فى ذلك .

إننى أعيش مريحاً دون هموم
لأن الحب أتاح لى أن أعشق
تلك التى يمكننا أن نقول إنها
أجل النساء جميعاً .

إننى أعيش مريحاً وسأعيش [هكذا]
لأننى عن طريق الحب وصلت
إلى من أعرف أنها بخدعتى لها
ستجازينى خير الجزاء .

ووزن أبيات هذا الزجل إذن : ١١ ، ب ب ب ا ، (١١) ، ح ح ح ا
(١١) . الخ . ولكن هذا الوزن هو أبسط أوزان الأزجال ، فنها ما تكون
الخرجة فيه مكونة من شطر بيت أقصر فى الوزن من أشطار النقصن ، وهذه
الأشطار بدورها تكون على نفس وزن المركز القصير . وهناك أزجال تكون

الخرجة فيها مكونة من بيت ذى شطرين ، وأزجال أخرى تكون الأغصان فيها على أوزان مُضَفَّرَةٍ متبادلة ، وثالثة تكون فيها الأغصان أربعة أربعة بدلا من ثلاثة ثلاثة ، ورابعة تكون الخرجة فيها ثلاثة أشطار ، وخامسة وردت من غير مركز .. الخ . وهذه الصور كلها ذات أهمية خاصة عند مقارنة الأزجال بأوزان الشعر الأوربي .

ف ٤٩ — مقدم بن معافى القبرى ، صبكر الموصلة (٢٦٣) :

كان أول من استعمل هذا الفن الشعرى مقدم بن معافى القبرى الضرير الذى عاش بين سنتي ٨٤٠/٢٢٥ و ٩١٢/٢٩٩ ، وفى ذلك يقول ابن بسام تحت عنوان « فصل فى ذكر الأديب أبى بكر عبادة بن ماء السماء وإتيان جملة من شعره مع ما يتعلق بذكره » ، قال : « قال أبو الحسن : وكان أبو بكر فى ذلك العصر [الدولة العامرية والحمودية] شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه : مرحباً وأهلاً . . وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا متارها ومرساها ومنادها ، [وقوم ميلها وسنادها] ، فكأنما لم تُسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسنه . وهى أوزان كثير استعمال أهل الأندلس لها فى النزل والنسيب ، تُشَقُّ على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب . . وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأقفا واختراع طريقتها — فيما بلغنى — مقدم بن معافى القبرى الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى أو المعجمى فيسببه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن ابن عبد ربه صاحب « كتاب المقد » كان أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات ، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكز .

بصن كل مركب، يقف عليه في المركز خاصة ، فاستمر [على] ذلك شعراء عصره
ككريم بن سعيد وابن أبي الحسن . ثم بشأ عبادة هذا فأحدث التضعير ، وذلك
أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها ، كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف
في المركز . وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض كتابنا هذا ، إذ أكثرها
على غير أعاريض أشعار العرب » (٢٦٤) .

ويؤيد ابن خلدون كلام ابن بسام بقوله : « وأما أهل الأندلس ، فلما كثر
الشعر في قطرم وتهذبت مناحيه وفنونه ، ودام التثنيق فيه الغاية ، استحدث
المتأخرون منهم فنًا منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطًا وأسماطًا وأغصانًا وأغصانًا ،
يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتًا واحدًا ، ويلتزمون
عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليًا فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر
ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب
الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد . وتجاروا في
ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جملة : الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب
طريقه . وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير
عبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب
كتاب العقد . ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان
أول من برع في هذا الشأن ابن عبادة القرزاز ، شاعر المعتمد بن صمداح
صاحب المرية » (٢٦٥) .

ولم يبق لنا من نظم مقدم القبرى شيء ، ولكن يغلب على الظن أن موشحاته
وأزجاله كانت من أبسط طراز ، أى على ذلك الغرار الذى سبق بيانه . ولم نوفق
— إلى الآن — إلى تعرف المصدر الذى استوحاه مقدم عندما ابتكر فن التوشيح ،
فيذهب البعض إلى أن أصل الموشح أندلسى محلى ، ويذهب البعض الآخر إلى
أنه جليقي ، ويذهب نفر ثالث إلى أن أصله البعيد رومانى románica ؛ بل قال

بعضهم إن الموشحات أتت الأندلس من بغداد وأن أصلها يُلتبس في الرباعيات العربية الفارسية . وأخيراً حاول ميلياس فيليكروسا Millas Villicrosa أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية والفن الشعرى العبرى المعروف بالـ *Pizmon* والتسبيحات اللاتينية التى يرددوها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات الترتيل الدينى *responsorio latino* ، وهى فى الغالب آيات من الكتاب المقدس ^(١٦٦) .

وقد حلت الموشحات محل القصائد الفصيحة فى كثير ، وقد ذكرنا قول ابن خلدون أنهم كانوا « ينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد » ، وأنهم « تجاروا فى ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جملة : الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقه » .

وقد أشار منفذ بيدال إلى أن الطابع العربى الرومانسى للزجل دليل على امتزاج الثقافتين ، وقال : « ... والزجل عربى بلغته ، وإن كانت هذه اللغة سوقية حوشية كثيرة الأخطاء ، عربى بالتزامه قافية واحدة تراعى فى أبيات الزجل الواحد كلها ، وعربى كذلك بهذين للوضوعين اللذين يدور حولهما الكلام فى كل مقطوعة : وما الحب أو وصف مغامرة عشقية وقعت للشاعر ، والتمدح فى شخصية يرحى نداها . ولكنه — على رغم ذلك — لا يبدو عربياً فى نظمه على طريقة الفقرات (= الأبيات ، والبيت قفل وأغصان) ، وهى طريقة غريبة تغاير ما جرت عليه القصيدة العربية من الأبيات ذات البحر الواحد والقافية الواحدة ؛ وكذلك لا يبدو عربياً فى استعماله « الخرجة » فى نهاية كل فقرة ، وفى بعض الموضوعات التى يعطرقها مثل *الألباد* *la albada* — أى الفَجَرِيَّات وهى مقطعات شعرية عرفها اللاتين باسم *ألباتا* *albata* تقال فى افتراق الأحبة عند طلوع الفجر ، وهو موضوع سينقل بعد ذلك إلى الشعر الأوربى — وفى خلوّه من الموضوعات التى تميز الشعر العربى من غيره ، كوصف الرحلات فى القفار المهجورة ،

وصفة حياة البدارة والتنقل والتحدث عن المواقع التي غادرتها القبيلة إلى غيرها ، والكلام عن الجبال وما إلى ذلك . ومن المحقق — أخيراً — أن الزجل إسباني ، لأنه يتحدث عن أعياد ومواسم لا توجد إلا في التقويم اللاتيني ، ولاستعماله ألفاظاً وعبارات من مجمية الأندلس مختلطة بلغته العربية الدارجة . هذا والأزجال — إلى جانب إهمالها للموضوعات الأدبية العربية — تبدو لنا حافلة بصور الحياة اليومية لمسلمي الأندلس ، وفيها ذكر كثير من عادات المستعربين وتقاليدهم^(٢٦٧).

ف ٥٠ — أوائل الزجالين :

إذا ذكرنا الطابع الشعبي الدارج لهذا الفن الشعري ، لم نستغرب من أصحاب مجموعات النظم والنثر — وهم متعصبون للفصحى وآدابها — أن يأنفوا من أن يوردوا في كتبهم نماذج منه . ولكن خُليان ريبيرا تمكن بفضل أبحاثه من العثور على ثروة حافلة من الأزجال وأصحابها .

فن أوائل الذين نظموا الأزجال سعيد بن عبدربه (توفي سنة ٨٣٤١/٩٥٣ م) . ابن عم صاحب « العقد »^(٢٦٨) ، وكان معنياً بكتابات الإغريق وعلوم الأوائل والفلسفة ، وكان صعب العشرة يتكلم لهجة دارجة خشنة ؛ واجتهد في تجويد الأزجال أبو يوسف هارون الرمادى شاعر المصور ، وكان يسمى أبا جنيس (= El Ceniciento) وهى الأصل الدارج الإسباني الذى أخذ عنه لفظ الرمادى^(٢٦٩) ، وكان يرمى بالزندقة لكثرة اتصاله بالنصارى (توفي سنة ٨٤١٢/ ١٠٢٢ م) ، (ف ١٥) ، وكان « أول من أكثر من التضمين في المراكز ، يضمّن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة ، فاستمر على ذلك شعراء عصره » كما يقول ابن بسام ؛ وعبادة بن ماء السماء (توفي سنة ٨٤١٥/ ١٠٢٥ م أو ٨٤١٨/ ١٠٢٨ م) . الذى يقول ابن بسام إنه أحدث التضمير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمونها ، كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف في المركز^(٢٧٠).

وكان أبو عثمان بن سعيد المعروف بالبلينة (أى الحوت = ballena) يصنع

أزجالاً يقلد بها « المواليا » ، وهو طراز من الشعر الشعبي عند المشاركة . ونظم ابن هاني* (انظر ف ١٢) قصائد ذات قوافٍ مضفرة من طراز يختلف عن طراز الزجل والموشحة .

وأقبل على الموشحة شعراء كثيرون ممن أجادوا نظم الشعر الفصيح على طريقة القدماء ، منهم أبو بكر بن اللبانة الداني الذي رثى الرشيد بن المعتمد بموشحة ، وأبو بكر محمد بن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة إذ كانت له موشحات ذاعت على ألسن أهل الأندلس ، وأبو عبد الله محمد بن عبادة القزاز* الذي تغنى بمعامد بنى صمادح أصحاب المرية في موشحات كثيرة^(٢٧١) .

ومنهم كذلك الأعمى التطيلي — أبو جعفر بن هريرة المتوفى سنة ٥٣٤ هـ ١١٤٠ م — وكان أديباً فذاً غلب أبا بكر بن بقي وأبا بكر الأبيض^(٢٧٢) ونفراً آخر من الوشاحين في مساجلة في التوشيح ، وذلك عندما قال موشحته :

ضاحكٌ عن جنانٍ سافرٌ عن بلر
ضاق عنه الزمانُ وحواه صلدى

ففرق كل منهم موشحته^(٢٧٣) . وأبو القاسم الحضرمي الذي كان يأخذ بيد التطيلي حتى لقب « بعضاً الأعمى » ، وكان شاعراً وأديباً بارعاً ؛ وابن بقي ، وكان ماجناً مستهتراً وشاعراً من طبقة عالية ، وكانت في شعره عذوبة أذاعت ذكره ، وقد رمى المرابطون بالجهالة لأنه عاش في عصرهم فقيراً^(٢٧٤) .

وقد نظم أبو بكر بن زهر الطيب أزجالاً وموشحات بلغت من الكمال مبلغاً جعل الناس يروونها كنماذج لهذين الفنانين^(٢٧٥) .

بيد أننا لا نجد بين أيدينا من هذه الأزجال والموشحات إلا أطرافاً قليلة وردت متناثرة في الكتب ، فيما خلا « ديوان ابن قزمان » الذي وصلنا كاملاً على وجه التقريب ، وهو لهذا يعطينا أكل فكرة عما كان عليه فن الزجل .

(*) هكذا ورد الاسم في « أزهار الرياض » للعقري (طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٥٢) .

ف ٥١ — ابن قزمانه وديوانه (٢٧٦) :

ينسب أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان الأصغر إلى بيت بني قزمان ، وكان من بيوت قرطبة العريقة . ولد في قرطبة بعد سنة ٤٦٠/١٠٦٨ وتوفي سنة ٥٥٤/١١٦٠ ، وينبئ الأناخلط بينه وبين عمه وشبيهه في الاسم وزير المتوكل صاحب بطليوس ، وكان شاعراً أيضاً ، وقد توفي سنة ٥٠٧/١١١٤ كما بين الأستاذ ليفي بروفسال ، وقد مدح ابن رشد الحفيد في آخر حياته .

وقد قال ابن قزمان في مقدمة ديوانه إنه وُجد في الأندلس ضربان من الزجل جنباً إلى جنب : أولهما شعبي خالص جاف غليظ يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة ومحبة أهل الأندلس el romance ، وكان يوافق أذواق العوام ؛ وثانيهما مصقول مهذب erudita مصطنع متكلف يستعمل الناس فيه حركات الإعراب التي لا تجرى بها ألسنتهم في دارج الحديث . ولم يبق من النوع الأول شيء (٢٧٧) ، لأن مصنفى كتب الأدب ازدروه وضربوا عنه صفحاً ؛ وأما الثاني فلدينا منه أطراف ، ولكنها تخلو من الجاذبية وسهولة الطبع التي يمتاز بها النوع الأول .

ويقول ريبيرا — ونحن نتابعه هنا فيما نقول عن الزجل — إن ابن قزمان درس أزجال جميع من تقدموه ، ثم شق لنفسه طريقاً جمع بين الفريقين اللذين ذكرناهما ، وعرف كيف يحتفظ بأحسن خصائصهما ، فرأى أنه من فساد الذوق والتكلف أن تستعمل حركات الإعراب في شعر يراد أن يُتغنى به جماعة في جمهور من الناس ، ومن ثم فلا مفر من استعمال لغة الكلام الدارجة حتى يقرب من أفهام الناس كافة . وهو يريد « بلغة الكلام » اللهجة العامية الدارجة التي تشوبها كلمات وعبارات من محمية أهل الأندلس ، على أن يكون ذلك في أسلوب متخير رشيق . وهو يرى أن الزجال ينبئ عليه أن يختار من الموضوعات أحفلها بالمسكاهة

وأخفها ، وينبني أن يكون ما يختاره جذاباً رقيقاً فياضاً بالحوية مما يشير اهتمام الجمهور ، وينبني ألا تكون الموضوعات معقدة أو بلاغية متكلفة ، وإنما سهلة مما تجرى به ألسنة عابري السبيل وما يستعمله الناس في حلقات الموسيقى الشعبية الصاخبة ومجالات المهر والتسلية ، بل ينبني أن تكون الموضوعات « حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ولغات الدأصة » كما يقول ابن سفاء الملك^(٢٧٨) .
أما قالب الأغاني وتركيبها فتستعمل له كل محور الشعر القصيح القائم على أسس العروض ، ولا بد أن تصاغ القطعة على نحو سلس غير متكلف حتى تبيء سهلة طبيعية صادرة دون تعمل ولا جهد^(٢٧٩) .

سار ابن قزمان في هذا الاتجاه الوسط الذي انتهجه قبله أستاذه أخطل ابن نمارة ، « ولكن أزجال ابن قزمان حفلت بذكر الرذائل الملازمة لروح العوام ، وخلت من أى تحفظ أو احتشام ، ومن ثم فإننا نجد فيها فحشاً مخجلًا وألفاظاً مبتذلة مما كانت تجرى به ألسنة أهل الأحياء المتطرفة من قرطبة »^(٢٨٠) .

يضم ديوان ابن قزمان تسعة وأربعين ومائة زجل ، كل زجل منها يتكون — عدا الخرجة — من أبيات متساوية في عدد الأغصان ، وهو يلتزم هذا النظام في كل زجل . « وكل من الأغصان يتكون من أربعة أشطار إلى اثني عشر شطراً ، ففيها رباعيات وخماسيات وسداسيات وسباعيات وثمانيات وتساعيات وعشریات وآحاد عشریات » . وأبسط أزجاله — وهى الرباعية — تبدأ بالقفل أو الخرجة ، وهى شطر من بيت ذى قافية تلتزم في كل خرجات الزجل بعد ذلك ، ونحن نرمز إليها هكذا : ١١ ، ثم يلي ذلك ثلاثة أغصان على قافية واحدة نرمز لها بالحروف : ب ب ب ، ثم تحتم بيت على قافية الخرجة الأولى « ١ »^(٢٨١) ، (انظر ص ١٤٤) .

وعلى رغم هذا القالب الفنى المبتكر ، الذى يبدو من الأزجال بوضوح أنه قائم على أساس مقرر موضوع أو مصقول cortesano ، إلا أن الطابع الشعبي لها يدل على أنها إنما نظمت ليتغنى بها للنشيدون فى الأسواق ، أو للتسولون الجائلون فى الطرقات ، أو أصحاب المجون أو « النسوان والسكرى والسكران » ، كما يقول ابن سناء الملك . ولا تصاغ الأزجال ليتغنى بها الإنسان منفرداً ، وإنما ينشدها الناس جماعةً فى الطرقات بصوت جهور وسط جمهور يتجمع أفرادهم حول المنشد ، ثم ينشدون « الخرجة » جماعةً عقب كل فقرة يلقيها المنشد وحده ، تصاحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والنأى والطنبور والدف والصاجات ، وربما تخللها الرقص . ولم يكن من الممكن والحالة هذه أن تصاغ هذه الأغاني فى قوالب الشعر الفصيح فحسب ، « والواقع أن لغتها ليست لغة الشعر المعروفة التى كان المؤدِّبون يلقنونها للدارسين ، بل الدارجة التى كانت جارية على الألسن فى قرطبة ، بما فيها من دعابات سوقية وعبارات مبتذلة وألفاظ مواخير وعبارات الطلاب التى يستعملونها فى مبادلهم وألفاظ الصبيان إذ يلعبون فى الطريق ، وفيها الكثير من العبارات الاصطلاحية التى يتعارف عليها أهل كل حرفة ، ولا تخلو كذلك من ذلك اللغو الفارغ الذى تحفل به أحاديث البيوت » (٢٨٢) . ومن هنا كثر استعمال العجمية الأندلسية فى الأزجال ، فنجد فيها ألفاظاً مثل : يباير ، مايو ، بريينه verbena (نبات تُغلى أوراقه وأزهاره وتشرب) ؛ بل نجد عبارات عجمية كاملة مثل : توتوبن toto ben ، وكريو creo (= أعتمد) ، وغشل دشول mejilla de sol (= خد كأنه الشمس) ؛ بل هناك أسطر نصفها عربى ونصفها عجمى ، مثل الفقرة الثانية من الزجل رقم ١٠ من الديوان :

يَا مُطَرَّ بْنَ شِلْبَاطُ تَنْ حَزِينُ تَنْ يِنَاطُ تَرَا الْيَوْمَ وَشَطَاطُ
لَمْ تَذُقْ فِيهِ غَيْرَ لَقَيْمِهِ (*)

أما أوزان هذه الأغاني ، فعلى الرغم من أنها مشتقة من تفاعيل العروض الشعرى التقليدية ، إلا أنها لا تلتزم قواعد النحر ، إذ أن ألفاظها من الخارج الذى لا يعرف حركات الإعراب . بل إن اللفظ بقوافى الأجزاء لا يخضع لأشراط التقفية المعروفة فى الشعر الفصيح ، هذا على الرغم من أن ابن قزمان كان يستعمل الحروف الجامدة consonants دائماً بطريقة أكل مما نجده فى الأشعار الأوروبية القديمة .

ويتعزى ابن قزمان أن تكون الخرجة مما يستلقت انتباه السامعين ويجذب أسماع الجمهور حتى يصنفوا إلى الزجل ، ومن أمثلة ذلك :

أَيَا مَا مَلَا ح ، شرطه الخلالة حرام الذى يعمل صناعة (*)

(*) مطر : madre : أم . بن : vanl : تال . شلباط : salvado : أنجدنى (؟) .
تن : tu'n : حينا ، ومعنى تَنْ .. تَنْ على هذا يكون : حينا .. وحينا آخر . ينط :
قرأها ريبيرا رِبَاطُو penato أى متألم ، ويقترح الدكتور الإهوانى أن تقرأ : رِبَاطُ ، وهى
لفظة مغربية معناها الدقيق غير معروف ، ولكن يفهم من مثل مغربى أورده الأستاذ محمد بن
شعب أن معناها الشدة ، والمثل هو : جيت ين رِبَاطِي ورِبَاطِي ، وترجمه ابن شبيب هكذا :
Je suis tombé entre chenaty et ynaty : coupant lentment mal.
Cf : Mohammad Ben Cheneb : Proverbes arabes de l'Algérie et de
Maghreb (Paris, 1907), nu. 2841 Sp. 183.

المعنى :

يَا أَمَامَ تَالَى أَنْجَدْنِي
أَنَا حِينَا حَزِينُ وَحِينَا مَتَأَلَمُ
تَرَى الْيَوْمَ وَطُولَهُ
لَمْ تَذُقْ فِيهِ غَيْرَ لَقِيمَةٍ .

وهذه هى قراءة كولان وپروفتسال ، وهى أصح من قراءة ريبيرا التى تابعها فيها نيكل وأثبتها المؤلف مع الترجمة الشعرية الإسبانية الخاطئة التى قام بها ريبيرا .

Cf : Ribera, Dis. y, Op. I, p. 35.

(*) خرجة الزجل رقم ٢٣ فى الديوان ، وقد قاله فى مديح وجل يسمى أبا جعفر ويلقبه
بالوزير ويشكو إليه من مجزئه من دفع كراه داره .

أَيَا مَا : أيام ، وإيراد الكلمات فى حالة النصب على هذه الصورة كان أمراً عادياً فى لهجة =

وقوله في خرجة زجل آخر :

نمطى ثيابى ونفق مالى قالشراب البالى (*)

ومن الأزجال ما يقصد منه إلى طلب المال أو الطعام أو الإحسان ، ومنها السياسى ، وأزجال المديح ؛ بل منها ما يدور حول موضوعات حزينة .

ويسمى ابن قزمان الجزء الأول من كل زجل : « التفرزل » ، وهو مطلع الزجل الذى يحوى أول موضوعاته ، « ولا بد أن يكون فى أمر عام أو تقليدى ، وينبغى أن يصاغ فى قالب سهل خفيف فكاهى ، ويغلب أن يكون موضوعا جنسيا أو خمريا أو سخرأ من المجتمع ، لا هو بجارج ولا مشير ، وإنما مقبذل لا تحفظ فيه » . ثم إننا نجد ابن قزمان يعالج الموضوعات الغرامية بطريقة لا نكاد نجد فيها أى طابع عبري صرف : فلا ذكر للجمل ولا للتجوال فى القفار ، ولا أثر للحياة البدوية الطاغية ، ولا نجده يذكر الديار التى هجرها أهلها^(٢٨٣) ، أو يشير إلى موضوع من موضوعات تاريخ العرب . بل إننا لا نجده يذكر الإسلام إلا فى مواضع قليلة ، ويكون ذلك عادة عند ذكره للفقهاء والأتقياء ، وهو ينال منهم فى غير حياء ويركبهم بألوان السخرية ؛ فإذا ذكر شهر رمضان والصيام سخر من الصائمين وأطرى للفطرين والقبليين على الخمر والواط . وهو لا يذكر الدين إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة فى بعض أزجال المديح من ديوانه ، ويلحظ القارئ

= مسلمى الأندلس . الخلاعة : اللذة والسرور . صناعة : عمل .

ومعنى المخرجة :

ما أطلع هذه الأيام . . إن شرط اكتتال اللذة والسرور هو التباطل ، وحرام معها أن يعمل الإنسان عملا ما .

Cf : A. R. Nykl : El Cancionero de Aben Cuzman. pp. 58 - 60, 378 - 379.

(*) خرجة الزجل رقم ٢٢ فى الديوان ، وهو مرقوم خطأ تحت رقم ٢٥ . وقد قاله

فى مديح وزير لم يذكر اسمه ، يغلب على الظن أنه ابن حدين .

Cf : A. R. Nykl, op. cit. pp. 372 - 378.

قالشراب : فى الشراب . البالى : العتق .

بوضوح أن ذلك التوقير للدين صدر عن ابن قزمان وهو في معرض السخط على نصارى الشمال .

أما القسم الثاني من الزجل وهو المسمى « بالمديح » فيتغنى فيه ابن قزمان بفضائل من يهدى إليه الزجل ، ثم يحتم بطلب معروف أو رند . وفي ديوان ابن قزمان زجل نقله الأستاذ ريبيرا إلى الإسبانية كاملا ، نجد فيه موضوع الشعر المسمى في الشعر الأوروبي بالألبادا أو المقطعات الفجرية ، وقد سبق به ابن قزمان أقدم ما في أيدينا من الشعر البروفنسى من هذا النوع بخمسين سنة ، ونحن نجد فيه ذكر الرقيب ولقاء الحبيبين في ظلام الليل وخوفهما من طلوع الفجر وصراع الموى في قلبهما قبل الفراق ؛ ولا بد أن هذا الموضوع كان قد قدم به العهد واضمحل في الأندلس ، لأن ابن قزمان يسخر منه ^(٢٨٤) .

[ولم يورد المؤلف نص هذا الزجل الذي يشير إليه ، وهو الزجل رقم ١٤١ من الديوان ، وقد رأيت أن آتي بيئتين منه هنا ؛ قال ابن قزمان :

تَشْرَبُ المَلِيحَ وتسقيني لا رقيب علينا ولا حاكم كذا أملح (*)
بتنا في رضى ، قُبِلَ وعَنقُ
أى تَمُورَ ، أَوْشَ تريد تعلقُ
وَقَرَّ الغرامة لمن يعشق .

من صبر لشدتي راليني

قل ما عليه أنا عازم

فلا يفلح (*) .

(*) المliche : المliche . وهذه الأشرطة الثلاثة هي خرجة ذلك الزجل ، وقد جملتها في سطر واحد كما وردت في الديوان ؛ أما بقية الزجل فقد جعلت كل شطر في سطر .

(*) عنق : عناق . أى تمور : أين تمر : أين تذهب . أوش : أو لماذا . تريد تعلق : تعلق . وقر الغرامة : دع فرصة الغرام ، وبقتوح الإيموانى قرامتها : وقر الغرامة ، أى ثقل العبء على العاشق . راليني : رأى ليني ورقى . قل ما عليه أنا عازم : ما أقل ما أستطيع =

الصَّبَا يُشَاكِلُ مَا يَفْعَلُ
دَاعُ دَاعٍ يَجِي وَيَذَلُّ
قَدْ تَرَأَيْتَ وَلَمْ تَرَاقِطَ أَجَلُ

مَنْ صَدْرُ لَظْمٍ يَشْتَهِي
يَنْبَهَرُ عَلَيْهِ نَهْدًا قَائِمٌ
وَيَتَوَقَّحُ (*) (٢٨٥)

ف ٥٢ — مدرسة ابن قزمان :

إن مجرد ذكر معاصريه ومن أتوا بعده ممن انصرف إلى نظم الأزجال أمر

= حزم رأي عليه . فلا يفلح : ولا يفلح مع ذلك .
المعنى :

لقد بقنا في رضى ، ما بين اعتناق وتهيب
أين تريد أن تذهب ؟ . . أو ماذا يفلحك . . ؟
دع تكاليف الغرام لما شئت .
إن من يصبر لعني يتبين بعد ذلك كم أنا رقيق
وما أقل ما أستطيع أن أحزم أخرى على شيء . .
ولهذا لا يفلح لى شيء . .

(*) الصبا يشاكل ما يعمل : ما عمله يتفق مع صباه . داع داع : دعه دعه . يدلل :
يتدلل . قد ترأيت : قد ظهرت . مَنْ صَدْرُ : تكملة للشطرة السابقة : لم ترقط أجل من صدر
يعمى لضمه . ويتوقح : يتجرأ ، يضطر إلى الجرأة .
المعنى :

إن ما عمله [محبوبى] يتفق مع صباه . .
فدعه دعه يعض ويتدلل . .
ما أنت قد ظهرت ، ولم ترقط أجل منك . .
لشما أشتكى ضمة لصدور . .
إن عليه نهذا قائما ينبهر منه الإنسان . .
ويتوقح . .

يطول ، ونكتفى هنا بذكر أبي عبد الله بن الحاج المعروف بمَدَقْلَيْس^(٢٨٦) ، الذي كان يعنى بالأسلوب أكثر مما كان يعنى به ابن قزمان ، وأبي المتوكل ، والميثم ابن أحمد بن أبي غالب الإشبيلي الذي كان « يملئ على أحد الطلبة شعراً وعلى ثمان موشحة وعلى ثالث زجلاً ، كل ذلك ارتجالاً »^(٢٨٧) ، وأم الكرام بنت المعتصم ابن صمادح صاحب المرية ، وكانت تبعث إلى محبوبها الأصمى ببطائق منظومة أزجالاً^(٢٨٨) ، وإبراهيم بن سهل اليهودي ، وابن المرعزي النصراني ، والزاهد المتصوف أحمد بن وكيل ، وأبي الحسن الششتري الوادي آشي ، وعجي الدين بن عربي الرمي ، والفيلسوف الشاعر الموسيقي أبي الصلت بن أمية الداني ، وابن زُهر الطيب ، وابن باجة ، ونزهون بنت القلاعي القرناطية ، قال صاحب « المغرب » في حقها : « من أهل المائة الخامسة ، ذكرها الجعاري في السهب ووصفها بنحفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة ، وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمال فائق وحسن رائق ، وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها » ، وكانت تلميذة لأبي بكر الخزومي الشاعر الضريع ، وكان صاحب سخر لاذع وصديقاً لابن قزمان .

وقد انصرف الناس إلى صناعة الزجل في كافة نواحي الأندلس ، ففي أرجون (سرقسطة) ظهر أبو بكر أحمد بن مالك بن سيد اللخمي الشامي^(٢٨٩) ، وفي بلنسية ابن حريق^(٢٩٠) وابن محمد الشاطبي^(٢٩١) تابع ابن مردائش ، وفي مرسية أبو عبد الله محمد بن ناجية اللورقي^(٢٩٢) ، وفي قرطبة محمد بن خيرة^(٢٩٣) كاتب المرابطين . وكثر الزجالون في إشبيلية خاصة ، حيث ظهر شعراء برعوا في نظم الزجل البديع المبتكر ، من أمثال أبي الحسن علي بن جُحْدُر^(٢٩٤) ، وأبي بكر الصابوني^(٢٩٥) ، وأحمد بن جَنُون^(٢٩٦) ، وابن أبي حبيب الجزري^(٢٩٧) الذي صلبه الموحدون لزندقته ، وأبي بكر بن صارم^(٢٩٨) الذي رمى بالزندقة هو أيضاً وأودى ثم مات محترقاً في حريق شب في بيته ، وأحمد القريني المعروف

بالكساد^(٢٩٩) ، وعبد الغفار بن دشلون^(٣٠٠) ، وغيرهم كثيرون يصدق فيهم قول الشقندي : « وأما ما فيها (أى فى الأندلس) من الشعراء والوشاحين والزجالين فما لو قسموا على بر العدو ضاق بهم ، والكل يغالون من خير رؤسائهم وورفدم »^(٣٠١) .

وحق فى مملكة غرناطة أغرم الناس بهذا الفن الشعرى ، وأقبل عليه من أهل العلم والمعرفة نفر مثل النحوى أبى حيان بن حيان ، وابن عبد العظيم الوادى آشى ، وابن زمرك الذى اشتهر « بهبجياته » albaradas^(٣٠٢) ، وذى الوزارتين ابن الخطيب الشاعر النائر المعروف ؛ بل إن ابن خلدون يذكر أنه عندما زار غرناطة وجد « الزجل » الفن الشعرى السائد هناك^(٣٠٣) . وكان الموريسكيون ينظمونه أيضاً .

وفى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين توجه من أهل الأندلس نفر من الفقهاء والمتصوفين والأطباء وأهل الأدب إلى المشرق ، وكان لهم أثر عظيم هناك . وعن طريق بعض هؤلاء انتقل الزجل إلى المشرق ، وكان أول من علم أهله صناعته أبو مروان بن زهر ، الذى مارس الطب فى بغداد ، وأبو على الشلوينى النحوى ، وابن وكيل الزاهد الذى عرف بابن الأقلشى ، ومحمى الدين بن عربى ، وعبد المنعم بن عمر — وكان كحالا وفيلسوفاً وأصله من جيان ، وأصبح فيما بعد شاعر صلاح الدين الأيوبي — وابن سعيد الغرناطى ، الذى اجتمع فى المشرق بشعراء أندلسيين هاجروا من بلادهم وانصرفوا إلى صناعة الزجل فى مهاجرهم ، ومن أولئك أبو الحجاج يوسف بن عقبة^(٣٠٤) .

وسنرى فيما بعد (ف ١٦٦) أثر الزجل فى الأشعار الأوروبية .

الفصل الثالث

الأدب

- ف ٥٣ : الأدب كفن من فنون الفكر العربي في الأندلس .
- ف ٥٤ : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، وكتابه « المقادير » .
- ف ٥٥ : أبو علي الفالي — ابن الجصور .
- ف ٥٦ : أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي ، وكتابه « سراج الملوك » .
- ف ٥٧ : أبو عبد الله بن أبي الحवाल النافق — أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري — المظفر بن الأنطس — أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة بن المواعيني .
- ف ٥٨ : أبو الحجاج يوسف بن الشيخ البلوي المالقي .
- ف ٥٩ : المقلدون لقامات الحريري والمقلدون عليها .

ف ٥٣ — « الأدب » كفن من فنونه الفكر العربي في الأندلس :

يطلق لفظ « أدب » — عند العرب — على المعارف التي من شأنها أن ترفع من مستوى الثقافة الذهنية ، وتؤدي إلى تحسين سلوك الناس في اجتماعهم بعضهم إلى بعض . وهم يجعلون المكان الأول بين هذه المعارف لفقه اللغة العربية والشعر وشروحه وتاريخ العرب وأيامهم ، ثم تلي ذلك العلوم الدينية ، وهي التي تقابل العلوم الدينية (القرآن والحديث والفقه) . ويدخلون في مفهوم الأدب — في بعض الأحيان — لطائف الذهن والألعاب وفنون التسلية ، وينظمون في سلكه — في أحيان أخرى — المعارف التجريبية ، تمشياً مع ما ذهب إليه أرسططاليس في تصنيفه للعلوم .

ثم تطور مفهوم الأدب مع مضي الزمن ، فصار يطلق على الكتب التي تجمع المتفرقات والأشتات ، وتعرض من المعارف أطرافاً من كل فن ، وتكثر فيها الحكايات التاريخية والأقاصيص والنوادر والبراعات الذهنية ، مما يشبه في أدبنا الإسباني كتاب « غابة المطالعة المتنوعة Silva de varia leccion » لبيروميشيا Pero Mexia ، أو يقرب من الكتب التي كانت توضع لتعليم الأمراء ، وما إلى ذلك .

ف ٥٤ — ابن عبد ربم وكتابه « العقد الفريد » :

وأقدم مؤلف أندلسي يُذكر في هذا الباب هو شاعر البلاط أبو عمر أحمد ابن محمد بن عبد ربم (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ — ٩٤٠ م) الذي ألمنا بذكره آنفاً (فقرة ١١) ، وكان من موالى بنى أمية ومدح نقرأ من أمراء هذا البيت آخرهم عبد الرحمن الناصر . وكتابه الجامع في هذا الفن هو « العقد » الذي يعرف عادة باسم « العقد الفريد » ؛ وهو يضم خمسة وعشرين كتاباً ينقسم كل منها قسمين ، وقد جعل عنوان كل باب من أبواب كتابه اسم جوهرة مما تنظم منه المقود .

يبدأ ابن عبدربه بكتابه «القولوة» في السلطان — ويريد به السياسة — فيتحدث فيه عن السلطان وعلاقته برعيته ، وعن الحكومة وما إلى ذلك ؛ ثم يعقب ذلك الكتاب الثانى ويسميه كتاب «الفريدة» في الحرب ومدار أسرها ؛ ثم يلى ذلك كتاب «الزرجدة» عن الأجواد والأصفاد ، ويسهب في الحديث عن الكرم «والترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف ، والعطية قبل السؤال واستنجاز المواعيد» وما إلى ذلك ، ثم يفيض في الكلام عن أجواد العرب في الجاهلية والإسلام ؛ وينتقل من ذلك إلى كتاب «الجمانة» فيتكلم عن الوفود — ويريد بها السفارات — ويلم بذكر المشهور من سفارات العرب ؛ ويستدرج إلى كتاب «المرجانة» في مخاطبة الملوك ؛ ثم ينتقل إلى كتاب «الياقوتة» في العلم والأدب ، لأنهما «القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا وفرق ما بين الإنسان والحيوان وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية» ، وبعد أن يطنب في الكلام في فضائل العلم ينتقل إلى الحديث عن فنونه وشرائطه ، ويتخلل ذلك طائفة من أخبار العلماء وطبقاتهم وما يروى عنهم من حكايات تدل على ذكاء وبراعة ، ويتكلم عن طائفة من حميد الصفات كالحلم ودفع السيئة بالحسنة والسؤدد ، ويعقب ذلك بالكلام عن الفأل والطيرة وعما ينبئ للصدقة والود من واجبات ؛ وفي كتاب «الجمهرة» يتحدث عن الأمثال والحكم ؛ ويختص المواعظ والزهد بكتاب «الزمردة» ؛ ويفرد جانباً كبيراً من كتاب «اليتيمة» للكلام عن الشموية — وهم أهل التسوية ؛ ويتحدث في جزء كبير من كتاب «الياقوتة» الذى مر ذكره عن تأديب الصغير ، ويستطرد من ذلك إلى الكلام — في نفس الباب — عن طائفة من الخصال الحميدة ، وعن أساليب الكناية والتعريض والتلطف في قول ما لا يمكن المواجهة به ، ويحكى طائفة من النوادر ، ويتكلم عن اللغة وعيوبها وفضائلها وغرائب النحو ونوادر الكلام ، وعن فضائل المال وأوجه إنفاقه ، وعن الشيب والشيخوخة ؛ ويبدأ

كتاب «الجوهرة» بالحديث عن أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يسرد طائفة من أحاديثه والمأثور من حكم بعض العلماء ، وعما يضرب به المثل من أحوال الرجال والنساء والحيوان مع مجموعة من الأمثال مرتبة حسب موضوعاتها ، ثم يتكلم عن القرآن والعبادات والصلوات ؛ ويفرد للخطب بابا خاصا يورد فيه طائفة كبيرة منها في شتى المناسبات ؛ ويتحدث في كتاب «الدرة» عن النوادر والقبور والخطب التي تلقى عليها ورسائل التعمية والمرأى ؛ ويختص كتاب «اليتيمة» بالكلام عن النسب وفضائل العرب ؛ وفي كتاب «المسجدة» يتحدث عن كلام الأعراب وعما قالوه من جيد الكلام ويروى بعض ملحمهم ونوادرهم في المناسبات المختلفة ؛ ويختص الأجوبة بكتاب «المُجَنَّبَة» فيعرض منها فيه مختارات لطيفة ؛ وفي كتاب «الواسطة» يروى طائفة من الخطب ؛ أما كتاب «المجنبة الثانية» فيفرده للتوقيعات والنصول والصدور وأخبار النكتية ، ويدور كله عن الكتّاب وما ينبغي لهم وما يجوز في الكتابة وما لا يجوز ، مع بعض ما قيل في القلم من الأمثال وأوصاف المحبرة والحبر والكتب والرسائل وما إلى ذلك ؛ ويختص كتاب «المسجدة الثانية» بالخلفاء وتواريخهم وأخبارهم ، ويوجز أخبار الخلفاء الراشدين والأمويين في الشرق والأندلس إلى أيام عبد الرحمن الناصر ؛ وفي «اليتيمة الثانية» يتحدث عن أخبار زياد والحجاج والطلبيين والبرامكة ، ويورد في خلال ذلك أطرافا من تاريخ العرب وأيامهم في الجاهلية ؛ ويتحدث في كتاب «الجوهرة الثانية» عن المملقات و«فضائل الشمر ومقاطعته ونخارجه» وأعار يرضه وعلل القوافي وما يتصل بذلك ؛ ويعقد كتابا خاصا تحت عنوان «الياقوتة الثانية» للغناء واختلاف الناس فيه ويتحدث عن الأصوات والمنغين ؛ ويلى ذلك كتاب «الرجانة الثانية» عن النساء وصفاتهن المختلفة والطلاق ومكر النساء وغدرهن وما إلى ذلك ؛ ويلى ذلك كتاب «الجمانة الثانية» في المتنبيين والمرورين والبغلاء والطفيليين ؛ وفي كتاب «الزبرجدة الثانية» يتحدث عن طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان ، وفيه يتحدث عن

الدور والملابس ، وعن علاقة الإنسان بالحيوانات وعن الجغرافية والطب والتأتم ؛ ويعتقد بعد ذلك كتابا خاصا تحت عنوان « الفريدة الثانية » للكلام عن الطعام والشراب ، وما ينفع الصحة مما يؤكل ، وعن النبيذ وما تخمر من الشراب ؛ ثم يحتم الكتاب بكتاب « اللؤلؤة الثانية » عن الفكاهات والملح ، مع طائفة من الحكايات والنوادر والألغاز والأحاجي .

ذلك هو بعض ما يضمه هذا الكتاب من متنوعات ومفردات ، وقيمه وفائده في إطلاعنا على أحوال الحضارة الإسلامية في عصره أعظم من أن تقدر ، لأنه يعرض علينا ما كان ينبغي أن يحيط به المتحضر المتعلم في ذلك العصر من معارف . أما قيمته بالنسبة لتاريخ الأندلس فتحصر في أنه أول كتاب من نوعه كتب في الأندلس ووصل إلى أيدينا ، وفيه أقدم عرض لتاريخ بني أمية الأندلسيين . ويعتبر هذا الكتاب — فيما يتصل بتاريخ الفكر الأندلسي — « أكبر مظهر لتبعية الأندلس الفكرية للشرق ، وهو يعين لنا ذروة هذه التبعية . ولا زال هذا الكتاب متداولاً بين أيدي المشارقة يستخدمونه ويفيدون منه ، ولا يستغنى الإنسان في استخدامه عن الفهارس الأخيرة التي وضعها محمد الشافعي على طبعته التي أصدرها في كلكتا بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٧ »^(١).

ف ٥٥ — أبو علي القالي — ابن الجسور :

أبو علي القالي (٢٨٨ — ٩٠١/٣٥٦ — ٩٦٧) من وفدوا من أهل الأدب المشاركة على الأندلس ونال فيها حظوة عظيمة في عصرى عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر . ومولد أبي علي بمنّا زجرّد — على مقربة من بغداد — من ديار بكر ، وإنما قيل « القالي » لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قالي قلى ، وهى من أعمال ديار بكر^(٢) .

وقد أتقن علوم اللغة والشعر والنحو على طريقة البصريين ، ثم وفد على

الأندلس في سنة ٣٣٠/٩٤١ ، وهناك قعد لتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها .
وقد عنى باللقنة عناية تفوق ما صرفه إلى غيرها ، ثم عهد إليه عبد الرحمن الناصر
في تأديب ولده وولى عهده الحكم ، ولدينا أسماء بعض ما ألف من الكتب في
النحو ، ولا شك أن تلميذه أبا بكر الزبيدي أفاد من هذه الكتب فائدة كبيرة
وتأثر بها .

وبين أيدينا الآن جزء من كتابه المسمى « كتاب العالم » وهو في الحديث ،
ثم « كتاب الأمالى » (وقد طبع في بولاق سنة ١٣٢٤ هـ) (*) التى أملاها على
تلاميذه من الأندلسيين ، وهو كتاب متفرقات يعرض طائفة من الأحاديث التى
تشير إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفصولا متفرقة في العرب ولغتهم وشعرهم
وأماثلهم ، وأخبارا تاريخية تحصل ببعض شعرائهم في عصر الخلافة ، وقطعا من
النظم والنثر أخذها عن شيوخه .. الخ .

وقد أهدى الكتاب إلى عبد الرحمن الناصر وقال في إهدائه : « . . فإني
لما رأيت العلم أنفس بضاعة ، أيقنت أن طلبه أحسن تجارة ، فافتربت للرواية ،
ولزمت العلماء للدراية ، ثم أعملت نفسى في جمعه ، وشغلت نفسى بحفظه ، حتى
حويت خطيرته وأحرزت رفيعته ، ورويت جليله وعرفت دقيقه ، وعقلت شاردته
ورويت نادرته ، وعلمت غامضه ووعيت واضحته ، ثم صنته بالكتمان عن لا يعرف
مقداره ، ونزّهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه ، وجعلت غرضى أن أودعه
من يستحقه ، وأبديه لمن يعلم فضله ، وأجلبه إلى من يعرف محله ، وأنشره عند
من يشرفه ، وأقصد به من يعظمه .. » (*) .

وقد أشرنا فيما سلف (فقرة ١٤) إلى ما تصدى له صاعد البغدادى من
تأليف كتاب « أمال » يضاهى به أمالى القالى .

أما ابن الجصور (أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد بن الحباب ٣١٨ أو ٣١٩

(*) وأحسن طبعاته وآخرها طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٦ .

(**) أبو على القالى : الأمالى ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، ص ١ .

— ٤٠٠ هـ / ٩٣١ أو ٩٣٢ — ١٠١٠ م) فكان أول أساتذة ابن حزم في الحديث والتاريخ، وكان ابن الجصور تلميذاً لقاسم بن أصبغ الذى برع في الوثائق والأحكام، كما كان «خيراً فاضلاً أديباً شاعراً»، وقد كتب كتاباً عنوانه «الدَّيْلُ الْمُذَيَّلُ» يغلب أن مادته كانت شعراً وأدباً، وقد ضاع.

ف ٥٦ — أبو بكر الطرطوشى وكتابه «سراج الملوك» :

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشى الملقب «بأبي رندقة»؛ ولد سنة ١٠٥٩/٤٥١، وأصله من طرطوشة، وكان قد حسب القاضي أبا الوليد الباجي بسر قسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه هذا الأخير، [وقرأ الفرائض والحساب بوطنه] وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم في إشبيلية^(٣). وكان الطرطوشى زاهداً متورعاً يغلب عليه الخوف من الله، وكان يعيش عيشة صلاح وتقوى متقللاً من الدنيا، قولاً للحق، وكان يقول: «إذا عرض لك أمران — أمر دنيا وآخرى — فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى»^(٤). وقد خرج من الأندلس سنة ١٠٨٣/٤٧٦ إلى المشرق، ودخل بغداد والبصرة ودمشق ثم استقر في مصر، وقضى بقية حياته فيها وتوفي في الإسكندرية^(٥) سنة ١١٢٦/٥٢٠، أو ١١٣٠/٥٢٥ على قول آخر. وقد ترجم له «شاك» إلى الألمانية شعراً، ونقل عنه قاليرا — شعراً أيضاً — هذا البيت :

أقلب طرفي في السماء تردداً لعل أرى النجم الذى أنت تنظر
[وبقية القطعة كما يلي :

وأستعرض الركبان من كل وجهة	لعل بمن قد شم عرفت أظفر
وأستقبل الأرياح عند هبوبها	لعل نسيم الريح عنك تحبّر
وأمشى ومالى في الطريق مأرب	عسى نعمة باسم الحبيب ستذكر
وألح من ألقاه من غير حاجة	عسى لحمة من حسن وجهك تسفر ^(٦)

وتحدثنا الكتب عن مؤلفات الطرطوشى ضاع معظمها ، بعضها فى علوم القرآن وبعضها فى الأخلاق أو فى مسائل الجدل^(٧) . ولكن شهرته فى العالم الإسلامى ترجع إلى كتاب « سراج الملوك » الذى ألفه للمأمون البطائنى الوزير الفاطمى (طبع فى بولاق ١٢٨٩ هـ)^(*) ، وموضوع الكتاب واجبات الملوك والفضائل والخلال التى ينبغى أن يتحلوا بها ، ويتحدث عن خصالم فى السلم والحرب فيقول :

« جمعت محاسن ما انطوى عليه سيرم — خاصة من ملوك الطوائف وحكام الدول — فوجدت ذلك فى ست من الأمم وهم : العرب والفرس والروم والهند والسند وهند . فأما ملوك الصين وحكامهم فلم يصل إلى أرض العرب من سياستهم شيء كثير لبعده الشقة وطول المسافة ؛ وأما من عدا هؤلاء من الأمم فلم يكونوا أهل حكمة بارعة ، وقرائع نافذة ، وأذهان ناقبة ؛ وإنما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة ، فنظمت ما ألفت فى كتبهم من الحكمة البالغة ، والسير المستحسنة ، والكلمة اللطيفة ، والظريقة للألوة ، والتوقيع الجليل ، والأثر النبيل ، إلى ما رويته وجمعت من سير الأنبياء عليهم السلام ، وآثار الأولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونواذر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ، ومغاص الجواهر المكنونات : إن اختصر فلمحة دالة وإشارة خفية ، وإن أطل فالفاظ بارعة وآيات معجزة . هو الهادى من الضلالة ، والهادى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة » .

وهو يقصّ فى ثنايا الباب الحادى والستين من كتابه — « فى ذكر الحروب وتديورها وحيلها وأحكامها »^(*) — خبر وقعة وادى « لكه » ويذكر كيف

(*) طبع بعد ذلك مراراً ولكنه لم ينشر نقرة علمية إلى الآن . ونحن نرجع هنا إلى طبعة المكتبة العربية بالقاهرة (القاهرة ١٩٢٥) .
(*) س ٣٢٦ وما يليها .

قُتل فيها لندريق واحتزَّ رأسه وُبِعث به إلى موسى ، وكيف أرسله هذا الأخير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (*) . وفيه كذلك حكايات ذات أهمية عن نظام جيش المنصور وقيادته وعن القضاء في أيامه ، وفيه أخبار عن وقوف الفقهاء في وجه السلطان وحُدِّم من سلطانه ، وإشارات إلى رُذمير الأول ملك أرجون وموقعة « الكُراز » (**) وأسباب انهزام المستعين بن هود فيها ، وغير ذلك .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية الأستاذ « الأركن » أستاذ العربية في برشلونة ؛ وإليك نموذجاً من كلامه عن أساليب الأندلسيين في الحرب (٨) :

صفة ترتيب الجيش عند اللقاء :

« فأما صفة اللقاء ، وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا ، وهو أرجى تدبير نفعله في لقاء عدونا ، أن تقدم الرجال بالدرق الكاملة ، والرماح الطوال والمزاريق المستنونة النافذة ، فيصُفُّوا صفوفهم ، ويركزوا مراكزمهم ، ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض ، وصدورهم شارعة إلى عدومهم ، وهم جاثمون في الأرض . وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه ، وخلفهم الرماة المختارون الذين تمرق سهامهم من الدروع ، والتحليل خلف الرماة . فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجال عن هياتهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه ، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجال بالمزاريق ، وصدور الرماح تلقاهم ، فلتأخذوا يمينه ويسره ، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجال فتتال منهم ما شاء الله . ولقد حدثني من حضر مثل هذه الوقعة في بلدي طرطوشة قال : صاففتنا الروم على هذا الترتيب فحملوا علينا ، فبينما رجل منا كان في آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه عالج من العدو فأصاب غرته فقتل . »

(*) ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(**) تسمى في النص موقعة وشقة ، انظر السراج ، ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

ف ٥٧ — ابن أبي الخصال ، ابن عبد البر ، ابن الأَظْفَر ، ابن المواهيبي :

يعتبر أبو عبد الله بن أبي الخصال النافق (٤٦٥ — ٥٤٠/١٠٧٢ — ١١٤٥) مقلداً لأبي علي القالي والحصري القيرواني صاحب « زهر الآداب ». وهو من قرغليط ، قرية على مقربة من شَقُورَة في كورة جَيَّان . وكان يلقب برئيس كتاب الأندلس^(٩) ، واشتهر أمره لفضائله الكثيرة واشتغل كاتباً لأُمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، وكان صديقاً لابن عبدون وابن بسام . وكانت له شهرة في النحو والبلاغة والتاريخ والشعر ، وكان كما يقول المرأكشي : « آخر الكتاب وأحد من اتحنى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى »^(١٠) ، وقد ضاع كتابه المسمى « بسراج الأدب » ولم يبق لنا من آثاره التي تعرفنا به إلا بعض ما ألف شعراً ونثراً في حياة الرسول والصحابة ، وخاصة قصيدته في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن المؤلفات الجديرة بالذكر في موضوع الأدب كتاب « واجب الأدب »^(١١) لموسى بن محمد سعيد العنسي اليحصبي ، والد الأديب المؤرخ الشاعر علي بن سعيد صاحب « المغرب » وغيره (ف ٧٨) ، وكتاب « اللآلي » للبكري وقد ألفه في شرح « الأمالى » ، وكذلك ألف أبو محمد بن السيد البطليوسي كتاب « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب »^(١٢) .

وقد ألف الفقيه ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الرحمن النمرى) (ف ١٢٠) كتاباً لابن الأَظْفَر صاحب بطليوس عنوانه « بهجة المجالس وأنس المجالس » مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات ؛ وهو مجموع من الحكم والحكايات ، يتكلم فيه عن الحياء والتواضع والعادات الحسنة والسيئة ، وعن مكارم الأخلاق والسؤدد والإمارة ، وفي حمد الحلم وذم السفه . وفيه حكايات عن الولد والوالد ، والأقارب واللواحي ، والصديق والعدو ، و « جامع متخير في الإخوان » وما ينبغى عليهم بعضهم لبعض ، وعن الوعظ ، وعن الثقلاء والطفيليين ، وعن

ذم الناس ومساوئه ، وآداب الصحبة ^(١٣) .

وكان المظفر بن الأفلح (٤٣٦—٤٥٣/١٠٤٥—١٠٦٢) صاحب بطليوس نفسه أديباً ذا شهرة طائفة ، وكان واسع المعارف في شتى العلوم ، وكان يتخذ من الكتاب أصدقاء له ، وكان جماعاً للكتب يقتنى في قصره خزانة عامرة . وقد صنف « الكتاب المظفرى » ، « وفيه تاريخ على السنين وفنون وآداب كثيرة » ، كما قال ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس ، وقال عنه المقرئ : « يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسير ومثل وخبر ، وجميع ما يختص به علم الأدب » ^(١٤) .

وفي خلال القرن الثاني عشر للميلادى برع في هذا النوع من التأليف ابن الموائعني ، وهو أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة ، من أهل قرطبة (توفي سنة ١١٦٨/٥٧٠) ، وكان تلميذا لابن العربي وابن أبي الخصال ، ودخل في خدمة اللوحدين سنتين ، ووضع كتاباً من طراز الكتب التي نتحدث عنها في هذا الفصل هو « ربحان الأبواب وريحان الشباب » ، لدينا منه نسخة مخطوطة في مكتبة المجمع الملكى للتاريخ بمدريد ، جعله في سبع « مراتب » في أبواب متنوعة ؛ « فالمرتبة الأولى مرتبة تدرج النمو والارتقاء إلى مراقى السمو والاعتلاء ؛ والثانية مرتبة لمع من قانون العربية ونبذ من الألفاظ الغنوية ؛ والمرتبة الثالثة مرتبة الإبهام بالمعاريف والكلام المحتمل التعريض ؛ والرابعة مرتبة الفصاحة في البلاغة ، وجامع في لوازم إنشاء الصناعة ؛ والخامسة مرتبة نظام القريض والتزام ميزان العروض ؛ والسادسة مرتبة اقتضاب شجرة النسب ومنتهاه من ولد آدم ونوح إلى جذم العرب ؛ والسابعة مرتبة اختيار الأشعار والأخبار وما يتعلق بها من مآثور الحديث والآثار .. الخ » ^(١٥) . وأطول أقسام الكتاب آخرها ، ويروى الموائعني فيه تاريخ بنى أمية وبنى العباس ، ويذكر أخبار فتح الأندلس ، ويلم بذكر من ولى الأندلس من المسلمين وأنسابهم إلى سنة ٥٥٩ / ١١٦١ ^(١٦) .

ونجد في « شرح قصيدة ابن عبدون » لأبى محمد عبد المجيد بن بدرون

(ف ٣٧) مواد كثيرة تدخل في باب هذا الضرب الموسوعى من التأليف (الأدب) ، وكذلك نجد في كتاب « ملك النحل » لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن يحيى الحكيم اللخمي الفرائضى ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٧٩٢/١٣٩٠ ميلادية ، وهو يتناول الكلام في نشأة العلوم والفنون وتطورها ويتحدث عن الظاهرين في كل علم وفن ، وتتخلل الكتاب كله الحكم والأمثال .

ف ٥٨ — يوسف بن الشيخ البلوى المالى (٥٢٦ — ٦٠٣/١١٣٢ — ١٢٠٧) :

كان « موفور الحظ من علم اللغة والأدب ، متقدما فيهما مشاركا في الفقه والأصول ، من العلماء العاملين ، مؤيدا على الطاعات » (*) . وله رحلات إلى المشرق جمع فيها ملاحظات طريفة كوصفه لمفارة الإسكندرية ، وهو أكمل وأدق ما لدينا عن هذا الأثر الجليل (١٧) . وقد وضع لابنه « كتاب ألف باء » ليطله ويؤدبه (طبع في القاهرة ١٢٨٧ هـ) ، وهو أشبه بموسوعة جامعة لفنون الثقافة العامة ، وقد كتبه في أسلوب بليغ والتزم فيه السجع بين الحين والحين ، ورتب مواده على حروف المعجم .

تناول ابن الشيخ في كتابه موضوعات في الحساب والطبيعة والنبات والحيوان ، وتكلم عن الإنسان (صفة أعضائه وملامح وجهه وفضائله ورذائله) ، وتحدث في علم الاجتماع والشريعة والأديان والمذاهب وقه اللغة ونحارج الحروف والنحو ومعاجم اللغة وعلم الصرف والشعر والحكايات والأساطير . والكتاب عبارة عن موسوعة مختصرة تجمع أطراف ثقافة أوساط الناس في عصره وتجعلها في متناول قارئه .

(*) ابن الأثير : تكملة ، رقم ٢٠٨٩ .

ف ٥٩ — المعلقون لمقامات الحريري والمعلقون عليها :

تعتبر مقامات أبي علي محمد قاسم بن الحريري (عاش من ١٠٥٤/٤٤٦ أو ١٠٥٥ إلى ١١٢٢/٥١٥) من أوسع كتب الأدب العربي ذيوعا في العالم الإسلامي . وكان الحريري من أهل البصرة ، وهو من أسرة عمريقة ذات فضل في ناحية قريبة من قرية « مَشَان البصرة » ، وقد درس في البصرة ثم تولى البريد فيها . وبدأ يكتب « مقاماته » سنة ١١٠٢/٤٩٥ على الأغلب ، وأرسلها على لسان شخصية تخيلها لشيخ جليل ، وجعل الكتاب خمسين فصلا سمي كل واحد منها « مقامة » ، إشارة إلى اجتماعات العلماء والأدباء في قصور الملوك والحكام . وكانت هذه المجالس تسمى المقامات ، وكانت الأحاديث فيها تدور حول النحو والأدب ، وكان المجتمعون فيها يتنافسون في إظهار مآلئهم من براعة وعلم . وهذه الشخصية التي تجرى على لسانها « للمقامات » هي شخصية أبي زيد السروجي ، يذهب السيوطي إلى أنه كان شيخا جليلا ، ويقدمه لنا الحريري مرة شحاذا شريدا ، ومرة أخرى أديبا أو واعظا ، ومرة ثالثة صعلوكا ذاحيلة وبديهة حاضرة ، وهو ينتقل من قوم لقوم ، ومن جماعة لجماعة ، ويلقى في كل مكان يحل به من الكلام ما يشهد بلمه الواسع باللغة ويدل على ظرفه وتوقد ذهنه ومجونه . بيد أن « للمقامات » لا يجمع بينها إلا رابطة واحدة هي صدورها كلها عن شخصية أبي زيد السروجي (*) .

وإنه لما استلقت القلم ويدعو إلى الدهشة ، ذلك الشبه العظيم بين هذا الأثر الأدبي وذلك الطراز المعروف في أدبنا الإسباني باسم « قصص الصعاليك la novela picaresca » ، وهو موضوع جدير بالدراسة . وقد ذاعت مقامات الحريري ذيوعا عظيما في حياة مؤلفها ، حتى يقال إنه راجع سبعمائة نسخة منها وأجازها ، هذا على الرغم مما رماه به بعض خصومه من أن الكتاب ليس له

(*) حاجي خليفة : كشف الظنون (استنبول ١٣١١) ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ .

وإنما لرجل مغربي وزعمه الحريري لنفسه . ولم يقتصر ذبوع المقامات على أوساط المسلمين ، بل أقبل عليها النصارى واليهود وترجمها نفر منهم إلى لغاتهم .

وقد وصلت مقامات الحريري إلى الأندلس ، وكان لها بين أديبائه صدى بعيد ، ومضى نفر من الأندلسيين ينسجون على منوالها ؛ فنجد الفقيه ابن القصير (أبا جعفر عبد الرحمن بن أحمد الأزدي المتوفى سنة ٥٧٥ / ١١٨٠) ينشئ « مقامات » بين ما كتب من رسائل أدبية وخطب مواعظ . وكذلك ألف أبو طاهر محمد بن يوسف السرقسطي الإشتروفي (نسبة إلى إشترونة Esterceuel) مجموعة « مقامات »^(١٨) لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين ، وكذلك وضع أبو طالب عقيل بن عطية القضاعي المراكشي^(١٩) شرحا على مقامات الحريري .

وقد توفى عقيل سنة ٦٠٨ / ١٢١١ ، وهو سرا كشي المولد طرطوشي الدار ، وكان تلميذا لابن بشكوال وتولى قضاء غرناطة ، وكان شاعرا مجيدا احتفظ لسا ابن الخطيب في « الإحاطة » بأطراف من شعره ، وقد اشتهر بمعارضته لابن عبد البر . وكان أكبر شراح « مقامات » الحريري في العالم الإسلامي أندلسيا من شريش ، هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (المتوفى سنة ٦١٨ / ١٢٢٢) ، وكان رجلا واسع العلم يعد من بين شيوخه الكثيرين أبا عبد الله محمد بن زرقون القاضي وأبا منصور بن جبير ، وكان بارعا في علوم اللغة والعروض ، وقد جمع كتاب « النوادر » لأبي علي القالي (ف ٥٥) وشرح كتاب « الإيضاح » للفارسي وكتاب « الجمل » للزجاجي . وذكر ابن الأبار أنه لقي الشريشي في بلنسية ، وقرأ عليه جزءا من شرحه على المقامات وأجاز له الشريشي رواية بقيتها ؛ « وقد قيل إن له ثلاثة شروح [لمقامات الحريري] ، ولم يترك في كتاب من شروحه فائدة إلا استخرجها ولا خريدة إلا استدرجها ، فصار شرحا يفنى عن كل شرح تقدمه ولا يحتاج إلى سواه في لفظ من ألفاظها ، وقد أخذ من شرح القنجديه شيئا

كثيراً ، كما ذكره فيه (*) . وما يدلنا على أهمية شرح الشريشي أن الناشرين المحدثين يجعلونه على هوامش طبعتهم للمقامات . وقد ذكر سافستر دى ساسي أنه استعمل في شرحه لمقامات الحريري كثيراً من الشعر الذي أورده الشريشي في شروحه ، وتأكد أن الشريشي كان حريصاً على الدقة فيما أورده من نصوص ، وأنه استعمل شروحا أخرى ضاعت اليوم . هذا والشريشي لا يكتفى بما يضع على المقامات من الشروح الأدبية بل يضيف من علمه الواسع طائفة عظيمة من الموضوعات ذات الأهمية البالغة^(٢٠) .

(*) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

الفصل الرابع

النحو ومعاجم اللغة

ف ٦٠ — رأواثل النحويين الأندلسيين ، الزبيدي ، أبو علي الشاوي ، ابن مالك ،
أبو حيان .

ف ٦١ — معاجم اللغة .

ف ٦٠ — أوائل التحوين الأندلسيين ، الزبيرى ، أبو على الشافعى ،

ابن مالك ، أبو حيان :

كان الناس أول الأمر يدرسون اللغة في الأندلس عن طريق قراءة النصوص الأدبية والكتب ، دون استعمال كتب خاصة في النحو ؛ ثم عرفوا بعد ذلك كتبه . وأول ما ذاع بينهم منها كتب الكسائى (المتوفى سنة ١٨٨ / ٨٠٤) وسيبويه ، ثم ظهر من بينهم من ألف في هذا الباب كتباً مثل جودى بن عثمان النحوى العيسى المورورى (المتوفى سنة ١٩٨ / ٨١٣) . وكان أول من أدخل الأندلس كتاب الكسائى ، ثم وضع بعد ذلك كتباً في النحو مثل « منبج الحجاره »^(١) . ومن أوائل من ألف في النحو في الأندلس أبو على القالى (ف ٥٥) الذى ألف رسالة عن « المقصور والمبدود » ، ورسالة أخرى عن الأفعال عنوانها « فلت وأفعلت » ، وكذلك كتاب « البارع في اللغة » وقد سبقت الإشارة إليه ، وهو موسوعة لغوية رتب فصولها على أحرف المجاء وكان يقع في خمسة آلاف ورقة^(٢) . وهناك أيضاً « كتاب الأفعال في اللغة » لأبى بكر بن القوطية (نشره جويدي . سنة ١٨٩٤) ، وقد شرحه وعلق عليه ابن طريف مولى بنى عبيد المتوفى سنة ١٠٠٩ / ٣٩٩ .^(٣)

وكانت أذبح كتب النحو على أيام ابن حزم « تفسير الحوفى لكتاب الكسائى »^(٤) ، وكتابان لابن سيدة المرمى الضرير (أبى الحسن على بن إسماعيل المتوفى سنة ٤٥٨ / ١٠٦٥) : أولهما « كتاب العالم والمعلم » ، والثانى « شرح » له لكتاب الأخفش^(٥) ؛ (ويطلب أن الأخفش هو على بن فضل الذى توفى في بغداد حوالى سنة ٣١٤ / ٩٢٧) .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أهمية كتب النحو التى ألفها أبو محمد بن الحسن الزبيدى الإشبلى (ف ١٢) مؤدب الخليفة هشام المزيدي فى صباه ، ونضيف

الآن أن الزبيدي كان — كما يقول خليان ريبيرا — « يحاول بدراساته أن ينقى كتب الأدب مما يتطرق إليها من الألفاظ العامية ، ويرشد الأندلسيين إلى ما ينبغي من العربي الصحيح »^(٦) . وقد قام أبو الحجاج يوسف بن عيسى (توفي سنة ١٠٨٣/٤٧٥) بشرح ما في كتاب سيبويه من الشعر وتقدّمه . وكان الأعلام البطليوسي يسمى بالنحوى ، وقد وضع شرحا « لجمال » الزجاجي وكتاب « المحاسة » ، وألف عدداً من الكتب الجيدة في النحو^(٧) .

ويطلب أصحاب كتب التراجم في الكلام عن غزارة علم أبي الوليد هشام بن أحمد الكنانى الوثقى الطليطلى (٤٠٧—٤٨٨/١٠١٧—١٠٩٥) في النحو وإطلاعه على المعاجم وتحقيقه بطائفة من العلوم الأخرى ، وأصله من وقش^(٨) . ويقولون إن أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن الباذش الترناطلى (٤٩١—١٠٩٧/٥٤٠—١١٤٥) كان يمدّ نفسه واحداً من أعلام النحو الثلاثة في عصره^(٩) . ويُعتبر أبو الحسن علي بن محمد الحضرمي المعروف بابن خروف الإشبيلي^(١٠) المتوفى سنة ١٢١٢/٦٠٢ صاحب الشروح المعروفة على سيبويه . والزجاجي وعيسى بن سليمان بن عبد الملك الرعيني الرندى (ويكنى أبا محمد ، توفي سنة ١٢١٩/٦١٥ ، وكان مائلاً للدار)^(١١) ، وأبو الحسن بن عصفور الإشبيلي^(١٢) (المتوفى سنة ١٢٦٤/٦٦٢) أعلام النحو في عصرهم ، إلى جانب أبي علي حمر الأزدى الشلوينى (نسبة إلى حصن شلوينية على ساحل غرناطة ، ٥٦١—١١٦٦/٦٤٤—١٢٤٧) . والشلوينى من أهل إشبيلية ، وقد أخذ النحو والبلاغة عن أبي إسحاق ابن ملكون ، واشتغل سنوات طويلة بتدريس اللغة العربية ، ووضع شرحا « للجزولية » التي ألّفها أبو موسى بن عيسى الجزولى ، وكتاباً آخر يسمى « التوطئة » ؛ وقد أدرك بكتابه هذين شهرة واسعة ومكانة ممتازة بين اللغنيين بالشروح النحوية^(١٣) .

وأوسع علماء العرب شهرة في النحو هو ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله ، ٦٠٠—١٢٧٢/١٢٠٨—١٢٧٤) ، ولا زالت تواليقه في النحو

تتدارس إلى اليوم . وُلد ابن مالك في جَيّان ودرس في الأندلس ، ثم خرج إلى المشرق واشتغل بتدريس النحو في حلب وحماه ودمشق حتى آخر أيامه ، ومن بين مؤلفاته الكبيرة « الكافية الشافية » ، وهي كتاب منظوم في النحو يقع في ثلاثة آلاف بيت من بحر الرجز ، و « الألفية » وهي مختصر الكافية^(١٤) ، وتقع في ألف بيت ، وقد نشرها سيلفستردى ساسي مع شرح وتعليق فرنسيين في سنة ١٨٣٣ ، ونقلها إلى الفرنسية بعد ذلك پنتو Pinto في سنة ١٨٨٧ ، وجوجويه Goguyer في سنة ١٨٨٨ ، ووضع علماء المسلمين فيما بعد شروحا كثيرة على ألفية ابن مالك . وقد قدم ابن مالك بها خدمة جليلة لدارسى النحو العربي على الرغم من قدح خصومه في عمله ، فقد نسّق قواعده وبسّط معلوماته ، وإن كان يؤخذ عليه غموض وعدم وضوح في بعض المواضع مما لا ينبغي أن يقع في مؤلف تعليمي^(١٥) .

ويعتبر ابن السيّد البطليوسى^(١٦) (أبو محمد عبد الله بن محمد ، ٤٤٤ — ٥٢١ / ١٠٥٢ — ١١٢٧) وعبد العزيز بن الطراوة^(١٧) وأبو القاسم السهيلي^(١٨) (توفي سنة ١١٨٧/٥٨٣) من أصحاب الكتب الدائمة في النحو مثل « الرّوض الأُنْف » لهذا الأخير . وعند ما استولى النصارى على غرناطة غادرها نفر من كان بها من علماء النحو واستقروا في مراکش ، فأصبحت بفضلهم مركزاً من مراكز دراسته ، أما أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن النفزى الأثرى الغرناطى (٦٥٤ — ٧٤٥ / ١٢٥٧ — ١٣٤٤) فقد توجه إلى المشرق حاملاً إلى أهله ثروة حافلة من النحو والصرف ، فرد بذلك إليهم — مزيداً — ما أسلفوه للأندلس من العلم في هذه الناحية في القرون السابقة .

درس أبو حيان في غرناطة ومالقة ، وكان يلقب « بشيخ النحاة »^(١٩) « لعلمه الغزير في هذا الباب . وكان إلى جانب ذلك واسع المعرفة بفروع أخرى من العلوم الإسلامية ، كالتفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم » وغير

ذلك^(٢٠) . وقد بارح أبو حيان الأندلس في سنة ٦٧٨/١٢٨٠ ، وطاف بنواحي المغرب ومصر ووصل إلى الحبشة ثم حج إلى بيت الله الحرام ، وتوجه بعد ذلك إلى الشام ؛ وانتهى به اللطاف آخر الأمر في القاهرة .

وقد أتقن اللغات الفارسية والتركية والحشية . وأبدى في القاهرة نشاطاً عظيماً وخلف شيخه محمد بن النحاس في أستاذية النحو ، وكان شيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية في القاهرة ، وكان يقرأ القرآن في المسجد . وكان متين الخلق ، حسن العشرة ، ذكياً صاحب أفكار مبتكرة وفكاهة مستحبة . وكان إلى جانب ذلك كله يقول الشعر ، وبعض أشعاره ينم عن نشاؤم ، كقوله ناظلاً معنى حكمة لعل ابن أبي طالب :

إذا وُضِعَ الإحسان في الخُبِّ لم يُقَدِّ سوى كُفْرِه ، والحر يجزى به شكراً
كخيث سقى أفعى فجاءت بسماً وصاحب أصدافاً فأنثرت الذُّرّاً^{(٢١)(*)} .

وكان يعيش عيشة تقشف ويقول : « يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس : يشتري له بائنة بفلسين ، وبفلس زيبيا ، وبفلس كوز ماء ، ويشترى ثاني يوم ليوناً يأكل به الخبز » ؛ وكان يعيب على مشترى الكتب ويقول : « الله يرزقك عقلاً تعيش به ! أنا أيُّ كتاب أردته استعرتَه من خزائن الأوقاف ، وإذا أردت من أحد أن يعيرني حرام لم أجِدْ ذلك » . وأنشد نفسه :

[إن المحرام والنساء كلاهما لا تأمنن عليهما إنساناً

ينزعن ذا لب للتين من التقي ففرى إساءة فعله إحساناً]^(٢٢)

ولم يبق لنا من كتب أبي حيان إلا كتابان — على الرغم من أن من ترجموا له يقولون إنه وضع حسين مؤلفاً — الأول في التفسير وهو مخطوط بمكتبة لايدن ،

(*) الفري : قح ، ١٠ ، س ٨٦٠ — ٨٦١ . ولم أجِدْ في الأصل لأبي حيان غير هذين البيتين ، وإن كان يائسياً يستطرد في ترجمة آيات أخرى لم أجدها في الأصل .

والثاني في النحو عنوانه « فضل النحو » ، مخطوط في مكتبة برلين . وقد ألف أبو حيان كذلك في نحو الفارسية والتركية^(٢٣) .

ف ٦١ - معاجم اللغة :

وكان فن تصنيف المعاجم يتطور في الأندلس جنباً إلى جنب مع دراسات النحو . وكانت طلائع مؤلفات الأندلسيين في هذا الباب مختصرات لمعاجم شرقية ، ومثال ذلك كتاب « نوارد اللغة » الذي وضعه أبو علي القالي (ف ٥٥) ، فهو أشبه بشرح لما ورد في « الكامل » لأبي العباس البرد من الغريب ؛ وكذلك وضع الزبيدي (ف ١٢ و ٦٠) مختصراً « لكتاب العين » للخليل بن أحمد ، وقد ذاع هذا المختصر وأصبح معتمد الناس في الدراسة في الأندلس ، ولا توجد مخطوطاته الآن إلا في مكتبات الأندلس^(٢٤) . و « مختصر كتاب العين » محبوب بحسب مخارج الحروف ، وهو يبدأ بالحروف الحلقية وأولها « العين » ، وينتهي بالشغوية والمقفلة (أنصاف حروف اللمة)^(٢٥) .

ومن المعاجم الجليلة التي ألّفها الأندلسيون في اللغة « كتاب العالم » ، الذي وضعه محمد بن أبان بن سيد الحمصي (المتوفى سنة ٩٩٣/٣٥٤) ؛ وقد قال في شأنه ابن حزم إنه « نحو مائة سفر على الأجناس ، في غاية الإعجاب ، بدأ بالملك وختم بالذرة »^(٢٦) .

وقد نهج مؤلف مشرق هو سعيد الرباعي (المتوفى سنة ١٠٢٦/٤١٦) نهج القالي وابن أبان في تأليفه « كتاب اللآلئ » .

ويقول ابن حزم إن أحسن تأليف وضع في علوم اللغة ، وأوفرها مادة وأجمعها نصوصاً ، هو كتاب معاصره أبي غالب تمام بن غالب الملقب بابن التّياني^(٢٧) ، وكان أدبياً ذا أنفة واعتزاز بما أدرك من شهرة ، حتى لقد أنف من أن يزيد في ترجمة كتابه المذكور عبارة : « مما ألّفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » صاحب

دانية ، وكان هذا الأخير قد وجه إليه ألف دينار أندلسية ، « فرد الدنانير وأبى من ذلك ولم يفتح في ذلك باباً البتة وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأنني لم أجمعه له بل لكل طالب » (٢٨) .

وقد ألف أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحجارى (المتوفى سنة ٤٨٩/١٠٩٦) كتاباً عن المعاجم ، وتحدث فيه عنها في إسهاب . ويكاد أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده أن يكون أكبر أصحاب المعاجم الأندلسيين ، وكان رجلاً ضريراً من أهل سرسية . وقد درس على أبيه — وكان ضريراً أيضاً — وعلى صاعد البغدادي وأبي عمر الطلمنكي ، ثم دخل في خدمة مجاهد صاحب دانية . وقد وضع مؤلفات كثيرة بقى لنا منها شرح لديوان المتنبي ومعجمان : الأول هو « الخمص في اللغة » وقد رتب ألفاظه بحسب الموضوعات المتقاربة ، والثاني هو « المحكم والمحيط الأعظم » في اللغة ، وهو معجم أبجدي يبدأ بالعين ، وقد سار في وضعه على نهج يقارب نهج الخليل في كتاب العين (٢٩) .

الفصل الخامس

التاريخ

(١) كتب التاريخ العام

١ — عصر الخلافة

- ف ٦٢ — عبد الملك بن حبيب .
- ف ٦٣ — آل الرازي .
- ف ٦٤ — الأخبار المجموعة .
- ف ٦٥ ، (١) — « تاريخ افتتاح الأندلس » ، لأبي بكر بن القوطية .
- ف ٦٥ ، (ب) — عريب بن سعد .

٢ — عصر الطوائف

- ف ٦٦ — أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان .
- ف ٦٧ — محمد بن مزين ، ابن مسلمة ، ابن أبي القياض .
- ف ٦٨ — ابن حزم القرطبي .
- ف ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ — آثار ابن حزم في الفلسفة والفقه وعلوم الدين والتاريخ .
- ف ٧٣ — كتاب الفصل .
- ف ٧٤ — آثار ابن حزم الأدبية : « طوق الحمامة » .
- ف ٧٥ — مدرسة ابن حزم .
- ف ٧٦ — أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الطليطلي .
- ف ٧٧ — تواريخ الدول .

٣ — عصر المرابطين والموحدين

- ف ٧٨ — ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك بن محمد بن علي بن إبراهيم أبو مروان الباجي .
- ف ٧٩ — بنو سعيد .
- ف ٨٠ — عبد الواحد المراكشي .

٤ — مملكة غرناطة

- ف ٨١ — ابن الخطيب .
- ف ٨٢ — عبد الرحمن بن خلدون .

(ب) التراجم وفهارس الكتب

- ف ٨٣ — ابن عبد البر والحشى .
 ف ٨٤ — ابن الفرضى ، الجبارى .
 ف ٨٥ — ابن بشكوال ومصادره .
 ف ٨٦ — ابن الأبار .
 ف ٨٧ — ابن خير .
 ف ٨٨ — معاجم التراجم الخاصة : الفاضى عباس ، ابن دحية .

(ج) تاريخ الأدب

- ف ٨٩ — طلائع المؤلفات فى تاريخ الأدب .
 ف ٩٠ — ابن بسام .
 ف ٩١ — ابن خالان .
 ف ٩٢ — الثعندى .
 ف ٩٣ — ابن الخطيب ، والقرى .

(د) تواريخ النواحي

- ف ٩٤ — أم نماذج للمؤلفات فى هذا الباب .

(١) كتب التاريخ العام

١ - عصر الخلافة

عبد الملك بن حبيب — آل الرازي — الأخبار
المجموعة — « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر
ابن القوطية — عريب بن سعد — ابن شهيد

لدينا في ميدان التأليف الأندلسية في مادة التاريخ كتب متأثرة بعناصر
مشرقية ، ويفيض هذا الصنف بأساطير لانهاية لها تدور حول فتح المسلمين
للأندلس (ومثلها مؤلفات ابن حبيب والرازي) ، ومؤلفات أخرى تنقل إلينا
الروايات الأندلسية المحلية على صورة أدق وأحكم ، بعضها يأخذ جانب بنى أمية
(كما نرى في الأخبار المجموعة) ، وبعضها الآخر نلمح فيه الميل إلى أسرة غيطشة
(كابن القوطية) ، وإلى جانب ذلك نجد في هذا العصر كتباً في التاريخ العام
أخذ بعضها عن الطبري (كما نرى عند عريب بن سعد) ، وبعضها الآخر جديد
مبتكر فيما يبدو (كما نجد عند ابن شهيد) .

* * *

ف ٦٢ — عبد الملك بن حبيب :

أقدم مؤرخي الأندلس الإسلامي هو عبد الملك بن حبيب (٧٩٦/١٧٩ —
٢٣٨ / ٨٥٣ أو ٨٥٤ م) ، الذي يقال إنه ينسب إلى قبيلة سليم بن منصور ،
وقد وُلد في حصن واط (ربما كانت هذه البلدة هي Huetor Vega) ، وعاش
في البيرة وقرطبة صدر شبابه وفيهما درس ، ثم رحل إلى المشرق وتردد على
حلقات الدرس هناك ، وخاصة في المدينة حيث درس الفقه على مذهب مالك بن
أنس وأصبح من كبار أنصاره ، وسيصبح فيما بعد من أكبر العاملين على تحويل
أهل الأندلس إلى المالكية بعد أن كانوا أوزاعية (ف ١٢٤) .

كان عبد الملك بحراً من العلم بالشعر والأنساب والتاريخ والفقه والمعاجم والطب ، وقد أدرك في الأندلس شهرة واسعة وأقبحه الناس « بعالم الأندلس »^(١) وجعلوه صفواً لسحنون بن سعيد إمام المالكيين في المغرب وعالمه . ثم جلس للتدريس في مسجد قرطبة ، وكان يقسم طلبته مجموعات لا يُسمعهم إلا كتيبه وموطأ مالك . وكان يجلس للإقراء في ملابس غالية بعضها من « الصيدي » وهو حرير ينسج في اليمن ، وكان يرى ذلك توقيراً وإجلالاً للعلم الذي يقرئه ، وأوقف أملاكه كلها على مسجد قرطبة قبل وفاته .

ولعبد الملك بن حبيب كتب كثيرة يرد ذكرها في تراجمه ، بعضها في الأنساب والملك والطب والأخلاق والشريعة ، وألف « الواضحة » التي تعتبر أحسن شرح على موطأ مالك ، وقد ضاع معظم كتيبه ولم يبق منها إلا الكتاب المسمى « بالتاريخ » ، ولا زال مخطوطاً في المكتبة البودلية في أكسفورد ، وعنوانه كما يرد في هذه المخطوطة هو : « كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها من ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجبال والجنة والنار ، وخلق آدم وحواء وما كان من شأنهما مع إبليس ، وعدة الأنبياء نبياً نبياً إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وعدة الكتب المنزلة وعدة الخلفاء إلى حين استفتاح الأندلس ، وما وجد فيها من الذهب والفضة والجواهر والياقوت والزمرد والأمتعة وما أخرج منها ، وعدة ملوكها ومن وليها ومن يليها وذكر شيء من الحدثان وما يعلم منها في بعض البلدان ، وكم عمر الدنيا وما مضى منها وما بقي إلى أن تقوم الساعة . تأليف الفقيه عبد الملك بن حبيب رضي الله عنه وفيه ذكر القضاة — قضاة قرطبة — لابن حارث »^(*) .

ونجد في الورقة الأولى من هذا المخطوط بياناً بمحتوياته ، ومنها يتبين أنه يبدأ بالكلام على « أولية خلق الدنيا » ، ويتحدث فيه عن أول ما بدأ الله به

(*) MS Marsh, 288, Bodleian Library, Oxford.

خلقه من السموات والبحار والجبال والجنة والنار وآدم وحواء ، ثم يحكى قصة ما جرى بينهما وبين إبليس ، ثم يقص سير الأنبياء حتى يصل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتكلم عن الكتب المنزلة ؛ ثم يذكر سير الخلفاء حتى فتح الأندلس ، ثم يحدثنا عما يوجد بالأندلس من الذهب والفضة واللائي والياقوت والزمرد وما إلى ذلك من الخيرات وعيون الثروة ، ثم يتحدث عما يستخرج منها ، ثم يقص سير من حكمها من الملوك ومن غزاها من الفاتحين ، ثم يحدثنا بما يتواتر على ألسنة الناس من الأخبار والأساطير عن كل ناحية من نواحيها . ويتحدث عما قدّر الله في علمه لهذه الدنيا من العمر ، وما مرّ منه وما بقى حتى قيام الساعة . وفي آخر الكتاب فصول عن الفقه والأخلاق والآداب وطائفة من الأشعار ؛ ويختم الكتاب بالكلام عن قضاة الأندلس^(٢) .

ويبدو أن ابن حبيب نفسه لم يكتب الكتاب ، أو لم يكتب إلا جزءاً منه على أى حال ، لأن سلسلة أمراء الأندلس المسلمين فيه تصل إلى الأمير عبد الله أى إلى سنة ٢٧٤ / ٨٨٨ . وقد توفى ابن حبيب قبل ذلك بخمس وثلاثين سنة ، والظاهر أن الذى كتب الكتاب في صورته الحالية هو ابن أبي الرقاع — وكان تلميذاً لعبد الملك يقيد سماعه — ثم أكمله وأضاف إليه أشياء من عنده .

وعلى الرغم من قدم هذا الكتاب ، فإن قيمته التاريخية ضئيلة ، وروايته لأخبار افتتاح الأندلس تطغى عليها الأساطير ، حتى لتبدو وكأنها قصة من قصص ألف ليلة : فيذكر لنا ما رآه طارق في نومه من الرؤى ، وحملته على بلاد تميميد ، ويطيل في وصف حصار المسلمين لمواقع يعمرها الجن ويقومون بالدفاع عنها . ويذكر الشياطين الذين حبسهم سليمان في مقام النحاس ، ويطيل الحديث عن الكنوز التى كانت في قصر طليطلة ، ويطنب في ذكر مائدة سليمان ، وأساطير أخرى كثيرة يدرجها في حديثه على أنها تاريخ . وقد درس دوزى هذه الروايات ، وتبين أن ابن حبيب أخذها عن شيوخه من المصريين ؛ وابن حبيب نفسه يؤكد ذلك في أكثر من موضع من كتابه .

وقد كان الأندلسيون الذين يفدون على المشرق للدراسة في ذلك الحين يأخذون بأقوال أسابذتهم المشاركة ويبخسون قدر ما يسمعون من أهل بلدهم أنفسهم ، لأن أولئك الشيوخ المشاركة كانوا ينظرون إلى أهل بلد الأندلس باحتقار عظيم ويرون أنهم جهلاء أجلاف . بيد أن أولئك المشاركة — الذين أحاطوا بأحاديث الرسول وما روى عنه — كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً عن افتتاح الأندلس ، وكانوا يحرصون مع ذلك على أن يظهروا أمام طلبتهم بأنهم يعرفون كل شيء ، ولهذا فقد كانوا يقصون على أولئك الطلبة — إذا سألوهم عن أمر الأندلس — أفاصيص مصرية . وكان أولئك الشيوخ يحسبون أن الأندلس تجمع الأعاجيب ، ويتحدثون عنه على أنه بلد وُجد في بحر الظلمات ، تسكنه الجن وتقوم فيه القلاع المسحورة والأصنام التي تتحرك من تلقاء نفسها ، وتعيش فيه الشياطين في قمام حبسها فيها سليمان عليه السلام ^(٢) .

ونحن نجد هذه الأساطير فيما يقصه ابن عبد الحكم المصري (المتوفى سنة ١٢٥٧/٨٧١) من الروايات عن « فتح مصر والأندلس » ^(٤) .

ف ٦٣ — آل الرازي ^(٥) :

أنجب بيت الرازي ثلاثة مؤرخين : أولهم محمد بن موسى الرازي ، وهو رجل مشرق وفد إلى الأندلس سنة ٢٤٩/٨٦٤ وسكن قرطبة ، واتجر أول أمره في الحلى والعقاقير وأشياء أخرى ، ثم انصل بالأمير محمد ونال عنده حظوة ، فأدخله في خدمته وندبه للوساطة والصلح بين العرب والمولدين بناحية غرناطة في خصومة نشبت بينهم ، وتوفى عقب عودته من هذه المهمة سنة ٢٧٣/٨٨٦ ^(٦) . وقد اشتغل بالتأليف في تاريخ الأندلس ، بيد أنه لم يبق لدينا مما ألفه إلا قطع متناثرة من « كتاب الرايات » نجدها في ثنایا الكتب . وكان كتاب الرايات يدور حول دخول موسى الأندلس ، ومن كان معه من بطون قریش وغيرها من قبائل العرب ، وكانت لكل منها راية تلتف حولها .

وأهم من محمد بن موسى الرازي ابنه أحمد بن محمد (المتوفى سنة ٣٢٤/٩٣٦)، وكان مولده في ذى الحجة ٢٧٤ / ٨٨٨ . وكان أديباً وخطيباً مفوهاً وشاعراً ، وكان يلقب « بالتاريخي » لكثرة اشتغاله بكتابة التاريخ ، فقد كتب كتاباً في « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم » ، وثانياً « في أنساب مشاهير أهل الأندلس » ، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها^(٧) — وقد اعتمد ابن الأبار على هذا الكتاب اعتماداً كبيراً ، وثالثاً عن كبار الموالى الأندلسيين ، ورابعاً « في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها » على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ؛ وقد ضاعت هذه الكتب كلها . ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة في صفة الأندلس مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان Crónica del Moro Rasis ، وقد نشر جزءاً منها جايانجوس سنة ١٨٤٠^(٨) ، وأكمل نشرها رامون منندز بيدال في « فهرس المدونات في المكتبة الملكية في مدريد Catálogo de Crónicas de la Real Biblioteca »^(٩) .

وهذه القطعة الإسبانية من تاريخ الرازي المعروفة « بالكرونيكا » (= التاريخ) تتألف من ثلاثة أقسام : الأول « صفة الأندلس » ، ونصه الإسباني الذي بين أيدينا ترجمة رجل نجمل اسمه عن ترجمة برتغالية قام بها عن العربية قس يسمى « خيل بيريز Jil Perez » بأمر الملك ديونيس (١٢٧٩ — ١٣٢٥ م) . فأتى بمساعدة نفر من المغاربة يسمى أحدم « المعلم محمد Maese Mohamad » ؛ ولما كان خيل بيريز لا يعرف العربية والمعلم محمد المغربي لا يعرف البرتغالية معرفة تامة ، ولما كان المترجم الإسباني الذي قام بالنقل من البرتغالية إلى الإسبانية قد تصرف في الترجمة وغير وبدل في بعض المواضع ، فإن النص الذي بين أيدينا الآن يبدو في كثير من مواضعه غامضاً وغير مفهوم ، بسبب تحريف المترجمين وتصرفهم أو بسبب عيوب في النسخ التي عثرنا عليها . ويرى دوزي وجايانجوس

أن القسم الثاني من هذا الكتاب وعنوانه « تاريخ إسبانيا منذ وصول إشبان بن يافث إليها إلى دون رودريجو (الملك لدرىق) » إنما هو من وضع خيل بيريد نفسه ، وصنفه من مواد استقاها من الروايات المتداولة في أيامه ومن كتب عربية نُقل إليه ما فيها . أما القسم الثالث — ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى إلى عصر الحكم المستنصر — فهو أشبه بأن يكون ترجمة لمختصر لكتاب لرازى . وقد رجع المؤلف في تصنيفها إلى « المدونة » المستعربة Crónica Mozárabe أو الصلة الإسبانية Continuatío Hispana^(١٠) .

والكتاب على صورته الراهنة التى بين أيدينا قليل القيمة ، فهو مجرد واحد من الملخصات التاريخية التى كانت ذائعة في القرن الثالث عشر الميلادى . وليس معنى هذا أن ضياع كتب الرازى هذه لا يعتبر خسارة كبرى ، إذ الواقع أننا فقدنا كثيراً جداً بسبب اختفائها ، لأنها كانت تضم كثيراً من الأخبار نجعلها الآن ، وكان الوقوف عليها يفيدنا فائدة كبرى ، هذا على الرغم من أن كتب الرازى كلها تأخذ وجهة نظر أمراء الأندلس وخلفائه ، كما هو الحال في معظم كتب أصحاب التواريخ في تلك العصور . وقد كانت كتب الرازى ذات أثر عظيم في كتاب التاريخ الإشباني المعروف باسم « التاريخ العربى La Crónica Sarracina » الذى كتبه يذرو ديل كورال Pedro del Corral^(١١) .

وضاع كذلك كتابا « تاريخ الأندلس » و « حجاب خلفاء الأندلس » الذى كتبه ثالث المؤرخين من هذا البيت : عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، والغالب أنه كان يصل بتاريخ الأندلس إلى عصر هشام المؤيد^(١١) .

ف ٦٤ — الأخبار المجموعة :

أو « مجموعة روايات » ، (نشرها وترجمها ا . لافوينتى ألكانتارا E. Lafuente Acántara في سنة ١٨٦٧) ، ويرى الأستاذ ريبيرا أنها « مجموعة مذكرات وقفات تاريخية سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً ، دون أن يقصد

إلى ربط الحوادث ربطاً منهجياً أو يرتبها على حسب السنين ؛ وقد استنتج هذا مما يسود الكتاب من قلة ربط وانعدام نظام .

وتدور الفقرات التاريخية التي يتألف منها هذا الكتاب حول وقائع التاريخ الأندلسي ، من الفتح الإسلامي إلى خلافة عبد الرحمن الناصر . وأهم فقراته وأوفرها مادة تلك التي تتعلق بدخول طارق بن زياد الأندلس ، وفتوح قرطبة واردة ودخول بلج بن بشر الأندلس ، والفن والحروب التي ثارت بين العرب عقب ذلك ، ثم ولاية يوسف الفهري والمُستَئيل بن حاتم للأندلس ، وانتصارات عبد الرحمن الداخل . ولا يهتم هذا الكتاب بالأساطير الخيالية والخوارق التي ترد في غيره من الكتب ، من أمثال رؤى طارق بن زياد قبل فتحه الأندلس ، أو حكاية البيت الذي وجد فيه لنريق تابوتا لا يحوى إلا الرق الذي آذنه بزوال ملكه ، وما إلى ذلك^(١٢) .

ويرى زبيبرا أن هذه الفقرات « ليست من تسجيل شخص واحد ، بل كتبها ناس مختلفون ثقافة وفكراً وذوقاً وطبقة » : لأننا نجد الرواية حيناً مطولة مفككة حافلة بالتفاصيل (ومثال ذلك الفقرات التي كتبها أولئك الذين بدأوا تسجيل هذه « الأخبار ») ، ونجدها حيناً آخر مركزة موجزة مقتضبة . وتبدو بعض الفقرات وكأنما كتبها بعض من يميلون إلى أخبار الحروب وشؤون السياسة دون غيرها ويعتبرون ما عداها تافهاً عديم القيمة ، وبعض الفقرات الأخرى تتم على أن من كتبها واحد ممن يميلون إلى شؤون الدين والفقه والأخلاق ، لا يكاد يستلفت انتباهه غيرها . يبدو أن هناك رابطاً عاماً يجمع الفقرات كلها وينظمها في سلك واحد : هو اتجاهٌ عصبيٌّ وطبقةٌ معيَّنتان ، كأنما كتبها رجال أسرة واحدة ذات حسب ومحتد^(١٣) .

وقد تناول الأستاذ زبيبرا مادة « الأخبار المجموعة » بالتحليل ، بما عرف عنه من النفاذ في معالجة الكتب والنصوص التاريخية ؛ وقد أثبت ذلك الأستاذ

النابه أن واحداً من أوائل الذين ساهموا في كتابة « الأخبار » كان قرطيباً من أهل الحرب والسياسة ، وهو الذي كتب فقرات الكتاب من أوله إلى ما يتعلق بإمارة هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل (قبل سنة ٢٧٤/٨٨٨) ، وغلب على ظن ريبيرا أن هذا الكاتب لا بد أن يكون من أشرف العرب ، بل من قریش ، ومن البيت الأموى نفسه . أما الجزء الذى يلى ذلك فيبدو وكأن كاتبه فقيه من أهل الأدب ، وهو قرشى أيضاً وصلّ رواية الحوادث وتخلها بأراء من عنده ، ولم يصرف بالاً إلى وقائع الحرب والسياسة ولم يعن بما قام به الأمراء والخلفاء من أعمال عظيمة ، بل اهتم بميولهم الأدبية وفضائلهم وعنايتهم بالفقهاء وأهل الأدب .

وقد أدى هذا التحليل الدقيق لمادة « الأخبار » بالأستاذ ريبيرا إلى القول بأنها كتبت في عصر عبد الرحمن الناصر (٢٩٩-٣٤٩/٩١٢-٩٦١) ، وهو العصر الذى تقف عنده روايات الكتاب . أما لافوينتى ألكانترا ، فقد أخذ بما ذهب إليه دوزى من أن الكتاب قد كتب في القرن الحادى عشر الميلادى ، اعتماداً على عبارة وردت في الكتاب تدل على أنها كتبت في فترة كانت أحوال المسلمين في الأندلس تسير خلالها في طريق سىء ، وهذه العبارة هى قول صاحب الأخبار : « وليت الله كان أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله »^(١٥) . وقد ظن دوزى أن ذلك إشارة إلى ما دم المسلمين في الأندلس من الفتنة خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)^(١٥) . أما ريبيرا فيرى أن كاتبها قصد بها ما كان يجرى عليه عبد الرحمن الناصر ، من إضعاف سلطان رؤساء العرب وإحلال موالى الأندلسيين محلهم في الوظائف الكبرى وقيادات الجيوش في أنحاء الدولة^(١٦) ، وذلك ما جعل صاحب هذا الجزء من الأخبار يقول تعليقاً على سياسة الناصر : « . . . واتصل ملك عبد الرحمن خسين سنة ، في عز منيع وسلطان قاهر وافتتاح للبلدان شرقاً وغرباً ، مع غزو العدو والغلبة له وانتصاف بلاده وهدم حصونه

والاستبلاغ فيه ، لا يلتقى ذلاً ولا يرى في شيء من أموره نقصاً . وتناهى ذلك السعد حتى فتح الله له ما وراء البحر من المدن الجلييلة والمعاقل المنيعه ، كسبتة وطنجة وغيرها ، ودان له أهلها فاستعمل عليها القواد وحصنها بالرجال وأمدهم بالجيش والكثيفة في الأساطيل ، حتى وطئت بلاد البربر واستذلت ملوكها ، فصاروا بين متقبح (منقبح ؟) محصور ومذعن منيب وشارد هارب . ومالت إليه الأهواء وسمت نحوه الهمم ، فضافره على حربه وتجرد في نصره من كان مستقبصراً في قتاله من شيعة أعدائه ، فنكص على موالاته واستهلك في مرضاته ؛ واستحكم من أمره ما لو اتصل عزمه فيه وتأيد الله عليه لغلب على المشرق فضلاً عن المغرب . ولكن — عفا الله عنه — مال إلى الله واستولى عليه العُجب ، فولى للهوى لا للعناء ، واستمدم بغير الكفاة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأندال ، « كنجدة الحيري » وأصحابه الأوغاد : فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره ، وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء ، من العرب وغيرهم ، إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه — وحالٌ نجمدة حالٌ مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله . فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة — وسماها غزاة النُدرة ، لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها — فهزم فيها أقيح هزيمة واتبعهم العدو أياماً يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة ، فلم يكذب بنجوا منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا إلى بلدانهم ، فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه ، وخلا بلداته ومبانيه فبلغ في ذلك مبلغاً لم يبلغه أحد ممن تقدمه أو تأخر بعده ، وأخباره في ذلك أشهر من أن توصف . واجتمع في دولته من علية الرجال وسروات الكتاب خدمة لم يخدم للملك مثلهم ، في فضل آدابهم واتساع أفهامهم ، مع المروءة الطاهرة والسيرة الجميلة ، كموسى بن جدير الحاجب ، وعبد الحميد بن بسيل ، وعبد الملك بن جهور ، وإسماعيل بن بدر ، وابن أبي عيسى القاضي ، ومنذر بن سعيد كان واحد عصره في العلم والأدب وحسن الخطاب ،

وكان عيسى بن فطيس كاتبه أبلغ الناس إذا كتب ، إلى كثير منهم لا يتسع التأليف لذكورهم ووصف محاسنهم ، عفا الله عنا وعنهم ورحمنا وإياهم ^(١٧) .
وأكبر المآخذ على « الأخبار المجموعة » أن كتابها صرفوا عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وخدم ، دون غيرهم من طبقات الناس في البلد ، بل جل اهتمامهم موجه إلى القرشيين منهم والبيت الأموي خاصة ، مهملين بقية طبقات أهل الأندلس الإسلامي وأجناسهم الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاماً ، فلا نجد عنهم في الكتاب إلا إشارات عابرة ^(١٨) .

ف ٦٥ ، (١) — « تاريخ افتتاح الأندلس » ، لأبي بكر بن القوطية :

ويكمل هذا النقص الذي يشوب « الأخبار المجموعة » كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر بن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ / ٩٧٧ ، وهو كتاب عظيم القيمة . وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز — المعروف بابن القوطية — من حفدة سارة القوطية حفيذة غيطشة ، التي قصدت الخليفة الأموي سليمان ابن عبد الملك في دمشق لتشكو إليه ظلامه أصابتها ، فأكرمها وزوجها أحد مواليه .

ولد ابن القوطية في قرطبة ودرس في إشبيلية ، « وكان عالماً بالنحو حافظاً للغة متقدماً فيها على أهل عصره لا يشق غباره ولا يلحق شأوه » ، كما يقول ابن الفرضي ^(*) . وكان شاعراً سلس القريض محكم النظم ، « أما في علوم الدين فلم يكن بالضابط لرواية في الحديث والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ؛ وكان ما يُسمع عليه من ذلك إنما يُحمل على المعنى لا على اللفظ ، وكثيراً ما كان يُقرأ عليه ما لا رواية له فيه على جهة التصحيح » ^(**) . وكان رجلاً متديناً وشيخاً

(*) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٦ .

(**) ابن الفرضي : نفس المصدر ، وقد جئت بنسب ابن الفرضي هنا لأن المؤلف أورد

معناه محرفاً .

جليلا ، « طال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة . روى عنه جماعة من الشيوخ والكهول ، ممن ولى القضاء وقُدِّم إلى الشورى وتصرف في الخطط من أبناء الملوك وغيرهم » .

وأهم ما بقي لنا من مؤلفاته هو « تاريخ افتتاح الأندلس » ، (نشره جايانجوس وترجمه ريبييرا في سنة ١٩٢٦) ^(١٩) ، ويتناول الكلام فيه تاريخ الأندلس من لدن فتحه إلى نهاية إمارة الأمير عبد الله بن محمد ، أى إلى سنة ٩١٢/٢٩٩ . ويغلب على ظن ريبييرا — الذى ترجم الكتاب إلى الإسبانية — أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية نفسه ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون سماعاً دونه عنه بعض من كان يحضر دروسه من المولعين بالأخبار . وهو مجموعة من الأخبار القصار يبدو فيها ميل صاحبها وهواه ، يعارض بعضها بعضاً فى بعض الأحيان ، وهى ترد فى الكتاب على هيئة أخبار منفصل بعضها عن بعض . والرواية لا ترد فى الكتاب على لسان ابن القوطية بل على لسان أحد سامعيه ، فهو يقول مثلاً : « قال لى ابن القوطية » . وتتخلل الروايات أساطير شعبية ذات روح شاعرى ، تقوم على أساس من التاريخ ولا يؤلف بين بعضها وبعض رابط أو يجمعها تناسق . ويؤيد ريبييرا رأيه هذا بأن ابن الفرضى — صاحب التراجم المعروف وتلميذ ابن القوطية — لا يذكر هذا الكتاب فى « تاريخ علماء الأندلس » ، وتراعى له أن الكتاب على صورته الحالية إنما هو مجموعة أخبار رواها ابن القوطية وسجلها واحد من تلاميذه وجعلها كتاباً ، هو « التاريخ » الذى بين أيدينا الآن ^(٢٠) .

بيد أن مادة الكتاب تتفق وروح ابن القوطية ونفسيته . فقد كان الرجل فقيها مالكيًا لين العريكة لا يميل بطبعه وأصله إلى التعصب لفريق دون فريق ، وهو بسبب ولأنه لبني أمية (إذ كان جده مولى لعمر بن عبد العزيز) يتفق مع « الأخبار المجموعة » فى الكلام عن موسى ولذريق وبني أمية ، ولكن انتسابه

إلى سارة القوطية جعله يُدخل في رواياته عنصراً قومياً أندلسياً ، وهي ظاهرة على جانب كبير من الأهمية ، إذا ذكرنا أن الأمر يتعلق ببداية كانت تعيش فيه أجناس مختلفة ذات أديان متباينة ، وقد أهمل هذه الناحية غيرُ ابن القوطية من أصحاب التواريخ . ومن أمثلة رواياته ذات الطابع القومي أخبار أرطباس مع الصميل بن حاتم وميمون العابد^(٢١) ، وهي أخبار تظهر العربَ في صورة الجهلاء الأجلاف ، وتصور أرطباس القوطي في صورة الرجل ذى الواهب العظيمة والخلق الحميد اللطيف . وفي الكتاب كذلك فقرات قصيرة ذات طابع قصصى عن فترة الفروسية في تاريخ الأندلس الإسلامى ، أيام كان العرب يعيشون فيما نزلوه من نواحي الجزيرة عيش الأمراء الإقطاعيين قبل قيام الدولة الأموية وفي خلال سنها الأولى ، تلك الأيام التى عاش فيها تمام بن علقمة وبنو قسّ . وفي الكتاب كذلك أخبار قصصية عن الشاعر غريب المتعصب لقومه مستعربى طليطلة ، وعن وقائع مروان الجَلِّيقى بناحية بطليوس ، وأعمال « إزراق » بناحية وادى الحجارة ، وأخبار عمر ابن حفصون .

وليس في الكتاب شيء عن خصوم بنى أمية والمناهضين للعرب من أهل البلاد ، وهو يهمل شؤون اليهود والنصارى إهمالاً تاماً ، ولو أنه عنى بها لا اكتملت بها صورة المجتمع في الأندلس الإسلامى .

وإليك نموذجاً من مادة هذا الكتاب وأسلوبه في الرواية :

« ومن أخبار أرطباس ، أن عبد الرحمن بن معاوية أمر بقبض ضياعه التى كانت بيده ، وأوجب ذلك أنه نظر إلى قبته يوماً في بعض غزواته معه وحولها من الهدايا غير قليل ، إذ كانت الهدايا تتلقاه في كل محلة من ضياعه ، فنفس ذلك عليه فقبضت منه . وصار عند بنى أخيه حتى ساءت حاله ، فقصد قرطبة وأتى إلى الحاجب ابن بُحْت فقال له : « استأذن لى على الأمير أبقاه الله ، فإننى أتيتك لأنودع منه » ، فدخل الحاجب فاستأذن له ، فأدخله عبد الرحمن بن معاوية إلى نفسه ،

فَنَظَرَ إِلَيْهِ فِي هَيْئَةٍ رَثَّةٍ فَقَالَ لَهُ : « يَا أَرْطَبَاسُ ، مَا بَلَغَ بِكَ هَاهُنَا ؟ » فَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ بَاغَتَنِي سَاهُنَا : حَلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَ ضِيَاعِي وَخَالَفَتْ عَهْدَ أَجْدَادِكَ فِي بِلَا ذَنْبٍ يَوْجِبُ ذَلِكَ عَلَيَّ » ، فَقَالَ لَهُ : « وَمَا هَذَا التَّوَدُّيعُ الَّذِي تَرِيدُ أَنْ تَتَوَدَّعَ مِنِّي ؟ أَظُنُّكَ تَرِيدُ التَّوَجُّهَ إِلَى رُومَةٍ » ، قَالَ : « لَا ، وَلَكِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَرِيدُ التَّوَجُّهَ إِلَى الشَّامِ » ، قَالَ لَهُ : « وَمَنْ يَتْرَكُنِي أَرْجِعُ إِلَيْهَا وَبِالسَّيْفِ أَخْرَجْتَ عَنْهَا ؟ » ، قَالَ لَهُ أَرْطَبَاسُ : « فَهَذَا الْمَوْضِعُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ تَرِيدُ أَنْ تَوَطِّدَهُ لَوْلَدِكَ بَعْدَكَ أَمْ تَأْخُذُ مِنْهُ مَا تَتَخَذُكَ ؟ » (*) ، قَالَ : « لَا وَاللَّهِ مَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ أَوَطِّدَهُ لِنَفْسِي وَلَوْلَدِي » ، قَالَ لَهُ أَرْطَبَاسُ : « فَتَغَيِّرُ هَذَا أَعْمَلَ فِيهِ » . ثُمَّ عَرَفَهُ بِأَشْيَاءَ كَانَ النَّاسُ يَنْفَكِرُونَهَا عَلَيْهِ وَبَيَّنَّهَا لَهُ ، فَسَرَّ بِذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَشَكَرَهُ عَلَيْهِ ، وَأَسْرَ لَهُ بَعْشَرِينَ ضَيْعَةً مِنْ ضِيَاعِهِ صُرِفَتْ إِلَيْهِ ، وَكَسَاهُ وَوَصَلَهُ وَوَلَّاهُ الْقِمَاسَةَ فَكَانَ أَوَّلَ قَوْمٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

« وَحَكَى الشَّيْخُ ابْنُ تَابِتَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مَنْ أَدْرَكَهُ مِنَ الشُّيُوخِ ، أَنَّ أَرْطَبَاسَ كَانَ مِنْ عَقْلَاءِ الرِّجَالِ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ ، وَأَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ عَشْرَةٌ مِنَ الشَّامِيِّينَ فِيهِمْ أَبُو عَثْمَانَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خُلْدٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَيُوسُفُ بْنُ بَحْتٍ وَالضَّمِيلُ بْنُ حَاتِمٍ ، فَسَلَمُوا وَجَلَسُوا عَلَى الْكَرَاسِيِّ الْحِيطَةِ بِكَرْسِيهِ . فَلَمَّا أَخَذُوا مَقَاعِدَهُمْ وَحَيَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، دَخَلَ مَيْمُونُ الْعَابِدُ — جَدُّ بَنِي حَزْمِ الْبَوَائِيْنِ ، وَهُوَ أَحَدُ مَوَالِي الشَّامِيِّينَ — فَلَمَّا رَأَاهُ أَرْطَبَاسُ دَاخِلًا قَامَ إِلَيْهِ وَالتَزَمَهُ وَجَمَلَ يَقُودُهُ إِلَى كَرْسِيهِ الَّذِي قَامَ مِنْهُ ، وَكَانَ مَصْمُودًا بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَأَبَى الرَّجُلُ الصَّالِحُ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : « لَا يَحِلُّ لِي هَذَا » ؛ فَجَلَسَ فِي الْأَرْضِ وَجَلَسَ مَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « مَا جَاءَ بِمِثْلِكَ إِلَيَّ مِثْلِي ؟ » فَقَالَ لَهُ مَيْمُونُ : « قَدِمْنَا إِلَى هَذَا الْبَلَدِ وَظَنْنَا أَنَّ ثَوَانًا لَا يَطُولُ فِيهِ وَلَمْ نَسْتَعِدَّ لِلْمَقَامِ ، فَخَدَثَ مِنَ الْاضْطِرَابِ عَلَى مَوَالِينَا بِالْمَشْرِقِ مَا نَتَوَهَّمُ مَعَهُ أَنَا لَا نَعُودُ إِلَى مَوْضِعِنَا بِهِ . وَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، فَأُرِيدُ أَنْ تَعْطِيَنِي ضَيْعَةً مِنْ ضِيَاعِكَ ، أَعْتَمِرُهَا بِيَدِي ، وَأُؤَدِّي إِلَيْكَ الْحَقَّ مِنْهَا وَأَخَذَ الْحَقَّ » ،

(*) كَذَا فِي الْأَصْلِ الْمَطْبُوعِ .

فقال له أرطباس : « لا والله ، ما أرضى أن أعطيك ضيعةً مناصفةً » ، ودعا بوكيل له فقال له : « ادفع إليه الجسر الذي على وادى شتوش وما فيه من البقر والغنم والعبيد ، وادفع إليه القلعة بيجيان وهي المعروفة بقرية حزم ملسكها [١٠٠] » (*) ، فشكروا قام . وعاد أرطباس إلى مقعده فقال له الصميل : « يا أرطباس ، ما يعجزك عن سلطان أبيك إلا نقاد الطيبة [من نفسك] . أدخل عليك — وأنا سيد العرب بالأندلس — ويدخل أمحاجي هؤلاء معي — وهم سادات الموالى بالأندلس — فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيذان ، ويدخل هذا السؤال فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ؟ » ، فقال له أرطباس : « يا أبا جوشن ، أهل دياتك يخبروننا أن أدهم لم يخذك ، ولو أخذك لم تُفكر على برٍّ من بررت . (وكان الصميل أمياً لا يقرأ ولا يكتب) إنكم إذا أكرمت أولياء الله فإنما تكرمونه عز وجل . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه » ، فكأنما ألقمه حجراً . فقال له القوم : « دع هذا وانظر فيما قصدنا له . حاجتنا وحاجة الرجل الذي قصدك وأكرمته واحدة » ، فقال : « أنتم ملوك وليس يرضيكم إلا الكثير » ، فوهبهم مائة ضيعة صار منها لكل واحد منهم عشر ضياع ، منها طرش لأبي عثمان ، والفنتين لعبد الله بن خالد ، وعقدة الزيتون بالدور للصميل بن حاتم » (٢٢) .

ف ٦٥ ، (ب) — عريب بن سعد (توفي سنة ٣٦٩/٩٨٠) :

كان عريب قرطيبيا من أصل نصراني ، وقد أسلم أباه واستعربوا . وتلقى تعليما طيبيا ، ودخل في خدمة الدولة واتخذ الحكيم المستنصر كاتباً . وقد كتب مختصراً « لتاريخ الطبرى » اختصر فيه تاريخ الطبرى فيما يتصل بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩ إلى ٩٠٢/٣١٩ إلى ٩٣٢ ، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس . وكان عريب — إلى جانب اشتغاله بالتاريخ — طيبيا ، وفي مكتبة الإسكوريال

(*) ياض بالأصل .

كتاب مخطوط من تأليفه عنوانه « كتاب خلق الجنين وتدبير الحبال والمولود » وقد وضع كذلك تقويماً شبيهاً بتقويم « ربيع بن زيد » (ف ١٤١) الذي نشره دوزي في ليدن سنة ١٨٥٣ (٢٣) .

أما أبو عاصم بن شهيد (المتوفى سنة ٣٩٢/١٠٠٢) فكان تلميذاً لقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة ، وكان خطيباً وشاعراً وصديقاً للنصور بن أبي عاصم . وقد كتب تاريخاً كبيراً كان يقع في أكثر من مائة جزء ، جعله على طريقة الحوليات ، روى فيه الحوادث سنةً سنةً من عام أربعين للهجرة — أى من وفاة علي بن أبي طالب — إلى أيامه (٢٤) .

٢ — عصر الطوائف

ابن حيان — ابن مزين — ابن أبي الفياض —
ابن حزم القرطبي : حياته ، مؤلفاته الفلسفية والفقهية
والدينية ، مؤلفاته التاريخية : تحليل كتاب « الفصل »
مؤلفاته الأدبية : « طوق الحمامة » . مدرسة ابن حزم
— صاعد الطليطلى — نوارخ الدول .

تطورت الثقافة الإسلامية في الأندلس وانتشرت العلوم بين أهلها ، فأقبلوا على وضع التآليف القيمة الواسعة في كل فن . فكتبوا في تاريخ الأندلس (مثل ابن حيان والحيمدي وغيرهما) ، بل كتبوا في تاريخ الأديان ، سابقين في ذلك أوروبا بقرون كثيرة (مثل ابن حزم) ، وتناولوا التاريخ العام (كما نرى عند صاعد الطليطلى) ، ولم يقصروا كذلك في تصنيف الكتب في نوارخ الدول التي قامت قبيل سقوط خلافة قرطبة الأموية وبعده (كاللؤلؤ العامرية والعبادية والزيرية) ؛ ومن أسف أن معظم هذه المؤلفات قد ضاع .

ف ٦٦ — أبو مروان هبانه بن خلف بن مسين بن هبانه^(٢٥) :

وأعظم مؤرخي هذا العصر هو حيان بن خلف بن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ — ١٠٧٠ م) . وهو قرطبي ، وكان أبو خلف من كتّاب المنصور بن أبي عامر ، وقد درس على أبيه وعلى أحمد بن عبد العزيز بن الحباب النحوي وصاعد البغدادي الأديب وعمر بن نُبيل المحدث ، وتفقه وأتقن الآداب على أيديهم ثم انتظم في سلك وظائف الدولة ، وشغل وظيفة صاحب الشرطة — أو صاحب المدينة — في قرطبة زمنا .

وكان يُنسب لابن حيان كتاب يسمى « رسالة التابعين » ، حتى أثبت الأب ملشور أنطونيا أنها رسالة استخلصها مؤرخ مشرق — هو أبو عبد الله الذهبي — من كتاب لابن حبان البُسقي^(٢٦) . أما كتب ابن حيان التي صحت نسبتها إليه فقد ضاع معظمها ، ومن هذه الكتب « المآثر العاصرية » ، و « تاريخ ققهاء قرطبة » — وقد اعتمد في تصنيفه على كتاب لأبي عمر بن عفيف في نفس الموضوع^(٢٧) — ثم كتابا « اللتين » ، و « المقتبس » ؛ ولم يبق لنا من هذه الكتب كلها إلا أجزاء من هذين الأخيرين .

كان « المقتبس » يقع في عشرة أجزاء ، تتناول تاريخ الأندلس من لدن افتتاحها على يد طارق إلى زمن المؤلف . ولا نجد اليوم بين أيدينا إلا ثلاثة أجزاء منه : جزء عن عصر الأمير عبد الله ، وقد نشره الأب ملشور أنطونيا سنة ١٩٢٨ ، وجزء عن خلافة الحكم المستنصر يقوم بنشره الآن الأستاذ غرسية غومس ، وجزء عن عصر عبد الرحمن الأوسط يمدّه للنشر الأستاذ ليفي بروفنسال^(*) . والقطعة التي نشرت بالفعل — وهي الخاصة بعصر الأمير عبد الله — ترينا أهمية نشاط هذا الأمير في تطور تاريخ الأندلس : فلو لا سياسة الثبات

(*) عدلت عبارة المؤلف هنا حتى تستقيم مع ما وصلنا إلى العثور عليه ونشره من مقتبس ابن حيان ، وأحيل القارئ على « صلة » كتابنا هذا ، الفصل الخامس بخيان بن خلف .

والصلابة التي انتهجها هذا الأمير للقضاء على حركة المولدين التي كان يقودها عمر ابن حفصون ، ولولا صموده لجماعات من عرب الأندلس تحصنوا في معاقلم في الكُور ، واجتهدوا في الاستقلال بنواحيهم عن سلطان الإمارة الأموية ، لما كان من الممكن لحفيده وخليفته عبد الرحمن الناصر الارتفاع بالخلافة الأموية الأندلسية إلى الشأو الرفيع الذي بلغته على أيامه .

ويبدأ هذا الجزء من المقتبس برواية أخبار مَهَلَك الأمير المنذر والبيعة لأخيه عبد الله من بعده ؛ ثم يعقد فصلاً عن « استعانة بهم الأمير عبد الله على رفيع أعماله من رجال دولته : حجابيه ووزرائه وقواده وكتابه وقضائه وقهاء عصره » ؛ ثم يتكلم عن « الخالفين على الأمير عبد الله ، الخارجين على الجماعة ، المضرمين لنار الفتنة » ؛ ثم ينتقل إلى الكلام على شخص الأمير ، فيتحدث عن قضائيه ؛ ثم يتحدث تحت عنوان : « باب الدم » عن نقائصه ، فيأخذ عليه « هوان الدماء عليه وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهم من صحابته ورعيته ، أخذوا لأكثرهم بالظنة » ، ويعيب عليه « شدة بخله » ؛ ثم يلم بذكر شعراء بلاطه ؛ ويمضي بعد ذلك في رواية الحوادث التي وقعت بين سنتي ٢٧٥ و ٢٩٨ هجرية بتفصيل شامل ، ملتزماً في ذلك تحديد التواريخ في دقة عظيمة . وهو يهتم اهتماماً شديداً بأخبار ثورة عمر بن حفصون ، والفتن التي أثارها العرب في لبلة وإشبيلية ، ووقائعهم مع عمر بن حفصون ومع جند الأمير عبد الله . ويذكر مقتل القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية على يد المطرف بن الأمير عبد الله غدرًا ، ثم يذكر كيف قتل عبد الله ابنه هذا عقاباً له على هذه القعلة بمجرد عودته إلى قرطبة ، ويطيل الحديث عن سعيد بن جُودى وما إلى ذلك . وتتخلل روايته قطع من الشعر ، كلها لأبي عمر أحمد بن عبد ربه الذي كان شاعر البلاط آنذاك (٢٨) .

أما الكتاب الكبير الثاني لابن حيان ، وهو « اللتين » ، فكان يقع في

ستين مجلدة ، ولم تُبق الأيام منه إلا على فقرات رواها بعض من أتى بعده من الكتاب ، كابن بسام وابن الخطيب . وهذه القطع تظهر لنا بوضوح أهمية هذا الكتاب الذي ضاع^(٢٩) .

ويذكر ابن حيان في تضاعيف كتاباته أسماء الكتب التي استقى منها معلوماته والمؤلفين الذين اعتمد عليهم : فهو يذكر الرازي ، وابن القوطية ، ومعاوية بن هشام الشَّيْبَانِيّ — وهو صاحب كتاب « تاريخ بني أمية في الأندلس » وأبا بكر بن عبادة بن ماء السماء ، الذي ألف « تاريخ شعراء الأندلس » ، وابن عبد ربه ، وأبا الوليد بن الفرضي ، وصاعداً البغدادي ، وسكّن بن إبراهيم الكاتب ، وأبا عمر بن عبد البر ، وآخرين كثيرين . وقد استقى من مؤلفات ابن حيان كل من أتى بعده من المؤرخين .

وقد ذكر حاجي خليفة في « كشف الظنون » أن أبا عبد الله محمد بن فتوح الأزدي الحميدي (٤١٩ — ١٠٢٩/٤٨٧ — ١٠٩٥) وضع مختصراً للمقتبس^(٣٠) ، ولكن هذا وهم منه ، لأن كتاب الحميدي إنما هو معجم أبجدي لملء الأندلس قدّم له بموجز في تاريخ الجزيرة (وقد ترجم جايانجوس الجزء الخاص بمصر الخلافة من ذلك الموجز) . وقد كتب الحميدي هذا المعجم في بغداد بعيداً عن المراجع اللازمة ، فجاء مجموعاً قليل القيمة من تراجم الرجال يشوبه غلط كثير في تحديد التواريخ^(٣١) .

وقد قال عن ابن حيان أحد أصحاب التراجم :

« حيان بن خلف بن حسين بن حيان أبو مروان القرطبي مولى بني أمية ، شيخ الأدب ومؤرخ الأندلس ؛ روى عنه أبو علي النسائي ووصفه بالصدق . وكان أبو مروان فصيحاً بليغاً ، له كتاب « المقتبس » في تاريخ الأندلس ، في عشرة مجلدات ، وكتاب « المتين » في تاريخ الأندلس أيضاً ، ستون مجلداً . وآه بعضهم في النوم فسأله عن التاريخ الذي عمله فقال : لقد ندمت عليه ، إلا أن

الله تعالى أقالني وغفر لي بلطفه . وكان لا يتعمد كذبا فيما يكتبه في تاريخه من القصص والأخبار . توفي سنة تسع وستين وأربعمائة (*) .

وقد أيد المحدثون هذه الشهادة الطيبة ، فقال دوزي : « إن كتاب العرب يمتدحون في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بحال أسلوبه وجزالة لفته ورنين عباراته . وأنا أؤيدهم في ذلك كل التأيد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه — لو بقيت — لألفت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرا وصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقفقة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنفهي . إنه ليسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ، ولا يقع كذلك في التفصح والإسراف في قعاقع الألفاظ [كما نجد عند ابن خاقان مثلا] . وهو رغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبحث في كلامه دائما حماسا وغنى وطابعا غالبا من الجدة . نعم إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة ، ولكنه — رغم امتياز تعبيره بفصاحة القدماء — لا يولع بما أولع به معاصروه [من التزويق والمحسنات اللفظية] . ونخرج من هذا كله بأننا « لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، وإن نجد بينهم من تقدمه عليه » (٢٢) .

(*) الصغدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٦١ .

ف ٦٧ — محمد بن مزين — ابن مسلمة — ابن أبي الفياض :

ومن الجدير بالذكر من مؤرخي هذا العصر أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين (المتوفى سنة ٤٧٠/١٠٧٨) ، وقد ألف كتاباً في تاريخ الأندلس تتواتر الإشارة إليه فيما بين أيدينا من كتب تواريخ الأندلس . ومن الأخبار الهامة التي تنسب إليه ذكر « الرايات » التي دخلت الأندلس مع الجيش الفاتح ، وقبائل العرب التي كانت تنضوي تحت هذه الرايات . وهو صاحب الفصل المتع الذي يحدثنا عن الملكية العقارية في الأندلس بعد الفتح^(٣٣) . كان محمد بن مزين من علماء الشريعة وأفذاذ الأدباء^(٣٤) ، وكذلك كان أبو عبد الملك بن غصن^(٣٥) (المتوفى سنة ٤٥٣/١٠٦٢) أحد الأعلام في الأدب والتاريخ والتأليف ، ونقم عليه المأمون بن ذى النون بسبب صحبته لرأس بلده ابن عبيدة ، فكتب إليه من السجن يعتذر ، وألف المأمون « رسالة السجن والمسجون والحزن والحزون » ورسالة أخرى سماها « بالمشركلمات » .

أما أبو عامر بن مسلمة (٤٣٢ — ١٠٤١/٥١٠ — ١١١٧) فكان وزيراً في إشبيلية ، وقد ألف في التاريخ كتاباً يسمى « حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح »^(٣٦) ، تكثر الإشارة إليه عند ابن بسام وغيره ، وقد ألف كذلك كتباً أخرى نثراً ونظماً . وشعره ضاحك طروب يميل إلى التحرر والانطلاق ميلاً واضحاً^(٣٧) . وحقيق بالذكر كذلك أحمد بن سعيد بن أبي الفياض (٣٧٥ — ٩٨٦/٤٥٨ — ١٠٦٦) وكان تلميذاً لأبي عمر الطلمنكي ، وقد ألف كتاباً عني عليه الزمن يسمى « العبر » نشر ميخائيل القزيري قطعة منه على أنها للرازي^(٣٨) ؛ وألف في الجغرافيا أيضاً ، فكتب كتاباً عن الطرق والأنهار ، وقد ضاع هذا الكتاب كذلك^(٣٩) .

ف ٦٨ — ابن حزم القرطبي :

وأظهر شخصيات ذلك العصر في ميدان الآداب هو ابن حزم القرطبي صاحب التأليف الكثيرة والذي عُنِيَ ميّجِل آسِن بدراسته عناية عظيمة فيما بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ وعرفنا به تعريفاً طيباً . كان أبو محمد علي بن حزم (٣٨٣ — ٤٥٤/٩٩٤ — ١٠٦٣) ابناً لأحمد بن حزم وزير المنصور ، وقد صحب في شبابه شيخه وأستاذه أبا علي الحسين بن علي القاسي ؛ وكان ، على قول ابن حزم ، « عاقلاً عاملاً عالماً من تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الدنيا والاجتهاد للآخرة ... وما رأيت مثله — جملةً — علماً وعملاً وديناً وورعاً ، فنفعني به الله كثيراً ، وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي »^(٤٠) .

درس أبو محمد بن حزم الحديث على أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور (ف ٥٥) دراسة طيبة ، فتهياً له بذلك أساس مكين بنى عليه فيما بعد معارفه بأصول الدين والشرع ، ودرس « تاريخ الطبري » دراسة فهم وتمعن فأصاب من ذلك إدراكاً طيباً لتاريخ البشر والأديان ، وكذلك سمع الحديث على أبي عمر الطلمنكي المحدث النابه ، وتعلم المنطق على يدى الكتاني ، وكان طيباً من مدرسة مسلمة الجريطي ، ودرس الأدب على أبي القاسم عبد الرحمن بن أنى يزيد الأزدي^(٤١) ، وعرف في مجلسه أبا عبد الله محمد بن يحيى بن محمد الحسين المعروف بابن الطنبى وأخاه^(٤٢) وكانا من أفذاذ الشعراء ، ولا بد أنه ساهم كذلك في مجالس الأدب التي كانت شائعة في تلك البيئة الملهبة المثقفة الرفيعة التي نشأ فيها .

وقد تعلق أبو محمد بن حزم — وهو بعد صبي يافع — بفقاة ذات حسن كان أبواه قد حضناها وقاما على تربيتهما ، فتمنعت عليه ، ولم تظهر له قط من القبول ما يفسح له في مجال الأمل فيها ، فطوى نفسه على آلام هذا الهوى . وقد نسب دوزي تولع ابن حزم بهذا الهوى العذرى إلى طبع متأصل في جنسه ، وعلاه بما يقال من أن ابن حزم ينحدر من أصل نصراني^(٤٣) ؛ وقد نقض الأستاذ آسِن بلايوس رأى دوزي هذا ، وأتى بأمثلة كثيرة من هذا الحب العذرى والعفة

الزوجية عند مسلمى الأندلس ، في نفس العصر الذي عاش فيه ابن حزم . ورد هذه الظاهرة إلى ما في الإسلام من نوازع زهدية ، وقال إن وجودها دليل قاطع على ما يمكن في نفوس الشعوب الإسلامية من مثالية عظيمة ، كان الناس ينكرونها عليها إلى ذلك الحين^(٤٤) ، [أى إلى عصر دوزى] .

وفي عام ١٠١٢/٤٠٢ توفي أبوه ، وكان قد أقام في خدمة العاصريين حتى مقتل عبد الرحمن بن منصور بن عاصم الملقب بشنجل ، وعند ما ثبت الفتنة البربرية أخرج ابن حزم من قرطبة ، إذ كان رأس بيت مناصريين أمية ، متمسك بحقهم في العرش ، لطول ما اتصل رجاله بخلفائهم وأقاموا في خدمتهم . ونهبت قصور ابن حزم بعد خروجه من قرطبة ، ففوجئ إلى المرية وأقام فيها ، وهناك انصرف إلى تأييد عبد الرحمن الرابع — الملقب بالمرتضى — فيما كان يسعى إليه من طلب الخلافة بموازرة نفر من أنصاره . وسار ابن حزم مع جيش المرتضى لحرب بني حمود ، فانهزم الجيش في موقعة « غرناطة » (١٠١٨/٤٠٨) وقتل المرتضى وأسر ابن حزم ثم أخلى سبيله فلجأ إلى شاطبة ، واطمأن هناك ردحا من الزمن كتب فيه كتاب « طوق الحمامة » . وظل مع ذلك يدعو لعبد الرحمن الخامس الذي كان يطلب الخلافة لنفسه . فلما وفق عبد الرحمن إلى ما كان يسعى إليه ، وارتقى عرش الخلافة وتلقب بالمستظهر عام ١٠٢٣ / ٤١٤ ، استقدم ابن حزم وأقامه وزيراً له . ولم تدم خلافة المستظهر غير شهرين قتل بعدما في ٢٧ ذى القعدة ٤١٤ / ١٠ فبراير ١٠٢٤ وانتهى أمره ، فنفي ابن حزم مرة ثانية من قرطبة ، فآلى على نفسه ألا يضع في السياسة يداً من ذلك الحين ، مؤمناً بأن أذعياء الخلافة لم يعودوا يحوزون ما ينبغي لها من نصاب شرعي ، وأن الخلافة لم تعد حقا إلهيا . وهكذا ظل ابن حزم إلى ذلك الحين موزعاً بين السياسة والأدب^(٤٥) ، أما بعد ذلك فقد كرس وقته كله لدراسة الدين والفقه .

أقبل ابن حزم على دراسة الفقه وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وكان

دافعه إلى الإقبال على درسه ما ظهر ذات مرة في المسجد من جهله بفروض الصلاة^(٤٦)، فأقبل يدرس الشريعة والفقه في نهم على يد الفقيه المشاور عبد الله ابن يحيى بن دَحُون، فقرأ عليه موطأ مالك، وتلمذ كذلك للشيخ أبي الوليد يونس بن الصنفار^(٤٧).

ثم وجد من نفسه ميلا لمذهب محمد بن إدريس الشافعي (ف ١٢٤) فانتقل إليه^(٤٨)، وكان الشافعيون قلة بين الأندلسيين. ولم يظل ابن حزم شافعيًا إلا فترة قصيرة^(٤٩)، إذ استحسن المذهب الظاهري، وهكذا نجده ظاهريًا قبل سنة ٤١٩/ ١٠٢٩^(٥٠) — والظاهريون هم أتباع أبي داود ممن يلتزمون التقليد المأثور ويأخذون بالمعنى اللفظي الظاهر لكلم القرآن (ف ١٢٤) — وقد أنكر عليه فقهاء المالكية ذلك ومنعوه وأستاذة أبا الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت من التدريس في جامع قرطبة^(٥١)، فكان لموقف الفقهاء منه وتبعهم إياه أثر عميق في خلقه ونفسه.

وبعد أن توفي شيخه أبو الخيار بقليل، أقبل ابن حزم على تأليف كتبه ومضى يذرع بمالك الطوائف داعيًا لمذهبه، وتارت بينه وبين الفقهاء المساجلات، فبحل في مناقشاته علمه الواسع وتمكنه البالغ من اللغة والأدب والشعر والتاريخ والحديث والفقه وما إليها من العلوم الإسلامية. وظهرت كذلك إحاطته بضروب العلم القديمة من المنطق والفلسفة (عدا الرياضة)، وتحقيقه بكتابات اليهود والنصارى، والروايات التلمودية خاصة. وامتاز كذلك بمهارة فائقة في الجدل، يعيها حنئده في بعض مجادلاته عما ينبغي للعلم من أمانة، (كأن يحرف كلم النصوص، أو يفسرها تفسيراً ملتويًا مقصوداً، أو يقرر نصوص من يجادلهم من أصحاب المذاهب أو الأديان الأخرى بقرآن مشوّهاً مفسدًا، وما إلى ذلك)، «حتى أصبحت حدة ألفاظه وشدة الكلمات التي يستعملها مضرب المثل في بلاد الإسلام كلها»^(٥٢). ومن بين مجادلاته التي ذاع أمرها تلك التي جرت بينه وبين أبي الوليد الباجي في مَيُورَقَة^(٥٣)، (وكان ابن حزم قد لجأ إلى رعاية عاملها ابن رشيق)، وكان

الباجي قفيها مالكيًا نابهاً وأشعريًا قذاً (ف ١٢٦) ، ويبدو أن ابن حزم غلب في مجادلة الباجي ، ويرد ابن حيان ذلك إلى تعصبه لمذهبه ومبده السياسي^(٥٤) .
كان ابن حزم رجلاً صادقاً مخلصاً قوياً ذا ديانة وحشمة وسؤدد^(٥٥) . وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها ، وكان مخلصاً لأصحابه يتفانى في سبيلهم ، لدوداً في خصومته ، لا يصفح ولا ينسى ثأره ، ولوعاً بالسخر من خصومه ، شديد الاعتداد بما أوتي من علم ؛ وكان كريماً عفيفاً وسطاً في إيمانه ، لا هو ساذج يقبل كل شيء ، ولا هو متشدد لا يقبل إلا حكم العقل ، بل هو أقرب إلى العقليين منه إلى العاطفيين ، كما يقول آسين بلاثيوس ، « لأن مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاز والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة ، جعله بمنأى عن الاستغراق في فيوض الحياة الروحية »^(٥٦) .

ويقول آسين بلاثيوس : « إن ابن حزم قد عاين من ألوان الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه ، وشاهد من مساات القوضى السياسية التي ضربت على الأندلس يجرانها في أيامه ما نفر نفسه ، وأوذى في نفسه وكرامته بما لقي من الاضطهاد ، ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له ويقاطعون مذهبهم الديني ويحرمونه ، فاستقر رأيه على أن يعتزل الدنيا والناس وينزوي في موطن أسرته مُنْتِ لِسْمٍ ، وهي بليدة على مقربة من وُكْبَة ربما كانت قرية كازا مونتيجا Casa montija الحالية(*) — وذلك بعد أن صادر المعتمد بن عباد كتبه وأحرقها — وفي هذا المعتزل كتب كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » ، وهو أشبه باعترافات تقيض بالنشأوم العميق »^(٥٧) .

ومن غرائب القدر وعيئه بمصائر البشر أن ابناً لابن حزم — هو أبو رافع الفضل — دخل في دعوة المعتمد بن عباد وأخلص في خدمته وقُتل في موقعة الزلاقة ، محارباً إلى جانب أعداء أبيه^(٥٨) .

(*) راجع مناقشة موضع منت لسم في :

Asín, Abenhazam..., I, pp.28-29 et notes.

ف ٦٩ — آثار ابن حزم في الفلسفة والسريضة وعلوم الدين والتاريخ :

كان ابن حزم من أكثر خلق الله كتابة وتأليفاً ، ويبدو أنه درس وألف في كل صنف من أصناف العلوم ، عدا الرياضة . ومن أسف أن معظم مؤلفاته قد ضاع .

وستتبع في عرض مؤلفات ابن حزم التصنيف الذي اتبعه آسین پلائیوس في كتابه عن ابن حزم^(٥٩) .

(١) الفلسفة : ألف ابن حزم كتباً في مراتب العلوم والمنطق وفي نقد أبي بكر الرازي ، وقد ضاعت كلها . ولكن بقي لنا مما يستحق الذكر من تواليفه كتابه المسمى « الأخلاق والسير في مداواة النفوس »^(٦٠) . وقد أجمل آسین پلائیوس وصفه بقوله : « إنه أشبه بسجل يوميات ، دون فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته ، وهذه للملاحظات ترد في الكتاب دون ترتيب يُقصد به إلى التعليم والتربية ، ولم يُراعَ في تنسيقها منطق . ونحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق للملاحظة أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم » . وهذا الأسلوب الوهظي الحكيم الذي اتبعه ابن حزم يجعل كتابه هذا شبيهاً بحكم ديموقريط ونيكا ؛ ولا يخلو الكتاب مع ذلك من الفقرات الطوال ، كهذه القطعة الجميلة التي يذم فيها الغرور ، أو تلك التي يصارحنا فيها ابن حزم برذائل ونقائص أخلاقية يراها في نفسه ، ويقررها في تواضع وإخلاص يذكّرنا باعترافات القديس أوغسطين . وفي مواضع أخرى من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية ، وتجرد عن الميل والهوى . وإن الإنسان ليسمر وهو يقرأ كلام ابن حزم في هذا المقام وكأنه يطالع كتب « الأخلاق » التي كتبها ثيوفراست ، أو لارويير ، أو مقالات في الأخلاق والسياسة « ليكون »^(٦١) . وأعظم قيمة لهذا الكتاب الأخلاقي — الذي

صدر عن نفس يشوبها التشاؤم والتبصوف — هي أنه يقدم لنا صورة حقيقية حية
لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الحادى عشر ، وقواعد الأخلاق التى كانت
مرعية فى مجتمعهم . هذا إلى جانب تلك الفقرات التى تتصل بحياة ابن حزم
نفسه ، وقد أثرنا إليها فيما سلف .

وإليك بمض أطراف من أقوال ابن حزم وحكمه فى هذا الكتاب :

* « من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم ، ومن كافأ من أساء إليه منهم
فهو مثلهم ، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم . . »

* أول من يزهده فى الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور
من شهد له به ، وأول من تهون الزانية فى عينه الذى يزنى بها . . »

* العرض أعز على الكريم من المال . ينبغى للكريم أن يصون جسمه
بماله ، ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ؛
ولا يصون بدينه شيئاً أصلاً . »

ف ٧٠ :

(ب) الفقه والأصول : ألف ابن حزم كتباً كثيرة فى الحديث والمذاهب ،
ولكن أهمها على الإطلاق هي :

كتاب « الإبطال » (الذى نشره جولدسيهر جزءاً منه) ، وابن حزم يعرض
علينا فيه ضعف أصول خمسة اتبعتها بعض المذاهب الإسلامية فى استخلاص
الأحكام الشرعية ، وهي : القياس ، والرأى ، والاستحسان ، والتقليد ، والتعليل .
وأهمية هذا الكتاب راجعة إلى أنه يبين لنا الأسس التى بنى عليها ابن حزم
مجادلاته ونقده للمذاهب الأخرى ؛ وهو الكتاب الأساسى الذى يبسط لنا فيه
دقائق المذهب الظاهرى الذى اعتقده .

وله فى هذا الموضوع أيضاً كتاب « الإيصال إلى فهم كتاب الخصال » (٦٦) ،

الذى يوجز فيه ابن حزم ما بسطه في كتاب « الخصال الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام » ، الذى ضاع والذى يغلب على الظن أنه شرح لأصول المذهب المالكي وتقد له ومجادة للمالكيين .

وله أيضاً كتاب « المحلى فى الخلاف العالى فى فروع الشافعية » (محفوظ بدار الكتب المصرية)^(٦٣) ، الذى يناقش فيه أصول المذهب الشافعى وينقدها ؛ وكذلك كتاب « الفصل » الذى سنتحدث عنه فيما يلى .

ف ٧١ :

(ح) غاوص الدين : كتب ابن حزم رسالات كثيرة ، نقض فيها آراء أصحاب المذاهب التى اعتبرها منحرفة عن الطريق القويم ، أو دلل فيها على أن أسلوب القرآن معجز لا يشبه فى شئ أى أسلوب من أساليب البلاغة الإنسانية ؛ وقد ضاعت هذه الكتب . وصنف رسالات أخرى مثل : « بيان التحريفات التى أدخلها اليهود والنصارى على نصوص التوراة والإنجيل » ، و « النصائح المنجية من الفضائح الخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع من الفرق الأربع : المعتزلة ، والمرجئة ، والخوارج ، والشيعة »^(٦٤) . وهذه كلها نجدها مجموعة فى كتاب « الفصل فى الأهواء والنحل » ، الذى نستطيع أن نعتبره بحق « تاريخاً للأديان » ؛ وهو أهم ما كتب ابن حزم فى موضوع الأديان^(٦٥) .

حاول ابن حزم فى دراساته فى موضوع الأديان أن يوفق بين العقل والعقيدة (سابقاً ابن رشد إلى ذلك بقرن من الزمان) ، واجتهد فى أن يطبق على الإلهيات أصول المذهب الظاهرى الذى اعتقده ، متبعاً فى ذلك قواعد عامة أوجزها الأستاذ آسبن پلاثيوس فيما يلى : « الأخذ بالمعنى الحرفى » الظاهر « لفظ القرآن » ، و « الاجتهاد » فى تفسير آية تفسيراً عقلياً طبيعياً ، اجتهداً يقوم على ما ورد فى معاجم اللغة من معانى الألفاظ ، وما قرره اللغويون من قواعد البلاغة العربية وأصولها ، والتزام ما أجمعت عليه الأحاديث الموثوق فيها مما صح سنده عن الصحابة أو ما قرره

« إجماع » المسلمين ، وذلك دون « تقليد » لأى مذهب معين ، وقد اعتمد ابن حزم فى ذلك على مذهب القنوص الذى يقول بأن ذات الله وصفاته وأفعاله لا يحيط بها العقل البشرى ، إذ أن الإيمان — على قوله — لا بد أن يصدر عن قلب مدرك لوجود الله بالفطرة ، إذ بغير ذلك لا يقيسر للعقل الإنسانى أن يدرك ذات الله وصفاته وأفعاله » (٦٦) .

ف ٧٢ :

(و) التاريخ : خلف ابن حزم لنا مادة طيبة فى التاريخ ، منها كتاب « جهرة أنساب العرب » (وقد نشره ليثى بروقنسال فى القاهرة سنة ١٩٤٨) ، وهو عظيم الفائدة لمن يدرسون تاريخ الإسلام فى المشرق والأندلس . أما كتاباه « الإمامة والخلافة فى سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها » و « فهرست » شيوخته ، فلم نمر عليهما إلى الآن . وبين أيدينا كتابه « نقط العروس » (وقد نشره زايبولد فى غرناطة سنة ١٩١١ ، وأعاد نشره سيكو Seco سنة ١٩٤٦ ثم الدكتور شوقى ضيف فى القاهرة ١٩٥١) ، وهو يضم معلومات مقتضبة جافة عن خلفاء المشرق والأندلس وحكامها ، مرتبة « فصولا بحسب جوامع مختلفة تربط بينهم ، مثل « أول الأسماء التى وقعت على الخلفاء رضى الله عنهم » ، و « تسمية من ولى الخلافة فى حياة أبيه » ، و « من ولى منهم صبيا » ، و « أكثر الخلفاء عمرا » ، وما إلى ذلك » (٦٧) ؛ وكأنما مادة هذا الكتاب فقط كان قد وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتابا مطولا . وله كذلك « الرسالة » المشهورة فى « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، وقد احتفظ لنا المقرئ بنصها فى « نفع الطيب » (٦٨) وترجمها جايانجوس إلى الإنجليزية فيما ترجم من أجزاء « النفع » (٦٩) . وقد كتب ابن حزم هذه الرسالة جوابا على ما ورد فى خطاب بعث به أبو على الحسن بن محمد بن أحمد بن الريب التميمى القيروانى إلى أبى المنيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن حزم ، « يذكر تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم

وسير ملوكهم» (٧٠) ، فانبرى ابن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه . وقد قال آسین پلاثيوس في حق هذه الرسالة القيمة : « إنها تضم ثبثا بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم ، وهي في فصول كل منها يدور حول صنف من العلوم والآداب ، ويذكر ابن حزم أمهات مؤلفات الأندلسيين في كل علم وفن ، وإليك فهرست أبواب الرسالة :

« مقدمة في فضل الأندلس وأهله ومزايا قرطبة مع ملاحظات طريفة على أخلاق أهل الأندلس — أحكام القرآن والحديث ورجاله والفقهاء (المالكية خاصة) — اللغة — الشعر — الأخبار (التاريخ والطبقات) — الطب — العدد والهندسة — علم الكلام — خاتمة في المقارنة بين أعلام العلماء في المشرق والأندلس» (*) (٧١) .

وقد أكمل على بن سعيد المغربي فوات هذه الرسالة (ف ٧٩) (٧٢) .

ف ٧٣ — كتاب الفصل :

وأشهر ما ألف ابن حزم في مادة التاريخ وأعظمه قيمة هو كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » (٧٣) ، وهو تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب (نشر في القاهرة سنة ١٣٢١ . وترجمه إلى الإسبانية آسین پلاثيوس ، ونشره في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٨) ، وهو كتاب ضخم حافل بما فيه من مادة وأفكار ، يعرض فيه ابن حزم لشتى مذاهب الذهن البشري في موضوع الدين ، من الإلحاد المطلق الذي عليه السفسطائيون الذين لا يؤمنون بشيء ، بل لا يؤمنون بأن تفكيرهم نفسه حقيقة مجردة ، إلى إيمان العوام الذين يصدقون كل شيء ، ويؤمنون بانحرافات في جهل ، ولا يشكون في شيء .

ثم يقول آسین پلاثيوس : « إن ابن حزم يقسم الناس — من حيث موقفهم من أمر العقيدة — إلى ستة أقسام يرتبها بحسب بعدها أو قربها من الإسلام ، وهي :

(*) استخرجت فهرست « الرسالة » من نصها عند المقرئ (ج ٢ ، ص ١٠٨ — ١٢١) وقد اقتضى هذا مخالفة الفهرست التي أوردته المؤلف عن آسین پلاثيوس .

أولاً : شك السوفسطائية ، الذين يبطلون الحقائق .
 ثانياً : إلحاد الفلاسفة ، الذين ينكرون وجود إله خالق ويقولون : « إن العالم قديم ، وليس له مدبر » .
 ثالثاً : كفر الفلاسفة ، الذين يقولون : « إن العالم لم يزل ، وله مع ذلك فاعل » . . أى ينكرون وجود إله خالق للعالم الأزلى .
 رابعاً : ثنائية الإله التى يقول بها الزردشتيون والمسانويون ، وتعدد الآلهة الذى يقول به النصارى المؤمنون بالثالوث .
 خامساً : توحيد البراهمة والعقليين ، الذين يؤمنون بوجود إله واحد ، ولكنهم ينكرون النبوة والملائكة .
 سادساً : توحيد اليهود ومن أنكر التثليث من النصارى ، ومذهب الصابئة ومن أقر بنبوة زردشت من المجوس وأنكر ما سواه ^(٧٤) .
 ثم يأتى الإسلام بعد ذلك ، ويرى ابن حزم أنه العقيدة الإيجابية الوحيدة الحقة ، ورسالاته الحميدة نسخ الله ما أوحى به من قبل إلى أنبياء بنى إسرائيل ، بما فيهم عيسى . ويرى ابن حزم فى المسيح أنه نبى حق فحسب ، وهو رأى عامة المسلمين فيه . وهو يدرس — فى نفس الوقت — ما عليه بعض الناس من عدم الاكتراث للدين ، وما عليه جهلاء العامة من تصديق لكل شئ وإيمان بالمعجزات الكاذبة ، وما يزرعه البعض من تفسير الأحلام واستخراج الأحكام عن طريق النظر فى النجوم .
 وعند ما يعرض ابن حزم لموضوع النزاع الشديد بين الدين والعقل ، يدرس طبيعة الإيمان عند العوام وعند أهل الفكر والتدبير ، ويقول بالابتعاد عن التمسب الشديد غير الفلسفى ، ولا يرضى كذلك عن اتباع العقل المطلق ، ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والإيمان ، بما يطابق تمام المطابقة المذهب « الظاهرى » الذى كان هو نفسه عليه .

ولما كانت مذاهب إبطال الحقائق إطلاقاً — وهو ما يقول به السوفسطائيون والإلحاديون ومن يقولون بوجود الخالق ولكنهم ينكرون النبوات — تنكر كل الأسس التي تقوم عليها العقائد ، فإن ابن حزم يطيل النظر في هذه المذاهب الثلاثة وينقضها ، ويخرج من ذلك كله بإثبات وجود حقيق للكون ، ويدلل على صدوره عن غيره ، وعلى أنه موقوت بأجل ، ويقول بعد ذلك : « فإن تَمَادَى الكلام وجب بما قدَّمناه ألاَّ نهاية ، والألانية في العالم من مبدئه باطل ممتنع محال ، فإذاً قد بطل أن يخرج العالم بنفسه ، وبطل أن يخرج دون أن يُخرجه غيره .. فقد ثبت الوجه الثالث ضرورة ، وإذ لم يبق غيره البتة ، فلا بد من صحته ، وهو أن العالم أخرجه غيره من العدم إلى الوجود وبالله تعالى التوفيق » .

ثم يعرض بعد ذلك « لآثار صنعة الله التي لا يشك فيها ذو عقل » ويقول : « وليس هذا البتة من فعل طبيعة ولا بنسج ناسج ولا بناء ولا صانع أصباغ مرتبة ، بل هو صنعة صانع مختار قاصد إلى ذلك ، غير ذي طبيعة ، لكنه قادر على ما يشاء . هذا أمر معلوم بضرورة العقل وأوله يقيناً ، كما نعلم أن الثلاثة أكثر من الاثنين ، فصَحَّ أنه خالق واحد أول حق ؛ لا يشبه شيئاً من خلقه البتة ، لا إله إلا هو الواحد الأول الخالق عز وجل » (*) .

وهو ينكر من العقائد الإيمانية المجوسية (وهي الزردشتية) ، وما تقول به من ألوهة أورمز وأهرمن^(٧٥) ، وما يندرج تحتها من مذاهب أشهرها المانوية والمزديقية ؛ وهو ينكر كذلك عقائد الصابئين والنصارى ، ويعتبر هؤلاء الآخرين مشركين لأنهم يقولون بالثالث . وابن حزم يعرف مذاهب النصارى المختلفة ويفرق بين أولئك الذين ينكرون الثالث منهم (أصحاب أريوس وأصحاب بولس الشمشاطى وأصحاب مقدونيوس) ، ومن يقولون بالثالث (الماسكانيون) -- وهم الكاثوليك الأرثوذكسيون -- والنسطوريون واليعاقبة وهم المونوفيزيون ؛

ويعرف كذلك الأقطار التي يسود فيها كل مذهب من هذه المذاهب .

وبعد أن يفرغ ابن حزم من نقض عقيدة الثالوث والتجسد ، يمضى بعد ذلك في إثبات عقيدة التوحيد ؛ وأول ما يتناوله للوصول إلى ذلك هو التدليل على إمكان الوحي الإلهي وضرورته وعلى أنه حق . وفي سياق الكلام في هذا الموضوع ، يقف ابن حزم لحظة ليناقش طائفة من العقليين ، كانوا ينكرون الوحي مؤيدين رأيهم بالقول بأن أجناس البشر نشأت عن أصول متعددة ، خلقت كلها في وقت واحد في أقطار متباينة ، ويُثبت لهم أن الله تعالى خلق من النوع الإنساني ذكرا واحدا وأنثى واحدة ، يجمع آراء أهل الأديان جميعاً (من الهند والمجوس والصابئين واليهود والنصارى والمسلمين) وآراء من يسميهم « البراهمة » (وهم من غير شك الشائثون والبوذيون من أهل الهند) .

وهو يثبت ضرورة الوحي الإلهي بطريقة قريبة جداً من تلك التي اتبعها بونالد Bonald^(٧٦) ، عندما تعرض لهذا الموضوع في القرن التاسع عشر . وابن حزم يستند هنا إلى حجة سيُدخلها القديس توما الأكويني فيما بعد في علم الإلهيات عند الإسكولاستيين ، وتقوم هذه الحجة على القول بسجز البشر — عن طريق العقل الصرف — عن الوصول إلى الحقائق الدينية التي لا بد من معرفتها لإدراك الغاية من الدين وحكمته ؛ وسيتوسع ابن رشد في هذه الحجة فيما بعد . والأسلوب الذي يلجأ إليه ابن حزم للتدليل على إمكان الوحي وحقيقته التاريخية شديد الشبه بذلك الذي نجده في رسائل « عن الديانة الحقّة De Vera Religione » ، المتداولة بين الإسكولاستيين في أوروبا من القرن الثالث عشر إلى اليوم ، مع فارق بديهي وهو أنه يستعملها للتدليل على صحة رسالة محمد [صلعم] ، وعلى أن القرآن كلام الله أوحى به إلى رسوله دون ريب .

وهكذا يدحض ابن حزم آراء مدرستين فلسفيتين متطرفتين ، كثير أتباعهما إذ ذاك في العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً : الأولى كانت تقول بدين واحد لكافة

البشر ، والأخرى كانت تنكر الأديان المنزلة جميعاً ، نتيجة لما كان يقول به أصحابها من أذاليل .

ولكن ، أى الأديان الثلاثة المنزلة هو الصحيح : اليهودية ، أم النصرانية ، أم الإسلام ؟ يجيب ابن حزم على هذا السؤال بطريقة يوجزها آسین پلائیوس بقوله :

« يذهب ابن حزم إلى أن الإنجيل — بمهديه : القديم ، والجديد — قد حُرِّفَت كلماته عن مواضعها على أيدي النصارى واليهود ، وأن كلا هذين الفريقين لا يستطيعان القول بأن ما بأيدي أصحابهما من كتبٍ كتبٌ منزلة ، وخاصة بعد أن نُسخَت عقائدهما بالرسالة المحمدية .

« أما عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة — وهى : السامرية ، والصدوقية ، والعنانية (وهى القرائية ، وهم أصحاب عَنان الداودى اليهودى) والربانية (أو التلمودية ، وهم الأشعنية وهم « جمهور اليهود ») والعيسوية (أصحاب أبى عيسى الأصهبانى)^(٧٧) — فيدحضها ابن حزم بالقول بأن كتبها المقدسة قد حرف كلُّها ، ويجهد فى إثبات رأيه بمناقشة نصوص التوراة وغيرها من كتب بنى إسرائيل مناقشة ناقد مطلع عليها ، ويذهب إلى أنه من المستحيل عقلاً أن تكون هذه الكتب قد بقيت على أصولها دون تحريف ، ويدلل على ذلك بأدلة يأتى بها من التاريخ .

« أما المسيحية فينكر ابن حزم صحتها ، بالقول بأن الكتب التى تضم عقائدها وقواعدها الأخلاقية ، إما أن تكون من وضع البشر أو حُرِّفَت نصوصها الأولى .

« وإن حزم يمتنع فى تفسير ما يمرض من نصوص هذه الكتب — وذلك فى ذاته برهان قاطع على اطلاعه الواسع — متبعاً قواعد مذهبه الظاهرى من التفسير الحرفى الجاف ، مفتجعاً نهجاً تشكيكياً ساخراً فولتيرياً شبيهاً بما نعرفه

في أيامنا ، دون أن نشعر ونحن نقرأه أنه أحس — ولو إحساساً يسيراً جداً — بما تنطوى عليه المسيحية من « حنو إلهي » ، أو أنه أدرك فكرتها عن « الله أبي البشر » . ولكن قيمة الكتاب عظيمة جداً في تعريفنا بأفكار المستعربين الإسبان وأحوالهم ، وما كانوا يقومون به من طقوس » .

فإذا فرغ ابن حزم من إبطال آراء النصارى واليهود ، فقد خرج من ذلك بأن الدين الوحيد الصحيح المنزل هو الإسلام . وابن حزم يلجأ في إثبات صحة الرسالة المحمدية وعُلوية عقيدتها بحجج تشبه تلك التي يستعملها كتّاب النصارى في إثبات فضائل النصرانية وميزاتها . ثم يتعرض بعد ذلك لمناقشة المذاهب الإسلامية لتعرف أصحابها وأقربها إلى النهج الصحيح . يقول آسين :

« إن ابن حزم يبدأ بذكر مذاهب الزندقة الأربعة الرئيسية التي ظهرت في الإسلام ، مع ذكر الفرق الفرعية التي تنفرع عن كل منها ، ويعترف بها واحدة فواحدة ، بذكر « عمدتهم التي يتمسكون بها » ويكشف عن طبيعتها عن طريق عرض ما يحاول أصحابها مجادلته أو إفساده من الأركان الأساسية لمذهب أهل السنة ؛ فيقول مثلاً إن المرجئة يضلون في فهم الإيمان وما يكون في الآخرة ، والمعتزلة لا يفهمون التوحيد والقدر (حرية البشر في الاختيار) ، والشيعية لا يفهمون معنى الإمامة ، والخارجية يقعون في نفس الخطأ ويقعون كذلك في الخطأين اللذين يقع فيهما المرجئة^(٧٨) .

« ويعتقد ابن حزم أن روح العصبية الفارسية هي مصدر المذاهب الضالة كلها في الإسلام ، ويقول إن الفرس « لما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب — وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً — تماظههم الأمر وتضاعفت لديهم العصبية ، وراموا كيد الإسلام بالحاربة في أوقات شتى ، ففي كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق . وكان من قادتهم سِنْبَادُ وأُسْتَاذَسِيسُ والمقنع (الكندي) وبَابَكُ (الخُرَمِي) وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمّار الملقب

بخداش وأبو مسلم السراج ، فرأوا أن كيدهم على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم على الإسلام واستمالوا أهل التشيع ، بإظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشناع ظلم على رضى الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام (*) ؛ أى أنهم أوهموا الناس أنهم دخلوا الإسلام ، لكي يكون ذلك أعون لهم على إفساد أمره وإدخال عقائد المجوسية وطقوسها فى رحابه . وقد سلكوا إلى ذلك طريق التأويل لآى القرآن ، ومن هنا تقبين ضرورة التفسير الحرفى « الظاهرى » للقرآن حتى ينكشف ضلالهم .

ويجمع ابن حزم الآراء الضالة التى قال بها أصحاب الفرق والمذاهب المختلفة فى موضوع الأركان الأساسية للعقيدة القويمة تحت أبواب خمسة هى :

- التوحيد (الله) .
- القدر (الجبر والاختيار) .
- الإيمان (العقيدة) .
- الوعد والوعيد (الحياة الأخرى) .
- الإمامة (٧٩) .

ثم يمتضى فى معالجتها فى أسلوب قريب مما سار عليه القديس توماس الأكوينى فى « خلاصة علوم الدين Suma theológica » .

ونتيجة ذلك أن كتاب ابن حزم صار تاريخاً لم الكلام فى الإسلام ، مع اتجاه واضح لبيان فضائله ، وإن لم ينقصه بين الحين والحين ذلك الطابع الموضوعى المتجرد عن هوى صاحبه ، ولكن يعوزه إدراك فكرة تطور العقائد التى غلبت على دراسات تاريخ الأديان فى القرن التاسع عشر . وابن حزم يبين لنا فى كتابه تيارات الثقافة القديمة ، والمؤثرات النصرانية التى دخلت على الإسلام .

(*) ابن حزم : الفصل ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

ويقول آسبن پلاثيوس : « إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هي أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب « الفصل » لابن حزم تمكّننا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب ، ففي ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج الذهبي الذي تتألف منه الفلسفة الخالدة ، ذلك النسيج الذي صنعه أوفر عبقريات الإغريق حكمةً بأيديها الصبور في مهارة فائقة ، وعلى ضوء صفحاتها نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتداداً ، وكيف تدخل في تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة ؛ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة الجديدة لاتضاهي نسيج الإغريق روعة وبريقاً ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء ، ونراها تجود وتزداد إحكاماً بفضل ما أدخله عليها التفكير النصراني الشرقي وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر . وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها ، ولهذا فقد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكري الغني وتناجحه ، ومن ثم لم يكن باليسير عليهم أن يسبقوا مفكرى النصراني من أهل الغرب في تحليلها ووضع منهجها وأساسها الذين سيقوم عليهما التفكير المنهجي الإسكولاستي في القرن الثالث عشر »^(٨٠) .

وإليك نموذجاً من أسلوب ابن حزم في (الفصل) نتخيره من الفصل الذي يدل فيه على صحة وجود الوحي والنبوة ، قال أبو محمد :

« . . . [فإذا قد أثبتنا أن النبوة — قبل مجيء الأنبياء عليهم السلام — واقعة في حد الإمكان ، فلنقل الآن بحول الله تعالى وقوته على وجوبها إذا وقعت ولا بد ، فنقول :]^(*) إذ قد صح أن الله تعالى ابتداء العالم ولم يكن موجوداً حتى خلقه الله تعالى ، فيبين ندرى أن العلوم والصناعات لا يمكن البتة أن يهتدى أحد إليها بطبعه — فيما بيننا — دون تعليم ، كالطب ومعرفة الطبائع والأمراض وسببها على كثرة اختلافها ووجود العلاج لها بالعقاقير التي لا سبيل إلى تجربتها كلها أبداً .

(*) لم يورد المؤلف هذه الفقرة الواردة بين الأقواس ، وإنما رأيت إيرادها حتى يتصل سياق الكلام في الفقرة التي أوردتها ، وهي التي تلي الفوس .

وكيف يجرب كل عقار في كل علة ؟ ومتى يتبها هذا ولا سبيل له إلا في عشرة آلاف من السنين ومشاهدة كل مريض في العالم ؟ وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لا بد منه من أمر المعاش وذهاب الدول وسائر العوائق . وكلم النجوم ومعرفة دورانها وقطعها وعودها إلى أفلاكها بما لا يتم إلا في عشرة آلاف من السنين ، ولا بد أن يقطع دون ضبط ذلك العوائق التي قلنا . وكاللغة التي لا تصح تربية ولا عيش ولا تصرف إلا بها ، ولا سبيل إلى الاتفاق عليها إلا بلغة أخرى ولا بد ، فصح أنه لا بد من مبدأ للغة ما . وكالحرث والحصاد والدراس والآلات والعجن والطبخ والحلب وحراسة المواشي وأخذ الأنسال منها والغرس واستخراج الأدهان ودق الكتان والقنب والقطن وغزله وحياكته وقطعه وخياطته وابسه وآلات كل ذلك وآلات الحرث والأرحاء والسفن وتديرها في القطع بها للبحار والدواليب وحفر الآبار وتربية النحل ودود الخبز واستخراج المعادن وعمل الأبنية منها ومن الخشب والفخار ، وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعاليم . فوجب — بالضرورة ولا بد — أنه لا بد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداءً لكل هذادون معلم ، ولكن بوحى حقيقته عنده ، وهذه صفة النبوة . فإذا لا بد من نبي أو أنبياء ضرورة ، فقد صح وجود النبوة والنبي في العالم بلا شك ^(٨١) .

ف ٧٤ — آثار ابن حزم الأدبية : « طوق الحمامة في الألفة »

والأدب ^(٨٢) :

يعتبر الطوق أم ما ألف ابن حزم في باب الأدب ، وهو رسالة عن « الألفة والألاف » أي الحب والمحبين . ويقع الكتاب في ثلاثين فصلاً يدور كل واحد حول موضوع معين من موضوعات الحب ، مُرسلةً كلها بطريقة متشابهة . ابن حزم في كل فصل منها ، فيبدأ بتعريف نوع الألفة الذي يدور عليه الفصل أو يصف خاصية من خصائصه يتخيرها ، ثم يورد طائفة من الحكايات الواردة

يدلل بها على صحة ما يقول ، وتتمخلل الكلام كله قطع من شعر ابن حزم نفسه .
ويضع ابن حزم فصول الكتاب كلها في أقسام أربعة تجمع ثلاثين باباً ، وقد
أورد بيان تقسيم كتابه في الباب الأول منه — عن مائتي الحب — فقال :

« وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين باباً ، منها في أصول الحب عشرة .
فأولها هذا الباب ، ثم باب في علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب في
النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من
نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب
التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب التفسير .
ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً ، وإن
كان الحب عَرَضاً والعرضُ لا يَحْتَمِلُ الأعراض ، وصفة والصفة لا توصف . فهذا
على مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضاً
أقل في الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح في إدراكنا لها علمنا أنها
متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ، إذ لا تقع فيها الكمية
ولا التجزئ ، لأنها لا تشغل مكاناً ؛ وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ،
ثم باب طلى السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب
المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ،
ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

« ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب : وهى باب العاذل ، ثم
باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .
« من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة
الذكر ، وهما باب العاذل وضده باب الصديق المساعد ، وباب الهجر وضده باب
الوصل . ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من هاتى الحب ، وهى باب الرقيب ،
وباب الواشى ، ولا ضد لها إلا ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفاع الأول ،

وإن كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك . ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

« وباب البين وضده تصاقب الديار ، وليس التصاقب من معاني الحب التي تشكلم فيها . وباب السلو وضده الحب بعينه ، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه . ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام في قبج المعصية ، وباب في فضل التعفف ، ليكون خاتمة لإرادتنا وآخر كلامنا الحضي على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك مفترض على كل مؤمن . لكننا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة في درج هذا الباب الذي هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مبادئها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدّم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده . فاختلف المساق في أبواب يسيرة ، والله المستعان » (٨٣) .

يقول ابن حزم إن صور الحب كثيرة : من الحب الإلهي إلى الهوى الذي يقصد به إلى المتاع والمسرّة (٨٤) ، ويقول إن أحداً لا يسلّم من مس الهوى ، سواء أكان من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين ، أم من كبار الرجال ودعائم الدول ، أم من الصالحين والفقهاء (٨٥) .

أما تعريف الهوى في رأي ابن حزم فهو : « اتصال بين أجزاء النفوس المنسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، [لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكرّ مقسومة ، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال] . والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، والمجانسة عمل محسوس وتأثير شاهد ... [والله عز وجل يقول : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها » ، فجعل علة السكون أنها منه] . ولو كان علة الحب حُسن الصورة الجسدية

لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ، [ونحن نجد كثيراً من يؤثر الأذنى
ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه] ، ولو كان للموافقة في الأخلاق [لما أحب
المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلينا أنه شيء في ذات النفس ، وربما كانت
الحبة لسبب من الأسباب وتلك تنفى بفناء سببها ، فمن ذلك لأمر ولّى بعد
انقضائه] ... » (٨٦) .

ويقول ابن حزم إن أهم علامات الحب هي « إدمان النظر ، والعين باب النفس
الشارع ، وهي النقطة عن سرائرها والمعبدة لضمائرها والمربة عن بواطنها .. » (٨٧) ،
ويبين الأسباب التي ينجم عنها الحب (كالرؤية في النوم أو سماع الوصف وما إلى
ذلك) ، واحدة ذات وقع شديد على الحب : هي الحب من نظرة واحدة ، كما
حدث ليوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي مع الجارية خولة ، (وقد
رويناه فيما سبق ، ف ١٥) (٨٨) . ثم يعقد فصلاً عن « أحب صفة لم يستحسن
بعدها غيرها مما يخالفها » (٨٩) يذكر فيه أن « للحب حُكماً على النفوس ماضياً ،
وسلطاناً قاضياً ، وأمرأ لا يخالف ، وحداً لا يعصى ، ومُلْكاً لا يُتعدى ، وطاعة
لا تُصرف ، ونفاذاً لا يرد ، وأنه ينقض المرر ، ويحلُّ المبرم ، ويحلل الجامد ،
ويحلُّ الثابت ، ويحل الشفاف ، ويحل المنوع » . ثم يحلل غرائب المحبين
ويقول : « لقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم ، ولا يخالف عليهم
سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم ، قد وصفوا
أحباباً لم في بعض صفاتهم ما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرضى في الجمال ،
فصارت مجرام وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلو
أو بين أو حجر أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات
ولا بان عنهم تفضيلها » . ومضى يحلل عشق الناس لهذه الصفات الخاصة ، حتى
الشائه منها ، ويقول : « وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى التعمر فما
أحب طويلاً بعد هذا » ، ثم يقول : « دعني أخبرك : إنني أحببت في صباي

جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه »^(٩٠) ، « وأما جماعة خلفاء بنى مروان ، رحمهم الله ، فكلهم محبوبون على تفضيل الشقرة لا يختلف فى ذلك منهم مختلف »^(٩١) . ثم يقول أبو محمد فى « باب الوصل » : « .. ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحفظ على اختلافها ، فما للدنو من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول النية ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروح على المال ، من الموقع فى النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع وحلول المجر حتى يتأجج عليه الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتنصرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غيب القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خريير المياه المبخلة لأفانين النوار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحرقن بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه وُحُدت غرائزه وتقابلت فى الحسن أوصافه .. »^(٩٢) .

ويذكر ابن حزم صوراً متعددة للهوى العذرى ، والحب فى هذه الصور كلها إنما هو عاطفة نبيلة رفيعة . ويقول إن هناك وجوهاً كثيرة للتنوع بالحب ، منها : الاطمئنان على سلامة الحبيب (وهو أمر سيرده دانتى عندما يتحدث عن سلامة بياتريس) ، ويقول حيناً : « وما يدخل فى هذا الباب شيء رأيته ورآه غيرى معى ، أن رجلاً من إخوانى جرحه من كان يحبه بمديّة ، فلقد رأيته يقبل مكان الجرح ويندبه مرة بعد مرة »^(٩٣) . ويذكر حيناً آخر كيف يقنع الحب بتقبيل التراب الذى وطئه قدم الحبيب ، ويقول : « وأخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوماً فى بعض التبرعات ماشياً وامرأة خلفه تنظر إليه ، فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلمس الأرض التى فيها أثر رجله »^(٩٤) (وهو أمر سيفعله فيما بعد شاعرنا المبدع ماثياس Macias) . وينشد ابن حزم فى

هذا المعنى الأبيات التالية على لسان تلك التي قبلت موطئ قدم الحبيب :

يلوموننى فى موطئ خُفِّه خطا ولو علموا عاد الذى لام يحسد
 فى أهل أرض لا تجود سحابها خذوا بوصائى تستقلوا وتحمدوا
 خذوا من تراب فيه موضع وطئه وأضمن أن المحل عندكم يبعد
 فكل تراب واقع فيه رجله فذاك صعيد طيب ليس يحسد
 كذلك فعل السامرى وقد بدا لعينيه من جبريل إثر مجد
 فصير جوف العجل من ذلك الثرى فقام له منه خوار ممد^(٩٥)

ثم يقول إن « مزار الطيف » فى النوم هو الدواء والشفاء لكل محب مهجور قد تطاول غمه ، أو لمن عدا عادى المنون على محبه ، فإذا كان راضيا عنا زارنا طيفه فى النوم . ومزار الطيف — على قصر مداه ووقوعه فى جانب الوم — إنما هو شىء يخصنا ، وعن طريقه نرى من غالم الموت بمن نحب ، ونستعيد لذاذات العيش التى ذهبت بها صروف الزمان ، ويخيل إلينا أننا نفسى أن من نحب قد مضى وواراه التراب^(٩٦) .

ومن أحسن فصول الكتاب إبداعا الفصل الذى يدور حول السلو ، فهو يصور لنا الموت القاسى الذى لا يرد فى صورة هى أقوى من الحب نفسه . والسلو أمر يُعَاتَب فيه أو يُصَفَّح عنه حسب أسبابه ، فإذا كان سببه الإعراض ومجرد الرغبة فى التبديل فهو مذموم مستنكر ، وأما إذا كان سببه الفراق الذى لا حيلة فيه أو البعد المحتوم عن الحبيب (كما حدث لابن حزم فى هواء بإنسانة مجهولة) ، أو جفوة الحبيبة أو خيانتها ، فلا لوم فيه . وإذا كان الدافع إليه أمر فوق طاقة المحبين ، كالموت أو البعد الطويل ، فلا عتب فيه على المحبين كذلك .

ويروى ابن حزم حكايات كثيرة عن الشهادة فى سبيل الموى ، فيذكر لنا أخبار ناس مانوا إذ فقدوا الحبيب ، أو لأنهم لم يستطيعوا البوح بما ضمته جوانحهم . ومن أغرب هذه الحكايات قصة رجل أندلسى « باع جارية كان يجد بها وجداً

شديداً لفاقة أصابته من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بآئها أن نفسه تتبعها ذلك التبع . فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسى تخرج ، فأبى إلى الذى ابتاعها منه وحكمه فى ماله أجمع وفى نفسه ، فأبى عليه . فتحمل عليه بأهل البلد ، فلم يسعف منهم أحداً ، فكاد عقله أن يذهب ، ورأى أن يتصدى إلى الملك . فقعرض له وصاح ، فسمعه فأمر بإدخاله ، والملك قاعد فى علية له مشرفة عالية ، فوصل إليه فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحه وتضرع إليه ، فرق له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر ، فقال له : « هذا رجل غريب وهو كما تراه ، وأنا شفيعه إليك » فأبى المبتاع وقال : « أنا أشد حباً لها منه ، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا فى أسوأ من حالته » ، فرام به الملك ومن حواليه من أموالهم فأبى ، ولج واعتذر بحبته لها . فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسماع قال للأندلسى : « يا هذا ، مالك بيدي أكثر مما ترى ، وقد جهدت لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك ، وأنه يخشى على نفسه شراً مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك » ، فقال له الأندلسى : « فالى بيدك حيلة ؟ » فقال له : « وهل لها هنا غير الرغبة والبذل ؟ ما أستطيع لك أكثر » . فلما يئس الأندلسى منها جمع يديه ورجليه وانصب من أعلى العلية إلى الأرض ، فارتاع الملك وصرخ فابتدر إليه الغلمان من أسفل ، فقضى أنه لم يتأذى فى ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك فقال له : « ماذا أردت بهذا ؟ » فقال له : « أيها الملك ، لا سبيل لى إلى الحياة بعدها » ، ثم هم أن يرمى نفسه ثانية فمنع ، فقال الملك : « الله أكبر ، قد ظهر وجه الحكم فى هذه المسألة » . ثم انفت إلى المشتري فقال له : « يا هذا ، إنك ذكرت أنك أودُّ لها منه ، وتخاف أن تصير فى مثل حاله » ، فقال : « نعم » . قال : « فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وفاه ، وأنت قم فصحيح حبك وترام من أعلى هذه القصة كما فعل صاحبك ، فإن مت

فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هي في يدك ، ويمضى صاحبك عنك . وإن آيت نزعُ هذه الجارية منك رغماً ودفعها إليه . فتمنع ثم قال : « أترأى ! » ، فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحت رج القهقري ، فقال له الملك : « هو والله ما قلت » . فهمم ثم نكل ، فلما لم يُقدم قال له الملك : « لا تتلاعب بنا . يا فلان ! خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض » . فلما رأى العزيمة قال : « أيها الملك ، قد طابت نفسي بالجارية » ، فقال له : « جزاك الله خيراً » ، فاشتراها منه ودفعها إلى صاحبها وانصرفا ^(٩٧) .

وكتاب ابن حزم هذا يقدم لنا تفاصيل عظيمة القيمة عن حياة الأندلسيين في بيوتهم خلال القرن الحادى عشر ، فهو يصور لنا المآسى التي كانت تحدث في بيوت المسائير خفية تحت سُترشقي على أيدي « بعض صنوف النساء ، كالطبيبة والحجامة والسرافة والدلالة والماشطة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصانع في المنزل والمنسج وما أشبه ذلك » ^(٩٨) . ويحدثنا بقصص المحبين ذوى الحيلة والابتكار أو المستهترين والأنذال ، ويذكر كيف أن سيدة من شريقات أهل قرطبة قضت ليلة كاملة متدثرة بملابس بعلمها المتوفى ، ويحدثنا عن المنصور بن أبى عامر في علاقاته بمن كان يهوى من النساء ، فيذكر أنه كان ملولاً من النساء « يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحقيق به من الاغتمام والمم ما يكاد أن يأتى عليه ، حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القنادر . فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً منها ، فيبيعها بأوكس الأثمان . هذا كان أكثر دأبه حتى أتلّف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً ... ولقد مات من محبته جوارٍ كن علقن أوهامهن به ، فخانن فيما أمّله منه فصرن رهائن البلى وقتلن الوجد » ^(٩٩) .

ويروى لنا كذلك كثيراً من مآسى الروائيين (بنى أمية) ، ويذكر كيف أن بعضهم قضى نحبه شهيد الهوى . والكتاب إلى ذلك حافل بالمعلومات القيمة

عن حياة ابن حزم نفسه ، نعرف منها شيئاً من أخلاقه وما عرض له من الحب ، ونلم بالكثير عن أصحابه ووقائع حياته السياسية . كل هذا يضمه « طوق الحمامة » إلى جانب تحليل عاطفة الحب وما يتصل بها تحليلاً نفسياً لطيفاً ، فضلاً عما يضمه الكتاب من مقطعات شعر ابن حزم الجميل ، وقد تحدثنا عنه فيما سلف (ف ١٩) .

هذا ، ويحدثنا الحميدى — وكان تلميذاً لابن حزم وشديد الصلة به — عن « ديوان » يجمع شعر ابن حزم ، وقد ضاع هذا الديوان . وأورد السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (٢٠ ، ص ١٨٤) نص قصيدة لابن حزم — في سياق كلامه عن رسالة بعث بها إمبراطور الروم نقفور فوكاس إلى الخليفة المهدى يذم فيها الإسلام — وقصيدة ابن حزم هذه أقرب إلى أن تكون مديحاً للإسلام منها إلى نقض النصرانية .

ف ٧٥ — مدرسة ابن حزم :

ولم تلبث طريقة ابن حزم — بعد تطبيقها على علوم الدين والفقه — أن أصبحت مذهباً قائماً بذاته حل محل المذهب الظاهري ، وكون أتباعه فرقة عرفت « بالحرزية » ، نذكر من رجالها ممن أخذ عن ابن حزم مباشرة صاعداً الطليطلى (ف ٧٦) ، والفقهاء المحدث ابن عبد البر (ف ١٢٠) ، وأبا النجاة سالم بن أحمد بن فتح القرطبي (توفي ١٠٦٨/٤٦١) الذي ارتفع بنفسه عن طريق الدراسة من رقاء بسيط إلى كاتب أمير ، وقد اجتهد في إذاعة نسخ مؤلفات ابن حزم ، والحميدى المحدث المؤرخ ، وشريح بن محمد بن شريح الرعيى المحدث (٤٥١ — ١٠٥٩/٥٣٩ — ١١٤٤) ، وأبا محمد بن العربي والد الفقيه المعروف أبي بكر بن العربي .

وقد انتقل مذهب ابن حزم إلى المشرق وذاع بين أهله ، وأثنى أبو حامد الغزالي على بعض كتبه^(١٠٠) ، واختصه الجغرافى المؤرخ ياقوت الحموى بترجمة

طويلة وافية . أما في المغرب والأندلس فإننا نجد طائفة كبيرة من المؤلفين حماة مؤلفاتهم طابع « المذهب الحزمي » ، ومن أولئك محمد الأنصاري الحوذي ، وأبو بكر ابن باشر الأنصاري ، وخضر بن محمد بن عمر التجيبي وغيرهم . ونصادف كذلك خصوصاً المذهب ابن حزم وطريقته ، ومن أولئك الفقيه الأشعري أبو بكر ابن العربي ، وأبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد اليابري^(١٠١) وغيرهم كثيرون .

وقد مال محمد بن تومرت مهدي الموحدين إلى مذهب ابن حزم ، إذ وجد فيه ما يؤيد دعوته . ووصل نفر من فقهاء الحزمية إلى كبار المناصب ، ومن أولئك الفقيه الغرناطي أبو سليمان بن حوط الله ، وقد ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة ، وعلى بن عبد الله بن يوسف بن خطاب الماعفري قاضي إشبيلية ، والحافظ أبو بكر بن سيّد الناس خطيب مسجد تونس ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل المعروف بابن الرومية^(١٠٢) النباقي الإشبيلي المعروف ، وأبو الخطاب بن دحية الذي أنشأ له سلطان مصر « الكامل الأيوبي » مدرسة الحديث الكاملية ليقري الطلاب فيها . ومن أتباع المذهب الحزمي -- أو الآخذين بناحية منه -- محي الدين بن عربي (ف ١١٣) ، والفيلسوف ابن رشد (ف ١٠٨) .

وقد أسرع المذهب الحزمي إلى الزوال بعد انقضاء أمر الموحدين ، ولم نعد نجد من أتباعه خلال القرن الثالث عشر الميلادي إلا عدداً قليلاً من الناس ، مثل أثير الدين أبي حيان النحوي (ف ٦٠) ، وأحمد بن صابر القيسي الشاعر وكان كاتباً للأمير أبي سعيد فرج وهو ابن محمد بن نصر أول سلاطين بني الأحمر .

وفي مصر نشهد آخر مظهر لوجود المذهب الحزمي ، فقد اجتهد أحد البرهان (٧٠٣ - ٨٠٧ / ١٣٠٤ - ١٤٠٥) في إحياء معالم ذلك المذهب على غير جدوى ؛ ومن أثنى عليه تقي الدين المقرئ (٧٦٥ - ٨٤٥ / ١٣٦٤ - ١٤٤٢) ، وعبد الوهاب الشعراني الصوفي المشهور (المتوفى سنة ٩٧٢ / ١٥٦٥) ، ونشهد في

مراكش شيئاً شديداً بذلك في تضاعيف الحركة السياسية العنيفة التي أثارها أبو عبد الله محمد الأندلسي نزول مراكش على أيام مولاي عبد الله الغالب (٩٦٤ - ٩٨٠ / ١٥٥٧ - ١٥٧٣) ؛ وقد مات أبو محمد الأندلسي على يدي خليفة مولاي الغالب ، وهو الشريف المتوكل ، إذ صلبه على باب داره ؛ ومات المتوكل نفسه ميتة شعبة ، إذ قتل أثناء هزيمة « القصر الكبير » Alcàzarquivir وهلك معه في نفس الموقعة حليفه سياستيان ملك البرتغال .

ف ٧٦ - أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد

الطليطلى (٤٢٠ - ٤٦٢ / ١٠٢٩ - ١٠٦٩) :

ولد في المرية وسكن قرطبة ، وكان تلميذاً لابن حزم ، وقد ولي قضاء طليطلة ليحيى بن ذي النون ، وهو مشهور بمؤلفه التاريخي « طبقات الأمم » (طبعة الأب لويس شيخو الكرملي في سنة ١٩١٢) ، وهو موجز للتاريخ البشري . درس صاعد في كتابه هذا أم (أجناس) البشر ، كالفرس والكلدانيين واليونانيين (الإغريق) والروم والقبط (المصريين) والهنود وأهل الصين . « وهذه الأمم — على كثرة فرقتهم وتخالف مذاهبهم — طبقتان : طبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف ؛ وطبقة لم تُعن بالعلم عناية تستحق بها اسمه أو تعدّ من أهله ، فلم تنقل عنها فائدة حكمة ولا رويت لها نتيجة فكرة . فأما الطبقة التي عنيت بالعلوم فتبانية أم : الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب ، وأما الطبقة التي لم تُعن بالعلوم فبقية الأمم بعد من ذكرنا من الصين وبأجوج ومأجوج والترك وبرطاس والسريير والخزر وجيلان وطبلشان ومدقان وكشك والصقالبة والبرغز والروس والبرجان والبرابر ، وأصناف السودان من الحبش والنوبة والزنج وغانة وغيرهم » ^(١٠٣) .

ثم يوجز بعد ذلك تاريخ كل أمة من أمم الطائفة الأولى ، ويعدد مزايا

أهلها ، ويذكر ما برز فيه أهلها من أصناف العلوم ، ومن ظهر فيها من الأعلام في كل فن . وقد أثنى جايانجوس على الجزء الذي تحدث فيه صاعد عن اليونان والرومان ، لكونه صادراً عن مؤلف مفكر عربي ، فهو يدلنا على ما عرف العرب من علوم هاتين الأمتين^(١٠٤) .

وقد احتفظ لنا المقرئ كذلك فيما أورده من « ذيل ابن سعيد على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس » مؤلفاً باسم « كتاب التاريخ » وضعه أبو جعفر ابن عبد الحق الخزرجي « بدأ فيه من الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن . وقال ابن غالب صاحب « كتاب فرحة الأنفس » عن الخزرجي أنه فارقه سنة ٥٦٥ (١١٦٩ م) » (*) .

ف ٧٧ — تواريخ الدول :

حظيت دول الطوائف التي قامت بعد انتشار الخلافة الأموية الأندلسية بعناية نفر من المؤرخين ، فانصرفوا إلى ذكر أخبارها . فكتب ابن معمر (عبد الرحمن بن محمد ، ويكنى أبا الوليد ، توفي سنة ٤٢٣/١١٣١) تاريخاً « للدولة العامرية إلى آخرها »^(١٠٥) ، وكذلك صنف حسين بن عاصم (المتوفى سنة ٤٤٩/١٠٥٨) كتاب « المآثر العامرية » في سيرة المنصور محمد بن أبي عامر وغزواته وأوقاتها^(١٠٦) . وكذلك أشاد بأعمال المنصور نظماً أحمد بن دراج القسطلي (المتوفى سنة ٤٢١/١٠٣٠) وعبد الملك بن مروان الجزيري^{(*) (١٠٧)} .

وقد كتب محمد بن يوسف الشلبي (عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين) تاريخاً لبني عباد أصحاب إشبيلية ، وعنى أبو بكر بن اللبانة الداني صديق المعتمد بجمع أشعارهم .

وعند ما خلع المرابطون عبد الله بن بلسكين — حفيد باديس بن زيري —

(*) نفع ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(*) عدلت هذه الفقرة بعض الشيء .

عن عرشه ونفوه إلى المغرب ، عكف على تدوين مذكراته وجعل عنوانها « التبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة » ، سجل فيها بيده تاريخ بنى زيرى فى الأندلس تسجيلا فريدا صادرا عن رجل منهم ، وأورد فيه من الملاحظات الدقيقة والمعلومات القيمة ما يندر أن نجده فى أثر آخر من آثار التاريخ الإسلامى (١٠٧) .

* * *

٣ — عصر المرابطين والموحدين

ابن صاحب الصلاة — بنو سعيد : على بن
سعيد المغربى — عبد الواحد المراكشى وغيره
من المؤرخين المراكشين — النورى

لم يخرج هذا العصر مؤلفات ذات شأن فى التاريخ ، وإن كان أهله قد خلفوا لنا عددا طيبا من معاجم التراجم ؛ ثم إن القليل من المؤلفات التاريخية التى تنسب له المزاج إلى هذا العصر قد ضاع معظمه ، ولا نظفر بمؤرخ ذى أهمية إلا فى العصر الذى تلاه ، عصر انهيار سلطان المسلمين من الجزيرة انهيارا متصلا واضحا ، هنالك نلقى ابن سعيد المغربى .

ف ٧٨ — ابن صاحب الصلوة ، عبد الملك بن محمد بن على بن إبراهيم

أبو مروان الباهلى :

تحدثنا المراجع أن ابن الصيرفى (أبا بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى الغرناطى المتوفى سنة ٥٥٧/١١٧٤) كاتب الأمير المرابطى أبى حامد بن تاشفين (٥١٩ — ٥٣٠/١١٢٦ — ١١٣٦) كتب كتابا فى « أخبار دولة لموتونة » (١٠٨) ، وأن أبا الحسن السالمى — الذى يشير ابن الأبار إلى كتاباته كثيرا — كتب كتابا فى « أخبار الفتنة الثانية بالأندلس » روى فيه أخبار الصراع بين المرابطين والموحدين ، وبدأ من سنة ٥٣٩/١١٤٤ ورتبه على السنين ،

وبلغ به سنة ١١٥٣/٥٤٧ . ولكننا لم نعثر إلى الآن على هذين الكتابين ، وكذلك ضاع كتاب في « فضائل أهل المغرب » لليسع بن عيسى بن حزم الغافقي (المتوفى سنة ١١٧٩/٥٧٥) . وهو من أهل بلنسية وأصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة ، يكنى أبا يحيى ، وله تأليف سماه « المغرب في محاسن المغرب » ، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية ، بعد أن وصل إليها من الأندلس سنة ١١٦٤/٥٦٠^(١٠٦) . وكذلك ضاع كتابان آخران لأبي القاسم بن البراق الوادي آشي في « تاريخ الأندلس » و « تاريخ معاوية » ومُدحة في النبي (صلم) . وليست هذه الكتب كلها بذات أهمية كبيرة ، وأهم منها كتاب ابن عبد الملك ابن صاحب الصلاة البرجي المتوفى سنة ١١٨٢/٥٧٧ المسمى « المن بالامامة على المستضعفين » ، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام المهدي وتاريخ الموحدين » في تاريخ المرابطين والموحدين ، ولدينا الجزء الثاني منه ويبدأ بأخبار ثورة محمد بن سعد بن مردانيس على الموحدين في مرسية وشرق الأندلس في سنة ١١٥٩/٥٥٤ ، وينتهي في سنة ١١٨٤/٥٨٠ . [وقد هيا هذا الجزء للطبع الأستاذ إميليو غرسية غومس] ، وأسلوب ابن صاحب الصلاة رشيق ، وقد أجمع كتاب المسلمين على القول بأن كتابه هذا من أحسن ما كُتب في تاريخ المرابطين (والموحدين) وقد اعتمد عليه من أتى بعد ابن صاحب الصلاة من المؤرخين^(١٠٧) .

ف ٧٩ — بنو سعيد :

عنى بنو سعيد بالأدب وظهر من بينهم كثير من أهله ، وقد ألمنا فيما سلف بذكر أبي جعفر بن سعيد صاحب حفصة الركونية (ف ٤٠)^(١١١) ، ومن أهل الأدب من بنى سعيد أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (المتوفى سنة ١٢٤٢/٦٤٠) ، وكان جماعة للكتب وبلغ من شغفه بها ما حكاها ابنه علي بن سعيد من أنه بعد أن ولاء ابن هود الجزيرة الخضراء ، « أعلمه شخص أن عند أحد

النسب بين إلى بيت نباهة كرايس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها الذين تحتوى عليهم دولة بنى عبد المؤمن ، فأرسل إليه راغباً في استعارتها فأبى وقال : « على يمين ألا يخرج من منزلي » وقال : « إن كانت له حاجة يأتي على رأسه » ، وكان جاهلاً ، فلما سمع والدى ضحك وقال : « سرى إليه » فقلت له : « ومن يكون هذا حتى نمشى له على هذه الصورة ؟ » فقال : « إني لا أمشي له ، ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكرايس أشعارهم وأخبارهم . أنراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أفنت أن أمشي إليهم ؟ » ، قلت : « لا » ، قال : « فإن الأثر ينوب عن العين » . فشينا إلى منزل الرجل فوالله ما أنصفنا في اللقاء ، فلما قضينا منها الغرض صرفها إليه والدى وشكره وقال : « هذه فائدة لم أجدها عند غيرك فجزاك الله خيراً » ، ثم انفصل وقال : « ألم تعلم يا بنى أنى سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية ؟ وإن هذا والله أول السعادة وعنوان نجاحها . » (١١٣)

[وحكى ابنه على بن سعيد عنه أيضاً قائلاً : « وما شاهدته من مجائبه أنه عاش سبعا وستين سنة ، ولم أره يوماً يتخلى من مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده ، حتى أيام الأعياد لا يخليها من ذلك . ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب فقلت له : « ياسيدى ، أفى هذا اليوم لا تستريح ؟ » فنظر إلى كالمغضب وقال : « أظنك لا تغلح أبداً ! أترى الراحة في غير هذا ؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ، ولوددت أن الله يضاعف عمرى حتى أتم كتاب المغرب على غرضى » ، قال : « فأتار ذلك خاطرى أن صرت مثله لا ألتذ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن ، ولولا ذلك لما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه »] (١١٣)

وقد اشترك بنو سعيد في تأليف كتاب « المغرب » ، وهو إكمال لما أرادته الحجارى عند ما كتب كتابه « المسهب » وهو وضع تاريخ كامل للأندلس . وبدأ بذلك منهم عبد الملك بن سعيد (المتوفى سنة ٥٦٠ / ١١٩٤) ، ثم تابع عمله ابنه محمد (٥١٩ - ١١٢٥ / ٥٨٩ - ١١٩٣) وأبو جعفر أحمد (المتوفى سنة

(١١٦٣/٥٥٩) ثم موسى بن محمد بن سعيد (المتوفى سنة ١٢٤٣/٦٤٠) وأمنه آخرهم
وواسطة عقدهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (٦٠٩ - ١٢١٣/٦٧٣ --
١٢٧٤).

وقد ولد أبو الحسن علي بن سعيد المغربي فيما بين سنتي ١٢٠٨/٦٠٥ و ٦١٠/
١٢١٤ في قلعة يَحْصُب Alcalá la Real^(١١٤)، ودرس اللغة والشعر على أبي علي
الشلويني وأبي الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهم في إشبيلية، ثم رحل إلى المشرق
في صحبة والده للحج. وتوفي أبوه سنة ١٢٤٣/٦٤٠ بالإسكندرية، فذهب ابن سعيد
إلى القاهرة وأقام بها إلى سنة ١٢٤٧/٦٤٤؛ ووفد على مصر في ذلك الحين
كمال الدين عمر بن محمد بن أبي جرادة - المعروف بابن العديم - فاتصل به علي
ابن موسى، وحبيب إليه ابن العديم الرحلة معه إلى حلب؛ وزار في رحلته تلك
دمشق والموصل والبصرة وأرجان، يقرأ على الشيوخ والفقهاء ويطلع على الكتب،
ثم حج إلى بيت الله الحرام وعاد إلى مصر فالترب. وفي سنة ١٢٥٤/٦٥٢ نجده
في تونس حيث طال مقامه فيها ودخل في خدمة أميرها أبي عبد الله المستنصر
الحنفي (٦٤٧ - ١٢٤٩/٦٧٥ - ١٢٧٦)، ثم رحل إلى المشرق مرة أخرى
(١٢٦٧/٦٦٦) حيث أدركته المنية في دمشق سنة ١٢٧٤/٦٨٥.

والاسم الكامل للكتاب المعروف بالمغرب هو «كتاب فلك الأرب، المحيط
بجلي لسان العرب»؛ وينقسم إلى كتابين كبيرين: «المغرب في حلي المغرب»،
و «المشرق في حلي المشرق»^(١١٥). والأول تاريخ للمغرب والأندلس فيما بين
سنتي ٥٢٩ و ١١٣٥/٦٤٠ و ١٢٤٣، وقد أكثر المؤرخون من النقل عنه، وكان
يقع في خمسة عشر مجلدا لم يبق لنا منها إلا العاشر والحادي عشر وموضوعهما
جغرافية الأندلس وضفة نواحيها، وقد احتفظ لنا المقيى بهذا الجزء. أما بقية
ما بين أيدينا من هذين الجزئين من موسوعة بني سعيد، فتوجد مخطوطة بداز
الكتيب المصرية بخط علي بن سعيد نفسه، وقد نسخت منها صورة توجد

في مكتبة مجمع التواريخ الإسباني في مدريد ، وهي أوراق متناثرة في غير نظام تدور حول المغرب ومصر . ثم عثر معهد المخطوطات التابع للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية في القاهرة على قطعة جديدة من « المغرب » ضمت نحو ٢٣٠ ورقة منه ، اتضح أنها جزء من مخطوطة القاهرة ، وقد جمع هذه الأوراق كلها ورتبها الدكتور شوقي ضيف واستطاع أن يتبين النظام العام لهذا الكتاب ، وإليك طرفاً من كلام الدكتور ضيف في تقديمه للجزء الذي نشره من « المغرب » (*) :

« من يرجع إلى مقدمة « المشرق في حلى المشرق » يجد على بن سعيد يوضح منهج التأليف فيه وفي المغرب بقوله : « كل من التصنيفين مرتّب على البلاد ، متى ذكر بلد ذكرت كورته ، وأتكلّم عليه وعلى كل كورة منه . . . وأبتدئ بكروسي مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [على] من إعلام بمكانها من الأقاليم ومن بناها وما يحف بها من شهر أو منزه أو خاصة معدنية ونباتية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التي لا يجب إغفالها . ثم نأخذ في الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهي خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللقيف . [والأربع الأولى] مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطوط المذكورة ، ولها تفسير تقف عليه في مواضعه . وطبقة اللقيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أي صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله ، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون [مثل] الأحماض » .

« وهذا المنهج العام لتأليف « المشرق والمغرب » جميعاً طبقه على بن سعيد على هذا النص الخاص بالأندلس تطبيقاً دقيقاً ، فبدأ بالحديث عن الأندلس وخصائصها وفضائلها ، ثم خرج إلى كور الأندلس كورة كورة . وقد سمى هذا القسم كله الخاص بالأندلس « كتاب وثني الطرُس في حلى جزيرة الأندلس » . ثم رجع فقسم

(*) عدلت هذه الفقرة بما يناسب ما وصلنا إليه من العلم بكتاب المغرب . وأحيل القارئ على صلة كتابنا هذا للإلمام بأعمال بن سعيد عامة .

الأندلس إلى غرب ومؤسطة وشرق ، وأفرد لكل قسم كتابا : فسعى كتاب الغرب « كتاب العُرس في حُلَى غرب الأندلس » ، وسعى كتاب المؤسطة « كتاب الشفاء اللُؤس في حلى مؤسطة الأندلس » ، وكتاب الشرق « كتاب الأانس في حلى شرق الأندلس » . ثم أخذ يقسم كل كتاب من الكتب الثلاثة إلى ممالك ، وقسم كل مملكة إلى كورها المختلفة ، ووزع على ذلك كله الطبقات الخمس التي سماها في مقدمة « المُشرق » . وكل مملكة ، بل كل كورة ، بل كل بلدة في كورة ، نجد لها كتاباً مفرداً . وقد قسم الغرب إلى سبع ممالك ، وعبارة أخرى إلى سبعة كتب تدور حول : قرطبة ، وإشبيلية ، وبَطْلَيْوُس ، وشَلْب ، وباحّة ، وأشبونة ، ومالقة .

« وعلى نحو تقسيمه للغرب إلى كتب سبعة باعتبار الممالك ، قسم المؤسطة إلى أربعة كتب تدور حول : طُلَيْطَلَة ، وجَيّان ، وأَلْبِيرَة ، والمَرِيّة .
« وقسم الشرق باعتبار ممالكه إلى ستة كتب تدور حول : تَدْمِير ، و بَلَنْسِيّة ، وطَرْطُوشَة ، والسّهْلَة ، وجهات الثغر ، وميورقة .

« وكل كتاب لمملكة من هذه الممالك ينقسم بدوره إلى كتب باعتبار كورها المختلفة ، فالكتاب الأول الخاص بمملكة قرطبة ينقسم إلى أحد عشر كتاباً تدور حول كور : قرطبة ، و بَلَنْكُونَة ، والقَصِير ، والدَوْر ، ومُرَاد ، وكُزْنَة ، وغافق ، وإسْتَجَة ، والقَبْرِيّة ، وإسْتَبَة ، واليُسَانَة .

« وكل كتاب من هذه الكتب الخاصة بالكور ينقسم بدوره إلى كتب باعتبار البلدان المهمة في الكورة ، فكتاب الكورة القرطبية مثلاً ينقسم إلى خمسة كتب تدور حول : حضرة قرطبة ، وحضرة الزهراء ، وحضرة الزاهرة ، ومدينة شُعْنَدَة ، وقرية وَزَغَة » ^(١١٦) .

وتحدثنا الكتب عن مصنفات أخرى لعلى بن سعيد ، عن علماء عصره وشعرائه ، مثل : « رايات المبرزين » ، و « عنوان المرقصات » ، و « القتطف من

أزاهم الطرف » ، وقد سبقت الإشارة إليها . وكتب في تاريخ غير العرب وشعوب المغرب ، وألف كذلك تاريخاً لأهل بيته سماء » الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد «^(١١٧) ، ووضع كتاباً عن شعراء الأندلس في القرن السابع الهجري سماء » الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة » ، وجمع أشعاره في ديوان رتبته على حروف المعجم «^(١١٨) (انظر نموذجاً منها في فقرة ٤٠) ، ومجموعات من مختارات النظم والنثر منها : « عدة المستنجز وعقلة المستوفز » ، و « القدح الملقى في التاريخ الجلى » . أما في الجغرافية فقد وضع مختصراً جغرافياً بطليموس اعتمد عليه أبو الفدا في تأليف جغرافيته ، هذا بالإضافة إلى المقدمة الجغرافية العامة لكتابه المشرق والمغرب ، وهي المعروفة « بفلك الأرب » وقد ذكرنا أن المقرئ احتفظ لنا بجزء منها في صفة الأندلس . وألف كذلك كتاباً عن رحلته الثانية إلى المشرق ، وآخر عن رحلته إلى مكة هو « النفحة المسكية في الرحلة المسكية »^(١١٩) .

وقد أضاف ابن سعيد إلى رسالة ابن حزم ذيلاً لم فيه بمن لم يذكرهم ابن حزم من علماء الأندلس وأدبائه ومؤلفاتهم في كل فن «^(١٢٠) ، احتفظ لنا المقرئ بنصه في النفع (ف ٧٢) .

وقد نقل المقرئ من مؤلفات ابن سعيد فقرات طوالاً أوردها في « نفع الطيب » ووصفه ابن الخطيب بقوله : « على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنفانة بن قيس بن الحصين العنسي المدلجى . من أهل قلعة يحصب ، غرناطة قلعي ، سكن تونس ؛ أبو الحسن بن سعيد . وهذا الرجل وسط عقد بيته ، وعلم أهله ، ودره قومه . المصنف الأديب ، الرجال الطرفة الأخبارى ، العجيب الشأن في التجول في الأقطار ، ومداخلة الأعيان ، والتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والغربية »^(١٢١) .

وقد اعتمد ابن سعيد في جغرافيته على مؤلفات الإدريسي ونقل منها ، وأضاف إليها مواقع البلاد من بروج الفلك ، وهو يذكر جغرافياً آخر أخذ منه يسمى « ابن فاطمة » ، ولكن ابن سعيد يخلط بين الأقاليم بعضها وبعض في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى يشوب أوصافه الخطأ . وقد وثق أبو الفدا أول الأمر ثقة تامة فيما كتبه ابن سعيد عن المغرب والأندلس ، ثم تبين أخطائه فيما بعد فعاد إلى ما أخذ عنه وصححه وأسقط بعضه عند ما صاغ كتابه الصياغة الأخيرة . وهذا العيب يشوب كذلك ما كتب ابن سعيد في التاريخ ، إذ أننا نراه يقبل الخرافات والأساطير ويرويها على أنها من التاريخ ، ولكن كتبه كانت على الجملة مورداً خصباً لغيره ممن أتى بعده . وقد أثنى عليه أبو الفدا والمقرئ وابن خلدون وابن خلكان والمقرئ وغيرهم ^(١٢٢) .

ف ٨٠ — عبد الواحد المراكشي :

إذا ذكرنا العلاقة الوثيقة التي ربطت بين تاريخي الأندلس والمغرب خلال العصر للوحدى ، لم يكن من الغريب أن نلم هنا بذكر عبد الواحد المراكشي (٥٨١ — ١١٨٥/٦١٨ — ١٢٢٢) .

ولد عبد الواحد في سراكش ^(١٢٣) ، ودرس في فاس حيث توثقت صلاته بأبي بكر بن زهر وبأحد أبناء ابن طفيل ، ثم وحل إلى الأندلس ودرس على كبار شيوخه وأساتذته . وعندما حل بإشبيلية قدمه صديق له يسمى محمد بن الفضل إلى السيّد إبراهيم بن أبي يعقوب يوسف — وكان آنذاك للخليفة الموحدى الفاضل ووالياً لإشبيلية — وأصبح عبد الواحد من أصحابه وجلاّسه . وكان الرجل — سواء في سراكش أم في الأندلس — على صلات بأهل الدولة ، ومن ثم أتاحت له فرص ممتازة مكنته من كتابة تاريخه البديع المسمى « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » وقد فرغ منه سنة ١٢٢٤/٦٢٠ (نشره دوزي سنة ١٨٤٧ ^(١٢٤)) ، وأعاد طبعه في سنة ١٨٨١ ، وترجمه قانيان إلى الفرنسية ونشر

الترجمة في الجزائر في سنة ١٨٩٣) ؛ وهو يضم طائفة قيمة من أخبار الموحدين ، شهد بعض حوادثها بنفسه أو رواها عن شهدائها . أما ما ساقه من أخبار المغرب والأندلس — من الفتح الإسلامي إلى قيام الدعوة الموحدية — فقد نقله عن مؤلفات لأحميدى ، لا نجدها بين أيدينا الآن .

وهناك مؤرخ مغربي آخر أفادتنا كتاباته عن تاريخ الأندلس فائدة كبرى ، وهو أبو العباس أحمد بن عذارى المراكشي ، من أهل القرن الثالث عشر الميلادي . وليس بين أيدينا من المعلومات عنه إلا نزر يسير ، وكتابته المسمى « البيان المغرب » ذو قيمة تاريخية كبرى ، إذ يحوى فقرات هامة من مؤلفات أخرى عيئت بها يد الزمان (١٢٥) .

وقد عثرنا على كتاب مخطوط في التاريخ يحمل عنوانا ظاهرا خطأ ، وهو « كتاب التواريخ المعروف بابن بسام » ، وعُرف في المؤلفات الأوروبية باسم « الكتاب المجهول المؤلف » الموجود في كوينهاجن ومدريد ، لأن نسخته الأولى وجدت في كوينهاجن ، ثم عملت منه نسخة خطية حفظت في مكتبة مدريد . وقد اطلع عليه دوزي وأحجم عن نشره ، لكثرة ما يرد فيه من الأخطاء والتعريفات ، ورأى أنه لا بد أن يكون جزءاً من البيان المغرب لابن عذارى ، ثم عفى به بستانورن وأبان قيمته التاريخية وقرر أن مؤلفه مراكشي ، وقام بنشره أميروزيو هويثي في مدريد سنة ١٩١٧ ، والكتاب يدور حول تاريخ الموحدين ، ويضم معلومات قيمة عن تاريخ الغرب الإسلامي في هذه الفترة .

وكان بروفنسال قد عثر على قطعة كبيرة من البيان تصل تاريخ الأندلس من حيث وقف به دوزي ، فنشرها في سنة ١٩٣٠ على أنها الجزء الثالث من البيان ، ثم تبين له بعد ذلك أنها قطعة من الجزء الثاني من ذلك الكتاب بحسب برنامجها كما رسمه ابن عذارى ، (انظر التعليق) .

وقد عثر ليثي بروفنسال وكولان على جزءين كبيرين من البيان المغرب يضمنان

الجزء الأول والثالث من الكتاب كله ، وقد قال ابن عذارى في فاتحة كتابه أنه قسم كتابه على ثلاثة أجزاء مرتبة كما يلي :

الأول : يتناول أخبار إفريقية ، من الفتح الإسلامى إلى ابتداء دولة المرابطين .

الثانى : أخبار الأندلس ، من الفتح الإسلامى إلى دخول المرابطين فى سنة ٤٧٨/١٠٨٥ .

الثالث : أخبار المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، وتاريخ الحفصيين فى إفريقية ، وبنى هود وبنى نصر فى الأندلس . ثم ألم بذكر الدولة المرينية .

وقال ابن عذارى فى نهاية برنامج الكتاب : « اختصرت من ذلك كله ما اشتهر أسره وأمكننى ذكره ، وذكرت من البيعات والرسائل السلطانيات ، وما تعلق بها وكان بسببها من الوقائع للذكورات والأُمور المشهورات ، وذلك إلى انقضاء الدولة الموحدية واستيلاء الإمارة اليوسفية المرينية على حضرتهم المراكشية على مرور السنين إلى عام ٦٦٧ » .

وقد تبين من الاطلاع على المجلد الثانى الذى عُثر عليه ، أن الكتاب الذى ذكرناه ، المعروف إلى الآن « بالكتاب المجهول المؤلف ، الموجود فى كوينهاجن ومدريد » ، إنما هو نسخة مختصرة بعض الشيء من ذلك الجزء الثالث من البيان المغرب . ومن الطريف أن دوزى رأى ذلك بمجرد اطلاعه على المخطوط منذ قرن كامل ، مما يعطينا نموذجاً من حصافة هذا العلامة النابه .

هذا وقد أشار ابن عذارى إلى أنه كتب كتاباً آخر اسمه « البيان المشرق فى أخبار المشرق » ، ولكننا لم نعثر عليه .

وقد بدأ ليثى بروقنسال وكولان فى نشر « البيان » من جديد ، وظهر منه الجزء الأول الخاص بتاريخ المغرب إلى نهاية الزيريين (لايدن ١٩٤٨) (*) .

(*) عدلت النص هنا بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا عن البيان المغرب .

ومن المؤلفات الهامة في تاريخ المغرب والأندلس كتاب « روض القرطاس في أخبار ملوك الغرب ومدينة فاس » ، الذي ينسب تارة إلى أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع — كاتب خامس سلاطين بني مرين — وتارة أخرى إلى مؤلف يسمى أبا محمد صالح بن عبد الحليم النرناطى . وقد نشره تورنبورج في أبسال سنة ١٨٤٣ مع ترجمة لاتينية ، ونقله إلى الفرنسية بوميه Beaumier سنة ١٨٦٠ ، وإلى الإسبانية أمبروزيو هويثى Ambrosio Huici في سنة ١٩١٨ ؛ وهو مؤلف قيم يضم معلومات عظيمة القيمة عن تاريخ الغرب الإسلامى كله ، منذ قيام دولة الأدارسة واختطاط مدينة فاس إلى عصر المؤلف (١٣٦) .

ولا يفوتنا هنا الإلمام بما كتبه أحمد بن عبد الوهاب النويرى عن تاريخ المغرب والأندلس ، فقد اختصهما بجزئين من « نهاية الأرب » حافلين بالمعلومات . والجزءان اللذان يدوران على تاريخ المغرب والأندلس من موسوعة هذا المؤلف المصرى هما الخامس والسادس من قسم التاريخ ، وقد جمع فيهما قطعاً من مؤلفات تاريخية ضاعت ، وصاغها في أسلوب معتدل لا تحيز فيه . وقد نشر هذين الجزئين وترجمهما إلى الإسبانية م . جيسپار ريميرو Mariano Gaspar Rimerro في سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ ، (ولدينا في دار الكتب المصرية مخطوطة جيدة تضم هذين الجزئين) .

٤ — مملكة غرناطة

ابن الخطيب وابن خلدون

تبلغ كتابة التاريخ في الغرب الإسلامى خلال القرن الرابع عشر الميلادى ذروتها عند علمين من أعلام الفكر العربى ، هما ابن الخطيب المؤرخ المتفنى والسياسى الأديب ، وابن خلدون مبدع فلسفة التاريخ .

ف ٨١ — ابن الخطيب^(١٢٧) :

لم يفتُر شغف الناس بالدراسات التاريخية خلال العصر الأخير من عصور تاريخ الأندلس الإسلامي ، وهو عصر مملكة غرناطة . ومن الأدلة البينة على ذلك قيام أبي عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم الرندي^(١٢٨) (٦٥٩ — ٧٠٧ / ١٢٦١ — ١٣٠٨) بكتابة مؤلف في « تاريخ الأندلس » ضاع فيما ضاع من ثمرات الفكر الأندلسي ؛ واهتمام ابن الفارق (المتوفى سنة ٦٩٠ / ١٢٩١) بتصنيف مؤلف في « تاريخ بني نصر » ، وهو كتاب سطا عليه أبو الحسن علي بن عبد الله ابن الحسن الجذامي النباهي (المتوفى حوالي سنة ٧٩٤ / ١٣٩١) في كتابه المسمى « نزهة البصائر والأبصار » الذي فرغ من تأليفه سنة ٧٨١ / ١٣٧٩ ، وقد أكثر لا فوينت الكاتارا Lafuente Alcántara من الاعتماد على هذا الكتاب .

يبد أن ابن الخطيب يغطي على أولئك جميعاً بشخصيته وسيرته ومؤلفاته . ولد لسان الدين محمد بن الخطيب في لوشة في ٢٥ رجب سنة ٧١٣ / ١٦ نوفمبر ١٣١٣ ، ودرس في غرناطة وشغف بالعلوم الطبية والفلسفية وأقبل يدرسها على الطيب المشهور يحيى بن هذيل . وظهرت براعته في قرص الشعر ، وتبجلى علمه الواسع بالأدب العربي في سنه الباكورة ، وقد سقنا فيما سلف نموذجاً من شعره (ف ٤٥) . ثم أخذ ينظم القصائد في مديح يوسف الأول بن الأحمر ، وطار شعره كل مطار ، وأعجب به أبو الحجاج يوسف (الثاني) بن محمد (الخامس) بن الأحمر (٧٩٣ — ٧٩٧ / ١٣٩٠ — ١٣٩٤) وأدخله في خدمته ، وعمل مع الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الجياب الأنصاري الغرناطي « شيخ المدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية » ، كما يقول ابن خلدون . وعندما مات ابن الجياب في طاعون سنة ٦٧٣ / ١٣٤٨ حل ابن الخطيب محله في الوزارة .

ووصل ابن الخطيب — بفضل مهارته وذكاؤه — إلى الخطوة من نفس السلطان

أبي الحجاج يوسف ، فأطلق يده في اختيار عمال الدولة على هراء . وجمع ابن الخطيب من ذلك ما لا كثيراً . وعندما قُتل يوسف خلفه ابنه محمد السابع الملقب بالغنى بالله ابن يوسف الثاني دون البلوغ في جمادى الثانية ٧٤١/٢٩ نوفمبر ١٣٤١ ، ققام مولاه الحاجب رضوان بتصرف أمور المملكة ، وأقام ابن الخطيب نائباً له « وجعله رديفاً له في أمره ومشاركاً في استبداده معه » . وبلغ من علو منزلة ابن الخطيب واقتداره على القريض في هذه الحقبة من تاريخه ، أنه وفد مع نفر من وزراء الأندلس وفتحائها على السلطان أبي عفان الحفصي أمير تونس طالباً منه مدداً للحرب النصارى في الأندلس ؛ يقول ابن خلدون : « واستأذنه [ابن الخطيب] في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه فأذن ، فأنشد وهو قائم :

خليفة الله ، ساعدَ القدرُ علاك ، ملاح في الدجى قرُ
ودافعتْ عنك كفتُ قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهُك في النابثات بدر دجى لنا ، وفي المحل كُفك المطر
والناس طرّاً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ماله وطر
ومن به — مذ وصلت حبلهم — ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهتمهم بأنفسهم فأوفدوني إليك وانتظروا (*)
فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له في الجاوس ، وقال له قبل أن يجاس :
ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم . ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه . (*)

وعندما قام الرئيس أبو عبد الله محمد [ابن عم السلطان] بعزل محمد الخامس ، وكبس الحاجب رضوان في بيته فقتله ، أقام مكانه إسماعيل (الثانى) بن أبي الحجاج يوسف الثانى . « وأحسن السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب

(*) كذا في الأصل .

(*) ابن خلدون (برواية المقرئ) : فتح (القاهرة : ١٩٤٩) ج ٧ ، ص ٢٧ .

ناجياً إلى وادي آش وضبطها ، وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب ، وقد كان متواهاً أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس . واعتقل الرئيسُ القائمُ بالدولة هذا الوزيرَ ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه . وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس — وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم — فزين له استقدام هذا السلطان الخلوع من وادي آش ، يمدّه زبوناً على أهل الأندلس ، ويكف به عادية المرشدين هناك » ، فبعث من قدم به . ولحق به ابن الخطيب « فأرغد السلطان عيشه في الجراية والأقطاع » ثم استيأس واستأذن السلطان في التجوال بجهات مراکش والوقوف على أعمال الملك بها ، فأذن له وكتب إلى العمال بإتخافه فتباروا في ذلك وحصل منه على حظ ... واستقر [ابن الخطيب] بسلاً منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالمدونة » .

ثم عاد السلطان محمد (السابع) الغنى بالله الخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ١٣٦٢/٧٦٣ ، فاستقدم ابن الخطيب « وأعادته إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله » . وأخذ ابن الخطيب يدبر على منافسه عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة ، حتى نكبه السلطان وأباه وإخوته سنة ١٣٦٣/٧٦٤ ، « فخللا ابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة وخلط بنيه ببندهائه وأهل خلوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه » . واجتهد ابن الخطيب من ناحيته في إيقاع النفرة بين السلطان وأهل حاشيته ، واستبد بأمر الدولة ، ومضى يقسم الحظوظ بين الناس على هواء ، فكثرت خصومه واشتدت السمايات حوله .

« وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب ، لما بان له عن البطانة من القدر فيه والسعاية به ، ورى بما تحيل أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه

عليه ، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور وسار إليها في لة من فرسانه ، وكان معه ابنه عليّ — الذي كان خالصة للسلطان — وذهب لطيطه ، فلما حاذى جبل الفتح — فرضة الجاز إلى العدو — مال إليه ، وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه . وقد كان السلطان عبد العزيز [المريني] قد أوعز إليه بذلك ، وجهاز له الأسطول في حينه ، فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامثال الأوامر ؛ ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة وأخرج لوقته كتابه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكل حالات الأمن والتكرمة » ، وجعل ابن الخطيب يحضه على غزو مملكة غرناطة .

وأفلحت سعايات خصوم ابن الخطيب في تغيير صاحب غرناطة عليه ، « وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة للزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه ، ورفعت إلى قاضي الحضرة [حضرة غرناطة] أبي الحسن [النباهي] فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة . وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي أبو الحسن النباهي إلى السلطان عبد العزيز [المريني] في الانتقام منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه ، فصمّ لذلك وأبى لذمته أن تخفر لجواره أن يُرد وقال لهم : « هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ أما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى » ، ثم وفر الجراية والأقطاع له ولييته ولمن جاء من أهل الأندلس في جملة » .

فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان إلى فاس ، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غاري القائم بالدولة ، فنزل بفاس واستكثر من الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس

الجنان ، وحفظ عايه التأم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى ، واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما ذكره

وما زال سليمان بن داود — رديف الوزير محمد بن عثمان في الوزارة للسلطان أبي العباس المريني في سراکش — يمتال حتى قبض على ابن الخطيب ، وكان شديد العداوة له ، وزعم أنه سيسلمه إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة . واتهم ابن الخطيب بأنه ضمن رسائله عبارة لا يرضاها الدين ، وشكوه إلى القاضي فقضى بقتله ، ولكن عبد العزيز المريني لم يسلمه على ما ذكرناه ، إذ كان يرجو أن يستفيد منه إذا ذهب يغزو في الأندلس ؛ ونجا ابن الخطيب إلى حين .

وشاء القدر أن يتوفى ناصر ابن الخطيب هذا في سنة ١٣٧٢/٧٧٤ ، وخلفه على العرش ابنه « السعيد » وكان طفلاً . واتهم الفرصة بعض زعماء بني مرين ومضوا يدبرون للوثوب بالملك الطفل والمناذاة بالأمير أحمد ابن السلطان أبي سالم وذلك بالاتفاق مع بلاط بني الأحمر ورجاله ، وتم لهم الأمر رغم مقاومة الوزير أبي بكر ابن غازي — صديق ابن الخطيب — وخلع الملك الطفل « السعيد » ونودي بأحمد ابن السلطان أبي سالم سلطاناً على دولة بني مرين في سراکش في أوائل سنة ١٣٧٤/٧٧٦ .

ولم يكد الأمر يستتب للسلطان الجديد حتى أسر بالقبض على ابن الخطيب تنفيذاً لما تم بينه وبين ابن الأحمر من اتفاق ، وكان سليمان بن داود — وزير ابن الأحمر وخصم ابن الخطيب اللدود — لا يألو جهداً في الإيقاع به ، وكانت نفس ابن الأحمر متغيرة على ابن الخطيب لما نى إليه من أنه كان يحرض السلطات عبد العزيز المريني على محاربتة . واشترك في السعي للقضاء على ابن الخطيب نفر غفير ، منهم صديقه القديم أبو الحسن النباهي قاضي غرناطة وصاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس المسمى « بالمرقبة العليا » ، وتلميذه ابن زمرك الشاعر وهو الذي ندبوه للذهاب إلى فاس للعمل على الإجهاز على ابن الخطيب ، فوجهوا إليه تهمة

الزندقة وأهانوه أمام الملأ ، وخشى الوزير سليمان بن داود أن ينجو ابن الخطيب فسارع فأمر بعض غلمانه سرا بقتله ، فخنق في محبسه سنة ١٣٧٤/٧٧٦ ودفن ، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحا ، وقد جُمعت له أعواد فأضرمت نارا فأحرق شعره واسود بشره ، ثم أعيد إلى حفرة ، وكان في ذلك انتهاء محنته . وهجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان ، واعتدوها من هنائه وعظم النكير فيها عليه « (*) » .

وقد كان البخل والطموح إلى المجد سر مأساة هذا الكاتب الممتاز ، الذي لم تنمعه ظروف حياته المضطربة من تأليف كتب بالغة الأهمية والطلاوة . [ومن الغريب أنه كان مبتلى بداء الأرق ، حتى كان لا ينام من الليل إلا شيئا يسيرا ، ولهذا لقب « بذى العمرين » لأنه أضاف بسهر الليل إلى عمره عمرا ثانيا] . وأول ما نذكره من كتبه « الإحاطة بتاريخ غرناطة » (مخطوط بمكتبة الجمع التاريخي الإسباني)^(١٢٩) ، وهو معجم أعلام جمع ابن الخطيب فيه سير النابهين من أهل مملكة غرناطة ومن وفد عليها وسكنها ، وقسمه أقساما بحسب المنصب أو بحسب ناحية الامتياز : فقسم للملوك والأمراء ، وثان للعمال ، وثالث لذوى النباهة ، كالتقصاة والمتحققين بعلوم القرآن والمحدثين والفقهاء ومن إليهم ، وأورد فيه ترجمة نفسه وذكر أسماء سبعة وثلاثين من مؤلفاته . وأسلوبه فيه مرصع فخم ، وإن كان لا يصل في هذا الباب إلى شأو ابن بسام وابن خاقان . ولهذا الكتاب « ذيل » توجد منه نسخة في مكتبة الإسكوريال . وقد قام بدر الدين البشتكى المصرى في سنة ١٣٩١/٧٩٣ باختصار « الإحاطة » في كتاب سماه

(*) تابع المؤلف سيرة لسان الدين كما رواها ابن خلدون ، فرجعت إلى الأصل وأثبت بكلام ابن خلدون بنصه .

انظر : العبر (القاهرة ١٢٨٤) - ٧ ، ص ٣١١ - ٣١٢ و ٣٢٢ - ٣٣٦ ، وانظر : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، طبعة محمد بن تاووت الطنجي (القاهرة ١٩٥١) الفهرس ، مادة ابن الخطيب ، ففيها كثير من التفاصيل .

« مركز الإحاطة » ، استبعد منه ذكر السلاطين والأمراء ولم يُبق فيه إلا على أهل الأدب . وقد صنع البشتكي مختصره هذا من نسخة أوفى من تلك التي تملكها اليوم ، ولهذا فنحن نظفر فيه بقصائد ومواد كاملة لا نجدناها فيما بين أيدينا من نسخ الإحاطة .

وقد صنف ابن الخطيب في تاريخ خلفاء المشرق والمغرب والأندلس كتاب « الحلل المرقومة »^(١٢٠) وضمنه بعض أخبار الأندلس والمغرب ، ونظم بعض أحداث هذا التاريخ في قصيدته عن التاريخ . وصنع موجزاً « لتاريخ إسبانيا » الذي ألفه الملك ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، وقد نشر هذا الموجز ونبه إليه الأب ملشيور أنطونيا في مدريد سنة ١٩٣٣ . وألف في تاريخ غرناطة وبنى نصر طائفة من السكتب منها « اللوحة البدرية في الدولة النصرية »^(١٢١) ، وهو تاريخ لبنى الأحمر سنة ٧٦٥/١٣٦٣ ، و « طرفة العصر في تاريخ دولة بنى نصر » . وحشد ابن الخطيب مادة تاريخية طيبة عن خلفاء المشرق والمغرب والأندلس في كتاب « إعلام الأعلام بمن بوع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام »^(١٢٢) (نشره ليفي بروفسال في رباط الفتح سنة ١٩٣٣) . وألف كتاب « التاج الحلى » عن أدياء الأندلس في القرن الثامن الهجري وعمل له ذيلاً عنوانه « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » ، هذا بالإضافة إلى كتاب « السكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، (وهو مخطوط بمكتبة مجمع التاريخ في مدريد) .

وصنف ابن الخطيب إلى جانب ذلك كتباً وصف فيها بعض رحلاته وضمنها معلومات قيمة عن بعض بلاد الأندلس ، وخاصة ما كان منها في مملكة غرناطة ، وأدرج في أوصاف الرحلات معلومات تاريخية طيبة ونافعة عن الأعلام والناهبين وما اتصل بعلمه من مكاتبات ، ومن هذه السكتب « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » ، وقد جعل فصوله مجالس تحدث في كل مجالس منها عن بلد من

بلاد الأندلس ومن ظهر به من المشاهير ، وكتاب « المفاضلة بين مائة وسلا »
(نشره غرسية غومس سنة ١٩٣٤) .

ومن فريد مؤلفات ابن الخطيب كتابه المسمى « ربحانة الكتاب ونجعة
المنقاب » (نشر قطعا منه جسيبار ريمرو في سنة ١٩١٦) ، وقد جمع فيه نماذج من
الترسيل المرصع المسجوع يحتذيها الكتاب في رسائل المديح والتحميدات والرسائل
الإخوانية التي توجه في التهنة بالزواج (الصداقات والبيعات) أو بحلول الربيع
أو بالنصر في الميدان أو « كتب الاستظهار على العداة والاستنجاد للعدوات » ،
و « كتب الشكر على الهدايا الواردات » ، و « تقرير المودات » ، و « التعازي
في الحوادث النايات » ، و « الشفاعات » وما إلى ذلك .

والمعلومات التاريخية التي يوردها ابن الخطيب في كتبه صحيحة دقيقة في الغالب ،
وهي مرجعنا الأوثق في معرفة تاريخ مملكة غرناطة ، ويكاد يكون آخر كاتب
عظيم أنجبه الأندلس الإسلامي (١٣٣) .

ف ٨٢ — عبد الرحمن بن فلموره (أول رمضان ٧٣٢ / ٢٧ مايو

١٣٣٢ — ٢٦ رمضان ٨٠٨ / ١٦ مارس ١٤٠٦) :

ولد ابن خلدون في تونس ، ولكن أجداده أندلسيون . وقد درس على أساتذة
أندلسيين ، وأقام في الجزيرة زمنا . ولن نستعمل في هذا المقام في سرد تفاصيل
حياته السياسية الحافلة بالأحداث (مثله في ذلك مثل ابن الخطيب) ، فقد وصل
إلى تقلد المناصب الخطيرة في بلاط تونس ، وولى منصب قاضي القضاة في القاهرة
ست مرات ، ونكتفي من هذه الأحداث بالإشارة إلى اثنين : الأول سفارته
إلى الملك پدرو القاسي في إشبيلية سنة ٧٦٤ / ١٣٦٣ في صدد تعديل شروط صلح ،
وقد أعجب به پدرو وعرض عليه أن يقيم في قشتالة ووعده لقاء ذلك أن يرد عليه
أملاك أسرته ، ولكن ابن خلدون اعتذر من عدم القبول (١٣٤) .

والثاني استعماله الحيلة مع تيمور لنك للإفلات من يده أثناء حصار دمشق .
ويصف المؤرخون ما فعله ابن خلدون في ذلك الظرف الحرج وصفا مطولا بديعا ،
ويذكرون كيف تحدث إلى طاغية التتار حديثا عذبا بليغا كله مديح وإطراء ،
فأعجب به وقرر أن يستبقه في خدمته ، فلم يرفض ابن خلدون وإنما استأذن
تيمور في أن يمضى إلى القاهرة ليعود بكتبه وأهله ، فأذن له فمضى وهو لا يكاد
يصدق بالنجاة^(١٣٥) .

وقد كان ابن خلدون رجلا حسن الهيئة معنيا بمظهره ، وكان سياسيا عاقلا
مهذب الحاشية عارفا بما ينبغي لحواشي السلاطين من أدب .

وابن خلدون مشهور بكتابه الجليل « العبر وديوان البقدا والخبر في تاريخ
العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر » (طبع في بولاق
سنة ١٨٦٧) ، وينقسم إلى ثلاثة كتب : الأول هو « المقدمة »^(١٣٦) الجليلية
المشهوره (وقد ترجمها دى سلان إلى الفرنسية ونشرها في سنة ١٨٦٨) ، ويوجز
ابن خلدون الكلام عنها في فاتحتها بقوله إنها تدور حول « العمران » ، وذكر
ما يعرض فيه من العوارض الذاتية ، من الملك والسلطان والكسب والمعاش
والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب .

والكتاب الثانى من « العبر » يدور حول « أخبار العرب وأجيالهم وأولهم
منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير
ودولهم ، مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقبط ويونان والترك
والروم » .

أما الكتاب الثالث فيتناول « أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر
أوليئهم وأجيالهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول » . وقد نشر
دى سلان هذا الجزء الثالث بعنوان « كتاب تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ، لابن
خلدون (مجلدان) وطبعه في الجزائر سنة ١٢٦٧/١٨٥١ ، ثم ترجمه إلى الفرنسية

ونشر الترجمة باسم : « تاريخ البربر Histoire des Berbères » سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثا بإشراف كازانوفا .

ويعالج ابن خلدون في المقدمة مسائل كثيرة متعددة ، تتعلق بطبائع البشر وأسباب تغيرها واختلافها ، وقيام الدول واختلاف الحضارات وما يوجب تقدمها أو تأخرها ، وهذه الفصول تكوّن في مجموعها موسوعة تُعالج الموضوعات فيها من وجهة نظر فلسفية ، لأن ابن خلدون يرى أن فن التاريخ فرع من الحكمة (الفلسفة) ، ويقول إنه « في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكاينات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، [فهو لذلك أصل في الحكمة عميق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق » [(١٢٧) .

ولابد من دراسة طبائع البشر والعمران ، حتى يستطيع الإنسان تفهم الحوادث ونقدها ، واستقصاء عللها وأسبابها ، [ويقول : « . . فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وثبّت يفرضان بصاحبها إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العنور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غناً أو سمياً ، لم يمرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوم والغلط ، سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات ، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد »] .

ويرى ابن خلدون أن السبب في نشوء العمران البشري هو « ضعف الإنسان إذا انفرد بنفسه ، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح

حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه .

« ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه — وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً — فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والمعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة ، من حداد ونجار وفاخوري . هب أنه يأكله حباً من غير علاج ، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير ، ويستحيل أن تُوفى بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القُدَر [جمع قدرة] الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف . وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ، لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها ، جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان : فقدره الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان ، وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته .

« ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان ، جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافة ما يصل إليه من عادية غيره ، وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع ، مثل الرماح التى تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائية عن الخالب الجارحة ، والتراس النائية عن البشيرات الجلسمية ، إلى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء .

فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرةً واحد من الحيوانات العجم ، سيما المفترسة . فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تنفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة ، لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها ؛ فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه .

« وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ، ولا تتم حياته ، لما ركه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ، ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح ، فيكون فريسة للحيوانات ويمارجه الملاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر . وإذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء ، والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه . فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني ، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله تعالى من اعتماد العالم بهم واستخلافه إياهم . وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم .

« وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له ، وهذا وإن لم يكن واجباً على صاحب الفن — لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم — فليس أيضاً من المنوعات عندهم ، فيكون إثباته من التبرعات .. والله الموفق بفضلته .

« ثم إن هذا الاجتماع — إذا حصل للبشر كما قرناه وتم عمران العالم بهم — فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم . وليست آلة السلاح — التي جعلت دافعةً لعدوان الحيوانات العجم عنهم — كافية في دفع العدوان عنهم ، لأنها موجودة لجميعهم ، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ، ولا يكون من غيرهم ، لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم ، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان . وهذا هو معنى الملك .

« وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان طبيعةً ولا بد لهم [أى للبشر] منها ، وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء — كما في النحل والجراد — لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنها في خلقه وجسمانه ؛ إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية ، لا بمقتضى الفكرة والسياسة : (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

« وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان — حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة بطبيعة للإنسان — فيقررون هذا البرهان إلى غايته ، وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ، ثم يقولون بعد ذلك : « وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ، يأتي به واحد من البشر ، وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ، ليقع التسليم له والقبول منه ، حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيف » .

« وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه ، إذ الوجود وحياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه ، أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحلهم على جأذته . فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى الجحوس الذين ليس لهم كتاب — فإنهم أكثر أهل العالم — ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار ، فضلاً عن الحياة ؛ وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب ، بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فإنه يمتنع . وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات ، وأنه ليس بعقل وإنما مدركة الشرع ، كما هو مذهب السلف من الأمة . والله ولي التوفيق والهداية » (*) (١٣٨) .

ويدرس ابن خلدون في مقدمته أثر الهواء والغذاء في طبائع البشر دراسة عميقة ويحللها تحليلًا طيباً ، ويدرس كذلك أدوار تاريخ الدول في أعمارها ، وخصائص المدن الكبيرة ، وعوائد الترف وما إلى ذلك . وفي المقدمة فصول عن

(*) آن المؤلف هنا يلجأ بكلام ابن خلدون ، فرأيت أن أوردته بنصه .

الإدارة والزراعة والعمارة والتجارة وصنائع النسيج والطب والغناء والكتب وعلوم القرآن وعلوم العدد والرياضة والحساب والجبر والهندسة والبصريات والفلك والصنعة والكيمياء والمنطق والنحو والأدب .

وأسلوب ابن خلدون في المقدمة غير متعادل في الفصول كلها ، وهو غني بالآراء والأفكار ، وربما كرر ما يقوله في أكثر من موضع ، مما يدل على حكمة وفهم وثيق . وله قدرة كبيرة على إصدار الأحكام العامة الجامعة ، وإليك نسوق نموذجاً من كلامه في المقدمة ، لترى كيف يعالج موضوع الفروق بين البدو والحضر . قال ابن خلدون بعد بيان هذه الفروق :

« . . . والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكّلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستنقموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيمة ، ولا ينفّرهم صيد ، فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح . وتوالت على ذلك منهم الأجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثوام ، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطليعة .

« وأهل البدو — لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب — قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سوام ، ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويقلقون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون عن المبعوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرجال وفوق الأفتاب ، ويتوجسون للنبأت والميعات ويتفردون في القفر والبيداء ، مدلين ببيأسهم واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم اليأس خلقاً والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفروهم صارخ .

« وأهل الحضر — مها خالطوم في البادية أو صاحبوم في السفر — عيال عليهم ، لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان ، حتى

فى معرفة النواحى والجهات ، وموارد المياه ومشارع السبل ؛ وسبب ذلك ما شرحناه ، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه . فالذى أَلَفَ فى الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة ، تَنَزَّلَ منزلة الطبيعة والجملة ؛ واعتبر ذلك فى الآدميين تجمده كثيراً صحيحاً ، والله يخلق ما يشاء » (١٣٩) .

(ب) التراجم وفهارس الكتب

ابن عبد البر — الحنفى — ابن الفرضى — الحجارى —
ابن بشكوال ومصادره — الضى — ابن الأبار
ومصادره — ابن فرحون — ابن خير — كتب المراجع
الخاصة التى وضعها الخزرجى وابن عفيون وابن عيشون —
القاضى عياض — ابن دحية . . الخ .

كثرت عناية الناس فى الأندلس بتصنيف معاجم الأعلام وفهارس الكتب ، وذاعت بينهم ذيوها واسعا . وهذه العناية وهذا الذبوع يدلاننا على علو مستوى المعارف واتساع آفاقها عند أهل الأندلس ، حتى مست الضرورة إلى وضع المعاجم لطوائف الرجال أو لقروء العلوم . وهذه المعاجم كلها غنية بالمادة التاريخية ، مما يدفع إلى الرجوع إليها ويُرِيدُ حاجتنا إليها يوما بعد يوم .

ولدينا مما أَلَفَ الأندلسيون فى هذا العصر معاجم أعلام من صنوف شتى: منها معاجم لأعلام الفقهاء كتلك التى وضعها ابن عبد البر ، أو لقضاة قرطبة « كتاريخ القضاة » للحنفى . وقد سبق هذا النوع من التراجم مجموعات التراجم العامة فى الظهور ، فصنفت بعد ذلك معاجم رجال جامعة ، مثل مؤلفات ابن الفرضى والحجارى وابن بشكوال والضى وابن الأبار وابن فرحون . ووضعت فهارس للكتب مثل فهرست ابن خير . وألفت كتب فى تراجم صنوف معينة من الرجال ، كالزهاد والمتصوفة والكتّاب والمحدثين والفقهاء . ومنها ما أَلَفَ فى رجال ناحية من النواحى ، كهذا الذى وُضِعَ عن علماء البيرة .

ف ٨٣ — ابن عبد البر والخشني :

تشير أقدم مؤلفات الأندلسيين إلى مؤلفات أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر النُميري ، مولى بني أمية (٣٦٨-٤٦٣/٩٧٨-١٠٧٠) ^(١٤٠) ، وقد وضع كتابا عن فقهاء قرطبة استعمله ابن القرضي ^(*) والضبي . ويشير المصنفون كذلك إلى مؤلف آخر يسمى ابن عبد البر أيضا ، ولكن نسبته الكشكيني — نسبة إلى كشكينان ، قرية في قنباينة قرطبة — (توفي ٩٥٢/٣٤١) . وقد صنف كتابا في « الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس » ، وكذلك ألف أبو الأصبح عيسى بن محمد المؤرخ (المتوفى سنة ١٠١٢/٤١٣) كتابا في « تاريخ فقهاء البيرة » ^(١٤١) .

ومن أعجب المؤرخين الذين انصرفوا إلى وضع المعاجم في طبقة معينة من الرجال أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني ، وهو قيرواني درس الشريعة في بلده ، ثم وفد على الأندلس سنة ٣١١ أو ٩٢٣/٣١٢ أو ٩٢٤ حيث تخرج على قاسم بن أصبغ [ومحمد بن عبد الملك بن أيمن وغيرها] في الفقه ، « وكان حافظا لفقه عالما بالفتيا حسن القياس » ^(*) . ثم دخل في خدمة الحكم المستنصر فولاه المواريث في بجانة وألف له كتب كثيرة عن الفقهاء والمحدثين ، وقد اشتهر اسمه بكتابه عن « تاريخ قضاة قرطبة » من الفتح الإسلامي إلى سنة ٩٦٨/٣٥٧ (نشره ريبيرا وترجمه إلى الإسبانية في سنة ١٩١٤) ^(١٤٢) . وبعد أن توفي الحكم اضطر الخشني إلى بيع العطاراة ليعيش ، وتوفي في قرطبة في صفر ٣٦١/أغسطس ٩٧١ (ويقول الذهبي إنه توفي سنة ٣٧١/٩٨١) .

يضم هذا الكتاب من الفوائد ما يجعله من أزم وأهم ما يرجع إليه لدراسة

(*) يبدو أن هنا بعض الخطأ ، لأن ابن القرضي أستاذ يوسف بن عبد البر . والسبب في ذلك ما ذكره ابن القرضي في فاتحة تاريخ علماء الأندلس من أنه قل من مؤلف لأحد بن محمد ابن عبد البر ، وهو رجل آخر غير النُميري ، كما سيحيى .

(**) ابن القرضي : علماء ، رقم ١٣٩٨ .

الحياة الاجتماعية في الأندلس من أول الفتح إلى عصر الحكم المستنصر ، ولا بد أنه ألّفه بإيحاء من الحكم . وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة « مدونة » مثل المصادر والروايات المخفوفة في ديوان الخلافة وسجلات القضاة والأوراق الخاصة لبعض الأفراد . ولا بد كذلك أنه كان يرجع إلى طائفة من الكتب ، إذ هو يشير إلى بعضها إشارات غير واضحة ، وأهم من ذلك ما أخذه من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها ، « روايات كانت ذاتة على الألسن بين طبقات أهل قرطبة ، منها ما كان يُحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات ، ومنها ما كان يتناقله الجمهور والقصاص في طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التي يمتشد فيها أصاغر الناس » كما يقول ريبيرا ، ولا بد أن هذه الأخبار كانت مما تنقله بيوت عرب الأندلس ذات النسب العربي ، وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء والفقهاء مما كان يجري في حلقات درسهم ، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السياسي والاجتماعي القائم ، ومنها ما هو صدى لما كان يتحدث به أولئك الذين يولعون بنقد رجال الدين والأتقياء ، ومنها ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها في لغتهم المعجمية الدارجة أو صياغة جديدة لها . كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف المؤلف إليها من عندياته إلا قليلا .

ويرى خليان ريبيرا أن الخشني « ليس بالمسرف في الدقة ولا بالشديد التحفظ في تقديمه لما يورد من الأخبار » ، ولكن هذا المأخذ يمس الكتاب بوجه خاص في قسمه الأول فحسب ، لأنه يقص فيه أحداثا وقعت في العصور الأولى ، وأخبارها يحيط بها الغموض ، إذ لم يكن قد بقي على أيام الخشني من ذكر أحداثها إلا نزر يسير جداً ، ومن ثم فلا غرابة أن توضع عنها أخبار مصدرها المالكيون وأصحاب المذاهب المنحرفة على السواء . ومن الأخبار الموضوعة التي قبلها الخشني ورواها تلك التي تتعلق بقضاة قرطبة الثلاثة الأول ، فقد وضعها أحمد بن فرج بن منقيل ، ورمى من وراء وضعها إلى أغراض سياسية ، وكان ابن منقيل من أتباع محمد بن

مَسْرُومَة ، أى أنه كان أندلسيا من أهل البلاد متعصبا لقومه ، وكان متصوفا يميل إلى المذاهب المنحرفة التي قال بها خصوم العرب من الأندلسيين (ولم يضعها رجل مشرقى كما قال دوزى) . وقد صدق الخشني هذه الأخبار في سهولة لأنه كان أجنبيا عن البلاد . هذا ، ونحن لا نجد ذكراً لهؤلاء القضاة الثلاثة عند ابن القوطية أو في الأخبار المجموعة أو عند ابن عذارى وابن الفرضي ^(١٤٣) .

ونحن لا نجد في تاريخ الخشني ذكراً لتدخل قوى خارقة وعوامل غير طبيعية في مجرى الحوادث ، ولا تسيطر عليه النوازع الدينية التي تستقر في الأوهام وتحيد بأصحابها عن الحكم المنزه عن الهوى ، ولا نجد فيه كذلك أثراً لعصبية سياسية ولا إغراقاً في مdahنة أهل الدولة ؛ فلم يمنعه توقيره للحكم المستنصر من أن يسوق أخباراً تشين البيت الأموى بعض الشيء . وأسلوب الكتاب قليل الجمال من الناحية الأدبية ، ولكنه عظيم الأهمية غنى بالمتعة لمن يهتم بتأمل الأحداث وكيف تجري (والسر في قلة الجمال في أسلوب الكتاب هو أنه أخبار وأقاصيص مرسلة بعضها في إثر بعض) .

وهو يعطينا صوراً صادقة « لأمرء وحكام مثل عبد الرحمن الداخل المعصبى العنيف ، وهشام الرضى الرقيق الرحيم الطيب القلب ، والحكم الربضى النشيط الحازم ... وهو يصور لنا يحيى بن يحيى الفقيه المشاور في أمور القضاة متعالياً بنفسه متعجباً في سلطانه » . وتعرض علينا صفحات هذا الكتاب صوراً لطبقات أهل الأندلس ، من قرشيين ذوى نسب وحسب يطمحون إلى السلطان وينزعون إلى الشر والتفوضى ، وأسرى منحدرة عن أصول إسبانية ، وناس من خدم القصر وغلماؤه . وفيها نرى الصقالبة والنصارى وزهاد المسلمين وأهل قرطبة وما كان يشغلهم من أمور الدنيا والدين ، وما كان يملأ قلوبهم من توقير العلم ، وما كانوا يتناقلونه من أقاصيص ونوادر .

ويقول ريبيرا : « إن كتاب الخشني يضعنا في قلب قرطبة في عصر الإمارة ،

وأخبره مصوغه في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ أو الأدب . وهو يحدثنا عن أشياء تافهة ويصور لنا مشاهد مبتذلة لا جلال فيها ولا رابط يربطها إلى غيرها ، ولكن عدم التكلف هذا يحمل في أطوائه عنصراً فنياً ، وهذه الروايات التي ترسل على عواهنها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية ، مما لا يذكره أو يعنى به غير هذا الكتاب . ومن أمثلة ذلك ما يعرفنا به من نماذج كلام الأندلسيين المسلمين من أهل قرطبة بعجميتهم .

ومن الطائفي أن نجد في هذا الكتاب مادة قيمة لدراسة نظام القضاء في الأندلس ، فهو يلقى ضوءاً كافياً على المسائل التي تتصل بتولية القضاء وعددهم وما كان يشترط فيهم من الصفات العقلية والخلقية ، ويعرفنا بأجناس القضاء (عرباً أو مولدين أو بربراً) ويحدثنا عن كفاياتهم وموازينهم في إصدار الأحكام ، ويقدم لنا مادة طيبة عن إجراءات التقاضي ونظام المحكمة وجلال منصب القضاء ، مع المقارنة بما كان عليه الحال في غير الأندلس من بلاد الإسلام .

وإليك مثلاً من أخبار ذلك « التاريخ » الذي توحى مادته بالكثير :
 « [حدثني أصبغ بن عيسى الشقاق] ، قال : كنت مقبلاً يوماً مع القاضي أحمد ابن بقي ، حتى عنّا لنا سكران يمشي بين أيدينا ، فجعل أحمد بن بقي يمسك من عنان دابته ويتفرق في سيره ، يرجو أن يغيب عنه السكران أو يحبس به فيذهب . فـسـرعا . فكان كلما تفرق القاضي وقف السكران ، حتى لم يكن للقاضي بد من أن يقرب منه وينظر إليه . قال أصبغ : وكنت أعرف كراهية القاضي أن ينتشب في مثل هذا ، ورقة قلبه أن يفرح أحداً بسوط ، فقلت في نفسي : ليت شعري كيف تصنع في مثل هذا يا ابن بقي ؟ فلما قربنا من السكران عطف على القاضي فقال : « مسكين هذا السائر ، أراه نجبول العقل ! » قال ، فقلت له : « بليّة عظيمة ! » ، فجعل يستغفر الله ويسأله أن يأجر المصاب في عقله . »

ف ٨٤ -- ابن الفرضي — البخاري :

يبد أن النماذج الحقّة لكتب التراجم إنما تاتمس عند من جودوا هذا الفن

بعد ذلك ، ومنهم أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي بن الفرضي (٣٥١ — ٤٠٣/٩٦٢ — ١٠١٢) من أهل قرطبة ، وكان فقيها محدثا خطيبا جاعا للكتب حتى صار له منها خزانة عامرة . وقد حج إلى مكة ، ويبدو أنه تعلق بأستار الكعبة وسأل الله الشهادة . وعندما عاد إلى الأندلس تقلد قضاء بلنسية ، وقد أجاب الله دعاءه فاستشهد على يد البربر إذ اقتحموا عليه بيته عندما دخلوا قرطبة (في ٧ شوال ٤٠٣/٢٠ أبريل ١٠١٢) ونهبوها وقتلوا من وقع في يدهم من أهلها دون رحمة . وقد وجد ابن الفرضي ميتا في داره وقد تغير ، ودفن دون غسل أو كفن أو صلاة بمقبرة مؤتمرة بعد أيام من قتله .

وكان ابن الفرضي شاعرا يقول أبياتا تفيض بعاطفة دينية زهدية ظاهرة (انظر صلة ابن بشكوال ، ص ٢٥٠) ، وقد ضاع بعض ما ألفه من الكتب مثل « تاريخ شعراء الأندلس » . وتذكر المراجع أنه « جمع كتابا حفيلا في أخبار شعراء الأندلس ، وجمع في المؤلف والمختلف كتابا حسنا ، وفي مشقه النسبة كذلك ، إلى غير ذلك من جمعه وتصنيفه » . ولكن شهرته طارت بمعجم أعلامه المسمى « تاريخ علماء الأندلس » (المجلدان ٧ و ٨ من المكتبة العربية الإسبانية Bibliotheca Arabico Hispana ، وقام على نشره كوديرا في سنتي ١٨٩١ و ١٨٩٢) ، وهو أقدم معجم رجال عام بين أيدينا « بلغ فيه الغاية والنهاية من الحفل والإتقان » . ويدل على حفله وإتقانه ما يذكره المؤلف نفسه من أنه سأل عن هذا التاريخ أو ذاك ، أو قرأ شاهد قبر ليتحقق بنفسه من شيء ، بل إنه يقرر صراحة في كثير من المواضع أنه لم يجد شيئا يستطيع أن يطمئن إليه ^(١٤٤) .

وقد رجع ابن الفرضي إلى مؤلفين سابقين عليه نذكر منهم ابن الطحان وهو أبو الأصمغ عبد العزيز بن علي الإشبيلي (٣٠٤ — ٣٨٣/٩١٧ — ٩٩٤) من أهل إسنجة ، وعلي بن معاذ بن سمان بن مومي (٣٠٧ — ٣٨٩/٩١٩ — ٩٩٨) . وقد وضع أحد تلاميذ ابن الفرضي وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن مهلب ^(١٤٥) (المتوفى سنة ٤٥٠/١٠٥٨) ذبلا على « تاريخ » أستاذاه اسمه « تعليق

على تاريخ ابن الفرضي واستلحاق « . وألف رشيد الدين محمد بن إبراهيم الطوطا (المتوفى سنة ١٣١٨/٧١٨) رسالة سماها « درر النور في شعراء الأندلس » وصل بها تاريخ شعراء الأندلس لابن الفرضي ^(١٤٦) .

وفي هذا الطراز من معاجم الرجال ينبغي أن يُعَدَّ الكتاب الذي صنفه أبو عاصم محمد بن يحيى بن محمد خليفة بن يَنْقُ (٤٨٢ — ٥٤٧/١٠٨٩ — ١١٣٢) وعنوانه « كتاب في ملوك الأندلس والأعيان والشعراء بها » ، ويقول عنه ابن الأبار في التكملة : « ومال إلى الآداب والعربية والعروض فحُمد في ذلك وبلغ الغاية من البلاغة في الكتابة والشعر ، ولقى أبا العلاء بن زهر فلازمه مدة وأخذ عنه علم الطب » .

وقد عرفنا أبا محمد عبد الله بن إبراهيم بن وَزْمُرُ الحجاري الصنهاجي (٤٩٩ — ٥٤٩/١١٠٦ — ١١٥٥) عن طريق [حلي بن سعيد وابن الخطيب و] القرى ، وقد ولد الحجاري في وادي الحجارة ونشأ فيها ، ثم رحل عنها إلى شلب عندما سقطت في يد ألفونسو السادس . ثم قصد قلعة يحصب وأقام عند صاحبها عبد الملك بن سعيد ، ثم انصرف إلى قصد ابن هود بروطة بعد أن أعذله [ابن سعيد] حلي التحول عنه فقال : « النفس بوقاة ، ومالي بغير الغرب طاقة » ، فضى محبوب الأقطار من جديد واستقر في « روطه » حيث أقام ردحا من الزمن في ظل أميرها أحمد بن عماد الدولة بن هود . قال علي بن سعيد : « لما قصد الحجاري روطه تحرك أميرها المنتصر أحمد بن عماد الدولة بن هود لفرزو البشكنس فهزم جيشه ، فكان الحجاري بمن أسرتك الوقعة فاستقر أسيراً ببسقاية ، فبقى يحرك ابن هود بالأشعار ويحنه على تخليصه من الإسرار فلم يُجد ذمامه ولا تحرك له اهتمامه » . والصحيح أن الذين أسروه كانوا النبريين أهل نبره Navarra سنة ٥٣٢/١١٣٨ ، وظل في أسرهم حتى فداءه عبد الملك بن سعيد « فكان طليق آل سعيد » .

وقد ألف الحجاري — إلى جانب بعض قصائد مديح قالمها فيمن أغلوه برعايتهم من الأمراء — كتابا في التاريخ يقع في ستة أجزاء هو « المسهب في

غرائب المغرب» ^(١١٧)، يتحدث فيه عن فضائل أهل المغرب والأندلس، ويسوق فيه تراجم النابهين من أهله — من لدن الفتح إلى سنة ١١٣٥/٥٢٩ — مع نماذج من شعرهم وأطراف تاريخية وبعض معلومات جغرافية. وقد صاغ بنو سعيد هذا الكتاب في قالبه النهائي [كما سبق أن ذكرنا]، واسترشد به القرى في تأليف «نفع الطيب».

ف ٨٥ — ابن بشكوال ومصادره :

وابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود، ٤٩٤/١١٠٠ — ٥٧٨/١١٨٢) ولد في قرطبة [ولكن أصله من شرّين Sorrien بحوز بلنسية]، وكان تلميذا لابن رشد ونفر آخر من الشيوخ والأساتذة، «وأُسند عن شيوخه نيفاً وأربعائة كتاب بين صغير وكبير، أخذ منها عن ابن عتاب وحده فوق المائة». [وعمر طويلاً فرحل الناس إليه وأخذوا عنه وانتفعوا به ورغبوا فيه] «وولى [ابن بشكوال] ياشبيلية قضاء بعض جهاتها لأبي بكر بن العربي، وعقد الشروط ببلده ثم اقتصر على إسماع العلم، وهذه الصناعة كانت بضاعته، والرواة عنه — لملو الإسناد وسعة المسموع — لا يحصون كثرة»، كما يقول ابن الأبار في التكملة. وقد ألف ابن بشكوال خمسين تأليفاً في أنواع مختلفة، أجملها كتاب «الصلة»، وهو ذيل أكل به تاريخ علماء الأندلس لابن الغرضي، وضمّنه سير طائفة من الأئمة والمحدثين والفقهاء وأهل الأدب من الأندلسيين (نشره كوديرا في سنة ١٨٨٣). ويقول في حقه ابن الأبار «إنه منتهى ما يصل إليه الواصل في معاجم التراجم»، وقال: «سلم له أكفاؤه بكفايته فيه، ولم ينازعه أهل صناعته الأفراد به ولا أنكروا مزية سبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستفادة منه، وقد حمّله عنه أبو العباس بن العريف الزاهد من يعدد في شيوخه... فأسست فائدته وعظمت منفعة، وهو كتاب في فنه خطير القيمة ضروري الاستعمال، لا يستغنى أهل الفقه عن التبليغ به والنظر فيه والاحتجاج منه».

هذا ومن المعروف أن ابن الأبار وضع ذيلاً لصلة ابن بشكوال سماه « كتاب التكملة لكتاب الصلة » سار فيه على نهجه . وكتاب ابن بشكوال عظيم الفائدة لا يستغنى عنه أهل الأدب ، ولا يكاد الإنسان يجد فيه خطأ^(١٤٨) .

[وقال ابن الأبار بصدد كلامه عن « الصلة » : « وأغلاطه الواقعة له فيه قليلة ، وقد نبهت على أكثرها في كتابي هذا (التكملة) ، واستدركت ما أغفل وتمت ما نقص ، وجودت ما اقتضب مما وقع إلى وترجع لدى ، ولذلك ما أعدت هنا جملة من ذكر هنالك ، مؤتسيا بفعله في اسمه ، من كتاب ابن الفرضى »] .

ومن هذا الطراز من المؤلفات « المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدي » لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن الأبار (نشره كوديرا وريبيرا في سنة ١٨٨٥) ، وهو يضم تراجم أصحاب أبي علي الحسين بن محمد بن فيث بن حيون ابن سكرة الصدي (١٠٥٢/٤٤٤ — ١١٢٢/٥١٦) . [وقد كان القاضي أبو علي ابن سكرة الصدي السرقسطي — يعرف بابن الدراج — شيخاً جليلاً سمع منه ودرس عنه الكثيرون . قال ابن الأبار في فاتحة كتابه : « سَمَوْتُ إلى جمع أسمائهم وإيراد آيات تم عن مكانهم ، مما أمكن ذكره من أبنائهم مبايهاً بهم وبمعصم ، ومنافياً أبا الفضل بن عياض في جمع شيوخه وحصرهم . . . وم (أى من ذكرهم في هذا المعجم) بين حاجب في الأخذ عنه راغب ، وتلميذ على السماع منه راتب . ومن شيوخه من شذ ، واعتقده في وقته الفذ ، فكشب عن روايته ، وخصه بمحظ من عنايته ، ذلك لاختصاصه بقرية هي ماهي ، ورتبة في العدالة بلغت التناهي » ، أى أن الكتاب يصور لنا مدرسة كاملة بأستاذها وشيوخه وتلاميذه ورواته والآخذين عنه] .

وقد أورد ابن الأبار في بعض كتبه ذكراً لمؤلفات أخرى لابن بشكوال مثل « أخبار قضاة قرطبة » ، و « كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » ، وهو مختصر لكتاب « المنتخب من تاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطليطلة » لأبي جعفر

ابن مطاهر، وكتب أخرى كثيرة لا نعرف منها إلا أسماءها^(١١٩).

وكان ابن بشكوال موصوفاً «بصلاح الدخلة وسلامة الباطن، وصحة التواضع وصدق الصبر للإحليلين إليه، ولين الجانب وطول الاحتمال في الكبرة للإسماع رجاء المثوبة» كما يقول ابن الأبار، وكل هذه الخلال الجميلة تتجلى في كتاباته.

وقد اعتمد ابن بشكوال في تصنيف الصلة على تاريخ للأندلس لأبي بكر حسن بن مفرج بن حماد بن الحسين المعافى المعروف بالقُبَشِي القرطبي (٣٤٨/٩٥٩ - ٤٣٠/١٠٣٨) الذي يبدو أنه ألف كتابه على غرار مصنف آخر في نفس الموضوع لابن عفيف (أبي عمر أحمد بن محمد ٣٤٨/٩٥٩ - ٤٢٠/١٠٢٨)^(١٢٠) عنوانه «الاحتمال في تاريخ أعلام الرجال في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء». ونظر ابن بشكوال كذلك إلى معجم رجال لأبي عمر بن مهدي (٣٩٤/١٠٠٣ - ٤٣٢/١٠٤٠)، وإلى كتابين آخرين في الأدب والتاريخ لابن زروقة^(١٢١) (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، المتوفى سنة ٤٣٥/١٠٤٣)، وكتاب آخر لابن عابد^(١٢٢) (أبي عبد الله محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٤٣٩/١٠٤٧).

ورجع ابن بشكوال كذلك إلى كتاب «طبقات النحويين واللغويين» لابن خزرج الفقيه (أبي محمد عبد الله بن إسماعيل بن محمد ٤٠٧/١٠١٦ - ٤٧٨/١٠٨٥)^(١٢٣)، وإلى تاريخ لفقهاء طليطلة وقضاةها لأبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري بن مطاهر (أو المطاهر) المتوفى سنة ٤٨٩/١٠٩٥^(١٢٤)، وإلى كتاب التاريخ الذي صنّفه ابن مُدَيِّر المتوفى سنة ٤٩٥/١١٠١^(١٢٥)، ورجع كذلك إلى مصنف أبي طالب المرواني (عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ ٤٥٠/١٠٥٨ - ٥١٦/١١٢٢) المسمى «عيون الإمامة ونواظر السياسة» عن النابيين من أئمة الأندلس وحكامها.

وقد أكل فوات «الصلة» مؤلفون آخرون، متبعين طريقة ابن بشكوال، م: أبو بكر محمد بن عبد الله سفيان بن سيد الله التيجي (المتوفى سنة ٥٥٨/١١٦٢) — وهو من أهل قونكة — بكتابه «مجموع في رجال الأندلس»، ويوسف

ابن أبي عبد الله بن عبد الله بن سعيد بن أبي زيد اللّرمي (المتوفى سنة ٥٧٥/ ١١٧٩) ، وهو من أهل ليريه ويسمى أيضاً أبو عمر بن عياد ، يقول ابن الأبار في ترجمته في التكملة إنه « كان قد شرع في تذييل كتاب ابن بشكوال » ، وأنه « ألف كتاباً في طبقات الفقهاء من عصر ابن عبد البر إلى عصره » . ووضع ابن الزبير كذلك ذيلاً على صلة ابن بشكوال سماه « صلة الصلة » (نشره ليثي بروفنسال سنة ١٩٣٨) ، ووصل كتاب ابن بشكوال أيضاً أبو القاسم بن حبيش (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف الأنصاري ٥٠٤ / ١١١١ - ٥٨٤ / ١١٨٨) ، وهو شيخ الضبي وكان في المرية عندما استولى عليها ألفونسو السابع سنة ١١٤٧ . وقد انتفع ابن الأبار بكتاب اقتضب فيه ابن حبيش صلة ابن بشكوال ، [وقال في حقه : « وكان آخر أئمة المحدثين بالمغرب ، والمسلم له في حفظ أغربة الحديث ولغات العرب وتواريخها ورجالها وأيامها ؛ لم يكن أحد من أهل زمانه يجاريه في معرفة رجال الحديث وأخبارهم ومولدهم ووفياتهم »]^(١٥٦) .

الضبي ، (أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عاسرة ، توفي سنة ٥٩٩/ ١٢٠٢)^(١٥٧) : يتلب أنه ولد في بليدة بَلَش Véléza ، ودرس في لورقة ، وطاف بنواح كثيرة من الأندلس وإفريقية ، وأقام زمناً طويلاً في مرسية ، وكان سريع الكتابة حتى لقد نسخ موطأ مالك في ثمانية أيام . وكان محدثاً بارعاً حسن القراءة ، ذا قدرة عظيمة في فهم المتن وشرحها ، وهو مشهور بكتابه « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » (نشره كوديرا وريبيرا سنة ١٨٨٥) ، وهو ذيل على « جذوة المقتبس » للحميدي (ف ٦٦) وتصويب لما وقع فيها من أوهام . وقد وقف الحميدي بتراجه في الجذوة عند من توفوا سنة ٤٤٩/ ١٠٥٨ ، وفيها — أي في الجذوة — نقص وغلط كثير . وقد وصل الضبي بكتابه إلى عام ٥٩١/ ١١٩٥ ، وهو يضم تراجم — موجزة في الغالب — لمن وفد على الأندلس وأقام بها من المشاركة ، ومعلوماته التي يوردها تتفق في بعض الأحيان مع ما يذكره ابن

بشكوال ، مما يدل على أن مادته التاريخية عظيمة يوثق فيها . وقد أوجز الضبي في فاتحة كتابه تاريخ الأندلس ، وأهم ما في هذا الموجز ما يذكره عن القاضي ابن حمدين [محمد بن علي بن حمدين « الناصر بقرطبة والمدعوله بأكثر قواعد الأندلس »] ، والمستنصر بن هود ، اللذين حكما قرطبة في سنتي ٥٣٨ و ٥٣٩ / ١١٤٤ و ١١٤٥^(١٥٨) .

ف ٨٦ — ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الفضايعي ،

١١٩٨ / ٥٩٤ — ١٢٣٨ / ٦٣٥) :

ربما كان ابن الأبار المؤرخ أكبر مصنف لمعاجم الرجال أطلعه الأندلس ، وأصله من بلنسية . وكان كاتباً لأمرأاء الموحدين في الأندلس ، ومنهم أبو زيد بن السيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن بن علي ، وقد رافقه عندما خرج إلى قلعة أيوب ، إما لكي يرتد عن الإسلام ويدخل النصرانية ، أو لكي يتحالف مع جaque الفاتح Jaime el Conquistador ملك برشلونة على زيان بن مردانيش الذي خلعه من إمارته . ومهما يكن من الأمر فقد ترك ابن الأبار أبا زيد ودخل في خدمة زيان بن مردانيش ، فجعله كاتباً له . وعندما حاصر النصارى بلنسية ، أرسله ابن مردانيش إلى تونس ليستصرخ أبا زكريا بن حفصون لإنقاذ بلنسية ، « فحضر مجلس السلطان ، وأنشأ قصيدته على روى السين يستصرخه ، فبادر السلطان بإغااثتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات والكسبي ، فوجدوهم في عسرة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية » (*) .

وبعد أن استغلب القطلانيون بلنسية في سنة ١٢٣٣ / ٦٣٥ ، هاجر ابن الأبار من الأندلس واستقر في تونس ، وحظي عند أبي زكريا ، « ورشحه لكتبة علامته في صدور رسائله ومكتوباته ، فكتبها مدة . ثم إن السلطان أراد صرفها

(*) القرى : أزهار الرياض (القاهرة ١٩٤٢) ص ٣ ، ص ٢٠٥ . والفقرات التي بين أقواس من ترجمة ابن الأبار في نفس المرجع ومي أغني ما لدينا .

لأبي العباس الغساني — لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرق ، وكان آثر عنده من المغربي — فسخط ابن الأبار أنفة من إيثار غيره عليه ، وافقات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه — لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه — وأن يبقى موضع العلامة منه لكتابتها ، فخامر بالرد ، ووضعها استبداداً وأنفة ، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد ميمثلاً :

اطلب العز في لظى وذو الذل ولو كان في جنان الخلود

ففى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته ، ثم استعتب السلطان بتأليف رقعة إليه عد فيها من عوتب من الكتاب وأعتب وسماء « إعتاب الكتاب » ، أى من شملهم غفوا أسرائهم بعد غضب ومحنة^(١٥٩) .

وعفا عنه أبو زكريا وأطلق سراحه ، فلما مات أبو زكريا وخلفه المستنصر رفع من شأنه وأحظاه واتخذ وزيراً . بيد أن طموح ابن الأبار ونزوعه إلى الاستبداد برأيه أرقاه في البلاء من جديد ، وأضرت به سعايات خصومه — ومنهم الغساني — فكان في ذلك حتفه ، إذ اتهم بالاشتراك في التديير على الأمير ، ووجد في أوراقه بيت من شعره يقول فيه :

طفا بتونس خلفٌ سموه ظلماً خليفة

فخنق عليه المستنصر « وأمر بامتحانه ثم قتله ، فقتل طعنا بالرماح وسط محرم سنة ثمان وخمسين ، يعنى وستائة ، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماءه ودواوينه وأحرقت معه » (*) .

ومن مؤلفاته التاريخية الهامة كتاب « الحلة السَّيِّءَة » ، وهو مجموع من تراجم الأسراء [والكبراء]^(*) الذين نغلموا القريض ، مع نماذج من ثمرات قرائحهم

(*) للقرى : أزهار ، ٣ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(**) الزيادة هنا من كلام دوزى في القطعة التي نصرتها من الحلة ، والمؤلف هنا يأخذ عنه .

(مخطوط في مكتبة الإسكوريال ، ونشر أجزاء منه دوزى ومولر) . وقد قال دوزى في حقه : « وإننى لأقر دون أى مبالغة ، وفي صراحة وبساطة ، أنه كتاب عظيم القيمة . فهو يضم قدراً لا يحصى من المعلومات عن شتى الموضوعات ، ويصور تاريخ المغرب والأندلس على نحو يدعو إلى الإعجاب ، وهو ينفرد بكثير مما يحدثنا به فلا نظير له في موضع آخر » (١٦٠) .

وقد خلف لنا ابن الأبار معجم تراجم آخر ، هو « المعجم في أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى بن سكرة » ، طبعه كوديرا في سنة ١٨٨٤ ؛ وكتاب « التكلة » لصلوة ابن بشكوال (نشره كوديرا في سنتي ١٨٨٨ — ١٨٨٩ ، ونشر الأركون وجندالد بالثيا قطعة أخرى منه في سنة ١٩١٥ ، ونشر ألفريد بل ومحمد بن شنب قطعة ثالثة منه في سنة ١٩٢٠) .

وإلى جانب « إعتاب الكتاب » الذى ذكرناه ، وضع ابن الأبار كتاباً شبيهاً به هو « تحفة القادم » (مخطوط بمكتبة الإسكوريال ونشر في مجلة المشرق) (١٦١) ، ألفه على نهج كتاب التاريخ الذى وضعه صفوان بن إدريس . وتشير الكتب إلى مؤلفات أخرى له لا نجدها بين أيدينا ، ولا نستغرب ضياعها ، إذ أن كتبه ومصنفاته — وعددها قرابة الخمسة والأربعين — أحرقت في نفس الموضع الذى امتحن وقتل فيه .

ورأى النقاد المحدثين جميعاً حسن في تأليف ابن الأبار ، وهم يؤيدون دوزى في قوله : « إن ذلك المؤرخ الصادق كان يؤلف وتحت يده وثائق على أكبر جانب من الأهمية ، وهو يمتاز بملسكة نقادة صحيحة قوية ، ويمتاز إلى جانب ذلك بعاطفة جياشة تذكرنا بفحولة العرب القدماء ، وأسلوبهم في الحياة والإحساس ، وهو شئ نادر بين معاصريه من المصنفين » (١٦٢) .

وقد اعتمد ابن الأبار في تصنيف تواليه على مؤلفين كثيرين ذكر بعضهم في كتاباته : منهم ابن حبيش (٥١٨ — ٥٨٤ / ١١٢٥ — ١١٨٩) قاضى إستجة

وكان محدثاً نابهاً (وقد ذكرناه) ، وعبد الله بن سفيان التميمي (المتوفى سنة ١٢٠٦/١١٤٩-٦٠٢/٥٤٣) ، وأبو عمر بن عياد الكري (١١٩٣/٥٨٩) ، وأبو عمر بن عياد الكري (١٢٠٦/١١٤٩-٦٠٢/٥٤٣) ، الذي سبقت الإشارة إليه ، وينسب إليه معجم أعلام صنفة في شيوخ أبيه ، وفيه غلط كثير ، وأحمد بن هارون النفزي (٥٤١-٦٠٨/١١٤٧-١٢١٢) من أهل شاطبة ، وكان تلميذاً لابن حُبَيْش واشتهر بهذا كُرة صحيبة ، وكان بارعا في الحديث والفقه ، وكانت حياته مضرب المثل في الزهد ، وله كتاب في قضاة بلده وقضاة الأندلس ، ومحمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التميمي (٥٣٩-٦٠٩/١١٤٥-١٢١٣) من أهل لَقَنْتْ (عمل مرسية ، وسكن أبوه أوريولة) ، وقد طاف بنواحي إفريقية والمشرق ، ويقول ابن الأبار إنه « جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفاً مفيداً أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار ، ووقع إلى بخطه في سنة ٦٤٠ [١٢٤٢/] في تونس ، فكتبته على الانتخاب والاقضاب ، وضمت هذا الكتاب [التكملة] منه ما نسبته إليه » (*) .

وأخذ ابن الأبار كذلك عن ابني حوط الله - أبي محمد وأبي سليمان - وكاننا محدثين ، وأبي العباس أحمد بن عيشون (ف ٨٨) ، وأبي القاسم محمد بن عامر ابن فرقد (٥٦٢-٦٢٦/١١٦٧-١٢٢٩) تلميذ ابن رشد وابن قزمان ، وابن الطيلسان (أبي القاسم قاسم بن محمد الأوشى ، ٥٧٥-٦٤٢ أو ٦٤٣/١١٧٩-١٢٤٤ أو ١٢٤٥) وله تواليف في التاريخ وفي سير الصالحين والزهاد ، والطراز الفرناطي (أبي عبد الله محمد بن سعيد بن علي الأنصاري ، ٥٥٨-٦٤٥/١١٦٢-١٢٧٧) الذي درس في المشرق ، وقد قال ابن الأبار في ترجمته : « وله فهرسة مشتملة على أسماء شيوخه وما روى عنهم ، وقعت إلى بتونس وكتبت منها » (**) (١٦٣) .

(*) ابن الأبار : التكملة ، رقم ٩١٩ .

(**) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٠٣٢ .

ف ٨٧ — ابن خير :

ومن بين فهرس الكتب (التي كان الواحد منها يعرف بالفهرست أو البرنامج وما إلى ذلك ، وقد كثر تأليفها وتداولها بين الأندلسيين) نذكر فهرست أبي بكر ابن خير (محمد بن خير بن عمر بن خليفة ، ٥٠٢ — ٥٧٥/١١٠٨ — ١١٧٩) . وهو إشبيلي ، وكان واسع العلم بالحديث والنحو والأدب وأسماء الكتب ، وكان أستاذ عصره . قال ابن الأبار : « وكان من الأكفاء في تقييد الآثار والعناية بتحصيل الرواية ، بحيث يأخذ عن أصحابه الذين شاركهم في السماع من شيوخه ، وعدد من سمع منه أو كتب منه نيف ومائة رجل ، قد احتوى على أسمائهم برنامج له ضخم في غاية الاحتفال والإفادة ، لا يعلم لأحد من طبقة مثله ؛ وقد كتبت منه في هذا التصنيف ما نسبته إليه . وقال جابر بن أحمد القرشي : كتب إلى — يعني ابن خير — يخبرني أن فهرسته عشرة أجزاء ، كل جزء منها ثلاثون ورقة » ؛ وولى الصلاة بجامع قرطبة الأعظم . ولدينا من مؤلفاته الكتاب المسمى « بفهرسة ابن خير » (نشره كوديرا وريبيرا في سنة ١٨٩٥) ، وهو يضم أسامي كل ما قرأه من الكتب في شتى العلوم ، وأسماء شيوخه الذين درس عليهم وأجازوه ، مرتبين حسب النواحي : إشبيلية وقرطبة والمرية ومالقة والجزيرة الخضراء وغيرها من البلاد . وأهميته تتجلى في ذلك العدد العظيم من الكتب التي ذكرها ، والمؤلفين الذين أثبت أسمائهم ، مما لا نجده في غيره من المراجع ^(١٦٤) .

٨٨ — معاجم التراجم الخاصة : الفاضل عباسه . ابن دحية :

ومن معاجم الرجال الأندلسية ما يُقصر على صنف واحد من الأعلام ، ومن فهرس الكتب ما يختص بفرع معين من العلوم أو الآداب . ومن الطراز الأول ما ألّفه أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصّقر الأنصاري الخزرجي (٥٠٢ — ٥٥٩ / ١١٠٨ — ١١٦٣) من أهل المرية ، وكان حافظا محدثا فقيها بارعا في علوم الدين ،

وقد تولى قضاء غرناطة وإشبيلية ، وله كتاب في سير زهاد الأندلس وصالحيه
عنوانه « أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار » ؛
ومن أصحاب هذا الطراز من المعاجم أبو عمر محمد بن أبي بكر بن يوسف بن عَفِيون
الشاطبي (ويكنى أيضاً أبا عبد الله ، ٥١٨ — ٥٨٤/١١٢٤ — ١١٨٨) من أهل
شاطبة ، وقد جمع شعر أبي الحسين بن جبير في ديوان ، وصنف كتاباً في أخبار الزهاد
والعباد^(١٦٥) ، وكتاباً آخر عن عجائب البحر^(١٦٦) ؛ وأبو القاسم بن العليسان (٥٧٥ —
٦٤٢ أو ٦٤٣/١١٧٩ — ١٢٤٤ أو ١٢٤٥) ، وله كتب في المناقب مثل
« زهر البساتين ونفحات الرياحين » ، ورسائل أخرى عن الصالحين والزهاد من
أهل الجزيرة مثل « غرائب أخبار المسندين ومناقب آثار المهتدين » ، و « تاريخ
صلحاء الأندلس » ويسمى أيضاً « كتاب في أخبار الصالحين بالأندلس » ، وله
كتاب « أخبار القرطبيين والتهيين عن مناقب من عُرف بقرطبة من التابعين والعلماء
الصالحين » ؛ وأبو بكر محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي (٦٦٥ — ٧٤٩/١٢٦٦ —
١٣٤٩) الذي جمع قطعاً من الشعر في كتابه المسمى « الفوائد المنتخبة والفرائد
المستنبذة » ، ضمنه معلومات أدبية وأطرافاً من سير المتصوفة في الأندلس ،
وأكمل التاريخ المسمى « بميزان العمل » لابن رشيق ؛ وابن جماعة السكفاني
(المتوفى في القاهرة حوالى سنة ٧٣٥/١٣٣٤) وله معجم في تراجم النبوية ،
وهي فرقة سنية كانت تساجل الرافضة^(١٦٧) ؛ وأبو عمرو بن محمد بن عيشون بن
نصر بن صباح اللخمي (٥٣٨ — ٦١٤/١١٤٣ — ١٢١٧) من أهل سوسة ، يقول
في حقه ابن الأبار : « وكان يعقد الشروط ويبصرها ، ويجيد فك المعنى [منها] ،
ويقرض أبيتاً من الشعر ، وله تقييد مفيد في الوفيات اعتمدت عليه في هذا الكتاب
(الشكلة) » . وأنف كذلك كتاباً في « تاريخ الكتاب الأندلسيين » ، وهو
موضوع طرقة قبله الأفتشيين^(١٦٨) — (أوغسطين) أبو عبد الله محمد بن موسى
ابن يزيد كما أورد اسمه ابن القرصى ، وعاصم بن محمد عند المقرئ — وسكّن

ابن سعيد^(١٦٦) الإخباري (في اسمه خلاف) للتوفى سنة ٤٥٧/١٠٦٦ .
أما القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (شعبان ٤٧٦
/ ديسمبر ١٠٨٣ — جمادى الثانية ٥٤٤ / أكتوبر ١١٤٩) فموطن قومه
بَسْطَة Baza ، وقد ولد في سبتة ودرس في قرطبة حيث طاب له العيش ، كما ينم
على ذلك قوله عند ارتحاله عنها :

رعى الله حيرانا بقرطبة العلى وجاد رباها بالعهاد السواكب
وحى زمانا بينهم قد ألفت طليق الحيا مستلان الجوانب
أإخواننا ، بالله فيها تذكروا معاهد جار أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفائهم كأنى في أهلى وبين أقاربي^(*)
وكان من أصحابه في الطلب أبو محمد بن عتاب ، وأبو الوليد بن رشد (الجد) ،
وكثيرون غيرها . وقد امتاز عياض بعلم واسع بالتاريخ وأنساب العرب والنحو
واللغة والصرف والحديث ، وكانت بينه وبين ابن العريف ، عالم المزية وصوفيا ،
صحبة ومكانات . ومن بين مؤلفاته تاريخ لعلماء قرطبة يسمى « أخبار القرطبيين » ،
وتأليف في تاريخ بلده سبتة يسمى « العيون (أو الفنون) السبة في أخبار سبتة » ،
وله أيضا « ترتيب المدارك في معرفة أصحاب مالك » ، وفيه أخبار عن الكثيرين
من فقهاء المغرب والأندلس وعلمائهما (ف ١٢٠) . وقد وضع المرقى كتابا حافلا
عن عياض ، أشبه بموسوعة أدبية تاريخية أندلسية ، هو « أزهار الرياض في
أخبار عياض » (القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٢)^(*) ، كما وضع في سيرة النبي صلى
الله عليه وسلم كتابا يحمله المسلمون لإجلالا عظيما ، هو « كتاب الشفا بتعريف
حقوق المصطفى »^(١٧٠) .

وكان أبو الخطاب بن دحية (ولد بين سنتي ٥٤٢ و ٥٤٨ / ١١٤٧ و ١١٥٣)

(*) المرقى : نفع ، ١ ، ص ٣٠٨ . وقد اكنى المؤلف بالإشارة الى الآيات ،
فأثبت هنا بنصها .

(٠) عدلت عبارة المؤلف هنا بعض الشيء .

في بلنسية وتوفي سنة ٦٣٣/١٢٣٥ في القاهرة) قد تولى قضاء دانية، ثم «صُرف من ذلك لسيرة نُعيت عليه»، ثم رحل إلى سراكش وألم ببجاية وتونس ومكة والشام والعراق، ووصل إلى فارس وخراسان، ثم نزل إربل، واستقر به المطاف آخر الأمر في مصر، حيث عهد إليه السلطان العادل الأيوبي في تأديب ولده الكامل، وأنشأ له «مدرسة الحديث الكاملية» ليقرى الحديث فيها. وقد كان ابن دحية واحداً من أولئك العلماء الذين نشروا علم أهل الأندلس في المشرق فردوا بذلك دين الأندلس للمشاركة في هذه الناحية.

ألف ابن دحية «كتاب التبراس في ذكر خلفاء بني العباس» (نشر في بغداد سنة ١٩٤٩)، وهو من الكتب التي اعتمد عليها ابن خلكان، ووضع مصنفين في الحديث، وكتاباً عن شعراء الأندلس والمغرب هو «المطرب من أشعار أهل المغرب» (مخطوط بالمتحف البريطاني)، يروى فيه الأخبار والأشعار دون منهج كما تواردت على خاطره، [ويقول: «لم أقصد جمع ذلك على الترتيب، ولا سلكت فيه مسلكي المهود في التبويب والتهديب، بل استرسلت فيه مع الخاطر على ما يجوز به ويسمح، ويعين له ويسنح، فالناظر فيه يسرح في بساتين ويمرح في ميادين، ويخرج من فن إلى فنون، والحديث ذو شجون»] (*)؛ إذ أنه كان قد خلف معظم كتبه في المغرب؛ وسطاً عليه لصوص البحر في الطريق ونهبوا ما بقي له منها، وعلى رغم ذلك كله فإن كتابه حافل بالفوائد، (مثال ذلك أخبار سفارة يحيى الفزال إلى بلاد النورمانين). هذا وله كذلك كتاب طريف عنوانه «كتاب الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صغين» (١٧١).

وانصرف كذلك إلى التأليف في طبقات المحدثين أبو محمد قاسم بن محمد بن يوسف علم الدين البرزالي (٦٦٥ — ٧٣٨/١٢٦٦ — ١٣٣٧) وهو من إشبيلية، وقد اشتغل بتدريس الحديث في إحدى مدارس دمشق، وقد وصل كتاب

(*) المطرب، ورقة ٤ ب من المخطوط.

« تاريخ دمشق » لابن عساكر بقطعة بالغ بها إلى حوادث سنة ١٣٣٧/٧٣٨ .
وله « معجم » في شيوخه .

وجدير بالذكر كذلك أبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم بن مُفَرِّج
المعروف بالملّاخي (٥٤٨ - ٦١٨/١١٥٤ - ١٢٢٢) ، صاحب « تاريخ علماء
البيرة » ، وتاريخ آخر لعلماء غرناطة ، وكتاب في أنساب أم العرب والعجم سماه
« بالشجرة » (١٧٣) .

(ح) تاريخ الأدب

الطلّاح الأول لهذا الفن : عبد الله بن مغيث ، ابن فرج الجياني ومن
إليهما ، ابن بسام ، ابن خاقان ، الشقندي ، ابن الخطيب ، المقرئ .

أزهر التأليف في تاريخ الأدب في الأندلس إزهاراً عظيماً مرده إلى ما طبع
عليه الأندلسيون من ولع بالشعر .

وتحدثنا المراجع عن ظهور مؤلفات خاصة بالشعراء وسيرهم في أوائل القرن
(الرابع الهجري) الماشر الميلادي ، ومثال ذلك ما كتبه عثمان بن ربيع المرواني
وعبد الله بن مغيث وابن فرج الجياني من مؤلفات ضاع معظمها ، ولم يبق لنا من
مادتها إلا أطراف نبجدها في كتابات ابن خاقان وابن بسام وابن حزم والشقندي
وابن الخطيب والمقرئ .

ف ٨٩ — طموح المؤلفات في تاريخ الأدب :

ومن أقدم الفقهاء الذين عنوا بالتصنيف في تاريخ الأدب ، عثمان بن ربيعة
الأندلسي من أهل قرطبة (المتوفى حوالي سنة ٩٢٢/٣١٠) ، فقد وضع مصنفاً
في « طبقات الشعراء بالأندلس » ولدينا منه نسخة مخطوطة في فاس (١٧٣) ، وابن
أبي الفتح (قاسم بن نصير بن رقاد بن عيشون من أهل شدونة ، يكنى أبا محمد) ،
« وكان فقيهاً حافظاً للرأى وبحوياً لغوياً وشاعراً متقدماً ، وكان خطيب أهل

قلسانة وصاحب صلاتهم ، وكان في الشعر سابقاً لا يشق غباره ولا يقرب ميدانه ، وتخلّى عن الدنيا في آخر عمره وصار في حياة الأبدال ، وأكثر شعره في الزهد وذم الدنيا وفي شواهد الحكم والتذكير والوعظ ، وله ديوان شعر كتبتُ ببضه بشذونة وقد كتبتُ له أشعاراً من كتابه المؤلف في الشعراء من الفقهاء بالأندلس (*) ، واشتغل إلى جانب ذلك بتصنيف « ديوان » من شعر فقهاء الأندلس . ومن أوائل مؤرخي الأدب الأندلسيين كذلك محمد بن هشام بن عبد العزيز بن سعيد الخليل المرواني (المتوفى سنة ٣٤٠ / ٩٥١) ، وكان خطيباً شاعراً ، وقد عرض عليه الخليفة الناصر أن يكون مؤدياً لأولاده فأبى من ذلك ، وكان من أصحاب الحكم المستنصر قبل أن يلي الخلافة ، وله كتاب في « أخبار الشعراء بالأندلس » (١٧٤) . ومنهم عبد الله بن محمد بن معيث بن عبد الله الأنصاري (المتوفى سنة ٣٥٢ / ٩٦٣) من أهل قرطبة ، وهو والد قاضي الجماعة أبي الوليد يونس بن عبد الله بن الصغار ، وكان عظيم المكانة لدى الحكم المستنصر . وعندما ما خرج الحكم للغزو في سنة ٣٥٢ / ٩٦٣ اعتذر ابن معيث من عدم الخروج معه لاعتلال صحته ، فأجابه الحكم إلى ما طلب من البقاء في قرطبة ، وشرط عليه أن يصنف كتاباً في « شعر الخلفاء من بني أمية » على نهج كتاب « الأوراق » للصولي في شعر بني العباس ، وأذن له في أن يقيم في قصر الخلافة في ناحية مطلة على النهر ، فأتم الكتاب ريثما فرغ الحكم من الغزاة وتلقاه به في طليطلة ، وتوفي في نفس العام .

وعنى بهذا الفن من التأليف كذلك مطرّف بن عيسى بن لبيب بن محمد بن مطرف النسائي (المتوفى سنة ٣٧٧ / ٩٨٧) ، من أهل البيرة وسكن غرناطة ، وكان صاحب رحلات وأسفار وحج إلى مكة ، وألف للخليفة الحكم المستنصر كتاباً أسماه « المعارف في أخبار كورة البيرة وأهلها وفوايدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها » ، وهو كتاب ممتع جداً — كما يقول ابن بشكوال في الصلة .

(*) ابن الفرضي : علماء ، رقم ١٠٦٧ .

ابن فرج الجبائي : أودعه الحكم المستنصر السجن لأمر نقمه عليه ، فضى ينظم الشعر في محنته حتى مات في الحبس سنة ٣٥٩/٩٧٠ . وقد سبق ابن بسام صاحب « الذخيرة » بكتابه « الحداثق » في التأليف في هذا الفن ؛ وقد ضاع كتاب الحداثق ، وكان يضم أخبار معاصريه من الشعراء حتى القرن الرابع الهجري . [وقد قال الحميدى عن كتاب الحداثق : « ألله للحكم المستنصر ، وعارض فيه كتاب « الزهرة » لأبى بكر محمد بن داود بن على الأصبهاني ، إلا أن أبى بكر إنما ذكر مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب ، في كل باب مائتي بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً . قال لنا أبو بكر محمد بن على بن أحمد : وأحسن الاختيار ما شاء ، وأجاد فبلغ النهاية ، فأتى الكتاب فرداً في معناه » .

وأنف في ذلك الباب نفر أقل شهرة ممن ذكرناهم ، مثل على بن عبد المحسن القفوحى (المتوفى سنة ٣٨٤/٩٩٤) ، وهو إشبيلي وضع مجموعاً من تراجم الشعراء والقويين وأهل السياسة (يوجد مخطوطاً بمكتبة الإسكوريال) عنوانه « المستجد من فعلات الأجواد » ؛ وأبى بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن أفلح الأنصارى الخزرجي بن ماء السماء (المتوفى سنة ٤١٩/١٠٣١) ، أخذ عن أبى بكر الزبيدي وكان شاعراً مجيداً ، [يصفه ابن بسام بأنه كان في عصره شيخ الصناعة وإمام الجماعة] ، وله كتاب في « أخبار شعراء الأندلس » أثنى عليه ابن حزم ؛ وأبى الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الإشبيلي (المتوفى حوالى سنة ٤٤٠/١٠٤٨) ، وقد قال ابن بسام إن له كتاباً جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة ، وهو صاحب كتاب « البديع في وصف الربيع » (نشره هنرى بريدس في باريس سنة ١٩٤٠) .

ف ٩٠ : أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (توفي حوالى سنة ٥٤١ هـ

— ٥٤٢/١١٤٧ — ١١٤٨) :

من أهل شنترين في البرتغال الحالية ، نشأ في بيت محدّد وحسب ، ورحل إلى
أشبونة سنة ٤٧٧/١٠٨٤ ؛ ووفد على قرطبة للمرة الأولى سنة ٤٩٤/١١٠٠ مخلفاً
وراءه ما ملكت يده في بلده الذي انتهبه النصارى ، وقد وصف خروجه من بلده
مقهوراً بقوله في فاتحة « الذخيرة » :

« وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحناء ،
وفكر خامد الذكاء ، بين دهر متلون تلون الحرباء ، لا تنبأذى من شنترين
قاصية الغرب ، مغلول الغرب ، مروع السرب ، بعد أن استنفد الطريف والبلاد ،
وأنى على الظاهر والباطن النفاذ ، بتواتر طوائف الروم علينا في عقر ذلك الإقليم .
وقد كنا غنيين هنالك بكرم الافتساب ، عن سوء الاكتساب ، واجتزأنا بمذخور
العتاد ، عن الثقب في البلاد ، إلى أن نثر علينا الروم ذلك النظام ، ولو ترك القطا
ليلا لنام . وحين اشتد المول هنالك ، اقتحمت بمن معى المسالك ، على مهامه
تكذب فيها العين الأذن ، ونستشعر فيها الحن :

مهامه لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه
حتى خلصت خلوص الزبرقانت من سراره ، وفزت فوز القدح عند قماره ،
فوصلت حصن بنفس قد تقطعت شعاعا ، وذهب أكثرها التياغا ، وليتني عشت
منها بالذى فضلاً ! ففتربت بها سنوات أتبوا منها ظلّ النمامة ، وأعيأ بالتحول
عنها عي الحمامة ، ولا أنس إلا الانفراد ؛ ولا تبلى إلا بفضل الزاد ، والأدب بها
أقل من الوفاء ، حامله أضيق من قر الشتاء ، وقيمة كل أحد ماله ، وأسوأ كل
بلد جهاله ، حسب المرء أن يسلم وفراءه ، وإن ثلم قدره ، وأن تكثر فضته وذهبه ،
وإن قل دينه وحسبه . »

وقد صنف ابن بسام كتابه المشهور في سنة ١١٠٩/٥٠٢ في إشبيلية ، حيث استقر وعاش من قلمه ، ومضى يدبج التراجم ويكيل المديح لمن يحزيه عنه بالمال ، وكان ذلك أمراً شائعاً صنعه ابن خاقان أيضاً . ويرى دوزي أن ما كان ابن بسام يصيبه من المال من أولئك السروات يشبه الأتعاب التي يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين .

وقد صنف ابن بسام كتباً كثيرة لم يبق الدهر على بعضها ، مثل « كتاب الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن عباد » ، ومجموعاً من شعر عبد الجليل ابن وهبون عنوانه « كتاب الإكليل المشتمل على ذكر عبد الجليل » ، ومجموعاً من رسائل ابن طاهر صاحب مرسية هو « سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر » ، وديوان شعر الوزير أبي بكر بن عمار صاحب المعتمد : « تحية الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار » ، ومجموعاً من شعر الهجاء الذي قاله ابن بسام نفسه مما لم يُدَّخِله في الناس .

يبد أن الكتاب الذي أذاع اسم ابن بسام ووصل إلينا هو « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، وقد قسمه إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : (مخطوط في المكتبة الأهلية في باريس ونشر في مجلدين في القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٢) ، « لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس » .

والقسم الثاني : (مخطوط بمكتبة أكسفورد ومكتبة الجمع التاريخي في مدريد) ، « لأهل الجانب الغربي من الأندلس ، وذكر حضرة إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي » .

والثالث : (مخطوط بمكتبتي جوتا والجمع التاريخي الإسباني بمدريد) ، « لأهل الجانب الشرقي من الأندلس ، ومن نجم من كواكب العصر في أفق ذلك التفرع الأعلى إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك » .

والرابع : (مخطوط يملكه الأستاذ ليثي بروفنسال ونشر الجزء الأول منه في القاهرة سنة ١٩٤٥) ، « أفردته لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المؤرخة من أديب وشاعر ، وأوى إلى ظلها من كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها أقواله ، ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق ، ممن نجم في عصرنا بإفريقية والشام والعراق » ، كما يقول ابن بسام .

ولم يرتب ابن بسام تراجمه على حسب السنين إلا في الجزء الخاص ببطايوس وما يصاحبها ، وإنما رتبها حسب مكانة المترجم في رأى ابن بسام . وهو يبدأ عادة بترجمة العَلَم المراد مرسلته في نثر بديع مسجوع ، ثم يذكر مؤلفات من يترجم له ويطرى مواهبه الأدبية ، ثم يورد مقتطفات من شعره ونثره .

ويذكر ابن بسام في فاتحة كتابه دافعه إلى تصنيف الذخيرة ، وهو الرغبة في النهريف بأهل الأدب الأندلسيين ، إذ أنه رأى الناس يغمطون قدرهم ، فيقول : « وما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين ، وأئمة النوعين ، قوم هم مام طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بحفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنطق ، حذاء الأعشى بينات المخلق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بهجائب الأشعار والرسائل : نثر لوراء البديع لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لوسمه كُتِبَ أنسب ولا مدح ، أو تتبعه جرول ماعوى ولا نبح . إلا أن أهل هذا الأفق أبو ، متابع أهل المشرق : يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لونق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذهاب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ؛ وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، لا بها جنان ولا خلد ، ولا يُصرَف فيها لسان ولا يد . ففاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات

دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود
 'دوره أهلة' ، وتصبح بحاره نجاداً مضحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ،
 وقديما ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ! وليت شعري ...
 من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص "أهل المشرق بالإحسان ١٩" .

ثم يذكر بعد ذلك السبب الذى جعله يترك ذكر ما قال الأندلسيون من
 الشعر فى عصور بنى أمية والنصور ، وهو أنه لم يشأ أن يعيد ما أورده ابن فرج
 الجياني فى « كتاب الحقائق » الذى ضامى به « كتاب الزهرة » لابن داود
 الأصفهاني ، ولهذا قصر كتابه على أهل زمانه ممن رآه بنفسه أو عرفه معاصروه ،
 [ويقول :

« فأضربت أنا عما ألف ، ولم أعرض لشيء مما صنف . ولا تعديت أهل
 عصرى ، من شاهدته بعمرى ، أو لحقه بعض أهل دهري ؛ إذ كل مردد ثقيل ،
 وكل متكرر مملول ، وقد تجت الأسماع : « يادار مئة بالعلياء فالسند » ، وملت
 الطباع : « لخولة أطلال بيرة شهيد » ، وحثت : « قفا نيك » فى يد
 المعلمين ، ورجعت على ابن حنجر بلائمة المتكلمين ؛ فأما « أمين أم أوفى » ،
 فعلى آثار من ذهب العنا . أما أن أن يصم صداها ، ويُسأَم مداها ؟ وكم من نكفة
 أغفلتها الخطباء ، ورُبَّ متردٍ غادرته الشعراء ؛ والإحسان غير محصور ، وليس
 الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن يُفكر ، تقدم به الزمان
 أو تأخر . ولحى الله قولهم : الفضل للمقدم ! فكم دفن من إحسان ، وأخل من
 فلان ! ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين ، لضاع علم كثير ، وذهب
 أدب عزيز » [.

ثم يعتذر عما عساه أن يكون قد أغفله أو سها عن ذكره فى كتابه بالظروف
 الخاصة التى ألّفه فيها ، ثم إن الأوراق والكتب التى كان يعتمد عليها كانت حافلة
 بالأخطاء مما كان يكلفه عناء بالغا فى البحث والتنقيب ، وهو يقول :

« ولعل بعض من يتصفحہ سيقول : إني أفقلت كثيرا وذكرت خاملا وتركت مشهوراً . وعلى ريشه ، فإنما جمعت بين صعب قد ذل ، وغرب قد قل ، ونشاط قد قل ، وشباب ودع فاستقل ، من تفاريق كالتقرون الخالية ، وتعاليق كالأطلال البالية ، بخط جهال كخطوط الراح ، أو مدارج النمل بين مهابة الرياح ، ضبطهم تصحيف ، ووضعهم تبديل وتحريف ، أيا من الناس منها طالبتها ، وأشدّهم استرابة بها كانتها ، ففتحت أنا أفقالها ، وفضضت قيودها وأغللها ، فأضحت غايات تبين وبيان ، ووَضَحَت آيات حسن وإحسان » .

[ويقول في موضع آخر :

« ولكني بما أقدمت عليه ، وتصديت إليه ، كالنسيم دل على الصبح ، والسهم ناب عن الرمح ، ولا أقول إني أغربت ، لكن ربما بينت وأعربت ، ولا أدعي أني اخترعت ، ولكني لعل قد أحسنت حيث اتبعت ، وأنقنت ما جمعت ، وتألّفت عن الشارد ، وأغنيت عن الغائب بالشاهد ، وتغلّلت بقارئة بين النظم والنثر ، تغلغل الماء أثناء النور والزهر ، وانتقلت من الجد إلى المزل ، انتقل الضحيان من الشمس إلى الظل ، واستراحة البهير من الحزن إلى السهل ، وتخلّت ما ضمته من الرسائل والأشعار ، بما اتصلت به أوقلت فيه من الوقائع والأخبار ، واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها ، وجلوت وجوه فتنها ، ونلصقت القول بين قبيحها وحسنها ، وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على الإقليم ، وألمت بالأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم ، واجتثاث أصلهم وفرعهم ، وعبرت عن أكثر ذلك ، بلفظ يتبع المم بين الجوانح ، ويحلّ المعصم سهل الأباطح ، وعولت في ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيان ، فأوردت فصوله ، ونقلت جملة وتفصيله ، فإذا أعوزني كلامه ، وعزّني سرده ونظامه ، عكفت على طلي البائد ، وضربت في حديدى البارد ، على حفظ قد تشعب ، وحظ من الدنيا قد ذهب »] .

وقد وضع ابن ممتاى (٤٥١ - ١١٤٧/٦٠٥ - ١٢٠٩) مختصراً لذخيرة ابن بسام .

وقد كانت الذخيرة - قبل البدء فى نشرها بزمن طويل - من المراجع التى انتفع بها دوزى انتفاعاً عظيماً فى بحوثه الكثيرة عن الأندلس وأهلها ، كما يرى بوضوح فى كتابه المسمى « أقوال كتاب العرب فى بنى عباد » (*) (١٧٥) وفى « أبحاثه » المعروفة ، ومن هذا الكتاب الأخير نقتطف القطعة التى نوردتها فيما يلى (نقلاً عن الطبعة الثانية « للأبحاث » جزء ٢ ، ص ٢٢ وما يلىها) وهى تدور حول استغلال السيد القمييطور لبلنسية :

« قال ابن بسام : وتم للطاغية رذريق مراده الذميم من دخول بلنسية سنة ٤٨٨ ، على وجه من وجوه غدره ، وبعد إذعان [ابن جحاف] القاضى المذكور لسلطة كبره ، ودخوله طائعاً فى أسره ، على وسائل اتخذها ، وعهود ومواثيق بزعمه أخذها ، لم يمتد لها أمد ، ولا كثر لأيامها عدد . وبقي مديدة يضجر من صحبته ، ويلتمس السبيل إلى نكبته ، حتى أمكنته [الفرصة] : زعموا بسبب ذخيرة نفيسة من ذخائر ابن ذى النون ؛ وكان رذريق لأول دخوله سألها عنها ، واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها ، فأقسم بالله جهد أيمانه ، غافلاً عما فى الغيب من بلائه وامتحانه . وجعل رذريق بينه وبين القاضى المذكور عهداً أحضره الطائفتين ، وأشهد عليه أعلام الملتين ، إن هو انتهى بعدُ

(*) وعنوان الجزء الأول منه كاملاً :

Historia Abbadidarum. Praemissis scriptorum arabum de ea dynastia locis nunc primus editis. (Lugduni Batavorum, 1846)

= تاريخ بنى عباد . أهم ما كتبه كتاب العرب عن هذه الأسرة [مما] لم يسبق لغيره ، لا يدين ١٨٤٦ . وعنوان المجلدين الثانى والثالث يختلف بعض الشيء ، وهو المستعمل عادة عند العلماء فى الإشارة إلى هذا الكتاب وهو :

Scriptorum arabum loci de Abbadidis nunc primum editi. (Lugduni Batavorum, 1852)

= أقوال كتاب العرب فى بنى عباد [مما] لم يسبق نشره قبلاً .

إليها وعثر عنده عليها ، ليستحان إخفار ذمه وسفك دمه فلم ينشب رذريق أن يظهر على الذخيرة المذكورة لديه ، لما كان قد حُمَّ من إجراء محنته على يديه ، ولملها كانت منه حيلة أدارها ، وداهية من دواهيہ سددها وأنارها ، فأنجى على أمواله بالنهاب ، وعليه وعلى أهله بأنواع العذاب ، حتى بلغ جهده ويأس مما عنده ، فأضرم له ناراً أتلفت ذممه ، وحرقت أشلاءه .

« حدثني من رآه وهو في ذلك مقام : وقد حفر له خفير إلى رفغية ، وأضرمت النار حواله ، وهو يضم ما بعد من الخطب بيديه ، ليكون أسرع لذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ؛ كتبها الله له في صحيفة حسناته ، ومحابها سالف سيئاته ، وكفانا بعد ألم نجاته ، ويسرنا إلى ما يزلف إلى مرضاته .

« وهم يومئذ الطاغية لذريق بتحريق زوجته وبناته ، فكلمه فيهن بعض طماته ، فبعد لأي ما لفته عن رأيه ، وتخلصهن من أيدي نكدانه .
« وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً ، وجلل سائر طبقاتها حزناً وعاراً ، وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى فذح التهاشم والنجود ، وأخاف القريب والبعيد .

« حدثني من سمعه يقول ، وقد قوى طمعه ولجَّ به جشعه : « على رذريق فتحت هذه الجزيرة ، ورذريق يستنقذها ! » كلمة ملأت الصدور ، وخیلت وقوع الخوف والمحذور .

« وكان هذا البائقة وقتته — في ذرى شهامته ، واجتماع حزامته ، وتنهای صرامته — آية من آيات ربه ، إلى أن رماه سريعاً بحمفه ، وأمانه بيلنسية حتف أنفه .

« وكان — لعنه الله — منصور العلم ، مظفرأ على طوائف العجم . لقي زعماء مراراً — كنرسية المنبوز بالقلم المعوج ، ورئيس الإفرنج ، وابن ردمير — قتل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير كثير عددهم .

« وكان -- زعموا -- تُدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفقه الطرب ، وطلق يعجب منها ويعجب » (١٧٦) .
وقد عقد هذا المستشرق الهولندي - « راينهارت پيتر - آن دوزي » - مقارنة بين « ذخيرة » ابن بسام و « فلائذ » ابن خاقان التي كتبت بعدها بنحو عشرين سنة ، قال فيها : « إذا نحن أقمنا مقارنة على الأساس الصحيح للنقد ، لم نجد أى مجال ممكن للمقارنة بين الكتائين ؛ فإن كتاب ابن بسام يتحدث عن نفسه بما تضمنه مادته من فائدة حقيقية . فهو يحوى - إلى جانب القطع القيمة التي نقلها من كتابات ابن حيان - قدراً عظيماً من المعلومات الجديدة الهامة عن تاريخ الحضارة والأدب الأندلسيين ، في حين أن كتاب ابن خاقان أقل نفعاً في هذا الباب ، وإن كان يحوى فوائد كثيرة ، على عكس ما يذهب إليه بعض الباحثين » .

هذا وكلا الكتائين جليل القدر من حيث الأسلوب ، فهما معصوغان في نثر شاعرى جميل ؛ وإذا نحن قدرناهما بميزان البلاغة والذوق الأدبي عند العرب ، - ولم نُكتبنا - فإن ابن خاقان يحوز قصب السبق في رأى دوزي . وهو يقول في هذا المعنى : « ذلك أن ابن خاقان لا تعوزه بأى حال الأخيلة البعيدة المطارح ، أو الصياغة اللفظية الفنية ، أو العبارة الجزلة الرنانة ذات الإيقاع الجميل ؛ أما ابن بسام فنحن نلاحظ أنه يعانى عسراً وفقراً في هذه الناحية . وابن خاقان أقرب منه إلى صفاء أسلوب الخطابة العربى الموثق ، ولهذا فقد كان كلامه أقرب من كلام صاحبه إلى نفوس معاصريهما . بيد أن هناك ناحية على أعظم جانب من الأهمية سبق فيها ابنُ بسام معاصره بمراحل لا يمارى في بعد مداها ، تلك هى تفوقه على صاحبه فى القدرة على التصوير وسعة الاطلاع الأدبى . وفى الواقع أن صدر ابن بسام حوى من العلم ما لم يبلغ مداه فيه إلا القلائل : فقد ألم بتاريخ العرب القديم وتمثله تمثلاً كاملاً ، وحفظ أشعارهم وأمثالم السائرة ، فى حين أن ابن خاقان

لم يتعق في هذه الناحية إلا قليلا ، ومن ثم فإن القوة وجمال التعبير يعوزانه كلما وصل بالكلام إلى موقف عسير ، بل هو يتخبط في بعض الأحيان في مهاوى الجهل : وإن ابن بسام ليكثر من المقارنة بين شعر المحدثين (معاصريه) وشعر القدامى ، ويشير إلى المواضع التي قلدها فيها الآخرون الأولين ، ويروى للقارئ طرفا من التاريخ الذاهب إذا دعت المناسبة إلى ذلك ، مما يجعل كلامه أكثر غناء ، بل ألطف وأخف على القلوب » (١٧٧) .

وقد اعتمد ابن بسام — فيما اعتمد عليه — على تاريخ منظوم للأندلس لأبي طالب عبد الجبار المتنبي ، على غرار أرجوزة يحيى الغزال ، وقد عاش أبو طالب في حدود سنة ٥١٩/١١٢٦ وكان من أهل جزيرة شقر (١٧٨) .

ف ٩١ — ابن خاقان (أبو نصر الفتح محمد بن عبيد الله القيسى) :

أصله من « صخرة الولد » ، قرية على مقربة من قلعة يحصب (١٧٩) من أعمال غرناطة . كانت حياته اضطرابا متصلا ، خرج إلى الحياة فقيرا لا يملك من حطامها شيئا ، وكان مع ذلك مقبلا على البحر مسرفا في ملذاته . وقد طاف بنواحي الأندلس مترددا على « من يتعاطون الراح » من أولى الأمر يسألهم العطاء ؛ وكان متهاونا ، فأخرج مما كان يتولاه من أعمال الدولة . قال ابن الخطيب : « قال ابن عبد الملك [المراكشي] : قصد [ابن خاقان] يوما مجلس قضاء أبي الفضل [عياض بن موسى بن عياض اليحصبي] تخرا ، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة البحر ، فأعلم القاضي بذلك ، فحده حدا تاما ، وبعث إليه بعد ذلك بثمانية دنانير وعامة . وقال الفتح يومئذ لبعض أصحابه : عرمتُ على إسقاط اسم القاضي أبي الفضل من « القلائد » ، فقال : لا تفعل ، فإن قصيتك من الجائز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ! إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والنصب ، فيسأل عن ذلك فيقال له ، فيتوارث العلم

بذلك الأكاير والأصاغر . قال : فلم حجة نصحه فأقر اسمه « (*) » .

وكانت بينه وبين ابن باجة القيلسوف عداوة شديدة ، قال ابن الخطيب :
« وحدث بعض الشيوخ أن سبب حقه على ابن باجة أبي بكر — آخر فلاسفة
الإسلام بالأندلس — ما كان من إزرائيه به وتكذيبه إياه في مجلس أقرانه ،
إذ جعل يكثر ما وصله به أسراء الأندلس . ووصف حلياً — [وكانت] تبدر من
أنفه دائماً فضلة خضراء اللون ، زعموا — فقال ابن باجة : « فن تلك الجواهر هذه
الزمردة التي على شاربك ا » ، فتلبسه في كتابه بما هو معروف « (*) » .

وقد بلغ من تمكن ابن خاقان من اللغة وقدرته على صياغة الكلام ، أنه
عندما تعرض لابن باجة في « القلائد » نال منه بلسانه الحاد كل منال ، ثم ألم
بذكره في « المطمح » بمبارات مديح جوقاء تطوى في ثناياها من المبحو اللادع
ما يربى على المجهاء الذي قاله فيه قبلاً^(*) (١٨٠) . وقد توفي ابن خاقان مخنوقاً في فندق
بأحد دروب سراكش في ٢٢ محرم ٥٢٩ / ١٣ نوفمبر ١١٣٤ . ويذهب بعض الناس
إلى أن علي بن يوسف بن تاشفين هو الذي أوعز بقتله ، في حين ذهب الآخرون
إلى أن نفرأ من أهل حاشية علي هم الذين دبروا قتله ، لما آلمهم من نقده فبعثوا
أحد غلمانهم فقتله^(١٨١) .

وقد رويت لابن خاقان قطع من الشعر قليلة ، وهي « وسط بعيد عن طرفي
الفث والسمين ، وكان لا يتعفى فيه ولا يتكلفه ولا يقصد قصده ، وإن ذلك
لعذر في عدم الإجادة »^(١٨٢) ، وكتب عن بعض الأمراء بعض المسكاتبات ؛
ولكن شهرته ترجع إلى كتابيه الجليلين « مطمح الأنفس ومسرح التأنس » ،
و « قلائد العقيان ومحاسن الأعيان » .

(*) و(*) ابن الخطيب : الإحاطة . وترجمة ابن خاقان ليست في مستنها المطبوعة في مصر ،
ولكنها واردة في مخطوطها بالمكتبة الأهلية في باريس ، وعنه نقلها دوزي (أخبار بني عباد
١٨ ، ص ٢ — ٣) ، وعنه أخذت .
(*) انظر (ف ١٠٦) .

أما الأول فقد قصره على أعيان الأندلس وذوى السباحة والظرف من أهله ، وجعله « ثلاث نسخ : كبرى ووسطى وصغرى ، يذكر فيها [نفراً] من الذين ذكروا في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم »^(١٨٣) ، وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ . أما « قلائد العقيان » (طبع في باريس سنة ١٨٠٦ وفي بولاق سنة ١٨٦٧) فهو تكرار للمطمح في بعض أجزائه ، وقد قسمه إلى أربعة أقسام : الأول « في محاسن الرؤساء وأبنائهم ودرج أنموذجات من مستعذب أنبائهم » ، والثاني « في غرر حلية الوزراء وفقر للكتاب والبلغاء » ، والثالث « في لمع أعيان القضاة ولمع أعلام العلماء السراة » ، والرابع « في بدائع نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء » .

وهدف ابن خاقان من تواليفه هو إيراد ما قاله من يلم بسيرهم من النثر الرصين والشعر البديع ، دون أن يقصد إلى إيراد سير حياتهم بالذات ، ولهذا فتراجمه ناقصة ، لأنه لا يذكر من تواريخ الناس إلا ما يتصل بما يورد من نظمهم ونثرهم ، وقد خلط في بعض ما أورده من الحوادث ، وتبعه في الخطأ نفر من أخذ عنه عن أتى بعده . وإذا كانت القيمة التاريخية لكتابه قليلة ، فإن قيمتها الأدبية عظيمة ، وما — إلى جانب « ذخيرة » ابن بسام — أحسن ما ألف الأندلسيون من النثر المسجوع . وقد أطنب بعض من ترجموا له في إطراء مواهبه الأدبية ، فقال عنه ابن دحية — مثلاً — في المطرب : « وكان ، رحمتنا الله وإياه ، مخلوع العذار في دنياه ، ولكن كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال »^(*) .

وكان ابن خاقان لا يحفل بشيء ، حتى لقد نقل من « الذخيرة » فصولاً كاملة دون أن يشير إلى صاحبها ، مما جعل ابن بسام يشكوه إلى القاضي ، كما يقول ابن سعيّد^(١٨٤) .

وقد وصل ابن الإمام (أبو عمر عثمان بن علي الإشبيلي المتوفى بعد سنة

(*) ابن دحية : المطرب ، ورقة ١٢٠ .

٥٤٩/١١٥٥) « مطمح » ابن خاقان و « قلائد » بكتاب من نوعهما وفي أسلوبه في شعراء عصره هو « سمط الجمان وسقيط المرجان ». وابن الإمام من أهل شلب ، وقد سكن قرطبة وإشبيلية ، وكتابه أشبه بذيل على « المطمح ». وفعل مثل ذلك أبو بحر صفوان بن إدريس بن عبد الرحمن بن عيسى التيجي المرسى (٥٦١ — ٥٩٨ / ١١٦٤ — ١٢٠١) من أهل مرسية ، وقد صنّف كتاب « زاد المسافر » في تراجم كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري ، إكالا لما كتبه ابن خاقان وابن الإمام ، وأورد بعض ما قيل من الشعر في فضائل مرسية ؛ وكان من تلاميذ ابن بشكوال ، وقد جمع نظمه ونثره في كتاب سماه « عجالة المتحضر وبداية المستوفز » (١٨٥) .

ف ٩٢ — الشقندي (أبو الوليد إسماعيل بن محمد المتوفى سنة

٦٢٩ — ١٢٣٢) :

يشبه الشقندي في « رسالته » المركيز سانتيلانا El Marqués de Santillana في كتابه المسمى Proemio ، فهي تعتبر نموذجاً من نماذج النقد الأدبي . وأصله من شقندة أحد أرباض قرطبة ، وكان مولعاً بما يروى من التاريخ وما يحكى من نوادر المؤلفين والشعراء ، وكان ذا حظوة عند أبي يوسف يعقوب المنصور خليفة الموحدين ، وولى على قضاء يباة وأبنة ولورقة ، وهو صاحب « الرسالة » المشهورة ذات القيمة الأدبية العظيمة (١٨٦) .

وسبب إنشائه هذه الرسالة أن مناقشة جرت بحضرة أبي يحيى بن أبي زكريا عامل سبتة الموحدى حول « التفضيل بين البرين » (الأندلس والمغرب) ، فانبرى أبو الوليد الشقندي الأندلسى وأبو يحيى بن المعلم الطنجي المغربي يتساجلان ، كل يباهى بفضائل قطره ، فرأى أبو يحيى أن يحسم المناقشة فقال : « رأى عندى أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل برّه ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً ،

وأرجو إذا أخلينا له فكر كما صدر عنكما ما يحسن تخليده ؛ ففعلا ذلك « (١٨٧) .

وقد احتفظ لنا ابن سعيد بنص رسالة الشقندى ، وأورد نصها المرقى في « نفع الطيب » . وقد بدأها بدحض حجة خصمه في القول بأن المغرب أصل الملك والسلطان ، وقارن بين دولة الموحدين وخلافتهم ودولة الأمويين وخلافتهم في الأندلس ، وذكر كيف أفاض الشعراء من كل صقع في مديح أولئك الأخيرين وفاخر بمن أنجبت دولتهم من القواد ، كالنصور بن أبى عاسر وموالى العاسريين الذين خلد الشعراء مآثرهم وأفاضوا هم على الشعراء الجزيل من ندام ، ولم يذكر أبى غالب النحوى الذى أبى اعتزازه بمؤلفه وأمانته لعله أن يذكر فى فاتحته أنه ألفه باسم مجاهد العاسرى صاحب دانية ، ورفض ألف دينار « وسركوبا وكُسى » عرضت عليه لقاء ذلك ، وذكر رعاية ملوك الأندلس للأدب وأهلها ، وضرب المثل ببني عباد . ثم مضى الشقندى يعدد من أنجبه الأندلس من الفقهاء واللغويين والحنويين والفلاسفة والرياضيين والأطباء والمؤرخين والمؤلفين الذين تجلت قرائنهم عن درر أدبية ، وتقاد الأدب ومن أطلعهم الأندلس من الشعراء الذين أبدعوا فى كل فن من فنون الشعر (كالنسيب والمديح والمجاء) ، وأبان من ظهر منهم من بين أهل كل طبقة من الناس (كالملوك والوزراء والنساء وغيرهم) ، أولئك الشعراء الذين أنشأوا من القصيد ما سارت بمدحهم الركبان ، وأحسنوا التعبير عن أدق العواطف . يذكر الشقندى ذلك كله فى ثبت طويل يفيض حيوية ، جمع فيه ألمع الأسماء وأحفلها معنى ودلالة .

ويذكر إلى جانب ذلك محاسن إشبيلية ، ويتخنى بجمالها ويقول : « وإن تعرضت إلى ذكر البلاد وتفسير محاسنها وما خصها الله به وحرمة غيرها ، فاسمع ما يميمت الحسود كمدأ : أما إشبيلية فن محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المباني ، وتزين الخارج والداخل ، وتمكن التمر ، حتى إن العامة تقول : لو طُلب ابن

الطير في إشبيلية وُجد . ونهرها الأعظم الذى يصعد المذ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم
بحسّر ، وفيه يقول ابن سفر :

شق النسيم عليه جيب قيصه فانساب من شطيه يطلب ناره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزماً فضم من الحياء لزاره

وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرزة بالمنازه والبساتين والسكرم والأنشام ،
متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره . وأخبرنى شخص من الأكياس دخل
مصر — وقد سأله عن نيلها — أنه لا تتصل بشطيه البساتين والمنازه اتصالها
بنهر إشبيلية . وكذلك أخبرنى شخص آخر دخل بغداد . وقد سعد هذا الوادى
بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ،
لأنه عن ذلك ولا منقذ ، مالم يؤد السكر إلى شر وعريضة (*) .

وقال بعد ذلك : « إن إشبيلية تحوى كل أدوات الطرب ، كالخيال
والكريمج والعود والروطة والرباب والقانون والمونس والكثيرة والفنار (الفنار
والقتيان والقبتان أيضاً) والزلاوى والشقرة والنورة — وهما مزماران الواحد
غليظ الصوت والآخر رقيقه — والبوق ؛ وإن كان جميع هذا موجوداً في
غيرها من بلاد الأندلس ، فإنه فيها أكثر وأوجد . وليس في رعدوة من هذا
شئ ، إلا ما جلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال « والبرا »
(والبرا أيضاً) وأبوقرون ودببة السودان وحماق البرابر . . » . وذكر قرطبة
مجمع أهل العلم ، وكيف قصدوها من كل صقع فتلقاهم ملوكها بالتكرمة والأفضال ؛
وقال : « فعلى كرسى المملكة في القديم ، ومركز العلم ومنار التقى ومحل التعظيم
والقديم » . وألم بذكر قواعد أندلسية مثل حيان وقال إنها « لبلاد الأندلس
قلعة ، إذ عى أكثرها زرعاً وأصرمها أبطالاً وأعظمها منعة » ، ومالقة « التى قد
جمعت بين منظر البر والبحر ، بالكروم المتصلة التى لا تكاد ترد فيها فرجة لموضع

(*) الشقندى : رسالة ، برواية المقرئ ، ٢٠ ، ص ١٤٢ — ١٤٣ . وقد أشار

المؤلف إلى معنى هذه الفقرة ، فأوردتها بنصها كنموذج لكلام أبى الوليد إسماعيل الشقندى .

غاسر ، والبروج التي شابهت نجوم السماء كثرة عدد وبهجة ضياء » ، ومرسية « حاضرة شرق الأندلس ، ولأهلها من الصرامة والإباء ما هو معروف مشهور » ، وبلنسية « التي تعرف بمطيب الأندلس » ، ووصافتها من أحسن متفرجات الأرض « ، وميورقة وما لها من محاسن وفضائل ، بخلاف ما أنجده في المغرب من فقر في نواحي الحضارة وجذب طبيعي ^(١٨٨) .

والرسالة نموذج جليل من عرض العلم الواسع في نسق لطيف ، وهي تثير الإعجاب بأسلوبها وزوجها الفسحة . ثم إنها ميزان صادق للفقد ، فقد أيد الذين جاءوا بعد الشقندي آراءه في الأعلام والمؤلفين الذين اتخذهم مثلاً .

وقد أجهل وصفها غرسية غومس بقوله : « إن المختارات القليلة التي يقدمها لنا الشقندي من الشعر الأندلسي جديرة بالذكر والتقدير ، لما اجتمع لها من السكال المصنفي ، وما يتجلى فيها من التفكير والائزان في الجمع بين القدامى والمعاصرين من كافة الطبقات ، وبما نلحظه فيها — قبل كل شيء — من صدق الحكم ونفاذه في ناحية الجلال الفني » .

ف ٩٣ — ابن الخطيب والمقرئ :

ونذكر من ألف في تاريخ الأدب في العصر الغرناطي محمد بن علي بن هاني (المتوفى سنة ٧٣٢/١٣٣٢) وهو من أهل سبتة وكان يلقب « بالخطيب » لفصاحته ، وقد صنف مؤلفاً عن شعراء القرن السابع الهجري عنوانه « الغرة الطامعة في شعراء المائة السابعة » وكتبها أخرى في الفقه ، بيد أن أهم من ألف في هذا الباب في ذلك العصر هو لسان الدين بن الخطيب الذي ألمنا بذكره (ف ٨١) .

ومن الحق أن نذكر في هذا المقام المقرئ المشهور (أبا العباس أحمد بن محمد ابن أحمد بن أبي العيش) ، وإن لم يكن أندلسياً أو من أهل العصر الذي نتحدث عنه ، إذ هو من أهل القرن الحادي عشر الهجري ، توفي سنة ١٠٤١/١٦٣٢ .

وله المقرئ في تلسان؛ ودرس في فاس، وأولع بطلب آداب الأندلسيين؛ وقد جمع في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» وذكر وزيرها إسان الدين بن الخطيب^(١٨٩) قطعاً من مؤلفات سابقة صاغ معظمها، أرسلها من غير نظام، ولكن في دقة وضبط حسن. والجزءان الأولان مقدمة للثالث والرابع، اللذين يدوران على ابن الخطيب وحده. ويضم الجزءان الأولان ثمانية أبواب: الأول: «في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيرها...» وذكر بعض مآثرها المحلوة الصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والسكر المستمدة من أضوائها».

والثاني: «في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد، وفتحها على يدى موسى ابن نصير ومولاه طارق بن زياد...»، مع الإلمام بذكر ولاتها قبل بنى أمية. والثالث: في ذكر خلفائها وملوكها «وسرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامى العباد».

«والرابع: في ذكر قرطبة، التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة، وجامعها الأموى ذى البدائع الباهية الباهرة، والإلمام بمحضرتى المملك الناصرية الزهراء والعاصرية الزاهرة...».

والخامس: «في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق». والسادس: «في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق». والسابع: «في نبذة مما من الله به على أهل الأندلس من توفد الأذهان». والثامن: «في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة».

وأهمية كتاب المقرئ هي أنه نقل إلينا فقرات هامة من تاريخ الأندلس ضاعت أصولها^(١٩٠).

وقد نشر الجزءين الأولين من «النفح» أربعة من المستشرقين هم: ر. دوزى R. Dozy، ج. دوجا G. Dugat، ل. كرييل L. Krehl، و. رايت

W.Wright في لايدن بين سنتي ١٨٥٨ و ١٨٦١ وجعلوا لها عنواناً فرنسياً أدل

على مادتهما وهو :

Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne.

ويذكر الكتاب في المراجع الأوروبية بلفظ Analectes فقط . والطبعة
مصدرة بمقدمة فرنسية وافية عن المقرئ و « نفعه » بقلم أحد الناشرين ، وهو
جوستاف دوجا . وقد نُشر النفع كذلك كاملاً في بولاق سنة ١٨٦٢ ، وأعيد
طبعه في القاهرة بإشراف الشيخ محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩ . وترجم
جايانجوس قطعاً كبيرة منه إلى الإنجليزية ونشرها باسم :

The History of the Mohammedan Dynasties in Spain...
extracted from Al-makkari.. translated by Pascual de Gayangos..
(١٩١)
London 1840 - 1843, 2 vols.

(٥) تواريخ النواحي

ف ٩٤ — أهم المؤلفات في هذا الباب :

نجد فيما بين أيدينا من المراجع ذكراً لكتاب « مجزأ في أجزاء كثيرة في
أخبار ريّة وحصونها وحروبها وقبائلها وشعرائها »^(١٩٢) ، تأليف إسحاق بن سلمة
ابن وليد القيني الليني من أهل ريه (يكنى أبا عبد الحميد ، المتوفى حوالي ٣٩٩/
١٠٠٩) ، وكتاب آخر في تاريخها من تأليف إبراهيم بن وزمّور الحجازي —
وهو والد صاحب المسهب الذي أشرنا إليه — وقد عاش في أواخر القرن الخامس
وأوائل السادس الهجريين ؛ وقد عهد إليه المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة
ونواحيها في وضع كتاب في شعراء وادي الحجرة وناريخها ومؤرخيها ، فألف
كتاب « مغناطيس الأفكار فيما تحوى عليه » مدينة الفرج « من النظم والنثر
والأخبار » ، يعتبر تاريخاً حقاً لوادي الحجرة في صورة تراجم .

وكتب محمد بن عاقمة (محمد بن الخلف بن الحسن بن إسماعيل الصدي ، ٤٢٨ - ١٠٣٦/٥٠٩ - ١١١٦) كتابه المعروف « بالبيان الواضح في المم القادح » ، سرد فيه تاريخ بلنسية في أيام السيد القمبيطور ، وتقلبه عليها ومحتتها على يديه^(١٩٣) . وقام الفقيه المحدث ابن عسكر (أبو عبد الله محمد بن علي بن خضر الفسائي المالقي ، ٥٨٤ - ١١٨٨/٦٣٦ - ١٢٣٨) بوضع كتاب تاريخ مالقة ، « وكان فقيهاً مجيداً لعقد الشروط ، حافظاً للغة أديباً بليغاً مشاركاً في العربية وقرض الشعر » (*) (١٩٤) .

وألف أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة الخزومي^(١٩٥) (٥٨٢ - ١١٨٦/٦٥٨ - ١٢٦٠) كتاباً في فضائل ميورقة وتاريخها ؛ وقد ولد الخزومي في جزيرة شقر ، وكان شاعراً متبحراً في التاريخ والأخبار ، دخل في خدمة الموحدين فاستكتبه « الرشيد » ، ثم ولاء قضاء [قبيلة] هيلانة ، فقضاء سلا ، ثم قضاء سبتة . ثم انتقل إلى تونس ودخل في خدمة الحفصيين ، وقلده المناصب في بجاية وتونس ، وله تأليف « في كائنة ميورقة وتقلب العدو عليها » ، « نحا في الخبر عنها منحه الإمام الأصفهاني في الفتح القدسي » . ثم ألف مختصراً لكتاب ابن صاحب الصلاة في تاريخ الموحدين ، وله وعظ على طريقة ابن الجوزي .

وتجرد أبو بكر بن تحسين - ابن أخي ابن عسكر الأنف الذكر - لكتابة تاريخ [الجزيرة] الخضراء ، فلما فرغ منه وصل كتاب عمه ابن عسكر في تاريخ مالقة . وكتب ابن الحاج البليقي (محمد بن محمد بن خلف بن سليمان بن حزب الله المتوفى سنة ١٣٧٢/٧١٥) « تاريخ المرية وبجانة »^(*) . وكان البليقي من شيوخ ابن الخطيب ، وقد وضع كتاباً عن زهاد الأندلس اسمه « كتاب الإفصاح

(*) ابن الأبار : نسخة ، رقم ١٠١١

(*) في الأصل « بجاجة » ، ولكن سيديويت قرأها « بجانة » وهو أقرب إلى المقول .

عن عُرف بالأندلس من الصلاح « ومعجمًا بشيوخه »^(١٩٦) .

ووضع ابن خاتمة (أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد الأنصاري ، ٧٢٣ - ١٣٢٣/٧٧٠) كتابًا وصف فيه الطاعون الذي اجتاحت الدنيا في سنوات ١٣٤٧/٧٤٨ و ١٣٤٨/٧٤٩ و ١٣٤٩/٧٥٠ ، والذي يشير إليه بوكاشيو في أول كتابه « الليالي العشر Decamerone » ؛ واسم كتاب ابن خاتمة « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد »^(١٩٧) .

الفصل السادس

الجغرافية والرحلات

- ف ٩٥ : الوراق — البكرى .
- ف ٩٦ : عبد النعم الحميرى — أبو حامد القرناطى .
- ف ٩٧ : الإدريسى .
- ف ٩٨ : ابن جبير .
- ف ٩٩ : البدرى — الجغرافيون في العصر القرناطى .

كان الحج إلى مكة هو السبب في تأصل حب الرحلة في قلوب الأندلسيين ، ومن ثم أولعوا بالتنقل والأسفار ولما شديداً ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظهر من بينهم من ألف في وصف رحلته أو في صفة نواحي الممرور . وقد وضع بعض أولئك الأندلسيين مؤلفات جغرافية خالصة (مثل البكرى وأبى حامد الغرناطى والإدريسى) ، بينما سجل بعضهم لتفاصيل رحلاتهم أوصافاً كاملة ، أو غير كاملة ، كما يصنع الرحالة المحدثون عندما يسجلون يومياتهم (ومن أولئك ابن جُبَيْر والسبدي) .

ف ٩٥ — الوراق — البكرى :

بدأ الاهتمام بالتأليف في الجغرافية عند الأندلسيين في عصر الخلافة ، فقد ألف محمد بن يوسف الوراق (يكنى أبا عبد الله ويلقب بالتاريخي ، ٢٩١ — ٣٦٢ / ٩٠٤ — ٩٧٣) ديواناً ضخماً في « مسالك إفريقيا وممالكها » . وأصل الوراق من وادي الحجارة ، وانتقل آباؤه إلى إفريقيا ونشأ بالقيروان ودرس بها ، ثم عاد إلى الأندلس وأقام بها إلى أن توفي بقرطبة ، وكان ذا حظوة لدى الحكم المستنصر . وقد اعتمد البكرى على كتابه هذا اعتماداً عظيماً . وإلى جانب ذلك صنف الوراق عن « إفريقيا وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليها كتباً جمة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تهرت ووهران وتونس وسجلماسة ونكور والبصرة وغيرها تواليها حسناً » ^(١) .

بيد أن أول جغرافي أندلسي جليل الشأن هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد البكرى ، ولد في قرطبة في سنة ٤٣٢ / ١٠٤٠ وتوفي فيها سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ . وهو من بيت شرف وإمارة ، فقد كان آباؤه أصحاب ولبة وشلطيش ، إذ استبدوا بأمورها بعد سقوط الخلافة ، وظلوا في إمارتهم حتى غصبهم المتعصب بن عباد ولبة

واضطرم إلى التنازل له عن شلطيش لقاء مال دفعه إليهم ، فلجأ أبو البكرى إلى قرطبة وأقام في ظل بنى جهور أصحابها ، وصحبه ابنه أبو عبيد — وكان شاباً يافعاً — وهناك لقيه ابن حيان المؤرخ وتوسم فيه النجابة والاستعداد للطلب . وتوفى سنة ٤٥٦/١٠٦٤ ، فانتقل أبو عبيد إلى المرية وعرف صاحبها المعتصم محمد بن معن بن صمادح (ف ٣٣) ، فبعثه في مهمة إلى المعتمد بن عباد في إشبيلية ، فلما استقر فيها حُبِّب إليه العيش في كنف المعتمد . ويذكر ابن بشكوال أن البكرى كان يحب الكتب حباً جماً ، حتى لكان يمسكها في فاش غالٍ إكراماً لها وصيانة ؛ ويبدو أنه كان ذا هوى شديد بالشراب ، فبعض أشعاره يدل على ذلك .

ويذهب دوزى إلى أن البكرى أكبر جغرافى أنجبه الأندلس ؛ ولم يبرح البكرى الأندلس ، ولهذا فإن مؤلفاته إنما هي في الواقع جمع وتصنيف من مؤلفات غيره مما لا نجده الآن . وقد أظهر البكرى في تصنيفه قدرة على الترتيب والتنظيم وموهبة عالية . وأكبر كتبه هو المسمى « المسالك والممالك » ، ولم يبق لنا منه إلا جزء في صفة المغرب ؛ وهو يذكر فيه المسالك (الطرق) التى تؤدى من ناحية إلى ناحية ، ويصف المدائن والقرى التى تربطها ، ويضمّن كلامه أخباراً غريبة نافعة . وقد بدأ كترميم بترجمة الجزء الخاص بالمغرب ، وأتمه البارن دى سلان (نشر الأصل العربى في سنة ١٩١١ ، والترجمة الفرنسية في سنة ١٩١٣) ولم يُعثر على الجزء الخاص بالأندلس منه إلى الآن .

وكذلك أثنى النقاد والباحثون على كتاب البكرى الآخر المسمى « معجم ما استمعج » (طبعه فستنفلد طبع حبر في سنة ١٨٧٦ ، وطبع في القاهرة في جزءين سنة ١٩٤٠) ، ومن أثنى عليه دوزى إذ يقول : « إننا بينما نجد غيره من الجغرافيين يقعون في خطأ بعد خطأ ، ويناقضون أنفسهم بين موضع وموضع ، إذا بنا نجد معلومات البكرى واضحة ناصعة ، وكتاباتة توصف بعبارة واحدة : إنها صادقة » .

وقد ترمى إلى ظن فراندسكو خافيير سيمونيت أن البكرى لا بد أن يكون قد عرف كتاب « أصول الكلمات Etimologias » ليزودور الإشبيلي مترجماً إلى العربية ، لأن أوصاف بعض النواحي في كتاب إيزودور تنطبق على أوصاف البكرى لها . فالجزء الذى يصف فيه البكرى جزائر فرطناطش *Islas Fortunatas* — المسماة بالسعادات أو جزائر كناريا — يبدو كأنه مأخوذ عن إيزودور .

وللبكرى — إلى جانب ذلك — كتب أخرى في اللغة والطب والدين ، مثل « كتاب النبات » (بالأندلس ، ذكره ابن خير) ، وشرحه لأمالى أبي على القالى المسمى « سمط اللآلى » (ف ٥٥) ؛ وقد ضاعت هذه الكتب ما عدا الأخير منها فقد نشر في القاهرة^(٢) .

ف ٩٦ — عبد النعم الحميري — أبو همام الفرناطى :

أشار المقرئ في « فتح الطيب » إلى معجم جغرافى يسمى « الروض المطار في خبر الأقطار لعبد النعم الحميري » ، ونقل منه قطعاً تدل على مادة طيبة ، ووقع هذا الكتاب في يد المقرئ فاختصره في مجلد صغير . [وظل هذا الكتاب مجهولاً حتى عثر عليه الأستاذ ليثى پروقتسال ، فقام باختيار المادة الخاصة بالأندلس منه ، ونشرها في معجم جليل الفائدة سنة ١٩٣٨ ، مع ترجمة فرنسية وتعليقات ضافية وفهارس وافية ؛ فأصبح هذا الكتاب الآن من خير المراجع التى يعتمد عليها الباحث في تاريخ الأندلس وجغرافيتها .

ومواد هذا الجزء المنشور عن الأندلس مرتبه ترتيباً أبجدياً ، وهو يضم معظم الأعلام الجغرافية الهامة التى يرد ذكرها في كتب الأندلسيين . وقد حرص الحميري على أن يورد ما اتصل بعلمه من أطراف التاريخ عن الموضوع الذى يتكلم عنه ، وأكثرت هذه المادة التاريخية يتعلق بعصر الموحدين الذى سقطت خلاله معظم حواضر الأندلس الكبيرة في أيدي النصارى . والحميري يعنى بتفصيل ذلك على

نحو فريد وفي أسلوب عربي رصين ، مما يجعل لهذا الكتاب أهمية كبرى المؤرخ والجغرافى على السواء ^(٣) .

وقد كان من المظنون أن الحيرى عاش في عصر المعتمد بن عباد ، ولكن ظهر الآن أنه من أهل القرن التاسع الهجرى ، فقد توفي سنة ٨٦٦/١٤٦١ ^(*) . أما أبو حامد النرناطى ^(١) (محمد بن عبد الرحمن بن سليمان القيسى ، يكنى أيضاً أبا محمد وأما بكر ، ٤٧٣ - ٥٦٤/١٠٨٠ - ١١٦٩) فقد كان رحالة لا يمل الأسفار . زار صقلية سنة ٥١١/١١١٧ ، ومنها ذهب إلى مصر ، ثم غادرها إلى ناحية بحر الخزر ، ووصل إلى ضفاف نهر الفولجا ، ثم طاف ببلاد الخزر والبلغار ، ووصل ثلاث سمات إلى البحر الأسود ، وزار عاصمة خوارزم ، ثم زار بغداد مرة ثانية في سنة ٥٥٥/١١٦٠ ، وأقام فيها ردها من الزمن ألف فيه للوزير يحيى بن محمد بن هبيرة كتاب « المعرب عن عجائب المغرب » . وأبو حامد مشهور بكتابه المسمى « تحفة الأحباب ونجبة الإعجاب » ولدينا منه نسخ مخطوطة كثيرة . ويتألف هذا الكتاب من مقدمة وأربعة أبواب : الأول « في صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » ، والثانى « في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » والثالث « في صفة البحار وعجائب حيواناتها » ، والرابع « في صفة الحفائر والتبوير » وما إلى ذلك . والنرناطى كذلك رسالة أخرى في جغرافية المعمور تسمى « تحفة الكبار في أسفار البحار » .

وكان أبو حامد طَلَمَةً بطبعه ، ولكن حظه من الثقافة والنقد كان قليلا ، ومن ثم يكثر في كلامه ذكر الخرافات والخرافات ، وقد أخذ القزوينى عنه كثيراً من هذه اللادة ^(٥) .

ف ٩٧ - الإدريسي :

كان الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي ، ٤٩٣ - ٥٦٤/١٠٩٩ - ١١٦٩) حفيداً لإدريس

(*) عدلت عبارة المؤلف هنا بما يناسب معلوماتنا عن عبد النعم الحيرى وكتابه بعد لعمري .

الثاني الحمودي أمير مالقة ، ويبدو أنه درس في قرطبة ثم زار كثيراً من نواحي الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى ، ثم زار صقلية حيث أعجب به ملكها رُجَّار^(٦) (رُوجِرُ الثاني النرمانى ، من بيت هوثفيل النرمانى فاتحى الجزيرة) فأقام عنده ، وكان رجلاً من هواة الفلك فوجد فى الإدريسي خير معين له على إشباع رغبته من ذلك العلم . ولما كان رجلاً قد رغب فى أن يكون لديه « كتاب فى صفة الأرض » ، مؤلف عن مشاهدة مباشرة لا مستخرج من الكتب « قد تصدى الإدريسي لوضع ذلك الكتاب ، وانتخب نفراً من أذكىاء الرجال وبعضهم فى شق النواحي يصاحبهم الرسامون ، وجعل يتلقى ما يسمعون به ويسجله أولاً بأول . وفرغ من كتابه سنة ١١٥٤/٥٤٨ ، ثم أضاف إليه أجزاء أخرى فيما بعد وسماه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، ويعرف كذلك « بالكتاب الرُّجَّارى » . وقد ألف الإدريسي كذلك « كتاب الممالك » ، وقد اعتمد عليه أبو القدا ؛ وله كتاب فى « الأدوية للفردة » ، ذكره ابن سعيد وأقاد منه ابن البيطار ، وقد ضاعت هذه الكتب الأخيرة .

وقد عُرف « الكتاب الرُّجَّارى » فى أوروبا منذ زمن طويل ، عن طريق موجز له طبع فى روما سنة ١٥٩٢ . ثم قام اثنان من المارونيين هما جبريل سيونيتا Gabriel Sionita ويوحنا هزرونيثا Juan Hesronita بترجمة هذا المختصر إلى اللاتينية ، ونشراه فى باريس سنة ١٦١٩ باسم « جغرافية النوبة Geographia Nubiensis » . وقد قام دوزى ودى خويه بنشر الجزء الخاص بإفريقية والأندلس من « نزهة المشتاق » ، معتمدين على مخطوط بالمكتبة الأهلية فى باريس ؛ وأرفقا النص بترجمة فرنسية عنوانها :

Description de l'Afrique et de l'Espagne (ليدن ١٨٦٦) ، وجعلوا لهذا الجزء عنواناً خاصاً هو : « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق » ؛ ثم عاد سافندرا فنشره نشرأ مصححاً معدلاً فى مدريد سنة ١٨٨١^(٧) .

وقد لُقّب الإدريسي «اسطرابون العرب» ، وهو يعتبر — بناء على ذلك — أكبر جغرافي أطلعت عليه المصور الوسطى . نعم ، إننا نجد في كتابه أخطاء في حساب للمسافات والأبعاد والأوصاف ، ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الإدريسي كتب كتابه هذا في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وأن موت رجاء وما أعقبه من القلاقل في دولة النورمان بصقلية ، حالت بين الإدريسي وبين أن يدخل على كتابه التعديلات الأخيرة الواجبة . ثم إن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة في الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوروبية التي تسكنها شعوب نصرانية ، على أنه يضم بعض أطراف من الخرافات التي كانت أوسع ما تكون انتشاراً في عصره .

والجزء الخاص بجزيرة الأندلس عنده يبدأ بوضعها في الإقليم الرابع عند « البحر المظلم المحيط » ثم يستطرد إلى وصف الجزيرة^(٨) ، بادئاً بطليطلة إذ هي « مركز لجميع بلاد الأندلس ، وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب تسع مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً ٩ مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقوب على بحر الإقليميين ٩ مراحل ، ومنها إلى جاقا شرقاً ٩ مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية بين شرق وجنوب ٩ مراحل ، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامي تسع مراحل »^(٩) . ثم يصف بعد ذلك الجزء الجنوبي من الجزيرة ، فيتكلم عن أقاليم البحيرة Provincia del Lagos de la Janda^(١٠) وشذونة الشرف والكنبانية (وفيه من المدن قرطبة وغيرها)^(١١) وأشونة ورثه والباريات وبتجانة وإلبيرة . ثم يتناول الجزء الشرقي ، وفيه أقاليم قريرة وتدمير وكونكة وشاطبة^(١٢) ومرّبيطر (يكتبها مُرباطر) والبنت^(١٣) وشنت مارية المنسوبة لابن رزين (السهلة) . ثم ينتقل إلى الكلام عن غرب الأندلس ، فيذكر أقاليم الوجة Encinas والتفر Algarbe والقصر (ماردة) والبلاط ومدين Medelin وأشبونة . ثم يلي ذلك « الوسط » ، وفيه أقاليم الشارات Las Sierras (طلبيرة وطليلطة . . الخ) وأرنيط Arnedo (وفيه قلعة

أيوب وقلعة دروكة وسرقسطة ووشقة وتطيلة) ، ثم « إقليم الزيتون »
(جيان) ، Provincia de las Olivares ، ثم يلي ذلك « إقليم البربات »
Provincia de los Pirineos ، وأخيراً نجد في ناحية الغرب إقليم مرمرية
Marmaria وفيه حصون وقلاع كثيرة [خالية]^(١٤) .

وإليك مثالا من وصف الإدريسي ، نتخيره من صفته لإقليم طليطلة :
« ومدينة طليطلة من طلييرة شرقا ، وهي مدينة عظيمة القطر كثيرة البشر
حصينة الذات ، لها أسوار حسنة ، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة . وهي أزية من
بناء العالقة . وقايلا مارئي مثلها إتقاناً وشماخة بنيان . وهي عالية الذرى حسنة
البقعة زاكية الرقة . وهي على ضفة النهر الكبير المسمى تاجه ، ولها قنطرة من
عجيب البنيان ، وهي قوس واحدة ، والماء يدخل تحت تلك القوس كله بعنف
وشدة جري . ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا ، وهي تصعد
الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة .

« ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم وموضع قصدهم . ووجد
أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة : فنها
أنه وُجد بها سبعون تاجا من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ،
ووجد بها ألف سيف مجوهر ملكي ، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال
وأوساق ، ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل ، ووجد
بها مائدة سليمان بن داود ، وكانت فيها يُذكر من زمردة ، وهذه المائدة اليوم في
مدينة رومة . ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخرقة ، ودواليب
دائرة وجنات يانعة وهواكه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكيف ولا تحصيل ، ولها
من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكفيها . . . »^(١٥) .

ومن المراجع التي اعتمد عليها الإدريسي في تأليف كتابه كتاب يسمى « نظام
المرجان في المسالك والممالك » لابن الدلالي ، أحمد بن عمر بن أنس بن دلهات

(والدلالى نسبة إلى دَلَاة Dallas من أعمال الرية) ، وقد حج إلى مكة سنة ١٠٠٢/٤٠٧ ومات سنة ١٠٨٥/٤٧٨^(١٦) .

ف ٩٨ — ابن جبير :

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكفانى (ربيع الأول ٥٤٠ — شعبان ٦١٤ / سبتمبر ١١٤٥ — نوفمبر ١٢١٧) ، أصل قومه من شاطبة ولكنه ولد في بلنسية . درس الفقه والحديث والأدب والشعر من سن مبكرة وبرع فيها ، واتصل بالموحدين وكتب في أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن عاملهم على غرناطة ، « فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا وهو على شرا به ، فد إليه يده بكأس فأظهر الانقباض وقال : « يا سيدى ، ما شربتها قط » فقال : « والله لتشرى بها سبعا » فلما رأى المزيمة شرب سبع أ كؤوس ، فلأ له السيد الكأس من دنانير سبع صرات وصب ذلك في حجره ، فحمله إلى منزله وأخبر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير . ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يبيع تلك السنة ، فأسغفه وباع ملكا له تزود به ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر »^(١٧) .

انفصل ابن جبير من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية [الأولى]^(١٨) في ٩ شوال ٥٧٨ / ٣ فبراير ١١٨٣ . وركب البحر من جزيرة طريف إلى سبتة والإسكندرية ، ولما كان الطريق من مصر إلى بيت المقدس في يد الصليبيين في ذلك الحين ، فقد توجه ابن جبير إلى قوص بصعيد مصر ، ومنها إلى عيذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جُدة ، وقصد مكة وحج إلى بيت الله الحرام ، وزار المدينة لقضاء العمرة . ثم توجه إلى الكوفة وبغداد والموصل وأقام فيها بعض الوقت ، ثم قصد حلب ودمشق ، ثم ركب البحر من عكا عائداً إلى الأندلس في سفينة نصرانية أُرست به بعض الوقت في صقلية . ووصل قرطاجنة الخلقاء بساحل الأندلس

الشرق في ١٥ محرم ٥٨١/٢٥ أبريل ١١٨٥ ، ومنها إلى غرناطة . وقام ابن جبير بمد ذلك رحلتين أخريين إلى المشرق بدأ الأولى منهما في سنة ٥٨٥/١١٨٩ وعاد منها سنة ٥٨٧/١١٩١ ، وقام بالثانية في عام ٦١٤/١٢١٧ وأدركته منيته في الإسكندرية خلال هذه الرحلة الأخيرة .

وقد سجل ابن جبير مشاهداته في « رحلته » المشهورة (نشرها رايت في ليدن سنة ١٨٥٢ ، وأعاد نشرها دي خويه عام ١٩٠٧) ؛ وهي أشبه بيوميات ستقر صاغها ابن جبير في أسلوب بارع ، وصور فيها بكلام سهل بسيط الأحاسيس التي اعتلجت في نفسه في المواضع التي زارها ، أو عند مشاهدته الآثار التي رآها ؛ وأسلوبه سلس جزل ينم على موهبة أدبية أصيلة ، وعلى خلقه الحازم الوقور^(١٩) . ومن قمراته البديعة ، تلك التي يصف فيها عاصفة هبت على سفينته وكادت تغرقها على مقربة من سواحل صقلية ، وإليك هذه الفقرة :

« ... ونحن الآن - بفضل الله تعالى - نتطلع البشري بظهور بر صقلية إن شاء الله . وفي النصف من ليلة الأحد الحادى عشر منه (شعبان ٥٧٨) انقلبت ريح غربية ، وكشف النوء من المغرب ، وجاءت الريح عاصفة ، فأخذت بنا جهة الشمال . وأصبحنا يوم الأحد المذكور والمول يزيد ، والبحر قد هاج هائجاً ومائج مائجاً ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يثقل بها على عظمه تقلب الفصن الرطب - وكان كالسور علواً - فيرتفع له الموج ارتفاعاً يرمى في وسطه بشأيب كالوابل المنسكب . فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الأذنان غماغه ، واستشرى عصف الرياح ، فحطت الشراع ، واقتصر على الدلائل الصغار دون أنصاف الصواري ، ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام . وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أننا قد أحيط بنا . فيا لها من ليلة يشيب لها سود الذوائب ، مذكورة في ليالي الشوائب ، مقدمة في تعداد الحوادث والنوائب ، ونحن منها في مثل ليل صول طولاً . فأصبحنا ولم نكد ، فكان

من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا وجباله قد قامت أمامنا — وكنا قد خلفناه عن يميننا — فأسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أننا قد جزناه ؛ فسقط في أيدينا ، وخالفنا المجرى المهود الميمون ، وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً في استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذى قُضى سَخِطَ العبد أم رَضِيَ^(٢٠)

ف ٩٩ — المبدرى — الجغرافيون في العصر الفرناطى :

أبو محمد المبدرى من أهل بلنسية ، طاف بنواحي المغرب والأندلس في سنة ١٢٨٨/٦٨٦ ، وسجل مشاهداته في كتابه « الرحلة المغربية » . وقد بدأ رحلته تلك من حاحّة في بلاد السوس ، ووصل إلى مكة عن طريق البر ، وكر راجعاً ونزل الإسكندرية ، ثم قطع المغرب إلى ساحل المحيط . وهو يشبه ابن بطوطة في طريقة روايته لأخبار رحلته ، ولكنه تكلف أسلوباً شديداً يبدو فيه النوص وراء الألفاظ ، فأضاع الجزء الكبير من قيمة « رحلته » — على خلاف ابن بطوطة الذى يكتب في أسلوب سهل لطيف — ووصفه لثونس وما رآه فيها لطيف جميل^(٢١) .

ومن الجغرافيين النابهين الذين هم الأندلس على بن سعيد المغربي ، وقد تحدثنا عنه آنفاً (ف ٧٩) .

ومن رحالة الأندلس في العصر الفرناطى أبو عمر عبد الله بن رشيد بن النوشريسي ، الذى جاب نواحي المغرب ومصر والشام في سنة ١٢٧٤ ، وسجل مشاهداته في « رحلة » لدينا منها بضع نسخ مخطوطة . وهو يورد في سياق كلامه تراجم من لقي من أهل الأدب ، ويتحدث لنا عما شهد من مجالس أهل العلم وما زار من المكتبات . ومنهم كذلك ابن رشيد السبتي الفهرى الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ، ٦٥٨ — ١٢٦٠/٧١١ — ١٣١٢) من أهل سبتة ، وكان

ضليماً فى الحديث وخطيباً بليغاً ، وله شروح وتعليقات على كتب الضبى وابن الأبار ، وله رحلتان مشهورتان : الأولى طاف فيها بنواحي المغرب ، وزار فى الثانية الأندلس ؛ وقد أورد فى تضاعيف كلامه إشارات نافعة عن الأدب والتاريخ الطبيعى ، وله كذلك مصنفات فى تراجم محدثى الأندلس وفقهائها وشروح على صحيحى البخارى ومسلم^(٢٢) . ومنهم كذلك ابن جابر (أبو عبد الله محمد بن جابر ابن محمد بن قاسم ، المتوفى سنة ١٣٤٥/٧٤٦) من أهل وادى آش ، وقد سكن تونس معظم أيامه ، وهو من شيوخ ابن الخطيب ، وله رحلة أورد فى ثناياها ما كسبه من الفوائد الأدبية خلال أسفاره (لدينا منها نسخة فى الإسكوريال) . ومنهم البَلَوى (أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد) من أهل قننورِية ، وقد طاف بنواحي المغرب والشرق قيا بين سنتى ٧٣٦ و ١٣٣٥/٧٤٠ و ١٣٣٩ ، وكتب رحلته فى أسلوب تكلف فيه الإغراب والتفصيح ، وسطا على بعض السابقين فأدرج قطعاً من مؤلفاتهم فى كلامه دون أن يشير إلى ذلك ؛ وقد نقد ابن الخطيب وعاب عليه ذلك . وقد أورد وصف رحلته فى كتابه المسى « تاج الفرق فى تحلية علماء المشرق » .

أما رحلات ابن بطوطة (أبى عبد الله محمد بن محمد اللواتى الطنجى)^(٢٣) فقد قام بقدوينها ابن جَزَى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن جَزَى الكلجى . ٧٢١ — ١٣٢١/٧٥٧ — ١٣٥٦) وهو من أهل غرناطة ، وكان من رجال أبى الحجاج يوسف بن الأحمر صاحب غرناطة ، وقد عهد إليه فى صياغة رحلات ابن بطوطة لما اشتهر عنه من الظهور فى الأدب والشعر والتاريخ واللغة والفقه ؛ وقد أتم كتابتها فى ثلاثة أشهر ، معتمداً على ما سجله ابن بطوطة من الملاحظات ونجد فى كتابات الموريسكيين بعض كتب الرحلات ، منها وصف رحلة إلى مكة كتبه صاحبها بنفسه فى الكتاب المسى « رباعيات حاج بوى موشون »

الفصل السابع

الفلسفة والألّهيات

ف ١٠٠ — أصول الفلسفة في الأندلس .

(أ) المدرسة الأفلاطونية الحديثة

ف ١٠١ — محمد بن عبد الله بن مسرة .

ف ١٠٢ — مدرسة ابن مسرة .

(ب) المدرسة المشائية

ف ١٠٣ — عودة الدراسات الفلسفية إلى النشاط .

ف ١٠٤ — أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني .

ف ١٠٥ — ابن السيد البطليوسى .

ف ١٠٦ — ابن باجة .

ف ١٠٧ — ابن طفيل .

ف ١٠٨ — ابن رشد : حياته ومؤلفاته .

ف ١٠٩ — آراء ابن رشد .

ف ١١٠ — تلاميذ ابن رشد .

ف ١١١ — الرشدية (مذهب ابن رشد) .

(ج) التصوف

ف ١١٢ — أبو المباسى العريف .

ف ١١٣ — محي الدين بن عربى .

ف ١١٤ — مؤلفات ابن عربى .

ف ١١٥ — الخصائص العامة لمذهب ابن عربى .

ف ١١٦ — ابن سبعين .

ف ١١٧ — ابن عباد الرندى .

ف ١٠٠ — أصول الفلسفة في الأندلس :

يقول آسين بلاثيوس : « إن تاريخ الفكر الفلسفي في إسبانيا الإسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الإسلامية الشرقية ، دون أن تكون له بالتراث الحلى صلة حقيقية يقوم عليها الدليل » ^(١) . وقد اعتمد آسين في قائلته تلك على ما ذكره صاعد الطليطلى وابن حزم القرطبي في كتبهما ، ولم يكن أيهما ليعرف شيئاً عن تاريخ الفكر اللاتيني في الأندلس ، بل لم يعرفا مجرد اسمي « سنيكا » و « القديس إيزودور » ؛ هذا مع أنهما عرفا شيئاً طليعاً عن اللاهوتيين من نصارى المشرق .

ويؤيد ما يقوله بلاثيوس فيما يذكره [من إغفالها ذكر أى شيء عن الفلسفة في إسبانيا قبل العرب] ما هو معروف من إقفار العصر القوطي من التفكير الفلسفي إقفاراً يكاد يكون تاماً ، ويؤكد ذلك ما نعرفه من هبوط مستوى آداب المستعمر بين في الأندلس . ثم إن الفاتحين المسلمين ، ما بين عرب و بربر ، لم يكونوا أكثر من محاررين متحمسين لعقيدتهم ، ولم يُؤثر عنهم انصراف إلى تفكير فلسفي ، إذ لم يحسوا بحاجة إليه . وقد اكنفوا بأن أخذوا عن أهل البلاد لغتهم وقانونهم الجاري بينهم ، وأطرافاً من أنظمتهم السياسية والإدارية . ولهذا لم يظهر بين مسلمي الأندلس فيلسوف واحد حتى القرن الثالث الهجري ، إنما كان همهم — إلى ذلك الحين — الدراسات الفقهية واللغوية .

وقد قُضى في عنف على الحركات الأولى التي رمت إلى التجديد — في ميدان الفقه خاصة — وكان لها في نفس الوقت طابع سياسي قوي : ومن هذه الحركات تلك التي قام بها « شَقِيَّا بن شَعْبِيَا » ، وهو مؤدب صبيان نما نحو التعصب والشعبذة ، وزعم أنه من أبناء علي وفاطمة ، وانتزى بناحية شنتهرية سنة ١٥٢/٧٦٩ ^(٢) ؛ وقد قضى عبد الرحمن الداخل على حركته . وكان فقهاء الأندلس للمالكيون من أشد

الناس كراهة لكل حركة ترمى إلى التجديد ومخالفة ما كانوا سائرين عليه ،
وشدّت الدولة أزرهم في حزم ، فحرّمت على الناس كتب الفقه غير المالكي
— ولو كان أصحابها من أجلة أهل السنة — كمسند ابن أبي شيبة^(٣) أو كتاب
« المعارف » لابن قتيبة^(٤) ، وهو تاريخ يضم أطرافاً من الروايات الإسلامية
وروايات الثوراة .

بل اضطهد المالكيون كل مذهب فقهي يخالف مذهبهم ، ومن ذلك أنهم
أرادوا الإيقاع ببقي بن مخلد وتكلموا في حقه عند الأمير محمد [بن الحكم] ،
لأنه أراد أن يعلم الناس فقه الشافعي في الجامع ، ولولا رجاحة عقل الأمير لأودى
بقي^(٥) . ونظر فقهاء الأندلس إلى كل تفكير عقلي في مسائل الدين على أنه زندقة ،
واتهموا من يتكلم في المنطق في دينه^(٦) ، بل لم يتساحوا مع نفر من الناس
صدرت عنهم أقوال تمس الدين في ساعة الضيق أو اشتداد المرض أو في لحظة خفة
وانبساط ، فعاقبوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر^(٧) .

وقد كثر اتصال الأندلسيين بالمشاركة أثناء رحلاتهم للحج والطلب ، وعاد
هذا الاتصال على الأندلسيين بفوائد جمة ، فانتسعت معارفهم في الفقه واللغة ،
وسموا الدروس في حلقات يتحدث فيها كبار شيوخ المذاهب المشهورة ، وتأصلت
— نتيجة لذلك — العلاقات بين شيوخ الأندلس وشيوخ المشرق ، وكان
الكثيرون منهم يقولون بمذاهب أكثر حرية من المذهب المالكي . ثم إن فرق
الباطنية والخوارج والأباضية والصفرية ، التي كثرت في المشرق والغرب ، لم تدع
أى فرصة لنشر ما تقول به تمر دون أن تفيد منها ؛ وكذلك وفد على الأندلس
من فقهاء المشرق وعلمائه نفر تكلموا بين أهله في هذه الآراء .

وأول من تنسب إليه المراجع الكلام في الاعتزال في الأندلس طيب
أديب قرطبي — لم تذكر اسمه^(٨) — رحل إلى المشرق في القرن الثالث الهجري ،
وحضر مجالس الدرس في العراق ، وعاد إلى بلده لينشر بين أهلها كتب الجاحظ .
« وكان الجاحظ رأس النافرين في عصره ، وكان عالماً متبحراً في الجدل ، عارفاً

بالفلسفة والكلام»^(٩) ، وقد عدل آراء إbraهيم النظام — من كبار مؤسسي مذهب الاعتزال — ووجهها وجهة أكثر حرية . واتبع هذه الآراء شيخان من أجداد أهل قرطبة هما أحمد بن عبد الله الحليبي ، وأبو وهب عبد العلي بن وهب القرطبي — مولى قريش ، وكان من أهل الفقه والشرع ، وكان ذا مكانة عليّة عند عبد الرحمن الأوسط^(١٠) — واتبعها كذلك خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة^(١١) ، الذي أحرق فقهاء المالكية كتبه عند موته^(١٢) . وكذلك تكلم في الاعتزال تلميذه ابن السّمين (أبو بكر يحيى بن يحيى)^(١٣) ، وغيره كثيرون ؛ وقد جمعوا بين الاعتزال ومذاهب الباطنية وآراء الفلاسفة والفقهاء .

وكانت بدعة الباطنية قد انتشرت في إفريقية في منتصف القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وصارت منظمة تنظيمياً سياسياً على يد الدولة الفاطمية الشيعية ، بفضل اجتهد رجالها في نشر الدعوة الفاطمية ، فلم تلبث أن انتقلت أطراف منها إلى الأندلس . وتحدثنا الكتب عن شيخ من أهل شرق الأندلس ، أسقط الكتاب وأصحاب معاجم التراجم اسمه ، أمر بصليبه عبد الرحمن الأوسط في سنة ٢٣٧/٨٥١^(١٤) لأنه تكلم في الدين بآراء جديدة ذات طابع باطني ، « فادعى النبوة وتناول القرآن على غير تأويله ، فاتبعه جماعة من الغوغاء وقام معه خلق كثير »(*) .

وخلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام في الأندلس ، كانت الرياضة والفلك والطب تتقدم في ببطء شديد جداً^(١٥) ؛ وكانت المشقة أكبر على من بحث في الطبيعة وما وراء الطبيعة . وكل ما نلحظه أثر غامض جداً من آراء أبي بكر الرازي الطبيب الفارسي في أصول التفكير الفلسفي الأندلسي ، وفي ذلك يقول آسبن بلاثيوس : « إن الفلسفة لم تدخل الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر ، وإنما وفدت عليه في صحبة العلوم التطبيقية — الفلك والرياضة والطب —

(*) ابن عذاري : البيان ، ٢ ، ص ٩٢ .

أو تسربت إليه مستترة في ثنايا يدع الاختزال وبعض مذاهب الباطنية ، كما اجتهد أصحاب هذه المذاهب — التي كان الناس يتحاشونها — في النجاة بأنفسهم من تعقب الفقهاء وأهل الدولة بالظهور في مظهر التدين والنسك^(١٦) .

ولدينا أخبار ترجع إلى أقدم أيام العصور الإسلامية في الأندلس ، تحدثنا عن زهاد أندلسيين اجتهدوا في تعذيب أبدانهم وحرمان أنفسهم من اللذات وآثروا الفقر من طوعية ، وكانوا يقطعون سواد الليالي في قراءة القرآن ، ويصومون الدهر ولا يأكلون إلا مرة واحدة في الأسبوع في شهر رمضان ، ولا يتداونون إذا مسهم مرض ، وقيمون حياتهم عزباً ، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء أو يفتدون به الأسرى ، ويقطعون العمر متوحدين بأنفسهم في عزلة وتأمل ، أو يربطون على النعور لمحاربة النصارى طلباً للشهادة^(١٧) . وكان هذا النسك خلال القرن الهجري الثاني أمراً فردياً ، يقنع الناس فيه بالعبادة ويحتشد في النجاة بنفسه ، ثم خرجوا بعد ذلك عن عزلتهم واجتهدوا في دعوة الناس إلى سلوك طريقهم ، وجعلوا يعظون الناس ، فصار لهم سریدون وأتباع ، وبدأت حياة الزهد وحلقات النسك والزهاد تظهر في الأندلس كما كان الحال في المشرق . وفي هذه المواضع جرت عادة الناس بالخلط بين الفلسفة وعلوم الزيب ، إلى جانب ما كانوا منصرفين إليه من تعبد وتدارس لشؤون الدين .

(١) المدرسة الأفلاطونية الحديثة

ف ١٠١ — محمد بن عبد الله بن مسرة^(١٨) :

كان محمد بن مسرة القرطبي (٨٨٣/٢٦٩ — ٩٣١/٣١٨) أول مفكر أصيل أطلعاه الأندلس الإسلامي ، وكان يستر آراءه وراء نسكه وزهادته ، وكان أبوه عبد الله من أهل البيع والشراء ، وكان يهوى آراء المعتزلة ، وكان صديقاً لخليل الغفلة ، وهو الذي علم ابنه محمداً علوم الدين والفلسفة . وقد توفي أبوه قبل

سنة ٩١٢/٢٩٩ وكانت سنة إذ ذاك سبعة عشر عاما ، وكان له في هذه السن المبكرة عدد من التلاميذ ، وكان يعيش مع أقربهم منه في معتزل له كان يملكه بجبل قرطبة . ولم تلبث الأراجيف أن انتشرت حول طبيعة تعاليمه ، ف قيل إنه كان يلقي تلاميذه بدعة الاعتزال — التي تقول بأن الإنسان هو الفاعل الحقيقي لجميع ما يصدر عنه من أعمال ، وأن عذاب النار ليس عذابا حقيقيا — كما قيل إنه ينشر آراء أنبا ذقليس ، التي تنحو نحو وحدة الوجود وتكاد أن تكون فلسفة إلحادية .

وكانت الظروف السياسية والاجتماعية العامة في الأندلس في ذلك الحين عسيرة حرجة ، فقد كان ذلك عهد الأمير عبد الله الذي لم يكن يعترف بسلطانه أحد من العرب أو البربر ، وكان كل رئيس منهم قد انتزى في ناحية وأصبح مستقلا فيها بالفعل ، وخرج من طاعته كذلك عمر بن حفصون ومن انضم إليه من المولدين الذين كانوا يمثلون رؤساء الحركة الوطنية الإسبانية . ورأى الأمير أن يسكت عن ابن مسرة وأتباعه خوفا مما قد يؤدي إليه تعقبه وأنصاره من فتنة جديدة ، كانت الحكمة تقضى بتلافيها في وقت اجتاحت فيه الفتن الأندلس كله . وخاف ابن مسرة على نفسه ، فزعم أنه خارج للحج ومهرب من قرطبة ، على إثر ما فعله الفقيه أحمد بن خالد المعروف بالحباب ، إذ كتب « صحيفة » اتهم فيها رأيه وعقيدته . وكان الحباب فقيها مشاورا وعارفا بعلوم الدين مشتهرا بالزهد والصلاح ، وكانت مكانته العلمية في قرطبة لا تقل عن مكانة ابن مسرة ، وشهرته بالتزام السنة أعظم . وخرج مع ابن مسرة اثنان من تلاميذه : محمد بن حزم بن بكر التنوخى المعروف بابن المديني ، وابن صيقل (محمد بن وهب القرطبي) . وألم ابن مسرة بالقيروان ، ثم نزل مكة وسمع أبا سعيد بن العربي ، وكان أبو سعيد يظهر أنه يروي الحديث على مذهب أهل السنة ، ولكنه كان يتكلم في الباطنية ويعلم دقائق أسرار الصوفية وآرائهم الإشرافية ؛ وقد كتب رسالة في الرد على ابن مسرة .

وعاد ابن مسرة إلى قرطبة ، ولزم معتزله في جبل قرطبة حيث اتخذ لنفسه دَوِيرَةً بناها على هيئة الدويرة التي اتخذها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للمارية القبطية أم ولده إبراهيم . وأخذ يقرأ دروسه ويعرض المسائل العويصة بطريقة بارعة وتعبير بليغ ، فيبدون لمن يسمع في ذلك العلم وكأنه يتكلم برأى أهل السنة ، في حين أنه كان يفتح بكلامه مغاليق الأسرار لطلابه ، وينتهي بأن يعلمهم كتبه التي ألّفها ؛ ومن بين أولئك التلاميذ واحد امتاز بمحنة الذكاء والنشاط ، هو حى بن عبد الملك ، « وكان قريب الجوار منه ، يسكن معه الأيام الكثيرة في متعبده بالجبل ، وينصرف ثم يعود . ولما وضع ابن مسرة كتاب « التبصرة » — ولم يكن يُخرج كتاباً حتى يتعقبه حوله كاملاً — احتال حى فيه حتى أُخرج إليه دون إذنه ورأيه ، وانتسخه ثم صرف الأصل ، وأتى بالنسخة إلى ابن مسرة فأراه إياها وقال : « تعرف هذا الكتاب ؟ » ، فلما تصفحه قال : « لا نفعك الله به » . ولم يُخرج كتاب التبصرة بعد ذلك إلى أحد » (*) . وكان من تلاميذه كذلك خليل بن عبد الملك القرطبي للتعبد — وكان من أهل التقى والورع البالغين — ومحمد بن سليمان العكي المعروف بابن المورورى ، وأحمد بن فرج بن مُنْتِيل بن قيس ، وغيرهم كثيرون .

وعاشت هذه الجماعة الصغيرة حياة مقفلة لا يُعرف من تفاصيلها شيء على وجه التحقيق ، فزعم بعض الناس أن أفرادها يعيشون وفق « طريقة » صوفية قررها لهم ابن مسرة . وقد كانوا يتظاهرون أمام الفقهاء بمظهر يخالف ما كان عندهم من النحوى آرائهم نحو المذاهب العقلية ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كانت لهذه الجماعة « طريقها » ، وأنها كانت تشبه الطرق الصوفية التى سار عليها ذو النون الإخيمى المصرى والنّهْزَجُورِى . ولما كان شيخ هذه الجماعة وأفرادها يتحرون التزام قواعد طريقهم التزاماً دقيقاً ، فقد انتهى الناس إلى الانقسام فى أسرم فرقتين : « فرقة تبلى به (ابن مسرة) مبلغ الإمامة فى العلم والزهد ، وفرقة تظعن

(*) ابن الأبار : تكملة ، ترجمة ١١٣ .

عليه بالبدع لما ظهر من كلامه في الوعد والوعيد ، وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم «(*)» ؛ وذهب الفقهاء إلى أن ابن مسرة وتلاميذه زنادقة .

وعند ما عرفت كتبه واطلع عليها الناس ثارت مشاعرهم ضدها ، وسرعان ما انتقلت إلى غير قرطبة من المواضع ، ووصلت للشرق فأنكرها نفر من علماء الجماعة المتسكين بالمأثور ، ولكن يبدو أن العلماء لم يقولوا بأن ما فيها منحرف عن النهج الصحيح . ومات ابن مسرة في قرطبة سنة ٩٣١/٣١٩ ، وشيع إلى قبره باحترام من خصومه وإجلال من أتباعه .

وقد ضاعت كتب ابن مسرة كلها ، ولم يصل إلينا إلا اسمائين منها هما : «كتاب التبصرة» و «كتاب الحروف» . وقد استطاع الأستاذ آسين پلاثيوس أن يجمع أطراف مذهب ابن مسرة الفلسفي والديني ، معتمدا على ما ورد منها في كتب الكتاب الأندلسيين ، أمثال ابن حزم القرطبي وصاعد الطليطلي والشهرزوري والشهرستاني وابن أبي أصيبعة والقفطي . ومحور مذهبه كله آراء أمباذقليس ، وليس المراد هنا أمباذقليس الحقيقي بل آراء أمباذقليس زائف عرّفه المسلمون عن طريق أساطير تزعم أنه عاش في عصر داود عليه السلام ، وأنه أحاط بعلم سليمان واليونان جميعاً ، وكانت آراؤه «خليطاً امتزجت فيه مذاهب الغنوصية التي قالت بها الأفلاطونية الحديثة ، كما كوّنها الإسكندرانيون وزينوها للناس بنسبتها إلى فيلسوف أغريغنت (أي أمباذقليس) ، لكي يكسبوها ما لهذا الفيلسوف من مكانة» .

ويقوم مذهب أمباذقليس الزائف هذا^(١٩) — وابن مسرة من بعده — على أفكار فيلون الإسكندري وأفلوطين (في التاسوعات) وفرقورتيوس الصوري وبروقليس ؛ والجانب الجديد فيها أنها أبرزت نظرية ثانوية موجودة في التاسوعات

(*) ابن الفرضي : علماء ترجمة ١٢٠٢ .

تقول « بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية » ، واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية .

ف ١٠٢ — مدرسة ابن مسرة :

أضنى الحكم المستنصر جوًا من التسامح على الحياة الفكرية الأندلسية ، وقد أعان ذلك مدرسة ابن مسرة على البقاء . وقد كان معظم تلاميذ ابن مسرة من أهل الأدب والمؤرخين والمعنيين بالجدل والتفكير الفلسفي ، ولم يكونوا من المنصرفين إلى دراسة الحديث . وقد أورد لنا المؤرخون أسماء بعضهم مثل طريف الرّوطلاي^(*) ومحمد بن مُفَرَّج المَعافري (يعرف بالغني) ، وابن أخت عبدون (أحمد بن وليد بن عبد الحميد بن عوسجة الأنصاري) ، ورُشيد بن محمد ابن فتح الدجاج (من أهل قرطبة ، يكنى أبا القاسم) ، وأبان بن عثمان بن سعيد بن البشر (يكنى أبا سعيد) ، ومحمد بن أحمد بن حمدون بن عيسى الخولاني (يعرف بابن الإمام) ، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي (من أهل قرطبة ، وأصله من جيان) ، وعبد العزيز بن حَكَم بن أحمد بن الإمام محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم ، وغيرهم . ولا يبدو أنهم غيروا شيئًا من تعاليم شيخهم ، وكان من علامات أهل هذه المدرسة « التشريق » ، أي أنهم كانوا لا يولون وجوههم شطر مكة في الصلاة ، وإنما نحو الشرق الفلكي^(٢٠) .

ثم ظهر لهذه المدرسة خصوم نذكر منهم محمد بن يَبْقَى^(٢١) الذي ولي قضاء قرطبة عند وفاة الحكم المستنصر ، وأبا بكر الزبيدي النحوي^(٢٢) ، وأبا عمر بن لب الطلمنكي^(٢٣) ؛ وقد اشتدوا في مهاجمة آراء ابن مسرة لما بدا على الحكم

(*) من أهل قرطبة ولكنه سكن روطلة ، وكان مولى للوزير أحمد بن محمد بن جدير .

الستنصر في أخرياته من رغبة في التكفير عما أبداه من ميل إلى الفلسفة فيما سلف ،
بالانصراف إلى أعمال التقى^(٢٤) . وتخرج أسر المسريين عندما تظاهر النصور
بالحمية للدين ، وما فعله من تركه الفقهاء يستخرجون من مكتبة القصر الكتب
التي لم يرضوها وإحراقها أمام الناس ، فزادت الحملة على أتباع ابن مسرة واضطروا
إلى الهجرة ، ومن هؤلاء عبد الرحمن المهندس الذي كان يلقب بإفليدس
الأندلس ؛ وأودع السجن صاعد بن فتحون بن مكرم السرقسطي المعروف بالحمار ،
الذي ألف مدخلا إلى الفلسفة سماه « شجرة الحكمة »^(٢٥) ، وتمقب الفقهاء ابن
الإفيلي وكان من ذوى العلم الواسع بالأدب وعلوم الدين والفلسفة^(٢٦) ، وأصاب مثل
ذلك تلاميذه ، مثل قاسم الذي كان ينتسب إلى البيت الأموي ، ومحمد شاعر بجانة ،
وابن الخطيب الذي اتهم بالزندقة ولم ينج من الموت إلا بشق النفس^(٢٧) .

ولم يضمحل أسر المدرسة المسرية مع ذلك ، فقد ظلت قائمة ولها أتباع :
فكان رأسها في أيام ابن حزم إسماعيل بن عبد الله الرعيني ، وكان بجانة الدار
وكان أهل بيته كلهم مسريين ، وكان من بينهم ابنة له لقبها الناس « بالمتكلمة »^(٢٨) .
وقد تكونت حول منذر بن سعيد البلوطي قاضي قرطبة وقيها العروف (٢٧٢ -
٨٨٦/٣٥٥ - ٩٦٦) جماعة تقول قول ابن مسرة ، وكان معتزليا^(٢٩) ، وتبعه
في ذلك أهله^(٣٠) وخاصة ابنه الحكم ، وكان شاعرا أدبيا طيبا فقيها متضلعا في
علوم الدين ، وكان رأس المعتزلة في الأندلس على أيامه ، وكان ينهج نهج ابن
مسرة في النسك^(٣١) .

وقد أدخل الرعيني شيئا من التعديل على آراء المذهب كما وضعها ابن مسرة ،
فقال بأن شيخ الجماعة ينبغي أن يعتبر إماما أى رئيسا سياسيا دينيا لها ، ودعا إلى
إحاطته بالإجلال والتوقير السكاملين ، وذهب إلى أن الملكية من كل صنف
غير شرعية ، وقال « بشكاح المتعة ، وأن العالم لا يفتى أبداً بل هكذا يكون
الأمر بلا نهاية »^{(٣٢)(*)} .

وليست لدينا معلومات عن المدرسة بعد الرعيي ، ولكن أثر آراء ابن مسرة ظل ظاهراً ملموساً زمناً طويلاً . وأصبحت المربيةُ مركز الصوفية في الأندلس ، تتكلم بآراء تنحو نحو وحدة الوجود ، وفيها ظهر محمد بن عيسى الإلبيري المتصوف ، وفيها ظهر كذلك أبو العباس بن العريف . ومن تلاميذ أبي العباس ابن العريف في غرناطة أبو بكر الليورقي (محمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى) ، وابن بَرَّاجان (عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال الإفريقي ثم الإشبيلي) وهو شيخ ابن عربي ، وابن قسِّي (أبو القاسم أحمد بن الحسين) في نواحي الجوف ، وهو الذي قاد « المرابطين » في قيامهم على المرابطين^(٢٣) .

ومن أخذ ببعض آراء ابن مسرة يحيى الدين بن عربي ، وعن طريقه انتقلت هذه الآراء إلى المشرق ، وأخذ بها كذلك بعض مفكرى اليهود مثل ابن جبرول وبعض الإسكولاستيين من النصارى مثل دومنجو جنزالذ أسقف شقوبية وقد دعا إليها في طليطلة ، وكذلك روجر بيكون وريموندو لوليو وغيرهم .

(ب) المدرسة المشائية

ف ١٠٣ - عودة الدراسات الفلسفية إلى النشاط :

كان من نتيجة الظروف التي خلقها للنصور بن أبي عامر بتظاهرة بالحيّة للدين ، وما أقدم عليه من إخراج كتب الفلسفة وعلوم اليونان من مكتبة الحكم المستنصر وإحراقها ، أن توقّف تطور الدراسات الفلسفية في الأندلس قليلاً . ولكن سقوط الخلافة ، وانتشار أمر الجماعة ، وقيام بملاك الطوائف في النواحي ، نفّست من مخقتها وأتاحت لها فرصة السير في الطريق الذي بدأته . ويعزو صاعد الطليطلى في كتاب « طبقات الأمم » تلك الحياة التي تجددت في كيان الدراسات الفلسفية إلى أسباب ترجع كلها إلى الحالة السياسية التي سادت الأندلس أيام الطوائف ويقول : « لم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون

ما يعرفونه منها (الحكمة وعلوم الأوائل) ، ويظهرون ما تُجَوِّز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك ، إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس ، واقترب الملك بين المنتزين عليهم في صدر المائة الخامسة من الهجرة ، وصاروا طوائف واقتمد كل ملك قاعدة من أهبات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم ، واضطرتهم الفتنه إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع ، فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة ، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ، ووُجد في خلالها أعلام من العلوم القديمة ، كانت أفلتت من أيدي المتحنيين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر ، وأظهر أيضا كل من كان عنده من الرعية شيء منها ما كان لديه منها . فلم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئا فشيئا ، وقواعد الطوائف تتمصر قليلا قليلا إلى وقتنا هذا ، فالحال بحمد الله أفضل مما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها ، إلى أن زهد الملوك في هذه العلوم وغيرها . لكن اشتغال الخواطر بما دم الثغور من تغلب المشركين عاما فعاما ، [وانتهاقهم] أطرافها ، وضعف أهلها عن مدافعتهم عنها ، قلل طلاب العلم وصيرهم أفراداً بالأندلس .

وقد ساد نواحي الأندلس كلها خلال ذلك العصر تسامح عظيم ، فتكلم أصحاب كل الآراء بما أرادوا من دون أن يخشوا شيئا ، وظهرت الاتجاهات كلها : من الفقهاء المتشددين خصوم كل تأمل إلى الفلاسفة العقليين الذين قالوا بدين واحد للبشر جميعا ، فقام الطبيب الفيلسوف الكرماني بنشر « رسائل إخوان الصفاء » في سرقسطة ، وكان الذي أتى بها إلى الأندلس مسلة الجريطي ، ودخلت معها أفلاطونية حديثة بالإضافة إلى ما تكلم به ابن مسرة منها .

وإلى جانب هذا الاتجاه الأفلاطوني الحديث — الذي بدأ ابن مسرة وانتهى بمحمي الدين بن عربي (ف ١٠١ و ١١٣) — قامت في الأندلس مذاهب الفلسفة المشائية وذاعت ذيوها واسعا .

ف ١٠٤ — أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (٤٥٩ — ١٠٦٧/٥٢٨)

— (١١٣٤) (٣٤) :

لا ندرى إذا كان قد انتشر بين أهل الأندلس كتاب « تقويم الذهن »
(نشره جنزالذ بالثيا مع ترجمة إسبانية سنة ١٩١٥ في مدريد) الذي ألفه
أبو الصلت الداني (ف ٣٩) . والكتاب رسالة في المنطق توجز آراء أرسطو في
أمانة ودقة .

ف ١٠٥ — ابن الصبير البطليوسي (عبد الله بن محمد بن الصبير النحوي ،

٤٤٤ — ١٠٥٢/٥٢١ — ١١٢٧) :

كان كاتباً لعبد الملك بن رزيق صاحب الشهلة ، وكان له في دولته « مجال
مزيد ومكان معتد » . كما يقول ابن خاقان ، ثم لجأ إلى طليطلة فبلنسية فسر قسطة .
كان — كما يقول ابن خاكان — عالماً بالأدب واللغات ، متبحراً فيهما مقدماً
في معرفتهما وإتقانها ، وله في اللغة مؤلفات جلية منها « كتاب الاقتضاب في
شرح أدب الكتاب » لابن قتيبة ، وهو أشبه بدليل يستعين به المشتغلون
بالكتابة عن أصحاب الدول ، و « كتاب الإنصاف في التنبيه على الأسباب الموجبة
لاختلاف الأمم » . وكلا الكتابين لهما أهمية فلسفية ؛ أما كتابه المسمى « كتاب
الحدائق » (نشره آسين يلايوس مع ترجمة إسبانية في سنة ١٩٤٠) فيقول في
حقه آسين : « إن كتاب الحدائق لا يمكن اعتباره مجرد كتاب سهل الاستعمال
يعين جمهور غير المتخصصين في الفلسفة على معرفة المبادئ الفلسفية ، بل له
— بفضل طابعه السهل المبسط — أهمية أخرى ، وهي أنه يعرض علينا صورة
صادقة إلى حد كبير للحالة التي كانت عليها المعارف الفلسفية في إسبانيا الإسلامية
في الفترة التي أُلّف فيها . فقد كُتِب في نفس الوقت الذي كان ابن باجة يؤلف

فيه كتبه ، وقبل أن يفكر ابن طفيل وابن رشد في شرح مؤلفات فيلسوف اسطاغاريا (أى أرسطو) . وما يزيد في أهميته أن ابن السيد يورد فيه فقرات بنصها من محاوره تياوس لأفلاطون . وهذه الفقرات التي يوردها ابن السيد من تلك المحاور لا تتفق مع نصها اليوناني المعروف ، مما يثير مشا كل متعددة تتعلق بالمراجع الخاصة بدراسة أفلاطون ، وهي مشا كل جديدة بأن يناقشها المتخصصون في الفلسفة . وعلاوة على ذلك كله فإن كتاب الحدائق يعتبر أول محاولة للتوفيق بين الشريعة الإسلامية والفكر اليوناني (*) (٣٥) .

ف ١٠٦ — ابن باجة :

كان أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ الملقب بابن باجة^(٣٦) (المتوفى سنة ٥٢٢ أو ٥٣٢ / ١١٢٨ أو ١١٣٨) من أهل سرقسطة ، وقد عُرف عند فلاسفة الإسكولاستيين باسم (أفيمپاس أو أفيمپاشيه أو أفيمپائيه) وهو تحريف لابن باجة . وقد عاش في أيام أحمد بن يوسف بن هود الملقب بالمستعين المتوفى سنة ٥٠٣ / ١١١٠ آخر أمراء بني هود . ولا يبعد أن يكون ابن باجة قد مارس الصياغة التي كانت صناعة أسرته ، ولم تحدثنا المراجع بشيء عن تعليمه أو دراسته . وكل ما نعرفه أنه عند ما دخل المرابطون سرقسطة استطاع ابن باجة أن يغال ثقتهم ، واتخذهم عاملهم على سرقسطة — أبو بكر إبراهيم بن تيفلويت — كاتباً له ، واشتهر أمره في ذلك الحين بالتضلع في الفلسفة والموسيقى وقول الشعر الجيد . وعند ما توفي ابن تيفلويت في سنة ٥٠٩ / ١١١٦ — أى قبل وقوع البلد في يد الفونسو للقاتل في سنة ٥١١ / ١١١٨ — غادر ابن باجة سرقسطة إلى جنوبي الأندلس ، وسكن ألبرية ثم غرناطة ، حيث كانت له ندوات أدبية تحدثنا عنها الكتب ، ثم رحل إلى فاس

(*) Asín Palacios, Ibn al-Sid de Badajoz y su libro de los cercos. Apud : Obras Escojidas. II. p. 407.

وقد اختصر بالثيا هذا النص فأوردته بجملة من الأصل .

وربما إلى جيان ، مبتعداً عن السياسة جملةً ، منصرفاً إلى التدريس والتأليف
 ووقع بينه وبين أبي الملا بن زُهر الطيب وابن خاقان الأديب (ف ١١)
 ما أوجب الفجور والتخاصم ، ويبدو أن سبب الخصومة بينه وبين ابن خاقان :
 — أى ابن باجة — تندّر بما كان يفعله أبو نصر الفتح بن خاقان من التها-
 بما كان يصله من إفضال الأسماء والسروات . [وقد رأينا كيف انتصف ابن
 خاقان لنفسه من صاحبه في المسادة التي أدارها عليه في « القلائد »] ، وإن كان
 هجاؤه المقذع له يتناقض تماماً مع ما قاله فيه في موضع آخر من مديح بالغ ، كقولها
 « نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعص
 وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأف
 فننا وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد .
 قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بمر خاطره فهو لسل ش
 مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي
 للإيمان شقيق ، والجلد الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطار
 يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تشقه اللبات والنحور ، وتد
 مع نطاسة جواهرها البحور » (*) .

وكان من خصوم ابن باجة أيضاً ابن السيّد البطليوسى تلميذ ابن خاقان
 وقد حقد الأطباء وكتباب الدولة على ابن باجة وحسدوه ، وآل أمره إلى أن م
 مسموماً في فاس بين سنتي ١١٢٨ و ١١٣٨ .

كان ابن باجة — كثيره من مفكرى العصور الوسطى — ملما بجميع
 اليونان . وهو أقدم مؤلف أندلسى نعرف عن يقين أنه درس فلسفة المشايخ
 ورجع إلى كتب الفارابى وابن سينا والغزالي . وأهم ما اشتغل به ابن باجة ش
 مؤلفات أرسطو ، ومن ذلك شرحه لكتاب « السماع الطبيعى » الذى يه

(*) القرى : نفع (طبعة محي الدين ، القاهرة ١٩٤٩) ص ٩٠ ، ص ٢٣٦ — ٣٧

أيضاً « بسم الكيان » ، وشرحه لجزء من كتاب « الكون والفساد » و « تاريخ الحيوان » و « النبات » . وإلى جانب ذلك وضع شرحاً لمنطق الفارابي ، وشرح « كتاب الأدوية المفردة » لجالينوس ، وشرح كتاباً في نفس الموضوع لابن وافد الأندلسي وهو كتاب انتفع به ابن البيطار انتفاعاً عظيماً .

ولم يكتب ابن باجة بالشرح والتعليق والاختصار ، بل ألف كتباً أودعها علمه الخاص يذكر المؤرخون منها « مقال في البرهان » ، ومقالاً آخر في « الاسم والمسمى » ، وكتاب « كلام في الإسطقسات » (يبدو أنه في الهندسة) ، ومؤلفات في « الرياضة والفلك » ، وكتاباً في « النفس » ، وكتاباً في « التشوق الطبيعي وماهيته » ، وكتاباً في « القوة النزوعية » ، و « رسالة الوداع » ، وكتاباً عن « اتصال الإنسان بالعقل الفعال » ، وكتاب « تدبير الموحّد » ، وغيرها كثير .

ولم يبق لنا من هذا الإنتاج الغزير إلا شرح ابن باجة لمنطق الفارابي (مخطوط بالإسكوريال) ، وهي رسالة في ذلك الفن تتجلى فيها شخصيته ، ومجموعة أخرى من الرسائل في الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية (مخطوطة في مكتبة أو كسفورد وبرلين) يعني بنشرها آسبن بلاثيوس بادثاً بمقالاته في « النبات » (الأندلس ، ١٩٤٠) ، [و « رسالة الوداع » في ترجمتها العبرية التي قام بها جودا بن فيثس ، وترجمة عبرية لقطع من كتاب تدبير الموحّد قام بها موسى التربوني في القرن الرابع عشر الميلادي وجعلها في نهاية تعليقه على ابن طفيل ، وقد اعتمد عليها مونك في تأليف كتابه . ورسالة الوداع^(٢٧) ترمي إلى إعادة العلم إلى مكانه الحقيقي به ، وبيان فضل العلم والمعرفة وفضل التأمل الفلسفي ، وكيف يؤديان وحدهما بالإنسان إلى معرفة الطبيعة ، وكيف يعينانه — بفضل من الله — على تعرف نفسه ، ويؤديان به إلى الاتصال بالعقل الفعال]^(*) .

(*) أسقط المؤلف العبارة التي بين الحاصرتين من الطبعة الثانية .

أما رسالته المسماة « قول في اتصال العقل بالإنسان » (نشر آسين نصها مع ترجمة إسبانية سنة ١٩٤٢) ، فهو يثبت فيها — كما يقول آسين — « أن العقل الإنساني ، وإن كان مجرد قوة أو استعداد لتقبل المعقولات ، فإنه إذا اتحد بالمعقولات يصير صورة الصُّور كما هو الحال في العقل الفعال ، بمعنى أنه يصير بمثابة محلِّ المثلِّ ومكان المعقولات ، وهو ما تصوره أفلاطون في محادثة طيماوس ورفض أرسطو قبوله ، لأنه لا يتفق مع الأساس التجريبي لرأيه في النفس . هذا وفي مذهب أرسطو في النفس تناقضٌ وغموض ، كانا سبباً في تلك المحاولات المضطربة التي اضطر إليها المشاؤون في العصور الوسطى — عرباً وإسكولاستيين — عندما أرادوا التعرفَ حقيقةً رأى أرسطو في النفس ، وعرضه عرضاً منهجياً متسقاً ، والتوفيقَ بينه وبين ما جاءت به الأديان من الاعتقاد بخلود النفوس ، وهو ما أنكره الإسكندر الأفروديسي أكبر شراح أرسطو في مؤلفه المسمى « كتاب النفس » ، الذي كثيراً ما يذكره الفارابي وابن باجة وابن رشد في سياق مناقشاتهم لتلك المشكلة الجوهرية ، وهي مشكلة حقيقة التعقل الخالص ووظيفة العقل المستفاد ووحدته العقل الفعال »^(٣٨) .

وفي هذه الرسالة — كما في غيرها من كتب ابن باجة — روح سارية من التدين تستوجب تصحيح الآراء القديمة التي قررها مونك ، والتي تهتم ابن باجة بأنه وجه الفلسفة توجيهها يتعارض مع نزعات الصوفية .

وفي رسالة الوداع التي نشرها آسين مع ترجمة إسبانية سنة ١٩٤٣ ، يثير ابن باجة مشكلة النهاية الأخيرة للنفس الإنسانية ويحاول حلها . وهي رسالة وجهها ابن باجة إلى تلميذه علي بن الإمام السرقسطي قبيل رحلته إلى المشرق ، يبين له فيها طريقاً في الحياة يؤدي إلى الاتصال بالعقل الفعال أو التعقل الخالص للمعقولات . وهو يقول فيها لصديقه هذا :

« . . وإليك الآن الأمر : فإن شئت أن تكون تسمى ليكون كالك

في الآلات — وذلك في اليسار — فتكون كالحالم ، أو كالك بالصحّة فتكون عبداً بالطبع ، سواء مَلَكَكَ إنسان أو لم يملِكْكَ ، أو يكون كالك بالفضائل الشكليّة فتكون مدبّراً من سواك تحتاج إلى مدبّر ، وتخرج من المرتبة الإنسانية بالطبع إلى مرتبة أشرف الحيوان ، غير الناطق — فإن العبد يشبه من الحيوان غير الناطق البغال والدواب التي تستعمل لجلدها وقوة أعضائها على الحمل ، ويشبه صاحب الفضائل الشكليّة الحيوان غير الناطق ذوى الهيات الكريمة (*) ، كالأسد في الجرأة والديك في الكرم ، وذاتك الصنفان مدبران — أو تكون كاملاً بالصناعات العملية فتكون — لعمرى — إنساناً ، لأنك تدبّر عند ذلك ولا تدبّر ، إلا أنك تكون بهذا التدبير خادماً للإنسان غيرك ، إما دون توسط كالسكران ، وإما بتوسط كمن يصنع رباط الخيل ، فإنه يخدم أولاً الخيل وثانياً الإنسان لأنه ينتفع بالخيل ، فإن شأج في ذلك مشأج كنت متما لغرض غيرك ومرووساً بالطبع ؛ وكذلك القوى ، غير أن القوى أشرف ، فتكون أشرف وأرفع الخدمة كالوزير للملك ، أو تكون كاملاً بكالك الذي يختصك ، فتكون قد مكّلت في ذاتك ولم تفتقر في الوجود إلى سواك ، بل كلّ إنسان وكل موجود كائنٌ فاسد نحوك ، وبوجودك صار أولئك موجودين ، وبوجودك أولاً صرت أنت كائناً ؛ مثال ما أقوله أن بالقطع صار السكين سكيناً ولولاه لما كان ، وبالسكين صار القطع خادماً ولذلك اتّخذ . وهذا بينٌ عند من حاول النظر في أمثال هذه الأمور ، وهذه مراتب يجب للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء منها على بصير بها وتقديرها ، ويعلم أيّ مرتبةٍ خار .

« وأيضاً فإن من حصلت له هذه الرتبة حصل في حال لا تضارعه فيها الطبيعة ولا تنازعه النفس البهيمية ، وعلم بهذه الحال التي بها يكون الخلاص من هاتين المنازعتين — أعنى الطبيعة والبهيمية — حال لا يمكن أن توصف بأكثر (*) كذا في الأصل المطبوع ، ولعله يريد أن يقول : ذوى الهيات الكريمة من الحيوان غير الناطق .

من هذا ، وهذه الحال يفوق النطق جلالها وشرفها ولذتها وبهاؤها وبهجتها ، فإن الألم إنما هو من أجل هذه الطبيعة ، واللذة من قبيل النفس ، إلا أن النفس البهيمية لا تحتمل شيئاً واحداً لأنها غير بسيطة ، فذلك يكون المؤلم لها الآن مُلداً غداً ، لأنها قريبة من الطبيعة ، فذلك لا تبقى على حال ، وأما النفس الناطقة فلنُبْعدها عن الميولى تبقى بحال واحدة ، ولا ضدَّ عندها إلا أنها تتكثر ، فأما هذا العقل المستفاد فلأنه واحد من كل جهة فهو في غاية البعد عن الميولى ، لا يلحقه التضاد كما يلحق الطبيعة ، ولا العمل عن التضاد كالنفس البهيمية ، ولا أثر التضاد كالناطقة التي تعقل للمقولات الميولانية المتكررة ، فهو أبداً واحد وعلى سنن واحد في لذة صرف وفرح وبهاء وسرور ، وهو مقوم للأمور كلها ، والله عنه راضٍ أكمل ما يكون من الرضى .

« فإن صالح السلف قالوا إن الإمكان صنفان : صنف طبيعي وصنف إلهي ، فالطبيعي هو الذي يُدرك بالعلم ويقدر الإنسان على الوقوف عليه من تلقاء نفسه ، وأما الصنف الإلهي فإنما يُدرك بمعونة إلهية ، ولذلك بعث الله الرسل وجعل الأنبياء ليخبرونا — معشر الناس — بالإمكانات الإلهية ، لما أراد — عز اسمه — من تميم أجل مواهبه عند الناس وهو العلم ، وفيما جاءت به الشرائع الحض على العلم ، وفي شريعتنا الإلهية ما يدل على ذلك ، منه قوله — عز اسمه — في الكتاب المنزل « والراسخون في العلم يقولون آمناً به كلٌّ من عند ربنا » ، يعنى الإمكانات الإلهية ، وقوله — عز وجل — « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، لأن من علم الله حق علمه علم أن أعظم الشقاء سُخْطه والبعد منه ، وأعظم السعادة قدراً رضاه والقرب منه ، ولا يكون الإنسان أقرب منه إلا بمعرفة ذاته ، ولذلك يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم : « خلق الله العقل فقال له أَقْبِلْ فَأَقْبِلْ ، ثم قال له أَذْبِرْ فَأَذْبِرْ ، فقال : وعزنى وجلالى ما خلقتُ خلقاً أحبَّ إلى منك » . فالعقل أحب الموجودات إلى الله عز وجل ، فإذا حصل الإنسان هو ذلك العقل

بعينه — لا فرق بينهما بوجه ولا على حال — فقد حصل ذلك الإنسان أحبّ المخلوقات إليه ، وعلى قدر قرْبِه منه قرْبُه من الله ورضى الله عنه ، وهذا إنما يكون بالعلم . فالعلم مقرب من الله والجهل مبعّد منه ، وأشرف العلوم جميعاً هو هذا العلم الذى قلناه ، وأجلّه مرتبة هذه المرتبة التى هى تصوّر الإنسان ذاته حتى يتصور ذلك العقل الذى قلناه قبل .

وإذن فإن النفس إذا تخلصت من العوارض الغريبة عن جوهرها ، وتحررت حتى من التعقل نفسه ، « تجد نفسها — كالعقل المستفاد — فى حالة وحدة وبساطة وروحانية لا توصف ، تتميز بالخلاص من جميع الآلام وبالتمتع بغبطة هادئة مطمئنة لا يعترىها تغير ، وهى التى تضمن نوال رحمة الله » ، كما يقول آسين .

أما كتاب « تدبير التوحيد » فلم يكن معروفاً منه حتى الآن إلا شذرات اقتبسها موسى الزربونى وترجمها إلى العبرية (فى القرن الرابع عشر) وجعلها فى نهاية شرحه على ابن طفيل ، وقد انتفع بها مونك ، ولكن آسين عثر على نصه العربى وسينشره (*) ، وإليك ملخص آراء ابن باجة فى هذا الكتاب كما عرضها آسين : « يفترض ابن باجة وجود « مدينة فاضلة » أو كيان سياسى هو المثل الأعلى لدول . وفى هذه المدينة المثالية لا تمس الحاجة إلى أى من طوائف الأطباء الثلاث : أطباء البدن لأن الرعايا لا رذائل لهم ومن ثم فهم لا يمرضون ، وأطباء العدالة وهم القضاة لأن جميع علاقات المواطنين قائمة على الحب ولا يقع الخلاف بينهم أصلاً ، وأطباء النفوس [وهم الحكماء] لأن « المتوحدين » يكونون كاملين . وهو يعتبر أولئك المتوحدين وكأنهم نوابت^(٤٦) (أى نباتات) أو نماذج مختارة تعيش وسط المجتمعات الأخرى التى يشوبها النقص ، وهم لا بد لهم من أن يسترشدوا

(*) نشره فى مدريد سنة ١٩٤٦ .

(x) يقول ابن باجة فى « تدبير التوحيد » تفسيراً لهذا اللفظ : « ... ونقل إليهم هذا الاسم من العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع ، فنحن نحن بهذا الاسم الذين يرون الآراء الصادقة » ، (انظر طبعة آسين ، مدريد ١٩٤٦ ، ص ١٠) .

بتواعد الجمهورية الكاملة حتى لا نمس حاجتهم إلى أى طبيب ، أى أنهم يدبرون إلى شيء يشبه ما يسمى في مصطلح الصوفية بالغرباء .

وإليك قطعة من كلامه بنصه في هذا الصدد :

« ولما كانت المدينة الفاضلة تختص بعدم صياغة الطب وصناعة القضاء ، وذلك أن الحجة بينهم أجمع ولا تشاكس بينهم أصلا ، فلذلك إذا عرى جزء منها من الحجة ووقع التشاكس احتيج إلى وضع العدل ، واحتيج ضرورة إلى من يقوم به وهو القاضي . وأيضاً فإن المدينة الفاضلة أفعالها كلها صواب ، فإن هذا خاصتها التي تلزمها ، فلذلك لا يشتد أهلها بالأنغذية الضارة ، فلذلك لا يحتاجون إلى معرفة أدوية الاختناق بالقطر ولا غيره مما جانسه ، ولا يحتاجون إلى معرفة مداواة الحجر إذ كان ليس هناك أمر غير منتظم . وكذلك إذا أسقطوا الرياضة حدثت عند ذلك أمراض كثيرة ، ويُنَّ أن ذلك ليس لها . وعسى أن لا يُحتاج فيها في أكثر من مداواة الخلع وما جانسه ، وبالجمله الأمراض التي أسبابها الجزئية واردة من خارج ولا يستطيع البدن الحسن الصحة أن ينهض بنفسه في دفعها ، فإنه قد شوهده كثير من الأصحاء تبرأ جراحهم العظيمة من تلقاء أنفسهم ، إلى أشياء أخرى تشهد بذلك . فمن خواص المدينة الكاملة أن لا يكون فيها طبيب ولا قاض ، ومن الواحق العامة بالمدن الأربع البسيطة أن يُفتقر فيها إلى طبيب وقاض ، وكلما بعدت المدينة عن الكاملة كان الافتقار فيها إلى هذين أكثر ، وكان فيها مرتبة هذين الصنفين من الناس أشرف .

« ويُنَّ أن المدينة الفاضلة الكاملة قد أعطى فيها كل إنسان أفضل ما هو معدّ نحوه ، وأن آراءها كلها صادقة ، وأنه لا رأى كاذب فيها ، وأن أعمالها هي الفاضلة بالإطلاق وحدها ، وأن كل عمل غيره فإن كان فاضلا فبالإضافة إلى فساد موجود ، فإن قطع عضو من الجسد ضار بذاته ، إلا أنه قد يكون نافعا بالعرض لمن نهشته أنفى فيصيح بقطعه البدن ، وكذلك السموم نيا ضارة بذاتها ،

إلا أنها : فمة لمن به علة . وقد تلخصت هذه الأمور في كتاب نيقوماخيا ، فيبين أن كل رأى غير رأى أهلها يحدث في المدينة الكاملة فهو كاذب ، وكل عمل يحدث فيها غير الأعمال المعتادة فيها فهو خطأ ، وليس للكاذب طبيعة محدودة ولا يمكن أن يُعلم الكاذب أصلاً على ما تبين في كتاب البرهان ، وأما العمل الخطأ فقد يمكن أن يُعمل ليُنال به غرض آخر ، وقد وُضِع في الأعمال التي أمكن النظر عنها كتب كالحيل لابن شاطر ، فإن كل ما فيها لعب وأشياء يقصد التمتع بها لا مقصد لها في كمال الإنسان الذاتي ، فالقول فيه شرارة وجهل ، فإذا لم يوضع في المدينة الكاملة أقاويل فيمن رأى غير رأيها أو عمل غير عملها .

«ولسكى يصل ابن باجة إلى تعرف أى أفعال البشر يؤدي إلى هذه الغاية ، يقسم هذه الأفعال إلى صنفين : بهيمية وإنسانية ، وذلك بحسب دافع الإنسان إلى القيام بها . وذلك أن أعمال الإنسان إما أن تصدر عن الغريزة أو عن إرادة صادرة عن روية وتأمل ، بيد أن معظم أفعال الإنسان تختلط فيها هذه الدوافع بعضها ببعض ، ولهذا ينبغي على المتوحد أن يعمل على أن تكون أفعاله صادرة عن دوافع إنسانية ، ولا بد له من أن يسيطر على النفس البهيمية في كيانه ويخضعها للنفس العاقلة حتى يبلغ إلى أن يكون إنساناً إلهياً . وينبغي عليه أن يجعل وجهته من كل أفعاله إدراك الصور الروحية .»

[وإليك نص كلام ابن باجة في هذا الصدد :

«والإنسان — لأنه من الأسطوانات — فتلحقه الأفعال الضرورية التي لا اختيار له فيها ، كالأهوى من فوق والاحتراق بالنار وما جازسه . ومنه مشاركتة للحى من وجه فقط — وهى النبات — يلحقه أيضاً الأفعال التي لا اختيار له فيها أصلاً كالاختباس ، وقد يقع في هذه ضرب من الضرورة ، مثل ما يفعل الإنسان عند الخوف الشديد ، مثل شتم الصديق وقتل الأفعى والأب على أمر ملك ، وهذه فلاختيار فيها موقع ، وقد تلخصت هذه كلها في نيقوماخيا ، وكل ما يوجد للإنسان

بالطبع ويختص به من الأفعال فهي باختيار ، وكل فعل يوجد للإنسان باختياره فلا يوجد لغيره من أنواع الأجسام ، والأفعال الإنسانية الخاصة به هي ما يكون باختيار ، فكل ما يفعله الإنسان باختيار فهو فعل إنساني ، وكل فعل إنساني فهو فعل باختيار ، وأعني بالاختيار الإرادة الكائنة عن رؤية ، وأما الإلهامات والإلقاء في الروح وبالجملة فالانفعالات العقلية — إن جاز أن يكون في العقل انفعال — تشارك الإنسان ، فإن الإنسان يختص بها ، وإنما احتيج إلى اشتراط الاختيار في الأفعال التي من جهة النفس البهيمية ، فإن الحيوان غير الفاعل إنما يتقدم فعله ما يحدث في النفس البهيمية من انفعال ، والإنسان قد يفعل ذلك من هذه الجهة ، كما يهرب الإنسان من مفزع فإن هذا الفعل هو للإنسان من جهة النفس البهيمية ، ومثل من يكسر حجراً ضربه وعوداً خدشه لأنه خدشه فقط ، وهذه كلها أفعال بهيمية ، فأما من يكسره لئلا يخدش غيره أو عن رؤية وجب كسره فذلك فعل إنساني ، فكل فعل يفعله لا لينال به غرضاً غير فعل ذلك الفعل ، أو من جهة أنه لا ينال به غرضاً فإن كان له غرض ينال به لم يلحظه فذلك الفعل بهيمي وفعله عن النفس البهيمية فقط ، مثال ذلك أن آكلًا إن أكل القراسيا لتشبهه إياه فاتفق له عن ذلك أن لأن بطنه وقد كان محتاجاً إليه فإن ذلك فعل بهيمي وهو فعل إنساني بالعرض ، وإن أكله للتعجب الطبع لا لتشبهه إياه بل لتلين بطنه واتفق مع ذلك أن كان شهياً عنده فإن ذلك فعل إنساني وهو بهيمي بالعرض ، وذلك أنه عرض للنافع إن كان شهياً . فالفعل البهيمي هو الذي يتقدمه في النفس الانفعال النفساني فقط ، مثل الشهى أو الغضب أو الخوف وما شاكله ، والإنساني هو ما يتقدمه أمر يوجب عند فاعله الفكر ، سواء تقدم الفكر انفعالاً نفساني أو أعقب الفكر ذلك ، بل إذا كان المحرك للإنسان ما أوجبه الفكر من جهة ما أوجبه الفكر أو ما جانس ذلك ، سواء كانت الفكرة يقينية أو مظنونة ، فالبهيمي المحرك فيه ما يحدث في النفس البهيمية من الانفعال ، والإنساني هو المحرك فيه ما يوجد في النفس من رأى أو اعتقاد .

« ومعظم أفعال الإنسان في السير الأربع والمركب منها هو أيضاً من بهيمى وإنسانى ، وقلما يوجد البهيمى خلواً من الإنسانى ، لأنه لا بد للإنسان — إذا كان على الحال الطبيعية في أكثر الأسماء إلا في النادر وإن كان سبب حركته الانفعال — أن يفكر كيف يفعل ذلك ، ولذلك يستخدم البهيمى فيه الجزء الإنسانى ليجد فعله ، فأما الإنسانى فقد يوجد خلواً من البهيمى ، والتطبيب داخل في هذا الصنف ، ولكن في هذه قد تصبحها انفعال النفس البهيمية ، وإن كان معاوناً للرأى كان النهوض إليه أكثر وأقوى ، وإن كان مخالفاً كان النهوض أضعف وأقل » [.

« وهذه الصور الروحانية يقسمها ابن باجة إلى أربعة أصناف :
« أولاً : عقول الأفلاك .

« ثانياً : العقل الفعال والعقل الفائض عنه وليس مادياً بذاته ولكنه متصل بالمادة ، وذلك من حيث أنه يكمل الصور المادية من حيث هو عقل فائض أو هو يحملها كالعقل الفعال .

« ثالثاً : أصناف الصور المعقولة المادية ، أعنى التي ليست بذاتها روحانية ، وهى الصور التي توجد في النفس الناطقة إذا تجردت عن موضوعها المادى .

« رابعاً : الصور الحسية ، وهى وسط بين المعقولات المادية وبين الصور المادية الخالصة .

« وأنواع الأفعال الإنسانية تقابل أنواع الصور المتقدمة » .

[وهذا نص كلام ابن باجة :

« أولاً : صور الأجسام المستديرة .

« والصنف الثانى : العقل الفعال والعقل المستفاد .

« والثالث : المعقولات الهولانية .

« والرابع : المعانى الموجودة فى قوى النفس ، وهى الموجودة فى الحس المشترك وفى قوة التخيل وفى قوة التذكر .

« والصنف الأول ليس هيولانيًا بوجهٍ ، وأما الصنف الثالث فله نسبة إلى الهيولى ، ويقال لها هيولانيًا لأنها المعقولات الهيولانية ، لأنها ليست روحانية بذاتها إذ وجودها فى الهيولى . فأما الصنف الثانى فهو بهذا الوجه غير هيولانى أصلاً ، إذ لم تكن فى وقت من الأوقات ضرورة هيولانية ، وإنما نسبتة إلى الهيولى لأنه مهم المعقولات الهيولانية — وهو المستفاد — أو فاعل لها — وهو الفاعل . وأما الصنف الرابع فهو وسط بين المعقولات الهيولانية والصور الروحانية » [.

« وتقابل أنواع هذه الصور أفعال البشر :

أولاً : فهناك من الأفعال الإنسانية ما تكون الغاية منه وجود الصورة الجسمانية فقط ، وذلك مثل الأكل والشرب .

ثانياً : أفعال غايتها الصور الروحانية الجزئية ولها أصل فى الحس المشترك (كالتأق فى الثياب) أو فى الخيلة ، أو تلك التى يُقصد بها إلى التسلية والاهو المباح أو إلى الكمال العقلى والخلقى (مثل الدرس والكرم) .

ثالثاً : أفعال يقصد من ورائها إلى صور روحانية عامة وهى أكل الأفعال الروحانية ، ولها مكان وسط بين الأفعال السابقة التى تختلط بعض الشيء بالجسمية والأفعال الروحانية المطلقة .

رابعاً : الأفعال الروحانية الكلية التى هى أكل الصور الروحانية ، وهى الغاية القصوى للمتوحد .

والإنسان بالعنصر الجسدى فى كيانه مجرد مخلوق بشرى ، أما بالعنصر الروحى فى كيانه فيصعب كائناً أعلى ، ولكنه بالعنصر العقلى يصبح كائناً أرفع إلهياً . ثم يقول ابن باجة : « وإذا بلغ [الفيلسوف] الغاية القصوى — وذلك بأن يعقل العقول البسيطة الجوهرية التى تُذكر فيما بعد الطبيعة وفى كتاب النفس وكتاب

الحس والمحسوس — كان عند ذلك واحداً من تلك العقول ، وصدق عليه أنه إلهي فقط ، وارتفعت عنه أوصاف الحسية الفانية وأوصاف الروحانية الرفيعة ، ولاق به وصف « إلهي بسيط » ، وهذه كلها قد تكون للمتوحد دون المدينة الكاملة (*) .

ويجمل ابن باجة الصور الروحية مراتب ، ثم يمضي في استبعاد تلك التي لا يمكن أن تكون غاية للمتوحد . وهو ينصح بالبعد عن الناس لأنهم غير كاملين ، ويرى الخير في أن يمتزل المتوحد الناس جملةً وإن كان مقياً وسط الجماعة . ويقول إن الغاية القصوى للمتوحد هي الصور العقلية والتأملية ، ويصل الإنسان إلى هذه المرتبة عن طريق الدرس والفكر . وأعلى المراتب هي مرتبة العقل المستفاد الصادر عن العقل الفعال ، وعن طريقه يعرف الإنسان نفسه ككائن عقلي .

ويدرس ابن باجة في مهارة جدلية عظيمة كيف يصل العقل الإنساني إلى الحصول على الصور المعقولة ، ويتحد معها حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية ، أعنى معرفة الوجود الذي هو بذاته عقل بالفعل ، دون أن تكون به حاجة حاضرة أو سابقة إلى شيء يجعله يخرج من حالة القوة ، وهذا هو مفهوم العقل المفارق أعنى العقل الفعال ، الذي هو العاقل والعقل والمعقول ، وهذه المرتبة هي الغاية المطلوبة من وراء كل الأفعال .

بيد أن ابن باجة لا يذكر السبيل إلى التحقق من اتصال العقل الفعال بالعقل الإنساني . ويبدو أن ابن باجة كان يقول بضرورة معونة علوية ، ولكنه لم يستطع تحديد رأيه ورعنا كان سبب ذلك أن كتابه لم يكمل ، كما يقول ابن طفيل . والفكرة الأساسية التي أضافها ابن باجة إلى التراث الفلسفي هي التي تتعلق بأبعاد العقل الفعال بالإنسان . وقد كانت هذه الفكرة هي الأساس الذي بنى عليه ابن طفيل رأيه الصوفي في وحدة الوجود ، وتناولها ابن رشد وسار بها إلى الأمام وستنقل عن طريقه إلى الإسكولاستيين . وقد أخلت شخصية ابن باجة شخصية ابن رشد ، وهو الذي واصل دراسة آرائه .

ف ١٠٧ - ابن طفيل :

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي^(٣٩) ، ولد قبل سنة ٥٠٦/١١١٠ وتوفي سنة ٥٨١/١١٨٥ ، وأصله من وادي آش . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان تلميذاً لابن باجة ، ولكنه هو نفسه يذكر أنه لم يتصل به اتصالاً شخصياً . كان طبيباً في غرناطة ، وعمل كاتباً لعامل هذا البلد ولأحد أبناء عبد المؤمن ، وعلا أمره حتى أصبح طبيباً لأبي يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين (٥٥٨ - ٥٧٩/١١٦٣ - ١١٨٤) . وكانت له حظوة عظيمة عنده ، وهو الذي قدم إليه ابن رشد في ظروف معروفة ونصح هذا الفيلسوف القرطبي بأن يدون شروحه لكتيب أرسطو . ثم تخلى ابن طفيل عن عمله كطبيب المنصور وتركه لابن رشد ، وتوفي في مراكش سنة ٥٨٠/١١٨٥ - ١١٨٦ .

ومن المعروف أن ابن طفيل صنف في الطب كتباً ، وأنه كانت له آراء مبتكرة في الفلك ، وقد ذكر البطروجي أنه أخذ قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية من ابن طفيل .

ولم يبق لنا من مؤلفات ابن طفيل إلا رسالة « حى بن يقظان » أو « أسرار الفلسفة المشرقية » (الإشرافية) ، وقد ترجمه بوكوك إلى اللاتينية بعنوان « الفيلسوف المعلم نفسه Philosophus Autodidactus » ونشره في سنة ١٦٧١ ، وإلى الفرنسية ليون جوتييه في سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمته سنة ١٩٣٧ ، وترجمه إلى الإسبانية بونس بويجيس سنة ١٩١٠ ، وترجمه إلى نفس اللغة مرة أخرى جنزالد بالنثيا سنة ١٩٣٤ . وتبدأ الرسالة بموجز مفيد هام لتاريخ الفلسفة في الإسلام يمتدح ابن طفيل فيه عن تقدمه من الفلاسفة ابن سينا وابن باجة والغزالي^(٤٠) .

وإليك موجز هذه القصة كما أورده غرسية غومس :

« في جزيرة مهجورة من جزائر الهند » التي تحت خط الاستواء ، وفي وسط
 ظروف طيمنية طيبة^(٤١) ، تولد طفل من « بطن من أرض تلك الجزيرة تخرت
 فيه طينة على سر السنين »^(٤٢) من دون أن يكون له أم أو أب . وفي قول آخر أن
 تيار البحر حمله إلى هذه الجزيرة في « تابوت أحكمت زمره [أمه] بعد أن أروته
 من الرضاع » ، وكانت أميرة مضطهدة في جزيرة مجاورة^(٤٣) ، فاستودعت ابنها
 الأمواج حتى تنجيه من الموت . وهذا الطفل هو حي بن يقظان . فنبته غزالة
 وأرضته وصارت له كأمه . ونما « حي » وأخذ يلاحظ ويتأمل^(٤٤) . وكان الله
 قد وهبه ذكاء وقادراً ، فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه ، بل استطاع أن يصل
 بالملاحظة والتفكير إلى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها . وقد
 وصل إلى ذلك بطريقة الفلاسفة ، بطبيعة الحال . وأدت به هذه الطريقة إلى أن
 يحاول ، عن سبيل الإشراف الفلسفي ، الوصول إلى الاتحاد الوثيق بالله ، وهذا
 الاتحاد هو العلم الغزير والسعادة العليا المتصلة الخالدة في وقت واحد . ولكي يصل
 « حي » إلى ذلك دخل مغارة وصام أربعين يوماً متوالية . مجتهداً في أن يفصل
 عقله عن العالم الخارجي وعن جسده بواسطة التأمل المطلق في الله لكي يصل إلى
 الاتصال به ، حتى أدرك ما أراد^(٤٥) . وعند ما بلغ ذلك المبلغ لقي رجلاً تقياً يسمى
 « أسال »^(٤٦) أقبل من جزيرة مجاورة إلى هذه الجزيرة يحسبها خلاء من الناس .
 وقام أسال بتعليم الكلام لصاحبه المنفرد بنفسه والذي لقيه دون أن يتوقع ذلك .
 ولم يلبث أن وجد في الطريق الفلسفي الذي ابتكره حي لنفسه تعليلاً علوياً للدين
 الذي كان يعتقد ، وتفسيراً كذلك لكل الأديان المنزلة^(٤٧) . ثم أخذ أسال
 صاحبه إلى الجزيرة المجاورة ، وكان يحكما ملك تقي يسمى سلامان ، [وهو
 صاحب أسال الذي كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة]^(٤٨) ،
 وطلب إليه أن يكشف (لأهل الجزيرة) عن الحقائق العليا التي وصل إليها ، فلم
 يوفق^(٤٩) . ووجد عالمنا نفسيهما مضطربين آخر الأمر إلى أن يعترفوا بأن الحقيقة

الخالصة لم تُخلق للعوام ، إذ أنهم مكبلون بأغلال الحواس ، وعرفا أن الإنسان إذا أراد أن يصل إلى التأثير في أفهامهم الغليظة ، ويؤثر في إراداتهم المستعصية ، فلا مفر له من أن يصوغ آراءه في قوالب الأديان المنزلة . وكانت نتيجة هذا أن قررا اعتزال هؤلاء الناس المساكين إلى الأبد ، ونصّحهم بالاستمسك بأديان آبائهم^(٥٠) . وعاد حى وصاحبه إلى الجزيرة المهجورة لينعما بهذه الحياة الرفيعة الإلهية الخالصة التي لا يدركها إلا القلائل من الناس .

والأساس الفلسفي لهذه القصة هو الطريق الذي كان عليه فلاسفة المسلمين الذين نهجوا على مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد صور ابن طفيل الإنسان الذي هو رمز العقل في صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ، ورعى ابن طفيل من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة ، وهو موضوع شغل أذهان مفكرى المسلمين كثيراً .

أما القالب القصصى الذى اتخذ ابن طفيل سبيلاً لعرض آرائه الفلسفية ، فقد درسه الأستاذ غرسية غومس دراسة علمية بالغة العمق ، ذهب فيها إلى أن هذا الهيكل العام للقصة مأخوذ من « قصة الصنم والملك وابنته » ، وهى إحدى الأساطير التى نُسجت حول شخصية الإسكندر الأكبر ، ولا بد أنها كانت معروفة عند أهل الأندلس ، فتناولها ابن طفيل وصاغها فى قالب رمزى ، وفى هذا يقول غرسية غومس : « وقد وجد ابن طفيل فى هذه الفكرة الأدبية — ذات الحيوية المتصلة والتي تبدو حقيقية وإن كانت من نسج الخيال — السبيل إلى عرض نظرية المفكر المتوحد ونظريات فلسفية أخرى . وقد وردت فكرة الفيلسوف المتوحد فى كتابات ابن سينا وابن باجة . وقد وجد ابن طفيل فيها كذلك وسيلة تتفق مع تفكيره انفاقاً بديعاً ، بل ضمت هذه الحكاية موضعاً مناسباً استطاع ابن طفيل أن يُفرع فيه أفكاره ، ومن هنا نتج هذا التأليف الجميل بين قصة شائعة وبين الأفكار الفلسفية ، واستطاع ابن طفيل بأسلوبه العذب ، الذى يفيض

ابتكاراً ومنطقاً وقوة شاعرية ، أن يخلق منها أثراً من أعظم ما أطلعت عليه العصور الوسطى » (٥١) .

وأطرف من هذا أن حكاية الصنم نفسها هي التي أوجت إلى « جراسيان Gracián » فبكرة . كتابه المسمى « كَرِيْتِيْكُون . El Criticón = الناقد » . وقد استطاع كل من الأب . Pou و مِينْدُذ . بلايو من بعده أن يظهر العلاقة الواضحة بين شخصية أندرينيو التي ترد في قصة ذلك اليسوعي الأرغوني (أي جراسيان) وبين شخصية حي بن يقظان التي ابتكرها الفيلسوف المسلم ، ولا نعرف كيف أطلع جراسيان على رسالة ابن طفيل التي لم تنشر في لغة أوروية إلا سنة ١٦٧١ .. وقد أثبت غرسية غومس أن كتاب الكريتيكون أقرب إلى « قصة الصنم » منه إلى « رسالة حي بن يقظان » ، وأدت به المقارنة بين الحكايتين إلى القول بأن علة هذا التشابه هي أن جراسيان قد هذه الأسطورة التي كانت متواترة بين الموريسكيين الأرغونيين بمن غير شك ، ومن أدلة ذلك أن مخطوط الإسكوريال الذي يضم هذه القصة مكتوب بحروف لاتينية أرغونية ترجع إلى القرن السادس عشر (٥٢) .

وقد ذاعت قصة حي بن يقظان بين المسلمين ذبوا عظيماً ، وترجمها موسى التبروني إلى العبرية في سنة ١٣٤١ م ، وعلق عليها . وقد نقل ترجمة بوكوك اللاتينية إلى الإنجليزية جورج ريكث لكي يقرأها الكويكرز بين ما يقرأونه من كتب النقي والورع . ، وامتدحها الفيلسوف لينتز ، واعتبرها منندذ بلايو أبداً وأغرب ثمرات الأدب العربي .

وإليك بقرة من « رسالة حي » يتحدث فيها عن فضائل النار :
« واتفق في بعض الأحيان أن انقذت نار في أجمة قايخ على سبيل المحاكاة .. فلما بصر بها رأى منظرأ هاله وخلقاً لم يعهده قبل ، فوقف يتعجب منها ملياً ، وما زال يدنو منها شيئاً فشيئاً ، فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب ،

حتى لا تعلق بشيء إلا أنت عليه وأحاطته إلى نفسها ، فجعله المعجب بها ، وبما ركب الله تعالى في طباعه من الجراءة والقوة ، على أن يمد يده إليها ، وأراد أن يأخذ منها شيئاً . فلما باشرها أحرقت يده فلم يستطع القبض عليها ، فاهتدى إلى أن يأخذ قبساً لم تستول النار على جميعه ، فأخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر ، فتأثرت له ذلك وحمله إلى موضعه الذي كان يأوى إليه ، وكان قد خلا في جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك .

« ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ، ويقعدها ليلاً ونهاراً استحسناتها وتمعجباتها . وكان يزيد أنسه بها ليلاً ، لأنها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفع ، فعظم بها ولوعه ، واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه . وكان دائماً يراها تتحرك إلى جهة فوق وتطلب الملو ، فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التي كان يشاهدها .

« وكان يختبر قوتها في جميع الأشياء ، بأن يلقيها فيها فيراها مستولية عليها : إما بسرعة وإما ببطء ، بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه .

« وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات البحرية — كان قد ألقاه البحر إلى ساحله — فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطح قناره تحركت شهوته إليه ، فأكل منه شيئاً فاستطابه ، فاعتاد بذلك أكل اللحم ، فصرف الحيلة في صيد البر والبحر ، حتى مهر في ذلك .

« وزادت محبته للنار ، إذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شيء لم يتأت له قبل ذلك . فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها ، وقع في نفسه أن الشيء الذي ارتحل من قلب أمه الطيبة التي أنشأته ، كان من جوهر هذا الوجود أو من شيء يجانس . وأكد ذلك في ظنه ، ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته ، وبرودته من بعد موته ، وكل هذا دائم لا يخبثل ،

وما كان يجده في نفسه من شدة الحرارة عند صدره ، بإزاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الظبية ، فوق في نفسه أنه لو أخذ حيوانا حيا وشق قلبه ، ونظر إلى ذلك التجويف الذي صادفه خالياً عند ما شق عليه في أمه الظبية ، لآه في هذا الحيوان الحى وهو مملوء بذلك الشيء الساكن فيه ، وتحقق هل هو من جوهر النار ؟ وهل فيه شيء من الضوء والحرارة ، أم لا ؟ فعمد إلى بعض الوحوش واستوثق منه كتفا ، وشقه على الصفة التي شق بها الظبية حتى وصل إلى القلب . فقصده أولا إلى الجهة اليسرى منه وشقها ، فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخارى ، يشبه الضباب الأبيض ، فأدخل أصبعه فيه ، فوجده من الحرارة في حدٍّ كاد يحرقه ، ومات ذلك الحيوان على الفور . فصيح عنده أن ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك هذا الحيوان ، وأن في كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ، ومتى انفصل عن الحيوان مات .

ف ١٠٨ — ابن رشد : حياته ومؤلفاته (٥٢٦ — ٥٩٥ / ١١٢٦ —

(١١٩٨) (٥٣) :

يسميه الإسكولاستيون أفرويس ، واسمه الكامل أبو الوليد محمد بن رشد الحفيد ، تميزاً له من جده الفقيه — وكان يسمى أبا الوليد محمد بن رشد أيضاً — وهو ينتسب إلى أسرة قرطبية جليلة تكررت في أفرادها النباهة في الفقه . ولابد أن علوم الشرع كانت أول ما درس ، وربما درس الطب أيضاً ، إذ أن كتابه « الكليات في الطب » الذى عرف عند الأوروبيين في العصور الوسطى باسم كُوليجِيت Colliget (وهو تحريف لفظ كليات) لابد أنه كُتب في الفترة الأولى من حياته — قبل سنة ١١٦٢/٥٥٧ — وربما كان اشتغاله هذا بالطب هو الذى حبَّب إليه دراسة الفلسفة ؛ ولا يُعرف له كتاب فيها قبل ذلك التاريخ .

والسبب في انصراف ابن رشد إلى ترجمة كتب أرسطو وشروحها أن أبا يعقوب يوسف الموحدي (٥٥٧ — ١١٦٢/٥٧٩ — ١١٨٤) كان محبا للعلم والعلماء ،

وكان يحيط نفسه بأصنافهم ، وكان أبو بكر بن طفيل صاحب حظوة عظيمة عنده ، فقدم أبا الوليد بن رشد إلى أبي يعقوب يوسف في خبر لطيف حكاه عبد الواحد المراكشي^(٥٤) ، قال : « أخبرني تلميذه (أى تلميذ ابن رشد) الفقيه الأستاذ أبو بكر بُندُود بن يحيى القرطبي ، قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرها ، فأخذ أبو بكر يثنى على ويدكر بيتي وسَلَفِي ، ويضم بفضلِهِ إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى ، فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين — بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي — أن قال لي : ما رأيهم في السماء — يعنى الفلاسفة — أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل ؛ ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها ، ويدكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنينة ومركب .

« وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه ، قال : استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس — أو عبارة المترجمين عنه — ويدكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيداً لقرب مأخذها على الناس . فإن كان فيك فضلٌ قويٌّ لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تعنى به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ، ولا يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كثرة سنى واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه . قال أبو الوليد [بن رشد] : فكان هذا الذي حملني على تأخير ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس »^(٥٥) .

وكان ابن رشد إذ ذاك قاضياً لإشبيلية ، فأنصرف إلى دراسة مؤلفات أرسطو وشرحها ، وأخرج في سنة ١١٦٩/٥٦٤ كتابه « شرح لرسالة الحيوان » ، ثم عاد إلى قرطبة في سنة ١١٧٠ وأفرغ همهته كلها في دراساته الفلسفية ، ولم تصرفه عنها رحلاته إلى مراکش في سنتي ٥٧٣ و ١١٧٨/٥٧٧ و ١١٨٢ . وفي ذلك العام الأخير ولى قضاء قرطبة . وعندما تولى خلافة الموحدين أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٧٩ - ١١٨٤/٥٩٥ - ١١٩٨) علت مكانته عنده وأصبح منه ما كان ابن طفيل من أبي يعقوب يوسف ، فكان يخاطبه بخالطة الأخ ، وبلغ ابن رشد أعلى مكانة بلغها لدى الموحدين قبل موقعة « الأرك » التي كانت في سنة ١١٩٥/٥٩١ .

ثم وقعت الفرة بين الخليفة والفيلسوف بعد ذلك ، ولا يمكننا رد ذلك إلى أسباب تتصل بالعقيدة ، فقد كان المنصور على علم بمؤلفات ابن رشد ، وربما كان سببه نفور شخصي محض ، أو أنه وقع نتيجة لسعايات الحاسدين من أهل الحاشية ، وربما كان مرده كذلك إلى ما شمل نفس المنصور من حمية دينية بعد انتصاره على النصارى في تلك الواقعة . ولا يبعد كذلك أن الفيلسوف غالى في الإفصاح عن خواطره التي لم تكن تأتلف تماما مع حرفية العقيدة ، فلم يحتمل المنصور ذلك . وعلى أى الأحوال فمن الثابت أنه أصدر أمراً يحرم تدارس الفلسفة وعلومها وأخذ يضطهد المشتغلين بها . ودعا المنصور جماعة من الفقهاء فبحثوا آراء ابن رشد فثبتت من ناحيتها الدينية ، واتفوا إلى الحكم على تعاليمه بالمروق ، على رغم دفاع أبي عبد الله إبراهيم الأصولي عنه . وأعقب ذلك اتهام ابن رشد وصاحبه هذا بالزندقة علنا في الجامع . وجرّد ابن رشد من منصبه ونفى إلى أليسانة على مقربة من قرطبة ، وكانت بلدًا معظم أهلها من اليهود ، وانقلب عليه من كان يفيض في مدحه من الشعراء ، ومضوا يهجونه ويقولون في ذمه^(٥٦) .

ثم سعى نفر من سروات إشبيلية عند أبي يعقوب حتى رضى عن ابن رشد

في سنة ١١٩٨/٥٩٥ فاستقدمه إلى مراکش ، حيث مات ذلك العام (٩ صفر ١٠/٥٩٥ ديسمبر ١١٩٨) وووري جثمانه التراب في « مقبرة باب تاغزوت » ثم نقل إلى مدافن أهله في قرطبة ، وقد شهد يحيى الدين بن عربي نقل جثمانه وقال : « ... ولما جُعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة ، جُمِلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر ، وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد وصاحبي أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال : « ألا تنظرون إلى من (يريد : ما) يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه ؟ : هذا الإمام وهذه أعماله » ، يعني تآليفه . فقال له ابن جبير : « يا ولدي ، نعم ما نظرت ، لافض فوك » فقيدتها عندي موعظة وتذكرة ، رحم الله جميعهم . وما بقي من الجماعة غيري ، وقلنا في ذلك :

هذا الإمام وهذه أعماله يا ليت شعري، هل أنتب آماله ؟ (*)

أما مؤلفات ابن رشد فنذكر منها ما يلي :

١ : في الفلسفة : شروح مؤلفات أرسطو : وضع ابن رشد لمؤلفات أرسطو

ثلاثة أنواع من الشروح يختلف أحدها عن الآخر في السعة^(٥٧) ، فوضع شروحا مطولة لكتاب « التحليلات الثانية » (كتاب البرهان) ، ولكتاب « السماع الطبيعى » و « السماء والعالم » و « النفس » و « ما وراء الطبيعة » ، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب التي ذكرناها وأضاف إليها شروحا « للأرغانون (المدطق) » ومعه كتاب « إيساغوجي » لفرقون يوس الصوري ، وشروحا لكتاب « الكون والفساد » و « الآثار العلوية » و « الأخلاق إلى نيقوماخوس » ، وله شروح وتلخيصات مختصرة لهذه كلها عدا كتاب « الأخلاق » ، ولكتاب « الطبيعيات الصغرى » (عن الحس والحسوس) ، وشرح كذلك الكتب الأخيرة التسعة

(*) ابن عربي : الفتوحات المكية ، ج ١ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

من « الحيوان » ، ولدبنا الترجمات اللاتينية لهذه الكتب كلها وتراجم عبرية لكثير منها . أما في العربية فلم يبق منها إلا القليل ، نذكر منه « كتاب الكليات » (بالمكتبة الأهلية في مدريد) ويضم رسائل « السماع الطبيعي » ورسائل « السماء والعالم » و « الكون والفساد » و « الآثار العلوية » و « النفس » و « ما وراء الطبيعة » (وقد نشر « ما وراء الطبيعة » وترجمه إلى الإسبانية كارلوس كيروس في سنة ١٩١٩) ، ونشر الأب بويج كتاب « المقولات » — قاطيغورياس — سنة ١٩٣٢ .

ب — مؤلفاته في الفلسفة ، كتب أصبغة وضعها بنفسه : وعنى ابن رشد إلى جانب شروحه على أرسطو — وهي أوسع مؤلفاته انتشاراً — بوضع مؤلفات فلسفية ، منها كتاب « تهافت التهافت » (نشر في القاهرة سنة ١٨٨٦ ، ثم أعاد نشره الأب بويج سنة ١٩٣٠) وهو المعروف في تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى بعنوانه اللاتيني *Destructio destructionis* ، وقد ألقه ردّاً على « تهافت الفلاسفة » لأبي حامد الغزالي . وله كذلك كتاب « المقدمات » في الفلسفة ، وهو مجموعة من اثنتي عشرة مقالة معظمها في مسائل من علم المنطق (م . إسكوريال) ، وكتاب « اتصال العقل الفعال بالإنسان » (نشره الأب مورانا مع ترجمة إسبانية سنة ١٩٢٣) ، وله كذلك مقالتان عن اتصال العقل الفعال بالإنسان وموجز في المنطق ورسائل أخرى مختلفة بقيت لنا في ترجمتها العبرية (٥٨) .

ج — في علوم العقائد : نشر ماركوس يوسف مولر في ميونخ سنة ١٨٥٩ كتابين لابن رشد هما « فصل المفال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ، والثاني هو « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبهة المزينة والبدع المضلة » ، وذلك

على أساس مخطوطة الإسكريال (وقد ترجم « مولر » هذين الكتابين إلى الألمانية في سنة ١٨٧٥ ، وترجم جوتييه الثاني منهما إلى الفرنسية سنة ١٩٠٥) . وخلص آسبن بلاثيوس هذين الكتابين وعرضهما عرضاً شاملاً في مقاله « الرشدية اللاهوتية عند القديس توما الأكويني » (نشر هذا البحث في كتاب « التنويه بفضل كوديرا » سنة ١٩٠٤)^(٥٩) . وقد نشر ليون جوتييه كتاب « فصل المقال » في الجزائر سنة ١٩٤٢ .

د — في الفقه : نهج ابن رشد نهج من سبقه من آل رشد في العناية بالتأليف في علوم الفقه ، فألف فيها كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو كتاب في الفقه على مذهب مالك ، وقد نشر في القاهرة أخيراً .

هـ — في الفلك : لدينا ترجمة عربية المختصر الذي وضعه لكتاب الجسطى (= الكتاب الجليل) ، وينسب إليه كذلك « رسالة عن حركة الفلك » وكتاب آخر عن « استدارة فلك السماء والنجوم الثابتة » .

و — في الطب : أهم ما ألف ابن رشد في هذا الميدان « كتاب الكليات » وهو المسمى عند مفكرى المصور الوسطى الأوروبين باسم كوليجيت Colliget وهو دراسة شاملة لعلم الطب في سبعة كتب ، وقد نُشر مُصَوِّراً في تيطوان سنة ١٩٣٨ . ووضع كذلك شروحا لأجزاء ابن سينا في الطب ، ولمؤلفات أخرى لجالينوس عن « الحيات » و « القوى الطبيعية » و « الملل والأعراض » لجالينوس ، وغيرها . وألف كذلك مقالات عن « الترياق » و « الإسهال » و « المزاج » و « جملة من الأدوية المفردة » ورسائل أخرى كثيرة .

ف ١٠٩ — آراء ابن رشد الفلسفية :

عرف المثقفون من أهل أوروبا منذ زمن بعيد مؤلفات ابن رشد في ترجماتها

اللاتينية، وهي ترجمات تشوبها الأخطاء غالباً بسبب تمسك أصحابها بحرفية النقل مما يجعل فهم آراء ابن رشد عسيراً إذا نحن اعتمدنا عليها^(٦٠). ويجتهد المستشرقون المحدثون مثل كويروس والأب مورانا في تلافى ذلك النقص بالرجوع إلى أصولها التي كتبها ابن رشد وترجمتها ونشرها. وإليك فقرة من كتاب « ما بعد الطبيعة » :

« وأما كون الصور فاسدة ومتكونة وبالجملة متغيرة ، فإنما ذلك لما من حيث هي جزء من السكأن الفاسد بالذات ، وهو الشخص الذى هي مجموع المادة والصورة بما هي صورة مشار إليها لا بما هي صورة . وكذلك الأسر في المادة ، فإن التغير إنما يلحقها من حيث هي مادة شيء مشار إليه ، فأما بما هي مادة فلا . وإذا كانت المادة هي التي هي سبب التغير اللاحق للصور ، فأحرى أن تكون الصور كذلك ، لكن كون المادة معقولة ليس لما بما هي مادة ، إذ كان المعقول إعمال يلحق الشيء من جهة ما هو بالفعل ، بل عقلها أبداً يكون بالمناسبة ، فذلك في المادة الأولى أو من حيث عرض لها الفعل ، وذلك في المواد الخاصة بموجود موجود^(٦١) .

وابن رشد قبل كل شيء شارح لمؤلفات أرسطو ومعلق عليها ، ولو أنه لم يوفق في كل حين إلى عرض الآراء الحقيقية لفيلسوف اسطغاغايا ، وهو يعمد إلى عرض آرائه الخاصة في سياق شروحه وفي مؤلفاته التي وضعها بنفسه . وإليك موجز آراء ابن رشد كما يعرضها دى وولف :

- ١ — عقول الأفلاك ، وصدورها عن الله وتفاوتها في المرتبة : أى أن السماء تتكون من أفلاك عديدة ، لكل منها عقل هو صورته ، وكل فلك من هذه يحدث الحركة فيما دونه ، حتى نصل إلى فلك القمر وهو يؤثر (يفعل) في العقل الإنسانى .
- ٢ — قدم المادة وكونها بالقوة : يعتقد ابن رشد أن للمادة لم تكن عدماً ، وإنما هي قوة كلية تضم في ذاتها أصول كل الصور . ولما كان الحرك الأول

موجوداً بإزاء المادة الأزلية فإنه يُخْرِج ما هو في المادة بالقوة إلى حيز العقل ، وعن التسلسل المتصل لهذا كله ينشأ العالم المادى ، وهذا التسلسل في الـكون ضرورى واجب الوجود ولا نهاية له أزلاً وأبداً .

٣ — وحدة العقل الإنسانى وإنكار الخلود عن النفوس الجزئية : ويقول

دى وولف فى تفسير هذه النقطة :

إن العقل الإنسانى هو آخر العقول الفلّسكية ، وهو صورة غير مادية أزلية مفارقة للأشخاص ، وهو واحد فى العدد . وهذا العقل هو فى وقت واحد عقل فعال وعقل هيو لانى أو عقل بالقوة والإمكان . والعقل الإنسانى لو نظرنا إليه فى جملة لوجدناه مستقلاً عن الأشخاص وليس عقلاً لشخص بعينه ، وهو السراج الذى يئير الأرواح الجزئية ويمكّن الإنسانية على الدوام من المشاركة فى الحقائق الخالدة . وعملية التعلّق تحصل عند الفرد عن طريق اتصال عَرَضِيّ للعقل المفارق بالعقل الإنسانى الجزئى بواسطة صور المحسوسات . وهذه المرتبة الأولى من تَمَلُّكِ الصور تُؤلِّد فى الشخص العقلَ المستفاد . وهناك أنواع من الاتصال بين العقل الإنسانى والعقل المفارق أوثق مما تقدم ، ونعنى بها الاتصال الذى ينشأ من حصول المقولات فى العقل الإنسانى حصولاً بالفعل ، والاتصال الذى هو أعلى من ذلك وهو الذى يكون فى حالة الكشف الصوفى والوحى النبوى . والنتيجة المنطقية لهذا كله هى فناء الوعى الفردى .

والسعادة تكون فى الاتصال الذى يزداد توثقاً مرة بعد مرة مع عقل الإنسانية فى جملة . والأرواح الجزئية تموت ولكن الإنسانية خالدة .

٤ — تأويل القرآن والفلسفة : إن المنهج الذى حاول ابن رشد سلوكه

لكى يوفق بين الدين والعقل انتهى به إلى المذهب العقلى . وابن رشد يفرق بين التفسير الحرفى والتأويل الفلسفى للنصوص المقدسة ، ويقول إن هذا الأخير هو الوحيد الذى يمكّن الإنسان من الوصول إلى الحقائق العليا ، وهو لا يفتق فى نقطه

جميعاً مع التفسير الحرفي . والعقل الفلسفي هو الذي يبيّن ما هو تقليدٌ في الدين ،
ويبين أى العقائد يمكن تأويله وبأى وجه يكون هذا التأويل . وقد حاول ابن
رشد أن يوفق بين القول بحدوث العالم — وهو ما دافع عنه الغزالي — وبين
النظرية المشائية التي تقول بقدمه .

ويقول آسين إن هناك ثلاثة آثار نتجت عن المشكلة التي نشأت عند
المسلمين والنصارى واليهود عن العلاقة بين الفلسفة — خصوصاً الفلسفة
الأرسطية — والدين . وهذه الآثار هي :

١ — ردُّ المشتغلين بعلوم العقائد على أرسطو ؛ ويتمثل ذلك عند المسلمين في
الغزالي ، وعند اليهود في يهودا هلاوى (هاليثي) ، وعند النصارى في المدرسة
الأوغسطينية التي أسسها جيرمو الأوفرني Guillermo de Auvernia وإسكندر
الهالي Alejandro de Hales .

٢ — ظهور تعارض ، صريح أحياناً وغير صريح أحياناً أخرى ، بين علم
المشائين وبين الوحي ؛ وقد مثّل هذا التعارض الفلاسفة الإسلاميون الحقيقيون
بهذا الوصف ، ومثله في الجانب اليهودي ابن جبيرول ، ونراه في الجانب النصراني
فيما يسمى بالرشدية عند سيجر البرابانتى .

٣ — جمعٌ وتوفيق بين الناحيتين حاوله ابن رشد وموسى بن ميمون والقديس .
توما الأكويني .

وإذن فيرجع الفضل إلى هذا الفيلسوف القرطبي المسلم في أنه أتم أول محاولة
في هذا الباب نالت التقدير ، وأنه تمكن من الوصول إلى نظرية في العلاقة بين
الحكمة والشريعة كان لها من القيمة ما جعل مفكراً مثل القديس توما الأكويني
يعمد إلى الاستفادة منها .

ف ١١٠ - تلاميد ابن رشد :

ولا بد أن نذكر من تلاميذ ابن رشد المباشرين ابن طُمْلُوس (أبا الحجاج يوسف بن محمد ، ٥٥٩ - ١١٦٤/٦٢٠ - ١٢٢٣) ^(٦٢) من أهل جزيرة شقر ، وقد درس علوم الدين والأدب على أبي القاسم بين وضاح ، وهو غرناطي رحل إلى المشرق للحج والطلب وأخذ القراءات على أبي علي بن العرجاء ، فلما عاد قعد يقرئ الناس القرآن أربعين عاماً . ودرس ابن طُمْلُوس كذلك على قاضي بلنسية أبي عبد الله بن حميد وتحقق بالأدب . وقد ذكر عن نفسه أنه درس المنطق عن طريق بعض كتب الغزالي التي كان محمد بن تومرت منشيء حركة الموحدين ودولتهم قد أعاد لها احترامها بين أهل المغرب والأندلس ^(٦٣) ، [وقد جرت بينه وبين المتحاملين عليها (مثل مالك بن وهيب) مناقشات طويلة] ^(*) .

وعلى الرغم من أن من ترجموا لابن طُمْلُوس - كابن الأبار - يقولون إنه تلميذ ابن رشد ^(٦٤) ، إلا أنه لزم الصمت عن هذه الناحية ، وليس إلى الشك سبيل

(*) أبو عبد الله مالك بن وهيب الذي كان يسمى فيلسوف المغرب (القري : فتح ، ج ٢ ص ٣٢٢) لشهرته بالفلسفة ، ويقول في حقه عبد الواحد المراكشي : « كان قد شارك في جميع العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما كان ينفق في ذلك الزمان ، وكانت له فنون من العلم ... ومالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة . رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطليموس في الأحكام ، وكتاب المجسطي في علم الهيئة ، وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة يسمى حمد الذهبي (المعجب ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٨٥) وقد اضطر هذا الرجل بسبب تعصب الفقهاء واتهامهم إياه عند القاضي إلى إخفاء آرائه تحت ستار من الفقه . وعهد إليه علي بن يوسف في مناقشة محمد بن تومرت مهدي الموحدين » . (انظر جانباً من المناقشة عند ابن خلدون في الوفيات ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٤ ، ترجمة ٦٦٠ ، ص ١٤٥ - ١٤١ ، وانظر أيضاً : كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المسكني بالبيدق (باريس ١٩٢٨) ص ٦٨ - ٦٩ وتعليق ليفي پروفتسال على الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب في نفس المجلد ص ١٠٩ - ١١١) .

في أن دافعه إلى ذلك كان الرغبة في النجاة بنفسه مما كان من الممكن أن يثيره الفقهاء حوله من الشكوك . وكان طبيباً نابهاً ، وقد خلف ابن رشد في تطبيب أبي يوسف يعقوب المنصور^(٦٥) .

ولم يبق من كتبه إلا « المدخل إلى صناعة المنطق » (نشره مع ترجمة إسبانية آسين پلاثيوس ، وظهر الجزء الأول منه سنة ١٩١٦) وهو رسالة كاملة في المنطق بناها على ما ذكره الغزالي والفارابي في كتبهما واستعان « بكتاب أرسطاطاليس المكتوب في ذلك العلم » . وقد درس هذا الكتاب الأخير بتفسير أستاذ لم يشأ أن يذكره ، ولكنه لا يمكن أن يكون إلا ابن رشد ، وهو ينقل عن الفارابي في بعض الأحيان فقرات كاملة أخذها من رسالته العجيبة المسماة « تصنيف العلوم » . وأهم جزء في كتابه — من الوجهة العامة — هو مقدمته ، فقد رأى أن يرر تأليفه هذا الكتاب بعرض دقيق للإطار التاريخي للحركة العلمية بين المسلمين الأندلسيين ، مشيراً إلى المقياس الضعيف الضيق الذي اعتمد عليه الفقهاء إذ أنهم كانوا ينكرون علماً من العلوم ثم يرضون عنه ويقبلونه بعد ذلك ، وهو يقول بعد أن يتحدث عن الرّيب التي يثيرها الفقهاء حول علم المنطق ويتعجب من رجوعهم بالحكم فيما لا يعرفونه :

« ووجه آخر من الاسترابة معهم ما أذكره : وذلك أن أهل هذه الجزيرة — أعني جزيرة الأندلس — عند ما دخلها المسلمون في أيام بني أمية ، إنما كانت تحتوى على قوم وطوائف من العرب والبرابر ومن استقر فيها من مُصَالِحَة النصارى .

« وكل هؤلاء لم يكن عندهم علم ، وإنما وصلهم من العلم ما اضطروا إليه في الأحكام ، ونقل إليهم من التابعين وتابعي التابعين رضى الله عنهم من فروع المسائل فحفظوها . ولكون الناس محتاجين إليها بسبب الأحكام عظم حاملوها وجلّ مقدارهم ، وصار الحاملون لهذه المسائل عند العامة علماء بإطلاق ، وظنت

العوام وأرباب المسائل أن هذا هو العلم الذى يجب أن يُطلب ، ولم يظهر لهم علم سواه . فكانت الرياسة فى ذلك الزمان بهذا العلم ، واعتقدوا مع ذلك أن هذا العلم هو العلم الحق ، وأن ما اتصل بهم من المسائل عن الأئمة التى استنبطوها أنها من عند الله تعالى ، لكونهم إنما قبلوها عن كذا ، عن الإمام الذى قلده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله تعالى .

« وكان ما يتصرف فيه من المسائل فى أول الأمر على مذهب الأوزاعى ، ثم انتقلوا إلى مذهب مالك بن أنس رضى الله عن جميعهم فخذوا بمحبة هذا العلم والشفف به ، ونشوا على تعظيم أهله واعتقاد صدقهم وبنفس مخالفيه ، وذلك أنهم — لما كانوا يعتقدون فيه أنه الحق وأنه من عند الله — اعتقدوا فى مخالفيه الكفر والزندقة .

« ولما امتدت الأيام وسافر أهل الأندلس إلى المشرق ، ورأوا هناك العلماء وأخذوا عنهم المذاهب — أعنى مذاهب الأئمة المشهورين — وكتب الحديث ، وانقلبوا إلى الأندلس بما أخذوه عن شيوخهم وما جلبوه [من المسائل القريبة ، رأى علماء [الأندلس أن ما أتى به هؤلاء الداخلون هو مخالف لمذهبهم أو بعضه . وكان المخالف عندهم كافراً ، لمخالفته الحق الذى جاء به الرسول عن الله تعالى . فاعتقدوا لذلك فى هؤلاء الواصلين من المشرق بعلم المذاهب المنسوبة إلى الأئمة وعلوم الحديث أنهم كفار وزنادقة ، وقرروا ذلك عند العوام وعند آل السلاطن ، وقاموا فى طلب دماءهم وهتكهم نصرة لدين الله تعالى ، على زعمهم .

« وأعظم من امتحن على أيديهم من أفاضل العلماء ، ولقى كل مكروه منهم « بَقِيَّ بن مُحَمَّد » ، وكادت نفسه تذهب وتُزَقَّ كل ممزق لولا الأمير فى ذلك الوقت ، فإنه ثبت فى أمره وطالع ما عنده فاستحسنه ، وكان من جملة الذى أتى به من علم الحديث مسند ابن أبى شيبة ، فأمر الأمير بمطالعة ما عنده والأخذ

عنه . فانصرف الناس إلى « بقى » قليلا قليلا ، وأخذ عنه الحديث وما نقل عن الأئمة . وطالت الأيام فعاد ما كان منكرا عندم مألوفاً ، وما اعتقدوه كفراً وزندقة إيماناً وديناً حقاً .

« فدانوا بهذا مدة ودأبوا عليه ، إلى أن اتصل بهم علم أصول الدين ، فاعتقدوا فيه ما اعتقدوه أولاً في مذاهب الأئمة من أنه كفر وزندقة ، ولذلك قال القحطاني : « يا أشعريّة يا زنادقة الورى ! » فعدّ القوم الذين هم أهل السنة والناصرون لدين هذه الملة كفاراً وزنادقة . ثم أنسوا أيضاً بهذا المذهب — أعنى علم الأصول — ودرّجته الأيام إلى أن طالعوه وتمهروا فيه ، حتى كان فيه منهم أئمة وعلماء ، ولكن بقى في نفوس أرباب المسائل ، أعنى أهل الفروع — استنكارٌ لذلك إلى قريب من زماننا هذا ، فإن ذلك الاستنكار لم ينتسخ من نفوسهم بالكلية كما استنسخ استنكار المنكرين لعلم الحديث قبل ذلك ، ولكن صار الحامل لهذا العلم آمناً منهم في نفسه وماله ، متكلماً بما شاء من علمه ، يُملى فيه غير مترقب ولا خائف .

« فصار هذا العلم ، وعلم الحديث ، ومذاهب الأئمة ، ومسائل الفروع ، كل ذلك دين الله تعالى يجب الإيمان به والعمل بمقتضاه ، بعد أن كان فيه ما كان . « ولما امتدت الأيام ، وصل إلى هذه الجزيرة كتب أبى حامد الغزالي متفنتة ، فقرعت أسماعهم بأشياء لم يألّفوها ولا عرفوها ، وكلام خرج به عن معتادهم من مسائل الصوفية وغيرهم من سائر الطوائف الذين لم يعتدّ أهل الأندلس ميناظرهم ولا محاورتهم ، فبعدت عن قبوله أذهانهم ونفرت عنه نفوسهم ، وقالوا إن كان في الدنيا كفر وزندقة فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة ، وأجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير إذ ذاك وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة إلى الضلال بزعمهم ، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم إلى ما سألوه منه ، فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها ، وخاطب الأمير إذ ذاك جميع أهل مملكته

يأمرهم بحرقها ، و يُعلمهم أنه هو الذى أدى إليه نظر العلماء ، وقرئت مخاطبته على المنابر وشنَّع الأمر بذلك تشنيعاً عظيماً وامتحان من كان عنده منها كتاب ، وخاف كل إنسان على نفسه أن يُرى بأنه قرأ منها كتاباً أو اقتناه ، وكان فى ذلك من الوعيد ما لا مزيد عليه . وأشهر من امتحن فى هذه الثورة أبو بكر بن العربى رحمه الله ، فإنه صُلِّي بحرقها ثم عصمه الله بعد [بلاء] عظيم ، وفيه معنى قول الفائل : إن ينج منها أبو نصر فمن قدر . .

« ثم لم تكن تمتد الأيام إلا قليلاً حتى جاء الله بالإمام المهدي رضى الله عنه ، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه ، وندب الناس إلى قراءة كتب الغزالي رحمه الله ، وعُرف من مذهبه أنه يوافقه ، فأخذ الناس فى قراءتها وأعجبوا بها وبما رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذى لم يروا مثله قط فى تأليف . ولم يبق فى هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي ، إلا من غلب عليه إفراط الجود من غلاة المقلدين ، فصارت قراءتها شرعاً وديناً بعد أن كانت كفراً وزندقة .

« فلما رأيتُ هذا الذى ذكرته ، وما جرى عليه أمر الناس فى القديم والحديث ، من إنكارهم أولاً ما ألفوه واستحسنوه آخراً ، قلت فى نفسى : ولعل صناعة المنطق هكذا يكون حكماً ، تُنكر أولاً وتُسعمل آخراً ، وليس هذا ببدع فى حقها ، إذ لها التأسي فى ذلك بسائر العلوم . واستربت فى أمرها لهذا الذى علمته من أحوال الناس ، وسقط عني تقليدكم فى حقها وصارت عندي مجهولة الحال لا يمكن أن يُحكم عليها بخير أو شر ، حتى تُعرف كالعادة فى جميع ما يُحكم عليه بأمر ما فإنه لا يسوغ الحكم فيه حتى يُعلم . فلما رأيتها مجهولة وأن تعلمها مما يسوغ تشوقت إلى معرفتها ، كالحال فى جميع المعارف ، فإن المطلوب فيها أبداً مجهول بوجه ما وتُتشوّق معرفته » (*) .

(*) لم يورد المؤلف هذه الفقرة فى الأصل ولكن رأى إيرادها كنموذج لكلام ابن طلوس من ناحية ، ولما تعطينا إيها من تفاصيل هامة عن موقف الفقهاء من تطور الفكر فى الأندلس .

ابن طلوس : المدخل لصناعة المنطق (مدريد ١٩١٦) ج ١ ، ص ٩ — ١٣ .

ف ١١١ - الرشدية :

كان تأثير مذهب ابن رشد في تاريخ الفكر الأوروبي حاسماً ، فقد أخذ اليهود شروحه وترجموها إلى العبرية أو عملوا منها ملخصات في هذه اللغة . وكانت هذه الترجمات والمختصرات العماد الأكبر الذي بُني عليه العلم العبري ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي . ومن مصاديق ذلك ما نجده عند موسى بن ميمون من محاولة التوفيق بين الفلسفة المشائية والعقيدة الموسوية في كتابه « دلالة الحائرين » متبعا آثار الفيلسوف المسلم ، وينطبق هذا على كل ما خالفته المدرسة الميمونية ، وعلى المترجمين والمصنفين من اليهود الذين تبجلى نشاطهم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وخاصة أسرة بني طَبَّوْن (أو تَبَّوْن) ويهود المدرسة البروفنسنية في لونيل Lunel ، ويصدق أيضاً على كالونيمو بن ماير وكالونيمو بن تَدْرُسْ وصمويل بن مِسْلَمَ وليقى بن جِرْسُون ، بل هو يصدق على من ظهر منهم في القرن الخامس عشر الذي فترفيه نشاط اليهود العلني وفترت همتهم في الترجمة ، فقد ظلت كتابات ابن رشد مصدر إلهامهم ، ومنها قبس مفكرهم القليلون الذين ظهوروا في ذلك القرن الخامس عشر ، مثل شيم طَبَّ بن فالكويرا وإلياس دِلْ مِدِيجو Elías del Medigo .

وكان أثر ابن رشد في الحركة الإسكولاستيكية النصرانية أعظم من أثره بين اليهود . وقد كانت مدرسة مترجمي طليطلة (ف ١٤٩) هي المركز الذي انتقلت عن طريقه الفلسفة العربية إلى أوروبا ، وفيها أتم ميخائيل الإسكولندي Michael Scottus ترجمة كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، ويبدو أن ميخائيل هذا كان أول من عرف علماء الأمم اللاتينية بابن رشد . وفي طليطلة أيضاً شرع هرمان الألماني Hermannus Alemanus في نقل مؤلفات فيلسوف قرطبة إلى اللاتينية مرة أخرى . ومن المعروف أن هذه الترجمات حافلة بالعيوب والأخطاء ، لأن

الترجمة تمت فيها على مرحلتين : من العربية إلى مجمية الأندلس ، ومن هذه إلى اللاتينية . ثم إننا نجد آراء لابن رشد نشرها رجل مجهول يسمى موريس الإسباني Mauritiu Hispanus ، ونجد إسكندر الهالي وجيرونمو الأوفرنى ينقلان آراء عن ابن رشد ويشيران إلى ذلك ، (ويقول آسين پلاثيوس إن كتابات هذين المؤلفين ينبغي أن تدرس على ضوء آراء من اتبع طريق الأفلاطونية الحديثة من مفكرى العرب) . وقد أخذ « أليزنوس الأكبر » بعض آراء عن ابن رشد راغما ، [إذ لم يكن له عن ذلك محيص] واعترف بذلك . وما أخذه عنه القول بصدور العقول بعضها عن بعض ، والقول بتأثير الكائنات العليا على العقل الإنسانى ، ومن ذلك أيضاً آراء ابن رشد عن العلاقة بين العقل الفعال والعقل المستفاد . وأما القديس توما الأكوينى فقد كان أشد خصوم مذهب ابن رشد ، ولكن يمكن اعتباره فى نفس الوقت تلميذاً له فى المنهج ، بل فى طريقة التأليف . وقد أثبت آسين اعتماد القديس توما على ابن رشد فى المسألة التى يمكن أن تعتبر منتهى ما تصل إليه علوم اللاهوت ، أى فى التوفيق بين الدين والفلسفة .

ومنذ أيام توما الأكوينى نجد المدرسة الدومينيكية كلها تعارض آراء ابن رشد : فكتب ريموندو مارتين كتابه « ضربة الدين Pugio Fidei » فى الرد على ابن رشد معتمداً على نصوص من كتب الغزالى ، ووضع دانتى الشارح العظيم (ابن رشد) بين ذوى القدر العظيم من الرجال الذين لا يستطيعون النجاة بأنفسهم من عذاب جهنم بسبب عقيدتهم الدينية ، ومن تصدى لمناقشة ابن رشد ونقض آرائه « جيل الرومانى »^(٦٦) ورايموندو لوليئو خاصة ؛ وقد اجتهدا فى دحض آراء فيلسوف قرطبة فى عنف ، وإن كانت هذه الآراء قد شوّهت وحرفت عن مواضعها . أما أنصار نظريات ابن رشد فنجدهم بين رجال المدرسة الفرائشيسكية مثل « روجر بيكون » ، وفى جامعة باريس ، ومن أقطاب هذا الاتجاه فى تلك الجامعة سيجر البرابانتى .

وفي نفس الوقت الذي كانت شروح ابن رشد على مذهب أرسطو تجد قبولا في مدارس الفكر النصراني، بدأت تتكون — ابتداء من القرن الرابع عشر — صورة أسطورية أخرى لابن رشد نراه فيها خارجا عن الدين، فيُنسب إليه كتاب لم يره أحد وإن كان الكلام عنه على كل لسان، وزعموا أن ابن رشد تحدث في هذا الكتاب بنظرية « الدجالين الثلاثة » التي تقول ببطلان الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام جميعا، وتزعم أنها من وضع أصحابها. ونُسبت إليه كذلك نظرية القول بحقيقتين إحداهما الحقيقة الدينية والأخرى الحقيقة الفلسفية، وأنه قال لإنهما متناقضتان فيما بينهما ولكن كلا منهما صحيحة، وهي بالأخرى نظرية سيجر البرابانتى وغيره من الرشدين اللاتين. ويقول آسين إن ابن رشد لم يقل بنظرية الحقيقةين هذه أبدا، بل هو على العكس من ذلك حاول أن يوفق بين الدين والعقل. أما القول بالحقيقتين فيمكن أن يؤخذ من آراء محي الدين بن عربي (ف ١١٥) وأنها لا بد أن تكون قد انتقلت إلى سيجر وأتباعه عن طريقه أو عن طريق فلاسفة الأفلاطونية الحديثة^(٦٧).

ف ١١٢ — ابن العريف، أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن

عطاء الله بن العريف الصنهاجي (١٠٨٨/٤٨١ — ١١٤١/٥٣٥) :

ظهر أبو العباس بن العريف في المرية، وكأنه صدى بعيد لمدرسة ابن مسرة. وهو صاحب الكتاب الغريب المسمى « محاسن المجالس » (نشره آسين مع ترجمة فرنسية في باريس سنة ١٩٣١)، وهو يبين فيه أصول طريقة صوفية جديدة كان لها أثر ظاهر في طريقة الشاذلية وبصورة أوضح في مذهب ابن عباد الرندي. وتتلخص هذه الطريقة في بطولة « الزهد في كل شيء ما عدا الله، بما في ذلك الزهد في « منازل » الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما إليها من المثلن التي يهبها الله للنفس الإنسانية »، كما يقول آسين. ويذهب ابن العريف إلى أن هذه

الْبَيْنَ كُلِّهَا تَكُونُ لِلْعَوَامِ دُونَ الْخَوَاصِّ مِنَ الرَّاغِبِينَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ .
[وفي هذا يقول ابن العريف ، بعد أن يعرض لمنازل الصوفية ويشرحها
واحداً واحداً] :

« ... فهذه جميعها عِلَلٌ أَنْفِ الْخَوَاصِّ مِنْهَا وَأَسْبَابُ انفصالوا عنها ، فلم يبق
لهم مع الحق إرادةٌ ولا في عطايه شوقٌ إلى استزادة ، فهو منتهى مرادهم وغاية
رغبتهم ، فيعتقدون أن ما دونه قاطعٌ عنه : قال الله تعالى (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) ، فزهدهم جمعُ الهمة عن تفرُّقات السكون ، لأن الحق عاقبهم
بنور الكشف من التعلق بالأحوال : قال الله تعالى (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ
ذَكَرَى الدَّارِ) . وتوكلهم رضام بتدبير الحق ، وتخلَّصهم من تدبيرهم ، وفراغٌ
مهمهم من إجلالها في إصلاح شأنهم ، لوقوفهم على فراغ المدبر منها ، وتمرُّها على علمه
بمصلحتهم فيما قال الله تعالى (ارجى إلى ربك راضية مرضية) . وصبرهم صونهم
قلوبهم عن خواطر السوء ، لأنه ليس لله تعالى قضاء عارياً عن الرأفة خارجاً عن
الرحمة ، قال الله تعالى (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً) . وحُزنهم بأسهم عن
أنفسهم الأمانة بالسوء ، قال الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) . وخوفهم
هيبة الجلال لا خوف العذاب ، لأن خوف العذاب مناضلة عن النفس ، وهيئته
سبحانه تعظيم للحق ونسيان للنفس ، قال الله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) ،
وقال الله تعالى في حق العوام (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) .
ورجاؤهم ظنُّهم إلى الشراب الذي هم فيه غرق وبه سكرى ، قال الله تعالى (ألم
تر إلى ربك كيف مد الظل) ، وقال في ذكر الواسطة قبل ذكره له على الأفراد
(وما تلك بيمينك يا موسى) ، الآية . وشكرهم سرورهم بوجودهم ورؤيتهم
النعمة لموجدهم ، ومن رضى فله الرضى ، وعين الرضى عن كل عيب كليله ولكن
عين السخط تبدى المساويا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ قال الله تعالى (فاستبشروا
ببيعكم الذي بايعتم به) ، الآية . ومحبتهم فناؤهم في محبة الحق وأحبابه ، فإن

المحَابِّ كُلُّهَا ضَلَّتْ فِي عَجْبةِ الْحَقِّ ، وَتَصَاغَرَتْ وَاضْمَحَلَّتْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَاِذَا بَعِدَ الْحَقُّ اِلَّا الضَّلَالُ) . وَشَوْقُهُمْ هَرَبُهُمْ مِنْ رَسْمِهِمْ وَصِمَاتِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَعَجَلْتُ اِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) ، الْآيَةُ .

وَقَدْ تَجَلَّى اُتْرَدَعُوهُ ابْنُ الْعَرِيفِ وَطَرِيقُهُ الصُّوفِي فِي ثَوْرَةِ « الْمُرِيدِينَ » عَلَى الْمُرَابِطِينَ بِقِيَادَةِ ابْنِ قَسِي ^(٦٨) .

(=) التَّصَوُّفُ

ف ١١٣ — مَحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِي :

تَتَمَثَّلُ أَعْلَى صُورَةٍ وَصَلَ إِلَيْهَا تَطَوُّرُ مَذْهَبِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ [عِنْدَ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ] الْمَتَفَرِّعِ عَنْ مَدْرَسَةِ ابْنِ مَسْرَةَ (ف ١٠١) فِي شَخْصِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَرَبِيٍّ (١١٦٤/٥٦٠ — ١٢٤٠/٦٣٨) ^(٦٩) . وَقَدْ عَرَفَ ابْنُ عَرَبِيٍّ « بِمَحْيِي الدِّينِ » ، وَ « بِالشَّيْخِ الْأَكْبَرِ » ، وَ « بِابْنِ أَفْلَاطُونِ » . وَقَدْ وُلِدَ فِي مَرْسِيَةِ فِي بَيْتٍ حَسَبٍ وَتَقَى ، وَكَانَتْ أَسْرَتُهُ عَلَى ثَرَاءٍ ، وَلَا يَدَّ أَنْهُ دَرَسَ عُلُومَ الدِّينِ وَالْأَدَبِ دَرَسَةً شَامِلَةً . وَذَهَبَ بِهِ أَهْلُهُ وَهُوَ بَعْدُ طِفْلٌ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ عِنْدَ مَا اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ عَلَى مَرْسِيَةِ ، وَفِي إِشْبِيلِيَّةٍ قَضَى سَنَوَاتٍ طُفُولَتِهِ وَصَبَابِهِ ، وَلَمْ يَبْدُ مِنْهُ فِي سَنَةِ الْبَاكَرَةِ انْتِصَافٌ إِلَى حَيَاةِ الزَّهْدِ ، بَلْ كَانَ هُمُ الْآدَابِ وَالصَّيْدِ . وَفِي إِشْبِيلِيَّةٍ أَيْضًا قَرَأَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ وَدَرَسَ الْفِقْهَ عَلَى يَدِ أَحَدِ تَلَامِيذِ ابْنِ حَزْمٍ الظَّاهِرِيِّ . « وَكَتَبَ لِبَعْضِ الْوَلَاةِ » ^(٧٠) ، وَتَزَوَّجَ بِمَرْيَمَ بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الدَّيْمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَاجِي ^(٧١) ، وَعِنْدَ ذَلِكَ بَدَأَ مَجْرَى حَيَاتِهِ يَتَغَيَّرُ ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ التَّغْيِيرِ مَا كَانَ يَسْمَعُهُ مِنْ مُوَاعِظِ زَوْجِهِ الَّتِي ضَرَبَتْ لَهُ الْمَثَلَ الصَّالِحَ فِي الْوَرَعِ ، وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ أُمُّهُ كَذَلِكَ أَنْ يَقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَصَابَهُ مَرَضٌ فَلَزِمَ الْفِرَاشَ مَدَّةَ تَرَافَتْ لَهُ أَثْنَاءَهَا مَنَامَاتٌ تَمَثَّلُ لَهُ فِيهَا عَذَابُ جَهَنَّمَ ^(٧٢) ، وَتَوَفَّى أَبُوهُ

على بن عربي في أعقاب ذلك ، وكان قد أخبر — أى أبوه — بيوم وفاته قبل حلول أجله بخمسة عشر يوما^(٧٣) . وتجمعت هذه العوامل كلها ودفعت به إلى طريق الزهد والتصوف ، فنراه قبل سنة ٥٧٩/١١٨٤ — أى قبل وفاة أبيه — وقد سلك الطريق ، ومصدق ذلك تشوف ابن رشد إلى معرفته . ولا بد أنه انصرف انصرافا عظيما إلى دراسة كتب التصوف بعد أن اتجه هذا الاتجاه^(٧٤) .

ونذكر من أوائل أسانذته في التصوف موسى بن عمران الميرتلي الذي علمه كيف يتلقى الإلهام الإلهي^(٧٥) ، وأبا الحجاج يوسف الشُّبْرُبُلِي (وشُبْرُبُلُ Subórbol قرية بالشرف على فرسخين من إشبيلية) ، « وكان ممن يمشى على الماء »^(٧٦) ، وأبا عبد الله بن المجاهد ، وأبا عبد الله قسوم وكلهما من أهل إشبيلية ، وقد تلم منهما « محاسبة النفس » وكيف تكون^(٧٧) . بيد أن أسياذه الحقيقي كان « الاعتكاف » ، فكان ينفرد بنفسه أياما طويلة بين القبور يفاجي أرواح الأموات^(٧٨) .

ثم وقع بينه وبين شيخه أبي العباس العرياني^(٧٩) جدل ، فظهر له الخضر ، وهو — كما يقول آسين — « شخصية أسطورية تمثل زهاد المسلمين فيها ما أثر عن الرابانيين اليهود وعلماء النصارى من أخبار تدور حول إلياس النبي والقدیس جرجس ، مختلطا بأسطورة اليهودى التائه »^(٨٠) .

وقد مارس ابن عربي حياة التصوف مع شيوخ كثيرين ، وأخذ عنهم الكثير من رياضات الصوفية^(٨١) ، وأخذ على الأخص عن مجوز تسمى نونه فاطمة بنت ابن اللثنى القرطبية ، لزمها سنتين خادما ومريدا^(٨٢) ، وشاهد بنفسه ما كان يجري هل يدها من ظواهر التنبؤ الغريبة^(٨٣) .

وعند ما أحس أنه استكمل عدته خرج يحول في الأرض ، وقضى بقية حياته مهجولا ، « فكانت بقية أيامه رحلة متصلة في بلاد المسلمين والنصارى ، جابها كلها ، يتعلم ويعلم ويجادل » ، كما يقول آسين . ولدينا أخبار عن إلمامه بمورور^(٨٤)

وسرّشانة الزيتون^(٨٥) ومدينة الزهراء وقَبْرَفيق Cabrafigo (قرية على مقربة من رندة)^(٨٦). ثم رحل إلى المغرب ونزل بجاية (حيث لقى الصوفي شعيب بن الحسن الإشبيلي المعروف بأبي مَدَيّن، وبيالغ ابن عربي في وصف رؤاه وكراماته وفضائله وطريقته)^(٨٧). ثم أَلَمَّ بقونس حيث درس ما كتبه أبو القاسم بن قَسِيّ الزاهد^(٨٨)، وهو الذي بدأ ثورة «المريدين» في غرب الأندلس على المرابطين، وفي هذا البلد ظهر له الخضر مرة أخرى^(٨٩). ثم مضى إلى تلمسان^(٩٠)، وبعد أن قام بسياحات متعددة في نواحي المغرب والأندلس^(٩١) استقر في فاس سنة ١١٩٤/٥٩١^(٩٢)، حيث انصرف إلى الدراسة وإلى الرياضة الصوفية في الجامع الأزهر (بعين الخليل من مدينة فاس) وجَنَّة (حديقة) ابن حيون^(٩٣)، وهناك وقع له أول ما عَرف من حالات الإِشراق^(٩٤). ويبدو أن العلاقات بينه وبين الموحدين^(٩٥) لم تكن على ما يرام، وربما كان هذا هو الذي دعاه إلى السير إلى المشرق، ولكنه تلمكأ بعض الوقت قبل الخروج إليه وزار مرسية^(٩٦) والمرية، مركز جماعة ابن العريف^(٩٧)، وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم»^(٩٨)، وهي مدخل للمبتدئين في سلوك الطريق يصف فيها كيف يمكنهم السلوك فيه دون حاجة إلى مرشد روحي (أى شيخ). ثم قصد مراکش، وفيها رأى رؤيا جعلته يحزم أمره على السير إلى المشرق^(٩٩)، فخرج إليه وحل ببجاية (رمضان ٥٩٧ هـ). وفي ليلة من الليالي تزوج زواجا صوفيا بكل نجوم السماء والحروف كلها، «فما بقي منها نجم إلا أنكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت البدور فأنكحتها. وعرضت رؤياي هذه على مَنْ قصها على رجل عارف للرؤيا بصير بها، وقلت للذي عرضها عليه: لا تذكرني، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال: هذا هو البحر الذي لا يُدرك قعره، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب...»^(١٠٠). وعندما نزل تونس أَلَف كتابه «إنشاء الدوائر الإحاطية على مضاهاة الإنسان للخالق

والخلايق» ، وفيه يشرح تصوره المعقد المتقوى للكون بواسطة أشكال هندسية^(١٠١) .

وفي سنة ٥٩٨/١٢٠١ توجه إلى مكة وجاور فيها ، وهناك توثقت علاقته بأسرة أبي خاشة إمام مقام إبراهيم ، وتعلق بابنة له تسمى « نظام » ، وأوحى إليه تعلقه بها موضوع كتاب من أشهر كتبه وهو « ترجمان الأشواق »^(١٠٢) ، وهو من ناحية ظاهريه مجموعة من شعر العشق الذي قاله في هذه الفترة ، أما معانيه فصوفية ، المقصود بها الله والملا الأعلى وحلاوة الفناء في الخالق . ثم زاد نشاطه في التأليف^(١٠٣) ودخل في سلك طريق إخوان مكة^(١٠٤) ، وتوارث عليه المكاشفات وأخذ يخبر الناس عما سمعهم من العصائب ، وكتب كتابه « الدرة الفاخرة »^(١٠٥) ، وهو مجموع من سير الصوفية من أهل المغرب من شيوخه وإخوانه .

ثم هدأ واستقر في مكانه ردها من الزمن عاد بعده إلى التجوال ، فسار إلى الموصل سنة ٦٠١/١٢٠٤ ، وهناك لبس خرقة الخضر للمرة الثالثة على يد الشيخ الصوفي علي بن جامع في حفل أحاطت به مظاهر تبيين أهميته^(١٠٦) . ونجده بعد ذلك بسنتين (٦٠٣/١٢٠٦) في القاهرة ، حيث ظهرت على يديه كرامات ومعجزات غريبة في حلقة من الصوفيين كان مركزها « حارة القناديل » . وتسرب إلى جمهور الناس قوله بوحدة الوجود واشتهر أمره ، فتألب عليه الفقهاء واتهموه بالمروق ، فلم يعرهم أى اهتمام ، وقال إن نبأ ذلك كان عنده منذ زمان طويل ، فقد كشف الله له عنه . ولم يصبه اتهام الفقهاء إلا به بأذى ، لأن السلطان العادل الأيوبي كان متساهلاً ، فقبل في ابن عربي شفاعته صديقه أبي الحسن الباجي (نسبة إلى بجاية بإفريقية) وفسرت آراؤه تفسيراً رمزياً ، ولكن ابن عربي أصر على ما كان يقول به من آراء صوفية ، ولام صديقه أبا الحسن قائلاً : « وكيف يكون مسجوناً من حل الله في جسده ؟ »^(١٠٧) .

ثم مضى ابن عربي إلى بلاد الروم ونزل قونية^(١٠٨)، وسمع بأمره الملك كيقاوس الأول (تولى عرش قونية سنة ٦٠٧/١٢١٠) وزكاه.. وقال: « هذا تذلل له الأسود » أو كلاماً هذا معناه، وأمر له مرة بدار تساوى مائة ألف درهم، فلما نزلها وأقام بها مرة به بعض الأيام سائل فقال له: شيء لله! فقال: مالى غير هذه الدار، خذها لك. فتسلمها السائل وصارت له^(١٠٩). واجتذب نفراً من الناس فقتلوا له بسبب ما ظهر عليه من علامات القطبية^(١١٠)، وهناك ألف كتابي «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار»^(١١١). ثم ساح بنواحي الأناضول حتى بلغ أبرد نواحي أرمينية، حيث يتجمد ماء القرات^(١١٢). [ثم عاد إلى بغداد (٦٠٨/١٢١١)، حيث لقي شهاب الدين الشهرزورى قطب الصوفية^(١١٣)، وتلمذ له نفر من المريدين في هذا البلد^(١١٤). ومن بغداد كتب إلى كيقاوس خطاباً يعتبر وثيقة في «السياسة الإلهية»، يطلب إليه فيه أن يشتد مع النصارى^(١١٥)، وخطابه هذا يفيض بكراهية شديدة لهم، وهى كراهية تنجلي في كتبه الأخرى^(١١٦). ثم قصد مكة في سنة ٦١٠/١٢١٤، وفيها كتب «ذخائر الأعلاق» شرحاً على ديوانه «ترجمان الأشواق»، وقد رعى من وراء وضع هذا الشرح إلى القضاء على الأراجيف التي كان الفقهاء وأهل الدين يذيعونها حوله، إذ استعظموا معاني العشق الواردة في «الترجمان» وما تتحدث عنه من عاطفة حسية مادية، وقد غابت عنهم المعاني الصوفية التي أرادها^(١١٧).

وتوجه بعد ذلك إلى قونية فوجد كيقاوس قد خرج لحصار أنطاكية، فتوجه ابن عربي إلى سيواس حيث رأى في نومه انتصار كيقاوس واستيلاءه على أنطاكية، فذهب إلى ملطية، ومن هناك وجه إلى الملك خطاباً بالبشرى، ووصل الخطاب قبل أن تتحقق رؤيا ابن عربي، وقبل سقوط أنطاكية في يد كيقاوس بعشرين يوماً^(١١٨). ثم قصد حلب حيث لقيه السلطان الظاهر غازي (صاحب حلب حتى سنة ٦١٣/١٢١٦) فأعجب به وبلغ من نفسه مكانة جماله يقدمه على من

كان حوله من الحاشية والفقهاء ، وكان ابن عربي يبنغضهم ^(١١٩) .

ثم اعتلت صحته ^(١٢٠) ، وزاد ما كان يبدو عليه من مظاهر الجذب واضطراب العقل ، وفي هذه الحالة من الاعتلال الجسدى والعقلى كتب كتابه « الحكمة الإلهامية » ، وهو رد على الفلاسفة ونقض لأرائهم على طريقة الغزالى فى « التهاافت » ^(١٢١) . ثم مضى باحثاً عن مكان معتدل الجو يلائم صحته ، واختار دمشق واستقر فيها من سنة ١٢٢٣/٦٢٠ إلى وفاته . وكان واليها الملك المعظم بن العادل من مردييه ^(١٢٢) . وفى دمشق كتب ثلاثة كتب ، هى : « فصوص الحكم » ، و « الفتوحات المكية » ، و « الديوان » ، وفيها كذلك رأى رؤيا شهد فيها الخالق سبحانه ^(١٢٣) ، وفيها كذلك قضى أخريات أيامه ضيقاً على قاضيه ابن الزكى ، وانصرف إلى التأليف حتى أدركته منيته ليلة الجمعة ٢٨ ربيع الآخر ٦٣٨/١٦ نوفمبر ١٢٤٠ ، ودفن بسفح جبل قاسيون خارج دمشق بالتربة الصالحية .

وقد أخذ إجلال الناس لابن عربي يزاد بعد موته « فجعلوه قطباً شبه نبي ، ولم تلبث المآثورات المتداولة عنه بين تلاميذه أن صارت مصدراً لعدد لا يحصى من الحكايات الأسطورية نسبت إليه ثم اختلطت بترجمة حياته » ^(١٢٤) . وقد بنى السلطان سليم العثمانى قبة كبيرة على قبره وأنشأ مدرسة رتب لها الأوقاف ^(١٢٥) ، وقد كانت هذه المدرسة قائمة لا تزال فى أيام المجرى على أوائل القرن السابع عشر ، وذكرها فى « النفح » .

ف ١١٤ — مؤلفات ابن عربي :

قيل إن ابن عربي كتب نحو أربعين كتاباً ورسالة ، وقد ذكر من ترجموا له الكثير من أساميها ونبدأ عنها ، وسنظم هنا بذكر مؤلفاته الثلاثة الكبرى :

١ — « فصوص الحكم » ، ألّفه سنة ١٢٢٩/٦٢٦ : إلى هذا الكتاب

يرجع الفضل فيما تتمتع به ابن عربي من شهرة كبرى بين الصوفيين ، كؤلف لكتب المكاشفات التي ترفع الحجب عما وراء الغيب . وفيه يعرض مذهبه الغامض المتناقض في وحدة الوجود على صورة إيماءات يرُدُّها واحداً بعد الآخر إلى تعاليم السبعة وعشرين نبيا المقدمين على مَنْ سوامهم من الأنبياء الذين يسلم الإسلام بأنهم مرسلون ، وأولهم آدم وآخرهم محمد ؛ وقد كثرت التعليقات والشروح على هذا الكتاب^(١٣٦) .

٢ — « الديوان » ، ألفه سنة ٦٢٩/١٢٣٢ : وهو مجموع من شعره معظم ما فيه فآثر متكلف تنقصه الحيوية والواقعية اللتان يمتاز بهما شعره في « ترجمان الأشواق » .

٣ — بيد أن أعظم كتب ابن عربي هو « الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية^(١٣٧) والملكية^(١٣٨) » ، ونستطيع أن نقول إنه جمع فيه كل ما ذكره في مؤلفاته الأخرى ، ونسخته المطبوعة تقع في أربعة آلاف صفحة . وقد أراد من وضع هذا الكتاب أن يبلغ صديقيه أبا محمد بن عبد العزيز التونسي وعبد الله بن بدر الحبشي ما فتح الله عليه به أثناء مقامه بمكة . وفاتحة الكتاب خطبة ألقاها بين يدي الخالق سبحانه وتعالى في رؤيا رآها ، [وهو يقول في هذه الفاتحة بعد تحميد طويل :

« ... والصلاة على سر العالم ونكتته ، ومطلب العالم وبغيته ، السيد الصادق ، المدلج إلى ربه الطارق ، المحترق به السبع الطرائق ، ليريه من اسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق ، فيما أبدع من الخلائق ، الذي شاهدته عند إنشائي لهذه الخطبة في عالم الحقائق ، في حضرة الجلال ، مكاشفة قلبية ، في حضرة غيبية . ولما شاهدته صلى الله عليه وسلم في ذلك العالم سيداً معصوم المقاصد ، محفوظ المشاهد ، منصوراً للناس مؤيداً ، وجميع الرسل بين يديه مصطفون ، وأمتي التي هي خير أمة أخرجت للناس عليه ماتفون ، وملائكة

التسخير من حول عرش مقامه حافون ، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافون ، والصديق عن يمينه الأنفس ، والفاروق عن يساره الأقدس ، والختم ، عليه السلام ، بين يديه قد جئنا ، يخبره بمحدث الأنبياء ، وعلى ، صلى الله عليه وسلم ، يترجم عن الختم بلسانه ، وذو النورين مشتمل برداء حياته مقبل على شانه ، قالتفت السيد الأعلى ، والمورد العذب الأعلى ، والنور الأ كشف الأجل ، فرآني وراء الختم ، لا شتراك بيني وبينه في الحكم ، فقال له السيد : هذا عديلك ، وابنتك وخليلك ، انصب له منبر الطرفاء بين يدي . ثم أشار إلي ، أن قم يا محمد عليه فأتني على من أرسنني وعلى . فإن فيك شعرة مني ، لا صبر لها عني ، هي السلطانة في ذاتيتك ، فلا ترجع إلي إلا بكليتك ، ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء ، فإنها ليست من عالم الشقاء . فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعد ، وكان ممن شكر في الملأ الأعلى وحده . فنصب الختم المنبر في ذلك المشهد الأخطر ، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر : هذا هو المقام المحمدي الأظهر ، من رقي فيه فقد ورثه ، وأرسله الحق في العالم حافظا لحرمة الشريعة وبعثه . ووهمت في ذلك الوقت مواهب الحكم ، حتى كأني أوتيت جوامع الكلم ، فشكرت الله عز وجل ، وصعدت أعلاه ، وحصلت في موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ومستواه ، وبسط لي على الدرجة التي أنا فيها قميص أبيض فوقفت عليه ، حتى لا أباهر الموضع الذي بأمره صلى الله عليه وسلم بتقديمه تنزيها له وتشريفا . . . ثم أظهرت أسراراً ، وقصص أخباراً ، لا يسع الوقت إيرادها ، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها ، فتركنتها موقوفة على رأس مهيعها ، خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها ، ثم رددت من ذلك المشهد النومي العلى ، إلى العالم السفلى ، فجعلت ذلك الحمد المقدس خطبة الكتاب ، وأخذت في تجميع صوره ، ثم شرعت بعد ذلك في الكلام على ترتيب الأبواب ، والحمد لله الغني الوهاب . [

ويقول آسين عن هذا الكتاب : « إنه لمن المتعذر أن نعطي فكرة تحليلية

للمادة الضخمة التى يحويها هذا السفر الذى يعتبر إنجيل التصوف الإسلامى . ذلك أننا نجد هنا — كما هو الحال فى سائر كتب فلاسفة المشائين من المسلمين — منهجا منطقيا بالغ الدقة . وكذلك فى كتب التصوف الإسلامى ، وخاصة تواليف ابن عربى ، فى هذه كلها نجد موضوعات غير متجانسة فى طبيعتها مجموعة فى فصل واحد ، دون مراعاة ما تقتضيه طبيعة المادة . والربط بين الأشياء فى هذه الكتب لا يخضع إلا لاعتبارات يفرضها بيان علوم أهل الباطن ولا أساس فلسفى أو اعتقادى لها .

و بعد مقدمة ضخمة نجد الكتاب ينقسم إلى الأقسام الستة التالية :

- ١ — المعارف .
- ٢ — المعاملات .
- ٣ — الأحوال .
- ٤ — المنازل .
- ٥ — المنازلات .
- ٦ — المقامات (١٢٩) .

والكتاب فى مجموعه يضم خمسمائة وستين فصلا ، وقد كانت ضخامته سببا فى قلة انتشاره ، وإن كنا نجد له شروحا متعددة .

ولابن عربى مؤلفات أخرى كثيرة ، بعضها فى الزهد وبعضها الآخر فى التصوف ، وأهمها « محاضرات الأبرار » وهو « أقرب إلى نوع كتب المتفرقات الأدبية ، وإن كانت مادته كلها زهدية صوفية كبقية كتبه كلها » .

ف ١١٥ — المصانص العامة لمذهب ابن عربى الفلسفى الموهوبى : (١٣٠)

كان محبى الدين — كغيره من المفكرين المسلمين — مكثرا من التواليف ، وكتاباته تتناول كل شىء : من علوم وفقه وفلسفة وشرع وفلك ، وما إلى ذلك .

ونحن نلمح عنده — زيادةً على ما نلجده عند غيره — الأثر الذي خلفه في مؤلفاته اختلاطُ المذاهب المتشعبة التي سمع بها أثناء سياحاته الطويلة ، أو تحصلت له نتيجةً لاتصاله بأقوام ذوي عقائد شتى يختلف بعضها عن بعض اختلافاً عظيماً . وهو يقول في ذلك إنه لا يعرف طريقةً من طرق الصوفية ، أو فرقةً من الفرق ، أو عقيدةً من العقائد لم يلق واحداً من السالكين فيها أو ممن يعتقدونها ويمارسون طقوسها قولاً وعملاً ، وأن كل ما سطره في كتبه فنه ما شاهده ، ومنه ما نقله من كتب مشهورة رواها سماعاً أو قراءة أو مداولة أو كتابة (*) .

ويقول آسین : « إن الإسلام في عصر ابن عربي كان قد تمثّل علوم اليونان جميعاً ، وذلك بفضل الدراسات الفلسفية اللاهوتية التي قام بها ابن سينا والغزالي وابن حزم وابن رشد . وأعقبت مذاهب الصوفية البسيطة الأولى ، مذاهب ذات طابع نظري غالب ؛ وهي في أساسها تتجه نحو القول بوحدة الوجود ، وتقوم كلها على محاولة التوفيق بين شتى المذاهب والآراء ، وهي محاولة متشعبة محيرة » .

هذا ، وشيوخ ابن عربي في علوم أهل الباطن يعدون بالثلاث ، والكتب التي يبدو أنه قرأها وعرف ما فيها في التصوف وغيره لا تحصى ، وهذه الآراء كلها التي تجمعت لديه من مصادر مختلفة أشد الاختلاف كان ولا بد أن « تنحمر اختاراً صاحباً » في رأسه ، وكان ذهنه بطبعه مُستثاراً مضطرباً ، بسبب ما رُكِّب في طبعه من مزاج صوفي بالغ القوة ، وبسبب ما كان يعانيه من « جذب » غير عادي ، ذلك كله يجعل عرضَ مذهبه عرضاً علمياً أمراً عسيراً جداً في رأي آسین .

والفكرة الرئيسية التي يقوم عليها تفكير ابن عربي كله تقوم على ستة أصول هي :

١ — زهدُ أهل النظر من الصوفية ومذاهبهم في العلوم الباطنة ، وهو يقبل

(*) ابن عربي : محاضرة الأبرار ، القاهرة ١٢٨٣ ، ص ١ ، ص ٦ .

عقيدتهم الصوفية ، وهذه العقيدة في ظاهرها تطابق مذهب أهل السنة والجماعة .

٢ — والقول بوحدة الوجود .

٣ — والشك الصوفي .

٤ — والمذهب الميتافيزيقي للإسكندرانيين الثلاثة .

٥ -- ومذهب أفلوطين في الصدور .

٦ — ومذهب الصوفية في النفس .

يبد أن ما يمتاز به ابن عربي هو الجمع بين هذه الآراء المتباينة — بل المتضاربة — وتنسيقها ، وقد وفق إلى ذلك عن طريق تأويل النصوص للنزلة ، والتماس معانٍ صوفية لها تتفق مع الآراء الأفلاطونية الحديثة .

ولكي يصل ابن عربي إلى ذلك ، نراه بطبيعة الحال يستعمل مصطلحا خاصا به يختلف عن الجارى المألوف ، ويختلف عن مصطلح المتكلمين ، بل هو يختلف عن المصطلح المعروف للصوفيين . ولهذا نراه — من حين لحين — يعمد إلى شرح كلامه بنفسه ، وهو يسرف في استعمال المجاز والاستعارة والرموز والتشبيهات الصوفية ، وهو يلجأ إلى ذلك لكي يحجب مذاهب الإسكندرانيين في وحدة الوجود وراء أسفار هذه الرموز . وأكثر المجازات التي يستعملها تستند إلى النسبة إلى « النور » على طريقة الإشراقيين ، وهم من جانبهم يترسمون آثار الغوصيين والماتويين والزرادشتيين . وهو يجعل للحروف العربية قيا خاصة يعكسها من عنده ، وذلك نتيجة لمزاوجته بين التنجيم وعلوم الصوفية عند اليهود وآراء الفيثاغوريين المحدثين في الإسكندرية . وعن هذا السبيل حصل ابن عربي على ثروة كبيرة من المعاني الباطنة والفضائل الصوفية . وهو يلجأ إلى الرسوم والتخطيطات والأشكال الهندسية ، لكي يشرح المعقد من الآراء الميتافيزيقية التي يتضمنها مذهبه ، كما فعل « إخوان الصفاء » والدروز . وهو لا يتحرج من الاستعانة بخرافات العلوم الخفية الشرقية والغربية : كحساب النجوم واستخراج الأحكام

منها ، والتنبؤ على أساس الفأل ، وتفسير الأحلام وما إلى ذلك .

والأساس الأول الذى بنى عليه ابن عربي مذهبهُ هو نفس الأساس الذى بُنيت عليه مذاهب أهل النظر من المتصوفين ، وهو « الشك » ، أى إنكار قدرة العقل الإنسانى على الوصول إلى الحق المطلق والنفوذ إلى علوم الربوبية . ويبنى ابن عربي تشككه هذا على مجزئ الإنسان عن إدراك ذات الله من ناحية — وذلك بمحكم طبيعته كإنسان — لأن الله هو المطلق والمخلوق هو المحدود ، ويبنيه من ناحية أخرى على مجزئ للملكات والقوى الإنسانية عن بلوغ المعرفة اليقينية البَيِّنَة ، وعلى قصور العقل الإنسانى وضعفه ، كما يتضح من تعدد المذاهب الفلسفية وعدم اتفاقها على أى مسألة أساسية .

ويعتقد ابن عربي أنه لا دواء يشفى من الخيرة — التى يؤدى بالإنسان إليها الاستنادُ إلى العقل عند الفلاسفة والمتكلمين — إلا شئ واحد : هو طريق أهل الصوفية فى الرياضات والمجاهدات ، وذلك لأن العقل الفلسفى يؤدى بالإنسان إلى الشك فى وجود الله ، ومن ثمَّ فلا بد أن يكون هناك طريق آخر للوصول إلى العلم الحقيقى خير من طريق الفلسفة والكلام : ذلك هو الاتصال المباشر بالله واستمداد المعرفة منه . وكما أن الله يعرف بذاته كل ما هو مخلوق ، فكذلك يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه المعرفة إذا توصل إلى الاتحاد بالخالق . وهو يتوصل إلى ذلك عن نفس الطريق الذى وصل به إليه الأنبياء والصوفيون ، وهو طريق الرياضات الصوفية . ذلك أن الإنسان إذا تجرد عن كل خاطر أو رغبة خارجية أو مادية حلَّ الله نفسه فيه وصار الله هو الذى يسير كل حواسه وملكاته ، باعثاً فيها النور الإلهى . وهذا النور إذا قُذِفَ فى العقل الإنسانى أصبح ملكة جديدة للإدراك تفوق قوى العقل العادى وتتجاوز مدى ما يصل إليه وتسمو عليه .

ويسمى الصوفية هذا الإدراك « قلباً » . ويقول ابن عربي إن هذا « القلب » أسمى وأعلى من العقل العادى ، وهو يستخدم نفس الصور التشبيهية التى استخدمها

بروقليس ومن قبله أفلاطون . وابن عربي يرى أن هذا الأسلوب الذي ينتهجه في الدليل على صحة رأيه ليس خاطئاً ، وإن كان صادراً عن استدلال عقلي .

ويبلغ الإغراق في الشك بابن عربي إلى أن يرى في الدراسة الكلامية والأخلاقية حائلاً بين الإنسان وبين إشراق النور الإلهي في نفسه ، ويذهب إلى أن الإنسان البسيط أجدر من المتعلم بتلقي الأنوار الإلهية ، ويعمل ذلك بالقول بأن الخطأ على صفحة قد نحى ما كان عليها لا يعدل في الوضوح الكتابة على صفحة نظيفة بيضاء .

وهو لهذا يريد أن يقنع قارئه بأن كتاباته صدرت عن النور الإلهي وحده ، على الرغم من أننا نجد آراءه نفسها بالحرف الواحد في كتب سابقة عليه . وعن طريق الجمع والمزج بين آراء أرسطو وآراء الأفلاطونية الحديثة ، يقسم ابن عربي العلم الإنساني بحسب مصادره وموضوعاته إلى ثلاثة أنواع ؛ وهذا نص كلامه في هذا الصدد :

« قال المبد الفقير إلى رحمة الله تعالى : ربما وقع عندي أن أجعل في أول هذا الكتاب فصلاً في العقائد المؤيدة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ، ثم رأيت أن ذلك تشعيب على المتأهب لطلب المزيد ، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود ، فإن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر ، وفرغ المحل من الفكر ، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربه ، حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلوم والأسرار الإلهية ، والمعارف الربانية التي أثنى الله بها سبحانه على عبده الخضر عليه السلام فقال تعالى : عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنّا علماً . وقال تعالى : واتقوا الله ، ويعلمكم الله . وقال : إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً . وقال : ويجعل لكم نوراً تمشون به . قيل للجنيد رضى الله عنه : بم نلت ما نلت ؟ فقال : بجلوسى تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة . وقال أبو يزيد رضى الله عنه : أخذتم عليكم ميّتاً عن ميت ، وأخذنا علماً عن الحى الذى لا يموت . فيحصل

لصاحب المهمة في الخلوة مع الله وبه جلت هيئته وعظمت منته من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة ، بل كل صاحب نظر وبرهان ليست له هذه الحالة فإنها وراء طور العقل ، إذ كانت العلوم على ثلاثة منازل :

« علم العقل : وهو كل علم يحصل لك ضرورة أو عقيب نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وشبهه من جنسه في عالم الفكر الذي يجمع ويختص بهذا الفن من العلوم ، ولهذا يقولون في النظر منه صحيح ومنه فاسد .

« والعلم الثاني : علم الأحوال ، ولا سبيل إليها إلا بالذوق ، فلا يقدر عاقل على أن يحدها ولا أن يقيم على معرفتها دليلاً ألبتة ، كالعلم بحلاوة العسل وسرارة الصبر ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق وما يشاكل هذا الصنف ، فهذه علوم من المحال أن يعرف أحد حقيقتها إلا بأن يتصف بها ويذوقها ، أو شبهها من جنسها في عالم الذوق ، كمن يغلب على محل طعمه المرة الصفراء فيجد العسل مرّاً وليس كذلك ، فإن الذي باشر محل الطعم إنما هو المرة الصفراء .

« والعلم الثالث : علم الأسرار ، وهو العلم الذي فوق طور العقل وهو علم نفث روح القدس في الروح يختص به النبي والولي . وهو نوعان : نوع منه يدرك بالعقل كالعالم الأول من هذه الأقسام ، لكن هذا العالم به لم يحصل له عن نظر ولكن مرتبة هذا العلم أعطت هذا . والنوع الآخر على ضربين : ضرب منه يلتحق بالعالم الثاني لسكن حاله أشرف ، والضرب الآخر من علوم الأخبار وهي التي يدخلها الصدق والكذب ، إلا أن يكون الخبر به قد ثبت صدقه عند الخبر وعصمته فيما يخبر به ويقول ، كإخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالجنة وما فيها ؛ فقوله : « إن » ثم جنة » من علم الخبر ، وقوله في القيامة : « إن فيها حوضاً أحلى من العسل » من علم الأحوال ، وهو علم الذوق . وقوله : « كان الله ولا شيء معه » وشبهه ، من علوم العقل المدركة بالنظر . فهذا الصنف الثالث — الذي هو علم الأسرار — العالم به يعلم العلوم كلها ويستغرقها ، وليس صاحب تلك العلوم كذلك ، فلا علم أشرف من هذا

العلم المحيط الحاوي على جميع المعلومات ، وما بقي إلا أن يكون الخبر به صادقاً عند السامعين له معصوماً » (١٣١) .

ويقول آسین : « وبنظرية الحقيقةين المتعارضتين هذه — التي تشبه إلى حد كبير ما قال به الرشديون من النصارى — يمهّد ابن عربي طريقاً سهلاً لتفسير كل ما يرد في إلهياته ومذهبه في وحدة الوجود من تنافر ومحاكاة للمنطق » .

وعندما نستعرض من عرفهم ابن عربي من شيوخ روحيين أو أصحاب في طرق الصوفية ، ننتبه بوضوح الأوج الذي وصل إليه التصوف في الأندلس الإسلامى . ويذكر ابن عربي نفسه في « رسالة القدس » (نشرها آسین سنة ١٩٣٩) تراجم خمسة وخمسين شيخاً من شيوخه الروحانيين ، والكثير من هؤلاء أندلسيون من شتى الطبقات : أعلاها وأدناها ، ونحن نجد فيهم مثلاً نادرة لتعذيب النفس والورع والقدرة على الإتيان بالكرامات بشتى صنوفها . وهذه التراجم في مجموعها تعطينا صورة للحياة الأندلسية تناقض المناقضة كلها ما تعرضه علينا أزجال ابن قزمان من فحش وتهتك .

ولم يكتب معظم أولئك الصوفيين شيئاً ، بل كان أبو جعفر الريانى « بدوياً آمياً لا يكتب ولا يحسب ، وكان إذا تكلم في علم التوحيد فحسبك أن تسمع ، كان يقيد الخواطر بهمته ويصدع الوجود بكلمته » (١٣٢) . وكان أبو عبد الله الشَّرفى (نسبة إلى الشَّرف ، إقليم بغرب الأندلس) « إذا وقف في الصلاة تفحدر دموعه على بياض لحيته كأنها اللؤلؤ . سكن موضعاً نحو أربعين سنة ما أوقد فيها سراجاً ولا ناراً » (١٣٣) . وكان أبو الحجاج يوسف الشُّبْرُبلى قطباً كريماً ، ما دخل عليه أحد قط وعنده ما يؤكل إلا يجعله أمام الداخلين — كثروا أو قلوا ، كثر الطعام أو قل — لا يترك شيئاً يكون له ألبقة » (١٣٤) . ونجد من بينهم أبا عبد الله محمد الخياط ، وأحمد الحزاز ، وأبا على حسن الشَّكَّاز « وكان كثير الدمة لا تزال

عينه تهطل أبداً ، ، وأبا محمد عبد الله الباغي الشكاز^(١٣٥) ، وكان ليّله قائماً ونهاره صائماً ، « لم يقدر مرید قط على صحبته لأنه كان يطالبه باجتهاده فيفر منه . عاش وحيداً فريداً ليس عنده ولا له على نفسه رحمة »^(١٣٦) ، وعبد الله المالقي — عُرف بالقلقاط — الذي « كان يميل على طريقة الفتيان . ولعمري لقد ظهر فيه وبدت إليه أعلامه ، ما تراه يمشى قط إلا في حق غيره ، لا يلتفت لنفسه ولا ليحَقِّقها ، يقصد والى البلد والحكام في حوائج الناس ، داره للفقراء مباحة » ، ونُونة فاطمة بنت ابن اللثني الإشبيلية ، قال ابن عربي : « أدركتها في عشر التسعين سنة قد أسنت لا تأكل إلا مما يطرح الناس على أبوابهم من الأطعمة ، قليلة الأكل جداً ، كنت إذا قعدت معها أستحي أن أنظر إلى وجهها من عظيم تورّد وجنتيها ونعمتها وهي في عشر التسعين سنة ... عرض الله عليها ملكه ، فلم تقف مع شيء منه ، إنما تقول : « أنت . أنت . كل شيء دونك مستثوم عليّ » . كانت والهة في الله ، من يراها يقول عنها حقاء ، فيقول : الأحق هو الذي لا يعرف ربه » ، وغير أولئك كثيرين .

وقد ذاعت آراء ابن عربي ذيوفا عظيما في بلاد الإسلام ، ولا زالت معروفة متداولة إلى اليوم ، بل انتقلت إلى بلاد النصرانية ووصلت إلى رجال مثل دانتي ورايموندو لوليو ، وذلك كله يصور لنا القوة الدافقة التي حوَّسها آراء هذا الصوفي المُرْسِيّ . وقد بيّن آسِين في كتابه « الإسلام في ثوب نصراني » El Islam Cristianizado آراء ابن عربي بيانا وافيا .

ف ١١٦ — ابن سبعين (أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر

الشهر بابن سبعين العلكي المرسى الأندلسي) :

لا بد أن نذكر في عداد تلاميذ ابن عربي عبد الحق بن سبعين (٦١٤/١٢١٨

— ٦٦٩ / ١٢٧٠) وكان يلقب « بقطب الدين » ، وهو من مرسية مثله وأصله من رَقُوطَة أو وادي رقوطَة Valle de Ricote ، وهو من بيت كريم نابه الذكّر . [« ونشأ رحمه الله تَرَفًا مَبْجَلًا في ظل جَاه ونعمة لم تفارق معها نفسه البَاو . وكان وسيما جميلا ملوكي البزة عزيز النفس قليل التصنع ، وكان آية من الآيات في الإيثار والجلود بما في يده »] (*) .

درس ابن سبعين علوم القرآن والحديث والفلسفة ، وتلقى الصوفية على يد أبي إسحاق بن دَهَاق . ثم انتقل إلى سبتة حيث رأس جماعة تألف معظمها من الفقراء والسَّقَّارة أصحاب العبادات والدنايس (أيضًا دقاقيس ودقايس ؟) ، ومضوا يسوِّحون في البلاد مشتملين بكساء من الصوف ، حاملين عِدْلًا غليظًا ينامون عليه في السكك ، وكانوا يسمون « السبعينية » . وقد نارت حفيظة الفقهاء عليه وعلى مريديه ، بسبب الملابس التي كانوا يلبسونها والطريقة التي كانوا يعيشون عليها مجافين مألوف العرف ، وأنكروا عليهم مذهبهم الذي كانوا عليه وطريقتهم في الحياة وعقيدتهم .

[قال القرى في النفح رواية عن « أحد الأعلام » : « ولما توفرت دواعي النقد عليه من الفقهاء ، كثر عليه التأويل ، ووجهت لألفاظه المعارض وفُتِّتْ موضوعاته وتعاورته الوحشة وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوط يطول ذكرها »] (**) .

ثم خرج إلى الحج وجاور في مكة ، وتلمذ له صاحبها ، ويقال إنه كان قد داواه من مرض كان به فبرى فصار له عنده مكانة . [قال الشيخ صفى الدين الهندي : حججت سنة ست وستين [وستائة] وبحضرت مع ابن سبعين في الفلسفة فقال لي : لا ينبغي لك المقام بمكة ، فقلت له : فكيف تقيم أنت بها ؟ قال :

(*) القرى : نفح ، ١ ، ص ٥٩٥ .

(**) القرى : نفح ، ١ ، ص ٥٩١ .

انحصرت القسمة في قعودي بها ، فإن الملك الظاهر يطلبني بسبب اتئاني إلى أشراف مكة ، واليمن صاحبها له في عقيدة ولكن وزيره حشوى يكرهني (*) . وابن سبعين هو الذي أنشأ الوثيقة التي بايع بها أشراف مكة المستنصر بالله محمد ابن أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية ، وقد خطبوا له بعد ذلك بعرفة . وقد توفي ابن سبعين في مكة . قال ابن شاكر الكتبي في فوات انوفيات : « وسمعت عن ابن سبعين أنه فصد يديه وترك الدم يخرج حتى تصفى ، ومات بمكة في ٢٨ شوال سنة ٦٦٨ وله من العمر خمس وخمسون سنة » (٢٥) .

ونذكر من بين كتبه « بَدْءُ المعارف وعقيدة الحنفى للقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف » ، وكتاب « الدَّرَج » ، و « الدرة المضيئة والخافية الشمسية » وهي في علم الجفر (١٣٧) ، و « رسائل » متنوعة إحداها وصاة لتلاميذه يوجه إليهم فيها نصائح صوفية ، لعن فيها نفراً من معاصريه من الصوفيين ممن كان يفكر البعث والجنة والنار ، وقال إنه قاطعهم ونأى عنهم (وربما كان ذلك إشارة إلى تلاميذ ابن عربي) . ويستعمل ابن سبعين في كتبه الألفاظ والرمز بالحروف ، وله اصطلاحات خاصة ذات معانٍ رمزية بعيدة عن المؤلف .

وقد طار صيت ابن سبعين في حياته كل مطار ، وبلغت أخبار علمه الواسع مسامع كونت روما والبابا ، كما يفهم من كلام ابن الخطيب . وعندما عرّضت للإمبراطور فردريك الثاني النرمانى ملك صقلية بضع مسائل فلسفية ، بعث يستفتي فيها علماء العصر في مصر أو الشام أو العراق أو آسيا الصغرى أو اليمن فلم يجد عند أحد منهم ما ينفع غليلاً ، فأرسل بها إلى إفريقية وعهد إلى ابن سبعين في الإجابة عليها . [قال ابن الخطيب في الإحاطة : « ولما وردت على سبئمة المسائل العقلية — وكانت جملة من المسائل الحكيمة ، وجهها علماء الروم تبكيكاً للسلمين —

(*) ابن شاكر : فوات (طبعة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥١) ج ٢١ ، ص ١٧٥ .

(٢٥) نفس المصدر والصفحة .

اتَّذَبَ للجواب المنفع عنها على فتاء من سنه وبديهة من فكرته » (*) ،
فكتب في ذلك رسالة لازالت بين أيدينا تُعرف « بالأجوبة على المسائل
الصقلية » . وهذه « المسائل » أربعة أسئلة نصها كما يلي ، نقلنا عن إجابات
ابن سبعين :

أولاً — الحكميم [أرسطو] يُفصِّح في جميع أقاويله بِقَدَمِ العالم ، ولا شك
أنه رأيه ، إلا أنه إن كان قد برهن عليه فإبرهانه ، وإن كان لم يبرهن فن
أى قبيل هو كلامه فيه ؟

ثانياً — ما هو المقصود من العلم الإلهي ؟ وما مقدماته الضرورية ، إن كان
له مقدمات ؟

ثالثاً — المقولات ، أى شئ هي ؟ وكيف يُتَصَرَّف بها في أجناس العلوم حتى
يتم عددها ؟ وكَم عددها ، وهل يمكن أن تكون أقل ، وهل يمكن أن تكون
أكثر ، وما البرهان على ذلك ؟

رابعاً — ما الدلائل على بقاء النفس ؟ وهل تبقى ؟ وأين خالف الحكميم
[أرسطو] الإسكندر [الأفروديسي] ؟

وقد أجاب ابن سبعين على تلك الأسئلة في رسالة لازالت بين أيدينا ،
وإجاباته مصوغة في أسلوب يتحدث عن رغبة في التظاهر بالعلم ، وهي تقوم في
جملتها على مذاهب أرسطو وأفلاطون ، وما فيها مستقى من كتابات أرسطو ، كما
كان المسلمون يفهمونها . وأخذ عنه كذلك قوله في الكون والأفلاك السماوية ،
وقوله بوجود علوم أولية لا بد من الإحاطة بها حتى يُستطاع إدراك الكائن
الأوحد ، وتقسيمه المقولات إلى عشرة ، وقوله بأن النفوس ثلاث مراتب : نباتية
وبهيمية ، وعاقلة . ولكنه عند ما تعرض لمسألة نهاية الحياة قال إن ذلك سيكون

(*) رَوَاهُ المقرئ في النفع ، ج ١ ، ص ٥٩٦ .

بفناء الذات الإنسانية في ذات الله ، وهو هنا يأخذ بآراء الزهدية الصوفية ، وهي ككل التصوف الإسلامي صادرة عن الأفلاطونية الحديثة^(١٢٨) .

ف ١١٧ - ابن عباد الرندي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن

حالك بن بكر بن عباد النعري ، ٧٣٣ / ١٣٢٠ - ٧٩١ / ١٣٨٩)

كان الرندي حسيباً نسبياً ، [يصفه أبو زكريا السراج بقوله : « الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي ، الإمام العالم المتصف السالك العارف الحق الرابى ، ذو العلوم الباهرة والحاسن الطاهرة ، سليل الخطباء ونتيجة العلماء »] ، صرف حياته كلها في الزهد . نشأ في رُنْدَة وطاف بعدد من عواصم المغرب يدرس على شيوخه ، و « لقي بسلاً الشيخ الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر ، وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة ، قال : قصدتهم لوجدان السلامة معهم » . وختم حياته إماماً وخطيباً لجامع القرويين بفاس . وقد أجمع الناس كافة على وصفه « بالولي العارف » . وكان ابن عباد صوفياً على طريقة الشاذلية ، وفي ذلك يقول آسين : « إن أهم كتبه « شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري » ، يمكن أن نضنه - دون مبالغة - بأنه منهج كامل لطريقة صوفية زهدية ، عظيم الفائدة للبادئين في الطريق ، والذين سلكوا ، وقاربوا منزلة الكمال ، والذين وصلوا إلى ذروة غاية النظر الصوفى . وابن عباد يتكلم في ثنايا هذا الشرح عن رياضاته ومجاهداته الشخصية . وقد بين الأستاذ آسين أوجه الشبه بين مصطلح الطريقة الشاذلية والمصطلح الذي استعمله الصوفى المسيحى المعروف « القديس يوحنا الصليبي » (Saint Jean de la Croix أو San Juan de la Cruz بالإسبانية) وأتباعه المسمون « أهل النور » (les iluminés أو los alumbrados) ، ومن ذلك استعمال كلا الفريقين للفظ « البسط » و « القبض » بمعنى النور والظلام ، وكذلك زهد الفريقين في الكرامات^(١٢٩) .

الفصل الثامن

علم الحديث

ف ١١٨ — الحديث والسنة .

ف ١١٩ — كبار المحدثين الأندلسيين .

ف ١٢٠ — ابن عبد البر .

ف ١٢١ — معاجم رجال الحديث .

ف ١١٨ — الحديث والسنة :

امتدت حدود مملكة الإسلام مع الزمن ، ودخلت في رحابه بلاد واسعة افتتحتها المسلمون ، وعرضت للمسلمين — نتيجة لذلك — مشاكل جديدة نشأت عن تعقد أوضاع الحياة في المجتمع الإسلامى يوماً بعد يوم ، ولم يجدوا عنها في القرآن نصاً صريحاً ، فكان لزاماً عليهم أن يكتفوا بهذه الناحية بالبحث فيما صدر عن الرسول من قول أو فعل [أو تقرير] يمكنهم الأخذ به . وبعد عصر الرسول ضُم إلى الحديث ما ورد عن الصحابة ، [فالصحابه كانوا يعاشرهم النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله ويشاهدون عمله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعدُ فعاشرنا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا] (*) ، فكان من ذلك كله « الحديث » . وهى لفظة معناها « إبلاغ » أو « رواية » ؛ وقد أُطلق على مجموع الأحاديث لفظ « السنة » ، ومعناه الطريق الذى يتبعه المؤمنون مقتفين آثار الرسول وصحابته وتابعيه .

و « الحديث » الذى ظل المسلمون يروونه أجيالاً كثيرة ، رجلاً عن رجل ، يتكون من قسمين : « الإسناد » وهو سلسلة الرواة أو الأساس الذى يؤيد صحة صدور الحديث عن الرسول وتناقله فى سلسلة متصلة من العُدول ، و « المتن » وهو النص المروى . و « الإسناد » شئ جديد ظهر فيما بعد ، وطبيعى أن أعسر جانب فى الحديث هو التأكد من سلسلة رواته ومقدار الثقة فيهم وما يتصل بذلك من ظروفهم ، وذلك حتى يمكن التحقق من صحة ما ينسب إليهم . ويسمى الحديث الذى اكتملت له أسباب الصحة كلها « صحيحاً » ، أما الذى لا يُجمع الناس على الثقة ببعض رجال إسناده فيسمى « حسناً » ، أما الذى يشك فى

(*) ما بين القوسين زيادة للتوضيح من « فجر الإسلام » لأحمد أمين (القاهرة ١٩٤٠)

إسناده أو يُنسب إلى أشخاص ذوي مذاهب منحرفة فيسمى « ضعيفاً ». وقد كتبت الأحاديث وجمعت في مجاميع منذ القرن الثالث الهجري ، ورضي أهل السنة عن ستة منها ، وهي صحيح البخاري (توفي سنة ٢٥٩/٩٧٠) وصحيح مسلم (توفي ٢٦١/٨٧٥) ومسانيد أبي داود (توفي سنة ٢٧٤/٨٨٨) والترمذي (توفي سنة ٢٧٨/٨٩٢) وابن ماجه (توفي سنة ٢٧٢/٨٨٦) والنسائي (توفي سنة ٣٠٢/٩١٥) .

ف ١١٩ — كبار المحدثين الأندلسيين :

وقد اتجهت همه الناس في الأندلس منذ زمن مبكر إلى دراسة الحديث ، ويطول بنا الأمر لو ذكرنا كل محدثي الأندلس ، ولهذا نجتزئ بذكر بعضهم : وأول من نلم بذكره منهم محمد بن وضاح بن بزيع المتوفى سنة ٢٨٧/٩٠٠ ، وهو شيخ قاسم بن أصبغ ، وكان مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وعدة الرجال الذين سمع منهم في الأمصار ١٧٥ رجلاً [ما بين بغداديين ومكيين وشاميين ومصريين وقرويين] . وكان شديد التدقيق فيما يقبل من الأحاديث ، [قال ابن القرضي : « وكان ابن وضاح يقول : ليس هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم في شيء هو ثابت من كلامه »] .

ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء (٢٤٤/٨٦١ — ٣٤٠/٩٥١) ، وهو من أهل قرطبة ويعرف بالبتياني ، ومن شيوخه الأندلسيين أبو عبد الله الخشفي وبقية بن مخلد (ف ١٢٣) ومحمد بن وضاح ، أما في المشرق فقد أخذ عن أحمد بن يحيى بن يزيد المعروف بشطب ومحمد بن يزيد المبرّد وابن قتيبة ؛ [« وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، ولحق الصغار الكبار في الأخذ عنه ، وكانت الرحلة في الأندلس إليه وفي المشرق إلى سعيد بن الأعرابي ، وكانا متكافيين في السن . وكان قاسم بن أصبغ بصيراً بالحديث

والرجال ، نبيلاً في النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور في الأحكام » [(*)] .
وقد ضاعت الكتب التي ألفها [وحفظ لنا المؤرخون أسماءها ، مثل « كتاب
الأنساب » ، و « كتاب في فضائل بنى أمية » ، و « كتاب في فضائل قریش » ،
و « كتاب في السنن وفي أحكام القرآن » ، و « كتاب النامخ والمنسوخ » ،
و « كتاب في حديث مالك بن أنس مما ليس في الوطأ »] (**) .
ومنهم معاصره محمد بن عبد الملك بن أيمن من أهل قرطبة صاحب « كتاب
السنن » (١) .

ومن كبار محدثي الأندلس كذلك ابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٦/٩٧٧
(ف ٦٥) ، وكان له مذهب في تفسير الحديث يختلف عما أجمع عليه النحهاء ،
فأتهموه بأنه يفسرها على هواه ، مهتماً بالمعنى والفكرة دون اللفظ (٢) .

ومنهم ابن الحجام (يمش بن سعيد بن محمد بن عبد الله الوراق المعروف بابن
الحجام ، يكنى أبا قاسم وأبا عثمان ، توفي سنة ٣٩٣/١٠٠٣) وكان يشتمل بالبيع
والشراء في قرطبة ، وهو تلميذ قاسم بن أصبغ وابن الأحرر ، وقد ألف مسند
حديث ابن الأحرر بأمر الحكم المستنصر (٣) . ومنهم ابن فطيس (أبو المطرف
عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس ، توفي سنة ٤٠١/١٠١١) . قال في حقه
ابن بشكوال في الصلة : « وكان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين ، حافظاً
للحديث وعللاً ، منسوباً إلى فهمه وإتقانه ، عارفاً بأسماء رجاله ونقَلته ، يبصر
المعدلين منهم والمجرحين ... وله مشاركة في سائر العلوم وتقدم في معرفة الآثار
والسير والأخبار ، وعناية كاملة بتقعيد السنن والأحاديث والحكايات المسندة ،
جامعاً لها مجتهداً في سماعها وروايتها ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، جمع من
الكتب في أنواع العلوم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . » (†) . وقد
صنف كثيراً من الكتب ضاعت كلها .

(*) ابن القرضى : علماء ، رقم ١٠٦٨ .

(*) انظر : بولس بوجيس ، ص ٦٠ .

(†) ابن بشكوال : الصلة ، ٦٧٩ .

ومنهم ابن الفرضى وقد ذكرناه (ف ٨٤) ، وأبو عبد الله بن عبد الرحمن ابن عثمان بن سعيد بن غلبون الخولاني المتوفى سنة ٤٤٨/١٠٥٦ ، وله كتاب « الاستدكار فى الروايات وتسمية الشيوخ الرواة لها والإجازات » ، [« وكانت له عناية كبيرة بتقييد الحديث وجمعه وروايته ونقله ، وكان ثقة فيما رواه ثبتا فيه ، مكثراً محافظاً على الرواية ، وكان فاضلاً ديناً متصوناً متواضعاً »] (*) .

ومنهم رزين بن معاوية بن عمار العبدرى الأندلسى ، المتوفى سنة ٥٢٤/١١٢٩ من أهل سرقسطة يكنى أبا الحسن ، « جاور بمكة شرفها الله أعواماً وحدث بها عن أبى مكتوم عيسى بن أبى ذر المروى وغيره ، وكان رجلاً فاضلاً عالماً بالحديث ، وله فيه تواليف حسان ، منها « تجريد الصحاح الستة » ، و « أخبار مكة والمدينة وفضلهما » ، و « كتاب فى جمع ما يتضمنه كتاب مسلم والبخارى والموطأ والسنن والنسائى والترمذى » ، وهو كتاب جليل مشهور فى أيدي الناس بالشرق والغرب » (**) .

ومنهم عبد الحق الإشبلى صاحب كتاب « الأحكام » ، [« مشهور متداول القراءة ، وهى أحكام كبرى وأحكام صغرى ، قيل ووسطى »] (†) .

ف ١٢٠ — ابن عبد البر :

كان أبو عمر بن عبد البر (يوسف بن عبد البر بن عاصم النمرى القرطبى ، ٩٧٨/٣٦٨ — ١٠٧٠/٤٦٣) « إمام عصره وواحد دهره » ، كما يقول ابن بشكوال . وهو من أهل قرطبة ، « جلا عن وطنه ومنشئه قرطبة » ، فكان فى الغرب مدة ثم تحول إلى شرق الأندلس وسكن منه دانيةً وبلنسية وشاطبة ، وبها

(*) ابن الفرضى : علماء ، رقم ١٧٤٧ .

(**) ابن حزم (برواية القرى) : النفع ، ٢ ، ص ١٢٢ .

(†) نفس المصدر والمضعة .

توفي» (*) . وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيرة في علم النسب والخبر : وقد أخذ عن أكبر من كان في قرطبة أو وفد عليها من العلماء . وكان في أول أمره ظاهراً من مدرسة ابن حزم ، ثم تمذهب بالمالكية وإن كان ظاهر الميل إلى الشافعية ، وقد ولاء المظفر بن الأنطرس قضاء الأشبونة وشنترين . وله مؤلفات جلية مثل « الاستيعاب في أسماء الأصحاب » ، ولا زال مخطوطاً ، وهو معجم لأسماء الصحابة والتابعين ، وله كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » ، رتبته على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم ، وهو كقاب لم يتقدمه أحد إلى مثله وهو سبعون جزءاً . قال أبو محمد بن حزم : « لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله ، فكيف أحسن منه » ، (وقد عمل محمد بن عبد الله القرطبي المتوفى سنة ١٢٣٢/٦٢٩ موجزاً له) . « ثم صنع » كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار ، لما تضمنه موطأ مالك من معاني الرأي والآثار « شرح فيه الموطأ على وجهه ونسق أبوابه » ، وكتاب « الانتقاء في أخبار الثلاثة الفقهاء » : مالك وأبي حنيفة والشافعي ؛ وله كتب أخرى كثيرة في الشريعة والأنساب^(١) .

وقد وضع ابن فتحون الأوربولى (أبو بكر محمد بن خلف بن سليمان المتوفى سنة ١١٢٥/٥١٩ أو ١١٢٦/٥٢٠) « ذبلاً » أو « استلحاقاً » على « كتاب الاستيعاب » في سفرين ، وهو كتاب حسن خفيل . و [له] كقاب آخر أيضاً في أوهام كتاب الصحابة المذكور ، وأصلح أيضاً أوهام « المعجم » لابن قانع في جزء^(*) .

أما الفاضل أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي السبكي (١٠٨٥/٤٧٦ — ١١٤٩/٥٤٤) ، فقد [استقر أجداده

(*) . ابن بشكوال : صلة ، ٦١٨ .

(*) . ابن بشكوال : صلة ، ١١٥٥ .

فى القديم بِحَمَّةٍ بَسْطَة ، ثم انتقلوا منها إلى مدينة فاس ثم إلى سبتة وسها ولدهو ، وسمع من مشيختها ، وتفقه ببعضهم ، ورحل إلى الأندلس وأخذ بقرطبة عن أبى الحسين بن سراج ، وأبى عبد الله بن حمدين ، وأبى القاسم بن الدعاس ، وابن رشد ، وابن عتّاب ، وابن بحر ... (*) . وقد ألف كتباً كثيرة منها « كتاب الإلماع فى أصول علم الحديث ومبادئه » ، وله كذلك « ترتيب المدارك لمعرفة أصحاب مالك » ، وهو أوسع مؤلف فى طبقات المالكية (ف ٨٨) (٥) .

وقد ألف الرشاطى (أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله اللّخنى ، ١٠٧٥/٤٦٧ — ١١٤٧/٥٤١) كتاب « الإعلام بما فى كتاب المؤلفات والاختلاف للمدارقطنى من الأوهام » . والرشاطى من أهل المرية أو أوريولة ، وقد أدرك شهرة عظيمة بكتابه « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى أنساب الصحابة ورواة الآثار » ، « أخذ الناس عنه وأحسن فيه وجمع وما أقصر ، وهو على أسلوب كتاب أبى سعيد السمعانى الحافظ الذى سماه بالأنساب » (**) .

ومن اشتهر بالتحقق بعلوم الحديث ابن قرقول (أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم ، ١١١١/٥٠٤ — ١١٧٣/٥٦٨) ، وهو من المرية أيضاً ، وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (١١١٤/٥٠٧ — ١١٨٥/٥٨٠) ، ويكنى أيضاً أبا القاسم وأبا الحسن) ، « وكان عالماً بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب ، حافظاً للسير والأخبار والأنساب ، إماماً فى الحفظ والذكر والإدراك ، مقدماً فى الفهم والفتنة والذكاء ، له حظ وافر من قرض الشعر والتصرف فى فنون من العلم ، يغلب عليه علم العربية والغريب ، وأشهر كتبه « الروض الأُنْف فى شرح السيرة لابن إسحاق » ، وهو أجل نواليفه ، دل به على سعة حفظه ومقانة علمه . . استخرجه مما نيف على مائة وعشرين ديواناً أو نحوها ،

(*) ابن الأبار : المعجم ، ٢٧٩ .

(**) ابن خلكان : وفیات (طبعة عي الدين) ج ٢ ، ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

وكتاب « التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام » ، وكتاب « شرح آية الوصية » ، وله « شرح في الجُمُله » أظنه لم يثمه « (*) » .

ومنهم أبو العباس (ويقال أبو جعفر) أحمد بن محمد بن عيسى بن وكيل النخعي الزاهد و يسرف بابن الإفليشي (المتوفى ٥٤٩/١١٥٥) من أهل دانية ، صاحب « كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم » ، عارض به « شهاب الأسماء » ، « وكان عالماً عاملاً متصوفاً شاعراً مجوداً » ، مع التقدم في الصلاح والزهد والمزيف عن الدنيا وأهلها والإقبال على العلم والعبادة « (**) » ، وقد جمع منتهى من أحاديث صحيحى مسلم والبخارى .

ومنهم ابن القرطبي الماتى (أبو محمد عبد الله بن الحسن بن يحيى الأنصارى ، ٥٥٦ أو ٥٤٨/١١٦٠ أو ١١٦٢ — ١٢١٤/٦١١) صاحب « التلخيص على أمانيد الموطأ من رواية يحيى بن يحيى » ، ولم يكن أحد يدانيه في حفظ التواريخ .

ومنهم عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله البلنسى (١١٥٤/٥٤٩ — ١٢١٥/٦١٢) ، « وكان إماماً في صناعة الحديث مقيداً ضابطاً بصيراً بها معروفاً بالإتقان لها ، حسن الخط حافظاً لأسماء الرجال واقفاً على المعدلين والمجرحين ، يجمع إلى الاحتفال بالرواية حسن الاستقلال في الرواية ، وألف كتاباً في تسمية شيوخ البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى ، نزع فيه منزع أبى نصر السكلاياذى ، لم يكمله . وامتحن بالنجول ، فذهبت أصوله وضاعت كتيبه في بعض أسفارهم ، ولو فرغ للتأليف والتصنيف لعظم الانتفاع بمعلوماته بده . ولم يكن في زمانه أكثر مسموعاً منه ومن أخيه أبى سليمان ، رحمهما الله ، وفهرسته الحافلة شاهدة بذلك . وكان له على أخيه الشفوف الواضح

(*) ابن الأبار : التكملة ، ١٦١٣ .

(**) المقرئ : فتح ، ج ١ ، ٨٧٢ .

في علوم العربية والتفنن في غير ذلك ، والتميز بإنشاء الخطب ، وتحرير الرسائل والمشاركة في قرض الشعر « (*) » .

ومنهم أبو الربيع سالم بن سليمان بن موسى الجيرى الكلاعى البانسى (١١٦٩/٥٦٤ — ١٢٣٦/٦٣٣) من أهل بلنسية ، سمع من أبي القاسم بن حبيش وأبي بكر بن الجلد وابن زرقون وأبي الوليد بن رشد وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي وغيرهم .

ومنهم ابن القطان أبو الحسن على بن محمد بن يحيى الكهايمى الكتانى المافرى (المتوفى سنة ١٢٣٠/٦٢٧) من أهل فاس ، وأصله من قرطبة . « وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث ، وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدّهم عناية بالرواية ورأس طلبة العلم بمراكش » (**) .

ومنهم ابن خَلْقُون الأزدى الأَوْزَينى المتوفى سنة ١٢٣٨/٦٣٥ ؛ وابن سيد الناس (أبو الفتح محمد بن أبي بكر الملقب بفتح الدين وأصل أهله من إشبيلية ، وولد هو في القاهرة سنة ٦٦١ أو ٦٧١/١٢٧٢ أو ١٢٨٢) ، صاحب كتاب « عيون الأثر في فنون المغازى والشبائل والسير » ، وألف كذلك « كتاب منقح المدح » جمع فيه المدائح التي مدح بها الأصحاب والتابعون الرسول ؛ وعمر بن نور الدين (أبو الحسن الأندلسى على بن أحمد بن محمد بن سراج الدين الأنصارى الأندلسى ، ١٣٢٣/٧٢٣ — ١٤٠١/٨٠٣) الذي جلس للإقراء والتدريس في دمشق والقاهرة ، ومن مؤلفاته « أسماء رجال الكتب الستة » ، و « طبقات الأولياء » .

(*) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٤٣٥ .

(**) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٩٢٠ .

ف ١٢١ - معاجم رجال الحديث :

وأكثر الأندلسيون من وضع معجمات أعلام المحدثين ، ومن أشهر من عني بذلك مُتَعارِك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، صاحب كتاب « الأئمة من المصنفين » ، وهو من أهل القرن الثالث الهجري ؛ ووهب ابن مسرة من أهل وادي الحجارة ؛ وأحمد بن حزم المُنتَجِلِي المتوفى سنة ٣٥٠/٩٦١ الذي ألف معجماً بأعلام الحديث نهج فيه نهج تاريخ محمد بن موسى العُقَيْلِي البغدادي ؛ والقاضي محمد بن يحيى بن مفرّج ، ومؤلفاته كثيرة : منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري ، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري ؛ وابن المَكْوِي ، (أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي القرشي) ؛ وأبو مروان المُعَيْطِي الذي ألف كتاباً على نحو « كتاب الباهر » الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها .

ومن ألف في هذا الباب القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن بُكَاة ، صاحب « الكتاب المنتخب » ، قال ابن حزم : « وما رأيت لما لُكِيَ قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفرع وجوها ، و [منها] توالييف قاسم ابن محمد المعروف بصاحب الوثائق ، وكلها حسن في معناه . وكان شافعي المذهب نظّاراً جارياً في ميدان البغداديين » (*) .

ومنهم ابن الدباغ القرطبي ، أبو القاسم خلف بن قاسم المتوفى سنة ٣٩٣/١٠٠٢ ؛ وأبو علي بن سهل بن محمد بن يونس بن الأسود ، الذي يقول في حقه ابن القرضي : « كان حافظاً للحديث عالماً بطرقه منسوباً إلى فهمه ، وسمع الناس منه قديماً . وألف كتباً حسناً في الزهد ، وخرّج من حديث الأئمة حديث مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج رحمهما الله » (*) .

(*) ابن حزم (برواية المقرئ) : النفح ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(*) ابن القرضي : علماء ، رقم ٤١٥ .

ومنهم أبو علي حسين بن محمد بن أحمد النساني (٤٢٧/ ١٠٣٥ - ٤٩٨ / ١١٠٤) ، « ويعرف بالجلياني وليس منها ، إنما زلها أبوه في الفتنه ، وأصلهم من الزهراء ... وكان من جهاينة المحدثين وكبار العلماء المسنفين ، وعنى بالحديث وكتبه وروايته وضبطه ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، وكان له بصر باللغة والإعراب ومعرفة بالحديث والشعر والأنساب ، وجمع من ذلك كله ما لم يجمعه أحد في وقته ، ورحل الناس إليه وعولوا في الرواية عليه ، وجلس كذلك في المسجد الجامع بقرطبة وسمع منه أعلام قرطبة وكبارها وقهاؤها وجلتها .. وكتبه حجة بالغة وجمع كتاباً في رجال الصحيحين سماه « تقييد المهمل وتمييز المشكل » ، وهو كتاب حسن مفيد » (*) .

ومنهم ابن الدباغ الأندلسي ، أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر بن فيرة « خاتمة المحدثين بالأندلس » ، « روى عن أبي علي الصدفي كثيراً ولازمه طويلاً ، وأخذ عن جماعة شيوخنا وصحبنا عند بعضهم ، وكان من أنبل أصحابنا وأعرفهم بطريقة الحديث وأسماء الرجال وأزمانهم وثقاتهم وضعفائهم وأعمارهم وآثارهم » (*) ، وقد ذكر له ابن الأبار في التكملة والمعجم كتابين هما « طبقات المحدثين » و « طبقات أئمة الفقهاء » وأثنى عليهما ، وذكر له ابن خبير في « الفهرست » كتاباً يسمى « النوامض والمبهمات » .

ومنهم كذلك ابن رُشيد السبتي — الذي ذكرناه بين أصحاب الرحلات — وكان من كبار علماء الحديث ، وفي مكتبة الإسكريال مصنفان من تأليفه في هذا الباب : الأول « كتاب السماع وإفادة التصحيح » ، والثاني « السّنن الأبين والموارد الأيمن » (٦) .

(*) ابن بشكوال : الصلاة ، رقم ٣٢٦ .

(٦) ابن بشكوال : الصلاة ، رقم ١٣٩٥ .

الفصل التاسع

القراءات وتفسير القرآن

- ف ١٢٢ — القراءات : أبو عمرو الداني وابن فَيْرُزُّة الشاطبي .
ف ١٢٣ — التفسير : يقي بن كجخلد .

ف ١٢٢ — القراءات : أبو عمرو الداني ، وابن فيرة الساطبي :

عنى المسلمون بدراسة القواعد المحككة لقراءة القرآن ، وما ينبغي لها من مدٍّ وغَنٍّ ووَقْفٍ وما إلى ذلك . واهتموا بتأليف الكتب في تلك الفروع ، لأن مراعاة الأصول المقررة في قراءة الكتاب تؤدي إلى تقويم النطق بالآي الكريمة على صورة ثابتة ، وتوحيد التلاوة . وفي خلال القرون المعجربة الأولى بلغ عدد الأساليب الرئيسية لتلاوة القرآن سبعة ، هي المعروفة بالقراءات السبع ؛ [قال ابن خلدون : « القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه ، المكتوب بين دفتي المصحف ، وهو متواتر بين الأمة . إلا أن الصحابة رَوَوْه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفية الحروف في أدائها ، وتنوّل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانقسام إلى من اشتهر بروايتها من الجمل الغفير ، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة . وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع ، إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل ... »] (*) . وكان إتقانها يتطلب درساً طويلاً . وكان لا بد لقراءة القرآن في المساجد من التمكن من ذلك الفن . وقد كان أهل الأندلس يتبعون القراءات المشرقية ، « إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العاصريين ، وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن ، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعاليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بمحضرتة ، فكان سهمه في هذا وافراً . واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراءة

(*) ابن خلدون : المقدمة ، الطبعة الأزهرية ١٣١١ ، ص ٢٥٩ . والمؤلف يتابع في هذا الباب مقدمة ابن خلدون ، فأيت أن آتى بنفس كلامه .

— لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً ، والقراءات خصوصاً — فظهر له هذه أبو عمرو [عثمان بن سعيد بن عثمان] الداني [٣٧٠ / ٩٨١ — ٤٤٤ / ١٠٥٣] وبلغ الغاية فيها ، ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلى روايه أسانيدها ، وتسددت تأليفه فيها ، وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب « التيسير » له (*) (١).

أما أبو القاسم محمد بن فيرة الرُّغْمِيّ الشاطبي (١١٤٤/٥٣٨ — ١١٩٤/٥٩٠) ، فقد نظم القواعد الواردة في كتاب « التيسير » واحتصرها في تصديده المعروفة « بحر الأمانى ووجه التهاني » — والتي تسمى كذلك « الشاطبية » — فسهل على الناس استذكارها وحفظها ، [وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً . ولقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهي عمدة فراء هذا الزمان — زمان ابن خلكان — في نقلهم ، قل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها . وهي مشتملة على رموز مجيبة وإشارات خفية لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها . وقد روى عنه أنه كان يقول : « لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها ، لأنني نظمتها لله تعالى مخاصماً لذلك » . ونظم قصيدة دالية في خمسمائة بيت . من حفظها أحاط علماً بكتاب « التمهيد » لابن عبد البر . وكان عالماً بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيراً ، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبرزاً فيه ... » (*) .

وإلى جانب هذه المدرسة نبغ في القراءات أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (المقرئ) ، واسمه حموش بن محمد بن مختار القيسي (٩٦٥ / ٣٥٥ — ١٠٤٥ / ٤٣٧) . [وأصله من القيروان ، سكن قرطبة .] قال صاحبه أبو عمر أحمد بن مهدي المقرئ : كان — نفعه الله — من أهل التبصر في علوم القرآن والعربية . حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل ، كثير التأليف في علوم القرآن

(*) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة بولاق ، ص ٣٦٥ .

(**) ابن خلكان : الوفيات ، طبعة محي الدين ، رقم ٥١٠ .

محمداً لذلك ، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها » (*) ؛ وشريح بن محمد بن شريح الرعيى المَقْرَى (١٠٥٩/٤٥٠ — ١١٥٢/٥٤٦) من أهل إشبيلية ، وقد سمع في صباه من محمد بن حزم خطيب مسجد إشبيلية الجامع على أيامه . وكان شريح « من جلة المقرئين ، معدوداً في الأدباء والمحدثين ، خطيباً بليغاً حافظاً محمداً فاضلاً ، حسن الخط ، واسع الخلق . سمع الناس منه كثيراً ، ورحلوا إليه ، واستنقى ببلده ، ثم صرف عن القضاء » (٢) (*) .

ف ١٢٣ — تفسير القرآن : بقى بن مخلد :

واهتم المسلمون كذلك بتفسير القرآن وفهم معانيه ، وشرح كله من الناحية اللفظية اللغوية ، وناحية المعاني والأفكار . ومعظم اعتمادهم في التفسير على الحديث النبوى الشريف قولاً وعملاً ، وهدفهم التوفيق بينه وبين آى الكتاب المنزل . ومن أكبر المفسرين الأندلسيين الذين اعتمد الناس عليهم بقى بن مخلد (٨١٧/٢٠١ — ٨٨٦/٢٧٢) ، وكان رجلاً صالحاً متقللاً من الدنيا ، متواضعاً . من أهل قرطبة ، رحل إلى المشرق في طلب العلم ، وسمع عدداً عظيماً من الشيوخ في مكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز العلم . ولم يقصر على السماع من المالكيين ، بل سمع من شافعيين ، وسمع من أحمد بن حنبل (وكان من كبار أصحابه) وآخرين . ولم يتبع مذهباً بعينه ، وإنما كان يصدر آراءه في المسائل بحسب ما يترأى له ، معتمداً على آى الكتاب . ولم يرض فقهاء الأندلس عن مذهبه هذا ، إذ كانوا يتعصبون لرأى مالك ، وأنكروا عليه هذا الاستقلال الذى كان يسير عليه ، وبدأوا يتكلمون في حقه ويستثيرون الأمير محمد بن عبدالرحمن عليه ، محتجين بأنه يقرأ على الناس مسند ابن أبى شيبة الذى لا يعرض وجهة نظر

(*) ابن بشكوال : الصلاة ، رقم ١٢٧٦ .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة ، رقم ٥٣١ .

المدنيين وحدها ، بل يعرض آراء غيرهم كذلك . وكان أحد خصومه ابن مَرْتَنِيْل شيخ المالكيين في عصره ، وأصبح بن حليل — وكان يفر من كل تجديد — ومحمد بن حارث . ومضوا يؤلبون عليه الناس ، وتكلموا في إصدار فتوى بإباحة دمه ، فعول بقى على الرحيل من الأندلس جملة ، « فاستحضره الأمير محمد وإيَّاهم ، وتصفح الكتاب (مسند ابن أبي شيبه) جزءاً جزءاً حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن كتبه : « هذا الكتاب لا تشغني خزانتنا عنه ، فانظر في نسخة لنا » ؛ ثم قال لبقى : « انشر علمك وارو ما عندك » ، ونهاهم أن يتعرضوا له » (*)

وقد وضع بقى تفسيراً للقرآن بلغ من كماله أن ابن حزم قال فيه : « فن مصنفات أبي عبد الرحمن بقى بن مخلد كتابه في تفسير القرآن ، فهو الكتاب الذى أقطع قطعاً ، لا أستثنى فيه ، أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره . ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذى رتب على أسماء الصحابة رضى الله عنهم : فروى فيه على ألف وثلاثمائة صاحب ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ؛ فهو مصنف ومسد . وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فيه في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتى رجل وأربعمائة رجل ، ليس فيهم عشرة ضعفا ، وسائرهم أعلام مشاهير . ومنها مصنفه في « فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم » ، الذى أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبه ومصنف عبد الرازق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها ، وانتظم علما كثيراً لم يقع فى شيء من هذا (يريد : هذه المصنفات) ، فصارت تواليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها . وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل ، وجارياً في مضمار أبي عبد الله البخارى وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى وأبي عبد الرحمن النسائى ، رحمة الله عليهم » (**) (٣) .

(*) ابن حزم (برواية المقرئ) : نفع الطيب ، طبعة محي الدين ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

(**) رواه ابن بكوال في « الصلاة » رقم ٢٧٥ . ولعل الضم (بنية ، رقم ٥٨٤) =

وكان بقى فى حياته الخاصة مثلاً من مثل التواضع والفضل (حتى لتروى الكتب كرامات جرت على يديه) ، ولم يقبل فى حياته ولاية أو منصباً^(١) .

ومن مفسرى الأندلس النابھين ابن تحامس ، عثمان بن محمد المتوفى سنة ٩٦٦/٣٥٦ ، [وكان حافظاً للتفسير عالماً بأخبار الدهور وله فى ذلك كتاب]^(*) . ومكى بن أبى طالب الذى أشرنا إليه ، وابن عطية ، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المحاربى ، أبو محمد (٤٨١ / ١٠٨٨ - ٥٤٢ / ١١٤٦ أو ٤٧) من أهل غرناطة ، وقد تولى قضاء المرية وغرناطة وأدرك شهرة عظيمة بتفسيره الذى اختصر فيه كل ما كتب قبله من التفسير ، وراج رواجاً عظيماً فى المغرب والأندلس ؛ [وقد قال فى حقه الضبي : « حافظ محدث مشهور ، أديب نحوى شاعر بليغ ، ألف فى التفسير كتاباً ضخمًا أرى فيه على كل متقدم ، أخبرنى به عنه شيخى القاضى أبو القاسم عبد الرحمن ، قرأ عليه جميعه بالمرية إذ كان أبو محمد قاضياً بها »]^(٢) . ومنهم كذلك أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبى الخزرجى المتوفى سنة ٦٠١ / ١٢٠٤ ، وله شرح على تفسير ابن عطية انتشر انتشاراً عظيماً بين أهل المشرق ، كما يقول ريبيرا .

== ترجمة بقى من الصلة بحروفها . وهذا الكلام وارد مع مخالقات يسيرة فى « رسالة ابن حزم فى فضل الأندلس » . (انظر نهج الطيب ، طبعة محي الدين ، ج ٤ ، ص ١٦٢ ، وترجمة بقى فى النفع ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٠)
 (*) ابن القرضى : علماء ، رقم ٨٩٩
 (٢) الضبي : بغية ، رقم ١١٠٢ .

الفصل العاشر

(*)
عِلْمُ أَصُولِ الْفِقْهِ

- ف ١٢٤ — المذاهب الفقهية .
- ف ١٢٥ — المذهب المالكي ، دخوله إسبانيا .
- ف ١٢٦ — كبار فقهاء المالكية الأندلسيين : أبو الوليد الباجي وأبو الوليد بن رشد .
- ف ١٢٧ — فقهاء مالكيون آخرون : ابن عاصم .
- ف ١٢٨ — فقهاء الشافعية .
- ف ١٢٩ — فقهاء المذهب الظاهري .
- ف ١٣٠ — أصحاب الشروط وأوقاف الفرائض .

(*) Cf. P. José López Ortiz : Derecho musulmán. Labor 322, 1932.

ف ١٢٤ - المذاهب الفقيرية :

كان القرآن أول مصدر مكتوب للتشريع الإسلامى ، وهو ما أوحى به الله إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) - فى مسائل العقيدة والأخلاق والشريعة - ليبلغه إلى المسلمين كافة . وقد جُمع القرآن فى عهد أبى بكر ، وكان الاعتماد فى ذلك على قراءة زيد بن ثابت وعبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان من كتّاب الوحي زمناً ثم عُزل . وبعد ذلك بقليل اعتُبرت السنة مصدراً ثانياً من مصادر التشريع إلى جانب القرآن ، وعند ما امتدت حدود مملكة الإسلام من الأندلس إلى سمرقند - خلال القرن الهجرى الأول - عرضت للمسلمين مسائل جديدة لم يجدوا لها فى القرآن والسنة حلاً صريحاً ، فكان لابد من إعمال « الرأى » لاستخراج الأحكام عن طريق « القياس » ، أو الأخذ « بإجماع » آراء فقهاء المسلمين .

ثم كانت الثورة التى نقلت الدولة من الأمويين إلى العباسيين ، وكانت ثورة دينية سياسية جعلت للفقهاء أهمية كان الأمويون يفكرونها عليهم ، وأتيح بذلك السبيل إلى ظهور مذاهب فقهية مختلفة . وكان أول ما ظهر منها مذهب أبى حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٤٩ / ٧٦٧ ، وهو مذهب حنفى يعتمد على القرآن ويستخرج الأحكام منه عن طريق الاستنتاج العقلى القائم على المنطق الدقيق وهو « القياس » ، وعند ما كان فقهاء الحنفية يجدون أن القياس المنطقى الخالص يؤدي إلى نتائج لا تتفق مع العرف الجارى فى بلد من البلاد كانوا يبحثون عن حل « يستحسنونه » لهذه الحالة . وقد رعى هارون الرشيد هذا المذهب . وإزاء المذهب الحنفى ظهر مذهب « الأوزاعى » المتوفى سنة ١٥٧ / ٧٧٤ ، وكان من أنصار مدرسة الحديث ، لا يرضى عما استحدثه الأحناف من أقيسة ذات طابع

فلسفى . وقد سار أهل الأندلس على مذهب الأوزاعى ، وظلوا عليه حتى تحولوا إلى مذهب مالك .

أما مذهب مالك بن أنس (توفى سنة ١٧٨ / ٧٩٥) فقد جمع بين سلفيَّة الأوزاعى (الأخذ بالحدیث) وحرية المذهب الحنفى فى الأخذ بالقياس . وهو — مع اعتماده على القرآن والسنة كمصدرين أساسيين لاستنباط الأحكام — قد أعطى « إجماع أهل المدينة » أهمية خاصة [فى بعض المسائل] ، فوسَّع بذلك معنى « الإجماع » . ولم يلجأ إلى « الرأى » إلا فى حالات الضرورة القصوى ، وربما ابتعد عن النصوص الشرعية إذا رأى أن التزامها ينتج عنه ضرر للمجموع ، ويسمى ذلك الاستثناء فى عرف المالكية « بالاستصلاح » . وقد دون مالك مذهبه فى « الموطأ » ، ورتب فيه الأحاديث التى تستخرج منها الأحكام أبواباً بحسب موضوعاتها الفقهية الشرعية ، ثم أورد بعد ذلك ما جرى عليه عمل أهل المدينة ، وأعقب ذلك برأيه الخاص فى بعض مسائل قليلة . وقد ساد مذهب مالك فى المغرب والأندلس .

وقد نشأ الخلاف بين هذه للذاهب ، لأن بعضها كان يلتزم للأثر ولا يخرج عنه ، ويذهب بعضها الآخر إلى استخدام الرأى وإعمال الذهن كثيراً أو قليلاً ، ومن ثم ظهر مذهب وسط بين هذه الأطراف المتباعدة ، وضعه الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤/٨٢٠ ، إذ نسق أصول الفقه التى أخذت بها للذاهب المختلفة « تنسيقاً حكماً ، وأوجد بينها توازناً لا يصل الإنسان إلى أحسن منه » : فأخذ بالقرآن والسنة ، وأخذ بالإجماع فى المسائل التى جرى العمل بها فى كافة بلاد الإسلام ، لأن اجتماع آراء المسلمين على صورة حقيقية عامة لا يكون إلا بتوفيق من الله . وذهب الشافعى كذلك إلى تعميم استعمال القياس وإعمال الرأى .

ثم ظهر داود الظاهرى المتوفى سنة ٢٦٩/٨٨٣ ، فتعصب للأثر من الكتاب والسنة وترك الإجماع الذى كان الفقهاء قبله قد جعلوه فى مرتبة الكتاب والسنة .

وذهب إلى الاختصار على المعنى الحرفي للكتاب والسنة — فحسب — كأصل للفقهاء ، وأعرض عن القياس تماماً ، وضيق حدود الإجماع ، ولم يأخذ إلا بما أجمع عليه الصحابة ، ونهى عن « التقليد » : وهو اتباع الرأي الشخصي لإمام المذهب ، ودعا إلى دراسة الكتاب دراسة تعمق وشمول ، وتفسيره تفسيراً حرفياً ، بحسب ما يرد من معاني الكلمات في معاجم اللغة وما تقتضيه قواعد النحو ، ولم يسلم بما ذهب إليه أهل القياس في تفسير آية من الآيات أو حديث من الأحاديث إلا إذا أيد ما يذهبون إليه آية أخرى أو حديث آخر . ويكاد مذهب ابن حنبل يشترك مع المذهب الظاهري في كل هذه الاتجاهات ، وقد وضعه أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤٠ / ٨٥٥ ، وكان أقرب إلى المشتغلين بالإلميات والمحدثين منه إلى أهل الفقه .

وقد اتبع معظم أهل الأندلس مذهب مالك من بين هذه المذاهب كلها ؛ وقد قاست في رحاب المذهب المالكي ثلاث مدارس يختلف بعضها عن بعض اختلافاً سيراً : مدرسة سحنون بن سعيد صاحب « المدونة » ومركزها القيروان ، ومدرسة قرطبة ، ومدرسة المالكيين العراقيين ؛ ولم يتبع أحد من أهل الأندلس هذه المدرسة الأخيرة .

[ومن المفيد هنا أن نأني بما يقوله ابن خلدون في مقدمته بصدد المالكية في الأندلس والمغرب ، إذ هو يلقى على هذه الناحية ضوءاً باهراً ، قال :

« ... وأما مالك — رحمه الله تعالى — فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإن كان يوجد في غيرهم . إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل ، لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز — وهو مفتحي سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق — ولم يكن العراقي في طريقهم ، فاقصروا على الأخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم . الك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده ؛ فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وفلادوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته . وأيضاً فالبدأة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ،

ولم يكونوا يمانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل
لناسبة البداوة . ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح
الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب .

« ولما صار مذهب كل إمام عالماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل
إلى الاجتهاد والقياس ، فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق ، وتفريقها عند
الاشتباه ، بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم ، وصار ذلك كله
يحتاج إلى ملكة راسخة ، يُقَدِّرُ بها على ذلك النوع من التنظير أو التفريق ،
واتباع مذهب إمامهم فيها ما استيطاعوا ؛ وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد .
« وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه الله ، وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر
والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته ، مثل ابن خُوَيْرِزٍ مَنَدَاد
وابن اللبان والقاضي أبو بكر الأبهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي
عبد الوهاب ومن بعدهم . وكان بمصر ابن القاسم وأتباعه وابن عبد الحكم
والحرث بن مسكين وطبقتهم . ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب ، فأخذ
عن ابن القاسم وطبقته ، وبث مذهب مالك في الأندلس ودُون « كتاب الواضحة » ،
ثم دَوَّنَ العُتْبِي — من تلامذته — « كتاب العُتْبِيَّة » . ورحل من إفريقية أسد
ابن القرات ، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ، ثم انتقل إلى مذهب مالك
وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه ، وجاء إلى القيروان بكتابه وسمى
« الأسدية » نسبةً إلى أسد بن القرات ، فقرأ بها سحنون على أسد ؛ ثم ارتحل
إلى المشرق واتى ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير
منها ، وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه ، وكتب لأسد أن
يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك ، فترك الناس كتابه واتبعوا « مدونة
سحنون » — على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب ، فكانت تسمى
المدونة والمختلطة — وعكف أهل القيروان على هذه المدونة ، وأهل الأندلس

على الواضحة والعتبية . ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى « بالختصر » ، وخلصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى « بالتهذيب » ، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه ؛ وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها .

« ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع ، فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا ، مثل ابن يونس والبخي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم ، وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا ، مثل ابن رشد وأمثاله . وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب « الفوائد » ، فاشتمل على جميع أقوال المذهب ، وفترع الأمهات كلها في هذا الكتاب ؛ ونقل ابن يونس معظمه في كتاب على المدونة ، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأقفين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك ، إلى أن جاء كتاب أبي عمرو ابن الحاجب ، لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب ، وتعدد أقوالهم في كل مسألة ، فجاء كالبرنامج للمذهب » [١] .

ف ١٢٥ — مذهب مالك ، دخوله الأندلس :

لا زالت مسألة من أدخل المالكية إلى الأندلس غامضة ، فيذهب المقرئ إلى أن الأندلسيين كانوا على مذهب الأوزاعي كأهل الشام ، ثم أقبل إلى الأندلس أثناء خلافة الحكم المستنصر (١٧٩/٧٩٦ — ٢٠٥/٨٢١) نفر من الفقهاء ، ساروا في أحكامهم على رأي مالك وأهل المدينة ، وأقرم الحكم على ما ذهبوا إليه ، بسبب ما حدثه به تلاميذ مالك من الأندلسيين عن فضله وعظيم أثره وشهرته ويذكر المقرئ أيضاً أن تحول الأندلس إلى المالكية تم على يد نفر من الفقهاء أعظمهم عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي وأبو عبد الرحمن زياد بن

عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون ، ويقال إن هذا الأخير كان أول من أدخل المالكية إلى الأندلس . أما ابن القوطية فيقول إن أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس هو الغازي بن قيس الذي سمعه من مالك — وكان ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل (١٣٧ / ٧٥٥ — ١٧١ / ٧٨٨) — [إذ يقول : « وفي أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازي بن قيس الأندلس موطأً عن مالك وبقرأة نافع بن أبي نعيم ، وكان له مكرماً ومتكرراً عليه بالصلة في منزله . وفي أيامه دخل أبو موسى الموارى عالم الأندلس ، وكان قد جمع علم العربية إلى علم الدين ، وكانت رحلتها إلى المشرق بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس . فحدث الشيخ [عمر] بن لبابة ، قال : كان أبو موسى الموارى إذا دخل من قرينته بفحص مورور — التي كان فيها سكناه — لم يُفْتِ أحدٌ من مشايخ قرطبة ، لا عيسى بن دينار ولا يحيى بن يحيى ولا سعيد بن حسان رحم الله جميعهم ، حتى يرحل عنهم »] (*) .

ومن الثابت — على أي حال — أن مذهب مالك ثبت في الأندلس وعلا أمره فيه على أيام هشام الرضى (٨٩ / ٧٠٨ — ١٧٩ / ٧٩٦) ، بسبب المسكنة الرفيعة التي حظى بها يحيى بن يحيى الليثي عنده ؛ وكان يحيى من تلاميذ مالك المباشرين وكان متعصباً لمذهبه ، وكان هشام يشاوره في أمور القضاة ، فلم يكن يولى إلا المالكيين . ومن بين من أسسوا دولة المالكية في الأندلس يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وشبطون (٢) .

ف ١٢٦ — كبار فقهاء المالكية في الأندلس : أبو الوليد الباجي

وأبو الوليد بن رستم :

من المتعذر علينا أن نذكر جميع الأندلسيين الذين ألفوا في الفقه على مذهب

(*) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٥ .

مالك ، واعتمدوا على موطنه ووضعوا عليه الشروح والتعليقات ، لأن ذلك الإحصاء يطول ولا جدوى من وزائه ، ولهذا فسنبجزي في هذا المقام بذكر أكارهم :

فن أقطاب المالكية الأندلسيين عبد الملك بن حبيب — وقد تحدثنا عنه (ف ٦٢) — وتلميذه محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة المعروف بالمتنبى المتوفى سنة ٢٥٤/٨٦٨ ، وهو صاحب مجموعة « الأسمعة المسموعة غالباً من مالك ابن أنس » (*) المسماة « بالعتبية » أو « المستخرجة » ، وكانت من أكثر الكتب تداولاً بين الأندلسيين وأهل المغرب . [وقد قال في حقه ابن الفرضي : « سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ، ورحل فسمع من سحنون ابن سفيد وأصبغ بن الفرج ونظرأئهما . وكان حافظاً للمسائل ، جامعاً لها ، عالماً بالنوازل . وهو الذي جمع « المستخرجة » وأكثفها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة . وكان يؤتى بالمسألة الغريبة فإذا سمعها قال : أدخلوها في المستخرجة ... »] (*) (٣) .

ومنهم يحيى بن إبراهيم بن مزين القرطبي المتوفى سنة ٢٥٩/٨٧٢ ، وله مؤلفات كثيرة في شرح الموطأ . [وكان يحيى بن مزين — « مولى رمة بنت عثمان ابن عفان ، رضى الله عنه — من أهل قرطبة ، وأصله من طليطلة ؛ يُكنى أبا زكريا . روى عن عيسى بن دينار ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى وغازي بن قيس ونظرأئهم ؛ ورحل إلى المشرق في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم [الأوسط] رحمه الله ، فلقى بالمدينة مطرف بن عبد الله صاحب مالك ابن أنس ، روى عنه للموطأ ورواه أيضاً عن حبيب كاتب مالك ؛ ودخل العراق فسمع من القعنبي عبد الله بن مسلمة ، ومن أحمد بن عبد الله بن يونس ، وسمع بمصر من أصبغ بن الفرج وغيره . وكان حافظاً للموطأ فقيها فيه ، وكان مشاوراً

(*) القرطبي ، فتح ، ط . عمي الدين ، ٢ ، ص ٤١٤ — ٤١٥ .

(**) ابن الفرضي : علماء ، رقم ١١٠٢ .

مع العتيبي وابن خالد ونظراتهم ، وله حظ من علم العربية ، وألف كتباً حسناً منها « كتاب تفسير الموطأ » ، و « كتاب تسمية الرجال المذكورين في الموطأ » وكتاب استقصى فيه علل الموطأ سماه « كتاب المستقصية » ، و « كتاب في فضائل العلم » و « كتاب في فضائل القرآن » ؛ ولم يكن عنده علم بالحديث [(*)] .

ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء البياني المحدث ، وكان فقيهاً نابهاً . [« صنف في السنن كتاباً حسناً ، وفي أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل بن إسحاق القاضي كتاباً جليلاً ، وله كتاب المجتبي (المجتبي ؟) على أبواب كتاب ابن الجارود « المنتقى » ؛ قال أبو محمد بن حزم : « وهو خير منه انتقاءً وأتقى حديثاً وأعلى سنةً وأكثر فائدة . وله « كتاب في غرائب حديث مالك بن أنس في إنباء في الموطأ » ، و « كتاب في الأنساب » في غاية الحسن والإيعاب » . حكى ذلك كله أبو محمد بن حزم وقال : « كان رحمه الله من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره » . كان أصله من بيانة وسكن قرطبة وبها مات سنة ٣٢٠ عن سن عالية » [(*)] .

ومنهم ابن أبي دليم ، عبد الله [بن محمد بن عبد الله من أهل قرطبة ، يكنى أبا محمد ، « وكان نبيلاً في الحديث ضابطاً لما روى ، بصيراً بالأعراب حسن الكتاب ، وأكثر الكتب التي سمعنا فيها من أخيه محمد بن محمد بخطه ، وهو كان المتولى لقراءتها على الشيوخ . وولاه أمير المؤمنين المستنصر بالله رحمه الله قضاء البيرة وبيجانة وأحكام الشرطة ، وكانت له منه مكانة »] . وقد صنف « كتاب الطبقات فيمن روى عن مالك وأتباعهم من أهل الأمصار » . وتوفي سنة ٩٦٢/٣٥١ .

ومنهم يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي للتوفي سنة ٩٧٧/٣٦٧ ، وكان حفيداً ليحيى الليثي . [« وكان قاضياً ببيجانة والبيرة ، وولى أحكام الرد أيام كان أخوه [محمد بن عبد الله المعروف بابن أبي عيسى] قاضياً بقرطبة ، وعمر إلى أن كان آخر

(*) ابن القرضى : علماء ، رقم ١٥٥٦ .

(**) الضي : البقية ، رقم ١٢٩٨ .

من حدث عن عبيد الله [بن يحيى ، عم أبيه] وانفرد بالرواية عنه ، ورحل الناس إليه من جميع كور الأندلس . وكان ما رواه عن عبيد الله « الموطأ » و « سماع ابن القاسم » و « حديث الليث » و « عشرة » يحيى بن يحيى الليثي و « تفسير » عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و « مشاهد » ابن هشام ، وُتفقا من حديث الشيوخ . اختلفت إليه في سماع الموطأ سنة ٢٠٦ (كذا في الأصل ولعل صحتها ٣٦٠) ، وكانت الدولة فيه في أيام الجمع بالغدوات ، فتم لي سماعه منه . وسمعت منه كتاب التفسير لعبد الله بن نافع . ولم أشهد بقرائه مجلساً أكثر بشراً من محمد بن موطأ ، إلا ما كان من بعض مجالس يحيى بن مالك بن عازم . ولم أسمع منه غير الموطأ والتفسير ، وفي هذا العام كان بدر (بدء) سماعى ، ثم شاذى النظر في العربية عن مواصلة الطلب ، إلى مئة تسعين [وثلاثمائة] . ومن هذا التاريخ انفصل سماعى عن الشيوخ . وسمع من يحيى بن عبد الله الموطأ جماعة من الشيوخ والسكران وطبقات من الناس ، وسمعه منه أمير المؤمنين المؤيد بالله أعزاه الله سنة ٣٦٤ » [*] .

وكان ابن القوطية (ف ٦٥) — إلى جانب اهتمامه بالتأريخ — معنياً بالحديث وعلومه والفقه ، وكذلك ابن أبي زمنين (ف ١٧) الشاعر النابه فقد كان فقيهاً مقدماً وزاهداً متبئلاً ، له تواليف متداولة في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين « على طريقة كتب ابن أبي الدنيا وأشعار كثيرة في نحو ذلك ، وله كتاب في الشروط على مذهب مالك بن أنس يسمى « المشتمل في الشروط » ، وقد اختصر « مدونة » سحنون في تأليف سماه « المغرب في اختصار المدونة » ، وله كتاب جمع فيه بين تفسير القرآن ، هذا بالإضافة إلى شرح كبير للموطأ .

(*) ابن الفرضي : علماء ، رقم ١٥٩٥ . و « العشرة » المشار إليها في المسحور الكتب العشرة التي أخذها يحيى بن يحيى الليثي عن زياد المروفي بشطون . (انظر : القرى ، نفع ، طبعة محي الدين ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ في ترجمة زياد بن عبد الرحمن المروفي بشطون) . وعبارة « وكانت الدولة فيه ... » مفهومة على وجه التقريب ، وربما كانت صحتها : وكان تداوله فيه ... الخ . والمراد أن يحيى بن عبد الله كان يخصص درس الغداة من كل جمعة لقراءة الموطأ

[« وكان ذا حفظ للسائل ، حسن الصنيف في الفقه ، وله كتب كثيرة أنجزها في الرقائق والزهد والمواعظ سهاً شياً كثيراً (كذا) ، وولع الناس بها واشتهر خبرها في البلدان . وكان يفرض الشعر ويجود صوغه ، وكان كثيراً ما يدخل أشعاره في تواليغه فيحسنها به . وكان له حظ وافر من علم العربية ، مع حسن هدي واستقامة طريق وظهور نسك وصدق لهجة وطيب أخلاق وترك الدنيا وإقبال للعبادة وعمل للآخرة ومجانبة للسلطان . وكان من الورعين البكائين الخاشعين . سمعته يقول : « أصلنا من تدنس » . وسئل : « لم قيل لكم بنو أبي زمنين ؟ » فقال : « لا أدري ، كنت أهاب أبي ، فلم أسأله عن ذلك » . سكن بقرطبة دهرًا طويلاً ثم انتقل إلى البيرة وسكنها إلى أن توفي بها سنة ٣٩٨ هـ » (*) .

ومنهم كذلك قاضي إشبيلية وأكبر أصحاب الوثائق بها محمد بن يحيى بن أحمد ابن محمد بن يعقوب بن داود التميمي المعروف بابن الحذا (٣٤٦ / ٩٥٨ - ٤١٥ / ١٠٢٥) ، وكان تلميذاً لابن القوطية . [« قال أبو علي النسائي (الصدفي) : كان أبو عبد الله بن الحذا أحد رجال الأندلس فقهاً وعلماً ونباهة ، معيناً منفئاً في العلوم يقظاً ، ممن عنى بالآثار وأتقن عملها (علماً ؟) ، ومن [عرف] طرقها وعلما . وكان حافظاً للفقه بصيراً بالأحكام ، إلا أن علم الأثر كان أغلب عليه وعلل أسانيده وفقه فنونه . وكانت له خاصة بالقاضي أبي بكر بن زرب ، تبتأه وهو ابن بضع عشرة سنة وأدى مكانه ، وتفقه معه في الرأي والأحكام وعقد الوثائق . وطلب العلم من سنة ٣٦٢ . ولزم أبا محمد الأصيلي ، اختص به وانتفع بصحبته . قال ابنه أبو عمر أحمد بن محمد : « كان لأبي رحمه الله علمٌ بالحديث والفقه وعبرة الرؤيا » . ومن تأليفه « كتاب التعريف بمن ذكر في موطن مالك بن أنس من الرجال والنساء » ، و « كتاب الإنباء عن أسماء الله » ، و « كتاب البشرى في تأويل الرؤيا » عشرة أسفار ، و « كتاب الخطب وسير الخطباء » في سفرين ،

وغير ذلك . واستُفضى أبو عبد الله ببجانة ثم بإشييلية ، وكان مع القضاء (القضاة ؟) في عهد المشاورين بقرطبة . وتولى أيضا خطة الوائيق السلطانية . وخرج من قرطبة في الفتنة ، واستقر بالثغر الأعلى ، واستقضى بمدينة تطيلة ، ثم نقل منها إلى قضاء مدينة سالم ، وحدث هناك . ثم صار إلى سرقسطة وتوفي بها .
 قبل طلوع الشمس لأربع خلون من شهر رمضان سنة ٤١٦ [١٠٢٥] ، ودفن بباب القبلة على مقربة من قبر حنش بن عبد الله الصنعاني رحمه الله . وعهد أن يدخل في أكنافه كتابه المعروف بالإنباء في أسماء الله ، فنُشر ورقه وجعل بين القميص والأكفان ، نفعه الله بذلك [*].

ومنهم كذلك ابن عفيف ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف بن مَرْيُول ابن حاتم بن عبد الله الأموي (٣٤٨/٩٥٩ - ٤٢٠/١٠٢٩) . [قال عنه ابن بشكوال : « ... وعُني بالفقه وعقد الشروط والوثائق فحذقها ، وشهر بتبريزه فيها . ثم شارف كثيرا من العلوم وأخذ بأوفر نصيب منها . ومال إلى الزهد ومطالعة الأثر والوعظ ، فكان يعظ الناس بمسجده بحوانيت الريحاني بقرطبة ، ويعلم القرآن فيه . وكان يقصده أهل الصلاح والتوبة . والإنابة ويلوذون به ، فيعظمهم ويذكّرهم ويخوِّفهم العقاب ويدلّم على الخير . وكان رقيق القلب غزير الدمع حسن المجادلة مليح الوانسة جميل الأخلاق حسن اللقاء . وكان يغسل الموتى ويحيد غسلهم وتجهيزهم ، وقد جمع في معنى ذلك كتابا حفيلا . وجمع أيضا كتابا حسنا في « آداب المعلمين (أو المتعلمين) » خمسة أجزاء . وصف في « أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة » كتابا مختصرا ، وقد نقلنا منه في كتابنا هذا ما نسبناه إليه . وتولى عقد الوثائق لمحمد [بن عبد الجبار] المهدي أيام توليه للملك بقرطبة . فلما وقعت الفتنة خرج عنها وقصد للريّة ، فأكرمه خيران الصقلبي صاحبها وأدنى مكائنه وعرف فضله وأمانته ، فقلده قضاء لَوَرَقَة ، فخرج إليها وألقى عصاه بها والتزم الصلاة والخطبة بجامعها . ولم يزل حسن السيرة فيهم محمودا لديهم محببا

إليهم ، إلى أن توفي ضحوة يوم الأحد لست عشرة ليلة خلت لربيع الآخر سنة ٤٢٠ هـ (*) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن (٩٩٣/٣٨٣ — ١٠٦٩/٤٦٢) ، [« وكان فقيهاً عالماً عاملاً ورعاً عاقلاً بصيراً بالحديث وطرقه ، عالماً بالوثائق وعلمها مدققاً لمعانيتها لا يجارى فيها ؛ كتبها مدة حياته ، فلم يأخذ عليها من أحد أجراً . وكان يحكى أنه لم يكتبها حتى قرأ فيها أزيد من أربعين مؤلفاً .] وكان متشغفاً في فنون العلم حافظاً للأخبار والأمثال والأشعار ، يتمثل بالأشعار كثيراً في كلامه ، صلياً في الحق مؤيداً له مميّزاً لزمانه متحفظاً من أهله . منقبضاً عن السلطان وأسبابه ، جارياً على سنن الشيوخ في جميع أحواله ، متواضعاً مقتصداً في ملبسه ، يتصرف في حوائجه بنفسه ويتولاهما بذاته . كان شيخ أهل الشورى في زمانه وعليه كان مدار الفتوى في وقته ، دعى إلى قضاء قرطبة حراماً فأبى من ذلك وامتنع ، وكان قد دعى قبل ذلك إلى قضاء طليطلة والرية فاستغفهما . وقدمه القاضي أبو اللطف بن بشر إلى الشورى والناس متوافرون ، وذلك سنة ٤١٤ وهو ابن إحدى وثلاثين سنة . وكان يهاب الفتوى ويخاف عاقبتها في الأخرى ويقول : « من يحدثنى فيها جعله الله مفتياً » ، وإذا رُغِبَ في جوابها وغبت (أورُغِبَ ؟) بالأجر عليها يقول : « وددت أني أنجمونها كفافاً لا على ولا لي » ، ويتمثل بقول الشاعر :

تُمنّونني الأجر الجزيل وليتني نجموت منها كفافاً لا على ولا لي (*) (٤)

ومن أكبر أعلام المالكية في الأندلس شأناً أبو الوليد سليمان بن خلف ابن سعد بن أيوب بن وارث القجيجي الباجي (١٠١٢/٤٠٢ — ١٠٨١/٤٧٣) ،

(*) ابن بشكوال : السلة ، رقم ٧٣ . وقد أورد المؤلف موجزاً لهذه المادة فأثبت بأم ما فيها بنصه .
(**) ابن بشكوال : السلة ، رقم ١٠٧٧ . وقد أورد المؤلف خلاصة هذه الفقرة فأثبت بنصها .

وأصله من بطليوس وانتقل جده إلى باجة قرب إشبيلية . نشأ الباجي في أسرة معدمة ، وجد في الطلب وتحمل الشاق ورحل إلى المشرق لكي يتمكن من دراسة الأدب والفقه ، (حتى « أجز نفسه ببغداد لحراسة الدروب » ليكسب ما يمينه على إتمام دراسته) . وعاد إلى الأندلس وجلس للإقراء بسرقة وبلنسية ومرسية ودانية ، « وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب ، ويعقد الوثائق ، إلى أن فشا علمه وتهيات له الدنيا » . ولم يشق طريقه إلا في عسر ، وكان مشغولاً بالتأليف في أثناء ذلك كله . وقد علا شأنه بسبب مؤلفاته في الفقه المالكي وأصول الدين واشتغل بكتابة الشروط ، وولى قضاء بعض النواحي .

ومؤلفاته تكاد تكون كلها في علوم الفقه والقرآن ، وخاصة في أصول الأحكام (*) وشرح اللوطا . [قال ابن بسم : وبلغني عن ابن حزم أنه كان يقول : لو لم يكن لأصحاب للذهب للمالكي بعد عبد الوهاب] [إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم . وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها « كتاب التسييد إلى معرفة التوحيد » ، و « كتاب سنن النهاج وترتيب الحجاج » ، و « كتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول » ، و « كتاب التمهيد والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الصحيح » ، و « كتاب شرح اللوطا » وهو نسختان : نسخة سماها « الاستيفاء » ثم انتقى منها فوائد سماها « المنتقى » في سبع مجلدات ، وهو أحسن كتاب ألف في مذهب مالك ، لأنه شرح فيه أحاديث اللوطا وفرع عليها تفرعاً حسناً ، وأفرد منه شيئاً سماه « الإيماء » . وقال بعضهم إنه صنف « كتاب المعاني في شرح اللوطا » فجاء عشرين مجلداً عديم النظير . وكان أيضاً صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الناية سماه « الاستيفاء » ، وله كتاب « الإيماء في

(*) انظر عما يتضمنه هذا الفن من فروع الدراسة :

Asín Palacios, Abenházam, p. 257.

(المؤلف)

الفقه « خمسة مجلدات ، انتهى . ومن تصانيفه « مختصر المختصر في مسائل المدونة » ، وله « كتاب اختلاف الموطآت » ، و « كتاب الإشارة في أصول الفقه » ، و « كتاب سنن الصالحين » ، و « كتاب التفسير » لم يتمه ، وكتاب « شرح المنهاج » ، و « كتاب التبيين لمسائل المهتدين » في اختصار فرق الفقهاء ، و « كتاب السراج في الخلاف » ولم يتم ، وغير ذلك » (*) . وله كذلك وصية جليلة لولديه يرشدهما فيها إلى طريق العيش الكريم التقى .

يبد أن كنبه لم تظر بذكره كما طارت به مساجلاته ومجادلاته مع ابن حزم (ف ٦٨) ، ويبدو أن ما حفزه على الدخول في ذلك الجدل هو رغبته النبيلة في التقريب بين أمراء الطوائف وتوحيد كلمتهم ، بعد أن تلاشى كل أمل في قيام خلافة قرطبة الأموية مرة ثانية . [قال المقرئ : « ولما قدم [الباجي] من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً مفترقة ، فشى بينهم في الصلح ، وهم يُجَلِّونَه في الظاهر ويستغلونَه في الباطن ويستبُردون نزعته ، ولم يقد شيئاً ، فآله تعالى يجازيه عن نيته »] (**) . وكان مما أقحمه في هذه المجادلات أيضاً ما بدا له من تدارك الشر الذي قد ينتج عن اجتهد ابن حزم في نشر مذهبه الظاهري ، وكان الفقهاء يعتبرون هذا المذهب بدعة وضلالة . ولم يبق لنا من تفاصيل هذه المجادلات إلا صدى غير واضح نجده في بعض صفحات « الفصل » لابن حزم ، وأخبار متضاربة عن انهزام الباجي أو انتصاره على خصمه ، وكل مؤرخ يعرضها على حسب ما أملاه عليه شعوره نحو ابن حزم (٥) ، [فن ذلك قول القاضي عياض : « ولما قدم [الباجي] الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجاً عن المذهب [المالكي] ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من

(*) المقرئ : فتح الطيب ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ١٣٠٢ ، ج ١ ، ص ٣٥٤ . — ٣٥٥ .

(**) المقرئ : فتح ، المطبعة الأزهرية ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .

أهل الجهل . وحل بجزيرة ميورقة فرأسه فيها واتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك ، فدخل إليه وناظره وشهر باطله وله معه مجالس كثيرة » [(*)] .

وكان أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد (١٠٥٨/٤٥٠ — ١١٢٦/٥٢٠) — جد الفيلسوف المعروف — أئبه فقهاء المالكية ذكراً في عصره ، وقد تولى قضاء الجماعة في فرطبة ، [إذ « كان فقيهاً عالماً حافظاً للفقهاء مقدماً فيه على جميع أهل عصره ، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم ، نافذاً في علم الفرائض والأصول ، من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم ، مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن والهدى الصالح »] (**) ، وكان صاحب الصلاة في مسجدها الجامع . ومن أشهر مؤلفاته كتابا « المقدمات لأوائل كتب المدونة » ، و « البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل » ، وقد بسط فيه الأسس الفقهية لأحكام مذهب مالك في شتى المسائل بحسب ما وردت في « مسخرجة » العتي . ومن مؤلفاته كذلك « اختصار المبسطة » و « اختصار مشكل الآثار للطحاوي » (١) .

ف ١٢٧ — فقهاء مالكيون آخرون : ابن عاصم :

وكان من بين النابهين من فقهاء المالكية ابن الطلاع (١٠١٣/٤٠٤ — ١١٠٣/٤٩٧) ، [محمد بن فرج مولى محمد بن يحيى البكري ، يعرف بابن الطابع ، من أهل فرطبة ، يكنى أبا عبد الله ، بقية الشيوخ الأكابر في وفته وزعيم المفتين بحضرته . روى عن القاضي يونس بن عبد الله وأبي محمد مكي بن أبي طالب المقرئ ، وأبي عبد الله بن عابد وأبي علي الحداد وأبي عمرو العرشاني وأبي المطرف ابن جرج وأبي عمر بن القطان وحاتم بن محمد ومعاوية بن محمد العقيلي . وكان

(*) المقرئ : نصح ، المطبعة الأزهرية ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(١) ابن يشكوال الصلة ، رقم ١١٥٤ .

فقيها عالما حافظا للفقهاء على مذهب مالك وأصحابه ، حاذقا بالفنوى مقدما في الشورى ، عارفا بمقد الشروط وعلاها ، مقدما فيها ، ذا كرا لأخبار شيوخ بلده وفناويهم ، مشاركاً في أشياء من العلم حسنة مع خير وفضل وعفاف ودين وكثرة صدقة وطول صلاة ، قوَّالا للحق وإن أذى فيه . . . وولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وأسمع الناس به وأفتاهم فيه . وعمر وأسَنَ حتى سمع منه السكبار والصغار والآباء والأبناء . وكانت الرحلة في وقته إليه ، وجمع كتاباً حسناً في « أحكام النبي صلى الله عليه وسلم » (*) .

ومنهم ابن المقرئ ، على بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك ، أبو الحسن الفزاري القرطابي ، ويعرف بابن البقرى (والمقرئ أيضاً) المتوفى سنة ٥٥٢ أو ٥٥٧/١١٦١ . وهو قرطابي ، وكان أساداً نابها في علوم الفقه ؛ [وقال ابن الزبير : كان فقيها مشاوراً محدثاً متكلماً ، له تواليف كثيرة منها « كتاب مهاج السداد في شرح الإرشاد » ، وكتاب « مدارك الحقائق » في أصول الفقه [في خمسة عشر جزءاً] ، توفي في كائنة غرناطة فقداً] (**) ، وله أيضاً « شمائل النور الساطع الكامل » في مدح النبي صلى الله عليه وسلم (†) ، ورسالتان في التصوف .

ومنهم المحدث الفقيه ابن الخراط (٥١٠/١١١٦ — ٥٨١/١١٨٥) ، [عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الإشبيلي ، يعرف بابن الخراط ، « زل بجاية عند الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة اللتونية ، ونشر بها علمه وصف وولى الخطبة والصلاة بجامعها . وكان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلمه ، عارفا بالرجال ، موصوفاً بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنّة والتقل من الدنيا ، مشاركاً في الأدب وقول الشعر . وصف

(*) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١١٢٣ .

(**) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٨٥٤ .

(†) حاجي خليفة : كشف الظنون ، رقم ٧٦٣٨ .

في الأحكام نسختين ، كبرى وصغرى ، سبقه إلى ذلك أبو العباس بن أبي مروان (مروان ؟) الشهيد بلبلة ، فخطى هو دون أبي العباس . وله « الجمع بين الصحيحين » ، و « كتاب في الجمع بين المصنفات الستة » ، و « كتاب في المعتل من الحديث » ، و « كتاب في الرقاق » ، ومصنفات أخرى . وله في اللغة كتاب حافل ضامى به الفريبيّن للهروى (*) ، وله أيضاً كتاب « مختصر كتاب الرشاطى في الأنساب من القبائل والبلاد » وهو في سفرين [**] .

ومنهم محمد بن أحمد بن حرب المتوفى سنة ٧٤١/١٣٤٠ ، وكان معنياً بأصول الدين والفقه علاوة على تحفته بالعربية والأدب ، وله من المؤلفات « كتاب الأنوار السنية في الكلمات السنية » ، و « كتاب في تهذيب صحيح مسلم » ، و « كتاب الدعوات » في مجلدين ، و « كتاب الفوائد الفقهية في مذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية » في ثلاثة مجلدات ، و « كتاب في القراءة ، نافع وغير نافع » ، و « المختصر في لحن العامة » ، و « فهرسة اشتملت على جملة من أهل المشرق » ، و « الأذكار المستخرجة من صحيح الأخبار » (†) (٧) .

وفي الفترة الأخيرة من تاريخ المسلمين في الأندلس نجد ابن عاصم ، أبا بكر محمد بن محمد (٧٣٠/١٣٥٨ — ٨٢٩/١٤٢٦) . وهو غرناطي ، تولى قضاء الجماعة في بلده ، واستوزره يوسف الثاني النقي بالله صاحب غرناطة . وقد ألف عشرة كتب لم يبق لنا منها غير اثنين : « تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام » ، وهي أرجوزة في فقه مالك تقع في ١٦٩٨ بيتاً ، (وقد نشرها مع ترجمة فرنسية المستشرقان الفرنسيان هودا ومارتل ، تحت عنوان :

Traité de droit musulman, la Tohfat d'Ebn Acem. Texte arabe avec traduction française, commentaire juridique et notes philologiques, par O. Houdas et Fr. Martel (Alger-Paris, 1883-1893).

(*) ابن الأبار : تكملة ، رقم ١٨٠٥ .

(**) ابن فرحون : الديباج للمذهب .

(†) أشار المؤلف إلى كتابين فقط من كتب ابن حرب فأنتيت بمؤلفاته كلها كما أوردتها ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) .

ولا زال الطلبة يدرسونها في مدرسة مسجد فاس إلى اليوم؛ ومؤلفه الثاني هو « حدائق (أو حديقة) الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر »، (وقد شرف في فاس) (٨).

ولسكى نكون لأنفسنا فكرة عن المقاييس التي التزمها فقهاء المالكية الأندلسيين الذين كان لهم دور عظيم في تطور الثقافة الأندلسية، نسوق الأسطر التالية التي كتبها أستاذي آسبن بلاثيوس في كتابه عن ابن حزم، قال: « كان المذهب المالكي في أساسه مذهباً يقوم على الحديث، لأن مالكا جعل الأحاديث النبوية مقدمة على رأى الفقهاء؛ ولكن الفقهاء لم يلتزموا ذلك السنن بل فعلوا ضده، فانصرف الفقهاء من وقت مبكر عن دراسة الحديث واتفقوا على الرجوع إلى كتب الفروع والخلاف التي أقرها شيوخ المذهب، وأصبح ذلك تقليداً ثابتاً لم لا يحدون عنه، وأخذ المالكيون بما في هذه الكتب. ونقول بعبارة أخرى إن الخصوم (٩) والقضاة وأصحاب الشروط في الأندلس كانوا يتدارسون للملخصات المبسطة التي ألّفها كبار شيوخ المالكية وعرضوا فيها — على نحو عملي واضح — المسائل العادية التي تعرض لأهل القانون كل يوم، ويبنوا حكم المذهب فيها. وعلى هذا، درج أولئك الفقهاء من وقت مبكر على الاختصار على عمل سهل: وهو البحث في هذه الكتب عن الأحكام المقررة، بدلا من الرجوع إلى الكتاب والسنة — وهما المنبع الرئيس لأصول الفقه — لاستخراج الأحكام فيما يعرض لهم من الأفضية، و « الاجتهاد » في إيجاد حلول جديدة بمجهودهم الشخصي.

« ولم يفلح بقي بن مخلد فيما حاوله في القرن الثالث الهجري من تحويل الفقهاء عن

(٩) الخصوم في مصطلح القضاء الأندلسي هم المروفون اليوم بالمحاميين، وكانوا فقهاء تخصصوا في الشرع والأحكام وإجراءات التقاضي وتحققوا بالفرائض والشروط وعلاها، وكانوا يأخذون مكانهم في مجلس القاضي أو على باب المسجد ليمهد إليهم الناس في قضاياهم، (انظر مقدمة ريبيرا لكتاب القضاء الغشقي). وقد ترجمت بهذا الاصطلاح كلمة abogados الواردة في الأصل. (المترجم)

هذا الطريق التقليدي المطلق وردّهم على دراسة الحديث واستخراج أحكامهم منه ، بل سدروا فيما هم به من التقليد الأعمى لما اعتقدوا أنه آخر ما يصل إليه الواصل في موضوع الفقه ، وانتهوا إلى الانصراف عن دراسة القرآن والحديث انصرافاً يكاد يكون تاماً ، وأعرضوا عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب ، واعتبروا معرفتها أسراً لا جدوى فيه ، بل أنكروها ونظروا إليها نظرتهم إلى البدع والضلالات . وانصرفوا كذلك عن النظر في ذلك العلم المنطوق الذي يسمى « علم أصول الفقه » ، وهو الفن الجدلي المادى الذى يمكنهم من أن يستخرجوا من الأصول أحكاماً مناسبة لما يعرض لهم من شتى المسائل والنوازل» (*) (٩)

ف ١٢٨ — فقهاء الشافعية :

يعزى دخول مذهب الشافعى الأندلس إلى قاسم بن محمد بن سيار من أهل قرطبة . رحل إلى المشرق على أواسط القرن الثالث الهجرى ، ودرس على كبار شيوخ الشافعية ، فلما عاد إلى الأندلس أنكر على فقهاءه تقليد الأعمى لما كان عليه شيوخهم ، وانصرف إلى نشر مذهب الشافعى بين أهل بلده عن طريق التدريس والتأليف ، وتكونت حوله طائفة من التلاميذ ، ومدّ عليه الأمير محمد ظلّ رعايته ، وعهد إليه في تحرير وثائقه وشروطه ، وقد ظل في هذا المنصب إلى وفاته سنة ٢٧٦ / ٨٩٠ أو ٨٩١ . [وقد قال ابن القرضى في حقه : « قاسم بن محمد ابن قاسم بن سيار مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك . من أهل قرطبة ، يكنى أبا محمد . رحل فسمع من محمد بن عبد الله بن الحكم وأبى إبراهيم المزنى ومحمد بن إبراهيم البرقى وإبراهيم بن محمد الشافعى والحريث بن مسكين وأبى الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح ويونس بن عبد الأعلى وإبراهيم بن المنذر الجذامى وغيرهم . ولزم محمد بن عبد الله بن الحكم للفقه والمناظرة وصحبه وتمحق به .

(*) Asin Palacios : Abenházam, p. 121.

وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ويميل إلى مذهب الشافعي .
 أخبرني العباس بن أصبغ ، قال : حدثني محمد بن قاسم ، قال : قلت لأبي : يابيه ،
 أوصني ! فقال : أوصيك بكتاب الله ، فلا تنس حفظك منه ، واقرأ منه كل يوم
 جزءاً ، واجعل ذلك عليك واجباً ، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظ
 — يعني الفقه — فعليك برأي الشافعي ، فإني رأيت أقل خطأ . ولم يكن
 بالأندلس مثل قاسم بن محمد في حسن النظر والبصر والحجة . قال أحمد [بن محمد بن
 عبد البر] : سمعت أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة يقولان : ما رأينا أفتقه
 من قاسم بن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحل (الرحلة) . وأخبرني إسماعيل
 [ابن إسحاق الحافظ] ، قال : أخبرني خالد [بن سعد] قال : محمد بن عبد الله
 ابن قاسم الزاهد قال : سمعت أبا عبد الرحمن بن مغلدة يقول : قاسم بن
 محمد أعلم من محمد بن عبد الله بن الحكم . وأخبرني إسماعيل ، قال : أخبرني خالد ،
 قال : حدثني أسلم بن عبد العزيز ، قال : سمعت محمد بن عبد الله بن الحكم يقول :
 لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد ، ولقد عاتبته في حين
 انصرافه إلى الأندلس فقلت له : أقم عندنا ، فإنك تقتعد هنا رئاسة ويحتاج
 الناس إليك ، فقال : لا بد من الوطن ! وأخبرني إسماعيل ، قال : أخبرني خالد ،
 قال : سمعت سعيد بن عثمان الأعناق يقول : قال لي أحمد بن صالح الكوفي :
 قدم علينا من بلدكم رجل يسمى قاسم بن محمد ، فرأيت رجلاً فقيهاً . وألف قاسم
 ابن محمد في الرد على يحيى بن إبراهيم بن مزين وعبد الله بن خالد والعتيبي كتاباً
 نبيلاً يدل على علم . وله كتاب في خبر الواحد شريف . وكان يلي وثائق الأمير
 محمد رحمه الله طول أيامه . روى عنه محمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان
 الأعناق وأحمد بن خالد ومحمد بن عبد الملك بن أيمن وابن الرزاد وابنه محمد بن قاسم
 في جماعة سواهم . قال الرازي : توفي قاسم بن محمد سنة ٢٧٧ [٨٩٠ م] (وقال
 أحمد : توفي قاسم بن محمد سنة ٢٧٧ ، في أولها) . وقال ابن حريث : توفي عام الفتح

الكاين للأمير عبد الله في حصن بلّاي، وكان فتح بلّاي سنة ٢٧٨ هـ في
حكي الرازي» [(*)(١٠)].

ومن كبار الشافعيين الأندلسيين كذلك بقي بن مخلد الذي ألفتنا بذكره فيما
سبق (ف ١٢٣)، وقد أعانه تسامح الأمير محمد على نشر مذهبه؛ وقد خلف
بقي من بعده نفراً طيباً من تلاميذه الذين درسوا المذهب على يديه: منهم هارون
ابن نصر القرطبي المتوفى سنة ٩١٤/٣٠٢ - ٩١٥ هـ، [يكنى أبا الخيار. صاحب
بقي بن مخلد نحو من أربع عشرة سنة وأكثر الرواية عنه. وكان قد مال إلى كتب
الشافعي فغنى بها وحفظها وتفقّه فيها. وكان من أهل النظر والحجة] (*); وعثمان
ابن وكيل من أهل المدوّرة الأقصى من حوز قرطبة؛ وحرّقوص، عثمان بن سعيد
الكناني، من أهل جيان، يكنى أبا سعيد ويعرف بحرقوص (توفي قريباً من
سنة ٩٣٢/٣٢٠)؛ وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد مولى عثمان بن عفان
(توفي سنة ٩٣١/٣١٩)، [«سمع من بقي بن مخلد وصحبه طويلاً، ثم رحل إلى
المشرق سنة ٢٦٠ فلقى أبا يحيى المزني والربيع بن سليمان صاحب الشافعي ومحمد
ابن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وأحمد بن عبد الرحيم البرقي
وعلى بن عبد العزيز وغيرهم»]؛ ومنهم كذلك ابن أمية الحجاري صاحب كتاب
«أحكام القرآن» على مذهب الشافعي، وهو كتاب جليل ذو أسلوب واضح
جميل، [وقد قال عنه ابن حزم في «الرسالة»: «ومنها (أي من الكتب
الأندلسية في الفقه) في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجاري، وكان شافعي
المذهب بصيراً بالكلام على اختياره»] (†)؛ ومنهم «يحيى بن عبد العزيز

(*) ابن القرضي: علماء، رقم ١٠٤٧. وقد رأيت أن أجيّ بترجمة قاسم بن محمد
كاملة بشيوخه وتلاميذه نظراً لمكانته في تاريخ الفكر الأندلسي. والأقواس، ما عدا الأخير،
من عندي للإيضاح.

(*) ابن القرضي: علماء، رقم ١٠٧٩.

(†) ابن حزم: الرسالة برواية القرطبي، نفع، طبعة محي الدين، ج ٤، ص ١٦٣.
وقد ورد ذكره في جذوة المقتبس للحميدي هكذا: ابن أمية الحجاري، انظر ص ٣٨٠،
ترجمة ٩٠٩.

المعروف بابن الخراز من أهل قرطبة ، يكنى أبا زكريا (المتوفى سنة ٢٩٥/٩٠٧) ،
 [« سمع من العتيبي وعبد الله بن خالد ونظراهما من رجال الأندلس . ورحل فسمع
 بمصر من للزني والربيع بن سليمان المؤذن ومحمد بن عبد الله بن الحكم ويوس بن
 عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن ميمون وعبد الغني بن أبي عقيل وغيرهم ، وسمع
 بمكة من علي بن عبد العزيز . وكانت رحلته ورحلة سعد بن معاذ وسعيد بن
 عثمان الأعناق وسعيد بن حميد وابن أبي تمام واحدة . سمع الناس منه » مختصر
 المزني] و « رسالة الشافعي » وغير ذلك من علم محمد بن عبد الله بن الحكم .
 وكان يميل في فقهه إلى مذهب الشافعي ، وكان مشاوراً مع عبيد الله بن يحيى ونظرايه
 في أيام الأمير عبد الله . . . وسمع الناس منه بالقيروان « المستخرجة » للعتيبي
 وغير ذلك من حديثه ... » [(*)] .

ومن الشافعيين الأندلسيين كذلك خلف بن عبد الله بن عمارق الخولاني ،
 [« من أهل الجزيرة الخضراء ، سمع من ابن بدرون ومحمد بن يزيد ببيجانة ، ورحل
 حاجاً فسمع من ابن المنذر ومن ابنة الشافعي . وكان مفتياً في بلده وفقها مشاوراً
 تدور الفتيا عليه مع أصحابه ، وكان صاحب صلاة الجزيرة [الخضراء] وسكن
 قرطبة » (*)] وكان فيها حوالي سنة ٢٩٩/٩١٢ . بل كان الأمير عبد الله بن
 عبد الرحمن الناصر يميل إلى آراء الشافعي ، أخذها عن حسان بن سعد وأحمد بن
 محمد بن عبد البر . وقد لقي هذا الأمير حقه على يد أبيه ، إذ اتهم بالاشتراك في
 التديير عليه والرغبة في خلعه ، [بسبب مبايعة الناصر لابنه الحكم ولياً لهده دون
 عبد الله] ، وكان لذلك أثر سيئ على المذهب الشافعي في الأندلس ، إذ توقف
 نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر .

(*) ابن القرضى : علماء رقم ١٥٦٨ . وقد أشار المؤلف إليه إشارة مقتضبة فأثبت
 بأهم ما في مادة ابن القرضى بنصه لبيان الصلة بين المدرستين المصرية والأندلسية .

(**) ابن القرضى : علماء ، رقم ٤١٥ .

[ومن المديد في هذا الباب أن تأتي هنا بترجمة هذا الأمير العالم كما رواها ابن الأبار في « التكملة » ، قال : « عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله . المرواني ، يكنى أبا محمد . روى عن محمد بن معاوية القرظي والحسن بن سعد وعبد الله بن يونس وقاسم بن أصبغ ومسألة بن قاسم ومحمد بن عبد الملك بن أبنز ومحمد بن محمد بن عبد السلام الخشني وأحمد بن محمد بن عبد البر وأحمد بن محمد بن قاسم وغيرهم . وعنى العناية النامة بسماع العلم وحله ووضع التأليف فيه . وكان فقيها شافعيًا إخباريًا متفلسفًا ، بصيرًا بلسان العرب رفيع الطبقة في الأدب ومعرفته ، ضاربًا بأوفر سهم في اللغة ، ذا كرا للحدير مطبوعًا في صوغ القريض وتصنيف كتب الأدب . وله كتاب « العليل والقتيل في أخبار بني العباس » في أسفار . وقد حدث عنه مسلمة بن قاسم « بالمسكنة » من تأليفه وهي سنة أجزاء في فضائل بقي بن مخلد . ورد على محمد بن وضاح وكذبه وحمل عليه فيما حكاه عن يحيى بن معين ، حكى ذلك أبو عمر بن عبد البر في « جامع بيان العلم » له ، وقال : زعم عبد الله أنه رأى أصل ابن وضاح الذي كتبه بالمشرق ، وفيه : سألت يحيى بن معين عن الشافعي ، فقال : ثقة . وكان ابن وضاح يقول : ليس بثقة . وكان لعبد الله هذا اختلاط بالعلماء واستراحة إليهم . وهو أحد النجباء من أبناء الخلفاء . وسعى به إلى أبيه عبد الرحمن الناصر فحبسه في آخر خلافته تحت التوكيل الشديد أزيد من حول ، إلى أن أتى قتله يوم الثلاثاء ثاني عيد الأنصبي ، وقيل ثالثه ، سنة ٣٣٩ [٩٥٠] . ذكره ابن حبان وفيه زيادات » (*) .

وقد كان من جلساء المستنصر ابن صلاح الله القرطبي ، أحمد بن عبد الوهاب ابن يونس المتوفى سنة ٣٦٩ / ٩٨٠ أو ٣٩٨ / ١٠٠٨ . وكان من المنصرين إلى النظر في أصول الفقه والمقيدة والأخذ بالرأي ، ولهذا اتهمه فقهاء المالكيين بأنه

(*) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٢٥٠ ؛ وانظر : الحلة السيرة لابن الأبار ، ص ١٠٥ وابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ؛ والسبكي : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

يقول بالاعتزال . [« وقد وصفه ابن الفرضي بقوله : « كان رجلاً حافظاً للفقه عالماً بالاختلاف ، ذكياً بصيراً بالحجاج ، حسنَ النظر قائماً بما ينقلد الكلام فيه . وكان يميل إلى مذهب الشافعي . وله سماع من شيوخ وقته ، وصحب عبيداً الشافعي ، وتفقه معه وناظر عليه . وكان له حظ وافر من العربية واللغة . وسار في جملة المقابليين للمستنصر بالله ، وقرأ « كتاب الفتوح » . وكان ينسب إلى مذهب الاعتزال ، وكان دميماً سمياً ، توفي سنة ٣٩٩ أو صدر ٣٧٠ (كذا) » (*) .

وكان الحكم المستنصر يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشاركة (*) ، ممن كانوا يعتبرون من شيوخ المذهب الشافعي مثل أبي الطيب محمد بن أحمد بن أبي بردة الشافعي البغدادي الذي وفد على الأندلس في سنة ٣٦١/٩٧١ وتألب عليه الفقهاء بسبب ما كان يقول به من آراء المعتزلة ، وما زالوا بهشام المؤيد حتى أخرجه من الأندلس عام ٣٧٢/٩٨٣ . [وقد قال ابن الفرضي في ترجمته : « ووصل أبو الطيب إلى الأندلس سنة ٣٦١/٩٧١ »] فأكرمه أمير المؤمنين المستنصر بالله ، وأمر بإجراء النزول عليه ، وكان من أعلم الناس بمذهب الشافعي ، وأحسنهم قياماً به . لم يصل إلى الأندلس أنهم منه بالمذهب ، ولم تكن له كتب ، ذكر أنها ذهبت له مع مال جسيم في المغرب . وكان ينسب إلى الاعتزال ، ورفّع ذلك إلى السلطان ، فأمر بإخراجه من البلد ، وذلك في رجب سنة ٣٧١ ، فصار بتهيرت عند بنت له ، وتوفي بها في ذلك العام » (†) ؛ ومثل

(*) ابن الفرضي : علماء ، رقم ١٥٧ . ولعل صحة الرقم الأول ٣٦٩

(*) كذا في الأصل ، ولما كان المؤلف يرجع هنا إلى ما كتبه آسین پالاسیوس في هذا الصدد ، فقد رجعت إلى هذا الأخير فوجدته لا يذكر الأدباء في هذا الموضع ويقول : « وتوفد على بلاطه نفر من مشاهير علماء المشرق ممن رغب في الاستقلال برعاية هذا الراعي الكريم لعلم وأهله ... » .

Cf : Asin Palacios, Abenházam, I, p. 127.

(†) ابن الفرضي : علماء ، رقم ١٤٠١ .

عبيد الله بن عمر — يوسف بن محمد الهمداني — عبد السلام بن السمع بن نابل ٤٣٧

عبيد الله بن عمر بن أحمد بن محمد بن جعفر القيسي الشافعي ، من أهل بغداد (٩٠٧/٢٩٥ — ٩٧١/٣٦٠) ، « يقال له عبيد ويكنى أبا القاسم . قدم الأندلس في المحرم سنة ٣٤٧ [٩٥٨ م] ، تفقه ببغداد على مذهب الشافعي وتحقق فيه وناظر فيه عند أبي سعيد أحمد بن محمد الاصطخري . . . ولعبيد الله ابن عمر هذا كتب مؤلفة كثيرة في الفقه والحجة والرد والقراءات والفرائض وغير ذلك . وكان الحكم قد أنزله وتوسع له في الجراية ، ولم يزل يؤلف له إلى أن مات . . . » (*) .

ونذكر من بين الشافعيين الأندلسيين :

يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني ، من أهل شذونة ، يكنى أبا عمر ، المتوفى سنة ٩٩٣/٣٨٣ . سمع بالأندلس ثم رحل إلى المشرق .. « وكتب بخطه كتب الشافعي الكبير عشرين ومائة جزء ، سمعه من أبي الحسن النيرى ، أخبره به عن محمد بن رمضان المعروف بابن الزيات عن الربيع بن سليمان عن الشافعي ، صارت نسخته إلى المستنصر بالله ، وسمع بمجدة من الحسين بن حميد موطأ القعني وكتاب الأموال لأبي عبيد ، وكتب حديثاً كثيراً مصنفًا ومنثوراً ، وانصرف إلى الأندلس فقدمه أمير المؤمنين [الحكم] رحمه الله إلى قضاء قللسانة ، وقدم أخاه إلى صلاة شريش وكان خطيباً أديباً وسيماً . . . » (*) .

وعبد السلام بن السمع بن نابل بن عبد الله بن يحيى الموارى ، يكنى أبا سليمان ، « أصله من مورور (٩١٥/٣٠٣ — ٩٩٧/٣٨٧) رحل إلى المشرق وتردد هناك مدة طويلة وسكن اليمن . . . وتفقه بمصر بالشافعي وقرأ القرآن وجوده . وقدم الأندلس وكان حسن الخط بديعه ، وكان حافظاً لمذهب الشافعي حسن القيام به » (+) .

(*) ابن القرضى : علماء ، رقم ٧٦٠ .

(*) ابن القرضى : علماء ، رقم ١٦٣٣ .

(+) ابن القرضى : علماء ، رقم ٨٥٥ .

٤٣٨ عبد الله بن محمد بن يحيى التميمي — عبد الله بن إبراهيم الأصيلي — سلمة بن سعيد

وعبد الله بن محمد بن عبد المؤمن بن يحيى التميمي من أهل قرطبة ، يعرف بابن الزيات (٩٢٦/٣١٤ - ١٠٠٠/٣٩٠) ويكنى أبا محمد . [« رحل إلى المشرق رحلتين ، وكان كثير الحديث مسداً صحيحاً للسمع صدوقاً في روايته ، إلا أن ضبطه لم يكن جيداً ، وكان ضعيف الخط ربما أدخل الهجاء . وكان مصرفاً في التجارة ، كتب الناس عنه كثيراً وحديثاً »] (*) .

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي ، من أهل أصيلة (٩٣٥/٣٢٤ - ١٠٠١/٣٩٢) يكنى أبا محمد . سمع بالأندلس ورحل إلى المشرق ودخل بغداد وسمع على شيوخ شافعيين ، [« وتفقه هناك بمالك ، ثم وصل إلى الأندلس في آخر أيام المستنصر بالله رحمه الله ، فشاور وقرأ الناس عليه كتاب البخاري رواية أبي زيد نمرؤزي وغير ذلك . وكان حرج الصدر ضيق الحلق ، وكان عالماً بالكلام بالنظر منسجماً إلى معرفة الحديث وجمع كتاباً في اختلاف مالك والشافعي رأيي حنيفة ساء كتاب الدلائل على أمهات المسائل »] (١) .

وسلمة بن سعيد بن حفص بن عمر بن برد الأنصاري من أهل استجة . [« سكن قرطبة بمقبرة الكلاعي منها ، يكنى أبا القاسم . رحل إلى المشرق وحج وأقام بالمشرق ٢٣ سنة » قال ابن أبي عمير : وكان شافعي المذهب رحمه الله . وقرأت بخط أبي سروان الطنبلي ، قال : أخبرني أبو حفص الزهراوي ، قال : ساق سلمة بن سعيد شيخنا من المشرق ١٨ حلاً مشدودة من كتب ، وسافر من استجة إلى المشرق ، واتخذ مصر موئلاً واضطرب في المشرق سنين كثيرة . جدد لجمع [الكتب] في الآفاق — كُتب العلم — فلما اجتمع من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر ثم انزعج بالجميع إلى الأندلس . وكانت في كل فن من العلم ، ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق »] (٢) .

(*) ابن الفرضي : علماء ، رقم ٧٥٥ .

(١) ابن الفرضي : علماء ، رقم ٧٥٨ .

(٢) ابن بشكوال : السقا ، رقم ٥٠٨ .

منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه ويحتج لمقاتته ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه ، وهو الذي عليه العمل بالأندلس ، وحمل السلطانُ أهل مملكته عليه . وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد المعارضة ، حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجة ، ذا شارة عجيبة ومنظر جميل ، وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم» [*].

وقد توقف انتشار المذهب الظاهري أيام المنصور بسبب ما تظاهر به من إنكار غير المالكية من المذاهب . ولكن أيام المنصور لم تكد تنقضي حتى ظهر المذهب من جديد وانصرف إلى إذاخته في قرطبة أبو الخيار بن مُقلت (ف ٦٨) وتلميذه ابن حزم (ف ٧٥) (١٣) .

ف ١٣٠ — تحرير الوثائق والشروط والفرائض (قسم المواريث) :

كان النظام القضائي في الأندلس يترك الناس أحراراً في اختيار من يقوم بتحرير ما يتعاقدون عليه من شروط ، إذ لم يكن للحكومة أصحاب شروط (موقوفون) رسميون ، وكان من نتائج ذلك أن عنى الكثيرون بوضع كتب تهوّن على الناس أسر العقود وصيّغها . وأقدم ما لدينا من المؤلفات في هذا الباب «ديوان» ابن الهندي القرطبي ، وهو أحمد بن سعيد الهمداني ، يكنى أبا عمر (٩٣٢/٣٢٠ — ١٠٠٨/٣٩٨) وكان تلميذاً لقاسم بن أصبغ وابن مسرة وصديقاً للحكم المستنصر ، وكان متحققاً بالفقه والتاريخ ومتكناً من تحرير الوثائق العامة . [قال ابن عفيف : وكان حافظاً للفقه وحافظاً لأخبار أهل الأندلس بصيراً بمقد الوثائق ، وله فيها ديوان كبير نفع الله المسلمين به . قال ابن مفرّج : قرأت على

(*) القرى : فتح ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ . وقد رأيت إثبات هذه الإضافة بين حاصرتين ليتصل سياق الكلام .

أبى عمر ديوانه فى الوثائق ثلاث مرات ، وأخذته عنه على نحو تأليفه له ، فإنه ألف أولا ديواناً مختصراً من سنة أجزاء فقراتها عليه ، ثم ضاعفه وزاد فيه شروطاً وفصولاً وتنبيهاً [ت] فقرات ذلك عليه أيضاً ، ثم ألفه ثالثاً واحداً فيه وشحنه بالخبر والحكم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد ، فأبى الديوان كبيراً . واحترع فى علم الوثائق فنوناً والمأظا ومصولاً وأصولاً وعقداً عجيبة ، فكتب ذلك كله وقرأته عليه . وكان طويل اللسان حسن البيان كثير الحديث بصيراً بالحجة ، تذاجمه الخصوم فيما يماؤونه ويردّه الناس فى مهماتهم ، فيستريحون معه ، ويشاورونه فيما عنّ لهم . وكان وسيماً حسن الخلق والخلق . وكان إذا حدث بين وأصاب القول فيه وشرحه بأدب صحيح ولسان فصيح . وخاصم يوماً عند صاحب الشرطة والصلاة إبراهيم بن محمد الشرقي فيكل وعجز عن حجته ، فقال له الشرقي : ما أعجب أسرك أباعمر ! أنت ذكى لغيرك بكي في أسرك ! فقال : كذلك يبين الله آياته للناس ، ثم أنشد متمثلاً :

صِرْتُ كَأَنى ذِبَالَةً نُصِبْتُ تَضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

البيت للعباس بن الأحنف . . . [(*)] .

ومن بين من اشتهر بتحرير الشروط والوثائق ابن أبى زَمَيْنٍ وابن المطار (مهمل بن إبراهيم الاستجى المتوفى ٣٨٧ / ٩٩٧) وموسى بن حامد ، لأن عبد الواحد الفهرى المتوفى سنة ٤٦١ / ١٠٦٩ يقول إنه نظر إلى مؤلفاتهم فى هذا الباب عندما ألف « ديوان » وثائقه الذى أبقى عليه الزمان ووصل إلى أيدينا ، (محفوظ لدى مجلس تشجيع الدراسات فى مدريد) (*) (١٣) . وعبد الواحد هذا من البُنت بكورة بلنسية ، وكان فقيهاً نابهاً منحققاً بالشروط عارفاً بطرقها وعللها ، وكنابه يعرض علينا كل صيغ العقود التى كان يستعملها أصحاب الوثائق والشروط

(*) ابن بشكوال : الصلاة ، رقم ١٩ .

La Junta de Ampliación de Estudios, Madrid. (☆)

ومن الشافعيين الأندلسيين كذلك ابن حزم القرطبي ، الذي ذكرنا فيما سلف (مقرة ٦٨) أنه كان شافعياً فترة من حياته .

ف ١٢٩ — فقهاء المذهب الظاهري :

كان أول من نشر مبادئ مذهب أهل الظاهر في الأندلس عبد الله بن محمد ابن قاسم بن هلال (المتوفى سنة ٢٧٢/٨٨٥ - ٨٨٦) . وكان من أوائل الظاهر بين عامة ، إذ أن المذهب ظهر في منتصف القرن الثالث الهجري ، وكان مالسكياً ولكنه تعلم على داود الأصفهاني منشي مذهب الظاهر ونسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس . وكان ابن قاسم إلى جانب ذلك من العارفين بمذهب الشافعي ، ولكنه انصرف إلى مذهب داود واجتهد في نشره . ويبدو أنه لم يوفق فيما رى إليه ، لأننا نجد تلميذه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ (ف ١١٩) من أهل الحديث لا من الفقهاء^(١) .

أما أول ظاهري منافع في سبيل المذهب من أهل الأندلس فهو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطي (٢٧٢/٨٨٦ - ٣٥٥/٩٦٦) ، وأصله من فخص البلوط (اليوم : كامبودي كالاترافا Campo de Calatrava = فخص قلعة رباح) . رحل منذر إلى المشرق ودرس على شيوخه : [سمع بمكة محمد ابن المنذر النيسابوري ، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمى « بالإشراف » ، وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبي العباس بن ولاد ، وروى عن أبي جعفر النحاس]^(*) ، وعندما عاد إلى بلده أنكر تقليد المالكيين [قال ابن الفرضي : « وكان مذهبه في فقه مذهب النظر والاحتجاج وترك التقليد ، وكان عالماً باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن خلف العباسي ويحتج له »] ، واجتهد في إذاعة مبدأ دراسة الأصول في حرية — وهو

(*) ابن الفرضي : علماء ، رقم ١٤٥٢ ؛ مرقى : نفع — طبعة محي الدين ، ٢ ،

الذي قال به داود — واستطاع رغم ذلك أن يلي قضاء لاردة وطرطوشة(*) . ثم
 سمحت له فرصة طيبة نهضت بشأنه ، وذلك عندما وفدت على بلاط الناصر
 سفارة بيزنطة ، فعهد إلى ابنه الحَكَم في اختيار من يقوم بالرد على السفير
 البيزنطي ، « فتقدم الحَكَم إلى أبي على البغدادي (القالي) — ضيف الخليفة
 وأمير الكلام وجر اللغة — أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه
 محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطع ، وبهت فما وصل ولا قطع ، ووفى ساكتاً
 مفكراً . فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام قائماً بدرجة من سرقة أبي على ،
 ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالةً وملاً الأسماع جلالهً ، ثم ذكر
 الخطبة كما سبق . وقال (ابن سعيد) بعد إيرادها ما صورته : فصلب المايح
 وغلب على قلبه ، وقال : هذا كبير القوم ، أو كبش القوم . وخرج والناس
 يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه . وكان الناصر أشدهم تعجباً
 منه ، وأقبل على ابنه الحَكَم — ولم يكن يثبت معرفته — فسأله عنه فقال له :
 هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فقال : « والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرجني
 الله بعد لأرفض من ذكره ، فضع يدك يا حَكَم عليه واستخلصه وذكّرني بشأنه ،
 فما للصنعة مذهب عنه » . ثم ولّاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ،
 ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولّاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة
 بالزهراء «(*)» .

[قال القرى في النفع : « وكان منذر متفنناً في ضروب العلوم ، وغلب عليه
 التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الأصفهاني المعروف بالظاهري ، فكان

(*) كذا في الأصل ، وعند ابن القرى : « وولى قضاء مدينة ماردة وما والاها من
 مدن الجوف ، ثم ولى قضاء الثغور الصربية » . واستبدال ماردة بلاردة من رأى آسبن .

Cf : Asín Palacios, Abenházam., I, p. 133y nota 1.

(*) ابن سعيد : المغرب ، برواية القرى ، نفع ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ . والقرى يشير في
 كلامه إلى نس خطاب منذر ، وقد ذكره قبل ذلك (نفس الجزء ، ص ٣٤٥ — ٣٤٨) .

في قرطبة . أما طرق أهل طليطلة في تحرير وثائقهم فنجدها في الكتاب المسمى « الوثائق المستعملة » لأبي جعفر أحمد بن محمد بن مغيث الطليطلي المتوفى سنة ٤٩١/ ١٠٦٩ ، (مخطوط بمكتبة الجمع التاريخي الإسباني ، مجموعة جايانجوس رقم ٤٩) ، بينما كان الناس في الجزيرة الخضراء وما يصاحبها يتبعون نماذج الوثائق والشروط التي أوردها علي بن القاسم الصنهاجي المتوفى سنة ٥٨٤/ ١١٨٩ في « ديوانه » . وكان علي بن القاسم أول أسره فقيها نابها وموثقا ضليعا ، ثم ولي قضاء بلده . ومجموعته بين أيدينا الآن ، مخطوطة في مكتبة مجلس تشجيع الدراسات في مدريد ^(١٤) . والقيمة التاريخية لهذه المجموعات من الوثائق عظيمة ، وذلك يتجلى لنا من المعلومات القيمة التي استخرجها منها خايلان ريبييرا في دراسته لأجناس الناس ولغاتهم في الأندلس الإسلامي .

وكان قسم المواريث ناحية من أعقد نواحي التشريع الإسلامي ، وذلك بسبب اختلاف حصص الميراث التي تخص كلا من الورثة ، هذا إلى تقلقل تكوين الأسرة ، مما كان يجعل التقسيم بين ورثة كثيرين أمرا عسيرا . وقد عني الأندلسيون بوضع مؤلفات في الفرائض (قسم المواريث) تقوم على معرفة بأصول الشريعة والحساب . ومن المؤلفات في هذا الباب كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ، ومن بين مؤلفات المستعجمين التي عثرنا عليها رسالة هامة عن « قسم المواريث بين المسلمين على مذهب مالك » ، (وقد نشرها سانشيد بيريد في عام ١٩١٤) ^(١٥) .

الفصل الحادى عشر

الرياضيات والفلك

- ف ١٣١ — أصول الدراسات الرياضية والفلكية فى الأندلس .
- ف ١٣٢ — مسلمة المجرىطى ، إقليدس الأندلس .
- ف ١٣٣ — الزرقالى ، بنو هود أمحباب سرقسطة .
- ف ١٣٤ — جابر بن أفلاح ، البطروجى ، الرقوطى ، القلصادى .

ف ١٣١ - أصول الدراسات الرياضية والفلسفية في الأندلس :

كان تشدد فقهاء الأندلس مانعا كذلك - أول الأمر - من نهوض العلوم الرياضية مما فيها الفلك . وكان الفقهاء يتجاوزون عن الحساب و يبيحون الاشتغال به فيما يتصل بالعمليات التطبيقية المعقدة المتعلقة بقسم المواريث . وأما الفلك فقد قدر له - كما يقول الأستاذ ريبيرا - « أن يخضع لما كان جاريا من أساليب النع والتحریم ، التي كانت تصل في بعض الأحيان إلى الاضطهاد الباع القسوة . وقد عبرت بهذا العلم في الأندلس فترات لم يكن يسمح للناس خلالها بأن يعرفوا منه إلا ما لا بد منه لتحديد اتجاه قبلات المساجد ، وتعيين موافيت الليل والنهار على مدار العام لتعرف أوقات الصلوات ، والاستيثاق من مواعيد الأهلة ؛ فإذا تجاوز الإنسان هذه المطالب من هذا العلم فقد غرر بنفسه .

« ونتيجة لهذا كان الناس يرمون بالزندقة كل من تجشم السير في أوطار هذا الطريق ، ومع هذا فقد كان جمهور الناس يتجاوزون عن المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الغال والتنبئين والسحرة وصناع الأحجية والطلاسم ، وأما الفلك فقد كان محرما مع أنه أقرب إلى العلم والعقل »^(١) . ولهذا السبب فقد ندر اشتغال الناس بالرياضيات في الأندلس - فيما خلا أفراد متفرقين - حتى زمان عبد الرحمن الناصر .

ثم ظهر أحمد بن نصر المتوفى سنة ٩٤٤/٣٣٢ واشتهر أمره بكتابه عن « المساحة المجهولة »^(*) وظهر كذلك مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله ابن حاتم (٩٠٤/٢٩٣ - ٩٦٤/٣٥٣) من أهل قرطبة ، وقد انصرف إلى دراسة

(*) ابن حزم : رسالة في فضل الأندلس ، مرقى ، نفع الطيب ، ط محي الدين ، ١ - ٤ ،

الفلك والنجوم والكيمياء وعلوم الغيب فنسبه الناس — لهذا — إلى السحر .
[وقال فى حقه ابن الفرضى : « وسمعت من ينسبه إلى الكذب ، وسألت محمد
ابن أحمد بن يحيى القاضى عنه فقال لى : لم يكن كذابا ولا كن (كذا) كان
ضعيف العقل . وكان مسلة صاحب رُقَا ونِيرِ نجات »] (*) (٢) .

ف ١٣٢ — مسلة المجرىطى ، إقليدس الأندلس :

كان من نتائج سياسة التسامح ورعاية الثقافة التى بدأها الحكم المستنصر ،
أن ظهرت المدارس واجتمع المشتغلون بكل علم من العلوم بعضهم إلى بعض .
وكان الحكم نفسه من المشغوفين بالدراسة ، وكان يحيط نفسه بالعلماء . وقد جمع
فى القصر مكتبة عظيمة زاخرة ، واجتهد فى الحصول على كتب علوم الإغريق ،
وأباح لأهل الرياضة والفلك تعاطى فنونهم وتدريسها لجمهور الناس . ومن ثم
ظهرت إلى الوجود فيما بعد مدرسة الرياضى الفلسفى المشهور « مسلة المجرىطى » (٣)
المتوفى سنة ١٠٠٤/٣٩٤ . ومن بين مآثور كتبه « رسالة الاسطرلاب » (٤)
و « ثمار علم العدد » (٥) وملخص لزيج البتانى سماء « تعديل الكواكب » (٦) ،
« رعى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى ، وصرف تاريخه الفارسى إلى التاريخ العربى ،
ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وزاد فيه جداول حمئة . على
أنه اتبعه إلى خطته فيه ، ولم ينتبه إلى مواضع الغلط منه ، وقد نهت على ذلك
فى كتابى المؤلف فى « إصلاح حركات الكواكب والتعريف بخطأ الراصدين » .
وتوفى أبو القاسم مسلة بن أحمد قبيل منبعث الفتنة فى سنة ٣٩٨ وقد أنجب
تلاميذ جلة ولم ينبج عالم بالأندلس مثلهم » (٧) . وله ترجمة لكتاب « قبة
الفلك Planisphaerium » لبطليموس ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية فى بازل

(*) ابن الفرضى : علماء ، رقم ١٤٢١ .

(**) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ط السعادة ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(سويسرا) سنة ١٥٣٦ ، بعنوان :

Sphaerae atque astrorum coelestium ratio, natura et motus
 أى « سرعة أملاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها ». وينسب إليه مؤلف هو أقرب
 إلى كتب الخرافات منه إلى كتب العلم ، يسمى « غاية الحكيم وأحق النتيجين
 بالقديم » ، ويعرف في الترجمات الإسبانية باسم « پكتاريس Pictarix » (*) .

ومن تلاميذه المذكورين ابن السمع ، أبو القاسم أصبغ بن محمد التمهرى^(٨)
 (٩٨٠/٣٦٩ — ١٠٣٤/٤٢٥) من أهل غرناطة ، وكان نابغة ذا عبقرية رياضية
 أصيلة ، أخذ عن مؤلفاته « مَلِكُنَا الْعَالَم » (ألفونسو العاشر) . [« كان
 متحققاً بعلم العدد والهندسة ، متقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم . وكانت
 له مع ذلك عناية بالطب ، وله تواليف حسنة ، منها : « المدخل إلى الهندسة » في
 تفسير كتاب إقليدس ، ومنها كتاب « ثمار العدد » المعروف « بالمعاملات » ،
 ومنها كتاب « طبيعة العدد » تقصى فيه أجزاء من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى ،
 ومنها كتاباه في الآلة المسماة بالإسطرلاب ، أحدهما في التعريف بصورة صنعتهما وهو
 مرتب على مقالتين ، والآخر في العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها ، وهو مقسم
 على مائة وثلاثين باباً . ومنها زيج الذي ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف
 « بالسند هند » ، وهو كتاب كبير مقسم على جزئين ، أحدهما في الجداول والآخري
 رسائل الجداول . وأخبرني عنه تلميذه أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى النّاشي
 المهندس أنه توفي بمدينة غرناطة ، قاعدة الأمير حُجُوس بن ماكسن بن مناد
 الصنهاجي ، ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت لرجب سنة ست وعشرين وأربعمائة
 وهو ابن ست وخمسين سنة شمسية (٢٩ مايو ١٠٣٥) »^{(٩)(١٠)} .

(*) بكتريش تحريف لبقراطيش وهو أبقراط :

Cf : Brock O. A. L. Sup. I, p. 431.

(**) صاعد : طبقات الأمم ، ط السعادة ، القاهرة ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

R Blachère. Kitab Tabakat al Umam (Paris, 1985) p. 130-131.

(م ٢٩)

ومنهم أحمد بن الصَّغَر ، أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر^(١٠) (٩٨٠ / ١٠٣٤) [« وكان أيضاً متحققاً بعلم العدد والهندسة والنجوم ، وقعد في قرطبة لتعليم ذلك . وله زيج مختصر على مذهب « السند هند » ، وكتاب في العمل بالإسطرلاب ، موجز حسن العبارة قريب المأخذ . وخرج من قرطبة بعد أن مضى حين من الفتنة ، واستقر بمدينة دانية ، قاعدة الأمير مجاهد العاصري من ساحل البحر الأندلسي الشرقي ، وتوفي بها رحمه الله . وقد أنجب من أهل قرطبة تلاميذ حجة سيأتي ذكرهم بعد إن شاء الله تعالى . وكان له أخ يسى محمداً ، مشهور بعمل الإسطرلاب ، لم يكن بالأندلس قبله أجل صنفاً لما منه »]^(*) .

وقد اضطهد المنصور الفلسفة وأصحابها « تحبياً إلى عوام الأندلس »^(**) (١١) ، ولم يستثن من فروعها إلا الحساب والطلب . وقد هاجر من الأندلس — لهذا السبب — نفر من أهل الرياضة ، منهم عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد المعروف بالإقليدسي ، وكان مهندساً ذا شهرة . [وقد قال عنه صاعد : « كان مهتماً في علم الهندسة ، معنياً بصناعة المنطق ، وله تأليف مشهور في اختصار الكتب الثمانية المنطقية . أخبرني عنه ابن أخته أبو العباس أحمد بن أبي حاتم بن عبد . . . بن هرثة بن ذكوان أنه رحل إلى المشرق في أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وتوفي هناك . أبوه إسماعيل بن زيد أحد وجوه قرطبة المتقدمين في الشعر والعربية ، وولى أحكام السوق بها في أيام الخليفة الحكم ، رحمه الله »]^(†) .

ف ١٣٣ — الزرقالي ، بنوهود أصحاب سرقطة :

شملت الأندلس خلال عصر الطوائف — أي خلال القرن الحادي عشر

(*) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٨ — ١٠٩ . وقد أورد المؤلف بضع فقرات من كلام صاعد فأتيت به على تواليه .

(**) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٣ .

(†) صاعد : طبقات ، ص ١٠٦ . والفراغ الوارد في النص موجود في الأصل ، وقد راجعته على ترجمة رجبس بلاشير للتأكد .

الميلادي (الخامس الهجري) — روح تسامح علمي عظيم^(١٢)] قال صاعد :
 « لم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئا فشيئا ، وقواعد الطوائف
 نستمر قليلا قليلا ، إلى وقتنا هذا . فالحال — محمد الله — أفضل مما كانت بالأندلس
 في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها ، إلى أن زهد الملوك في هذه
 العلوم وغيرها » [*(*)]. وقد ظهر في ميدان الفلك ابن برغوث ، محمد بن عمر بن
 محمد (٤٤٣/١٠٥٢) الذي تخرجت على يديه طائفة زاهرة من الرياضيين ، وظهر
 في طليطلة فيما بين سنتي ١٠٦١/٤٥٢ و ١٠٨٠/٤٧٢ أبو إبراهيم بن يحيى النقاش
 الزرقالي القرطبي^(١٣) ، ويقول في حقه سانشد بيريد : « إنه يعتبر أعظم أهل
 الفلك من العرب ، وهو من طبقة أكابر علماء هذا الفن في العصور القديمة ،
 بسبب طول ممارسته له واستقامة منهجه فيما يديه من ملاحظات استخرجها من
 تجاربه المباشرة » . وقد وضع جداول فلكية ، وركب اسطرلابا ، واخترع
 أجهزة دقيقة « كالزرقالية » و « الصفيحة » (وتسمى في الغرب asafea) ،
 وابتكر في الفلك نظريات جديدة هامة عن الكواكب السيارة^(*) والحركات
 الدائرية للنجوم . ولكن معاصريه من العلماء تعصبوا عليه بسبب ما جبلوا عليه
 من تعصب في مسائل العلم ، وأبوا أن يقبلوا منه ما قاله معارضة لما ذكره بطليموس

(*) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ . وقد أضفت هذه الفقرة لأن التهديد لما بعدها
 يقتضى ذلك .

(*) في الأصل :

tratado relativo al movimiento de las estrellas fijas

وقد ضاع الأصل العربي للكتاب ، ولا توجد إلا ترجمة عبرية له . ولكن ملياس
 فاليكروسا وجد قطعا منه في بعض المكتبات العربية ، وقد أوردت بيان ذلك في المادة الخامسة
 بالزرقالي في التعليقات . وفي إحدى هذه القطع يقول الزرقالي : « ... اعلم أنه لما كان
 الفلك أرفع المحسوسات شأنا وأوسعها مكانا ، وأعظمها على الحوادث سلطانا ، صار من الحق
 الواجب أن يبادر إلى البحث عن أصول الكواكب السيارة ... » ، ولهذا ترجمت *estrellas fijas*
 هنا بالكواكب السيارة .

Cf : Millas Vallicrosa, Estudios sobre Azraqiel (Madrid-Granada, 1943-1950)
 p. 480.

في المجسطى (الكتاب الجليل) . ولكن ألفونسو العاشر وعلماءه في الفلك استعملوا مؤلفات إزراقيل ، ومن أمثلة ذلك « كتاب الأفق » أو « كتاب أفق الدنيا » (*) و « رسالة في العمل بالصفحة » و « طريقة عمل اسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها » (١٤) .

[وإليك نموذجاً من كتابة الزرقالي ، وهو فاتحة رسالته في العمل بالصفحة :
 « . . . أما بعد حمد الله الذي لا يحاط بمعلوماته ، ولا يُدرك كنه ذاته ،
 فإني رأيت الناس ، في القديم والحديث ، قد أعدوا آلات علمية لمعرفة الأوقات ،
 واختلاف الليل والنهار ، في الطول والقصر ، على كل أفق من الآفاق ، وسائر
 ما يتصل بهذا : منها ظليّة ومنها شعاعية . والظلية على ضروب : منها ما هي
 موضوعة للظل المبسوط ، كالرخامات المسطحة التي لأتمر سطوحها بسمت الرأس ،
 ومنها أسطوانية أو مخروطية كيفما عمل على وضعها . والشعاعية ما كان فيها أو في
 أحد عضايدها ثقبان ، يدخل عليهما الشعاع أو يُنظر بهما إلى جرم الكوكب .
 فمنها أرباع الدوائر ، ومنها الكرة ، ومنها الاسطرلاب ، ومنها الحلقة والحلق ،
 ومنها المضاييد ؛ وهذه هي الآلة التي استعملت في القياسات أكثر من غيرها .
 فأما آلات الظلال فهي ناقصة جداً ، لأن كل واحد منها إنما ينتفع به بالنهار
 فقط . وأما الحلقة والمضاييد وأرباع الدوائر فأكثر ما هي مستعملة في معرفة
 الارتفاع والظل ، وأما الحلق فقلّ ما تستعمل إلا في معرفة مواضع الكواكب
 من البروج في الطول والعرض ، وهي صعبة جداً . وأما الكرة فهي نافعة في
 الوقت على تعبير وضع فلك البروج على الآفاق ، وأحوال المطالع والمغرب ،

(*) العنوان الكامل لهذا الكتاب في ترجمته الإسبانية القديمة هو :

El libro del orizon o de la lamina universal.

وقد ضاع أصله العربي ، وأثبت ملياس فالبيكروسا أن الأصل العربي لعلّ بن خلف لا لزرقالي .

Cf : Millas Vallicrosa, op. cit. p. 21

وانظر مادة الزرقالي في تعليقاتنا .

وتوسط السماء ، وأعظم قسى الكواكب التى فوق الأرض وأصفرها ، وكذلك أجزاء البروج . وأما الاسطرلاب فهو من أحسن الآلات المستعملة ، والأعمال به سهلة [على ١] لجملة ، إلا أنه [] لجميع العروض . وقد جعل فيه عروض السبعة الأقاليم ، فإذا كان العرض الذى يعمل عليه بين إليمين من السبعة ، ذكر فيه وجه العمل لذلك العرض من أجل التفاضل ، وليس ذلك بصحيح ، بل قد يلزم فيه فى بعض المداير والأقاليم تفاوت كثير وُبعد عن الصواب ، ولو عمل بوجه يقرب أن يخرج به لطال العمل وفات وقت الحاجة إليه . فلما كان ذلك على ما وصفت ، رأيت أن أرسم صفيحة واحدة رسومها مشتركة ، لمعرفة جميع تلك العروض فى كل أفق ، لكى إذا عُدِم واعتاص إخراج شئ من تلك المطلوبات . عُلِمَ ذلك المطلوب بهذه الصفيحة وكان ما يخرج بها إلى الفعل صحيحاً . ومن أجل أن رسومها معدة للعمل فى أى عرض اتفق ، صار من الاسطرلاب أن لا يوصل إلى علم ما هي معدة له إلا بعد علم ما رتب قبله فيها ، إما منها وإما من غيرها . ولذلك قلّ ما يخرج منها مطلوبات كثيرة معاً بعمل واحد ، كما هو ذلك فى الاسطرلاب . على أن أكثر وجوه الأعمال بها سهلة ، وربما كان بعضها فى العمل أسهل من غيرها من الآلات ، وهى مع ذلك معدة لوجدان الحركات السماوية السريعة والبطيئة ، والأحوال العارضة ، بإضافة بعض مواضع الأرض إلى السماء وإلى حركتها . ونحن نرى أنها قد اسوفت جميع ما يحتاج إليه من الأعداد المرسومة والموضوعة ، وهى على ضربين : كاملة حفيظة التخطيط والرسوم ، ومختصرة . والكلام فى هذه الرسالة على المختصرة ، وهى تشتمل من أبواب العمل بها على ما لا بد منه ، على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى » [(*)] .

وظهر فى بلاط بنى هود فى سرقسطة أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ، وقد حظى عند يحيى المأمون أميرها بمكان عظيم . وكان ابن البغونش فيلسوفاً

رياضيا ، وكان تلميذاً لمسلة المجريطي وابن جليل ، وقد انصرف إلى دراسة الطب في أخريات أيامه ، [وقد قال عنه صاعد الأندلسي : « وقد كان بعد هؤلاء إلى وقتنا هذا جماعة من أشهرهم أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ، وكان من أهل طليطلة ثم رحل إلى قرطبة لطلب العلم بها ، فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم المدد والمهندسة ، وعن محمد بن عبدون الجبلي وسليمان بن جليل وابن الشناعة ونظرائهم علم الطب ، ثم انصرف إلى طليطلة واتصل بأمرها الظاهر إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن ذى النون وحظي عنده ، وكان أحد مدبري دولته . ولقيته فيها بعد ذلك صدرَ دولة المأمون ذى الجند بن يحيى ابن الظاهر بن إسماعيل بن ذى النون ، وقد ترك قراءة العلم وأقبل على قراءة القرآن ولزوم داره والانتقاض عن الناس ، فلقيت منه رجلاً عاقلاً جميل الذكر والمذهب حسن السيرة نظيف الثياب ذا كتب جليلة في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة . وتبينت منه أنه قد قرأ المهندسة وفهمها ، ولانطلق وضبط كثيراً منه ، ثم أعرض عن ذلك وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها وتناولها بتصحيحه ومعاناته ، فحصل [له] بتلك العناية فهم كثير منها . ولم يكن له دربة في علاج المرض ولا طبية نافذة في فهم الأمراض . وتوفي عند صلاة الصبح يوم الثلاثاء من أول يوم رجب سنة ٤٤٤ (٢٧ أكتوبر ١٠٥٦) وكان إذ توفي سنه خمس وسبعين سنة [*] (١٥) .

وكان المقتدر بالله بن هود (١٠٤٧/٤٣٨ — ١٠٨١/٤٧٣) وابنه يوسف المؤتمن (١٠٨١/٤٧٣ — ١٠٨٥/٤٧٧) أميراً سرقسطة من أكبر المعنيين بالعلوم المشاركين فيها . فأما أولهما — المقتدر — فقد تعاطى الفلسفة والرياضيات والفلك ، وألف الثاني — المؤتمن — « كتاب الاستكمال » في الفلك . وقد درسه موسى ابن ميمون ووضع له شرحاً ، وقال إنه جدير بأن يدرس بنفس العناية التي تدرس

(*) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٢٧ — ١٢٨ . وقد قل هذه الفقرة ابن أبي أصيبعة .

بها كتابات إقليدس وكتاب المجسطى لبطليموس^(١٦).

وقد أسهم الكرمانى ، أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن على (١٠٦٦/٤٥٨) بنصيب كبير فى ذلك الإزهار الأدبى العلمى الذى اشتهر به بلاط بنى هود فى سرقسطة . وكان الكرمانى تلميذاً لمسلمة الجريطى ، وكان من العاملين على نشر رسائل إخوان الصفاء فى الأندلس ، [وقال عنه صاعد : « ... من أهل قرطبة . أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة . أخبرنى عنه تلميذه الحسين بن أحمد بن الحسين بن سحى المهندس المنجم أنه ما لقى أحداً يجارىه فى علم الهندسة ، ولا يشق غباره فى فك غامضها وتبيين مشكلها واستيفاء أجزائها . ورحل إلى ديار المشرق وانتهى منها إلى حران من بلاد الجزيرة ، وغنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع إلى بلاد الأندلس ، واستوطن مدينة سرقسطة من ثغرها ، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفاء ، لا نعلم أحداً أدخلها الأندلس قبله ، وله عناية بالطب وتجربات فاضلة فيه ، ونفوذ مشهور فى السكى والقطع والشق والبطن(*) وغير ذلك من أعمال الصناعة الطيبة . ولم يكن بصيراً بعلم النجوم التعلیمی^(*) ولا بصناعة المنطق . أخبرنى عنه بذلك أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى الإسرائيلى ، وكان خبيراً به . ومحلّه من العلوم النظرية الحل الذى لا يجارى فيه بالأندلس ، وتوفى أبو الحكم رحمه الله بسرقسطة سنة ٤٨٥ (١٠٩٢) وهو قد بلغ تسعين سنة أو جاوزها بقليل »]^{(+)(١٧)}.

ف ١٣٤ — جابر بن أفلح ، البطروجى ، الرقولى ، الفلصادى :

وظهر فى الأندلس من الرياضيين والفلكيين فى القرن الثانى عشر الميلادى

(*) المراد هنا البتر والاستئصال ، وقد ترجمها بلاشير ablation .

(*) ترجم بلاشير هذا الاصطلاح L'astronomie mathématique .

Cf : R. Blachère, op. cit. p. 132

(+) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

ابن مسعود (١١٣٢/٥٢٦) من أهل إشبيلية وكان فلكياً وله رسالة في حساب
المثلثات . وظهر كذلك ابن سهل الضرير ، من أهل غرناطة وكان رياضياً نابهاً
وله إلى ذلك عناية بالكيمياء واختصاص في الحيل (١٠٩٦/٤٨٩ — ٥٧٠/
١١٧٥) وكان الكثيرون من نصارى طليطلة ويهودها يقدون عليه في « بياسة »
ليأخذوا عنه الرياضة^(١٨) .

وفي نفس العصر (القرن الثاني عشر الميلادي) ظهر جابر بن أفلح الإشبيلي^(١٩)
واشتهر أمره، وينسب الناس إليه اختراع علم الجبر (بسبب تشابه اسمه واسم هذا
العلم) ، وكان متحققاً بكتب مينلاؤس وثيودوسيوس وأتوليكموس وأريستارخوس
وهيبيشكيليس وهيبتارخوس وغيرهم . وقد أراد أن يتحقق من علامات تغير
الفصول ومنازل الشمس ، فقام بتجارب ودراسات خرج منها بملاحظات وآراء
شخصية أثبتتها في مؤلفيه « كتاب الفلك » وكتاب في علم النجوم يسمى « كتاب
المهية » أو « إصلاح المجسطي » ، وقد ترجمه جيراردو الكريموني (ويوجد
مخطوطه بمكتبة الإسكريال) . ووضع قبل ذلك رسالة في « حساب المثلثات »
عرض فيها صيغه بطريقة مبتكرة^(٢٠) .

ومن علماء الأندلس الذين كان لهم أثر عظيم في الفكر الغربي أبو إسحاق
نور الدين البطرّوجي^(٢١) الذي يسمى في الغرب بألپستراجيو Alpetragio ، وكان
من أهل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد ابتدع نظرية جديدة
في حركات النجوم ترجمها إلى العبرية موسى بن طيئبون في عام ١٢٥٩/٦٥٧ ،
ثم نقلها إلى اللاتينية فالنيموس بن داود سنة ١٥٢٩/٩٣٥ ، وطبع في البندقية بعد
ذلك بسنتين . وقد ذهب مننذ إلى بلايو إلى أن أجل خدماته للعلم أنه نقض
نظرية بطليموس عن العالم من أساسها ، وعارضه في أحص آرائه كقوله بالحركة
البيضاوية للكواكب ودورانها حول الشمس وحركات الأفلاك المتعاقبة^(٢٢) .

ويعد يحيى بن إسماعيل البياسي (من أهل القرن الثاني عشر الميلادي) من أهم صناع الآلات الجغرافية وكان طبيباً لصلاح الدين^(٢٣).

ونذكر ممن ظهر في الأندلس خلال القرن الثالث عشر الميلادي — أى في عصر تغلب سلطان الإسلام من الجزيرة تغلباً سريعاً — ابن البناء الغرناطي، أبا العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي^(٢٤). وقد ولد في صرا كش عام ٦٥٣/١٢٥٦، وكان فيلسوفاً لغويا صوفياً رياضياً، وله في الحساب والجبر الرسالة المسماة «بالتلخيص في أعمال الحساب»، وهو معتمد الطلاب في مدرسة جامع فاس في هذين العامين منذ أُلِّف إلى يومنا هذا^(٢٥).

ومن النابهين في الرياضيات والحساب من أهل القرن الثالث عشر الميلادي أبو بكر محمد بن أحمد الرقوطي من أهل رَقُوطَة (من أعمال مرسية)، وقد رأس أول مدرسة إسلامية أنشأها ألفونسو العاشر في مرسية (سنة ٦٦٧/١٢٦٩)، وتوافد على تلك المدرسة طلاب المسلمين والنصارى واليهود ليدرسوا على يديه. ثم رحل إلى غرناطة ودخل في خدمة سلطانها محمد بن يوسف بن الأحمر، فأنشأ له مدرسة تولى تدريس الرياضيات وغيرها من العلوم فيها حتى وفاته سنة ٧٤٤/١٣٤٤^(٢٦).

ومنهم كذلك ابن الشَّاط السرقسطي (من أهل القرن الثالث عشر) وكان من أجل من ظهر في إقليم أرغون من الرياضيين والفلكيين؛ وابن أبي شاكر (من أهل القرن الثالث عشر) وكان مهندساً فلكياً هاجر إلى الشام وأقام فيه، وكان كذلك من أكثر الناس اهتماماً بعلوم اليونان؛ وابن الزَّكَّان الأوسي (سنة ٧١٤/١٣١٥) وقد ولد في مرسية وسكن غرناطة وأدرك شهرة عظيمة إذ لم يكن له ضريب في الرياضيات؛ ومحمد بن سودة، وأصل بيته من المرية وكان رياضياً جليلاً^(٢٧). بل ظهر في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي القلصادي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي، من أهل بَسْطَة، وقد درس في غرناطة ثم رحل في طلب العلم إلى تلمسان وتونس ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى الأندلس

وأقام فى غرناطة ولم يبرحها إلا قبيل سقوطها ، فضى يتنقل فى بلاد المغرب حتى توفى فى مجاية فى منتصف ذى الحجة سنة ٨٩١/ ديسمبر ١٤٨٦ . وهو آخر العظماء من رياضى المسلمين الأندلسيين ، ولا زالت كتبه تدارس إلى اليوم فى جامعة فاس وأهمها « كشف الجلباب عن علم الحساب » و « كشف الأسرار — أو الأستار — عن علم وضع حروف الجُبَّار » وغيرها (٢٨) .

ولم يصل إلينا من أخبار أعلام الرياضة الأندلسيين الذين ظهوروا فى القرن السادس عشر الميلادى إلا ما يتصل بإبراهيم بن محمد المغربى (توفى فيما بين سنتى ٩٨٨ و ١٥٨١/ ١٠٠٨ و ١٦٠٠) وله رسالة فى الفلك وأخرى فى السكسوف والخسوف (لا زالت مخطوطة بمكتبة لايدن) .

أما للوريسكيون فلم يمارسوا من الرياضيات إلا ما يستعمل فى قسم الموارىث ، كما تدل على ذلك بضع مخطوطات نشرها سانشيد بيريد ، وإنما كانت عنايتهم عظيمة بالطلاسم والتأمم والصيغ ذات الفعل السحرى ؛ وقد بقى الكثير مما ألفوه فى هذه الأبواب فى مراكش (*) (٢٩) .

(*) انظر :

José A. Sánchez Pérez, Partición de Herencias entre los Musulmanes del Rito Malequi (Madrid, 1914)

الفصل الثاني عشر

الطب والنبات

- ف ١٣٥ — أوائل الأطباء .
- ف ١٣٦ — كتاب ديوسقوريدس في الأندلس .
- ف ١٣٧ — أبو القاسم الزهراوى . ابن وافد .
- ف ١٣٨ — ابن رشد . بنو زهر . ابن العوام .
- ف ١٣٩ — أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقى .
- ف ١٤٠ — ابن البيطار .

ف ١٣٥ — أوائل الأطباء .

أزهى علم الطب إزهاراً عظيماً بين مسلمي الأندلس . ويحدثنا المؤرخون أن
يونس بن أحمد الحراني^(١) وفد على الأندلس من المشرق في إمارة محمد بن
عبد الرحمن (٨٥٢/٢٣٧ — ٨٨٦/٢٧٢) واستقر هناك ؛ وأن عمر بن حفص
ابن برتنق درس في القيروان على ابن الجزار — أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي
خالد القيرواني^(*) — (في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي) ، وأخذ
عنه كتاب « زاد المسافر » (في علاج الأمراض) ، وهو كتابه الرئيسي ، وهو
الذي أدخله إلى الأندلس^(*) . ومن أطباء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق محمد
ابن عبدون الجبلي ، [« رحل إلى المشرق سنة ٩٥٨/٣٤٧ » ، ودخل البصرة
ومصر ودبر مارستانيهما ، وتمهر في الطب ونُبل فيه وأحكم كثيراً من أصوله .
وعانى صناعة المنطق عناية صحيحة . وكان شيخه فيها أبا سليمان محمد بن طاهر بن
بهرام السجستاني البغدادي ، ثم رجع إلى الأندلس سنة ٩٧١/٣٦٠ فخدم المستنصر
بالله والمؤيد بالله في الطب . وكان — قبل أن يتطبب — مؤدباً في الحساب
والهندسة ، وله في التفسير كتاب حسن »^{(†)(‡)} . ومنهم كذلك الكرماني ،
أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي .

ومن النباتيين الذين تذكروهم الكتب حمد بن أبان^(□) ، [« وكان في أيام
الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان طبيباً حاذقاً مجرباً » ، وكان صهر بني خالد ، وله
بقرطبة أصول ومكاسب . وكان لا يركب الدواب إلا من نتاجه ، ولا يأكل

(*) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(*) : : : : : ج ٢ ، ص ٤٥ .

(†) صاعد : طبقات الأمم ، ط . السعادة ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(□) في الأصل حمديس ، والتصحيح من ابن أبي أصيبعة . انظر : طبقات الأطباء ،

ج ٢ ، ص ٤٢ .

إلا من زرعه ، ولا يلبس إلا من كتان ضيقه ، ولا يستخدم إلا بنيلاده من أبناء عبيده » [(*) (٣) ؛ وحواد الطيب النصراني (٨٢٢/٣٠٧ — ٢٧٢/ ٨٨٦) ،] « وكان في أيام الأمير محمد ، وله اللعوق المنسوب إلى جواد ، وله « دواء الراهب » والشرابات والسفوفات المنسوبة إليه وإلى حدين وبني حدين ، كلها شجارية » [(†) (٤) ؛ وخالد بن يزيد بن رومان النصراني ،] « كان بارعاً في الطب ناهضاً في زمانه فيه . وكان بقرطبة ، وسكنه عند « بيعة سبت أجنح » . وكانت داره المعروفة بدار ابن الشطّاجيري الشاعر ، وكسب بالطب مبلغاً جليلاً من الأموال والعقار ، وكان صانعاً بيده ، عالماً بالأدوية الشجارية . وظهرت منه في البلد منافع . وكتب إليه نسطاس بن جريح الطيب المصري رسالة في البول . وأعقب خالد ابناً سماه يزيد ، ولم يبرع في الطب براعة أبيه » [(†) (٥) . وكان سعيد بن عبدربه — ابن أخى أحمد بن محمد بن عبدربه صاحب « العقد » — طبيباً ذا شهرة ، قال عنه صاعد : « كان طبيباً نبيلاً وشاعراً محسناً . وله في الطب رجز جليل محتوي على جملة حسنة منه ، دل به على تمكنه في العلم وتحقيقه بمذاهب القدماء . وكان له مع ذلك بصر بحركات الكواكب ومهاب الرياح وتغيير الأهوية ... » [(□) (٦) .

ف ١٣٦ — كتاب ديوسقوريدس في الأندلس :

في سنة ٩٤٨/٣٣٧ — ٩٤٩ أرسل إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع — المعروف بپورفيروجينيت ، أى لابس الأرجوان (٧) — سفارة إلى عبد الرحمن الناصر . وكان من بين ما حمله الرسل من الهدايا نسخة مكتوبة بالإنجليزية من

(*) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(**) « د » : « د » ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(†) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(□) صاعد : طبقات الأدم ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

كتاب ديوسقوريدس في الطب « مصور الحشائش بالصور الرومي العجيب ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى » (*) . ولما لم يكن فى قرطبة من يعرف الإغريقية ، فقد سأل الناصرُ الإمبراطورَ فى أن يبعث إليه واحداً من العارفين بها وباللاتينية ، فأرسل إليه عام ٩٥١/٣٤٠ الراهب نيقولا لى يقوم بتحديد أنواع النبات التى ذكرها ديوسقوريدس — لا بترجمة الكتاب — فنشط فى إنجاز ذلك العمل بمعاونة حسداى بن شبروط^(٨) الذائع الصيت ، ومحمد النبائى ، ورجل يسمى البشباسى ، وأبى عثمان الخزاز الملقب باليايسة ، ومحمد بن سعيد ، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الميثم ، وأبى عبد الله الصقلى ، وكان عارفاً باليونانية يتحدث بها ، وكان له إلمام بتركيب العقاقير^(٩) . ويبدو أن أهل الأندلس فى ذلك الحين لم يكونوا يعرفون الترجمة العربية لكتاب ديوسقوريدس — التى صنعها اصطفن بن باسيل على أيام الخليفة العباسى المتوكل — أو الترجمة الأخرى التى قام بها حسان الناطلى أستاذ ابن سينا سنة ٩٨٥/٣٧٤^(١٠) .

وكان لظهور أهل الأندلس على كتاب ديوسقوريدس أثر حاسم فى مجرى دراسات الطب والنبات فى ذلك البلد ، [ومن دلائل هذا أن عبد الرحمن بن إسحاق بن الميثم — وكان طبيباً للمنصور بن أبى عامر — ألف كتاباً مختصراً سماه « كتاب الكمال والتمام فى الأدوية المسهلة والمقيئة » ، وكتاب « الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء »]^(١١) .

وقد ابتكر سعيد بن عبد ربه — ابن أخى صاحب « العقد » ، ومولى هشام المؤيد — طريقة جديدة فى علاج الحميات ، [قال عنها ابن أبى أصيبعة : « كان مذهبه فى مداواة الحميات أن يخلط بالمبردات شيئاً من]^(١٢) ، وله فى

(*) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(**) « » : « » ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(†) يباس بالأصل .

ذلك مذهب جميل ، ولم يخدم بالطب سلطانا . ذكر سليمان بن أيوب الفقيه أنه اعتل بحمى طاولته ، فعالجه ابن عبد ربه محبوب مدورة أوصاه أن يتناول كل يوم منها واحدة ، فلما فعل برئ » [(*) (١١) . وكان أحمد وعمر — ابنا يونس بن أحمد الحراني (١٢) الأنف الذكر — من الظاهرين في الصنعة الطبية ، امتاز أولهما بالخبرة في تحضير الأدوية واشتهر أمر الثاني بالكحالة ، ويُظن أنه هو الذي علم أبا القاسم الزهراوى طريقة استخراج ماء العين (الكنتاراكتا) بواسطة إبرة .] وقد قال في حقهما أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى : « رحلا إلى المشرق في دولة الناصر ، وأقاما هناك عشرة أعوام . ودخلا بغداد ، وفرآ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابى كتب جالينوس عَرَضًا . وخرجا ابن وصيف في عمل علل العين . وانصرفا إلى الأندلس في دولة المستنصر بالله ، وذلك في سنة ٩٦٢/٣٥١ فالحقهما بخدمته في الطب ، واستخلصهما لنفسه من سائر أطباء وقته . ومات عمر فيها ، وبقي أخوه أحمد أثيراً عند الحكم إلى آخر أيامه . ثم ولاء هشام المؤيد بالله خطة الشرط وخطة السوق . وكان يداوى العين مداواة نفيسة ، وله في ذلك في قرطبة آثار مجيبة » (١٣) . وأضاف ابن أبى أصيبعة أن المستنصر « أسكنهما مدينة الزهراء واستخلصهما لنفسه دون غيرها ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء . ومات عمر وبقي أحمد مستخلصاً ، وأسكنه المستنصر في قصره بمدينة الزهراء . وكان لطيف الحيل عنده ، أميناً ، يُطْلِعُه على العيال والكرائم . وكان عاقلاً عالماً بما شاهد علاجه ورآه عياناً بالمشرق . وتوجّه عند المستنصر ، وكان يصنع له الجوارشبات الحادة العجيبة ، لأن المستنصر كان نهما في الأكل ، فكانت تحدث له تخمة لذلك . وأفاد مالا عظيماً ، وكان ألكن اللسان ردىء الخط لا يقيم هجاء حروف كتابه . وكان بصيراً بالأدوية وصانماً للأشربة والمعجنات ومعالجاً

(*) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(١٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٢٤ .

لما وقف عليه . وذكر ابن جليل أنه رأى له اثني عشر صبياً صقالية طباًخين
للأشربة صنّاعين للمعجونات بين يديه . وكان قد استأذن أمير المؤمنين المستنصر
أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فأباح له ذلك . وكان يداوى
العين مداواة نفيسة ، وله بقرطبة آثار في ذلك . وكان يواسى بعلمه الجار والصديق
والمسكين والضعيف . وولاه هشام المؤيد خطة الشرطة وخطة السوق ، ومات
بحمى الربيع وعلة الإسهال ، وخلف ما قيمته أزيد من مائة ألف دينار ^(*) ^(١٣)
وأعظم نبأ ظهر في عصر الخلافة هو أبو داود سليمان بن حسان بن جليل ^(١٤)
وكان طبيباً لهشام المؤيد . وقد وضع مؤلفاً حسناً « فسر [فيه] أسماء الأدوية
المفردة من كتاب ديورسقوريدس العين زربى ^(**) وأفصح عن مكنونها وأوضح
مستغلق مضمونها ^(†) » ، وله كذلك مؤلف عن الترياق نبه فيه على أغاليط بعض
الأطباء . وألف تاريخاً للأطباء في خلافة هشام المؤيد ، مما يدل على أن العلم كان
قد بلغ درجة عظيمة من التقدم في الأندلس خلال القرن العاشر الميلادى (الرابع
المهجري) ^(١٥) . ولعريب بن سعد القرطبي كتاب يسمى « خلق الجنين وتدير
الحبالى والمولود » (مخطوط بمكتبة الإسكريال) وهو بحث طيب يتناول كل
ما يتصل بالطفل . وجدير بنا أن نذكر كذلك التقويم الذى وضعه ، وهو المسمى
بـ « التقويم القرطبي » — وهو بالعربية واللاتينية معاً — إذ هو عظيم الفائدة في
كل ما يتصل بالفلاحة (ف ٦٥ ب) .

ف ١٣٧ — أبو القاسم الزهراوى . ابن واقف :

وأعظم أطباء ذلك العصر هو من غير شك أبو القاسم خلف الزهراوى ^(١٦)
(نسبة إلى مدينة الزهراء ، وهو المعروف عند اللاتين باسم أبولكاسيس)

(*) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(†) نسبة إلى عين زرب ، ولهذا يسمى Dioscorides Anazarbio .

(†) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤١ .

Abulcasis ؛ ٩٣٦/٣٢٤ — ١٠١٣/٤٠٣) وقد طار ذكره بين أهل الشرق والغرب بالبراعة في الجراحة . وكتابه المسمى بـ « التعريف لمن عجز عن التأليف » يعتبر بحق موسوعة طبية ، وقد ترجمه إلى اللاتينية جيراردو الكريغوني (*) وسماه ألسَاهَارْ أَفَارَبُوسُ Alsaharavius أو Açaravius (تحرى فان لاسم الزهراوى) ، ونقله إلى العربية شَمَّ طُبُّ ، وكَثُرَ اعتماد الناس عليه في العصور الوسطى . وقد طُبعت الترجمة اللاتينية لكتاب الزهراوى على مراحل : ففي عام ١٥١٩ طبع منها جزء بعنوان « كتاب النظر والعمل » Liber theoricæ et practicæ ، وكان جزء آخر قد طبع وكثر استعماله منذ عام ١٤٧١ هو « كتاب الخادمين » Liber servitoris وموضوعه تحضير الأدوية المفردة ، وقد انتفع به الناس كثيراً . أما الجزء الثلاثون من كتاب الزهراوى الذى نشر فى اللاتينية باسم « الجراحة » Chirurgia فقد كان أم وأذْبَع كتاب فى تاريخ الطب كله ، وقد ارتفع به الزهراوى فى أعين الناس إلى طبقة أبقرط وجالينوس . وهو يحوى رسوم الآلات الجراحية ، وهو أول من وُلِّفَ جعل الجراحة علماً قائماً بذاته مستقلاً عن الطب وأقامها على أساس من العلم بالتشريح (١٧) . وكان يُنسب إليه كتاب فى الصحة من تأليف ابن بطلان .

ومن المذكورين من أطباء القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن السكتانى (**) ، [قال عنه صاعد : كان أخذ الطب عن عمه محمد بن الحسين وطبقته ، وخدم به المنصور محمد بن أبى عامر وابنه المظفر ، ثم انتقل إلى مرسطة واستوطنها . وكان بصيراً بالطب متقدماً فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ، أخبرنى عنه الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد اللخمى ، أنه كان دقيق الذهن ذكى

(*) نسبة إلى كرىونا فى إيطاليا ، لا إلى قرمونة الأندلس .

(**) فى طبعة شيخو : السكتانى ، وقد أخذ بهذه القراءة بلاشير فى الترجمة الفرنسية لطبقات صاعد . انظر ص ١٤٨ من هذه الترجمة .

الخاطر جيد الفهم حسن النوليد والتنتيج ؛ وكان ذا ثروة وغنى واسع ، وتوفى قريبا من سنة ٤٢٠ (١٠٢٩) ، وقد قارب ثمانين سنة . وقرأت في بعض تآليفه قال : أخذت صناعة المنطق عن محمد بن عبدون الجبلى ، وعمر بن يونس بن أحمد الحرانى ، وأحمد بن حفصون الفيلسوف ، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم العاصمى النحوى ، وأبى محمد عبد الله بن مسعود البجائى ، ومحمد بن ميمون المعروف بمرْكُوش ، [و] أبى القاسم قَيْد (*) بن نجم ، ومعيد بن فتحون السرقسطى المعروف بالحمار ، وأبى الحرث الأسقف تلميذ ربيع بن زيد الأسقف الفيلسوف ، وأبى مروان البجائى (**) ، ومسلمة بن أحمد المجريطى [†] . وقد ألف كتابا عن الأدوية المفردة ، ضاع فيما ضاع من الكتب (١٨) .

ومنهم كذلك حامد بن سَمَجُون الذى ألف كتابا فى العقاقير (١٩) .

ولا نلقى خلال القرن الحادى عشر الميلادى إلا أطباء ونباتيين من طبقة تالية لمن ذكرنا ، مثل محمد التيمى الطليطالى الذى ألف كتابا فى الطب (مخطوط بمكتبة الإسكريال) شرح فيه تشخيص الأمراض وأعراضها ، وهو عظيم الفائدة شكلا وموضوعا ، أى بسبب المنحى الذى انتحاه فى تأليفه وصمى مادته نفسها والطريقة التى اتبعها فى تعليم الطب عن طريق الممارسة ؛ وابن واند ، وهو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن واند بن مهند اللخمي المسمى عند اللاتين بإبن وَيْفِيث Eben Guefith (٩٩٨/٣٨٨ — ١٠٧٤/٤٦٦) (٢٠) ،

(*) فى الطبقات المصرية من طبقات صاعد : فند .

(**) فى الطبقات المصرية : التجائى ، وهو خطأ .

(†) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٢٥ — ١٢٦ . وانظر : ابن أبى أصيبعة : طبقات

الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٥ .

وهناك كتاب آخر هو أبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكتاتنى . كان طبيباً لناصر والمستنصر ، وهو عم أبى عبد الله هذا . انظر : صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٢٣ ؛ وابن أبى أصيبعة ، ج ٢ ، ص ٤٥ . وورد اسمه الكتاتنى أيضاً ؛ وقد أخذ بهذه الصيغة لاشير فى الترجمة الفرنسية لصاعد ؛ انظر ص ١٤٦ .

وكان وزيراً لابن ذى النون صاحب طليطلة ، وكان متحققا بعلم الطب والعلاج . وكان من مذهبه أن يستعمل الأغذية ما أمكنه ذلك ، فإذا لم تنجح لجأ إلى الأدوية المفردة قبل أن يلجأ إلى المركبة . وله كتب كثيرة في الأدوية والجارب الطبية وطب العيون وما إلى ذلك . [قال عنه صاعد : « أحد أشراف أهل الأندلس وذوى السلف الصالح منهم والسالفة القديمة فيهم عنى عناية بالغة بقراءة كتب « جالينوس » وتفهمها ، ومطالعة كتب « أرسطاطاليس » وغيره من الفلاسفة . وتعمق في علوم الأدوية المفردة ، حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره ، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب « ديسقوريدوس » وكتاب « جالينوس » المؤلفين في الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب . وهو مشتمل على قريب من خمسمائة ورقة ، وأخبرنى عنه أنه عانى جمعه وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها ، وما أودعه إياه من تفصيل قواها وتحديد درجاتها [قريبا] من عشرين سنة ، حتى كمل موافقا لغرضه مطابقا لبتيته . وله في الطب منزع لطيف ومذهب نبيل : وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالأغذية أو ما كان قريباً منها ، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ما وصل إلى التداوى بمفردها ، فإن اضطر إلى المركب لم يُكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه . وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر العلاج وأقربه . وهو في وقتنا هذا حتى مستوطن مدينة طليطلة . وأخبرنى أنه ولد في ذى الحجة سنة ٣٩٨ (أغسطس ١٠٠٨ هـ) (*) .

ومنهم ابن حجاج القرطبي الذى وضع في الزراعة كتاباً أشار إليه ابن البيطار واستعمله ابن العوام ؛ وأبو عبيد الكرى الجفرافى فقد وضع كتاباً عن أهم نباتات الأندلس وأشجارها .

(*) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٢٨ .

ونذكر ممن اشتغل بالطب من يهود الأندلس أبو الوليد مروان بن جراح النحوى الفيلسوف ، فقد كتب كتاباً مختصراً عن العقاقير والموازين والأكيال ؛ ويونس بن إسحاق^(٢١) بن بُكْلَارِش — أو بُكْلَارِش — الذى كتب كتاباً فى الطب سماه « المُسْتَعِينِي » ، لأنه ألفه للمستعين بن هود صاحب مرقسطة ، وقد أورد فيه أسماء الأدوية بالسريانية والفارسية واليونانية والعربية و « اللطينية » والعجمية العامية التى كان يستعملها أهل الأندلس^(٢٢) .

وفى ما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين (الخامس والسادس الهجريين) عاش فى الأندلس نباتى واسع العلم نبهل اسمه ، وقد خلف معجماً بأسماء النبات (نشر آسبن پلاثيوس مستخرجاً منه على هيئة معجم عنوانه :

Glosario de voces romances registradas por un botánico anónimo hispano-musulmán de los siglos XI y XII) .

وهذا المعجم يمدنا بمعلومات ذات أهمية كبرى عن نبات الأندلس وجغرافيته وما كان لأهله من تقاليد شعبية ؛ هذا إلى ما فيه من الفائدة لدراسة مجمية أهل الأندلس فى أدوارها الأولى^(٢٣) .

ف ١٣٨ — ابن رشد . بنو زهر . ابن العوام :

بلغ الطب العربى أوجه فى إسبانيا خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، أى فى ذلك العصر الذى جمع الفلاسفة فيه بين الفلسفة والطب ، كابى الصلت أمية ابن عبد العزيز الدانى (ف ١٠٤) ، وابن باجة الذى اشتبك مع سفيان الأندلسى فى تأليف « كتاب التجارب » ، وقد استدركا فيه على ابن وافد الطليعالى ما فاته فى كتابه عن الأدوية المفردة^(٢٤) ؛ وكذلك أبو الوليد بن رشد ، الذى تداول الناس كتابه « السكليات » واستعملوه فى خلال العصور الوسطى كلها ، إذ أنه يقنول التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية وحفظ الصحة والعلاج ؛ وكان لأبى الوليد ابن طيب ذلك .

[وإليك فقرة من مقدمة « السكليات » تعرفنا بمنهج ابن رشد فى تأليفه

والموضوعات التي تناوّلها فيه] :

« إن صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة ، يُلمس بها حفظ بدن الإنسان وإبطال المرض ، وذلك بأقصى ما يمكن في واحد واحد من الأبدان ، فإن هذه الصناعة ليس غايتها أن تبرى ولا بد ، بل أن تفعل ما يجب بالمقدار الذي يجب وفي الوقت الذي يجب ، ثم تنظر في حصول غايتها كالحال في صناعة الملاحة وقود الجيوش .

« ولما كانت الصنائع الفاعلة — بما هي صنائع فاعلة — تشتمل على ثلاثة أشياء : أحدها معرفة موضوعاتها ، والثاني معرفة الغايات المطلوب تحصيلها في تلك الموضوعات ، والثالث معرفة الآلات التي تحصل بها تلك الغايات في تلك الموضوعات ، انقسمت — باضطرارٍ — صناعة الطب أولاً إلى هذه الأقسام الثلاثة : فالقسم الأول ، الذي هو معرفة الموضوعات ، يعرف فيه الأعضاء التي يتركب منها بدن الإنسان البسيطة والمركبة . ولما كانت الغاية المطلوبة هنا صنفين : حفظ الصحة وإزالة المرض ، انقسم هذا الجزء إلى قسمين : أحدهما يعرف فيه ما هي الصحة لجميع ما به تتقوم ، وهي الأسباب الأربعة التي هي : العنصر والصورة والفاعل والغاية وجميع لواحقها ، والقسم الثاني يعرف فيه ما هو المرض أيضاً بجميع أسبابه ولواحقه . ولما كان أيضاً ليس في معرفة مائية الصحة والمرض كفاية في حفظ هذه وإزالة هذا ، انقسم هذان الجزءان أيضاً إلى جزئين آخرين : أحدهما يعرف فيه كيف تحفظ الصحة ، والثاني كيف يبطل المرض .

« ولما كانت الصحة أيضاً والمرض ليسا بيّنين بأنفسهما من أول الأمر ، احتيج أيضاً إلى تعرف الملامات الصحية والمرضية ، وصار هذا أيضاً أحد أجزاء هذه الصناعة . وإذا كان ذلك كذلك ، فباضطرارٍ ما انقسمت هذه الصناعة إلى سبعة أجزاء عظمى :

« الجزء الأول يذكر فيه أعضاء الإنسان التي شوهدت بالحس ، البسيطة والمركبة .

« والثانى تعرف فيه الصحة وأنواعها ولواحقها .

« والثالث المرض وأنواعه وأعراضه .

« والرابع العلامات الصحية والمرضية .

« والخامس الآلات ، وهى الأغذية والأدوية .

« والسادس الوجه فى حفظ الصحة .

« والسابع الحيلة فى إزالة المرض .

« ونحن نقصد فى ترتيبها ها هنا إلى هذه القسمة ، إذ كانت هى القسمة

الذاتية لها » [.

بيد أن زعامة الطب فى ذلك العصر عقدت بلواء بنى زهر^(٢٥) : أبى سروان عبد الملك بن زهر وابنه أبى العلاء بن زهر المتوفى سنة ١١٣١/٥٢٥ ، ثم أعظمهم جميعاً أبى سروان عبد الملك بن أبى العلاء بن زهر ، الذى توفى فى سرا كش سنة ١١٦٢/٥٥٧ ونقل جثمانه بعد ذلك إلى إشبيلية حيث دفن فى مقبرة بنى زهر ، وكان فى خدمة خلفاء الموحدين وكان يأنف من القصد والجراحات (على الرغم من أنه لجأ إلى الجراحة فى بعض الأحيان ونجح فيها) ، وكان يرى كذلك أنه لا ينبغى للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية ، فسبق بهذا إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الطب الباطنى وعن الصيدلة . وصرف همه كله إلى الطب الباطنى ، فألف فيه كتاب « الاقتصاد » وهو دراسة للطب عامة ، وكتب كتاباً آخر فى الأغذية والأدوية ، وكتاباً ثالثاً يسمى « التيسير » أهداه إلى ابن رشد ، وهو كتاب تتجلى فيه شخصية ابن زهر بكل وضوح ، ويعتبر خير ما ألف العرب فى الطب العملى ، فقد تحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية ، وهو يأخذ فيه بما تؤدى إليه الملاحظة المباشرة ، مفضلاً ذلك على متابعة جالينوس وغيره من القدماء^(٢٦) . وقد عهد أبو يعقوب الموحدى خليفة الموحدين إلى أبى بكر محمد بن أبى سروان هذا (١١١٣/٥٠٦ - ١١٩٩/٥٩٥) فى أن يجمع كتب الفلسفة .

ف ١٣٩ — أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي :

(من أهل القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي) (*) . ذكره ابن البيطار أكثر من مائتي مرة في كتبه . ألف الغافقي كتاب « الأدوية المفردة » عن العقاقير والأعشاب ، وقد ضاع أصله ولم يبق لنا إلا مختصر له عمله أبو الفرج ابن العبري (بارهيرا يوس المتوفى سنة ١٢٨٦/٦٨٤) . وقد نشر هذا المختصر ماكس مايرهوف وجورج صبيح في القاهرة (سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٣) (*) ، ويرى مايرهوف أن الغافقي « أعلم أطباء المسلمين في العصور الوسطى بالأدوية والأعشاب » (٢٧) . وقد قام هذا العالم الألماني بترجمة مؤلف الغافقي البالغ الغرابة المعروف « بالمرشد في الكحل » (٢٨) (+) .

(*) ذهب فستنفلد إلى أنه مات سنة ١١٦٤/٥٥٩ ، وتساءل مايرهوف وصبيح عن السند الذي اعتمد عليه فستنفلد ليقرر هذا .

Cf : WESTENFELD, *Gesch. der arabischen Aerzte*. (Goettingen, 1840) p. 98. M. MEYERHOF and G.P. SOBHY, *An abridged version of the Book of Simple Drugs*. (Cairo, 1932) p. 32.

(*) رجعت إلى كتاب الدكتورين مايرهوف وصبيح المشار إليه هنا وفي الهامش السابق ، فتبينت أن يالنتيا قد اختصر كلامهما اختصاراً أضاع جزءاً كبيراً من قيمته ، كما ترى في العبارة التي بدأ بها كلامه عن الغافقي . أما ما قاله المؤلفان فهو أن ابن البيطار لم يذكر الغافقي مائتي مرة مجرد ذكر ، بل نقل عنه في أكثر من مائتي موضع ؛ بل تبيننا أن كتاب ابن البيطار إن هو إلا نقل لكتاب الغافقي برمته مع زيادة أشياء قليلة نقلها عن عشائرين آخرين ، مثل الإدريسي وأبي العباس النبائي .

Cf : MEYERHOF and SOBHY, op. cit. pp. 31-33.

MEYERHOF : *Esquisse d'histoire de la Pharmacologie chez les musulmans d'Espagne. Al-Andalus*, vol. III, 1935, fasc. 1, pp. 17-19.

(+) لم أعتز على ما يؤيد هذه العبارة الأخيرة . ويبدو أن الأمر قد أشكل على يالنتيا أثناء قراءة البحث الذي أشرنا إليه لمايرهوف وصبيح ، فهما يقولان بوضوح (ص ٣٢ من الجزء الأول) أن هناك غافقياً آخر ، يسمى أحمد بن قسطنوم بن أسلم الغافقي ، صاحب كتاب كبير عن طب العيون يسمى « مرشد الكحل » ؛ وأضاف مايرهوف في الهامش رقم ٣ من نفس الصفحة ، أن صديقه له طلب إليه أن يترجم الأجزاء المهمة من هذا الكتاب لتقرأ في المؤتمر الدولي الرمدي في مدريد سنة ١٩٣٣ . وقد أشار مايرهوف إلى أنه قام بهذا العمل ونشره . ومن الطريف أن يالنتيا ذكر ابن قسوم الغافقي وكتابه « مرشد الكحل » في الطبعة الأولى من كتابه (ص ٢٦٩) وفرّق بينه وبين أبي جعفر الغافقي .

[وإليك مادة من « منتخب كتاب جامع المفردات » للعافقي ، وقد انتخبه أبو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبري (بارهييرايوس) ، نورها بشروح ماكس مايرهوف وجورج صبحي عليها ، ليتبين القارئ مكانة العافقي في علم الأدوية المفردة ، ومدى اطلاعه على أصوله وأسلوبه في التأليف :

« إشنجيس : هو شوكة الملك (*) ، وهو باليونانية خامالاون χαμαιλέον أي حرباء . وإما سمي خامالاون لاختلاف الورق ، فإنها قد توجد خضراء جداً ، وإلى البياض ، وإلى لون السماء ، وإلى حمرة الدم ، على قدر اختلاف الأماكن التي تنبت فيها . خالاون لوقس (Khamailéon Leukós) χαμαιλέον λευκός أي الأبيض ، Chamaleon (χαμαιλέον) ، وقد يسمى إقسيا (ixia) (ixia) لأنه نبات يوجد عند أصله في بعض المواضع إقسوس (ixós) وهو الذبق (**) ، فاشتق من إقسوس إقسيا (ixia) ومعناه الذبق . يشبه ورق الشوكة المسماة بالشام العكوب (†) والشوك المسمى سقولومس (□) σκόλυμος وينبت في أوسطه شوكة كشوك القنفذ البحري أو كشوك القينارا (***) κινάρα (Kinára) ، وله زهر قريري (***). مثل الشعر وثمر كالقرطم . وأصله في الأرض التربة غليظ وفي الجبلية دقيق . ولون داخله أبيض ، وفي راحته شيء من طيب وكراهة ، وهو حلو . إذا شرب أصله أخرج حب القرع والدود ، وإذا عجن بالماء والزيت قبل الكلاب والخنزير والفار ، وشربه ينفع من نهش الهوام .

(*) الملك هو البلوط ، وشوكة الملك بالإنجليزية pine thistle وباللاتينية attractglis echinops ، وذهب ابن البيطار إلى أن الملك لفظ من عجمة الأندلس .

(*) ترجمها مايرهوف وصبحي viscous matter .

(†) علق مايرهوف وصبحي على هذا اللفظ بعبارة : Diosc. the globe thistle ,

. Echinops

(□) Scolymus hisp. golden thistle.

(***) Kinara, artichoke.

(***). أي شديد الاحمرار .

» (دج) (*) : خمالون ماكس^(†) (Khamailéon mélas) χαμαιλίων μέλας
 أى أسود ، ورقه أيضاً كورق الشوك المسمى سقولومس (Skólymos) σκόλυμος
 إلا أنه أصغر وأدق منه ، وفيه حمرة كحمرة الدم ، ساقه في غلظ الأصبع ، طولها
 شبر ، لونها إلى حمرة الدم ، عليها إكليل وزهر مشوك دقاق ، لونه شبيه بزهر
 النباتات المسمى أوقيثوس (hyákynthos) υάκινθος — هيا كفتوس ، وفيه
 نقط ، وأصله أسود غليظ كثيف ، إذا مُضغ لدغ اللسان . ينبت في الصحارى
 اليابسة والتلال والسواحل »^(‡) .

وينص ابن البيطار كثيراً على كتاب في الأدوية المفردة للإدريسي الجغرافي
 المعروف (١١٠٠/٤٩٣ — ١١٦٦/٥٦١) ، يسمى « كتاب الجامع لصفات
 النبات » ، وكان يُظن أنه قد ضاع حتى عثر عليه مايرهوف وقام بدراسته في
 سنة ١٩٣٠ (مخطوط رقم ٣٦١٠ مكتبة الفاتح في استامبول)^(□) . وهذا
 الكتاب يعتمد اعتماداً تاماً على كتاب ديوسقوريدس الآنف الذكر .

وقد كان الفيلسوف المعروف أبو عمران موسى بن ميمون (مايمونيدس عند
 اللاتين) مبرزاً في صناعة الطب أيضاً . وكتابه المسمى « شرح أسماء العقار »
 ذو فائدة جلية ، وقد نشره مايرهوف في القاهرة سنة ١٩٤٠ [على أساس
 المخطوط رقم ٣٧١١ ، آيا صوفيا]^(**) .

(*) أى قال ديوسقوريدس وجالينوس .

(‡) كذا في الأصل المطبوع ، والأغلب أنها مالت ، لأن كتابتها باليونانية تقرأ
 خامائليون مِلاس .

(†) انظر . منتخب جامع المفردات لأحمد بن محمد بن خليل النافق ، المتوفى سنة ٥٦٠/
 ١١٦٤ . انتخبه أبو الفرج جريغوريوس المعروف بابن العبري المتوفى سنة ٦٨٤/١٢٨٥ .
 لشرحه مع ترجمته الإنجليزية وشروحات ماكس مايرهوف وجورج صبحي (القاهرة ، بدون
 تاريخ) ص ٣٣ . والترجمة الإنجليزية :

The abridged version of the book of drugs...p.25.

(□) Cf : MEYERHOF and SOBHAY, op. cit. p. 47.

(**) Cf : MEYERHOF, *Esquisse* . . . p. 27.

ومن أعلام النباتيين الأندلسيين أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام صاحب كتاب « الفلاحة » ، (نشر نصه وترجمته إلى الإسبانية بانكويرى J. A. Banqueri في مدريد سنة ١٨٠٢ ، وترجمه إلى الفرنسية كليمان موليه ، ونشره في باريس فيما بين عامي ١٨٦٤ — ١٨٦٧) (*). وهذا الكتاب يعطينا فكرة عن ازدهار الزراعة في الأندلس الإسلامي (وقد كان المؤلف نفسه من المشتغلين بالزراعة في ناحية إشبيلية) ، وهو أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة . وكان له أثر كبير في كتابات ج . أ . د هـ ريرا G. A. de Herrera .

[وإليك فقرات من مقدمة « كتاب الفلاحة » تدل على أسلوبه ومنهجه العلمي في تأليفه :

« ... قال مؤلفه الشيخ الفاضل أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام ، عفى الله عنه : الحمد لله رب العالمين ؛ وأما بعد ، فإني لما قرأت كتب فلاحة المسلمين الأندلسيين و [كثيرأ] من كتب غيرهم من القدماء المقدمين في صنعة فلاحة الأرضين ، المضمّنة كيفية العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك ، وما يتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان ، وما وصل إلى منها ، ووقفت على ما نصوه فيه ، فقلت من عيونها إلى هذا التأليف ما إن نظر فيه ، وحفظ أبوابه وفصوله ومعانيه ، من يريد أن يتخذ هذا الفن صنعة يصل بها بحول الله إلى معاشه ، ويستعين بها على قوته وقوت عياله وأطفاله ، وجد فيه حاجته .

»

« اعلم وفقنا الله وإياك أني قسمت هذا الدأليف على خمسة وثلاثين باباً ، وضمنت الأبواب من هذا الفن أنواعا تقف عليها إن شاء الله تعالى وبه أستعين وعليه أنوكل .

« واعتمدت على ما تضمنه كتاب الشيخ الفقيه الإمام أبو عمر بن حجاج

(*) Cf : Le Livre de l'agriculture d'Ibn al-Awam, trad. p. J.J. CLEMENT-MULLET. Paris, 1864-1867, 3vols.

رحمه الله المسمى « بالقمع » ، وهو الذى ألفه سنة ٤٦٦ — وهو مبنى على آراء
 أجلة الفلاحين والمتكلمين — نقل فيه نصوص أقوالهم وعزاها إليهم وعددهم ثلاثون
 رجلا . والقدمون منهم يونيوس (Junius Moderatus Columela) ، وبارون
 (Varron) ، ولا قطيوس (Lecacio) ، ويوقنصوس (Yucansus) ، وطارطيوس
 (Tartius) ، وبتدون (Betodun) ، وبريمايوس (Bariaius) ، وديمقراطيس
 الرومى (Democritus) ، وكسينوس (Casianus Basus Scolasticus) ،
 والمتأخرون فى زمانهم ، منهم الرازى وإسحاق بن سليمان وثابت بن قرّة وأبوحنيفة
 الدينوى وغيرهم ممن لم نُسَمَّه .

« واعتمدت أيضا مع ذلك على ما استحسنته مما تضمنته الكتب المذكورة بعد
 هذا ، منها كتاب « الفلاحة النبطية » تأليف قوثامى (*) ، وهو مبنى على أقوال
 أجلة الحكماء وغيرهم ، وذكر فيه أسماء وعددهم ، منهم آدم وصغريت ونغبوشاد
 وأخنوخا وماسى ودونا وطامترى وغيرهم ، وربما اختصرت ذكر هذا الكتاب
 وأثبت له علامة وهى « ط » ؛ وعلى كتاب الشيخ أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن
 البصّال الأندلسى رحمه الله ، وهو المبني على تجاربه ، وعلامته على وجه الاختصار
 هى « ص » ؛ وعلى كتاب الشيخ الحكيم بن الخير الإشبيلي رحمه الله ، وهو مبنى
 على آراء جماعة من الحكماء والفلاحين وعلى تجاربه ، وعلامته « خ » ؛ وكتاب
 الحاج الغرناطى وعلامته « غ » ... [(*)] .

[وإليك فقرة أخرى من الكتاب يتحدث فيها عن الكثرى :

« فصل : وأما صفة العمل فى غراسة شجر الكثرى الذى يسميه العامة

(*) كذا فى الأصل ، والمعروف أن مؤلف كتاب « الفلاحة النبطية » هو ابن
 وحشية .

(**) أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي : كتاب الفلاحة ، طبعة منكبرى ،
 مدريد ١٨٠٢ ، ج ١ ، ص ٧ — ١١ .

الأجاص ، قال خ : هو نوعان : جبلى وبستانى . وهو أنواع : منه السكرى ،
والذكرى ، والقرعى ، والسراجى ، وغير ذلك .

« وفى ق : من الكثرى حلومنه مر ، ومنه قليل الما [ء] وكثير الما [ء] ،
ومنه كبير ومتوسط وصغير .

« ومن كتاب أبى حجاج ، رحمه الله : قال يוניوس : إن جنس الكثرى
يحب المواضع الباردة والكثيرة المياه المخصبة . وله أنواع كثيرة ، ويفرس على
فنون من فروع تنزع من الشجر ، ويفرس أيضا أُنْقَالُ الجُلُوب ، ويفرس
أيضا وَتْدَه ، وقد يمكن غرس حب ثمره .

« قال يוניوس : ومن الناس من يفعل فعلا أجود من هذا كله ، وذلك
أنهم يطعمونه أكثر مما يفرسونه ، فيحولون شجر كثرى برى بأصوله من مواضع
الغابات ، ويفرسونها على ما وصفنا ، حتى إذا استحكمت هذه الغروس يطعمونها
بأجناس الذى يردون .

« قال قروراطيقوس : إذا غرست الكثرى فى البعل الذى لا سقى له فاغرسه
أول الخريف ، وإن غرسته تحت سقى فاغرسه فى ثمانية أيام ماضية من شباط
(فبراير) إلى نصف أذار (مارس) . ويجب شجره الأمكنة الباردة الرطبة
والبرودة ، وليس هو مما يحب الأرض الصلبة .

« ومن غيره : يوافق الكثرى الأرض الطيبة والمودّة المرتفعة والباردة
الممرّخة برمل يسير . ويصلح فى الأرض السهلة غير النّزحة ولا السبخة ، وينافى
الأرض السودا والخنادق ، وقيل لا توافقه الأرض الحرّشا ؛ وقيل بل توافقه .
وقال ديمقراطيس : تُنْتَقَى الحفرة التى تفرسه فيها من الحصا والأشيا الجاسية ،
وتوضع الغرس فيها . ويأق على تراب قد غُرِبِلَ وبُسِقَى بالما . قالوا : وينخذ من
القضبان البابتة عند أصوله وفى عروقه أيضا مقتلعة بعروقها ومكبسة بمواضعها ،
ثم تقلع ؛ ومن حب ثمره أيضا ، ومن أوتاده ، وليكن طول الوتد منها نحو ثلاثة

أشبار ، ومن ملوخه . يغرس ذلك في يَنْبَرٍ وفي فبرير على أمهات السواقي وفي أرض سواها لا تخلو منها رطوبة السقي بالما ولا بد ، ولا يغفل عن سقيها ، وإن استمر جرى الماء عليها دايماً من غير أن يبقى في أرضها فذلك أجود لها . ويزرع حب ثمره في الظروف ، وهو من الزرايع الضعاف . ويغرس نقله في حفرة عمقها نحو أربعة أشبار وأزيد ، على كِبَرٍ قدر النقلة . وقيل : يجعل النقل في الحفرة عند غراسة النقلة خاصة نَدِيَّةً ، ثم تُطمر غراستها بتراب وجه الأرض . ووقت غراسة النوع البستاني منه أنه إن غُرس من أول فبراير إلى أول يوم من أبريل فإنه يكون أقرب إلى النجاة والعلق ... » (*) .

ف ١٤٠ — ابن البيطار :

ونذكر من ظهر في عصور تقلص سلطان المسلمين من الجزيرة أبا الحجاج ابن مَرَاطِر^(٢٦) (من أهل القرن الثالث عشر) ، وكان يطيب أبا يعقوب يوسف خليفة الموحدين ؛ وابن لُيُون من أهل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) ، وهو غرناطي وقد نظم قصيدة في الزراعة وفلاحة البساتين ؛ وأبا العباس أحمد بن محمد الملقب بابن الرومية وقد ولد بعد سنة ٥٦٠/١١٦٥ ، وهو من أهل إشبيلية وكان يلقب بالنباتي ، وقد طاف بنواحي المغرب والمشرق وسجل ملاحظاته ومشاهداته في « رحلته » . وكان أول من درس النبات بطريقة مباشرة ، ولم يقتصر على النظر إليه على أنه مجرد عشب يتداوى به^(٢٧) ، وكان ابن البيطار أحد تلاميذه .

(*) نفس المصدر ، ص ٢٦٠ — ٢٦٢

(٢٦) لم استطع تحقيق هذا الاسم ، ولم يتعرف عليه أحد من سألتهم عنه . وقد وجدت عند ابن أبي أصيبعة أن الذي كان يطيب أبا يعقوب يوسف وأبا يوسف يعقوب المنصور الموحدين هو أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي (طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٩) . وذكر ابن أبي أصيبعة طبيباً ثانياً لهذا الأخير هو أبو جعفر بن غزال (طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٨٠) . وأبو يعقوب المنصور ليس من أهل القرن الثالث عشر الميلادي على كل حال ، مما يرجح الظن بأن عبارة المؤلف هنا محتاج إلى تصويب .

وكان ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد^(٢٠) ، أعظم علماء النبات في المشرق في عصره . وأصله من مالقة (ولد ١١٩٧/٥٩٣) وسكن إشبيلية وتجول في واحة المغرب وآسيا الصغرى والشام ودخل في خدمة الملك الكامل^(*) في مصر ، وتوفي في دمشق سنة ١٢٤٨/٦٤٥ . وكتابه الرئيسى هو « كتاب الجامع لفردات الأغذية والأدوية » (طبع في بولاق في أربعة مجلدات سنة ١٢٩١/ ١٨٧٤ ، وترجمه إلى الفرنسية إكليرك) . وهو معجم أبجدى للأغذية والأدوية ، وهو أكل ما ألف العرب في ذلك الباب وأكثره تفصيلا ، وقد اعتمد في تأليفه على كتب كثيرة لمؤلفين سابقين عليه من أمثال ابن جليل والفاقي ، وهو يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع فيها كل ما ذكره سابقوه من اليونان والعرب عن الأدوية ، وزاد عليهم بثلاثمائة دواء لم يشر إليها أحد قبله . ومن كتبه الجليلة الأخرى « المغنى » في الأدوية المفردة ؛ وهو يتحدث فيه عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية فحسب ، لا من ناحية التاريخ الطبيعى .

[هذا ، وابن البيطار أستاذ ابن أبى أصيبعة صاحب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، وقد لقيه أول مرة في دمشق ، وقال عنه في سياق ترجمته له : « ... فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته شيئا كثيرا . وكان لا يذكر دواء في جوابه لمن يسأله إلا ويعين في أى مكان هو من كتب ديوسقوريدوس وجالينوس ، وفي أى عدد هو في الأدوية المذكورة في تلك المقالة . وكان ثقة فيما ينقله حجة للجميع . سافر مماثلا لبليينوس وغيره من الحكماء إلى بلاد الأغارقة والشرق وأقصى بلاد الروم . وأخذ فن النبات عن جماعة حكما مشهورين ، وكان ذكيا فطنا . وكان بمصر رئيسا على الحكماء وسائر العشابين . ثم خدم الملك الكامل وجعله عنده مقدما في دمشق ، حيث مات سنة ٦٤٦ (١٢٤٨) . وله « كتاب

(*) في الأصل : العادل ، والتصويب من « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة ، ص ٢٠

المغنى في الطب » ، و « كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » ، و « كتاب الأدوية المفردة » وهو جيد لم يصنف مثله قط ... » .

وقد قال ابن البيطار في فاتحة كتابه يتحدث عن منهجه :

« ... و بعد ، فإنه لما رُسم بالأوامر المطاعة الملكية الصالحة النجمية ، بوضع كتاب في الأدوية المفردة ، تُذكر فيه ماهيتها وقواها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها ، والمقدار المستعمل من خرجها أو عصارنها أو طبعها والبدل منها عند عدمها ... جمعتُ هذا الكتاب في القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار ، عند الاحتياج إليها في ليل كان أو نهار ، [و] مضاف إلى ذلك أذكر ما ينفع به الناس [من] شعار وثمار . واستوعبت فيه جميع ما في الخس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدوس بنصه ، وكذا فعلت أيضا بجميع ما أورده الفاضل جليينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه . ثم ألحقت بقولها من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية ما لم يذكره ، ووصفت عن ثقافة المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه ، وأسندت — في جميع ذلك — الأقوال إلى قائلها ، وعرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها . واختصصت بما تم لي به الاستبداد ، وتوضح لي القول ووضح عندي الاعتماد .

« الفرض الأول : صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن التأخرين ، فاصح عندي بالمشاهدة والنظر ، وثبت لدى بالخبر لا الخبر أدخرته كنزا سرى ، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيا .

« والنرض الثانى : وما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والمهامة للصواب والتحقيق ، أو أن ناقله أو قايله عدلا فيه عن سوي الطريق نبذته ظهريا ومجرته مليا ، وقلت لناقله أو قايله : « لقد جيت شيئا فريا » . ولم أحاب في ذلك قديما لعنته ، ولا مُحدثا اعتمد غيري على صدقه .

« الفرض الثالث : ترك التكرار حسب الإمكان ، إلا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنى وتبيان .

« الرابع : تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مُقَفًى ، ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عنا .

« الخامس : التنبيه على كل دواء واقع فيه وهم أو غلط متقدم أو متأخر ، لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل ، واعتمادى على التجربة والمشاهدة حسب ما ذكرت قبل .

« السادس : فى تسمية الأدوية بسائر اللغات اللاتينية فى السمات ، مع أنى لم أذكر فيه ترجمة دواء إلا وفيه صنعة مذكورة أو تجربة مشهورة . وذكرت كثيراً منها بما يعرف به فى الأماكن التى تنسب إليها الأدوية المسطورة ، كالألفاظ البربرية واللاتينية — وهى أجمية الأندلس — إذا كانت مشهورة عندنا جارية فى معظم كتبنا .

« وقيدت ما يجب تقييده بالضبط وبالشكل وبالنقط تقييداً يؤمن معه من التصحيف ، ويسلم قاريه من التبديل والتحريف . إذ كان أكثر الوهم والغلط الداخلى على الناظرين فى الصحف إنما هو من تصحيفهم لما يقرونه أو مسهو الوراقين فيما يكتبونه .

« وسميته « بالجامع » لكونه جمع بين الدوا والغذا ، واحتوى على الغرض المقصود مع الإنجاز والاستقصا . وهذا حين ابتدئ ، وبالله أستعين وأهتدى . . . » [(*) (٣١) .

ولا بد من إشارة خاصة إلى عبد الله بن صالح^(٣٢) ، معاصر أبى العباس بن الرومية وأحد أساتذة ابن البيطار ، وكان من أجلاء النباتيين . وأبى جعفر بن خاتمة صاحب كتاب « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوائد » الذى

(*) كتاب الجامع الكبير فى الأدوية المفردة لابن البيطار ، مخطوط رقم ١٣٣٤ فى فهرس الفزيرى :

CI : MICHAELIS OASIRI, *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurtalensis* (Matriti MDCCCLX) I, 279-280.

وصف فيه وباء سنة ١٣٤٨/٧٤٨ . ومحمد بن التمرّاج^(٣٣) (١٢٥٦/٦٥٣ —
 ١٣٢٩/٧٢٩) ، [وقد عاش في غرناطة زمنًا ثم هاجر إلى سراكش ، ووضع في
 الطب والأعشاب كتبًا كثيرة لم يبق منها شيء] . ولسان الدين بن الخطيب
 الوزير الكاتب المؤرخ (ف ٨١) ، إذ أنه تميز في العلم بالطب كذلك وألف في
 ذلك العلم كتابًا من جزئين (درس فيهما الأمراض من الوجهتين العامة والخاصة
 والحميات والجراحة وما إلى ذلك) ، ويتكشف لنا ابن الخطيب في هذا الكتاب
 عن فهم عظيم وعلم واسع^(٣٤) .

الفصل الثالث عشر

الآثار الأدبية لغير المسلمين

من الأندلسيين

(أ) المستعربون

ف ١٤١ — إشارات آلبرو الفرطى . القس بن جنسيس . ربيع بن زيد الأسقف .

(ب) اليهود

ف ١٤٢ — أبو زكريا حيوج . ابن جبرول . يحيى بن فاقوذا . ابن صديق .

ف ١٤٣ — موسى بن عزرا . يهوذا هلاوى (هاليشى) . أبراهام بن داود .
الجزيرى . بنوطيون .

ف ١٤٤ — موسى بن ميمون . المترجمون .

لا بد لنا من أن نلم بأثر غير المسلمين من الأندلسيين حتى يكتمل لنا الإلمام بالحصول الأدبي للأندلس الإسلامي ، ذلك لأنهم شربوا من مناهل الثقافة العربية ، واستعملوا لغتها .

(١) — المستعربون

ف ١٤١ — إشارات آلبرو القرطبي . النفس ^{١٠٠٠} بنجيس . ربيع

ابن زبير الأسقف :

كان الإنتاج الأدبي للمستعربين ضئيلاً ، سواء باللاتينية أو بالعربية . وقد تأثرت حياتهم الاجتماعية بالإسلام ونظمه تأثراً بعيداً ، ومن مصاديق ذلك تلك الحقيقة التي يعرفها كل الناس ، وهي أنهم كانوا يؤثرون استعمال لغة العرب وأسمائهم وأزيائهم ، ويحتمدون في أن يأخذوا الطابع الإسلامي في كل مناحي حياتهم . ولا يجهل أحد حَسَرَات آلبرو القرطبي ، فقد طالما ردها المؤلفون ؛ وهي تتحدث في جلاء عن ولع نصارى الإسبان بالأدب العربي ، فهو يقول : « إن إخواني في الدين يمدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا يريدوا عليها وينقضوها ، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً . وأين تجد الآن واحداً — من غير رجال الدين — يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن — سوى رجال الدين — يكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا لحسرة ! إن اللوهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم . وهم ينفقون أموالاً

طائلة في جمع كتبها ، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب . فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم . يا للآلم ! لقد أنسى النصارى حق لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واحد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً^(١) .

ومن أسف أنفاً لا نجد بين أيدينا شيئاً من هذا الإنتاج الأدبي الذي يشير إليه آلبرزو ، ولكن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التي نجدها في ختام مخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية في مدريد ، يضم مجموعة من القوانين الكنسية وقراراتها مرتبة أبواباً على حسب موضوعاتها ، ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قس يسمى بنجنسيس^(*) والكتاب كله مهدي إلى الأسقف عبد الملك ، وقد نظمت عبارات الإهداء في أبيات عربية لا تفترق في شيء عما ينظمه المسلمون في مثل ذلك المقام شكلاً وموضوعاً ؛ وإليك طرفاً منها :

كتاب لعبد الملك الأسقف النذب جواد نبيل الرفد في الزمن الجذب
 همام ذكى الحدس واحد عصره عليم كريم ذى حلوم وذى لب
 يُجَدِّد فضل الله فينا بفضلِهِ وعمَّ به كلَّ الأنام هدى الرب

(*) اسمه في المراجع الإسبانية El Presbítero Vicente ، وقد أخذت هذه الصورة العربية من كلامه هو نفسه ، فقد قال في نهاية الجزء الثامن من ذلك القانون الكنسى المشار إليه هنا : « تمت وأكملت » أنا بنجنسيس القس الحاطى ، عبد عبيد المسيح ، هذا الجزء الثامن من القانون المقدس ، يوم الأحد ، في الوقت الثامن من ذلك النهار . وهو أول أحد من الصيام الأربعين الذى يُتلى فيه خبر المرأة السامرية التى استسقاها سيدنا المسيح الما فى بير يعقوب »

Cf : FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozárabes de Espana* (Madrid, 1903) p. 720.

والصورة العربية للاسم هي نفس صورته اللاتينية Vincencius ، وقد ضبطت الكلمة بناء على ذلك .

فلا زال في عنتر من الله شامل

مدى انهل مُمزَن في قري الأرض بالسكب (*)

والكثير من الكتب اللاتينية التي كتبها المستعربون تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية . وبين أيدينا كتاب لاتيني عنوانه « كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان » ، وهو تقويم فلكي مناخي زراعي [« وفيه ذكر منازل القمر ، وما يتعلق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه »] (*) ، يُظن أن الذي ترجمه ووضعه في هذه الصورة اللاتينية جيراردو الكريموني . ومؤلفه هو الأسقف ريكيموندو الذي يسميه مؤلفو العرب ربيع بن زيد الأسقف ، وقد كان في خدمة عبد الرحمن الناصر ، وكانت له علاقات موصولة ببوحنا أسقف جُرتز . ولدينا تاريخ حياة الأخير [المسمى :

Vita Joannis [Corgiensis] auctore ut videtur Abbate S. Arnulpho Metis

وصف فيه رحلته إلى قرطبة سفيراً للإمبراطور « هوتو » لدى عبد الرحمن الناصر [، وقد أورد في ثناياها من الملاحظات ما يدل على اتجاه المستعربين نحو الإسلام اتجاهًا شديدًا⁽⁺⁾ ، وكان ربيع بن زيد هذا سفيراً للناصر لدى هوتو (Otto I) إمبراطور ألمانيا . وقد وضع عريب بن سعد (ف ٦٥ ب) تقويمًا مائلا لتقويم ربيع^{(٧)(□)}

(*) نفس المصدر ، ص ٧٢١ .

(+) ابن سعيد : ذيل على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس ، انظر نفع الطيب للمقرئ

(ط . محي الدين) ج ٤ ، ص ١٧٦ .

(+) انظر سيمونيت : تاريخ مستعربين إسبانيا (المذكور في التعليق التالي) ص ٦١١ هـ

(□) عبارة المؤلف هنا فيها خلاف لما أجمع المؤرخون عليه بشأن كتاب الأسقف ربيع

ابن زيد المشار إليه ، وسيرد بيان ذلك بالتفصيل في « مسلة تاريخ الفسك الأندلسي » الذي نجمع فيه التعليقات كلها . ولكنني أنه هنا إلى ما ذكره دوزي وأيده فيه سيمونيت بخصوص هذا الكتاب وعلاقته بتقويم مرهب بن سعد القرطبي الكاتب ، وهو يتلخص فيما يلي :

وضع مرهب بن سعد تقويمه المعروف في سنة ٩٦١/٣٤٩ هـ ، وقد ضاعت نسخه العربية ولم نعد إلا على صورة منه مكتوبة بحروف عربية (وإن كانت عربية اللمة) ، فقرأها دوزي واستطاع أن يخرج منها النص العربي للتقويم وسماه تقويم قرطبة لسنة ٩٦١ . وقبل ذلك بقليل =

ولا يشك أحد اليوم فيما ساهم به الإسبان أهل البلاد من نصيب عظيم في تطور الثقافة الإسلامية . وإذا كنا لا نجد بين أيدينا من أدلة تمسكهم من اللغة العربية قدراً أفضل من هذا الذى نراه اليوم ، فإنهم — من غير شك — ليسوا بمسؤولين عن هذا . فقد ظلوا يستعملون هذه اللغة زمناً طويلاً بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة ، وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر ، كما يتضح من الوثائق التى خلفها لنا مستعربو طليطلة . هذا على الرغم من أننا لا نجد فيما بين أيدينا من تراث المستعربين شيئاً ذا قيمة أدبية .

(ب) — اليهود

ف ١٤٢ — أبو زكريا ميروج . ابن مبرول . يحيى بن فافوزا .

ابن صريه :

كانت إسبانيا خلال العصور الوسطى مركز الدراسات العبرية ، وقد نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية بصورة مباشرة^(٣) ، وقد بدأ حركة بحث الدراسات التلمودية في قرطبة أبو يوسف حسداى بن إسحاق بن عزرا بن شبروط^(٤) (٩٤٥/٣٣٣ — ٩٧٠/٣٥٩) الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر ،

== وجد رجير مؤ ليرى نسخة من الترجمة اللاتينية لتقويم الأسقف ربيع بن زيد ، فنشرها ذيلاً على كتابه المسمى : تاريخ العلوم الرياضية في إيطاليا في سنة ١٨٣٥ ، وفارن دوزى بين هذا النص وتقوم مريب بن سعد المذكور آنفاً ، فتبين أن النص اللاتيني المنسوب إلى ربيع بن زيد ترجمة لتقوم مريب مع بعض الزيادات . ولقد أيد هذا الاستنتاج إدواردو ساقندرا وخافيير سيمونيت .

Cf : GUILLERMO LIBRI ; *Histoire des sciences mathématiques en Italie*. Paris, 1885.

R. DOZY : *Le Calendrier de Cordoue de l'année 961*. Leyde, 1878.

— : *Die Cordovaner Arib ibn Sa'd der Sekretar und Rabi' ibn Zaid der Bischof*, ZDMG. vol. XX.

E. SAAVEDRA : *Estudio sobre la invasión de los Arabes...*, p. 16.

J. SIMONET, *Historia de los Morárabes de España* (Madrid, 1903) pp. 611-614.

بما بسط من العون لموسى بن حانوك^(*) ومدرسته ، فلم تلبث أن أنجبت من أعلام الأدب العبري رجالا مثل مناحيم بن سروق الطرطوشي ودُنَاش بن لَبْرَاط (أو لَبْرَاط)^(٦) ممن افتتحوا عصر الازدهار للشعر العبري الحديث . وقد اقتفى أولئك الشعراء آثار الأدب العربي وتمثلوا صوره ، وإن كان أساس لغتهم ولسانهم عبريين^(٧) .

وقد ألف أول نحوٍ على لغة العبرية يهوذا بن داود^(٨) ، (الذى يسميه بعض كتاب اليهود فيما خلفوه من كتب عربية : أبَا زَكْرِيَا بن داود الفارسي المنبوز بِحَيْثُوج) ، وهو تلميذ مناحيم . وقد وضع نحوه هذا باللغة العربية ، ولهذا السبب لم يكن له صدق إلا بين يهود الأندلس . وكذلك ألف ابن جناح^(٩) (٩٩٥/٣٨٤ — ١٠٥٠/٤٤١) أهم كتبه المسمى « بالتفتيح » بلغة العرب . ويعرف ابن جناح بين المسلمين بأبي الوليد مروان بن جَنَاح ، أما النصارى فعرفوه باسم يونا (يونس) ومرينوس Merinos ، وإليه يرجع الفضل في نشوء علم النحو في اللغة العبرية ، وهو المعروف في مصطلح علماء يهود الأندلس « بجمل النحو العبراني »^(١٠) .

[وهاك فقرات من « كتاب المستلحق » لأبي الوليد مروان بن جناح ، تعطى فكرة عن طريقة تأليف يهود الأندلس في النحو العبري بلغة عربية :

« أما بعد — أيها الأخ الحبيب والنجم القريب — أوضح الله لك المشكلات ، وكشف عنك الخفيات ، فإنه لم تزل نفسى منذ أعوام كثيرة وسنين

(*) هناك تناقض بين ما يقوله المؤلف هنا وما يقوله شتاينغنايدر . ويبدو أن بالنتيا اعتمد هنا على ما ذكره يوسف وهارتويج ديرنبورج . انظر :

MORITZ STEINSCHNEIDER : *Die arabische Literatur der Juden. Ein Beitrag zur Literaturgeschichte der Araber, grossenteils aus handschriftlichen Quellen.* (Frankfurt a M. 1902) SS. 119-120.

(*) بهذا العنوان ألف أبو زكريا حيوج كتاباً رئيسياً في النحو ، وهو الذى أكله وعلق عليه أبو الوليد مروان بن جناح برسائله مثل « المستلحق » و « التنبيه » و « التسهيل » . انظر :

JOSEPH et HARTWIG DERENBOURG : *Opusculs et Traités d'Abou'l-Walid Merwan ibn Djanah de Cordoue.* (Paris, 1880).

(كتب ورسائل لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي) .

جهة ، إذ نحن في بيضتنا بعد ، تطالبني باستحقاق ما أغفله الأستاذ الفاضل والرئيس
السكامل أبو زكرياء حيوج ، رحمه الله ونضر وجهه ، من استيفاء الأفعال ذوات
حروف اللين والأفعال ذوات المثلين ، لأنه اشترط في صدر هذين الكتابين
أن يأني بكلية هذه الأفعال ، وأن يضم كل نوع منها إلى جنسه وكل شخص إلى
نوعه ، فأهمل كثيراً جداً من الأجناس التي كان يازمه الإبانة عنها والتدقيق على
بعد غورها ودقة معانيها ، وأهمل من الأنواع جملةً وضجّ من الأشخاص جمهوراً .
ولست ألحّقه في هذا ملاماً ولا أعصيه (*) مذمة ، إذ القوة البشرية ضعيفة ، وإذ
الكمال والتمام لله وحده لا شريك له . وكنت أيضاً قد شككت عليه (**) مسائل
كثيرة من كتابيه ، فأردت ذكرها والتبيين لها ، لما في ذلك من عظيم الفائدة
وجزيل المنفعة ، ولأن هذين التبيينين — أعنى حروف اللين وذوات المثلين —
من أغصن شيء في اللغة العبرانية وأعوصه . فضبطني عن ذلك إلى وقتي هذا
رياسة هذا الرجل في هذا الفن وجلالة قدره فيه واقتداره عليه ، فإنه لم يتقدمه فيه
متقدم ولا سبقه إليه سابق ؛ وإن له علينا لحماً (+) ، بما أفادنا من هذه الصناعة
وما أوضحه لنا من مستغلقها ، وقربه منا من بعيدها . وبما كسل همتي عن ذلك أيضاً
ما نحن عليه من الجلاء للمقدر علينا ، والحل والترحال الذي نحن بسبيله (□) . فلما
ألححت على — أعزك الله — في ذلك ، وألح على فيه معك جماعة من إخواني ممن
شأنه البحث والطلب ، لم أجد بداً من إسعافكم والصيرورة إلى مرغوبكم ، فأستلحق
في هذا الكتاب كل ما بلغه وسعى وانتهت إليه مقدرتي من أجناس الأفعال

(*) كذا في الأصل المطبوع ، ولعلها : أعطيه .

(**) كذا في الأصل ، ولعل سوابه : وكانت أيضاً قد أشكلت عليه .

(†) في الأصل : لحيقاً .

(□) الإشارة هنا إلى ما كان يذنيه يهود الأندلس في ذلك الحين من الاضطهاد واضطراب
الكثيرين منهم إلى الهجرة من ناحية إلى ناحية ، ومعظم هذا الاضطهاد كان يوقمه اليهود
بعضهم بعض .

وأنواعها وأشخاصها التي أضرب عنها ، وسميته بكتاب المستلحق . . . (*) .
ثم يقول بعد قليل : « اعلم أن من الأفعال ما لم يذكرها ذكرًا شافياً ولا
أحتملها محلها ، بل أشار إليها وطواها في درج ذكره لغيرها . وربما أشار إلى بعضها
في باب من أبواب الكلام الجملى ولم يذكرها في الكلام المصنّف ، كإشارته
إلى الحوكة (= نفال) في باب الانفعال الجملى المقدم ذكره في المقالة الأولى
من كتاب حروف اللين على ذكر الأفعال التي فاءاتها ياء ، فإنه ذكر هناك
שם ישר נוכח עמו פכר נא ונוכחה (= نوکح — ١ سفر أيوب ، ٢٣/٧ ونحوًا كحاة ،
أشعيا ١٨/١) ولم يذكر هذا الأصل في موضعه مع الأفعال التي فاءاتها ياء
المصنفة على حروف المعجم في المقالة الأولى من كتاب حروف اللين ، على كثرتها
في המקרא (العهد القديم ، وعلى أن فيه نوع آخر غير هذا النوع وهو
אותח חוכחה אשר חוכחתו זאת כג ונוכחה (= هو كحًا — سفر التكوين ،
١٤/٢٤ — وهو كيמתح — نفس السفر والإصحاح ، فقرة ٤٤ — وנוכחת —
تكوين ، ١٦/٢٠ — أو هو كيמתح) الذي تفسر الجميع إعداد وإحضار^(٧) .
أما אותח חוכחה (= هو كحًا) فهي أنها المرأة التي أعدتها وأحضرتها העצמה^(٨)
(= لإسحاق) ، وأما זאת כג ונוכחת فتفسيره والكل وأعدت وأحضرت ،
أي أنها أعدت وأحضرت جميع ما أمرها به من الكسوة ، وهو انفعال متعد
إلى כג (= كؤل) مثل אשר נשכרת אח פכם חוונח (= نشبرتني — عزرا ،
٩/٤) . وأيضًا העצד מאחכם فإن נשכרתו واقع على פכם لا يجوز في المعنى
غير ذلك » [□] .

(*) أبو الوليد مروان بن جناح : كتاب المستلحق ، ص ١ — ٢ . انظر : « كتب
ورسائل لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي » .

Opusculs et Traités d'Abou'l-Walid Merwan ibn Djanah de Cordoue.
Texte arabe publié avec une traduction française par JOSEPH DEREN-
BOURG et HARTWIG DERENBOURG, Paris, 1880.

(*) أي أن تفسر هذه الألفاظ .

(+) أي أن معنى هذا أن المرأة هي التي أعدتها وأحضرتها .

(□) نفس المرجع ، ص ٤ — ٥ .

[وكانت المناقشات بين علماء اليهود هؤلاء تجري على نفس الأسلوب الذي كان العرب يجرون فيه في مناقشاتهم فيما بينهم ، مما يدل على تأثرهم الشديد بالثقافة العربية ، ومثال ذلك هذه الفقرة لابن جراح يرد فيها على ما أخذه عليه إسماعيل (صمويل) بن النغزلة الفاجد في كتابه المسمى « رسائل الرفاق » :

« أول ما ناقضنا فيه في هذه الرسالة السكريمة الأولى الواصلة إلينا الآن من جملة ما أبقى به من رسائل الرفاق ، هو ما فسرناه في أول المستلحق وهو [ما قلناه من أن ألفاظ] אשר הוכיח חי כן אדוני אחה חזכה כעכרך זאת כ* וחזכה (هو كَيْخ — سفر التكوين ، ٢٤/٤٤ وهو كَيْخًا — تكوين ٢٤/١٤ — وونوكاكت — نفس السفر والإصحاح فقرة ١٦) من أن [معنى] الجميع إعداد وإحضار ، على ما هو أليق وأوفق بالمعنى ، فطلب مناقضتنا بضروب من الكلام المختلط الممتشط المتسق (*) المضطرب . وذلك أنه أول شيء زعم أن تفسري في هذه الكلمات [بأن معناها] إعداد وإحضار بدءاً لم يقل بها أحد ، فأنكره واستقبحه غاية الإنكار والاستقبح وقال : ما أقبح قول القائل : « هي المرأة التي أحضرها الله » من غير أن يأتينا بدليل على قبحه بأكثر من قوله إن الشيوخ قد فسروا في هذه الكلمات « التوفيق » . وقد كنا رأينا نحن من تفسير بعض من حشده علينا في هذه الكلمات ما رآه هو ولم نستحسنه ، لأنه اشتقه من נכח ח' (= نو كَحْ — سفر القضاة ، ١٨/٦) وهذا عندنا غير جائز في الاشتقاق ، لأن النون في נכח ח' (= نو كَحْ ، تكوين ١٤/٢) هي أصلية ، بذلك على ذلك قولهم נכחו חהנו (نَكْحُو) وأيضاً נכחו (نَكْحُو ، أشعيا ٥٧/٢) والواوات في هذه الألفاظ هي فاءات الأفعال ، وهي منقلبة من ياءات وهي على زنة הוהי חן הוהי חרה בי נוחלח (حُوجِل وحُوجِلني — أيوب ٣٢/١١) ونُوحلاه — عزرا ١٩/٥) ، إلا أن هذا الأصل غير متعمد ، فقد بطل معنى التوفيق ببطلان استدلال المستدل عليه » [(*)] .

(*) كذا في الأصل ولعل صحتها : المتسق . (*) نفس المرجع ، المقدمة ، ص ١٠١ .

وعن طريق الكتب العربية تعلم أول فيلسوف يهودى وهو سلومون بن يهوذا ابن جبرول (٤١١ / ١٠٢١ - ٤٦٢ / ١٠٧٠)^(١٠) ، الذى يسميه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحيى ، والنصارى أفيسبرون Avicbrón ؛ فقد قرأ كتب فلاسفة العرب وصقل ملكته بما فيها من الآراء والأفكار . ويقول مونك : « إن ابن جبرول لحقيق بأن يسمى الباعث الحقيقى للشعر العبرى بفضل ما نظم من شعر ، وبأن يعتبر صاحب الصدارة بين شعراء اليهود فى العصور الوسطى ، وربما كان أكبر شعراء عصره . نعم إنه صب شعره على قوالب الشعر العربى ، ولكنه فاق شعراء العرب فى مراتب الشاعرية وفى سمو أفكاره وإحساسه الشاعرى » . أما فى باب الفلسفة فقد ألف كتابه المسمى « ينبوع الحياة » باللغة العربية ، وتأثر فى تأليفه بمذهب ابن مسرة القائم على آراء أنبا دقليس الزائف ومذهب الأفلاطونية الحديثة . ولم ينتشر هذا الكتاب بين اليهود بسبب لغته العربية وبسبب ما ذهب إليه فيه من القول بوحدة الوجود . أما النصارى فقد عرفوا هذا الكتاب عن طريق ترجمته اللاتينية التى قام بها دومنيكو جندالذ Dominicus Gundissalinus ، وكان لهذا الكتاب الذى عرف فى اللاتينية باسم *Fons Vitae* أثر ظاهر عند دانس سكوتوس Duns Scotus وعند مفكرى المدرسة الأوغسطينية ، بل نجد أثره عند جيوردانو برونو فى القرن السادس عشر الميلادى .

ولا يظهر الأثر العربى فى كبار مؤلفات ابن جبرول فحسب ، بل يتجلى كذلك فى كتاباته الصغيرة ، كما نرى فى « النحو » العبرى الذى نظمته فى قصيدة

(*) ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ولم تبق لنا إلا ترجمته اللاتينية وقطعة من ترجمته العبرية . وكان العلماء يشكون فى نسبتة إلى ابن جبرول ، حتى أثبت ذلك سالومون مونك . انظر : SALOMON MUNK, *Mélanges de philosophie juive et arabe* (Paris, 1859) pp. 170, sqq.

عبرية صاغها في بحر الرجز العربي تنألف من أر بمائة بيت ، وهو يتمحسر فيها على انصراف إخوانه في الدين من أهل سرقسطة عن اغتهم المقدسة ، ويسمهم « الجماعة العمياء » ، إذ كانت بعضهم يتكلم — على حد تعبيره — لغة إيدوم (Edom = مجمية أهل الأندلس) وبعضهم الآخر يستعمل لغة كِدَار (Kedar = اللغة العربية) (*). ويتجلى ذلك الأثر كذلك في رسالته المسماة « كتاب إصلاح الأخلاق » (†)، وهي رسالة في الأخلاق العملية ، وكتابه « مختار اللآلي » وهو مجموعة من حكم فلاسفة اليونان والمسلمين . وكلا هذه الرسالة وذلك الكتاب باللغة العربية .

وكان لآراء النزالي في الأخلاق والتصوف أثر ظاهر في الكتاب المسمى « الهداية إلى فرائض القلوب » الذي ألفه بالعربية بجيا بن يوسف بن فاقوذا (†) (١١) معاصر ابن جبرول ، وقد سماه الناس « توماس دِكَمِيسْ Tomas de Kempis » اليهودي .

[وإليك طرفاً من كلام بجيا في فاتحة « الهداية » :

« ... فلما عزمنا على إثبات أصول فرائض القلوب في كتابي هذا استعملت قياساً في اختيارها ، لتكون جامعة لغيرها وحاوية لساثرها ، فوضعت أصلها الأعلى وأسسها الأكبر إخلاص التوحيد لله .

« ثم نظرت إلى ما يلزمنا من اتباع التوحيد به من الفرائض المذكورة

(*) Cf : MILLAS VALLICROSA, *Selomo ibn Gabirol como poeta y filósofo* (Madrid-Barcelona, 1945) pp. 48-49.

(†) لشر النص العربي مع ترجمة إنجليزية وايز ، انظر :

ST. WISE, *The Improvement of Moral Qualities* (Columbia University Oriental Series) New-York, 1905.

(†) هذه هي الصورة العربية الصحيحة للاسم ، انظر :

GEORGES VAJDA, *La Théologie Ascétique de Bahya ibn Paquda* (Paris, 1947) pp. 7-8.

المشاكلة له منا ، فملت علماً يقيناً أن الخالق تعالى لما كان واحداً حقاً ولا يلحقه اسم جوهر ولا عرض ، ولم يتجاوز فكرنا إلى إدراك ما ليس بجوهر ولا عرض امتنع علينا إدراكه من جهة ذاته ، فلزم تعريفنا به وإدراكنا لوجوده من جهة مخلوقاته ، وهو باب الاعتبار بالمخلوقين ، فوضعت الاعتبار أصلاً ثانياً للملة من فرائض القلوب .

« ثم تأملت إلى ما يلزم للواحد الحق من الربوبية ، وما يحق على المخلوقين من عبوديته ، فوضعت النزام الطاعة لله أصلاً ثالثاً للملة من فرائض القلوب .

« ثم تبينت إلى ما يلزم الواحد الحق من انفراد بتدبير الكل ، وأن النفع والضرر ليس في يد غيره ، ولا في مقدور سواء إلا عن إذنه ، لزمنا التوكل عليه والاستسلام إليه ، فوضعت التوكل أصلاً رابعاً للملة من فرائض القلوب .

« ثم تفكرت في معنى الواحد الحق من اختصاصه بذاته ، ولا يشارك شيئاً ولا يشبه شيئاً ، أتبعْتُ ذلك إفراده بالطاعة والعبادة بإخلاص عملنا لوجهه ، إذ لا يقبل العمل المشترك فيه غيره معه ، فوضعت إخلاص العمل لله أصلاً خامساً للملة من فرائض القلوب .

« ثم أجلت فكري فيما يلزمنا للواحد الحق من التعظيم والإجلال ، إذ ليس كمثل شيء ، فتبع ذلك التواضع له كحسب ما يستأهله ، فوضعت التواضع أصلاً سادساً للملة من فرائض القلوب .

« ثم لما تصفحت ما يجري على الناس من النغلة والتقصير فيما يلزمهم من طاعة الله جل وعز ، وكان وجه استدراك غلطهم وتقصيرهم التوبة والاستغفار ، وضعت التوبة أصلاً سابعاً للملة من فرائض القلوب .

« ثم لما حفستُ عن إدراك حقيقة لوازمنا لله عز وجل من الفرائض الظاهرة والباطنة ، وعلمت أنها لا تصح منا^(*) إلا بمحاسبة أنفسنا عن ذلك لله والتقصى عليها ، وضعت المحاسبة للنفس أصلاً تامناً لجللة من فرائض القلوب .

« ثم رددت خاطري في معنى الواحد الحق ، فرأيت أن توحيده بإخلاص لا يصح في نفس المؤمن إذا سكر قلبه من شراب حب الدنيا واسترساله^(**) إلى شهواته البهيمية ، فإذا رام تفريغ ضميره وإخلاء باله من فضول الدنيا بالزهد في لذاتها تمسك التوحيد التام من قلبه وخلصت له فضيلته ، فوضعت الزهد في الدنيا أصلاً تاسعاً لجللة من فرائض القلوب .

« ثم بحثت عما يلزمنا للمخالق تعالى ، الذي هو غاية كل أمل ونهاية كل رجاء ، إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء ، وما يستوجبه منا من المحبة في رضاه والخوف من سخطه الذين هما غايتا السعادة والشقاوة ، كقول الولي عليه السلام دي ربه که کامر حיים درخوابو ، فوضعت المحبة في الله تعالى عز وجل أصلاً عاشراً لجللة من فرائض القلوب^(†) .

وأسلوبه في الكتاب ، كما هو ظاهر ، شديد الشبه بأساليب المسلمين ، مما حدا بسالمون يهودا وجولانسير إلى مقاباته ببعض ما كتب المسلمون في هذا الباب ، فتبين للأول منهما أن بجيا ينقل في بعض الأحيان نقلاً حرفياً عن بعض كتب النزالي ، وأورد فقرات من كتاب « الحكمة في مخلوقات الله » لأبي حامد ، وقابلها بما يشبهها من كلام بجيا في « الهداية » . وهاك نموذجاً من هذه المقابلة :

(*) في الأصل المطبوع : لا تصبح منا .

(**) في نسخة أخرى : واسترسل إليها فإذا ، ولعل صحة العبارة : واسترسل إلى . .

(†) A. S. YAHUDA, *Al-hidaja 'ila Fara'id al-Qulub*. (Leiden, 1912)

ص ٢٦ — ٢٨ من النص العربي .

« الحكمة » للفزالي

« الهداية » لبجيا

انظر كيف رُتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب ، فصار البدن بما فيه بمنزلة دار لمليك فيها حشم وقوم موكلون بالدار ؛ فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ما لهم ، وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يبالغ ويهيا ، وآخر لإصلاح ذلك وتهيته وإصلاحه أخص مما قبل ، وآخر لكسح ما في الدار من الأفتار وإخراجه . فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه ، والدار هي البدن ، والحشم هي الأعضاء . والقوم هي هذه القوى الأربع التي هي النفس ، وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر ، والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك .

أرأيت لو تقم من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان يكون حاله ؟ كان لا يحفظ ما له وما عليه (*) ، وما أصدر وما أورد ، وما أعطى وما أخذ ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له . ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له ، ولا من نفعه ممن ضره . وكان لا يهتدى لطريق ولو سلكه ، ولا تعلم ولو درسه ، ولا ينتفع بتحريره ، ولا يستطيع أن يستبر من مضى .. فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها ، فكيف جميعها ؟

فانظر كيف وكلت هذه القوى في البدن للقيام عليه بما فيه صلاحه ، فصارت بمنزلة دار للملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار : فواحد لاقتضاء حوائج الحشم وإيرادها إلى خازن الملك ، وقيم ثان يقبض ما يورده الأول ويخزنه في الدار إلى أن يهيا ويصلح ، وقيم ثالث لعلاج ما اختزن وإصلاحه وتهيته وتفرقه في الحشم ، وقيم رابع لكسح ما في الدار من الأفتار والأوساخ وإخراجها منها . ثم فكر في القوى النفسانية ومواقعها من منافع الإنسان نحو الفكر والحفظ والنيان والحياء والعقل والنطق .

أرأيت (*) لو نقص الإنسان من هذه الحلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكمن خلل كان سيدخل عليه في أموره ، إذا لم يحفظ ما له وما عليه ، وما أخذ وما أعطى ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ، ولم يذكر من أحسن إليه من أساء أساء إليه ، وما نفعه مما ضره ، ثم لم يهتد إلى طريق ولو سلكه صراراً كثيرة ، ولا يحفظ علماً ولو درسه طول عمره ، ولا ينتفع بتجربة ، ولا يقيس شيئاً بما مضى ، ولا ما يكون بما كان ، بل كان خائفاً أن ينسلخ من الإنسان أصلاً (١) .

(*) في الأصل : فرأيت .

(*) في الأصل : وكان لا ...

(١) A.S. YAHUDA, op. cit. p. 66-67

من المقدمة الألمانية ، وانظر عن بجيا :

A.S. YAHUDA, *Prolegomena zu einer erstmaligen Herausgabe des Kitab al-Hidāya ilā Fara'id al Qulūb*. Darmstadt, 1904.

ID., *Al-Hidaya ila Fara'id al Qulub des Bachja ibn Josef ibn Paquda aus Andalusien im arabischen urtext zum ersten Male nach dem Oxforder und Pariser Handschrift sowie den Petersburger Fragmenten herausgegeben*. Leiden, 1912.

وتعليق جولدسيهر على هذه الطبعة في :

ZDMG, LXVII, 1913, pp. 529-538.

وقد ألف دَيَّان (= قاضي) اليهود في قرطبة — أبو عمر يوسف بن صديق^(١٢) المتوفى سنة ١١٤٩/٥٤٣ — كتاباً في المنطق وكتاباً في الفلسفة الدينية يسمى « الكون الأصغر » باللغة العربية ، [وقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب ، ولم تبق لنا إلا ترجمته العبرية المعروفة باسم *سِفَر هاعولم هاقطون*] . وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو و « رسائل إخوان الصفا » . وبالعربية كذلك ألف ليثى بن التَّبَّان^(١٣) ، الذي يكنى اليهود في كتاباتهم بأبي الفهم ، كتابه المعروف بـ « المفتاح » في نحو العبرية ؛ وهو من أهل سرقسطة ، وقد رأى قوات ألفونسو الأول ملك أراغون المعروف بالمقاتل تدخل سرقسطة وتنتزعها من دولة الإسلام نهائياً سنة ١١١٨/٥١١ . وألف سليمان بن زَقِيل (أو سَقِيل) « مقامة » فكهة على طراز مقامات الحريري .

ف ١٤٣ — موسى بن عزرا . يهودا هملوى (هالبقي) . أبراهام

ابن داود . المجزبري . بنو طيبويه :

كان موسى بن عزرا (١١٣٨/٥٣٢)^(١٤) شاعراً يهودياً من أهل غرناطة ، وكان شقياً في حياته مستغرقاً في هواه ، وهو يتغنى في « ديوان » شعره بذكر الخمر والهوى والمسرة ولذات العيش على طريقة شعراء العرب^(*) . أما كتابه المسمى « المحاررة والمذاكرة » فقد ضاع أصله العربي ولم تبق لنا إلا ترجمته العبرية ، وهو رسالة في فن الكتابة وتاريخ لشعراء اليهود من أهل الأندلس وآثارهم ، وهو

(*) نقرأ مختارات منه برودى ، انظر :

H. BRODY, *Selected poems of Moses Ibn Ezra*. Philadelphia, 1934.

ويذهب معظم مؤرخي موسى بن عزرا إلى أن آلام الهوى كانت سبب شقوته ، ولكن ملباس قاليكروسا ينقص هذا الرأي ويذهب إلى أن مرجع ذلك هو ما أصاب يهود غرناطة على يد أهلها من البربر واضطراره إلى الهجرة مع من هاجر من البلد . انظر :

JOSÉ Ma MILLAS VALLICROSA, *La Poesía Sagrada Hebraicoespanola* (2a ed. Madrid-Barcelona, 1948) pp. 93-95.

يضم كذلك أطرافاً من الشعر العربى (*) . [وله كذلك كتاب قيم آخر هو « الحديقة فى معنى المجاز والحقيقة » (**) ، وقد اندثر أصله العربى ولم تبق لنا إلا فقرات من ترجمته العبرية المعروفة باسم « أُرْجَات هابوشيم » ؛ وهو كتاب ذو طابع فلسفى يجمع طائفة من الأمثال والحكم .

وإليك قطعة من شعر موسى بن غزرا صاغها فى قالب القصائد العربى المعروف ، وهى من شعره الزهدى :

مالحبيبى ، ما له يزرى لى وبخاصمنى . .
مع أن قلبى لن يزال يميل إليه كأنه عشب مياس ؟
أىكون قد نسى ذلك العهد الذى كنت أمضى فيه
فى الأرض الحزون . . وكيف أدعوه اليوم . . وهو لا يستجيب ؟
بلى ! وإنتى لن أزال فى انتظاره ، ولو كان على يديه حتى . .
وإن أخفى عنى وجهه فلن أنفك أرقب عطفه وأتوجه إليه . .
أجل ، ولن تعدو رحمة الله عبده
إذ كيف يمكن أن يتغير الذهب الخالص ويتحول ؟ (†)

أما يهودا بن ليثى الطليطلى (٤٧٧ / ١٠٨٥ — ٥٣٧ / ١١٤٣) (١٥) (أو يهودا هاليثى) ، الذى يكنىه العرب بأبى الحسن ، فقد نظم أشعاره فى قوالب وموضوعات عربية ، وبؤكد من ترجموا له أنه كان يكتب العربية فى جمال نادر . وقد ألف رسالته المسماة « الحجة والدليل فى نصرة الدين الدليل » فى عربية بليغة ، ولدينا نسخة مخطوطة منها فى مكتبة أكسفورد ، وقد ترجمها إلى العبرية يهودا بن طيرون

(*) انظر :

MILLAS VALLICROSA, *La Poesia Sagrada Hebraicoespanola* (2a ed. Madrid-Barcelona, 1948) p. 96.

(**) نفس المرجع والمصنعة .

(†) BRODY, op. cit. nu. 41.

وقد ترجمت من الترجمة الإسبانية التى نشرها ملياس فاليكروسا فى الرجى الآنف الذكر ، ص ٢٦٠ ؛ وهو يخاطب الله فى هذه القطعة .

باسم « سيفرُ ها خُزَر » أى كتاب الخزر ، أو الكتاب الخزرى وإليه يشار بهذا الاسم الأخير فى كثير من المراجع ، وعن العبرية نقله يوهان بوكستورف Johannes Buxtorf إلى اللاتينية عام ١٦٦٠ ، وعنها نقله الحاخام يعقوب بن دانا R. Jacob Abendana إلى الإسبانية بعد ذلك بثلاث سنوات باسم « كوزارى Cuzary » . وفى سنة ١٨٨٦ — ١٨٨٧ نشر هارتويج هيرشفيلد فى لايبسيك النص العربى للكتاب مع الترجمة العبرية (*) ، وقد استند يهودا فى تأليفه إلى حادث تاريخى ، وهو اعتناق ملك الخزر لليهودية [بعد أن عُرض عليه الإسلام والنصرانية فلم يجد فيهما حاجته] ، ولهذا نراه يشيد بذكر دينه وينتصف له من الإهانات الكثيرة التى كان الناس يلحقونها به . وهذا الكتاب الأصيل يذكرنا « بكتاب الأحوال » Libro de los Estados للدون خوان مانويل ، إذ أن موضوعيهما متشابهان ؛ وفيه مشابه كذلك من أسطورة « برلّام ويوسافات » ، ولا بد أنه كان النموذج الذى احتذاه راييموندوس لوليوس فى تأليف كتابه المسمى « كتاب الكافر والعلماء الثلاثة » : Libro del gentil e los tres savis

وكان لمؤلفات الفارابى وابن سينا أثر ظاهر فى المؤلفات الفلسفية التى خلفها أبراهام بن داود الطليطلى (١١١٠/٥٠٣ — ١١٨٠/٥٧٥)^(١٦) ، الذى حاول أن يوفق بين كتب اليهود المقدسة وفلسفة أرسطو . [وقد كتب بلغة العرب كتبه التى لم يبق لنا منها إلا الترجمات الدبرية لبعضها ، وأهمها : إيمُوناه رماه (= العقيدة السامية) وسيفرُ ها تَبَّالَه (= كتاب المأثور) . أما « الزنج » الذى وضعه فقد ضاع]^(*) . وكان أبراهام بن عزرا بن مَيّر ، الذى يسى فى

(*) انظر :

Cuzary, Diálogo filosófico por YEHUDA HALEVI (siglo XII) traducido del árabe al hebreo por YEHUDA ABENIBBON, y del hebreo al Castellano por R. JACOB ABENDANA (Madrid, 1910) p. XII-XVII.

(*) ISAAC HUSIK, A History of Mediaeval Jewish Philosophy. (Philadelphia, 1946) pp. 197-198.

الكتابات العربية بأبي إسحاق إبراهيم بن الجيد (١٠٩٢/٤٨٤ - ٥٦٢/١١٦٧) ^(١٧) الفكر اليهودي القلق الجوّال ، يجيد أساليب الترسيل العربي . أما يهودا الجزيري بن شلومون (سليمان) ^(١٨) فقد أسخطه ما رأى من تفضيل أهل ملته لغة العرب على العبرية ، وحاول في كتاباته أن يثبت أن هذه الأخيرة لا تقل عن العربية ثروة وجمالاً ، فأقبل على مقامات الحريري وترجمها إلى العبرية ، وألف قصة ذات طابع مسرحي تسمى تَحْكِيمُونِي قَلَّدَ بِهَا أُسْلُوبُ « المَقَامَات » ونسج فيها على منوال « ابن سقييل » في كتابه الفكاهة الذي يحمل اسماً مشابهاً لاسم قصة الجزيري هذه ^(*) .

وفي أواخر القرن الثاني عشر نشط اليهود في نشر عدد كبير من مؤلفات العرب بين إخوانهم في الدين من أهل إسبانيا وجنوبي فرنسا . ومن أمثلة ذلك ما فعله أبراهام بن صمويل بن ليثي بن حَسْدَآي صاحب قصة « الأمير والدرويش » (بِنْ هَامِيْلِكْ وَهَاتَزِير ، وهي مقتبسة من أسطورة برلّام ووسافات) ، فقد ترجم إلى العبرية كتباً عربية كثيرة منها كتاب « ميزان العمل » للغزالي ، ترجمه بعنوان مَزْنِي صِدْق ، أي ميزان الصدق . وكذلك اجتهد مِشْلَمُ بن يعقوب من أهل لُونِل (بجنوبي فرنسا) في النهوض بحركة الترجمة من العربية إلى العبرية ، وحض أهل دينه من اليهود البروفتسين على الإقبال على العلوم . وكان من أثر جهوده أن تمت ترجمة الكثير مما ألّفه اليهود بالعربية إلى العبرية ، ككتاب « الهداية إلى فرائض القلوب » لبجيا ، وكتاب « إصلاح الأخلاق » و « مختار اللآلئ » لآلان جِبِرُول ، و « الكتاب الخزري » ليهودا بن ليثي ، ورسائل ابن

(*) هناك خلاف في الطريقة التي يكتب بها اسم هذه القصة في المراجع التي نعتد عليها في تقويم هذا النص ، فبالنثيا يكتبه Taquemoni ، وملياس قاليكروسا يكتبه Tahkemoni ومنتدز يلايو يكتبه Tachkemoni .

Cf: MENÉNDEZ Y PELAYO, *Estudios y discursos de crítica histórica y literaria* (Madrid, 1941) vol. I p. 206

J. MILLAS VALLICROSA, *La poesía sagrada hebraicoespanola*, p. 135.

STEINSCHNEIDER, *Die hebräische Uebersetzungen...*, p. 428.

جناح في النحو واللغة العبريين . وهذه الترجمات كلها صحيحة ولكنها مملّة ، وقد يحتل في بعضها سياق اللغة العبرية بسبب الإسراف في التزام حرفية الأصول العربية التي نُقلت .

ف ١٤٤ — موسى بن ميمون . المترجمون :

ويعتبر موسى بن عبيد الله بن ميمون القرطبي^(١٩) (٥٢٩/١١٣٥ — ٦٠٠/١٢٠٤) أمير مفكرى الأندلس . درس ابن ميمون في مدارس اليهود والعرب في قرطبة ، ومن بين شيوخه تلميذ من تلاميذ ابن باجه . وهو مدين — دون ريب — لما نشره العرب من فلسفة أرسطو بما يمتاز به من ذهن منطقي مرتّب ، وعقل قادر على تصنيف الموضوعات في نظام وعرضها في وضوح ، وتلك هي ميزته الكبرى . وقد ألف بالعربية كتابه المسمى « رسالة في الردة » ، وكان دافعه إلى تصنيفه ما لجأ إليه الموحدون من إرغام يهود سرا كش على اعتناق الإسلام ؛ وكتب بالعربية كذلك كتابه المسمى « السراج » وقد أتمه في القاهرة ، وهو شرح واضح منهجي دقيق « للشفا » ، وقد ظل هذا الكتاب خاملاً لم يلتفت إليه إلا القلائل مع ما له من الأهمية . وكتب بالعربية « رسالة العزاء » إلى يعقوب الفيومي وإلى جماعات اليهود في اليمن ، ممن اضطرم الفاطميون إلى دخول الإسلام عندما نزلوا تلك البلاد (٥٦٧/١١٧٢) . وبلغت العرب أيضاً ألف « كتاب الفرائض » يدفع به ما وُجه من النقد إلى كتابه « ثنية التوراة » ، أما أشهر كتبه « دلالة الحائرين » فقد كُتب في الأصل بالعربية ، ومعظم الآراء التي يحويها عربي ، وقد ترجم ذلك الكتاب إلى العبرية واللاتينية ولغات أوروبية أخرى كثيرة (من بينها الإسبانية ، ترجمه إليها بيدرو الطليطلى في القرن الخامس عشر) ؛ وهو يعتبر بحق جُماع ما في اليهودية من لاهوت وفلسفة ، وقد حاول ابن

ميمون أن يوفق فيه بين العقل والدين كما فعل ابن حزم وابن رشد قبله ، وكما سيفعل القديس توما الأكويني من بعده .

ولم يظهر بين اليهود بعد موسى بن ميمون مفكرون ذوو شأن ، وانصرف جل اهتمامهم إلى الترجمة ، وخاصة في قطلونية وپروفانس (جنوبي فرنسا) وكانت الثقافة العبرية قد تركزت فيهما ؛ وقد ترجم اليهود هناك المؤلفات العربية عن أصولها أو عن ترجماتها اللاتينية التي قام بها مترجمو طليطلة . ونستطيع أن نضيف إلى أسماء من ذكرنا من نقلة اليهود عدداً آخر عظيمًا من عمل في قطلونية وپروفانس ، ولكننا نكتفي بذكر بعضهم مثل يعقوب بن أبنا ماري صهر صمويل بن طيبون ، وكان أول من ترجم ابن رشد إلى العبرية ، ولونيوموس بن ماير ، وكالونيوموس بن تندرُس ، وليثي بن جرسون (١٢٨٨/٦٨٦ — ٧٤٤/١٣٤٤) ، وموسى الأربوني ، وغيرهم من حافظوا على أثر علوم العرب وفلسفتهم خلال العصر الوسيط الأول^(٢٠) .

الفصل الرابع عشر

أدب المستعجمين^(١) (*)

- ف ١٤٥ — مؤلفات ذات طابع تعريفي أو ديني .
ف ١٤٦ — الشعر الموريسكي : « قصيدة يوسف » . قصائد أخرى في مدح الرسول .
الشرطوسي . إبراهيم البُلُمَادي . خوان ألونزو . محمد رِبَمان .
رباعيات حاج (الهيثاني) بسوى مُنْتَمِنُونَ .
ف ١٤٧ — القصة الموريسكية : قصص ذات موضوعات دينية أو تاريخية أو خيالية .
قصص الفروسية .

(١) تَرجَمَ بهذا اللفظ اصطلاح Los Aljamiados ، والمراد به في مصطلح التاريخ الإسباني أولئك الذين يتكلمون « بالعجمية » Le Aljamía ، وهي التسمية التي أطلقها الأندلسيون على اللغة الغشائية ، ثم أطلقوا على من يتكلمها صفة « الخيادو » أي المستعجم . ويطلق الاسم عادة على أولئك المسلمين الذين ظلوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة وتكلموا الإسبانية ولكنهم استمروا في كتابتها بحروف عربية ، كما سيري الفاري^٢ فيما يلي . وقد قست هذا اللفظ على اصطلاح « مستعرب » .

ف ١٤٥ — مؤلفات ذات طابع تفرسي أو ديني :

كانت آخر صورة ظهر فيها أدب الأندلسيين المسلمين هي آثارهم التي كتبوها باللغة الإسبانية مستعملين في كتابتها الحروف العربية (التي تسمى في المصطلح الإسباني الخَمِيَادِيَّة أي المستعجمية ، وهو تحريف إسباني للفظ الأعجمية ، فقل : أَلَاخَمِيَّة ، ثم أَلَاخَامِيَّة ، أَلْخَامِيَّة aljamia) ؛ وهو أمر يدل على حالة الرعب التي كان الموريسكيون (*) (٢) — أصحاب هذه الكتابات — يعيشون في ظلها بعد سقوط غرناطة في يد النصارى ، وخاصة عندما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنصر بتمقيهم « ديوان التحقيق » (٣) . وقد انقطعت انقطاعاً يكاد يكون تاماً الأسباب بين معارفهم الضئيلة عن علوم الإسلام وما كان لأجدادهم الأجداد من تقاليد علمية رفيعة ، ولكنهم لم يتخلوا قط عن أحرف الهجاء العربية ، واستمروا يكتبون بها ما لديهم من المعارف للحفاظ على عقيدتهم من ناحية ، ولتعمية مُتَبَقِّيَّيهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى . ومن الطبيعي أن نجد موضوعات هذه الكتابات المستعجمية وروحها إسلامية خالصة ، ولم تتوصل إلى الكشف عن سرها وحل رموزها إلا في القرن التاسع عشر .

(*) الموريسكيون Los Moriscos اسم يطلق على جميع من بقى في الأندلس من المسلمين بعد سقوط غرناطة في أيدي فرناندو وإيزابيلا في ٢ يناير سنة ١٤٩٢ . وهو صفة من لفظ Moro الذي يطلق في بعض النصوص الإسبانية على حرب إسبانيا أو مسلميها ، أو مسلمي الأندلس والغرب ، أو على المسلمين عامة . وأصل هذا اللفظ الأخير لا تيني : Maurus ، Mauri وهم عند اللاتين سكان جبال الغرب ، وبهم سمي الإقليم موريتانيا Mauretania الذي يحرره العرب إلى مَرُطَانِيَّة . ويمكننا على هذا تعريب لفظ Morisco بلفظ المشرَّب أو العارب ، ولكنني رأيت أن أستعمل الاصطلاح الإسباني في الترجمة العربية ، لأنه أصبح مصطلحاً مقبولاً في كل اللغات ، ثم إنه في الواقع أدل على أولئك المسلمين من أي لفظ آخر ؛ وجدير بالذكر أن اللفظ يستعمل اسماً وصفة ، على الرغم من أنه صفة .

[والاسم الكامل لكتاب ابن جابر هذا كما ورد في نسخته المستعجمة هو :
«الْكِتَابُ شَجْبِيْنُ، بِرِيزَى سَيِّ، مُرْزِيلَ دِ اُسْ بِرِشْبِلِشْ مَنَدَمِيْنُشْ
إِدَدَمِيْنُشْ دِ نُوْشْتَرِ شَنْتَ لِيْ اِسْنِ»، وهو يفهم إذا نحن رسمناه بحروف
لاتينية هكذا :

أى : الكتاب الشَّعْوِيّ . مختصر سني ، تذكرة في أم وأساس وواجبات ديننا المقدس وسنتنا . وقد نشره إدوارد وسافدرا بحروف لاتينية وعلق عليه في :

وقائمة الكتاب عربية الروح والسياق ، رغم أنها باللغة القشتالية . وإليك قطعة منها
نشرها بنصفها كما وردت في الأصل ، ونرسمها بحروف لاتينية تسهّل لقراءتها :

“En el nombre de un solo Criador, sin comienço, ni medio, ni fin, que crió el mundo de nada, y por la su alta providencia

embrió sus profetas de grado : en fin de los cuales embrió el su escogido, bien todo seguida la palabra aventurado profeta Muhammad, al fin que fuemos criados.

Dixo el onrrado sabidor, mofti ; y alfakí del aljama de los moros de la noble y leal ciudad de Segovia Don Iça Jedih (Gebia) : compendiosas causas me movieron a interpretar la divinal gracia del Alcoran de lengua arabiga en alchamía sobre que algunos cardenales (mozarabes) me escribieron que lo teníamos encogido y escondido como cosa no ossada placear, porque no sin grande causa desamparé mi nación para las partes de Levante : por la cual causa me puse a sacarlo en esta lengua castellana, animado de aquella alta autoridad que nos manda y dize que toda criatura que alguna cossa supiere de la Ley lo debe amostrar a todas las criaturas del mundo en lenguaje que lo entiendan, si es posible ; y esto por evitar las dudas y dificultades en contrario puestas. Plegue a la inmensa piedad de Allah darme gracia con su ayuda, como teniendo el Atafcir del Alcoran delante, lo haga y que sea guía a loş que del arabigo son ygnorantes, así a los propios como a los estranos ; y para mayor declaración haré un traslado de los articulos que ay en nuestro onrrado Alcoran y otras sumas de las sus sentencias, fines y hechos mas importantes debajo de cuya guía y governacion tantos y tan grandes principes y reyes y tan ynnumerables gentios biven en libertad y franqueza en las tierras de Promision y Casas santas de Maca y en otras diversas partes del mundo donde se mantiene verdad y justicia.."

ولم أر حم هذه القطعة لأن معناها ظاهر ، ولأن أسلوبها ليس قشتالياً صحيحاً وإنما يضم تعبيرات تعسر على الترجمة الدقيقة الحرفية .

والكتاب يقع في فصول كثيرة عن الإيمان وما هو ، وما ينبغى على المسلم الاعتقاد به ليصح دينه ، والوضوء والطهارة والماء الطاهر وغير الطاهر ، والنيم والصلاة ومواقيتها . وهو يصف طريقة الصلاة ويذكر ما ينبغى أن ينطق به الإنسان في كل حركة من حركاتها . وهو يكتب المصطلحات بالعربية ويرسمها بحروف لاتينية محرفة ولكنها تدلنا على الطريقة التي كان مسدو الأندلس ينطقون بها العربية ، مثال ذلك :

Allah ua aqbar (الله أكبر)

çubhana rabb! ilhadim (سبحان ربى العظيم)

çemi allahu ilmen hamidehu (سمع الله لمن حمده)

Allahume rabbane qual col hamdu (اللهم ربنا ولاك الحمد)

وهو يستعمل مصطلح العبادات الإسلامية فى صورة قشتالية ، فيقول مثلاً :
arraquear أى الركوع ، مستعملاً لفظة arraqua (الركعة) فى صورة يفعل
مضيفاً إليها النهاية -ar . ويقول : anefiles أى النوافل ، جامعاً لفظة نافلة جمعاً
قشتالياً ؛ وكذلك adaheas أى الأضحية ، وما إلى ذلك .

وهو يذكر فى فاتحة الكتاب أنه ألفه استجابة لطلب رجل تونسى يُسمى
سينى بولجايز Cili Bulgaiz (سيدى أبوالجيش ، أبو القيس ، أبو الغازى ؟) [٥] .
ووجدنا كذلك كتاباً ينسب إلى رجل يستقر تحت اسم «مَنْثَبُ دِ أَرِبَلْ»
(Mancebo de Arébalو أى رفيق أريقالو) يسمى «التفسير» أو «التفسير»
نلمح فيه أثر آراء الغزالي .

[والمؤلف يبدأ كتابه بذكر ما دفعه إلى تأليفه ، ويحكي كيف اجتمع
بنفر من المسلمين فيهم سبعة من العلماء ، وتذاكروا سوء حال المسلمين ، ثم تحدثوا
فى أمور الدين ، فطلب إليه الناس أن يؤلف لهم فى الدين كتاباً ، فكان هذا
الكتاب . وإليك فقرة من فاتحة الكتاب نقلها كما هى فى المخطوط ونترجمها
إلى العربية :

١ — « إِرَ أَنْ دِيَا دِلْشَن شَيْتِ دِلْ أَنْيُ » — "Era un día de lox siete del ano"

٢ — بِنْتِنْكُونُ دِدْلَقَمْدَه ، فُوِيرُنُ } بنتينكوين ددلقمده ، فويرن
Fueron ajuntadox } أُنْتَبَدَشْ

٣ — إِنْ تَرَجَتْ أَنْ كُنْتِنِي دَانَرْدُشْ } إن ترجت أن كنتني داندش
onrradox muçlimex, } مُنْطَلِشْ

- 4 — adonde xe hallaron máx de beinte muçlímex { ٤ — أَدُنْدِ شَالِيرُنْ مَشْ دِ بَيْتِ مُنْطِشْ }
- 5 — y entre ellox xiete alímex doctox { ٥ — إِنْتَرِ الْإِشْ شَيْتِ أَلِمِشْ دُ كُتْشْ }
- 6 — y fadeladox; y despues del adohar { ٦ — إِفْدِلْدُشْ إِدِيبُوشْ دِلْ أَدَهَرْ }
- 7 — començaron a tratar de nuextrox duelox { ٧ — كُيْمَنْتَرُنْ أُنْتَرْتَرْ دِنُوشْتَرُشْ ذُوْلُشْ }
- 8 — y cada uno dixo xu arenga; y entre { ٨ — إِكْدُونُ دِشْ شُ أَرَنْجْ ، إِنْتَرِ }
- 9 — muchax coxax no faltó quien dixo cómo { ٩ — مُتَشَشْ كُشْشْ نُفَلْتْ كَيْنِ دِشْ كُمْ }
- 10 — era grande nuextra pérdida y de cuán poca { ١٠ — إِرْجَرَنْدِ نُوْشْتَرِ بَرْدِدْ إِدِ كُونْ مُكْ }
- 11 — exençia era nuestra obra; y dixo otro { ١١ — إِنْشِيَا إِرْ نُوْشْتَرِ أَبَرْ ، إِدِشْ أُنْتَرُ }
- 12 — alím que lox trabajox qué teníamox, y los { ١٢ — أَلِمِ كُشْشْ تَرَبْخُسْ كِتَيْمِشْ ، إِلْشْ }
- 13 — que de cada dia xe nox apare- { ١٣ — كِدِ كِدْدِي شِشْ أَبَرِ خَبْنْ ، كِدْدُ }
jaban, que todo xería شیری
- 14 — para máx meritança; y repug- { ١٤ — پَرَمَشْ مِرْتَنْبَا ، إِرْپُجَرُنْ }
naron
- 15 — xu dicho, diçiendo que lox { ١٥ — شُدِشْ دِئِنْدُ كُشْشْ تَرَبْخُسْ }
trabajox
- 16 — no cunplían para ningún { ١٦ — نُكَنْبَلِينَ پَرِ نَنْجَنْ مِشْكَبْ }
menoxcabo de la obra دِلَا بُرْ
- 17 — preçetada (preceptuada) y que { ١٧ — پَرِئْتَدَ إِكْفَلْتَنْدُ لِمْدَلْ پَرِ نَبْأَلْ }
faltando la médula prinçipal, کِلِشْ
que ex
- 18 — el llamamiento para la açalá, { ١٨ — أَلَّيْمِئْتُ پَرِ لَا تَلَا كِ لَا بُرْ }
que la obra no podía xer نَبْدِيَا شِرْ
- 19 — grata." { ١٩ — جَرَانَا ... }

وترجمتها سطرًا بسطر :

- ١ — في يوم من الأيام السبعة السنوية
- ٢ — الخامس والعشرين من ذي القعدة ، اجتمع
- ٣ — في سرقسطة جمع من أشرف المسلمين
- ٤ — حيث وجد أكثر من عشرين مسلم
- ٥ — وكان بينهم سبعة علماء راسخون في العلم
- ٦ — وفاضون ، وبعد الظهر
- ٧ — أخذوا يبالغون آلامًا ،
- ٨ — وقال كل واحد منهم كلامه . ومن بين
- ٩ — أشياء كثيرة [تكلموا فيها] لم يخل [الأمر] من واحد قال : « كيف
- ١٠ — كانت خسارتنا كبيرة ، وما أقل
- ١١ — جدوى عملنا ! » وقال .
- ١٢ — عالم : « إن كل الأعمال التي بين أيدينا والأعمال
- ١٣ — التي تشغلنا كل يوم ، إن كل هذه ستكون
- ١٤ — عظمية الأجر » ، فأثفوا من
- ١٥ — قوله فائلين : « ن الأشغال [اليومية]
- ١٦ — لا تأثير لها على العمل [الذي]
- ١٧ — للفروض ، وإنه إذا انعدم الشيء الأساسي — وهو
- ١٨ — استجابة الداعي للصلاة — لا يمكن أن يكون العمل
- ١٩ — مقبولا »

ثم يذكر المؤلف كيف استمر هذا الحديث ، وكيف أن المجتمعين عندما علموا بأنه ذاهب للحج أكرموه ، وتبرع واحد منهم — هو الدون مَنْرِيك دِ شِجُويَا (= شقوية ، Manrique de Segovia) — بعشرة دوبرلات مورييسكية وكذلك تبرع له الآخرون ، وطلبوا أن يصلى بهم ، فأقام الخطبة وصلى بهم . ثم طلبوا إليه أن يكتب لهم تفسيراً للقرآن مختصراً وواضحاً ما أمكن ، فألف لهم هذه « التفسير » أو « الفسرة » . ثم يلي ذلك الكتاب في فصول كثيرة قصيرة عن الدين والإيمان والقرآن والصلاة والخير وكلام عن الأنبياء والصالحين والزهاد . وهو يسند بعض كلامه إلى نفر من علماء الإسلام يكتب أسماءهم في صيغ قشتالية مثل : أَبْدَرْدَايْ (= أبو الدرداء) وكتَادَا (= قتادة)

وكعب الحبار (= كعب الأحبار) وإبسان (ابن سينا) وإبان رويس (ابن رشد) وما إلى ذلك ... (*) .

وهناك كتاب آخر نجهل اسم مؤلفه ، ولكننا نستدل من كتابه على أنه كان ممن لجأ إلى تونس ، واسم كتابه « دِلَاكْرِيفْتِيَا إِلَاك دِب سَبِرْ إِلَهْمُومِيَانُو إِنْشَرَشْ كُشْشْ كُرْشْشْ »^(٦) De la creencia y lo que debe xaber el Mahometano y otrax coxax curioxax أي « كتاب في العقيدة وما ينبغي على المسلم أن يعرفه وأشياء أخرى غريبة » ، وهو يتحدث فيه عن الأخلاق والطقوس الدينية حديثاً مرسلًا على النحو الذي نجده في كتب الأدب ، ويختلط بذلك كله شيء شبيه بقصة عنوانها El arrepentamiento del desdichado (= توبة البائس) ، وقد قال عنها الأستاذ أوليفر آسين إننا نجد فيها « ثقافة وذوقاً أدبياً وأصولاً إسبانية خالصة أخذت عنها » ، وقد وجد نفس الأستاذ في كتابة هذا الموريسكي آثاراً لكتابات لوب ديفيجا Lope de Vega الأديب الإسباني المعروف . ومن كتاب الموريسكيين الذين لا تخلو آثارهم من طرفة خوان بيريث Juan Pérez — ويسمى أيضاً إبراهيم تيبيلي Ibrahim Taibilli — الذي نظم قصيدة ينقض فيها النصرانية ويساجل أصحابها .

ولا نعلم بين هذه الكتب ترجمات لكتب مشرقية ، كما نجد في رسالة الفقه المالكي السماة « كتاب التفریع » (أَلَكِتَب دِلَا تَفْرِیة Alquiteb de la Tafria) لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري المالكي ، ولدينا منه نسخة أخرى مكتوبة بحروف لاتينية^(*) .

(*) J. RIBERA y M. ASIN, *Manuscritos Arabes y Aljamiados de la Biblioteca de la Junta* (Madrid, 1912) pp 217 - 228

(*) هذا الكتاب ترجمة قشتالية لكتاب « التفریع في الفقه » لابن جلاب البصري المشار إليه ، قام بها مترجم لم يذكر اسمه ، وكتب هذا النص القشتالي بحروف عربية نسخ قال بالمرية في نهاية الكتاب : كل التفریع لابن جلاب ... يوم الاثنين الثمانية يوما من =

ولن نقف طويلاً عند كتب الموريسكيين التي تدور حول موضوعات الدين والقراءات والعبادات والمواعظ وصنيع الطلاسم وما إليها ، إذ أن قيمتها الأدبية ضئيلة ، وهذا لا يمنع من القول بأنها على أعظم جانب من الأهمية في تعرف أحوال المجتمع الموريسكى ؛ ولكتنا سلم بذكر بعض منظومات الموريسكيين .

ف ١٤٦ — الشعر الموريسكى :

كتبت « قصيدة يوسف » في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلاديين ، وهي تسمى عادة في كتب الأدب El Poema de José ولكن عنوانها الحقيقي كما كتبه صاحبها هو « حديث يوسف » El-Alhadits de José . وهي منظومة في مقطعات من البحر القشتالي القديم المعروف بالكوادرنو *Cuaderno Via* ، وهي قصائد تنظم كل أربعة أبيات منها على قافية واحدة ، وصاحبها موريسكى من أهل أرغون فجهل اسمه ، وقد استدللنا على أنه من هذه الناحية بخضائص الالهجة القشتالية التي يستعملها . والقصيدة تقص علينا قصة سيدنا يوسف بن يعقوب كما تروى في « سورة يوسف » من القرآن الكريم ، مختلطة بالكثير من الأساطير الإسلامية التي تنسب إلى كتب الأخبار خاصة ، وهي أساطير مستقاة من الإسرائيليات ^(٧) .

[وفيما يلي قطعتان من هذه القصيدة في لغتها القشتالية تعطى القارئ فكرة عن قالبها ونظمها بحروف لاتينية لتيسير قراءتها] :

"Reutaban à Zalija las duennas del lugar
Porque con su cativo queria voltariar;
Ella de que lo supo arte las fué á buscar
Convidolas á todas é llevolas a yantar

شهر آرس موافق في سبع وعشرين من الهلال ربيع الأول عام ثلاثة وتسعين وتسماية على يد المعروف بقصيره عن شكر ربه يسي (٩) أشقر بن ... ؛ وقد تركت ألفاظه على حالها . ولا زال لدينا لسختان من الأصل العربي لهذا الكتاب . انظر : بروكلان ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٧٧ . وهو كتاب في الفقه على مذهب مالك .

Cf : J. RIBERA y M. ASIN, op. cit. pp. 131-132.

Diólas ricos comeres é vinos esmerados,
 Que iban hí todas agodas de dictados :
 Diólas sendas toronjas é canniuete en las manos
 Tajantes é apuestos é muy bien temperados

وها هي ترجمتها مع فقرات أخرى من القصيدة تظهر فيها متابعة الشاعر للجانب
 القصصى من السورة القرآنية :

ولامت نساء الناحية زليخة
 لأنها أرادت أن تلهو مع أسيرها
 ولما علمت هي بذلك سعت
 إلى أن تدعوهم كلهم إلى الطعام

وقدمت إليهن أطعمة طيبة وخمرا منتقى
 وذهبن جميعا إلى هنالك ليستمتعن بهذه الأشياء
 وأعطت لكل منهن برتقالة وسكينا
 قاطعا ومُعَدًّا ومسنونا سفا طيبا

وذهبت زليخة إلى الموضع الذى كان فيه يوسف
 وهياته على أجهل صورة بملابس أرجوانية من الحرير
 وزينته زينة بالغة بالجواهر
 وأرسلته إلى النساء ، سوط إغذاب فى يدها

فلما رأيته طار صوابهن
 إذ أنه بلغ من الجمال وحسن الهيئة . .
 بحيث ظننه ملاكا ، ومسمن الجنون
 وقطعن أيديهن دون أن ينتبهن

وسال الدم على البرتقال . .
 فلما رأت زليخة ذلك سُرَّتْ سرورا عظيما

وقالت لمن : « أيتها الجنونات ، ماذا أنتن صانعات دون أن تدرين ؟
إن الدم يسيل على أيديكن ! »

فلما رأين الدم أحسن بمدى جنونهن
وقالت لمن زليخة : « أنتن أصابكن الجنون دون أن تدرين
وصرتن إلى هذه الحال من نظرة واحدة
فكيف بحالى وقد طال الوقت بى ؟ »

وقالت النساء : « لا لوم لنا عليك . .
ولقد أخطأنا فيما ظنناه بك
وسنعمل على أن نجعله فى يديك بأسرع ما يُستطاع
حتى يتم بينكما الوصال . . . » (*)

والغالب كذلك أن رباعيات المدحة النبوية المسماة « المدحة دِ الْبَنْتَةِ أَلْ
أَلَنَّبِي محمد Almadha de alabandça al annabi Mohammad (= مدحة
مديح النبي محمد) ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وقد نشرها مُلَرٌ وهى مصوغة فى
قالب الزجل ، وقد وردت الخرجة فيها مكتوبة بحروف عربية ، وإليك غصنين منها :

Senor, fes tu aççala sobre'el,
y fesnos amar con él,
sacanox en su tropel,
jus la sena de Mohammad.

يا حبيبي يا محمد ، والصلاة على محمد

Quien quiere buena ventura,
y alcanzar grada de altura,
porponga en la noche oscura,
l'aççala sobre Mohammad.

يا حبيبي يا محمد ، والصلاة على محمد

(*) F. GUILLEN ROBLES, *Leyendas de José y de Alejandro el Magno*
(Zaragoza, 1888) p. XXVI.

وترجمتها:

يا ربنا ، صَلِّ عليه
واشملنا بحبك معه
وأخرجنا في جماعته
في رحاب محمد
يا حبيبي يا محمد ، والصلاة على محمد

وَمَنْ يُرِدْ حَسْنَ الْمَالِ
وَبُلُوغَ الْمَقَامِ الْعَالِي
فَلْيَكْثُرْ فِي ظِلَامِ اللَّيَالِي
مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ
يا حبيبي يا محمد ، والصلاة على محمد^(٨) .

وإلى ذلك المصر كذلك ترجع « قصيدة مديح محمد » Poema de alabanza de Mohammad التي نشرها جايانجوس (وترجمها تيكنور) وهي في شعر أوروبي
أَلِكْسَنْدِرِينِي ، ومطلعها يذكّرنا بمطلع « قصيدة يوسف » وهو :

Los loores son ad allah, el alto, el verdadero,
onrado y cumplido, señor muy derecho
sennor de todo; uno solo y senero,
franco, poderoso, ordenador certero.

وترجمتها:

الحمد لله المتعال الحق
ذو الإجلال والكمال وهو رب عادل
رب كل شيء ، واحد أحد وذو سيادة
صريح قوى صاحب الأمر ، لا شك فيه^(٩) .

ويمكننا أن نذكر من أهل القرنين الرابع عشر والخامس عشر محمد الشريطوسى
 Malionat al-Xartosi طبيب أمير البحر ذِيْجُو أورتادُو دِيْ مِدُوْرَا Diego
 Hurtado de Mendoza ، وكان ينظم أغاني « بارعة جدا ذات ألفاظ بالغة
 الجمال » يتعرض فيها لموضوعات عسيرة تتعلق بالقدر والاختيار بحسب ما يقول
 صاحب « ديوان يتيانه » El cancionero de Baena .

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد شعراء الموريسكيين
 يستخدمون بحور الشعر الإسباني بمهارة ، وكانوا يستخدمونها بوجه خاص في نشر
 أصول عقيدتهم بين جمهور الناس ، ومنهم إبراهيم البُلْفَادِي Ibrahim de Bolafad
 الذي كتب رسالة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وقد عثرنا على شرح عليها عنوانه :

Comentación sobre un tratado que compuso Ibrahim de
 Bolfad, becino de Argel, ciego de la vista corporal y alumbrado
 de la del corazón y entendimiento

(شرح على الرسالة التي ألفها إبراهيم البُلْفَادِي نزيل الجزائر ، وهو أعمى البصر
 منير القلب والذهن) (*) . وقد نظم البُلْفَادِي نخسة يشرح فيها عقيدة الإسلام ،
 وإليك فصنين منها يدوران حول وجود الله :

y el testimonio de aber
 Senor Dios forçosamente
 es lo criado; y tener
 color, tiempo, y falleçer;
 como el bibir de la jente.

Pues ya en lo criado bemos
 no ay obras sin causador
 de donde claro entendemos
 que aqueste ser que tenemos
 sin duda tiene obrador.

(*) JAIME OLIVER ASIN, *Un morisco de Tunes*.

وترجمتها:

والدليل على وجود
ربِّه إله بالضرورة
هى الخلقوات نفسها ، وأنا نجد
اللون والزمن واللوت
كما نرى الناس يحميون

وحيث أننا نرى فى عالم الخلقوات
أنه لا فعل بدون فاعل
فن هذا نفهم بوضوح
أن هذا الكيان الذى نراه
له من غير شك صانع

[وفى التعليق الذى وضعه صاحب هذه المنظومة على قصيدته ، يذكر كيف
كان يتخلل الصلاة تمثيل قطعة مسرحية تدور حول معجزات محمد (صلعم)
يتعرض الشاعر والممثلون لشيء غير يسير من الخطر أثناء تمثيلها] (*) (١٠) .

وكان المورييسكيون يصوغون أشعارهم فى قوالب شعر الأغانى الإسبانية
المعروفة بالرومانس (los Romances) التى كانت شائعة فى ذلك العصر ، ومن
ذلك ما فعله المعلم خوان ألفونسو الذى هاجر إلى تيطوان لسكى يمارس شعائر
الإسلام من غير حرج ، وهناك كتب قصيدة يحمل فيها على النصرانية حملة شعواء
يتجلى فيها ما كان لديه من ثقافة كلاسيكية . وإليك فقرة يحمل فيها على النصارى :

(*) رافع المؤلف هذه الفقرة من الطبعة الثانية من كتابه للاختصار ، فأثبتها هنا لما
فيها من الفائدة .

cuerbo maldito espanol,
pestifero canzerbero, (*)
que estas con tus tres cabezas
a la puerta del infierno

وترجمتها :

أيها الغراب الإسباني للعوث
يا ناشر الوباء ، أيها السجان البغيض
ها أنت واقف برؤوسك الثلاثة
على أبواب الجحيم . .

ومن أجل شعراء الموريسكيين شأنا محمد رَ بَضَان وأصله من روطنة
(Rueda del jalón) . وقد وضع في سنة ١٦٠٣ في شعر إسباني « تاريخ نسب
محمد » (صلم) Historia Genealógica de Mahoma ضمّنه ما ورد في
كتاب للحسن البصرى عن النسب النبوى ، ونظم كذلك « قصة فزع يوم
الحساب » Historia del espanto del día del juicio ، و « أنشودة
شهور السنة » Canto de las lunas del año ، و « قصيدة أسماء الله »
Los nombres de Allah ، وسنورد من شعره هنا بعض أبيات من « تاريخ
نسب محمد » يصف فيها عزرائيل ملك الموت عندما بعثه الله لينذر إبراهيم الخليل :

yo soy quien mi nombre temen — cuantos memoran mi nombre,
desde la mas baxa tierra — hasta las mas altas torres
yo soy el que nadi esenta — de mis amaragas pasiones;
a todos los hago iguales — a los grandes y menores,
desde el labrador mas baxo — al emperador mas noble
y desde el mas alto rey — a los mas baxos pastores
yo soy la sola atalaya — que a mi vista no se asconde
criatura que alma tenga — ni cosa que vida goce;
el que las copiasas huestes — acaba, deshace y rompe;
y el que los cuerpos despoja — de sus amados arrohes

(*) Canzerbero هو بواب الجحيم ، وتصوره الأساطير في صورة كلب ذى ثلاث رؤوس ،
وهي صورة مقتبسة من الأساطير الإغريقية القديمة .

No quiero tregua con nadi — jamás escucho razones;
 de ninguno soy amigo — a todos trato de un orden.
 Azaragel me apellidan — *malac almauti* es mi nombre
 quien nuncà temió, y le temen — todas las generaciones.

وترجمتها :

أنا الذى تخشون اسمى — عند ما تذكرون اسمى
 من أسفل الأرضين — إلى أعلى الأبراج
 أنا الذى لا يفلت أحد — من رغبتى المريرة
 إننى أجعل الجميع سواء — الكبار منهم والصغار
 من أوضع العمال — إلى أنبل الأباطرة
 ومن أرفع الملوك — إلى أبسط الرعاة
 أنا الطليعة الوحيدة — الذى لا يغيب عن بصرى
 مخلوق فى بدنه روح — أو شئ ينعم بحياة
 أنا الذى أنزل بالجيشو الجرامة — الفناء والتشتيت والانكسار
 أنا الذى أجرد الأجساد — من أرواحها العزيزة

 لست أريد أن أهادن أحدا — ولا أصنى أبداً لكلام
 ولست صديقاً لأحد — أعامل الكل بناء على نظام
 عزرائيل يسموننى — ملك الموت اسمى
 أنا الذى لم أعرف الخوف قط — جيلاً بعد جيل^(١١)

ومن بين أولئك الشعراء الموريكيين من كان يجيد الذلم فى محور الشعر
 الإيطالية ، التى شاعت فى إسبانيا فى ذلك الحين وصب على قوالها شعراء الإسبان
 عامة . وإليك قطعة من أغنية soneto نظمها شاعر موريكى حول موضوع طرد
 الإسبان لقومه الموريكيين من البلاد :

Dios que a los suyos padeciendo mira
muerte en la vida y en el cuerpo infierno
por pecados de padres sin gobierno,
o por la causa que a su globo admira
alça la ardiente espada de su yra ;

وترجمتها:

يارب يا من ترى ما يعانيه عبادك
وم أموات في قيد الحياة وأجسادهم تنلغى
يتمذنون بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون بغير وازع
أو لأنك تنظر إلى خلقك في رضى
ارفع حربى غضبك الحامية

أما الكتاب البالغ الغرابة المسمى « ربايات حاج پوى مُنثون »
Las Coplas del Al Hichante de Puey Monçon فيضم وصف رحلة إلى
مكة قام بها صاحبها في القرن السادس عشر ونظمها في شعر قشتالى سهل بسيط
يتكون من مقطعات coplas كل مقطعة منها ثمانية أبيات . وپوى منثون من قرية
على حدود قطلونية^(١٢) .

[ورحلة حاج پوى منثون رحلة حقيقية قام بها صاحبها من بلده إلى بلنسية ،
ومنها ركب البحر إلى تونس ، ثم زار مصر ووصف الأراضى المقدسة حيث زار
مكة والمدينة ، ووصف ذلك كله في شعر بسيط سهل يفيض حماسا وخيالا شاعريا
وقد وُجد نصها الإسپانى مكتوبا بحروف عربية عسيرة القراءة . وقد تمكن من
فك رموزها ونشرها بحروف لاتينية مَرَيَانُودى پانو إى رواتا Mariano de Pano
y Ruata ، وإليك فقرة منها بحروفها العربية نتبعها بنصها بالحروف اللاتينية مع
فقرة أخرى وترجمتها ؛ وهو يصف فيها أهوال يوم الحشر :

إِمْشَن كَا أَلِيَّيْ إِشْتَهَ الْبَلْ آدُنْدَاشَا
غِنْ لَاءَ امُشَن كَا أَلِيَّيْ تَدُشَن كُنْ

عَرَنَ مَلَّ جُنْتَ مَا نِعَانْشُ
 بَارَامْشُ دُنْدَا تَدُشْ لَرَا
 مَشْشُ نُوَاشْتَرَشْ فَلَنْشْ
 إِءَارْ رَاشْ لَشْ كَا اللَّهُ نُشَارْ
 بِرَامْشْ كَاهَرَامْشْ بَا قَدَرَامْشْ

LXXVII.

Y más que allí esta el val
 A donde, según leemos,
 Qu' allí todos con gran mal
 Juntamente nos veremos;
 Donde todos lloraremos
 Nuestras faltas y errores,
 Los que Alá no serviremos,
 Qué haremos pecadores.

LXXVIII.

Allí hombres y mujeres
 Todos seremos juntados,
 De las obras que haremos
 Muy bien seremos pagados,
 No nadi perjudicamos;
 Sino por justa razón
 Según haremos las obras
 Así habremos el galardón.

وترجمتها:

ثم إنه هناك يوجد الوادى
 حيث ، بحسب ما نقرأ فى الكتب ،
 سنكون هناك جميعاً فى ضيق عظيم
 وسيرى بعضنا بعضاً متجاورين
 وهناك سنبكى جميعاً

ذنوبنا وأخطائنا
ونحن الذين لم نعلم بواجب الله
ماذا نفعل نحن الخاطئين ؟

هناك ، رجالا ونساء
سنحشر معا جميعا
وعن الأعمال [الصالحة] التي عملناها
سنجزى جزاء طيبا
ولن ينال أحد عقابا
إلا بحساب عادل
وعلى قدر أعمالنا سيكون الجزاء (*) .

ف ١٤٧ — الفصح الموريسكية :

والموريسكيين أدب قصصى ، وهو أعظم قيمة من شعرهم من الناحية الأدبية، وأساطيرهم وقصصهم تعرض علينا في لغة قشتالية روايات ذات أصل عربي في الغالب . وهي حكايات تتخللها وتزيدها طلاوة من حين لآخر مشاهد من حياة عيسى وموسى ويعقوب عليهم السلام ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وصحابه بوجه خاص ، وهي تنقسم جميعها بسمة ظاهرة : هي توارد أحاديث العجائب في ثناياها ، ونذكر مما يدور حول موسى من هذا القصص الحكاية المسماة « حديث موسى مع يعقوب الجزار » : El Alhadiz de Musa con Jacob el carnicero ، ونحن نلاحظ تشابها واضحا بينها وبين قصة « المالك لادم ثقته في الله » : El Condenado por desconfiado للكاتب الإسباني تيرسو دي مولينا

(*) MARIANO DE PANO y RUATA, *Las Coplas del Peregrino de Puy Monçon* (Colección de Estudios Arabes, vol I) Zaragoza 1897, pp. 227-228.

Tirso de Molina^(١٣) . وجدير بالذكر من هذه الأساطير ما يتصل بطفولة عيسى عليه السلام إذ هو مستقى مما في الأناجيل الزائفة ، ومثال ذلك الأسطورة المسماة « حديث المججمة التي صر بها عيسى » Alhadit de la calabera que encontró Aïça إذ هي تضم وصفاً للجحيم .

وعندما تعرض هذه الأساطير لحياة محمد صلى الله عليه وسلم تقص علينا سلسلة الحكايات الخاصة بمولده وشبابه ومغازيه ، وأخبار نقر من صحابته الأولين ، وعلى أن أبى طالب بخاصة ، ومثال ذلك « حديث قصر الذهب وقصة الثعبان » Alhadiz del alcázar de oro y la estoria de la culebra ، و « حديث على مع الأربعين فتاة » Alhadiz de Ali con las cuarenta doncellas ، و « حديث نعيم المختطف من دينه » وهي قصة تدور حول تميم الدارى (ولهذا تسمى فى بعض الأحيان el Recontamiento de Temim Addar) ، وهي تصف اختطاف الجن له ونقلهم إياه إلى مساكنهم ، وتقص كيف عاد بعد ذلك إلى الدنيا . ويقول عنها منفذذ إى بلايو « إنها قصة يشترك فيها الجن — صالحين وغير صالحين — وتصف لنا رحلات عجبية فى البر والبحر وفى بلاد مجهولة ، ومن ثم فإننا نجد هذه الرحلات تدور فى عالم بين الحقيقة والأحلام وما يتخلل ذلك من رؤى صوفية يراها بطل القصة فى نومه ، ذلك كله يجعل من هذه السياحات مجموعاً هو أقرب إلى الغرابة منه إلى الخيال ، ولكنه — آخر الأمر — غنى من ناحية الابتكار » (*) ، مما يذكرنا بأقاصيص ألف ليلة وليلة .

وموضوع إحدى قصص هذه المجموعة من الحكايات التى نناقشها الموريسكيون هو « حكاية مدينة النحاس والتمايم » :

la Estoria de la ciudad de Alatón y de los alcáncamos

(*) MENÉNDEZ PELAYO, *Orígenes de la Novela* (Madrid, 1953)

نرى فيها سليمان عليه السلام يحبس الشياطين ، وهي حكاية تشبه الأساطير التي نسجت حول فتح العرب للأندلس كما كان المصريون والشاميون يروونها . ولا تخلو هذه الأناصيص من أساطير أخرى ، تدور حول الملك سليمان « الذي ينسب إليه الشرقيون العلم بأشياء لا تحصى ، علاوة على ما تصفه به الكتب المقدسة من قوى خارقة ، منها ملك زمام الريح ، فسكان يستطيع الانتقال على جناحها من مكان إلى مكان في لمح البصر ، ومنها إدراكه لغة الطير ومهمة الحشرات وصياح الوحوش ، وقدرته على الإبصار على مسافات منافية ، وطاعة الوحوش له وإتيان النور إليه خافضة جناح الطاعة ، وتحت يده خزائن لا تنفذ ، ويتختم بخاتم يعرف بواسطته كل ما مضى وما سيقبل ، ويصدر أوامره إلى الجن فيقيموا له المعابد والقصور ... الخ » (*) . بهذا كله تحدثنا قصة من هذه القصص عنوانها :

Recontamiento de Sulaimán cuando lo reprobó Allah en quitarle la onra y andó cuarenta dias como pobre demandando limosna.

(= حكاية سليمان عند ما عاقبه الله بتجريد من غزاه فضى يضرب في الأرض أربعين يوماً شحاذاً يتكفف الناس .)

أما « حكاية ما حدث لجماعة من العلماء الصالحين » فعنوانها في الأصل :

Recontamiento de Sulaimán que aconteció a una partida de sabios *zelihs*.

وهي ذات مغزى روحى دينى ، وهي تقص علينا كيف أن ناسكاً مسلماً هوى امرأة نصرانية فارتد عن دينه بسببها ، ثم عاد فقدم على ما فعل وتاب وأدركته المغفرة ودخلت محبوبته في الإسلام . ومثلها حكاية العابد والمرأة السمينة (*Alabid y la mujer encarnes*) ، وكلها تعرض علينا هذا اللون من القوة (الروحية) الذي تحدثنا عنه « حيوات الآباء » *Vitae Patrum* (*) ، مثل قصة

(*) . MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I. p. 109.

(*) أى آباء الكنيسة ، وهم كبار رجال المسيحية في أجيالها الأولى ، الذين كتبوا فيها ودافعوا عنها وحددوا معالمها ، من أمثال القديسين أوغسطين وأمبروزيوس .

الناسك الذي أرادت المقادير أن يقضى الليل مع امرأة في غرفة واحدة، فجعل كلما همت بها نفسه يمد أصابعه إلى نار شجرة لتلذذها تذكيراً لنفسه بمذاب جهنم، فترتد عما تريد . ومن بينها كذلك حكاية يرى الأستاذ آسين أنها مقتبسة من قصة معروفة كثيرة التوارد فيما يُحكى من تراجم الزهاد ، وهي الحكاية العظيمة التي تدور حوادثها في قرطبة وغتوانها : حديث ذال بن ذاريا (Hadith del Bano de Zariab = حديث حمام زرياب) ، وقد قال عنها منندو بلايو إنها « قصة قرطبية من طراز ألف ليلة ، تمتاز ببساطة قالبها الأسطوري وظرفه . وهي تروى قصة الحيلة الساذجة التي لجأت إليها فتاة لتتخذ نفسها من رجل متهتك خادع دخلت بيته خطأ إذ كانت تقصد « حمام زرياب » . بيد أن القيمة الحقيقية لهذه القصة إنما هي في طابعها نصف التاريخي ، وفيما تقدمه إلينا من تفاصيل عن الحياة الخاصة لمسلمي الأندلس في أزهى أيام الخلافة ، لأنها تدور في أيام المنصور بن أبي عامر . وزرياب الذي يُنسب إليه حمام القصة إن هو إلا ذلك الموسيقى البغدادي المعروف ، فيصّل الأناقة *arbitr elegantiarum* في بلاط عبد الرحمن الأوسط ومبتكر الوتر الخامس في العود . ووصف الحمام نفسه جدير بالذكر ، لا بسبب ما يضيفه من تفاصيل معمارية غربية فحسب ، بل لأنه نموذج من اللغة الغريبة التي كتبت بها هذه الكتب » (*) .

وهناك أساطير وانحمة المعالم مثل « يوسف وزليخة » José y Zeliha (*) ، فهي سلسلة من الحكايات متميز بعضها عن بعض ، وكذلك قصتنا « حديث

(*) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I, p. 111-112.

(*) هذا هو الاسم الذي وضعه المؤلف لهذه القصة المعروفة ، وقد سماها ناشرها جين روبياس « أسطورة يوسف بن يعقوب » Leyenda de José hijo de Jacob ، أما العنوان الحقيقي لها فغير معروف ، لأن الأوراق الأولى من مخطوطها ضائعة .

Cf : F. GUILLÉN ROBLES : *Leyendas de José hijo de Jacob y de Alejandro el Magno*. (Zaragoza, 1888) p. 3.

ذى القرنين « و « حديث الملك الإسكندر » Reconamiento del Rey Alixandre ، فهما ترويان حياة الإسكندر الأكبر كما تصوره الأساطير الشائعة عند المسلمين . [« والإسكندر في هذه الأسطورة المسنّجة لا يقنع بأهل من ربط خيله ببرج الثور وإلقاء سلاحه على الثريا ، وليس له من هدف من غزواته إلا نشر [الإسلام] دين الله وتحريق الأصنام والقضاء على عبّادها وإلنا المنجد في هذه الأسطورة الإسلامية نفس الغرائب التي تحكيها أساطير الإغريق عن الإسكندر : شعوب غريبة يلتقاها في مسيره ، أناس لهم عين واحدة ، وناس لهم رؤوس كلاب وآخرون لهم آذان يستطلون بها ، وصنوف غريبة من الطير والحوان ، وأسرار وفضائل أودعها الله في المعادن والأحجار ، هذا كله نجد مثيله في هذه الأسطورة الإسلامية المعبية »] (*) .

أما قصص الفروسية الموريسكية فحنق بالذكر منها « حكاية المقداد والمياسة التي يبدؤها مؤلفها بقوله : هذا هو حديث المقداد السعيد مع المياسة ابنة عمه الملك جابر أبي ضرار كما رواها ابن عباس » (*) . ولقد نطت هذه القصص حدود إسبانيا ، نرى لمحات منها في أفاصيص بروفنسية مثل باريس ونيانا Paris y Viana (باريس ونيانوس) . وربما كانت قصة المقداد قد ترجمت إلى البروفنسية عن ترجمة قطلونية لأصلها القشتالي على يد موريسكي أرغوني (١١) .

ومن القصص الموريسكي ما نجد فيه موضوعات متواردة في القصص الشعبي المالئ ، ومثال ذلك « حكاية الفتاة كار كايونا بنت الملك نشراب مع اليممة »
Recontamiento de la doncella Carcayona, hija del rey Nachrab

(*) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I. P. 111.

(*) MARIANO DE PANO, *El recontamiento de Al-Micded y Al-Mayesa* Homenaje a Codeira (Zaragoza, 1904) pp. 35-50.

con la paloma^(*) ، وفي موضوعها مَشَابِه من موضوع «كتاب أبولونيوس» Libro de Apolonio وأسطورة «القديسة جينوفيفا دِ بَرَامَانْت» Santa Genoveva de Brabante ، فكلاهما يدور حول حكاية «الفتاة ذات الأبدى المنطوعة» ، وهي تضع أيدسا على أصل القصة الإسبانية المعروفة «سِيلَقَانَا أُر دِلْجَادِينَا» Silvana o Delgadina التي كانت ذاتمة تتوارث في كل مكان في إسبانيا^(١٥) .

(*) يبدو أن اسم كاركايونا Carcayona تحريف لفظ Circasiana أي الشركسية ، لأن عنوانها كما نشره پابلو غيل Pablo Gil هو :
Historia de la doncella Circasiana. Este es el recontamiento de la doncella Carcasiana, ficha del rey Nachrib con la paloma.

انظر :

PABLO GIL, *Manuscritos aljamiados de mi Colección in Homenaje a Codera* (Zaragoza, 1904) p. 548.

آثار الأدب الأندلسي

ف ١٤٨ — آراء الألب، خوان أندريس في القرن الثامن عشر .

(أ) الفلسفة

ف ١٤٩ — مترجو طليطلة . الرشديون . اليهود .

ف ١٥٠ — رايغونديو مارتين .

ف ١٥١ — رامن لل .

ف ١٥٢ — دانتي والإسلام .

(ب) العلوم

ف ١٥٣ — ألفونسو العالم والثقافة العربية .

(ج) التريفة

ف ١٥٤ — المواعظ السياسية الأخلاقية .

(د) القصص

ف ١٥٥ — كتاب سلك الكتاب .

ف ١٥٦ — كتاب كملية ودمنة .

ف ١٥٧ — السندباد .

ف ١٥٨ — برلام وروسافات .

ف ١٥٩ — الدون خوان مانويل .

ف ١٦٠ — تورميديا .

ف ١٦١ — ألف ليلة وليلة في الأدب الإسباني ، قبل القرن الثامن عشر .

ف ١٦٢ — قصص الفروسية ، قصة زياد الكناني .

ف ١٦٣ — جراسيان وابن طفيل .

(هـ) الشعر القصصى فى إسبانيا الإسلامية

- ف ١٦٤ — نظرية روميرا .
ف ١٦٥ — ما يمكن أن يكون لهذا الشعر القصصى الأندلسى من أثر فى الشعر القصصى
الفرنسى والإسبانى .

(و) الشعر

- ف ١٦٦ — الزجل فى الأدب الأوروبى .
ف ١٦٧ ، (١) — فرنسا .
ف ١٦٨ ، (ب) — إنجلترا .
ف ١٦٩ ، (ج) — ألمانيا .
ف ١٧٠ ، (د) — إيطاليا .
ف ١٧١ ، (هـ) — البرتغال .
ف ١٧٢ ، (و) — إسبانيا ، كنتيجات ألفونسو العاشر .
ف ١٧٣ — نائب الأسقف فى هيتا ، خوان رويث .
ف ١٧٤ — أغنية العريبات الثلاث . الدواوين . آخر مظاهر الزجل .

ف ١٤٨ — آراء الأب خوان أندريس في القرن الثامن عشر :

ألمع الأب خوان أندريس — وكان يسوعياً فصل من هذه الجماعة وطرده من إسبانيا — إلى أثر الثقافة الأندلسية في الثقافة الأوروبية إلمانة قصيرة غير واضحة . وله في ذلك عذره ، إذ لم يكن بين يديه من المراجع إلا الفهرس اللاتيني المخطوطات العربية بمكتبة الإسكريال ، الذي وضعه الماروني اللباني الأصل ميخائيل الفزيري ونشره في مجلدين بعنوان « المكتبة الإسكوريالية العربية الإسبانية » (Bibliotheca arabico-hispana Escorialensis 1770) . وقد صنف هذا الأب اليسوعي خوان أندريس كتاباً غربياً نشره بالإيطالية بين سنتي ١٧٨٢ و ١٧٩٨ وسماه « أصول الأدب عامة وتطورات وحالته الراهنة » (ترجم إلى الإسبانية بين سنتي ١٧٨٤ - ١٨٠٦ باسم : Origen, progresos y estado actual de toda la literatura) قال فيه مؤكداً : « إن الفضل في قيام الدراسات الطيبة في أوروبا يرجع إلى ما كتبه العرب » .

والواقع أنه وجد أمامه شعباً قطع في طريق الحضارة مراحل واسعة المدى وشعوباً حوله متأخرة في ميدانها ، وتراءى له — بطبيعة الحال — أن الأول يمد الثانية من ثروته الأدبية ، وقال : « بينما تصرف المدارس الكنسية جهدها إلى تلقين الناس الأناشيد الدينية ، وتعلمهم القراءة وعد الأرقام ، وبينما نجد الناس في فرنسا كلهم يهرعون إلى متز و سواشون يكتب أناشيدهم الكنائسية لكي يقوموها على النحو المتبع في كنائس روما ، نجد العرب يبعثون السفارات لاستجلاب الكتب القيمة ما بين إغريقية ولاينية ، و يقيمون المراسد لدراسة الفلك ، و يقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم والتاريخ الطبيعي ، و ينشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشقي صنوفها » . ثم يذكر الترجمات التي قام بها العرب عن آثار الفرس

والهنود والسريان والمصريين والإغريق خاصة ، مشيراً إلى ما كان له أثر في بعث الحركة الإسكولاستية من الكتب التي نقلت من العربية إلى اللاتينية .

وذهب « أندريس » إلى أن قيام التأليف العلمي في أوروبا (في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية) مرجعه إلى العرب ، وذكر — تأييداً لآرائه — أسماء « جيريتوس »^(١) و « كومپانودي نوڤارا »^(٢) Compagno di Novara وأدِلَّارْد البسائي Adelardus Batense^(٣) ومُورَلِي Morlay^(٤) وألفونسو العالم Alfonso el Sabio^(٥) وقال إنهم أعلام حركة انتقال علوم العرب إلى أوروبا .

وذهب إلى أن روجر بيكون Roger Bacon استقى مادة مؤلفه عن العدسات من الكتاب السابع من « بصريات » الحسن بن الهيثم ، وأن فيتليون Vitellion اختصر النظريات التي أودعها ذلك العالم المسلم في نفس الكتاب وشرحها ، وأن ليوناردو الپيزي Leonardo Pisano^(٦) أخذ عن مؤلفات العرب علم الجبر ، ونقل عنهم الأرقام العربية وأدخلها إلى أوروبا وعلم أهلها إياها (وقد درس جيريتوس « علم الحساب » العربي في إسبانيا وأدخله إلى المدارس الأوروبية) وأن أرنالدو دِڤيلانوفا Arnaldo di Villanova « تلقى تعليمه كله في إسبانيا على أيدي العرب ، وعن كتبهم ومدارسهم أخذ للمعارف النافعة في الطب والكيمياء التي نشرها في أوروبا » .

وذهب أندريس — كذلك — إلى أن رايغوندو لوليو مدين للأدب العربي في كثير ، وأن أعلام الطب الأوروبي قبل النهضة — من أمثال جليبرتو ويوحنا الجودسديني Johannes von Goddesden وفابريغسيوس (فبريزي) أكوابندنتي Fabrizio Gerolamo da Aquapendente — إنما نهلوا من كتب العرب ، ومن مؤلفات أبي القاسم الزهراوي على وجه الخصوص ؛ وأن پيير دانييل هُوييه Pierre Daniel Huet (١٦٣٠ — ١٧٢١) ذهب إلى أن ديكارت أخذ عن أعلام الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الرئيسي الذي يقول : « إن من

يستطيع أن يفكر فهو موجود « *Quid quid potest cogitare, potest esse* » وأن « يوحنا كِبَلر » استوحى اكتشافه للأفلاك الدائرية للكواكب من كتابات البطروجي ؛ وأن بعض آراء القديس توما الأكويني في الإلهيات مستقاة من كتب العرب . ثم يقول : « فإذا لم يكن للعرب من الفضل إلا الاحتفاظ ب ذخائر العلوم التي أهملتها الشعوب الأوروبية ، ونقلها ، وإبداعها أيدي الناس عن طيب خاطر ، فهم حقيقون من أهل الأدب المحدثين بالشكر والعرفان » ^(٧) .

أما عن إسبانيا خاصة فقد أشار هذا اليسوعي إلى حقيقة خطيرة [أثبتتها البحث العلمى فيما بعد] ، وهى استعمال الناس في الأندلس للفتين دارجتين : إحداهما عربية والأخرى عجمية إسبانية ، ولم تغب عن ذهنه « حشرات آكبرو القرطبي » التي أشرنا إليها ، ولا خفى عن علمه وجود بضع مئات من الوثائق العربية في كنيسة طليطانة الجامعة ، خلفها النصارى الذين كانوا يستعملون العربية في مكاتباتهم . وذهب إلى أن الشعر الإسباني إنما نشأ — أول أمره — تقليداً لشعر العرب ؛ وقد استنتج ذلك استنتاجاً ، وقال إن اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين . ثم يستطرد مع تفكيره المنطقي ويقول إن صور هذا الشعر العربى وقوالبه كانت حرة بأن تنقل إلى پروفسا عن طريق الصلات المتبادلة بين الفرنسيين والإسبان — نصارى ومسلمين — وتحوال الشعراء المنشدين المعروفين « بالتروبادور » ، فسأ الشعر البروفنسى على أساس من الشعر العربى . ويقول : « إن هذا الشعر البروفنسى إنما ينتسب إلى العرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين » ، إذ لم يكن لدى البروفنسيين علم بهذين الأدبين في حين أن شعر العرب كان أقرب مورداً إليهم .

ويؤكد « خوان أندريس » أن قواعد التقفية التي اتبعها الشعر الشعبى — إسبانياً كان أو پروفسياً — وأساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه إنما هي مأخوذة عن العرب ، ويصدق ذلك خاصة عن الشعر البروفنسى الذى أثر بدوره

في الشعر الإيطالي . وذهب كذلك إلى أن موسيقى التروبادور وآراء ألفونسو العالم في هذا الزمن عربية كلها ، وكذلك اللون القصص المعروف بالقابليو (fabliaux = الخرافات) والحكايات والقصص ترجع في منشأها إلى أصول عربية ، وذكر أن لييف Le beuf أثبت أن تاريخ شرمان ورولان المنسوب إلى توربان الزائف Le faux Turpin (*) إنما هو من تأليف رجل إسباني ، وأن هذا الكتاب يعتبر أصلاً لقصص الفروسية الذي ظهر بعده (٨) .

وقد بقيت هذه الإشارات المهمة التي كتبها ذلك الأب اليسوعي المنفي دون إثبات مؤكد في عصره ، لأن شيئاً من آثار الأندلسيين لم يكن قد نشر إذ ذاك . أما اليوم ، وبعد نيف وثمانين ومائة عام من نشر كتابه ، فإننا نستطيع أن نذكر عن تراث الأندلسيين أكثر مما ذهب إليه . وقد تحصل لدينا الآن من الحقائق التي كشف عنها وأثبتها المستشرقون — من إسبان وغير إسبان — ما يمكننا من أن نعرض موجزاً لآثار المسلمين الأندلسيين في آداب من جاء بعدهم من الشعوب الأوروبية ، وخاصة الإسبان (٩) .

(١) الفلسفة

ف ١٤٩ — مترجمو طليطلة . الرشديون . اليهود :

أصبحت طليطلة — بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس عام ١٠٨٥ — المركز الذي انتشرت منه الثقافة العربية واليهودية إلى باقي نواحي إسبانيا وأوروبا . وخلال حكم ألفونسو السابع (١١٢٦ — ١١٥٧) لجأ إلى هذا البلد نفر غفير من اليهود ، ناجين بأنفسهم من نواحي الأندلس الإسلامي ، بسبب اشتداد عبد المؤمن ابن علي أول خلفاء الموحيدين في تعقبهم . ويرجع الفضل في إدخال النصوص

(*) ينسب هذا الكتاب إلى توربان أسقف مدينة رالنسى بفرنسا المتوفى سنة ٨٠٠ م . وقد أثبت النقاد أنه ليس من تأليفه ، ولذلك يسمى مؤلف ذلك التاريخ : المشبه بتوربان Pseudo Turpin أو توربان الزائف .

العربية في دوائر الدراسة الغربية إلى رايغوندو (١١٢٦ - ١١٥٢) أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتالة على أيامه ، وكان فعله هذا حدثاً حاسماً كان له أبعاد الأثر في مصير أوروبا ، كما يقول إيرنست رينان .

تولى الأسقف رايغوندو رعاية جماعة من المترجمين والكتاب ، تعرف في تاريخ الأدب بمدرسة المترجمين الطليطليين « Colegio de traductores toledanos » ، وحفز أفرادها على المهمة في نقل المؤلفات العربية ، فتمت في هذه المدرسة ترجمة عيونها في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الديبجي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمدطق والسياسة ، ومنها « أوجانوب » أرسطو وشروح المسلمين عليه أو مختصراتهم له ، وهي شروح ومختصرات جليلة وضعها فلاسفة مسلمون من أمثال السكندى والفارابى وابن سينا والغزالي وابن رشد . وترجمت عن العربية كذلك مؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط ، بشروح أعلام الفكر الإسلامى عليها كاخوارزمى والبتانى وابن سينا وابن رشد والبطروجي ومن إليهم .

وأكبر من وصلت إلينا أسماؤهم من أولئك المترجمين الإسبان هم دومينيكوس جنديسالتي (Dominicus Gudislavi ، بالإسبانية دُومِنْجُو جُنْدَالِدِ Domingo González) الذى يسمى في بعض النصوص جُنْدِيسَالِيُوس Gundersalinus ، وكان أسقف شقوبية وواحداً من كبار رجال كنيسة طليطلة الجامعة ، وربما يكون قد عمر إلى ١١٨١ ؛ ويوحنا بن داود الإسباني Johannes Hispanus Abendaud اليهودى الذى اعتنق النصرانية وسكن طليطلة ، ويبدو أنه هو الذى خلف رايغوندو في أسقفية هذا البلد .

وكان جنديسالتي ويوحنا اليهودى هذان يعملان مشتركين في الغالب ، فيعمل يوحنا ترجمة النص العربى بالإسبانية الدارجة ويقوم جنديسالتي بنقلها من الإسبانية إلى اللاتينية . ولدينا من إنتاجهما ترجمات لبعض مؤلفات ابن سينا (كتب « النفس » و « الطبيعة » و « ما وراء الطبيعة ») ،

وبعض آثار النزالي (كتاب « مقاصد الفلاسفة » ويعرف في ترجمته اللاتينية بكتاب « الفلسفة » فحسب) ، وابن جبرول (كتاب « ينبوع الحياة ») ؛ ولدينا من أعمال يوحنا الإشبيلي هذا ترجمات لكتب عربية في الفلك وصفة النجوم . ولم يقف جهد أسقف شقوية عند حد الترجمة ، بل وضع كتباً من بنات أفكاره ككتابه عن خلود النفس De immortalitate animae ، وقد بنى على آراء استقاها من ابن سينا وابن جبرول ، وكان له أثر واضح في كتابات جيرسون بن سلومون ؛ وكتابه عن « خلق الدنيا » De processione mundi الذى فرر « جوردان » Jourdain « أنه من أقدم وأهم آثار الفلسفة الإسبانية المتأثرة بالفلسفة الإسلامية » ، وقد نشره منذذى بلايو وتتبع فيه الأثر للمشرق الأفلاطوني الحديث الذى نعرفه عند ابن جبرول ؛ وله كذلك كتاب « في فروع الفلسفة » De divisione philosophiae (نشره باور Baur سنة ١٩٠٣) ، وهو تصنيف فى العلوم يقفوفيه أثر الفارابى فى كتاب « إحصاء العلوم » ، ويبدو فى ثناياه أنه قرأ كتابات بوثيوس (Boethius) وفى الإسبانية Boecio) والقديس إيزيدور الباجى (San Isidoro de Beja) إلى جانب من قرأ له من فلاسفة المسلمين^(١٠) . وكذلك ترجم يوحنا بن داود المعروف بالإسباني « كتاب الملل » Liber de causis ، وكتاباً فى الطبيعة ، وآخر فى المنطق^(*) .

وعندما ذاعت ترجمات جنديسائى ويوحنا الإشبيلي فى أوروبا ، زادت

(*) يبدو أن يوحنا هذا شخص آخر غير يوحنا الإشبيلي أو الإسباني أو اللاتنى الفلكى الأندلسى ، الذى ترجم فى سنة ١١٣٣/٥٢٧ بعض كتب أبى معشر ، والفرغانى فى عام ١١٣٤ ووضع فى سنة ١١٤٣ « المختصر الجامع لعلم النجوم » Epitome totius astrologiae . وقد تحدث الأب مانويل ألونسو P.M. Alonso عن مترجمين آخرين يحملون نفس الاسم — يوحنا الإسباني — فى مقالةسمى « تهديدات عن المترجمين الطليطيين دومنجو جنديسائى ويوحنا الإسباني » فى مجلة الأندلس ، سنة ١٩٤٣ ، مجلد ٨ ، ص ١٥٥ — ١٨٨ .

P. MANUEL ALONSO, *Notas sobre los traductores toledanos Domingo Gundisalvo y Juhn Hispano*; en *Al-Andalus*, 1943, tomo VIII, pp. 155-188.
(المؤلف)

شهرة « مدرسة طليطلة » ، وأهرع إليها نفر كبير من الغرباء التمتشين إلى مناهل العلوم الإغريقية الشرقية التي عادت إلى الظهور إذ ذاك . ولم يكن هؤلاء الغرباء يعرفون العربية ، وإذا عرفوا فنزراً لا ينفع ، ولهذا كانوا يلجأون إلى مستعرب أو يهودى من أهل طليطلة ، فيترجم لهم حرفاً بحرف مادة الكتب العربية التي يرغبون في الإلمام بما فيها إلى الإسبانية الدارجة ، أو يعبر لهم عنه في لاتينية ركيكة ، ويقومون هم بصوغها في قالب لاتينى فصيح ، وتُنقل من هذه اللاتينية نسخ عديدة في المدارس الأوروبية المتعددة^(١١) .

وقام جيراردو القرمونى Gerardo di Cremona بترجمة طائفة من كتب العرب في الفلك والطب ، بعضها لأبى القاسم الزحراوى . وقام ميكل سكوت Michael Scot الإنجليزى بترجمة بعض كتب أرسطو وإن سينا إلى اللاتينية ، بمساعدة أندريا اليهودى الذى كان يعاونه في الترجمة ويفسر له ما يقرأ ؛ ونقل كذلك بعض مؤلفات البطروجى . وكان سكوت -- كذلك -- أول من ترجم كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، (ترجم منها « السماء والعالم » و « رسالة النفس ») وقام « روبرت دى رتينس » Robert de Retines وهرمان الدالاشى Herman di Dalmatia بترجمة القرآن ، إجابة لطلب بطرس الجليل Pedro el Venerable . واشتغل أديلارد البانى Adelard Batense بتأليف كتب في الفلك ورياضيات ، ولأذ به نفر من التلاميذ . وكتب هرمان الألمانى Hermanus Alemannus كتاب « البلاغة والشعر » لأرسطو ، مستعيناً في تأليفه بشرح الفارابى « للبلاغة » والتلخيص الذى عمله ابن رشد « للشعر »^(١٢) .

وتكاد ترجمات أولئك الغرباء جميعاً أن تكون غير منهومة بسبب ركاكة لغتها اللاتينية ، والفرق بعيد بينها وبين الترجمات الواضحة ، البليغة في بعض الأحيان ، التي قام بها جنديسالفو ويوحنا الإشبيلي . ولا نعرف على وجه التحقيق إن كانت طائفة أخرى من كتب الفلسفة

العربية وآرائها قد انتقلت إلى أوروبا عن طريق مدرسة طابطة أر عن طريق آخر ، من « هذا المكتب » شروح ابن باجة « وكتابه « تدوير التوحيد » ، ومنها كذلك « رسالة حي بن يقظان » لأن طفيل التي منعت عنها فيما بعد (ف ١٦٣) ، وكذلك « شروح ابن رشد على مؤلفات أرسطو » (ف ١٠٨) ، وآراء يحيى الدين بن عربي الصوفي المرسى (ف ١١٣) . ومن الحقائق المقررة على أى حال ففرض مؤلفات العرب على المفكرين الإسلاميين جملة . فأما من كان منهم على مذهب أرسطو فنجد عنده آثار ابن باجة وابن طفيل وابن رشد خاصة ، وأما من اتجهوا منهم اتجاهاً أفلاطونياً حديثاً ففندح في تواليهم وآرائهم آثار ابن مسرة وابن جبرول وابن عربي وقد أشرنا (ف ١١٥) إلى أن « نظرية الحقيقة » -- مفتاح أسطورة « الرشدية » -- لا أثر لها في تأليف ابن رشد ، وذكرنا ما ذهب إليه « آسين » من أنها أخذت عن بعض آراء الصوفي المرسى ابن عربي .

ولا نفوتنا الإشارة في هذا المقام إلى ما أسهم به المترجمون من اليهود في نشر آراء المسلمين الفلسفية من نصيب وافر ، وقد ألمنا بذكر أعلامهم فيما سلف (ف ١٤٤) .

(*)
ف ١٥٠ — رايموندو مرتين Raimundo Martin :

ولم يكن مجرد الإعجاب بالثقافة العربية دافع الناس إلى دراسة كتب

(*) قطلونه الأصل ، إذ أنه ولد في قرية سوبراتس Subirats في قطلونية Catalunya واسمه الأصل Ramón Martí ، أما رايموندو مرتين فهو الصيغة الإسبانية للاسم . وعنوان كتابه المذكور في المتن — كما يرد في أول طبعة باريس سنة ١٦٥١ — كما يلي :

Pugio fidei, RAYMUNDO MARTINI, ordinis Prædicatorum, adversus Mauros et Judæos; nunc primum in lucem editus impensis ordinis ..

(= خنجر الإيمان لرايموندو مرتين ، من رهبان « طائفة الوعاظ » ضد المسلمين واليهود . يخرج الآن إلى النور لأول مرة على نفقة الطائفة ... الخ) .

C. f. MENÉNDEZ PELAYO, *Historia de los Heterodoxos Espanoles* (Madrid, 1947) tomo II. p. 319.

المسلمين في كل الحالات ، بل أقبل بعضهم على دراستها التماساً لحجج يفارح بها الإسلام وأهله . ومن البديهي أن خصوص الإسلام لم يكن لهم غنى عن تحصيل قدر كاف من العلم به حتى تنسنى لهم مزالته ، وأنه لا بد لتحصيل هذا العلم من معرفة اللغة التي تحمل كتبه . ومن أولئك الذين حركهم ذلك الدافع الجدلي إلى دراسة العربية رايموندو مرتين Raimundo Martin (١٢٣٠ - ١٢٨٦) ، وكان قساً دومينيكيّاً قطلوبياً ، فقد اجتهد في تعلم لغة العرب حتى أتقنها ، كما يدل على ذلك انقاموس اللاتيني العربي الطريف الذي ينسب إليه عادة (نشره سكياباريلي Schiaparelli ١٨٧٢) . وضع هذا القس القطلوني كتابه المسمى « خنجر الإيمان ضد المسلمين واليهود » *Pugio fidei adversus Mauros et Judaeos* ، وهو مديح للنصرانية يمتاز في مادته ومنهجه عن كل ما سبقه — إذا استثنينا كتاب « جامع الحجج في جدال الكافرين » *Summa contra gentes* للقديس توما الأكويني — ويرى مننذ إمي بلايو أنه خير ما ألف الإسبان في العلم الإلهي في القرن الثالث عشر ، ويقول : « ولا ينبغي أن نقف في تقديره عندما نبحده فيه من عرض كامل للحقيقة الكاثوليكية ، والاتصاف لها من اليهودية والإسلام ، بل لا بد أن نقدره ككتاب في اللاهوت نقض مؤاته فيه بمهارة ظاهرة الآراء الفلسفية المتولدة عن دراسة الفلسفة الشرقية ، معتمداً في كثير من الأحيان على حجج النزالي وغيره ممن تصدوا لمجادلة آراء المشائين من فلاسفة الإسلام » (*) .

وقد أشاد الأستاذ آسين بما يتجلى من علم رايموندو مرتين بالعربية والعبرية والإسلام واليهودية في كتابيه « خنجر الإيمان » و « شرح الرمز » *Explanatio Symboli* ، فهو يورد نصوصاً من النزالي (انتخبها من « التهافت » و « المقاصد » و « المنقذ » و « الإحياء » وغيرها) ، ومن كتابات الفارابي وابن سينا وابن رشد خاصة (قبسها من شروح ابن رشد على فلسفة أرسطو ، ومن

(*) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. p.319

نرح « أر جوزة ابن سينا » ، ومن كتب « الفلسفة » و « تهافت التهافت »
 و « ما وراء الطبيعة » و « رسالة إلى صديق » Epistola ad amicum ، وكلها
 لابن رشد (*) ؛ بل أخذ آراء من كتاب للفيلسوف الفارسي فخر الدين الرازي
 (٤٤٣/١١٤٨ — ٦٠٦/١٢٠٩) المسمى « الرد على جالينوس » (**)
 Contra Galenum ، ومن كتاب آخر له يسمى « المباحث الشرقية »
 (أو الشرقية) وهو مجموع فلسفي لاهوتي كُتب قبل أن ينتفع به رايموندو مرتين
 بثلاثين سنة ، هذا إلى جانب ما يبدو من علمه الواسع بالقرآن وصحيحى مسلم
 والبخارى (†) (١٤).

(*) « كتاب الفلسفة » المشار إليه هنا هو « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة
 من الاتصال » ، أما « رسالة إلى صديق » فالمراد به التذييل الذى جمعه ابن رشد على « فصل
 المقال » وجعل الناشر عنوانه « ضمنية لمسألة العلم القديم التى ذكرها أبو الوليد فى فصل
 المقال » (انظر « فصل المقال » ، طبعة مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ، سنة ١٣١٧ ،
 ص ٢٩ — ٣٢ ؛ وطبعة محمود على صبيح ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص ٣٦ — ٣٩ ؛
 وطبعة المطبعة الرحمانية (القاهرة ، بدون تاريخ) ص ٢٦ — ٢٩ وقد نقلها رايموندو مرتين
 فى كتاب « خنجر الإيمان » . انظر . Pugio . ، طبعة لايبسك ، ١٦٨٧ ، ص ٢٥٠
 وما يليها ؛ وقدم لذلك بقوله :

“Nunc denique, ut per philosophum melius retundamus philosophos,
 id quod Aben Rost ad amicum suum in quadam epistola scribit de esta
 quaestione, interpretatur sum. . .”

(= ... والآن ، ولكى نستطيع — آخر الأمر — أن ندحض [آراء] الفلاسفة [بكلام]
 فيلسوف ، نورد ما كتبه ابن رشد إلى صديقه فى الرسالة التالية بخصوص هذه المسألة ، وفيه
 تفسيرها ...) . ثم يورد بعد ذلك ترجمة نص « الضمنية » ويختتمها بقوله :

Hucusque Aben Rost in epistola ad amicum

(= إلى هنا [ينتهى] كلام ابن رشد فى « رسالة إلى صديق ») .

ومن هنا جاء هذا العنوان الذى تذكر به الضمنية فى المتن .

Cf : ASIN PALACIOS, *Huellas del Islam* (Madrid, 1941) pp. 66-67.

(*) لم أجد بين مؤلفات فخر الدين الرازي كتابا فى « الرد على جالينوس » ، وهى
 الترجمة العربية لاسم الكتاب الذى يقول المؤلف إن رايموندو مرتين نقله عن الرازي :
 Contra Galenum . وقد يكون المراد هنا « كتاب الروض المريض فى علاج المريض » الذى
 ذكره بروكلمان فى تاريخ الآداب العربية — ملحق ج ١ ، ص ٩٢٤ — أو إحدى رسائل الفخر
 الرازي الطبية التى نشرها پول كراوس .

(†) انظر :

MEÑÉNDEZ PELAYO, op. cit. p. 319.

ASIN PALACIOS, op. cit. pp. 66 sqq.

ف ١٥١ -- رامن لال (*) :

من الثابت الذى ينعقد عليه الإجماع أن فلاسفة النصارى — الذين ابعوا مذاهب أرسطو — يدينون بالكثير لترجييه وشراحه من العرب . و يظهر هذا الأثر الإسلامى عند نفر من سار فى اتجاه الأفلاطونية الحديثة من أولئك الفلاسفة النصارى ، وأظهر مثال لهذا الفريق من بين الإسبان هو ريموندو لوليو (١٢٣٥/٦٣٢ — ١٣١٥/٧١٤) الذى لا يرق شك إلى تحققة بالمربية وما كتبه أهلها ، وهو نفسه يقرر ذلك صراحة .

وقد بين الأستاذ ريبيرا — والأستاذ آسين من بعده — اعتماد لوليو على كتاب المسلمين ، وخاصة ابن عربى (ف ١١٥) ، بصورة لم يعد أحد يستطيع بعدها أن يؤيد ما كان الناس ينسبونه إلى هذا الصوفى النصرانى الميورقى من ابتداء مذهب الإشراق .

وتتجلى فى كتابات لوليو رقة ظاهرة للمسلمين ، تولدت — من غير شك — عن معاناته قراءة الكتب العربية . وكان لوليو يرمى إلى أن ينقل إلى النصرانية طائفة مما جرى عليه المسلمون من تقاليد دينية ، فذاب على استهلال رسائله باسم المسيح « لأن المسلمين يستهلون كتبهم باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) » ، وقال بفصل الرجال عن النساء فى الكنائس ؛ وهو يمتدح فى المسلمين إخلاصهم لدينهم وأراد أن تتلى أسماء الله فى الكنائس « كما يرتل المسلمون القرآن فى المساجد » ؛ وهو يقرر فى كتابه « بلانكرنا Blanquerna » أنه ألف « كتاب الصديق والمحبوب » El libro del amigo y del amado « على طريقة الصوفية » ،

(*) هذه هى الصورة الأصلية لاسم هذا الراهب اللاهوتى المتصوف Ramón Lull ، لأنه ميورقى ولد فى پالمّا فى ميورقة فى ٢٥ يناير ١٢٣٥ . والصورة الإسبانية للاسم رايغوندو لوليو Raymundo Lullo ، وقد جريت على كتابة اسمه فى اللن على هذه الصورة الأخيرة . هذا والنطق القطلونى لاسم لوليو هو ليل .

ولا يبعد أن يكون قد ألفه على نهج « ترجمان الأشواق » لأن عربي .
ويسى ريبيرا لوليو بـ « الصوفي النصارى » ويقول : « وإن ما نجده
عنده من ازدياء لكل هيئة رهبانية أو جماعة دينية منظمة ، وتفرد به نفسه تفرد
النسك ليفرغ لخدمة « محبوبه » ، وتجواله فقيراً لا يلبس إلا « الخرقة » من بلد
لبلد ، يلتقي المواعظ على الناس في بعض الأحيان في العارق والميادين في أسلوب
خشن لا يفرق بين صغير وكبير ، وتفكيره في أن يقرع للناس في الليل طبلًا إذا
سمعوه أخذوا في محاسبة أنفسهم (متعرضاً لاتهم الناس إياه بالحق أو الجنون)
ومضيه في أحيان أخرى مبشراً بالمسيحية في الجبال والأودية متوكلاً على الله
ورحمته ، أو اعتكافه في مغارة ليستغرق في تأملاته متفرداً « بمحبوبه » (الله) ،
هذا إلى شعوره بالتوحد وهو بين الناس وفي غمار المجتمع ، كل ذلك كانت تفعله
على شواطئ إفريقية — وقد زارها — أعداد لا تحصى من الرابطين المسلمين
على أيامه .

وقد عرف لوليو عدداً كبيراً من صوفية المسلمين : كابن سبعين (ف ١١٦) ،
وابن هود المقتشف المكفر عن ذنوبه ، والششتري الوادي آثي وكان من كبار
الزجالين والوشاحين ، يتفنن الصوفية بأشواقه في أزجاله وموشحاته ، وأبي مدين ،
والعفيف التلمساني وغيرهم كثيرين . أما الصوفي الذي تعلق به تعلقاً شديداً فهو
محي الدين بن عربي (ف ١١٣ — ١١٥) .

يلتقي لوليو مع محيي الدين في التعاليم الأساسية لمذهبيهما ، فالعلم عند كليهما
واحد وهدفه البحث عن « الواحد » ، والعلوم تُدرَك عن طريق الإيمان أو عن
طريق العقل . وعندما يعجز التفكير النظري عن الوصول إلى كنهها يكشف الله
عن كنوزها لعباده عن طريق الإشراف ، إذ أن كثيراً من الأشياء « إنما توجد
في الناحية الأخرى من جبل المعرفة الإنسانية » ، كما قال بروكلس وأفلاطون
من قبله .

وفي بعض الأحيان نجد أن التشابه بين كتابات الرجلين حرفي ، ومن ذلك قولهما « بالنورين » ، واستعمالهما مثل « الذوق المريض » ، وكلاهما عن « الفضائل الخفية لأسماء الله » ، وقرل لوليو بنظرية « المقامات » Dignitates وهي ليست إلا ترجمة للفظ « الحضرة » الذي يستعمله ابن عربي إلى لغة جارية سهلة الفهم .

والمعروف أن ابن عربي كان يستعمل لفظ « الحضرة » في مصطلحه الصوفي للتعبير به عن « كمال اسم الله » ، ثم إن « لوليو » يتحدث عن أسماء الله المائة Els cent noms de Deus مقلداً في ذلك ما كان يحده في كتب المسلمين ، وكان لرقم « المائة » معنى صوفي ، فهو الرقم الأكبر في عرف النساك وتقاليدهم ؛ ونجد لوليو يشترك مع ابن عربي في ذكر أسماء « حضرات » Dignitates مثل Senoria الربانية ، و Misericordia الرحمت ، و Gloria العزة وغيرها كنير(*) .

ولنر الآن كيف يوجز الأستاذ آسين خصائص مذهب لوليو بقوله : « إنه يتصور البساطة المطلقة للذات الإلهية في صورة مماثلة لتلك التي ينسبها المسلمون إلى أنبأذليس الزائف ، إذ أنه يرى أن الله هو الموجود الفرد ، وأنه الأزلي لا بداية له ، الباقي لا آخر له » ، لا تحديد لذاته أه طبيعته(*) أما كمالاته — أو صفاته التي يسميها لوليو مقامات Dignitates (= الحضرات في المصطلح

(*) Cf : MIGUEL ASIN PALACIOS, *Ibn Masarra y su Escuela* ; in *Obras Escogidas* (Madrid, 1947) I, p. 208.

(*) العبارة الإسبانية :

Dios es el ser uno, infinito y eterno, absolutamente indeterminado en cuanto a su esencia y naturaleza.

وقد رأيت أن أستعين في تعريبها بما يقابلها من كلام أبي حامد الغزالي في « الإحياء » . انظر : الباب الثاني في الاعتقاد ، وفيه فصول : « أصل في ترجمة عبادة أهل السنة » . الرشيد الأمين إلى موعظة أمير المؤمنين من إحياء علوم الدين ، تأليف حجة الإسلام الإمام أبي حامد محمد الغزالي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، بدون تاريخ .

الصوفي (ابن عربي) — فترتبطه بذاته ارتباطاً وثيقاً ، على نحو لا يمكن معه إطلاقاً تصور كثرة عددية في هذه الذات . وبسبب تزييه التفرّد الإلهي على هذا النحو فهو لا تدرك حقيقته ولا يمكن التعبير عنها ، وكل ما يمكن في شأنه هو تصور ذاته تصوراً جزئياً على وجه التقريب ، وذلك عن طريق ما أودع في مخلوقاته من صفات الكمال ، لأن هذه الصفات إنما هي صورة من « الحضرات » الإلهية .

ويرى لوليو أن الرمز إلى الذات الإلهية بشيء لا يصح ، لأن الرموز لا تناسب الذات الإلهية ، ولكن « النور » هو أقل الصور الرمزية المعبرة عن كالات الله في عدم المطابقة للألوهية ، ويرى أن كل ما هو موجود — عدا الله — أساسه « مادة روحية » مشتركة بين الملائكة والأجسام . أما تعدد الصور ، وخاصة فيما يتصل بالبشر ، فيرى لوليو كذلك أنه أمر بديهي ؛ وهو يرد أصل العالم إلى الحب والوجود الإلهيين ، وأن الله خلق الكون ليكون مظهراً خارجياً (إضافياً) ad extra « لحضرتة » . ولم يستعمل اصطلاح المقامات dignitates في هذا المعنى (الحضرات) أحد من الإسكولاستيين قبل لوليو ، إذ أن هذا الاستعمال هو في الحقيقة تجريد لأسماء الله يستعمله ابن عربي على نحو اصطلاحى خاص به . ويتفق لوليو وابن عربي في القول بمطابقة « المقامات » بعضها لبعض ، ويرى أن العلة والمثل الوافية لسائر المخلوقات التي تعد تحقيقاً مشخفاً لها . [ومن الواضح أنهما لا يتفقان على العدد المضبوط لهذه « المقامات » (أو الحضرات) ، ولكن يمكننا أن نؤكد أننا نجد عند ابن عربي أسماء كل « المقامات » التي ترد عند لوليو وغيرها كثيراً جداً .

والخلاصة ، بناء على ذلك ، أن مذهب لوليو يأخذ بنظريات الأفلاطونية الحديثة الشائعة بين مذاهب أخرى ، ولكنه يتميز من بينها ويأخذ شخصية خاصة بسبب ما نجد فيه من النظريات المنسوبة إلى أنبا دقليس الزائف

وان عربي ، والتي نجدها كذلك مشتركة بين جميع رجال المدرسة الفرنسكية .
ولكنني أستبعد اعتباره مجرد مذهب من مذاهب هذه المدرسة الأخيرة ، بل
أؤيد القول بتبعيته المباشرة للأصول العربية ؛ وتوكيداً لهذا ، وبالإضافة إلى ما أعتدُّ
به من الحجج المتداولة التي أتى بها أستاذي ريبيرا والتي لا زالت قوة تماسكها
سليمة لم تنزع ، سأكتفي بأن أستلفت النظر إلى حقيقة إيجابية تؤيدها
نصوص من كلام لوليو نفسه : هي أن لوليو لم يكن يعرف اللاتينية ، وأنه
لم يكن يعرف إلا القطلونية والعربية ، ولم يستطع أن يأخذ النظريات
المميزة للمدرسة الفرنسكية عن الكتب اللاتينية التي ألفها علماء الإسكولاستيين
وإنما عن الكتب العربية التي ألفها الصوفية كابن عربي ، والتي نجد فيها هذه
النظريات نفسها بالنص [*] .

[وفيما يلي نورد بيان الحضرات الإلهية التي يذكرها ابن عربي في
« الفتوحات » وما يقابل بعضها مما يذكره لوليو من « المقامات » ؛ والأرقام
التي بين أقواس هي صفحات الجزء الرابع من الفتوحات التي يرد فيها ذكر
هذه الحضرات :

الحضرات الإلهية (ابن عربي)	Dignitates Divinae (Lulio)	الحضرات الإلهية (ابن عربي)	Dignitates Divinae (Lulio)
(٣٦٢) القوة		(٢٥٠) الربانية	Senoria
(٣٦٤) المثانة		(٢٥٥) الرحمة	Misericordia
(٢٧٥) القهر		(٢٦٣) العزة	Gloria
(٢٦٦) الكبرياء	Grandeza	(٢٩٣) الإعزاز	
(٣٠٨) العظمة		(٢٦٥) الجبروت	

(*) نقلت هنا — رغبة في التوضيح — عن الأصل الذي لحصه المؤلف في هذا
الموضع ، انظر :

MIGUEL ASIN PALACIOS, *Ibn Masarra y su Escuela*; in *Obras Escogidas*, (Madrid, 1946) tomo 1, pp. 161-164.

وأحيل القارئ على الهوامش الإضافية التي علقها آسين على كلامه في هذه الصفحات .

(٣٤٠)	الإحسان	Bondad	(٢٧٧)	الوهاب	Largueza
(٣٣٩)	الطيبة		(٣٢٤)	الإكرام	
(٣٧٦)	التوحيد		(٢٨٣)	العلم	Sabiduria
(٣٥٥)	الإمراء	Simplicidad	(٣٣١)	الحكمة	
(٣٥٩)	الحق	Verdad	(٢٩٥)	الإدلال	Humildad
(٣٧٨)	الصمدية	Eternidad	(٣٠١)	العُكْم	Justicia
(٣٧٩)	الاقتدار	Poder	(٣٠٢)	العدل	
(٤٠٨) (*)	الصبر	Paciencia	(٣٢٢)	الجلال	Nobleza
			(٣٣٣)	الود	Amor

وعن محي الدين بن عربي كذلك أخذ لوليو طريقته في الرمز بالحروف للتعبير عن آراء فيما بعد الطبيعة أو مقولات الوجود ، وهي طريقة ترجع في أصلها إلى أسرار الصوفية ورموزهم . وأخذ عنه كذلك استعمال الأشكال الهندسية — كالدوائر ذات التشعع المركزي أو الخارجي ، والمثلثات ، والمربعات ، وما إليها — لكي يعبر عن حقائق ميتافيزيقية وإلهية بصورة ملموسة ، (كأن يرسم مثلاً مركز دائرة يرمز بها إلى الله مصدر النور ، ثم يرسم خطوطاً شعاعية من المركز إلى محيط الدائرة ، يرمز بها إلى كل الكائنات كناية عن صدورها عن النور الإلهي) . وأخذ عنه أيضاً طريقته في رسم الأشجار ليفسر بها وحدة العلم ، وتفرع الوجود كله عن أصل واحد ؛ وجعله الأفكار المجردة — على طريق الكناية — ذوات مشخصة ، وإجراء المحاورات بينها (مثال ذلك الرحلة الرمزية التي يصف فيها خروج الصوفي والفيلسوف في طلب الحقيقة ، وهي رحلة مشهورة ولها علاقة واضحة بالكوميديا الإلهية) . وعن محي الدين كذلك أخذ لوليو مصطلحه الصوفي

(*) رأيت أن أضيف هذه الزيادة هنا لإكمال الكلام ، وقد نقلت بيان المحضرات وما يقابلها عند لوليو من نفس المرجع ص ٢٠٨ ؛ وأضيف هنا بعض تعديلات على هذا البيان :

Grandeza = العظمة ، لا الكبرياء .

Justicia = العدل ، لا الحكم .

Bondad = الطيبة ، لا الإحسان .

الخاص ، لأن « الآراء الخاصة بعلوم التصوف الإلهية إنما تتحصل عن طريق الذوق الصوفي لا عن طريق العقل » (*) .

وقد رمى لوليو من وراء رسالته المسماة بلانكيرنا Blanquerna أن يعيد تنظيم مجمع كرادلة روما ، فجعل لكل كريدفال — بما في ذلك البابا — اسماً اشقه من أبيات ترتيلة « المجد في الأعلى » Gloria in excelsis ، وجعل لكل منهم رسالة يؤديها في الدنيا مشتقة من اسمه الذي اختاره له : فهناك كريدفال يسمى « نحمدك » Laudamus te ، وآخر يسمى « نباركك » Benedicimus te وهكذا . وفي نظام الصوفيين — كما رآه ابن عربي — نجد أشخاصاً موكلين بالوعظ والتعليم بين المسلمين ، وهم الأقطاب ومفردهم « قُطْب » (وهو لفظ معناه المحور ، وهو قريب من معنى لفظ cardo, cardinis اللاتيني = قلب ، ومنه جاء لفظ الكريدفال) . وابن عربي كذلك يلقب كل قطب بلقب يقتبسه من لفظ القرآن ، فواحد لقبه « الله محمود » ، وآخر لقبه « الحمد لله دواما » وهكذا ، وكل قطب مكلف بأن يعظ بلقبه ويردده في الخلافتين .

أما كتاب « الصديق والمحبوب » El Libro del Amigo y del Amado فيتفق في مبدئه الأساسي مع ما ذكره ابن عربي في كتابه « ترجمان الأشواق » ، ويقول لوليو : « إن الغاية التي يؤدي إليها الحب الروحي هي المطابقة » (*) ، وذلك بأن تصير ذات المحبوب نفس ذات الحب ، وأن تكون المطابقة متبادلة فتصير ذات الحب نفس ذات المحبوب كذلك » .

ولنذكر إلى جانب ذلك أن لوليو كان يكتب العربية كما يكتب لغته النطلوونية ، وأنه كان يستعملها في مجادلاته مع المسلمين وفي التبشير في المغرب .

(*) Cf : JULIAN RIBERA, *Orígenes de la filosofía de Raimundo Lullo*; in *Disertaciones y Opúsculos* (Madrid, 1928), tomo I, pp. 169-172.

(*) استعملت هنا اللفظ ترجمة لفظ identificación ، والصوفيون يسمون ذلك في مصطلحهم مُنَازَلة ، ولكي آثرت الترجمة الحرفية للفظ الإسباني .

وقد كتب مؤلفه المسمى « كتاب الكافر والعلماء الثلاثة » : El libro del gentil y los tres savis بالعربية أولاً — وهو كتاب كان واسع الذبوع في العصور الوسطى — ثم ترجمه بنفسه إلى القطلونية ، وعنها نُقل إلى العبرية واللاتينية والفرنسية والإسبانية (تمت الترجمة للغة الأخيرة في عام ١٣٧٨ على يد القرطبي جندالو سَنَشِيذ دِ أوثيدا Gonzalo Sánchez de Uceda) وقد ألّفه لوليو على أساس من الكتاب الخزري ليهودا هلاوى (ف ١٤٣) ، وربما يكون قد استوحاه من ترجمة عربية لحكاية « برعام » . أما كتاب لوليو المسمى « كتاب التتري والنصراني » Libro del Tártaro y del Cristiano فهو صياغة أخرى لكتاب « الكافر والعلماء الثلاثة » لِلُولِيُو نفسه ، وفيه إشارات كثيرة واضحة إلى « كتاب الخزري » .

وملاوة على هذا الأثر الإسلامي العميق — الذي يبدو بوضوح في كتاب « بلانكيرنا » ، وقد بينه ريبيرا في وضوح — فإننا نجد في تضاعيف كتاب لوليو المسمى « الكتاب السعيد في عجائب الدنيا » : Libre Felix de les meravelles del món (١٢٨٦ م .) « حكاية خرافية طويلة تتخللها قطع من قصيدة تهكمية منشورة ونحوى إلى جانب ذلك خرافات أخرى قصيرة كثيرة ، وهذه الحكاية الخرافية الطويلة هي « كتاب المعجوات » Libre de les Bèsties ، وقد ألّفه لوليو على مثال الكتاب العربي المعروف « كليلة ودمنة » ، إذ أن لوليو أخذ عنه القالب الخرافي وكثيراً من الحكايات . بيد أننا نجد هذه الاقتباسات في كتب لوليو محرفة عن الأصل العربي للكتاب تحريفاً ظاهراً يمس مادتها نفسها . ولا نحسب أن لوليو تعمد هذا التحريف واعتسفه على هواه ، وإنما سببه أن الأصل لم يكن بين يديه وهو يؤلف ، ولكنه كان يبحى في ذاكرته معاللة الرئيسية فحسب ، كما يقول منندز بلايو (*) .

(*) MENÉNDEZ PELAYO, *Estudios y discursos de crítica histórica y literaria* (Madrid, 1941) tomo I p. 211.

ف ١٥٢ — دانتى والإسلام (*) :

بعد سنوات طويلة من الجدل والمناقشات على صفحات المجلات والدوريات العلمية في العالم كله ، أتيج للنظرية التى بسطها ودلل على صحتها بالبراهين الأستاذ ميغيل آسين پلاثيوس — فى كتابه عن « الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية » ، الذى نشره لأول مرة عام ١٩١٩ — أن تسير فى طريقها وتأخذ مكانها من إقرار العلماء^(١) . وقد ذهب آسين فى هذا الكتاب إلى أننا نجد فى الأدب الإسلامى « مفتاح جانب كبير مما استطاع الناس — وما لم يستطيعوا — تفسيره من المسائل المتعلقة « بالكوميديا الإلهية » ، أى أننا نجد فى هذه الآداب الإسلامية أصول بعض ما ذهب الدانتشيون إلى أنه أخذه عن مفكرين نصارى سابقين عليه فى الزمن ، وبعض ما لم يجدوا له أصلا فنسبوه إلى عبقرية دانتى وخياله المبدع » .

ذهب آسين إلى أن الأصل الإسلامى الذى يمكن أن يكون قد أوحى بفكرة « الكوميديا الإلهية » هو « إسرائ » الله برسوله (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد الأقصى و « عروجه » به إلى السماء . وقد صاغت أخيلة المسلمين أساطير

(*) تركت هذا الفصل على حاله ، مع أن الوضع فى هذا الموضوع قد تغير تماما بعد أن عثر العلماء على الترجمتين اللاتينية والبروقنسية للنص العربى لقصة المعراج ، التى تعتبر الأساس الذى بنى عليه دانتى ، مما قد يفتح عن هذه المناقشة الطويلة التى يجدها الفارئ هنا . ولكنى أبقيتها لأتأنا لم نجد النص العربى لقصة المعراج بعد ، ولأنى أردت أن يطلع الفارئ على هذا المنهج العلمى البديع ، الذى سلكه آسين پلاثيوس لى يصل إلى إثبات هذه النظرية ، التى تعتبر من أهم الكشوف العلمية فى ميدان الاستشراق خلال هذا القرن . انظر :

La Escala de Mahoma, Traducción del árabe al castellano, latín y francés, ordenada por Alfonso X el Sabio. Edición.. por José Muncz Sendino. Madrid, 1949.

ENRICO CERULLI, *Il Libro della Scala e la questione delle fonti árabe-espagnole della Divina Commedia*. Citta del Vaticano, 1949.

كثيرة حولها ذاعت بين جماهيرهم ذيوغاً واسعاً ابتداء من القرن التاسع (الميلادى) على الأقل ، ثم زاد عليها أهل الدين والتصوف والأدب من المسلمين ، وأضفوا عليها ثوباً شاعرياً فيما تلا ذلك من العصور . ونحن نجد فى هذه الأساطير أن بطل القصة محمداً (صلى الله عليه وسلم) — أو شخصاً آخر عادياً — يحكى بنفسه قصة صعوده إلى السماء كما فعل دانتى فى قصته الشعرية ، فيقص بلفظه ما وقع له وما شهدته أئنائه . وكلتا الرحلتين — الكوميديا الإلهية و « الإسراء » — تبدآن ليلاً فى أعقاب حلم عميق . ونحن نجد فى أساطير المراج الإسلامية ذنباً وأسدأً يقطعان طريق الخروج من النار على المُسْرَى به إلى السماء ، ويقابل ذلك ما يحكىه دانتى من أنه وجد فهدة وذنباً وذئبة على مخرج جهنم تحول بينه وبين الدخول . ثم إننا نجد هذا الرحالة المسلم يلقى الخَيَّتَمُور شاعر الجن فى حديقة كثيفة الشجر بين السماء والنار ، وتوصف هذه الحديقة بأنها مقام الجن (*) ، بالضبط كما يقود فرجيلُ الشاعرُ القديم دانتى إلى بستان الليمبو مقام الأبطال والعباقرة من أهل العصر القديمة . ويذكر دانتى أن « السماء » أسرت فرجيل بأن يعرض على دانتى أن يكون دليله ، وفى « المراج » الإسلامى يقود جبريلُ محمداً فى رحلته .

(*) يتابع المؤلف هنا آسبن هلاينوس فيما ذكره فى كتابه :

La Escatología Musulmana en la Divina Comedia (Madrid, 1945) pp. 93 sqq.

وهذا بدوره يتابع هنا « رسالة الفران » لأبى العلاء . والرسالة لا تذكر هنا « بستاناً ملفف الشجر » un frondoso jardín بل « مدائن ليست كدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشعاني ، ومى ذات أوحال وغماميل ، فيقول لبعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ فيقول : هذه جنة المفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى الأحقاف فى سورة الجن ، وعم عدد كثير ... » ثم تقول بعد قليل : « فيقول : ما اسمك أيها الشيخ ؟ فيقول : أنا الخيتصور أحد بنى الشيطان ، ولست من ولد إبليس ، ولست من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم صلى الله عليه . طبعة كامل كيلانى ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ٨٥ — ٨٦ .
والنهاميل جمع غملول وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والتبت ، أو الوادى ذو الشجر الطويل القليل الرض اللتف .. الخ .

وصور المذاب متشابهة في جحيم دانتى وفي جهنم التى يصفها القصص فى أساطير المراجع الإسلامية ، فى القصص الإسلامى نجد ما يقول دانتى من أنه رآه فى « جحيمه » من أن عواصف هوجاً من النار تلتفح أهل الزنا^(*) . والطبقة الأولى من دار المذاب تلك توصف فى هذه الكتب على نفس النحو الذى توصف به مدينة « ديت » La Città di Dite فى القصيدة الإيطالية : محيط من النار تقوم على شواطئه قبور تشتعل فيها النيران^(**) ، ونجد أكلة الربا يحاولون عبثاً أن يصلوا سباحة إلى شاطئ بحيرة من الدم ، إذ يذودهم عنها حراس جهنميون يدفعونهم إلى الفوس من جديد . وهناك حيات مخيفة فى أطباق النار المختلفة

(*) أورد آسين مقابلات بين أوصاف هذه الريح كما أوردها الثعالبي فى « كتاب قصص الأنبياء » للسبى بالعرائس (طبعة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ١٣٢٤) وأوصافها كما يوردها دانتى فى الأشودة الخامسة من الكوميديا الإلهية ، والأرقام تشير إلى آيات الأشودة : قصص الأنبياء للثعالبي (ص ٤٠) جحيم دانتى ، الأشودة الخامسة

السحابة السوداء (49) briga
 (51) la bufera
 (51) l'aer nero
 (89) l'aer perso ريح فيها كسبب النار
 (51) l'aer. . si gastiga ريح فيها عذاب ألم
 (86) l'aer maligno الريح القيم
 Mena gli spirti con la sua rapina (32) فتحلهم ... وتدمنهم حتى هلكوا
 Voltando e percotendo gli molesta (33) والرجال تطير بهم بين السماء والأرض
 Di qua, di là, di giù, di su gli mena (43) فجملت الريح تدخل تحت الواحد منهم
 Portate alla detta briga (49) فتحمله ثم ترى

Cf : ASIN PALACIOS, op. cit. p. 151, n.1.

(**) جاء فى حديث المراجع المنسوب لابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة جهنم : « ... فقلت يا مالك (خازن جهنم) اكشف عن أطباق جهنم لأنظر إليها ، فقال : لا تستطيع النظر إليها ! وإذا النداء : يا مالك ، لا تخالف له أمراً ! فمذ ذلك فتح باب =

تعذب أهل النهم والأشقياء في جحيم دانتى ، وكذلك نجد في الجحيم الإسلامى الطواغيت وأكلة أموال اليتامى والمرايين . أما العطش المجهود الذى يعانى به المزيغون في الطبقة المائتة من الحلقة الثامنة من جحيم دانتى في السكوميديا الإلهية (*) ، فهو عذاب شاربى الحجر في الأسطورة الإسلامية ، فقد جاء فيها : « ... ثم نظرت فرأيت أقواما يستغيثون من العطش ، فتأتيهم الزبانية بأقداح من نار ، فإذا تناولوها سقط لحم وجوهرهم من حرها ، فإذا شربوها قطعت أمعاءهم وخرجت من أديبارهم ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : شراب الحجر ! » (†) . أما ما وصفه دانتى من عذاب صنوف أخرى من المزيغين بانتفاخ بطونهم ، فنجدده من نصيب أكلة الربا في صورة أخرى للأسطورة الإسلامية ، فهي تقول : « ثم نظرت وإذا يقوم بطونهم كأمثال الجبال تغلى حيات وعقارب ، كلما هم أحدهم أن يقوم سقط على وجهه من عظم بطنه ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : آكلو الربا ! » (‡) .

== جهنم مقدار خرم الإبرة ، نفريح [ورقة ٨٥] منها وهج ودخان لو دام ساعة لأظلمت السموات والأرض ، فنظرت فيها ، فإذا هي سبع طباق بعضها فوق بعض ، فلم أستطع النظر إليها لشدة عذاب الكفار والمشركين ، فنظرت إلى الطبقة الأولى منها ، وإذا هي طبقة أهل الكبائر ، ورأيت فيها سبعين بحرا من نار ، وعلى كل ساحل بحر مدينة من نار ، في كل مدينة سبعون ألف بيت من نار ، في كل بيت سبعون ألف صندوق من نار ... » . ونجد هذه الصورة في وصف مدينة ديتيه في جحيم دانتى ، فعزى دانتى وفرجيل عندما يقتربان من شواطئ بحيرة استيجيا Estigia يتبينان أنها مدينة من نار ، وهي كلها أشبه بمدفن هائل فيه قبور لا يحصى عددها ، يفصل أحدهما عن الآخر بحر من اللهب يجعل كل قبر يبدو وكأنه لسان من النار يتلظى فيه أصحاب الضلالت ، وهم مسجونون في هذه المحابس التي تشبه صناديق من الحديد الملتهب ... » .
انظر :

ASIN, op. cit. pp. 28-29.

وهو يشير إلى « حديث المراج » المنسوب إلى ابن عباس ، مخطوط بمكتبة لايدن رقم ٧٨٦ (أورد نصه في ص ٤٣٢ وما يليها من كتابه الآنف الذكر) ، وللى جحيم دانتى ، أنشودة ٨ ، الأبيات ٦٧ — ٧٥ ، وأنشودة ٩ ، سطر ١٠٩ وما يليه .

(*) انظر : جحيم دانتى ، أنشودة ٣٠ ، سطور ٤٩ — ٥٧ و ٨١ — ٨٤ و ١٠٢ و ١٠٦ — ١٠٧ و ١١٩ و ١٢٣ .

(†) حديث المراج المنسوب لابن عباس المشار إليه آنفا ، انظر كتاب آسین ص ٤٣٣ .

(‡) قس المرجع والصفحة .

ومجد نفراً من أهل جهنم الخالدين فيها في جحيم دانتى يحكون بأظفارهم البرص الذى يغطى جلودهم ، بالصبط كما يعذب شهود الزور والنمامون في الأسطورة الإسلامية (*) . ومجد الفشاشين في الخندق الخامس من الدائرة الثامنة من جحيم دانتى غارقين في ركة من القار ، يطعنهم الشياطين بحراب من الحديد كلما طفقوا على وجهها (**) ، ويقابل ذلك عذاب العاقين والديهم في الأسطورة الإسلامية : « ثم رأيت رجالاً وساء يعذبون في النار ، قد وكلت بهم زبانية بمقامع من حديد ، كلما استغاثوا يقمعونهم ويطعنونهم رماح من نار في بطونهم ويضربونهم بسياط من نار ، فلم أر أحداً من أهل الكبائر أشد عذاباً منهم ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : العاقون والديهم ا » (†) . ويعذب أهل البدع والضلالات في جحيم دانتى بعذاب رهيب إذ تطعنهم الشياطين أبدأ ، ثم يبعثون من جديد ويُردون إلى الطعن ، وهذا هو عذاب القتل في جهنم كما تصورهم الأسطورة الإسلامية ، فهي تقول : « ... ثم رأيت أقواماً تذبجهم الزبانية بسكاكين من نار ، كلما ماتوا عادوا كما كانوا ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يقتلون النفس التى حرم الله » (□) .

أما صور الصفاء الروحي التى يمتاز بها فردوس دانتى فنلقاها في بعض صور الأسطورة الإسلامية : فإن الأحاديث النسوبة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأناشيد كتاب الفردوس من قصة دانتى لا تستعمل في أوصاف دار النعيم إلا عناصر ثلاثة ، هي : الألوان والأضواء والموسيقى ؛ وهى تستعملها في تصوير المقام المثالى

(*) نفس المصدر والصفحة . وهذا هو عذاب حرافولينو داريزو Graffolino d' Arezzo وكابوكيو دى سينا Capocchio di Siena في جحيم دانتى .

انظر : الجحيم ، أنشودة ٢٩ ، سطور ٧٩ — ٨٧ . آسین ، نفس المرجع ، ص ٢٩ . (**) جحيم دانتى في نهاية الأنشودة الحادية والعشرين .

(†) نفس المصدر والصفحة .

(□) نفس المصدر ، ص ٤٣٤ . وجحيم دانتى ، أنشودة ٧٨ ، سطور ٢٢ — ٤٢ .

غير العادى الذى تمتاز به الحياة المباركة . وكلما انتقل محمد (صلى الله عليه وسلم) فى الأسطورة الإسلامية — ودانتى فى قصيدته — من طبقة إلى طبقة ، يزداد الضياء شيئاً فشيئاً حتى يعشى بصريهما ويحسبان أنهما فقدوا البصر ، ويرفعان أيديهما إلى أعينهما بحركة غريزية ليقيا أعينهما من النور الساطع ، فيعده جبريل فى الأسطورة الإسلامية — وبياتريس فى القصة الدانتية — إلى التخفيف عنهما وبث الطمأنينة فى قلوبهما ، ويسألان الله لهما مزيداً من البصر حتى يستطيعا تأمل الضياء الساطع ، فيهبهما الله مزيداً من النور فيتمكنان من الإبصار واسكنهما لا يستطيعان وصف ما يريان . [قارن مثلاً قول دانتى فى الأنشودة الأولى من « الفردوس » ، سطرى ١٢٨ — ١٢٩ :

Par. III, 128-9 :

Ma quella folgorò nello mio sguardo
sì, che da prima il viso nol sofferses(*)

وفى الأنشودة الخامسة والعشرين من « الجنة » ، سطور ١١٨ — ١٢١ :

Par. XXV, 118-121 :

Quale è colui ch'adocchia, e s'argomenta
di veder eclissar lo Sole un poco,
che per veder non vedente diventa ;
tal mi fec'lo a quell'ultimo fuoco.(*)

وفى الأنشودة ٢٣ ، سطور ٢٨ — ٣٣ :

Par. XXIII, 28-33 :

Vid'lo sopra migliaia di lucerne
un Sol, che tutte quante l'accendea,
come fa'l nostro le viste superne :
e per la viva luce trasparea
la lucente sustanzia tanto chiara,
che lo mio viso non la sostenea.(†)

بما جاء فى الحديث الذى أسنده السيوطى إلى ابن حبان فى وصف السماء السابعة :
« ... وأنوارهم شتى لا يشبه بعضها بعضاً ، وأجنحتهم شتى لا يشبه بعضها بعضاً ،

(*) Cf. ASIN. op. cit. p. 46.

(*) Cf. ASIN. op. cit. p. 46.

(†) Cf. ASIN. op. cit. p. 46.

تَحَارَ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ دُونَهُمْ ، فَدَبَّتْ عَيْنَايَ دُونَهُمْ لَمَّا رَأَتْ مِنْ مَجَائِبِ خَلْقِهِمْ
 وَشِدَّةِ هَوْلِهِمْ وَتَلَاوُهِ أَوَارِمِهِمْ ، فَخَالَطَنِي مَسْهُمٌ فَزَعٌ شَدِيدٌ حَتَّى اسْتَعْلَتَنِي الرَّعْدَةُ ،
 فَفُظِرْتُ إِلَى جَبْرِيلَ فَقَالَ : لَا تَخَفْ يَا مُحَمَّدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَكْرَمَكَ بِكَرَامَةٍ
 لَمْ يَكْرَمْ بِهَا أَحَدًا قَبْلَكَ ... فَلَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنِي قَدْ نَسِيتُ مِنْ مَجَائِبِ خَلْقِ اللَّهِ
 الَّذِي دُونَهُمْ ، وَلَمْ يُؤْذَنَ لِي أَنْ أَحْدِثْكُمْ عَنْهُمْ ، وَلَوْ كَانَ أُذُنٌ لِي لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ
 أَصِفَهُ لَكُمْ ... وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَوَانِي بِذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ وَتِمَامِ نِعْمَتِهِ ، وَمِنْ عُلَى
 بِالثَّبَاتِ عِنْدَ مَا رَأَيْتُ مِنْ شِعَاعِ نُورِهِمْ وَسَمِعْتُ دَوَى أَصْوَاتِهِمْ بِالتَّسْبِيحِ ، وَحَدَّدَ
 بِصُرَى لِرُؤْيَيْهِمْ كَيْ لَا يُخْطَفَ مِنْ نُورِهِمْ ... ثُمَّ جَاوَزْنَا مَا يَأْذَنُ اللَّهُ مُتَّصِعِينَ إِلَى
 عَلِيَيْنَ حَتَّى ارْتَفَعْنَا فَوْقَ ذَلِكَ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى بَحْرٍ مِنْ نُورٍ يَتَلَاوُ لَا يَرَى لَهُ طَرَفٌ
 وَلَا مَتْنَهَى ، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ حَارَ بِصُرَى دُونَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ
 رَبِّي قَدْ امْتَلَأَ نُورًا وَالتَّهَبَ نَارًا ، فَكَادَ بِصُرَى يَذْهَبُ مِنْ شِدَّةِ نُورِ ذَلِكَ الْبَحْرِ ،
 وَتَمَاطَفَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ تَلَاوُهِ ، وَأَفْطَعَنِي حَتَّى فَزَعَتْ مِنْهُ جِدًا ... » (*) .

وَكَلَامَهَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ طَائِرًا يَحْمِلُهُ دَلِيلُهُ فِي سُرْعَةٍ مَارِقَةٍ كَأَنَّهَا سِرْيَانُ
 الرِّيحِ أَوْ مَرْوَقُ السَّهْمِ ، وَالدَّلِيلُ فِي كُلِّ الْحَالَتَيْنِ يَرْشِدُ الزَّائِرَ وَيَطْمِئِنُّهُ وَيُجِيبُهُ
 عَمَّا يَتَطَلَعُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَيُعَلِّمُهُ وَيَرْجُو لَهُ اللَّهُ وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ . [قَارَنَ
 مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآنْفِ الذِّكْرَ : « ... ثُمَّ جَاوَزْنَا مَا يَأْذَنُ اللَّهُ مُتَّصِعِينَ فِي جَوْ عَلِيَيْنَ
 أَسْرَعَ مِنَ السَّهْمِ وَالرِّيحِ ... » وَ « ... فَسَرَتْ مَعَ جَبْرِيلَ ... مِنْ عَلِيَيْنَ يَهْوَى
 مُنْقَضًا أَسْرَعَ مِنَ السَّهْمِ وَالرِّيحِ ... » بِقَوْلِ دَانْتِي فِي الْأَنْشُودَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ
 « الْفَرْدُوسِ » ، سَطْرِي ٢٣ — ٢٤ :

Par. II, 23-24 :

E forse in tanto, in quanto un quadrel posa
 e vola e dalla noce si dischiava.

وقوله في الأنشودة الخامسة من « الجنة » ، سطر ٩١ — ٩٢ :

(*) انظر :

ASIN, op cit. p. 46. n. 1-5.

و « اللَّائِي الْمَصْنُوعَةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ » لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، طبعة المكتبة
 الحسينية المصرية بالأزهر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥٢ ، ج ١ ، ص ٦٨ — ٦٩ .

Par. V, 91-92 :

E si come saeta, che nel segno
percuote pria che sia la corda queta](*)

وعندما تبلغ بياتريس بدانتى الدرجات العليا من صعودها نرى القديس
برناردو يحمل محلها ، وكذلك جبريل يترك محمداً عندما يقارب العرش فيهبط إليه
رفرف من نور يصعد به . [قارن ما جاء فى حديث ابن حبان المشار إليه :
« فلما أُسْرِيَ بى إلى العرش وحاذيته دُلِّي لى رفرف أخضر لا أطيق صفته لكم ،
فأهوى بى جبريل ، فأقعدنى عليه ، ثم قصر دونى ، ورد يديه على عينيه مخافة
على بصره أن يلتصع من تلالؤ نور العرش ، وأنشأ يبكي بصوت رفيع ، ويسبح
الله تعالى ويمجده ويثني عليه ، فرفعى ذلك الرفرف بإذن الله ورحمته إياى وتمام
نعمته علىَّ إلى سيد العرش ، إلى أمر عظيم لا تناله الألسن ولا تبلغه الأوهام ... »
(ص ٧٤ من المرجع المذكور) بما يقوله دانتى فى الأنشودة الثالثة والثلاثين من
« الفردوس » ، سطور ٧٦ — ٨٤ :

Par. XXXIII, 76-84 :

Io credo, per l'acume ch'io sofferesi
del vivo raggio, ch'io sarei smarrito
se gli occhi miei da lui fossero aversi.
E mi ricorda ch'io fu' più ardito
per questo a sostener tanto, ch'io giunsi
l'aspetto mio col Valore infinito.
O abbondante grazia, ond'io presunsi
ficcar lo viso per la luce eterna
tanto, che la veduta vi consunsi.](**)

ولا يتوافق الصعودان — الدانتى والإسلامى — فى الخطوط العامة فحسب ،
بل هناك حلقات ذات صور ملموسة يتفق الاثنان فيها : فالنسر الضخم الذى رآه
دانتى فى سماء چو پيترو قال : إنه — أى النسر — يتكون من حشد يضم آلافاً من
الملائكة لم أجنحة ووجوه فحسب ، يشع منها نور باهر ، وهى تحقق بأجنحتها
مرتلة أنغام الترنيمات الإنجيلية ، ثم يسكن النسر رويداً رويداً ويحط ، كل هذا

(*) Cf : ASIN. op. cit. p. 43, n. 1

(**) Cf : ASIN, op. cit. p. 48, n. 1.

ما هو إلا تفضيل لصورة الملك المارد الذى رآه محمد (صلى الله عليه وسلم) ينحول إلى ديك ينفخ بجناحيه ، ويغنى ترتيلات دينية ، ثم يحط بعد قليل مع ملائكة تبدوله وكأن كلا منها مجموع لا عدده من الوجوه والأجعدة ، ينبعث منها النور وتنغى في لغاتها التى لا حصر لها . [قارن ما ورد في الحديث الذى سبقت الإشارة إليه عن ابن حبان : حدثنا محمد بن سدوس النسوى ، حدثنا حميد بن زنجويه ... عن ابن عباس سرفوعاً : لما أسرى بى إلى السماء رأيت فيها أعاجيب من عباد الله وخلقه ، ومن ذلك الذى رأيت في السماء ديك له زغب أخضر وریش أبيض ، بياض ريشه كأشد بياض رأيت قط ، وزغبه تحت ريشه أخضر كأشد خضرة رأيتها قط ، وإذا رجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش الرحمن ، ثانياً عنقه تحت العرش ، له جناحان في منكبيه ، إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب ؛ فإذا كان بعض الليل نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله يقول : سبحان الملك القدوس ! سبحان الله الكبير المتعال ! لا إله إلا هو الحى القيوم ! فإذا فعل ذلك سبحت دبكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها ، وأخذت في الصراخ ؛ فإذا سكن ذلك الديك في السماء سكنت الدبكة في الأرض (ص ٦٣ وما يليها من اللآلى) ... وصررت بملائكة كثيرة لا يحصى عددهم إلا الله الواحد الملك القهار ، منهم من له وجوه كثيرة في صدره ، وفي كل وجه من تلك الوجوه أفواه وألسن ، وهم يحمدون الله ويسبحونه بتلك الألسن كلها .. » (نفس المصدر ص ٦٧) . قارن ذلك بما يذكره دانتى في « الفردوس » ، أنشودة ١٨ ، سطر ١٠٠ :

Par. XVIII, 100 :

Poi, come nel percuoter de' ciocchi arsi
surgono innumerabili faville.

Ibid, 103 :

نفس الأنشودة ، سطر ١٠٣ وما يليه :

Risurger parver quindi più di mille
luci, e salir quali assai e qua' poco,
sì come'l Sol, che l'accende, sortille.

E, quietata ciascuna in suo loco,
la testa e'l collo d'un aquila vidi
rappresentare a quel distinto foco.

Par. XIX, 1 : : سطر ١ وما يليه :

Parea dinanzi a me coll' ali aperte
la bella image, che nel dolce frui
liete faceva l'anime conserte.
Parea ciascuna rubinetto, in cui
raggio di sole ardesse sì acceso,
che ne' miei occhi rifrangesse lui.

Ibid. 34 : : نفس الأنشودة ، سطر ٣٤ :

Quasi falcon, che, uscendo del cappello,
muove la testa, e con l'ale s'applaude.

Ibid. 37 : : نفس الأنشودة ، سطر ٣٧ :

Vid' io farsi quel segno, che di laude
della divina grazia era contesto,
con canti, quai si sa chi lassù gaude.

Ibid. 95 : : نفس الأنشودة ، سطر ٩٥ وما يليه :

La benedetta immagine, che l'ali
movea sospinte da tanti concigli,
roteando cantava, e dicea.](*)

وكلا الدليلين إذا وصل بزائره إلى سماوات العجوم دعاه إلى تأمل الكون
المخلوق وصفه . وصفة المشهد الإلهي في كلا الحالين واحدة : فالله مركز أو نقطة
من النور الباهر تحيط به تسع دوائر ذات مركز واحد ، وتتألف هذه الدوائر من
الملائكة محشودين بعضهم إلى جانب بعض في صفوف تنبعث منها أشعة من النور.
وأقرب هذه الصفوف الدائرية من الملائكة إلى مطلع النور هو صف الملائكة
الكروبيين ، وكل صف يحف بالذي يليه ، والصفوف كلها تدور أبداً حول
مطلع الضياء الإلهي ، والزائر يتأمل هذا المشهد الأورع ، مرة عندما ينهي من

(*) Cf : ASIN. op. cit. p. 51-52

صعوده ومرة عند ما يمثل بين يدي العرش . والصور التي تتمثل في نفس كليهما أثناء الرؤية المباركة واحدة : يظل كلاهما واجهاً مشدوه البصر غارقاً في بحر النور الإلهي حتى ليظن أنه فقد البصر ، ولكن بصره لا يلبث أن يتبين ما يرى ويحدده ، وينتهي بأن يستقر في مطلع النور ويثبت عينيه فيه متأملاً ، ويشعر أنه عاجز عن أن يصف ما يرى ، وكل ما يذكره هو أنه أحس إشراقاً روحياً أو ظن أنه كان مستوسفاً ، ويسبق ذلك كله شعور بلذة كبرى . [قارن ما يقوله ابن حبان في « الحديث » المذكور : « ... ثم جاوزناهم بإذن الله متصعين في جوعلين أسرع من السهم والريح بإذن الله وقدرته ، حتى وصل بي إلى عرش ذي العزة العزيز الواحد القهار . فلما نظرت إلى العرش فإذا ما رأيته من الخلق كله قد تصاغر ذكره وتهاون أمره واتضع خطره عند العرش ، وإذا السموات السبع ، والأرضون السبع ، وأطباق جهنم ، ودرجات الجنة ، وستور الحجب ، والنار ، والبحار ، والجبال التي في عليين ، وجميع الخلق والخليقة إلى عرش الرحمن كحلقة صغيرة من حلق الدرع ، في أرض خلاء واسعة تباء ، لا يعرف أطرافها من أطرافها ، وهكذا ينبغي لمقام رب العزة ... فغار بصري دونه حتى خفت العصى ، فغمضت عيني ، وكان توفيقاً من الله ، فلما غمضت بصري ردّ إلهي بصري في قلبي ، فحملت أنظر بقلبي نحو ما كنت أنظر بعيني نوراً يتلألأ ، نهيت أن أصف لكم ما رأيت من جلاله ... ووجدت عند ذلك حلاوته وطيب ريحته وبرد لذاذته وكرامة رؤيته ، فاضمحل كل هول كنت لقيت وتجلت عني روعاتي واطمأن قلبي وامتلاأت فرحاً وقرت عيناي ، ووقع الاستبشار والطرب عليّ حتى جعلت أميل واتكفأ يميناً وشمالاً وأأخذني مثل السبات ، وظننت أن من في الأرض والسموات ماتوا كلهم ، لأنني لا أسمع شيئاً من أصوات اللائكة . ولم أر عند رؤية ربي أجرام ظلمة ، فتركني إلهي كذلك إلى ما شاء الله ، ثم ردّ إلى ذهني ، فكأنني كنت مستوسفاً ... » (الآلي ، ج ١ ، ص ٧٣ - ٧٥)

ثم يقول بعد ذلك : « ... ثم قلت : يا جبريل ، من الملائكة الذين رأيتُ في البحور ، وما بين بحر النار إلى بحر الصافين ، والصفوف بعد الصفوف كأنهم بنيان مرسوص ، متضايقين بعضهم في بعض ؟ ثم ما رأيت خلفهم نحوهم مصطفين صفوفًا بعد صفوف وفيما بينهم وبين الآخرين من البعد والأمد والنأى ؟ فقال : يا رسول الله ، أما تسمع ربك يقول في بعض ما نزل عليك : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » ؟ وأخبرك عن الملائكة أنهم قالوا : « وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » ؟ فالذين رأيت في بحور عليين هم الصافون حول العرش إلى منتهى السماء السادسة ، وما دون ذلك هم المسبحون في السموات ، والروح رئيسهم الأعظم كلهم ، ثم إسرافيل بعد ذلك . فقلت : يا جبريل ، فن الصف الأعلى الذى في البحرفوق الصفوف كلها ، الذين أحاطوا بالعرش واستداروا حوله ؟ فقال جبريل : يا رسول الله ، إن الكروبيين هم أشرف الملائكة وعظماؤهم ورؤسائهم وما يجترى أحد من الملائكة أن ينظر إلى ملك من الكروبيين ... » (نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٧٧) . قارن ذلك بما يقوله دانتى في الفردوس :

الفردوس ، أنشودة ٢٨ ، سطور ١٦ — ١٨ :

Par. XXVIII, 16-18 :

Un punto vidi che raggiava lume
acuto sì, che 'l viso ch' egli affuoca
chiuder conviensi per lo forte acume. (*)

Ibid. 25-34 : نفس الأنشودة ، سطور ٢٥ — ٣٤ :

Distante intorno al punto un cerchio d' igne
sì girava sì ratto, ch' avria vinto
quel moto che più tosto il mondo cigne.
E questo era da un altro circuncinto,
e quel dal terzo, e 'l terzo poi dal quarto.
dal quinto 'l quarto, e poi dal sesto il quinto
Sovra seguiva 'l settimo, sì sparto
già di larghezza, che 'l messo di Giuno
intero a contenerlo sarebbe arto.
Così l' ottavo e 'l nono. (*)

(*) Cf. ASIN. Op. cit. p. 47

(*) Cf. ASIN. Op. cit. p. 55.

نفس الأنشودة ، سطور ٨٩ — ٩٣ :

Ibid. 89-93 :

Non altrimenti ferro disfavilla
che bolle, come i cerchi sfavillaro.
L' incendio lor seguiva ogni scintilla ;
ed eran tante, che 'l numero loro
più che 'l doppiar degli scacchi s' immilla.

الفردوس ، أنشودة ٣٠ ، سطور ١٠٠ — ١٠٥ :

Par. XXX, 100-105 :

Lume è lassù, che visibile face
lo Creatore a quella creatura,
che solo in lui vedere ha la sua pace ;
e si distende in circolar figura
in tanto che la sua circonferenza
sarebbe al Sol troppo larga cintura.

الفردوس ، أنشودة ٣٣ ، سطور ٥٧ — ٦٣ :

Par. XXXIII, 57-63 :

E cede la memoria a tanto oltraggio.
Qual è colui che sonniando vede,
e dopo 'l sogno la passione impressa
rimane, e 'l altro alla mente non riede,
cotal son io, che quasi tutta cessa
mia visione, ed ancor mi distilla
nel cuor lo dolce che nacque da essa.

نفس الأنشودة ، سطور ٩٣ — ٩٤ :

Ibid. 93-94 :

Dicendo questo, mi sento ch'io godo
Un punto solo m'è maggior letargo.

نفس الأنشودة ، سطور ٩٧ — ٩٩ :

Ibid. 97-99 :

Così la mente mia tutta sospesa
mirava fissa, immovile ed attenta
e sempre nel mirar faceasi accesa. (*)

(*) Cf : ASIN, op. cit. pp. 56 - 56 notas.

بل إن الروح العام لقصة دانتى ليس جديداً ، ولم تبتدع « الكوميديا الإلهية » المعنى الرمزي الأخلاقى الذى تمتاز به ابتداء ، فقد سبقها إليه الصوفيون المسلمون وخاصة ابن عربى المرسى ، إذ أنهم اتخذوا من رحلة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى العالم الآخر وعروجه إلى السماء رمزاً على نشور الأرواح عن طريق الإيمان والفضائل اللاهوتية . وكل من دانتى وابن عربى يجعل هذه الرحلة رمزاً لحياة البشر ويرى أن الهدف الأخير للحياة والسعادة الكبرى فى الوجود إنما هى رؤية الله ، ولا تتأتى هذه الرؤية بغير هدى من اللاهوت ، إذ أن العقل العادى لا يصل بالإيمان إلا إلى « المراحل الأولى من هذا الطريق الطويل ، وهذه المراحل ما هى إلا رمز على الفضائل العقلية والأخلاقية ، فأما الوصول إلى مدارج الجنة العليا ، التى هى رمز الفضائل اللاهوتية ، فلا يدرك بغير إشراف إلهى » (*). وفى بعض صور الأسطورة الإسلامية لا نجد المخرج إلى السماء — ذلك الذى يصف الرحلة — محمداً (صلى الله عليه وسلم) وإنما رجلاً عادياً — كما ذكرنا — إنساناً خاطئاً تشوبه النقائص ، فتجمع القصة الإسلامية — كقصة دانتى — على هذا النحو بين خاصيتين تبدوان وكأنهما متناقضتين فى الظاهر : هما الرمز المثالى من ناحية ، والواقعية الإنسانية فى صميمها .

ثم يقول آسين : « إن قدراً عظيماً من العالم المكانية وتفاصيلها والمشاهد وأوصاف بعض حلقات « الكوميديا الإلهية » لا نجد له شبيهاً ظاهراً فى شتى الروايات التى وصلتنا عن قصة « المراج » الحمدي ، ولكننا نجد سوابقها ونماذج مماثلة لها فى بعض الأحيان فى أصول أخرى من الأدب الإسلامى . ونحن نجد هذه النماذج مشابهة لبعض تفاصيل القصة الدانتية حيناً ومطابقة لها حيناً آخر ، نجهدها إما فى تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تصف الحياة الأخرى ، أو فى الأساطير التى نسجها خيال المسلمين عن يوم الحساب ، وقد نجد فى مذاهب اللاهوتيين والفلاسفة والصوفية بصورة خاصة ، فقد اجتهد أولئك جميعاً فى ترتيب

(*) Cf : ASIN, op. cit. pp, 66 sqq.

هذه النصوص القرآنية والنبوية وتفسيرها وتعليقها .

ويطيل الأستاذ « آسين » الوقوف عند الصوفى المرسى النابه محيى الدين ابن عربى (١١٦٤/٥٥٩ — ١٢٤٠/٦٣٧) دون غيره من أهل الفكر الإسلامى ، ويذهب إلى أنه من الممكن أن نجد عنده الأصول التى قبس دانتى منها هيئة « جحيمه » ورتبه على مثالها . وإننا لنجد كلا الرجلين — دانتى وابن عربى — يميلان إلى استخدام الهيئة الدائرية أو صورة قبة الفلك : فأطباق الجحيم ومسارى النجوم ودوائر الوردة الصوفية وجماعات الملائكة التى تحف بمطلع النور الإلهى والدوائر الثلاث التى ترمز إلى الثلاث (عند دانتى) ، كل هذه وصفها الشاعر الفلورنسى كما وصفها الصوفى المرسى . بل إن ابن عربى رسم هذه الدوائر بيده ؛ وإنه لما يدعو إلى العجب أن الرسوم التى خططها الدانتيون بعد قرون كثيرة لينالوا بها أوصاف « الكوميديا الإلهية » تتفق تمام الاتفاق مع ما أودعه ابن عربى فى « فتوحاته » من رسوم .

وتوافق هذه الرسوم يقوم دليلا على وجود علاقة بين الأصل وما نُقل عنه ، وإنه لمن المستحيل — عقلا — أن يكون هذا التوافق قد وقع عن طريق المصادفة العارضة . ويقول آسين متمجبا : « ... ثم إن المصادفة العارضة ليست تعليلا علميا للوقائع التاريخية . والواقعة التاريخية التى تتجلى لـكل ذى نظر هى : أن محيى الدين بن عربى سَجَّلَ فى القرن الثالث عشر ، وقبل ميلاد الشاعر الفلورنسى بخمسة وعشرين سنة ، فى صفحات أربع متوالية من « فتوحاته » تخطيطات مواضع العالم الآخر كلها على شكل دائرى أو فلسكى ، وهذه الهيئات الدائرية تعتبر فى مذهب ابن مسرة — الذى يتبناه ابن عربى — تصويرا للكون وأصله ؛ ثم أتى دانتى بعد ذلك بثمانين سنة فأودع فى منظومة ضخمة رائعة تقع فى ثلاثة أقسام ، صفا شاعريا لنفس هذه المواقع من العالم الآخر وقد بلغ من دقة وصف هذه المعالم فى شعر دانتى أن شارحيه فى القرن العشرين تمسكوا من تمثيلها برسوم على هيئة أشكال

هندسية ، مطابقة في صميمها لتلك التى خطتها يد الصوفى المرسى قبل ذلك بسبعة قرون . فإذا لم يكن دانتى قد قلده هذه الأخيرة فإن هذا التطابق الذى قام الدلائل عليه لا يكون إلا لغزاً لا تفسير له أو معجزة من معجزات الإصالة (*) .

ويشير آسین إلى مواضع شبه أخرى بين المواقع التى تحدث عنها دانتى وتلك التى وصفها ابن عربى ، ومثال ذلك « الأعراف » التى ورد ذكرها فى القرآن وعرفها المفسرون الإسلاميون بأنها « تل بين الجنة والنار » (**) ، فقد أخذ دانتى منها فكرة « الليمبو » . و « جهنم » بوصفها الإسلامى المعروف هى « الإنفرنو » . Inferno (= الجحيم) عند دانتى . و « الصراط » الإسلامى هو الأصل الذى أخذ عنه دانتى « البرجاتوريو » Purgatorio (= المطهر) الذى نجده فى « الكوميديا الإلهية » (†) . و « المرج » الذى تذكره الأساطير الإسلامية وتصفه بأنه طريق بين الجنة والنار (□) هو « البراديزو تريستر Paradiso terrestre » ، أى « الجنة الأرضية » التى تحدثنا عنها « الكوميديا الإلهية » . والجنات الثمان ذات الهيئة الدائرية التى تضم « شجرة طوبى » أو « الشجرة المؤنسة » والتى يحدثنا عنها ابن عربى ، هى النموذج الذى احتذاه دانتى فى تصوير

(*) Cf : ASIN, op. cit. pp. 267.

(**) انظر : السيد مرتضى ، كتاب « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » ، طبعة أحمد البابى الحلبي ، القاهرة ١٣١١ ، ج ٨ ، ص ٥٦٦ .

(†) يفسر آسین الصراط هنا بما فسره به بعض المفسرين الإسلاميين من أنه جسر أو قنطرة أو عقبة . انظر تفسير حديث أبي الدرداء فى « إتحاف » للسيد مرتضى ، ج ١٠ ، ص ٤٨١ وما جاء فى نفس المرجع (ج ١٠ ، ص ٤٨٢) : « يضرب الصراط بين ظهري جهنم » وما يقوله ابن عربى فى الفتوحات ، ج ٣ ، ص ٥٧٣ : « يوضع الصراط من الأرض علواً على استقامة إلى سطح الفلك » .

Cf : ASIN, op. cit. pp. 179-185.

(□) انظر قول ابن مخلوف فى « كتاب العلوم الفاخرة فى النظر فى أمور الآخرة » ، طبعة ابن مراد التركى ، القاهرة ١٣١٧ ، ج ٢ ، ص ٦١ : « إن الناس إذا جاوزوا الصراط وقطعوا مسافته وجعلوا بهم خلف أظهرهم أنفصوا إلى طريق الجنة » .

ما يسميه شراحه « بالوردة الصوفية » أو « الوردة الدانتية » ، وهى الجنة السماوية عند هذا الشاعر الإيطالى الكبير . [فإن محمى الدين بن عربى يتحدث عن « صورة مجاورة الجنان الثمانية لبعضها بعضاً صورة دوائر ثمانية ، جنة فى قلب جنة » (*) ، ودانتى يقول فى الأنشودة الثلاثين من « الفردوس » ، سطر ١٠٣ وما يليه :

E si distende in *circolar figura*
in tanto, che la sua *circonferenza*
sarebbe al Sol troppo *larga cintura*.]

وكلا القصصين الإسلامى والدانتى يصف بيت المقدس بأنه المحور الذى يدور حوله العالم العلوى كله ، [ومن أمثلة ذلك ما يقوله أحد المفسرين فى شرح سبب عروج محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء من بيت المقدس : « قيل ليكون عروجاً مستويًا ، لما روى كعب الأحبار أن باب السماء الذى يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس »] (**). وكلا القصصين يجعل جهنم تحت موقع بيت المقدس . وفى أدنى دركات جهنم نجد « مقام إبليس » فى الأسطورة الإسلامية و « سجن لوسيفر » (أى الشيطان) فى القصيدة الدانتية ، وفوق موقع بيت المقدس فى العلامات تماماً توجد « سماء الألوهية » ، « مقام رب العرش » . وفى الجنة من « المنازل » بقدر ما فى النار فى أساطير المراجع الإسلامية وعند دانتى . ثم ينقسم كل من منازلها إلى « منازل » أصغر بحيث لا نجد موضعاً فى الجنة إلا يقابله موضع فى النار ، وذلك كله نجده على صورة واحدة فى الأسطورة الإسلامية والقصيدة الدانتية .

(*) فتوحات ج ١ ، ص ٤١٦ . وانظر أيضاً ج ٣ ، ص ٥٥٢ و ٥٦٧ وكتاب
اليوايت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر لشمس رانى ، مطبعة محمد رمضان ، القاهرة ١٣٧١ ،
ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(**) أورده آسبن عن المخطوط رقم ١٠٥ ، مجموعة جاينجوس ، للوجود حالياً فى مكتبة
مدرسة الدراسات الإسلامية فى مدريد .

ويعين آسين وجوه تشابه أخرى ، سواء فى حلقات القصة أو مشاهدتها ، ويصل هذا التشابه فى بعض الأحيان إلى التطابق الحرفى . وأَبَيْنُ ما يبدو لنا من أوجه هذا التشابه هى : « إن صنوف أهل « الليمبو » — فى القصيدة الدانتية — والعذاب الذى يصيب كل فريق منهم — يشبه عذاب من يقابله من أهل « الأعراف » فى الأساطير الإسلامية . فهذه « العواصف السود » التى يقول دانتى أنها تعصف بأهل الزنا فى جهنم هى « الريح » التى يذهب بعض الأحاديث الموضوعة إلى أن الله أرسلها على قوم « عاد » ، و « مطر النار » الذى يجعله دانتى عقوبة اللواط فى الأنشودة التاسعة من الجحيم ، سطر ١١٥ وما يليه ، هو « الجحيم » الذى ورد ذكره فى القرآن وفسره بعض المفسرين بأنه ماء يتلى وبعضهم الآخر بأنه « ذوب الحديد » أو « شواظ من نار ونحاس » . ويضيف دانتى إلى عذابهم فيجعلهم يسرون فى حركة دائرية أبداً ، وهذا منقول عما يذهب إليه بعض المفسرين المسلمين من أن « فى النار أقواماً ... تدور ... ما لهم راحة ولا فترة » (*) ويقول دانتى إن عذاب المنتهين هو سيرهم ورؤوسهم مائلة إلى الخلف ، وفى الأسطورة الإسلامية : « ... أن نجعل وجوههم من قِبل أقيمتهم ، فيمشون القهقري ، ونجعل لأحدهم عينين فى قفاه » . وفى قصيدة دانتى نجد كايڤاس Caifas مثبتاً على صليب ملقى على الأرض والناس تدوسه بأقدامها ، وفى الأسطورة الإسلامية نجد عذاب بعض الناس على هذه الصورة : « فيُسحب وهو على ظهره مصلوب » . أما دعاة البدع الدينية ورؤوس الفرق الضالة فيصورهم دانتى فى الجحيم يُطعنون دون أن يموتوا ، والأساطير الإسلامية تجعل لهم مثل هذا العذاب فى جهنم ونقول : « تنذبهم للملائكة بسكاكين ، وكلما ذبحوا واحداً منهم يعود كما كان ، ثم يُذبح » ، ودانتى يجعلهم يسرون وأمعانهم تتلذذ من بطونهم ، والأسطورة الإسلامية تقول إنهم يسرون « وهم يسحبون أمعانهم » . ويصور دانتى عذاب

(*) راجع عن ذلك كله :

بعض المذنبين بأن يسيرا مقطوعى الأيدى ، والأسطورة الإسلامية تقول إنهم « يقفون بين يدى ربهم مقطوعى الأيدى » . ومن صور العذاب التى يصفها دانتى أن بعض صنوف المذنبين يسرون فى الجحيم ورؤوسهم مقطوعة تتدلى بأيديهم أمامهم ، والأسطورة الإسلامية تقول : « يحىء المقتول والقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دماً » . أما المردة والعاقلة الذين نالهم فى القصيدة الدانتية فأوصافهم تنطبق على أوصاف من نلقاه من أمثالم فى الأساطير الإسلامية ، وأطوالهم مقدرة فى هذه وتلك على نحو متعادل تماماً . وتحديثنا الأساطير الإسلامية بعذاب الزمهرير ، وهى كما جاء فى أحد الأحاديث الموضوعة « جُبُّ يُلقَى فيه الكافر ، فيتمزق من شدة بردها بعضه من بعض » ، وهذا يشبه تماماً « التعذيب بالثلج » عند دانتى ، إذ أن قصيدة الشاعر الإيطالى تصور لوسيفر مطموراً فى الثلج عذاباً له ، وذلك شبيه بما يقول ابن عربى فى « الفتوحات » : « فعذاب إبليس فى جهنم بما فيها من الزمهرير ، فإنه يقابل النار فى نشأة إبليس ، فيكون عذابه بالزمهرير » (*) . ثم إننا نجد دانتى يتطهر مرتين فى أنهار الجنة الأرضية ثم يلقى بياتريس بعد ذلك ، وهذه ظاهرة ليست مسيحية أصلاً ، ولكنها تطابق — جملةً وتفصيلاً — ما تحكيه القصص الإسلامية من تطهر الأرواح ووضوء الناس ، بعد خلاصهم من عذاب النار وقبل دخول الجنة ، فى عين من ماء بارد [فى مثل صفاء القوارير ، أصفى من البلور ، وأبرد من الثلج ، وأشد مياضاً من اللبن ، فيغتسلون فيها اغتسالا تاماً ، وينظفون نظفًا عامًا ، يذهب به عنهم درن الأجسام وقر الوهج والقنام ، وتعود إليهم صفة الأجسام ، حتى تمد فى وجوههم بهجة ، وتعرف فى وجوههم بضرة النعيم .. ثم يسرون .. من ماء العين شربة تذهب عنهم لب الحر الذى كابدوه ، والعناء الذى باثروه ، ويرع

(*) ابن عربى ، الفتوحات ، ج ١ ، ص ٣٩١ .

ما فيهم من غل الصدور وحسدها، وكدر الدنيا ونكدھا » [(*)]. وأخيراً ، نجد ذلك ينطبق على الصورة الروحية التي يصور بها دانتى المشاهدة الإلهية ، فهو يمثلها على هيئة شعاع إلهى يفيض منه نور باهر وصفاء ذهنى وممتعة إشراقية . [وذلك يشبه قول ابن عربى فى « الفتوحات » : « إن الله يتجلى لعباده فى النور العام » ، وقوله بعد ذلك : « ... إذا هم بنور قد بهرهم ، فيخرون سجداً ، فيسرى ذلك

(*) ابن مخلوف : كتاب الملوام الفاخرة فى النظر فى أمور الآخرة ، طبعة ابن مراد التركى القاهرة ١٣٤٧ ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

وقارن بذلك قول دانتى فى الأنشودة الثامنة والمشرى من « المطهر » سطر ٢٨ وما يليه :

“Tutte l'acque, che son di qua più monde
parrieno avere in sè mistura alcuna
verso di quella, che nulla nasconde”.

وسطر ١٣٣ :

“A tutt' altri sapori esto è di sopra”.

وسطر ١٤٤ :

“Nèttare è questo di che ciascun dice”.

وفى الأنشودة الأولى من « المطهر » ، سطر ٩٥ — ٩٦ :

“... e che gli lavi 'lviso,
sì ch' ogni sucidume quindi stinga.”

وسطر ١٢٨ :

“Quivi mi fece tutto scoperto
quel color, che l'Inferno mi nascose”.

وقوله فى الأنشودة الثامنة والمشرى ، سطر ٢٨ :

“Che toglie altrui memoria del peccato;
dall' altra d'ogni ben fatto la rende”.

وفى الأنشودة الثالثة والثلاثين سطر ١٢٩ :

“La tramortita sua virtù ravviva”.

وسطر ١٣٨ :

“Lo dolce ber, che mai non m'avria sazio”.

وسطر ١٤٨ وما يليه :

“Io retornai dalla santissim' onda
rifatto sì, come piante novelle
rinnovellate di novella fronda,
puro e disposto a salire alle stelle”.

النور فى أبصارهم ظاهراً وفى بصائرهم باطناً ، وفى أجزاء أبدانهم كلها ، وفى لطائف نفوسهم ، فيرجع كل شخص منهم عيتاً كله ... فهذا يعطيهم إياه ذلك النور ، فبه يطيقون المشاهدة والرؤية ... فيتجلى الحق تعالى ، فينفق عليهم نور يسرى فى ذواتهم ... (*) . ومن الوضع جداً أن هذا — وأمثاله — هو الذى أخذ عنه دانتى قوله فى النشيد الثلاثين من المطهر :

Par. XXX, 10 : "Lume è lassù, che visibile face
io Creatore a quella creatura.
Fassi di raggio tutta sua parvenza
reflesso. . .
Sì, soprastando al lume intorno, intorno,
vidi specchiarsi in più di mille soglie. . .
E se l' infimo grado in sè raccoglie
sì grande lume. . . ,"

وقوله فى الأنشودة الثالثة والثلاثين من « المطهر » أيضاً :

Par. XXXIII, 76 : "Io credo, per l'acume ch' io soffersi
del vivo raggio, ch' io sarei smarrito,
se gli occhi miei da lui fossero aversi.
O abbondante grazia, ond'io presunsi
ficcar lo viso per la luce eterna
tanto, che la veduta vi consunsi" [(*)]

هذا الحشد الحافل من الأفكار والتخييلات والرموز والأوصاف فى القصصين يدل بوضوح على أن دانتى نظر إلى الأصول الإسلامية وحاكها . ولكن ، هل أنيح لدانتى سبيل الاطلاع على ما كتبه المسلمون عن قيام الساعة وما يتلوه ؟ وجواباً على هذا السؤال نقول : إن مسلماً الأندلس تداولوا فيما بينهم — منذ أول أيامهم فى هذا البلد — أساطير دينية عما بعد الموت ، بل كان المستعربون الأندلسيون ، ومن بينهم القديس يولج القرطبي San Eulogio de Córdoba

(*) ابن عربى ، الفتوحات ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

Cf : ASIN, op. cit. p. 248.

(*) cf : ASIN, op. cit, pp. 199—200

يعرفون سيرة لمحمد (ص) تختلط فيها الحقائق بالأخبار الموضوعة ، ونحن نجد أطرافاً من هذه السيرة في كتاب يولوج المسمى «مدىح الشهداء» Apologeticus Martyrum . وقد استعمل الأسقف لندريق الطليطلى (رديجو خيمينيث رادا ١١٧٠ — ١٢٤٧) في كتابه المسمى «تاريخ العرب» Historia arabum أصولاً عربية ، وأورد في هذا التاريخ ذكر «المعراج» ، وعنه أخذ ألفونسو العالم وأدخله في «تاريخه العام» La Crónica General de Espana الذى كُتب فيما بين سنتي ١٢٦٠ و ١٢٦٨ . وبعد سنوات قليلة نجده مذكوراً في كتاب «مكافحة طائفة محمد» La Impunación de la secta de Mahoma الذى ألفه أسقف جيان القديس پدرو پسكوال San Pedro Pascual أثناء أسره وحبسه في غرناطة .

وليس من السير أن تكون هذه الأسطورة الشائعة في إسبانيا قد انتقلت إلى إيطاليا وعرفها دانتى الذى فرغ من كتابه «الجميح» عام ١٣٠٦ م . ومن الواضح أننا لا نستطيع اليوم تعرف الطريق الذى وصلت هذه الأسطورة به إلى دانتى : لقد ذهب آسين إلى أنه من الممكن أن يكون ذلك قد تم على يد «برونيتو لاتينى» Brunetto Latini أستاذ دانتى ، إذ أن برونيتو هذا زار إسبانيا ، ومن الطبيعى أن يكون ذهنه المتقف وعقله الطلعة الظامى* إلى المعرفة قد اجتذبه بلاط طليطلة الذى غلب عليه الطابع الإسلامى وما حاطه من بهاء ، وقد انصل برونيتو بالفعل بمتجرى مدرسة طليطلة وقامت بينه وبينهم العلاقات ، وخالط كذلك أساتذة مدرسة إشبيلية ما بين مسلمين ونصارى ، الذين كانوا عاكفين على أعمالهم العلمية والأدبية ومن بينها ترجمة «تاريخ العرب» للذريق الطليطلى .

ومن ناحية أخرى كان ذهن دانتى — كما يبدو فى مؤلفاته — مفتوحاً منقبلاً لشق التأثيرات العلمية والأدبية ، وهذا أمر يقرره الدانتيون . ولا يخطر على البال أن يكون دانتى قد استبمد الثقافة الإسلامية من محيط تطلعه الواسع ، مع ما كانت

عليه هذه الثقافة من الانتشار والذيع في أوروبا في القرن الثالث عشر . وإنما لنجد نقرأ من علماء المسلمين — ما بين فلكيين وفلاسفة ، كالبطروجي والفارابي والنزالي وابن رشد — مذكورين في مؤلفين من آثار دانتي هما Convita والحياة الجديدة Vita Nuova . ولا يمكننا أن نعلل ما أبداه دانتي من رأى جميل في صلاح الدين وابن رشد — وهو رأى يفكره اللاهوت الكاثوليكي — ووضعه إياهما على جبل الليمبو (الأعراف) على رغم أنهما ماتا على غير الكاثوليكية . . لا يمكننا تعليل ذلك إلا بمطف ظاهر وميل إلى ما هو إسلامي ، وهذا الميل الدانتي نحو علوم المسلمين — وخاصة نحو ابن رشد — هو الذى يفسر وضعه لسيجر البرابنتي في الفردوس ، وكان سيجر كما نعلم أستاذاً بجامعة باريس ، وقد صبت عليه الكنيسة اللعنة وطردته من رعاياها في سنة ١٢٦٦ إذ اعتبر زنديقا رشديا . وقد مات سيجر سنة ١٢٨٤ ، ولم يرض دانتي له موضعاً إلا مقام أهل الدين ، فوضعه إلى جانب القديس توما الأكويني في « الفردوس » (١٥) .

(ب) العلوم

ف ١٥٣ — ألفونسو العالم والثقافة العربية :

بلغ الاهتمام بنقل علوم العرب وآدابهم إلى إسبانيا النصرانية ذروته في عصر ألفونسو العالم ، إذ أن الاهتمام بهذا النقل بلغ في ذلك العصر مداه . وقد أعان ألفونسو على ذلك أن الحظ واتاه بالتفاف نفر من النصارى والمسلمين واليهود المتحقيقين بشق العلوم حوله ، وقد أشرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة والتحرير أو التلخيص التي كان مساعده يقومون بها ، وأنشأ في مرسية معهداً للدراسات بمعاونة الرقوطى الفيلسوف المسلم ؛ ولم يوفق هذا المعهد المرسى كثيراً ، فنقله إلى

إشبيلية وأنشأ فيها مَدْرَساً^(*) ومدرسة عامة لللاتينية والعربية ، وجعل فيها أستاذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم ، وظلت طليطلة كذلك مركز الثقافة الإسبانية .

أمر ألفونسو بأن يترجم الإنجيل إلى الإسبانية ، وبأن ينقل القرآن إليها (وكان قد نقل إلى اللاتينية بأمر بيدرو الجليل Pedro el Venerable في منتصف القرن الثاني عشر) . وترجموا له كذلك « التلمود » ، و « القبالة » ، وبأمره تُرجم كتاب « كليلة ودمنة » (ف ١٥٦) إلى الإسبانية . ولا بد أن له يدأ فيما أمر به أخوه الدون فادريك Don Fadrique من ترجمة قصة « السندباد » (ف ١٥٧) إلى الإسبانية . ولألفونسو هذا الفضل في ترجمة قصتي « بونيوم » Bonium و « سر الأسرار » إلى الإسبانية باسم Poridat de Poridades ، وقد أدخل في ثنايا تاريخه العام لإسبانيا Crónica General de Espana مواد عربية تاريخية وأسطورية ، ومن بين هذه الأخيرة قصة زليخة ويوسف Zuleija y José ، وحكاية المالكة دولوكا Doluca ، و « القمأة ترموت » La infanta Termut ، والملكة مونيبي La Reina Munene وقصة تكريرا Tacrisa . وأمر ألفونسو كذلك بترجمة كتب في ألعاب شرقية ككتاب الشطرنج Juegos de Ajedrez (نشره أرنالد شتايمجر في زيوريخ عام ١٩٤١) واستخدم الموسيقى الأندلسية في وضع « أناشيده » الطائفة الصيت : Las Cantigas (ف ١٧٢) .

أما في ميدان التوالمف العلمفة فقد كان جهف الملك العالم عظمفا لا يقدر ، فقد جمع فف طلفطة نفرأ من أهل العلم لصفنفوا له « كفف علم الفلك » Libros del saber de Astronomía ، وقد تمكن هؤلاء العلماء من النهوض والتقدم بالدراسات

(*) ترجمت لفظ estudio بلفظ مَدْرَس أى مكان الفرس والبف ؛ وهو ففلفف عن المدرسة ، وهى مكان الففرفس .

الفلكية بفضل مشاهداتهم ونقولهم وما قاموا به من أعمال علمية أخرى . وكان الملك كثيراً ما يشرف بنفسه على الأعمال التي كانت تجري في مدرسته الطليطلية، وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب — العربية خاصة — ويقوم بترتيبها وتنظيمها بنفسه ، وخاصة ما يقول منها بنظريات جديدة تعدل مذهب بطليموس في الفلك والجغرافية . وأمر ألفونسو كذلك بصنع آلات وأجهزة لم تكن معروفة إلى ذلك الحين ، وكان يراجع ما ينجز من الترجمات ويصلح من أسلوها ، ويتجلى ذلك بوضوح من مقدمة ما يعرف « بالأوامر الخاصة بكتب النجوم الأربعة » .

Ordenamientos para los cuatro libros de las estrellas ، فقد جاء فيها : « هذا هو كتاب هيئات النجوم الثابتة الكائنة في السماء الثامنة ، مما أمر بترجمته من الكلدانية والعربية إلى الإسبانية الملك دُون ألفونسو ... بعد أن رتبها الملك المذكور وأمر بتصنيفها ثم استبعد منها الآراء التي وجد أنه قد تقادم بها العهد أو تكررت في الكتاب ، والعبارة التي لم يكن أسلوبها تشقاليًا قويمًا ووضع محلها عبارات أخرى تقي بالمراد » .

أما كتب علم الفلك هذه (Libros del saber de la Astronomía) فتتألف من :

(أ) الكتب الأربعة في نجوم الفلك الثامن Los cuatro libros de las

estrellas de la ochava esfera ، وقد أثبت تالجرن Tallgren أنها اقتباس معدل أو ترجمة بتصرف عن كتاب « الصوفي » El Sufi قام بها يهوذا الكوهن Jehudá el Cohen وجيّن أرْمُون د أسبا Guillen Arremon de Aspa.

(ب) الكتب الألفنسية في أجهزة علم الفلك وأدواته وكتبه Libros

alfonsies de los instrumentos et de las huebras del saber de Astronomía وتتناول تركيب الأجهزة الفلكية وطرق استعمالها ، وتبحث في قبة

السماء وأفلاك الكواكب والاسطرلاب ، وتعوى رسماً لتكون ووصفاً للصفيحة (التي وضعها الزرقالي) وأوصافاً للساعات وما إلى ذلك .

(ح) كتاب الزيج الألفونسي Libro de las tablas alfonsíes وهو دراسة لتقاويم ، وقد ألف بناء على آلاف المشاهدات التي تمت في قلعة سان ميرفاندو^(١٦) .

وقد عمل في تصنيف هذه الكتب علاوة على من ذكرنا : الربان يهوذا ابن موسى بن موسكا R. Yehudá Ben Moseh Ben Mosca ، والربان زاج الطليطلي Rabi Zag de Toledo ، وخوان دِ آسبا Juan de Aspa ، وفرناندو الطليطلي Fernando de Toledo ، وخيل دِ تيلادوس Gil de Teblados وبيدرو دِل ريال Pedro del Real ، والربان دون أبراهام بن ليثي Rabi Don Abraham Halevi^(*) والمعلم برنالدو العربي Maestre Bernaldo el arábigo وجيرثي بيريز Garci Pérez وهو من رجال الدين . وكثير من الكتب التي استعملت في هذه التأليف كانت نقولا عن الزرقالي ومسلمة الجرجيلي وقسطا بن لوقا وعلى بن خلف فلبكي المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وغيرهم كثيرين .

وهناك كتابان مما أمر الملك بترجمته يهمان المعني بالتنجيم أكثر من المعنى بالعلم الصحيح ، هما كتاب الأحجار الكريمة Lapidarios الذي نُقل لألفونسو عن كتاب لأبي العيش ، وكتاب Libro de las Cruces الذي ربما كان ترجمة لكتاب لمبيد الله محمد الاستيجي^(١٧) .

(*) كذا في الأصل ، وفي مقال للياس فاليكروسا ورد الاسم هكذا : el alfaqui Don

Abraham = ألقبه الدون (السيد) أبراهام .

Cf : J. MILLAS VALLICROSA, *El literalismo de los traductores de la corte de Alfonso el Sabio*. Al-Andalus, vol. I, fasc. 1, 1938, p. 156.

(ح) التريسة

ف ١٥٤ — الموعظ السياسية الأهموية :

المواعظ السياسية الأخلاقية فن أدبي يقتصر ذبوعه والعناية به (في إسبانيا) على أيام فرناندو الثالث وألفونسو العاشر عادة . والغالبية العظمى من آثار هذا الفن مجموعات من الحكم والأمثال عرفها الإسبان عن طريق ما صنفه العرب فيها أو نقلوه عن غيرهم منها . وأم هذه الكتب « كتاب العلماء الاثني عشر » Libro de los doce sabios أو « كتاب في النبل والإخلاص » De la nobleza y lealtad وهو مجموعة من الحكم ذات طابع سياسي ، وكتاب زهور الفلسفة Flores de filosofía وهو مجموع من الأقوال المأثورة تنسب إلى سنيكا وفلاسفة آخرين لم تذكر أسماءهم ، وبعض حكماء المشاركة (وهذه المجموعات توجد في ثنايا قصة الفارس السفار El Caballero Cifar) . ومن هذه الكتب أيضاً كتاب « بونيوم أو الأقوال الذهبية » Bonium o Bocados de Oro ، وهو مقتبس من « كتاب الأمثال » لأبي الوفا مباشر بن فاتك ، الذي جمع فيه طائفة من أقوال فلاسفة الهند واليونان واللاتين والعرب سمعها الملك بونيوم ملك فارس أثناء زيارته لقصر العلماء . وعن العربية أيضاً اقتبس الكتاب المسمى « پوريدات د پوريداديس » Poridadat de Poridades أى « سر الأسرار » Secretum secretorum وهى نصائح أخلاقية دينية للملوك . وقد كان كتابا « بونيوم » و « سر الأسرار » الأساس الذى أنشأ حوله خايمه الأول ملك أرغون مؤلفه المسمى « كتاب الحكمة »

. Libro de la Saviesa

ولقد ذكر كذلك « كتاب الأمثال الطيبة » - Libro de los buenos prover- bios ، وهو مجموع من الأمثال ترجمت عن « حكم الفلاسفة » لحنين بن إسحاق (*) ، وكتاب « تماليم الإسكندر ونصائحه » Ensenamientos y castigos de Alixandre ، ونجد في ثنايا هذا الكتاب (كما نجد في « بونيوم ») خطابين موضوعين يقال إن الإسكندر الأكبر وجه بهما إلى أمه .

أما كتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » الذي ألّفه أبو حمو موسى ابن يوسف ملك تلسان (١٣٥٢/٧٥٣ - ١٣٨٦/٧٨٨) (نشره جسيار ريمرو سنة ١٨٩٣) (**) فهو من طراز كتاب « نصائح الملك سانشو ووثائقه » Castigos y documentos del rey Sancho . وقد ألف أبو حمو موسى بن يوسف هذا الكتاب لابنه ليهدبه ويؤدبه به . ويقول في وصفه جسيار ريمرو إنه « يضم قواعد أخلاقية سياسية تتخللها قطع كثيرة من النثر أو النثر المسجوع مع نصائح وأمثال تاريخية كثيرة » . ولا شك أنه ألف على منوال « كتاب السلوان للطاع في عدوان الأتباع » لأبي علي - وأبي هاشم أيضا - محمد بن علي ابن ظفر الملقب بحجة الدين الصقلي المتوفى ١١٦٩/٥٦٥ . وهو يستخرج من الحكايات والأمثال منزى أخلاقيا (١٨) .

(*) ورد عنوان هذا الكتاب بالإسبانية هكذا : Sentencias morales ، أى الحكم الأخلاقية . وعمر أراجعة مؤلفات حنين بن إسحاق عند بروكلمان وجدت له مجموعا من الحكم ضاع أصله العربي ولم يبق إلا ترجمته العبرية : سفر موسى هابيلوسوفيم (= حكم الفلاسفة) وقد نقله من العبرية إلى العبرية يهوفا بن شالومو الحريزي ، ثم ترجمه من العبرية إلى الألمانية A. Loewenthal . ونشره في فرانكفورت سنة ١٨٩٦ بعنوان Sinnsprueche der Philosophen ، ويطلب على ظني أن هذا هو المراد هنا .

Cf : BROCKELMANN, G. A. L. I, p. 206.

(**) طبع كتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » في الجزائر سنة ١٨٧٤ ، وترجمه جسيار ريمرو إلى الإسبانية بعنوان « عقد اللآلئ » :

Cf : M. GASPARD REMIRO, El Collar de Perlas (Col. de Est. Ar. IV) Zaragoza, 1899.

وانظر : بروكلمان ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ وماحق ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

(د) القصص

ف ١٥٥ — كتاب سلك الكتاب *Disciplina clericalis* (*) :

كان أول ما ذاع في بلاد النصارى أثناء العصور الوسطى من القصص المستقى من أصول عربية هو كتاب « تعليم رجال الدين » الذى ألفه يدرؤ ألفونسو ، وأصله يهودى من أهل وشقة كان اسمه موسى سيفردى Rabí Moses Sefardi ، ثم تنصر فى سنة ١١٠٦ وتبناه ألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمقاتل . وتدل الدلائل كلها على أنه كتب كتابه هذا أول الأمر باللغة العربية ، ثم ترجمه بنفسه إلى اللاتينية . وهو فى هذا الكتاب يورد ثلاثاً وثلاثين (١٥) أقصوصة شرقية ، ويطبها على نحو يناسب تعليم أهل الأدب (على اعتبار أنهم أهل الدرس والعلم) . وقد نقل يدرؤ ألونزو هذه الحكايات عن حنين بن إسحاق

(*) انتهيت إلى ترجمة عنوان هذا الكتاب المعروف ليدرؤ ألونزو بعد محاولات كثيرة ، وقد رجّح عندى اختيار هذا العنوان التفسير الذى عثرت عليه فى تعليقات ياسكوال دى جاينجوس على ترجمته لتاريخ الأدب الإسباني لجورج ريكسبور . وفيما يلى أورد كلام جاينجوس بنصه ، أضفه تحت يدى العارفين بالإسبانية تأييداً لما ذهبت إليه :

...La obra se intitula *Proverbiorum, seu clericalis disciplinae libri tres*, y no es, como algunos han creído, un tratado de ciencias y de filosofía, sino un libro de entretenimiento, como había tantos en la edad media, lleno de apólogos y de cuentos. La palabra *clericus* no tenía entonces la acepción que se le dió mas tarde ; por *clerico*, en castellano antiguo *clergo* y *crego*, en francés *clerq*, se entendía hombre de letras, letrado, en cuyo sentido usa a menudo dicha voz el autor del libro de Alejandro. . .”

Cf : M. G. TICKNOR, *istoria 'de la 'literatura espanola*; traducida por Pascual de Gayangos. (T.H, Madrid, 1851) pp. 556-557.

(*) ورد عدد الأصابع فى مراجع أخرى أربعة وثلاثين أو تسعة وثلاثين انظر :

O. MENÉNDEZ PIDAL, *La Escuela de traductores de Toledo* ; apud *Historia General de las literaturas hispánicas*. Tomo I (Barcelona, 1949, p.285).

ومباشرة وكليلة ودمنة والسندباد . وهو يقرر صراحة أنه صنف كتابه من أمثال فلاسفة العرب وحكمهم ، واستعمل فيه الخرافات والأشعار والأمثال والمثل من حكايات الحيوان والطير .

وهذه الحكايات الخرافية يقصها أب على ابنه ، ويضيف إليها طائفة من الأمثال والحكم ، وبعضها ذو مغزى أخلاقي كقصة اختبار الأصدقاء (وهي الحكاية الأولى في الكتاب) وهي مذكورة كذلك في كتاب « الكُند لوكانور » للدون خوان مانويل ، وحكاية مستودع دنان الزيت (رقم ١٤) ، وحكاية الطائر الصغير الذي احتال بعبارات عذبة حتى أفلت من يد الفلاح (رقم ٢٠) ، وحكاية العنزات التي قصها سانشو على الدون كيخوته ليلة الطواحين . وفي هذا المجموع قصص أخرى مريحة للاذعة بل جارية للحشمة كحكاية خدعة غطاء السرير ، التي يرددها ثرفانتز في قصة المجوز النيور El viejo celoso ، وحكاية الشاب الفيران الذي يحبس امرأته في برج ويفلق عليها الأبواب ، فتعدهى إلى تركه في الطريق ، وتأبى أن تفتح له الباب ؛ وهو موضوع سيقرد فيما بعد في الحكايات الخرافية الفرنسية المعروفة بـ « الفابليو » Fabliaux ، وفي « الليالى العشر » (الديكاميرون) لبوكاشيو ، وفي مشهد من مشاهد مسرحية « جورج داندان » Georges Dandin لموليير .

وقد لقي هذا الكتاب من إقبال الناس عليه ومن الذبوع في شتى البلاد ما يحسده عليه غيره من الكتب ، ولقد أعاد مقلدوه كتابة قصصه فيما بعد في صور أجمل من الناحية الأدبية ، وترجم الكتاب كله أو بعضه إلى العبرية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية والإيسلاندية والقطلونية والبيارية . أما في الإسبانية فقد أخذ مادته كلها سانشو دِ فرثيال Sánchez de Vercial وضمها كتابه المسمى « كتاب الأمثال » Libro de los exemplos من تأليفه

مع تغيير في ترتيب الحكايات ، ونُقل الجانب الأكبر منها في كتاب « إيزوبيت المورخ » Isopete historiado الذي أمر بترجمته الأمير دون إريك الأرفغوني دوق شقرب El Infante don Enrique de Aragón, duque de Segorbe وكذلك عرف هذا الكتاب قنسان دِ بوفيه Vincent de Beauvais (وذكّره في كتابه المسمى « مرآة التاريخ » Speculum historiale) واثنتع به الفون خوان مانويل وبوكاشيو ونائب أسقف هيتا وخوان دِ تيمونيدا Juan de Timoneda وغيرهم كثيرون^(١٩) .

ف ١٥٦ — كتاب كليلة ودمنة :

يقدر كل مؤرخي أدبنا (الأدب الإسباني) — مع مفندذ إى بلايو — أن أم كتب القصص الشرقى التى ذاعت فى أوروبا المسيحية عن طريق ترجماتها العربية ثلاثة : « كليلة ودمنة » ، و « السندباد » ، و « برلام ويواصف » . أما كتاب كليلة ودمنة فمجموعة من الحكايات الخرافية الهندية جمعها ورواها برزويه طبيب أنوشروان أو كسرى الأول ملك فارس (٥٣١ — ٥٧٠ م .) ونقله إلى العربية عام ٧٥٠ م . عبد الله بن المقفع . وعن العربية نُقل الكتاب إلى السريانية واليونانية والفارسية والعبرية والإسبانية . وقد ترجمه من العبرية إلى اللاتينية يوحنا دِ كاپوا وجعل عنوانه « مُرشد الحياة الإنسانية » Directorium vitae humanae . أما الترجمة الإسبانية فقد أمر بعملها ألفونسو العالم عندما كان أميراً عام ١٢٥١ م . على الأرجح . هذا ، والترجمة اللاتينية التى قام بها خوان دِ كاپوا والترجمة الإسبانية التى نشرها أليمانى (Alemany Balufor) عام ١٩١٥ هما أحسن ما يمثل نص عبد الله بن المقفع على الإطلاق .

ومن المعروف أن اسم هذه المجموعة من الحكايات مشتق من الحكاية

الأولى المنقولة عن كتاب پانشاتانترا Panchatantra ، وهي أطول حكايات الكتاب وأمتها . وهي تدور حول ما وقع لابني آوى ذكيين مما كليلية ودمنة في بلاط أسدٍ حظي بالمكان الأرفع عنده ثور يسمى سِنْتِبَه Senceba (وهو اسم شترية في الأصل الهندي وفي الترجمات الأوروبية) . ويضم الكتاب إلى جانب ذلك فصولاً أخرى تتصل بعضها ببعض ، ولكنها مستقلة عن قصة كليلية ودمنة حتى تستقيم فصول الكتاب أربعة عشر فصلاً . وكل قصص الكتاب مرسلّة على أسنّة الحيوان ، وإن كان الكثير من حكاياته يقع لناس من البشر ، وبعض هذا الكثير من أحسن ما في الكتاب ، ويمكننا لهذا أن نعتبرها قصصاً حقيقية ، كما نجد في « حكاية الطفلة التي صارت فأرة » ، و « حكاية الناسك الذي صب العسل والزبد على رأسه » ، وهي الصورة الأولى لأسطورة « اللبّانة » La Lechera ويمكننا تقدير ما أدركته قصص كليلية ودمنة من الذبوع والقبول إذا ذكرنا أنها ترجمت إلى أكثر من أربعين لغة . وقد كان لها في الأدب الإسباني أثر بعيد عميق ، كما يُستدل من تردّد بعضها في « كتاب العجائب » Libre de les maravellas لرايموندو لوليو ، وفي كتاب الكُند لوكانور للدوق خوان ما بويل و « كتاب القطط » Libro de los Gatos ، و « كتاب الأمثال » لسانش دِ فرثيال Sánchez de Vercial^(٢٠)

ف ١٥٧ — السندباد :

وقصة السندباد — ككتاب كليلية ودمنة — من أصل هندي ، وقد وصلت إلى أوروبا عن طريقين ، أولهما غربي عرفت أوروبا بواسطته جزءاً من أقاصيص السندباد بسميه دومينيكو كومباريتي Domenico Comparetti بالجموعة الغربية ، أي التي وصلت إلى الغرب عن طريق ترجمة يونانية نُقلت عن السريانية ، وهذه عن العربية ؛ وهي التي عرفت من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي باسم

السِّينْتِپاس Sintipas . وعن هذا الأصل نقلت « قصة الوزراء العشرة » ، وقصة « الدولوقاتوس » Dolophatos أو « حكاية علماء رومة السبعة » ، ولدينا من هذه الأخيرة ترجمة شعرية قطلونية وترجمات قشتالية نثرية قام بها ديبجود كانييثارس Diego de Canizares في القرن الخامس عشر وماركوس بيريث Marcos Pérez (أنجزها عام ١٥٣٠ م .) وبيدرو هورتادو ديلا فيرا Pedro Hurtado de la Vera (بعنوان « حكاية الأمير إراسمو » Historia del Principe Erasto ، وقد ظهرت عام ١٥٧٣) .. والطريق الآخر شرق ، إذ تُرجمت مجموعة أخرى من حكايات الكتاب إلى اللغات الأوروبية عن أصول فلولية وفارسية وعربية وإسبانية . وقد ضاعت هذه الأصول كلها عدا الإسباني ؛ ولهذا يعتبر هذا الأخير أقرب الترجمات إلى الأصل (*) . وقد كان الذي أمر بنقل هذه القصة من العربية إلى الإسبانية الدوق فادريك أخو ألفونسو العالم ، فنجرت الترجمة عام ١٢٥٣ وجُعل عنوانها « مكاييد النساء وحيلهن » Libro de los enganhos et los esayamientos de las mujeres وقد نشرها بونيليا Bonilla في مجموعة « المكتبة الإسبانية » Biblioteca Hispanica (المجلد الرابع عشر منها) .

والصورة الأصلية العربية للإسبانية لهذا الكتاب تضم ستاً وعشرين حكاية فحسب ، تربطها بعضها إلى بعض حكاية واحدة أساسية كما نرى في « ألف ليلة » ، وملخص هذه الحكاية الأساسية أن أميراً اتهمته زوجته أيبه بأنه أراد أن يغصبها ، فقضى أبوه بموته . ولزم الأمير الصمت ، وأجل تنفيذ الحكم سبعة أيام دارت المناقشات خلالها بين زوج الأب وسبعة من العلماء . ومضى هؤلاء يقصون قصصاً تدور حول مكاييد المرأة وحيلها وشذوذ طبعها . وفي اليوم الثامن تنتهى

(*) MENENDEZ PELAYO, *Origenes de la Novela*, tomo I (Madrid, 1943) pp. 42 - 48.

وقد عدلت عبارة المؤلف هنا ، استناداً إلى هذا الأصل الذى أخذ عنه ، زيادة في الإيضاح .

المهمة التي كان الطالع قد أُنذر الأميرَ بشر مستطير إذا هو تكلم خلالها . و يباح
للأمير الكلام ، فيخرج عن صمته المصطنع ويظهر لأبيه الملك براءته ، فيعفو عنه
ويُلقي زوج الأب في النار . وهذه القصص في صميمها سطحية خفيفة لا تصل
إلى الخبث الخشن الذي نجده في « الفابليو » الفرنسية أو إلى توقع أفاصيص
بوكاشيو . ولكنها ذاعت مع ذلك ذيوماً عظيماً ، يصوره لنا ما لقيته قصة منها
يسمى الباحثون في الآداب الشعبية بحكاية « أتر الأسد » ، والتي تسمى في الترجمة
اليونانية للسندباد « بسوار الملك » ، وموضوعها يرجع في أصله البعيد إلى قصة
داود مع بَتْسَابيه Betsabé امرأة أوريا (أورياس Urfas) (*) ، وقد رواها الجاحظ
ثم اندرجت في قصص ألف ليلة ، ورددها بعد ذلك الدون خوان مانويل في
« الكُند لوكانور » . وهي تبدو في قصة « ميلو » Mito لماتيو دِ فَنُودوم Mathieu
de Vendôme ، وفي كتاب « حياة المستهترات » Vies des dames galantes
لبرانتوم Brantôme ، وتبدو كذلك فيما وضعه فيترو Viterbo من أدب شعبي ،
وفي كتابات الأبروزيين Los Abruzos وليثورنا Livorna . وهي تظهر أخيراً
عند أليدا جارت Almida Garret مختلطة بقطع من أغنية رقص برتغالية من
الطراز المعروف بالجاكارا ، وانتهى بها الأمر إلى الاندراج في تيار الحركة
الرومانتيكية ، فضُمَّت في قصة « حذاء الملك » El Chapín del Rey ،
أو « الكرّم الأخضر » Parras Verdes ، التي ترجمها إلى الإسبانية إيزيديرو
خيل Isídro Gil عام ١٨٤٥ (٢١) .

(*) هذه القصة معروفة رواها بعض المفسرين في تفسير الآيات ٢١ — ٢٣ من
« سورة س » وقد جاء فيها : « إن هذا أخى له سمع وتسعون نعمة ولى نعمة واحدة »
قال أ كفلنيها وعزني في الخطاب » فيقولون إن هذه « النعمة الواحدة » كناية عن امرأة
أوريا ، ولم يذكر المفسرون اسمها ، ولكن مفسري العهد القديم يقولون إن اسمها بَتْسَابَا
أو بَتْسَابيه ، انظر : تفسير الطبري (يولاق ١٣٢٨) ج ٢٠ ص ٩١ وما يليها . وانظر :
« ديوان المؤيد دامي الدعاة » بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) المقدمة ،
ص ١٤٦ — ١٤٧ .

ف ١٥٨ — برلعام ويواصف (يوسافات) :

لم نصل إلى الآن إلى تعرف الأصول العربية الإسبانية لقصة بوذا التي نشأت عنها فيما بعد « قصة برلعام ويواصف (يوسافات) ». ويبدو أن واحداً من هذه الأصول هو الذى يظهر فى كتاب الأحوال Libro de los Estados للدون خوان مانويل ، وربما كان هذا الأصل فارسياً . ويقراءى لنا أصل آخر لهذه القصة — مأخوذ عن اليونانية — فى الكتاب المسمى « ابن الملك والدرويش » El Hijo del Rey y el Derviche ، الذى كتبه اليهودى البرشلونى أبراهام ابن حسداى فى القرن الثالث عشر^(٢٢) .

ف ١٥٩ — الدروه غواه مانويل Don Juan Manuel :

لم يكن لمؤرخى أدبنا الإسبانى بد من أن يُقرّوا بدّين الدون خوان مانويل للأدب العربية ، فقد قرر مننذذ بلايو أن أول أديب صاحب أسلوب نثرى من كتابنا فى العصور الوسطى قد نهل ورّوى من موارد عربية ، ولكنه تناول مواضيع طرقها غيره من الكتاب وعرف كيف يصوغها فى قالب مبتكر . فالكثير من قصص الكند لوكانور El Conde Lucanor مقتبس من أصول عربية ، ومن أمثلة ذلك قصة عيد قسس كنيسة شفت ياقب مع الدون إلبان المشهورة ؛ و « حكاية ساحر طليطلة » التى عرفت فيما بعد بقصة تحقيق الوعود La prueba de las promesas ، وهى حكاية نجد أصلها فى القصة العربية المعروفة « أربعون يوماً وأربعون ليلة » ؛ وكذلك قصة « تروهانا » Truhana نجد أصلها فى « خرافة اللبانة » المقتبسة من قصص كليلة ودمنة ؛ و « حكاية صلاح الدين مع السيدة » Saladino y la duena مستقاة من « السندباد » أو من « ألف ليلة » . أما ما يرد فى هذا الكتاب من حديث بطرّ اعتماد زوج المعتمد بن عباد ، ومن ذكر التحسين الذى أدخله الحكم المستنصر على الآلة

الموسيقية المعروفة بالبوق الصغير ، وقصة المرأة المغربية التي كانت تحرق أعناق الأموات ، فهذا كله مقتبس عن أصول عربية ولا ريب ، ومصادق ذلك دقة رسم الكلمات العربية الواردة في هذه الحكايات . أما أن الدون خوان مانويل كان يعرف العربية ويقرأ كتبها ، فيؤيده — زيادة على ما ذكرنا — « كتاب الأحوال » من تأليفه ، وذلك الكتاب إن هو إلا أسطورة لرعام وبواصف — أو قصة بوذا — في قالب آخر ، عرفها خوان مانويل عن طريق أصل عربي نجمله إلى الآن ، لا عن طريق ترجمتها المعروفة التي قام بها يوحنا الدمشقي . ويقول منندز پلايو تمقييا على ذلك : « بيد أن الدون خوان مانويل — كغيره من كبار القصاص — يضيئ على قصصه طابعا شخصيا خالصا ، ويتعمق موضوعاته ، ويأتي دائما باهتكاكات موقفة فيما يضيفه من التفاصيل ، وهو يصوغ كلامه في أسلوب يبلغ من حيويته وجماله أن يصبح الموضوع الشائع بينه وبين غيره شيئا خاصا به ، يعبر عنه تعبيراً خاصاً قائماً على فهمه الشخصي لطبائع النفوس ومعرفته بما يلزم المعاملات من خلق ، وروحه الفسحة المتبدل الذي لا يجرح الشعور ولا يتبدل » (*) . وهذا هو السبب فيما قسم لأفاسيصه من حظ عظيم في ميدان الأدب العالي (٢٣) .

ف ١٦٠ — تورميذا Turmeda :

يحتل الغرايلى (*) أنسيلمو تورميذا Anselmo de Turmeda في تاريخ الأدب مكاناً فذا ، فقد ولد في ميورقة في منتصف القرن الرابع عشر ، ودرس في لاردة وبولونيا (في إيطاليا) ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان المعروفة بالمينوريس (Los Menores = الصغار) ، ثم رحل إلى تونس حيث ارتد عن المسيحية

(*) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I, p. 147.

(*) الغرايلى هي الصيغة العربية التي توردها النصوص الأندلسية المتأخرة للفظ fraile الإسباني ، ومعناه الأخ ؛ وهو لقب من ألقاب بعض طوائف رجال الدين مثل القريير .

واعتنق الإسلام وتسمى عبد الله على بن علي ، وصار يرتزق من عمله كترجمان .
 وولاه السلطان أبو العباس أحمد الحفصى ، ثم ابنه أبو فارس عبد العزيز الحفصى ،
 مكوس نوس ؛ وتوفى عام ١٤٢٠ م . وقد جلاه أهل المغرب بهالة من القداسة
 ولقبوه بالترجمان الميرقى . وقد ذاع كتابه المسمى « تحفة الأريب في الرد على أهل
 الصليب » (*) بين المسلمين ذيوعا عظيما . وقد اعتمد في تأليفه على ما أورده
 ابن حزم في « الفصل » من الحجج في مناقشته لآراء النصارى ومذاهبهم .
 أما ما ألفه بالقطلوونية مثل كتاب « التعاليم الصالحة » Libre de bons
 ensenyaments وكتاب « ربايعات مملكة ميورقة » Cobles del Regne
 de Mallorca و « كتاب النبوات » Las Profecías فقد طار صيتها في قطلونية
 كل مطار ، حتى أن الأول من هذه الكتب — وهو مجموع من الأمثال باللغة
 القطلونية — ظل مستعملا ككتاب تعليمي في مدارس ذلك الصقع إلى زمن
 متأخر من القرن التاسع عشر . وقد تُرجم كتابه المسمى « مجادلة الحمار » Disputa
 del Ase (ألفه عام ١٤١٧ م .) ، ونُشر مرة بالقطلوونية وأربما بالفرنسية
 وواحدة بالألمانية .

وهذا الكتاب — وعنوانه الكامل « مجادلة الحمار للأب أنسيلمو دِ تورميذا »
 Disputa del asno contra fray Anselmo de Turmeda (نُشر في المجلة
 الإسبانية Revue Hispanique سنة ١٩١١ مجلد ٢٤) — خرافة شائعة جداً تدور
 حول الحيوانات ، وتوضع فيها مسألة امتياز الإنسان على العجاوات موضع
 المناقشة ، ويجرى الجدل في مجلس يتولى الحمار الكلام فيه نيابة عن أصناف
 الحيوان ، ويدحض الحجج التي يدلي بها تورميذا متحدثاً باسم البشر . ويقول
 تورميذا بامتياز الإنسان على الحيوان ، مستنداً إلى جهالة واتساق تركيبه وكال

(*) انظر :

M. ASIN PALACIOS, *Huellas del Islam* (Madrid, 1941) pp. 116 sqq.
 BROCKELMANN, *G.A.L.* II, pp. 322-323, S. II, 352.

حواسه البدنية وقوة ذاكرته ، وملكات البشر في الفنون والتجارة والحكومة ، وقدرته على الاستمتاع بالألعاب والموسيقى . ويؤيد قوله كذلك بما شرع الله للإنسان من شرائع ، وبإغتناء الإنسان بلحم الحيوان ، وإنشائه الطوائف الدينية وما إلى ذلك . وتندرج في ثنايا هذه الحجج أقاصيص « بوكاشية » يثبت أنسيلمونها أن الرهبان يقتفون الخطايا السبع الكبرى .

وهذا الكتاب المشهور إن هو إلا ترجمة حرفية — في أحيان كثيرة — لفقرات من مجادلة الحيوانات لبنى آدم (*) الواردة في « رسائل إخوان الصفاء » (ف ١٣٢ — ١٣٣) . وإخوان الصفاء جماعة فلسفية سياسية نشأت في البصرة في القرن العاشر للميلاد ، وجمعت بين حرية فكر المعتزلة واتجاه الشيعة نحو الجمع بين شتى الآراء والمذاهب . وقد وضعوا موسوعة حقيقية من واحد وخمسين مجلداً أو رسالة لينشروا آراءهم عن طريقها ، وهذه الرسائل تتناول شتى فروع علوم الدين والدنيا من رياضة ومنطق وطبيعة وما وراء طبيعة وتصوف وما إلى ذلك . وقد صيغت الرسائل في أسلوب وقالب أدبيين قريبين من أفهام العامة . وقد عمد إخوان الصفاء إلى التشبيهات وضرب الأمثلة لكي ييسروا على الناس فهم مصطلح العلوم ، وتتخلل كتاباتهم بين الحين والحين قصص طوال وخرافات وحكايات قصيرة . والرسالة الحادية والعشرون منها دراسة قصيرة في علم الحيوان ،

(*) هذه المجادلة واردة في فصول كثيرة من « الرسالة الثامنة من الجسائيات الطبيعية » الواردة في « رسائل إخوان الصفاء » (طبعة خير الدين الزركلي ، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٢٨) ، ج ٢ ، ص ١٦٩ وما يليها) وأولها فصل عنوانه « في ذكر تصانيف أحوال الطيور وأوقات هيجانها وسفادها وكيفية اتخاذها أعفاسها وإصلاح أوكارها وكيفية يعضها ومدة حضانتها وكيفية تربيتها لأولادها ... » وبمن الفصول التالية لا عنوان له . وقد اختار آسبن پلاتيوس لها كلها عنوان : *Disputa o reclamación de los animales contra al hombre* ، وهو عنوان أحد تلك الفصول في الرسائل : « فصل في بيان شكاية الحيوان من جور الإنسان » (الرسائل ، ج ٢ ، ص ١٨٢) . انظر :

MIGUEL ASIN PALACIOS, *El original Arabe de La disputa del asno contra fr. Anselmo Turmeda*; apud *Huellas del Islam* (Madrid, 1941) pp. 115 sqq.

وقد أضيف إلى هذه الرسالة ذيل طويل يقول عنه آسين : « تُعرض فيه أمام بيراست الحكيم — ملك الجن — شكاية تقدمت بها المعبجات تشكو فيها استعباد البشر إياها وإذلالهم لها بحجة أنهم ممتازون عليها . وأمام هذا الاتهام تتقدم كل أمة من الناس وكل شعب وكل ملة فتدلى بما تؤيد به امتيازها على الحيوانات . وتقوم أصناف المعبجات ، بنقض هذه الحجج واحدة فواحدة . [ويفهم من هذا دون أى عناء ، ودون حاجة إلى مزيد من الشرح والبيان ، أن فكرة هذه الخرافة وقالبها تكادان تطابقان ما نجده في « مجادلة » تورميذا . بل إننا ننتبين أن الحجج التي يدلى بها تورميذا وينقضها الحار في سياق هذا الجدل هي بالذات نفس الحجج التي نصادفها في الأسطورة العربية مع خلاف يسير اقتضاه تحويرها لتطابق القالب الجديد » (*) .

[وإليك بعض فقرات من الرسالة المشار إليها من رسائل إخوان الصفاء وما يقابلها من كلام تورميذا ، ننقلها من الدراسة للمتعة التي قام بها آسين يلايوس ، وقد سبق أن ذكرناها :

جاء في « فصل بيان علة اختلاف صور الحيوانات » من رسائل إخوان الصفاء (٢٠ ، ص ١٨٠) : « فقال الإنسي لزعيم البهائم : من أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة ؟ قد رى الجمل عظيم الجثة طويل الرقبة صغير الأذنين قصير الذنب ، ورنى الفيل عظيم الخلفة طويل النابين واسع الأذنين صغير العيدين ، ورنى البقر والجاموس طويل الذنب غليظ القرون ليس له أنياب من فوق ، ورنى الكبش عظيم القرنين كبير الإلية ليس له لحية ، والتيس طويل اللحية ليس له إلية مكشوف العمرة ، ورنى الأرنب صغير الجثة كبير الأذنين . وعلى هذا المثال والقياس نجد الحيوانات والسباع والوحوش والطيور والهموم

(*) ASIN PALACIOS, op. cit. p. 124 - 125.

وقد استغرقت مع كلام آسين زيادة على ما أورد المؤلف استكمالاً للمعنى المقصود ، ووضعت الزيادة بين حاصرتين .

مضطربات البنية غير متناسبات الأعضاء . ويقابل ذلك ما جاء في « مجادلة »
تورميذا ، ص ٣٧٨ :

TEXTO DE TURMEDA (Prueba 1.ª, pág. 378)

L'Elephant, ainsi que puez veoir clairement, a le corps fort grand, les aureilles grandes et larges, et les yeuls petitiz. Le Chameau grand corps, long col, longues iambes, petites oreilles et la queuë courte. Les Boeufz et Thoreaulx grand poil, longues queuës : et n'ont point de dents aux machoires deuant. Les Moulons grand poil, longue queuë et sans barbe. Les Connilz, combien qu'ilz soient petitiz animaux, ilz ont les aureilles plus grandes que le Chameau, et ainsi, trouuerez plusieurs, et quasi infiniz animaux tous variables, selon (léase *sans*) la iuste proportion en leurs membres.

وجاء في « الرسائل » ، (٢٠ ، ص ١٨٠) :

« . . ذهب عليك أيها الإنسى أحسنها وخفي عليك أحكمها ، أما علمت أنك لما عبت المصنوع فقد عبت الصانع ، أولا ترى وتعلم بأن هذه كلها مصنوعات الباري الحكيم ؟ . . » . وهذا يقابل في كلام تورميذا ، ص ٣٧٨ :

(Ibídem, línea 4ª infra)

“Frère Anselme, . . . ne sçachiez que qui meprise aulcune oeuvre, ou en dict mal, le mesprisement, ou mal, redunde sur le maistre et autheur de l'oeuvre. Vous dictes donc mal du Createur, qui les ha créées?”

وجاء في « الرسائل » ، (٢٠ ، ص ١٨٠) :

« . . ما العلة في طول رقبة الجمل ؟ قال : ليكون مناسباً لطول قوائمه ، لينال الحشيش من الأرض ، ويستعين به على النهوض بحمله ، وليبلغ مشفره إلى سائر أطراف بدنه فيحكها . . » . وهذا يقابل ما يقوله تورميذا في ص ٣٧٩ من « المجادلة » :

(Pág. 379, línea 8ª.)

Le Chameau pour ce qu'il a longues iambes, et fault qu'il viue des herbes de la terre, Dieu tout puissant luy a créé le col long, affin qu'il le puisse baisser iusques à terre, et qu'il puisse gratter avecq les dents les extremes parties de son corps.”

وجاء في « فصل في بيان شكايه الحيوان من جور الإنس » ، (رسائل ، ٢٠ ، ص ١٨٢) :

« قال الملك للإنسى : قد سمعت الجواب ، فهل عندك شيء غير ما ذكرت ؟ قال : نعم أيها الملك ، هنالك مسائل أخرى ومناقب غير ما ذكرت تدل على أننا أرباب وهم عبيد لنا : فمن ذلك بيعنا وشرأؤنا لها ، وإطعامنا وسقيانا لها إذا مرضت ، ونكسوها ونكفيها من الحر والبرد ، وندفع عنها السباع أن تغرصها ، ونداويها إذا مرضت ، وننفق عليها إذا اعتلت ، ونعلمها إذا جهلت ، ونخليها إذا أعيت ، ونعرض عنها إذا جفت . كل ذلك إشفافاً عليها ورحمة لها وتمننا عليها ، وكل هذا من أفعال الأرباب بعبيدها والمواالى بنحوها .. وهذا يقابل قول تورميذا في ص ٤٠٧ من « المجادلة » :

(Prueba 10ª pág. 407.)

“Reverendissime Asne, la raison pour prouver que nous sommes de plus grande noblesse et dignité que vous autres animaux, et que par iuste raison nous debuons estre vos Seigneurs, est que nous vous vendons et achaptons, nous vous donnons a manger et a boyre, et vous gardons de chault et de froit, des Lyons, et des loups, et vous faisons de medecines quand vous estes malades. Faisans tout cela pour la pitié et misericorde que nous auons de vous. Et nul communement exerce telles oeuvres de pytié, sinon les Seigneurs a leurs subiectz et esclaves.”(*)

و « مجادلة » تورميذا هذه تعطينا صورة ناطقة عن معنى « الملكية الأدبية » في المصور الوسطى ، وعن السهولة التي كان الناس يدركون بها شهرة أدبية في تلك المصور ، إذ كان يكفي أن يترجموا شيئاً عن العربية ترجمة حرفية^(٢١) .

(*) انظر الناقلة الكاملة لهذا الموضوع في بحث آسبن بلانيوس المشار إليه ، ص ١٤٨

وما يلها .

ف ١٦١ — ألف ليلة وليلة في الأدب الإسباني ، قبل القرن

الثامن عشر :

ذكرنا فيما سلف (ف ٥٩) كيف لقيت مقامات الحريري في الأندلس ذيوماً عظيماً ، وكيف انصرف إلى شرحها والتعليق عليها نفر من أهل الأدب الأندلسيين ، وقلنا كذلك باحتمال وجود علاقة بين هذه « المقامات » وقصص الصعاليك La Novela picaresca المعروفة في الأدب الإسباني . ونذكر الآن أن الناس تناقلوا فيما بينهم — إلى جانب المقامات التي تصور الميل الأدبي والذوق البلاغي للمثقفين من المسلمين — مجموعة أخرى من أقاصيص كتبت للعوام وغير المتعلمين ، وهي « ألف ليلة وليلة » . ويرجع عهد المسلمين بهذا الكتاب إلى النصف الأول من القرن العاشر الميلادي على الأقل ، فقد ذكره المسعودي في سروج الذهب وقال في سياق الكلام عن هيكل جيرون — وهو هيكل عظيم البنيان في مدينة دمشق ، ويقال إنه إرم ذات العماد المذكورة في القرآن — قال : « وقد تنازع الناس في هذه المدينة ، وأين هي ، ولم يصح عند كثير من الإخباريين ممن وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلاّ خبر عبيد بن شريّة ، وإخباره إياه عما ساف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شريّة في أيدي الناس مشهور . وقد ذكر كثير من الناس ، ممن له معرفة بأخبارهم ، أن هذه الأخبار موضوعة مزخرفة مصنوعة ، نظماً من تقرب إلى الملوك روايتها ، وصال (*) على أهل عصره بحفظها والذاكرة بها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، [و] سبيل تأليفها ما ذكرنا ، مثل كتاب « هزار افسانه » وتفسير ذلك من

(*) في الأصل المطبوع حال ، والأصح ما أئتمناه نقلاً عن الطبعة المصرية .

الفارسية إلى العربية « ألف خرافة » ، والخرافة بالفارسية يقال لها « افسانه » ، والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة وليلة » وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما(*) وهما شيرازاد ودينزاد ، ومثل كتاب فرزه وسپاس(**) وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، وغيرها من الكتب في هذا المعنى « † » .

ويبدو أن هذه المجموعة من القصص وصلت إلى العرب عن طريق الفرس ، وأخذت صورتها الحالية في أواخر القرن الخامس عشر ، بل بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ على وجه التحديد كما يقول المستشرق الإنجليزي إدوارد وليام لين .

وقد درج الناس على القول بأن أهل الغرب لم يعرفوا قصص « ألف ليلة » إلا بعد أن ترجمها جالان Galland إلى الفرنسية في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان كبار الثقاة في التاريخ الأدبي يأخذون بهذا الرأي ، وكانوا يقولون بأن ما نجده في الآداب الشعبية الأوروبية من حكايات ألف ليلة قبل ترجمة جالان قد وصل إلى الغرب عن طريق مجموعات أخرى من القصص الشرقى تشبه ألف ليلة ، وتضم هذه القصص (مثل ذلك « كليلة ودمنة » وكتاب « سلك الكتاب » و « السندباد ») . وقرر منذذ بلايو أن قصة واحدة من هذه يمكن القول عن يقين بأنها أخذت عن « ألف ليلة » ، وهي حكاية

(*) في الطبعة المصرية : ودايتها .

(**) في الطبعة المصرية : شماس .

(†) المسعودي ، مروح الذهب (طبعة باريس دي مينار ، باريس ١٩١٤) ج ٤ ص ٨٩ — ٩٠ . وقد راجعت ذلك النص على طبعة عبي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٣٨ ، ج ٢ ص ١٥٣ . وهذه الطبعة كثيرة الأخطاء والسطط ، وقد نقل بالثبوت ترجمة هذه الفقرة — دون أن يذكر — عن :

MENÉNDEZ Y PELAYO, *Origenes de la Novela*, vol I, p. 93

وقل هنا بدوره عن :

PASCUAL DE GAYANGOS, *Antología Española*, núm - 3 (1848).

الفتاة تيودور Doncella Teodor (*) . أما اليوم فلدينا البرهان التاريخي على أن إسبانيا الإسلامية عرفت بعض مجموعات هذه القصص المشهورة ، فالقارى يذكر هذه القصص باسمها الذى نعرفها به (ألف ليلة) . وعلاوة على ذلك فإننا نجد فى الأدب الإسباني — قبل نهاية القرن السابع عشر — قصصاً كثيرة لاشك فى أن هناك علاقة أكيدة بينها وبين صورة من الصور التى عنى عليها الزمن من صور « ألف ليلة » . قصة « الفتاة تيودور » (**) تذكرنا « بإجابات الفيلسوف سيچندو Respuestas del filósofo Segundo التى نجدها فى « التاريخ العام » الذى صنفه الملك العالم ، ونجدها كذلك فى كتاب « سراًة التاريخ » Speculum Historiale لبوفيه Vicente Beauvais ؛ ولا بد أنهما كتباً فى نفس الوقت الذى كتب فيه كتاب « بونيوم » . وقد تواترت هذه القصص فى سلسلة من الكتب الشعبية الرخيصة ، وغنها أخذها لوب د فيجا Lope de Vega وبنى عليها كوميدية « الفتاة تيودور » ، وكذلك أخذ كالبيرون هيكل تمثيلته « إنما الحياة حلم » La vida es sueño من حكاية « النائم الذى صحا » ، وهى تحكى كيف أن ملكاً سمع شحاذاً يشكو سوء حاله ، فأمر بأن يُعطى مخدراً ، فلما أفاق منه وجد نفسه فى حال من الأبهة جعلته يتصور أنه ملك ، ودام له ذلك الحال بضع ساعات ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ وجد نفسه شحاذاً كما كان أول الأمر (٢٥) .

وقد أشار منبذد بلايو إلى أوجه الشبه العظيم بين حكاية « الحصان المسحور »

وقصة القروسية المعروفة « كلياديس وكلاموندا » Clemades y Claramunda

(*) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. p. 95 sqq.

(**) « الفتاة تيودور » قصة ألفها لوب د فيجا على أساس « حكاية الجارية تودد » المعروفة فى ألف ليلة ، بل هو يسائر الحكاية العربية جزءاً جزءاً ؛ والاسم نفسه هو « تودد » مُحرفاً ، لأن اسم الفتاة تيودور Teodor كان يكتب أولاً هكذا Tudor ، ولو كتبنا هذه الصورة بالعربية لكانت : تودر .

وأظهر كذلك كيف أن قطعا من « حكاية قر الزمان والأميرة بدر البدر » (في الإسبانية Badura) دخلت في تأليف قصة « بئير البروفنسى ومجلونة الرقيقة » (Pierres de Provenza y la linda Magalona) وكلاهما يدور حول حكاية الحزام المرصع بالماس الذي اختطفه صقر فيؤذن ذلك بفراق طويل بين الحبيبين) . بيد أن منذذ بلايو صاحب « أصول القصة » Orígenes de la novela يقرر أن هاتين القصتين قد دخلتا إسبانيا عن طريق السماع والرواية الشفوية أثناء الحروب الصليبية^(*) ، ونضيف نحن اليوم أننا وجدنا في مخطوط عربي يرجع إلى القرن السابع عشر في « معهد بلنسية دِ دون خوان بلمريد » Instituto de Valencia de Don Juan قصة اسمها « حكاية الشاب الذي كان يعيش في قرطبة » تردد « حكاية قر الزمان » على نحو يغير المؤلف^(*) ، ووجدنا كذلك « حكاية الشوك والطائر والصيد » في مخطوط عربي من « مجموعة مخطوطات خيل » كُتب في الأندلس سنة ١٤٤٧ ؛ هذا و « كتاب الحيوانات » لوليو إن هو إلا صياغة لحكاية « المرأة الفضولية والديك »⁽⁺⁾ التي نجدها في مقدمة « ألف ليلة » . ثم إننا نجد في الكتابات المستعجمية التي خلفها للوريسكيون حكايات مثل « قصر الذهب » و « مدينة النحاس » و « تيم الداري » مما نجده أيضا في « ألف ليلة » وفي ذلك دليل على أن هذه الأقاصيص كانت متداولة — كلها أو بعضها — بين الناس في إسبانيا بعيد انقضاء عصور المسلمين .

(*) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I. p. 94-95.

(*) هذه القصة موجودة في مخطوط يضم مجموعة من القصص والأساطير مع بعض أوراق في علم الحديث ، وهو محفوظ في مكتبة معهد بلنسية دِ دون خوان في مدريد . والمخطوط لا يحمل عنوانا ، وهو مكتوب بخط مغربي ويألف من ٢٣٣ ورقة مرققة بقلم الرصاص ، وأصله من تطوان . وقصة « الشاب الذي كان يعيش في قرطبة » قصة قصيرة تقع في ست صفحات من ذلك المخطوط ، أي من ص ١١٨ إلى ١٢٣ .

(+) هذه الحكاية لا عنوان لها في قصص ألف ليلة ، لأنها حكاية فرعية صغيرة . وإذا كان ولا بد أن يكون لها عنوان فهو « صاحب الزرع وامرأته والديك » . انظر : « ألف ليلة وليلة » طبعة صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج ١ ، ص ٦ .

ومن اليسور — علاوة على ذلك — أن نذكر حكايات أخرى من ذلك الكتاب المشهور يتردد صداها في الأدب الإسباني : ومثال ذلك أن موضوع العاشقين المحرومين الذين يقتلها الكد ، الذي نجده في « قصة عاشق مدينة ترويل » يتوارد مراراً في ألف ليلة . ومن ذلك أيضاً أن المعجزة الثالثة والعشرين من ديوان « المعجزات » Los Milagros للشاعر جنثالو دِ برثيو Gonzalo de Berceo (*) نجدها في حكاية التاجر البغدادي الذي سرقة اللصوص في الهند ، فاستدان من صاحب له ألف مثقال ، وأشهد الله على أن يردّها بعد مهلة معينة ، ثم رحل إلى هرمز حيث رزقه الله واتسع حاله . وحل موعد أداء الدين ، واستحال على التاجر أن يكون في موضع معين كان قد وعد بأن يرد الدين فيه ، فوضع المال في قطعة من الخشب وألقى بها في اتجاه الموضع الذي فيه دأته ، فعثر عليها هذا الأخير إذ كان في قارب على مقربة من الشاطئ . ثم أقبل التاجر المدين بعد ذلك ، وطرب وهو يرى حسن صنيع الله معه . وتقص علينا « حكاية ملك اليمن وأولاده » قصة رجل يدعي لنفسه أعمالاً لم يقم بها ، وقد اقتُبست هذه الشخصية ، فنراها في صورة « الفارس الكذاب » في قصة « لاثوريت والغزال ذي الساق البيضاء » Lanzorete y el ciervo del pie blanco ، وهي قصيدة هولندية نجد صداها في الأنشودة الشعبية المعروفة :

(*) جنثالو دِ برثيو شاعر إسباني عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وأشعاره كلها دينية تتحدث عن حيوات القديسين ومعجزات العذراء وما إلى ذلك . ومن بين أشعاره مجموعة تسمى بمجموعة المعجزات ، يقص في كل قصيدة منها معجزة لواحد من القديسين . والإشارة هنا إلى القصيدة الثالثة والعشرين من ذلك المجموع ، وعنوانها « الدين المؤدّى » . La deuda pagada

Cf. LUIS GONZALEZ SIMON, *Poesía Medieval* (Madrid, 1947) pp.

5-16

MANUEL DE MONTOLIU, *La poesía heroicopopular Castellana y el Mester de la Clerencia* apud *Historia General de las Literaturas españolas*, tomo I (Barcelona, 1949) pp. 379-380.

Tres hijuelos habla el rey

كان الملك ثلاثة بنين

Tres hijuelos y no más

ثلاثة بنين لحسب

وفي قصة المعجوز الغيور El viejo celoso يحكى ثرثانيز كيف أن ذلك المعجوز — عندما وصل إلى كانينيثارس Canizares — قصد الموضع الذى كانت زوجته تخونه فيه ، فألقت المرأة وصاحبها فى وجهه ماءً من إناء حلاق ؛ وهذا المنظر بالذات نجده فى « حكاية القاضى وبنت التاجر » . والحيلة الأساسية التى تدور حولها قصة الدون خوان مانويل المسماة « بيان العجائب » Retablo de las Maravillas — والتى يستعملها ثرثانيز وكنيونيس دى ينافنتى Quinones de Benavente — نجدها فى حكاية من « ألف ليلة » ، هى « حكاية شجرة التين المسحورة » وأصلها البعيد فى « قصة السندباد » ؛ وملخصها أن بدوية حفرت حفرة فى خيمتها لتخفى فيها عاشقها ، ثم طلبت إلى بعلمها أن يصعد شجرة التين ليأتيها بشيء منه ، فلما علا الشجرة بصر بالحجين ، فعاد إلى الخباء وبحث عن الرجل فلم يجده ، إذ أن المرأة خبأته فى الحفرة . ثم ذهبت فصعدت شجرة التين وزعمت أنها ترى زوجها مع امرأة ، فوقع فى ظن الرجل أن تلك الشجرة لا بد أن تكون مسحورة .

وفي الأسطورة المعروفة التى أوحى إلى ثوريلى Alonso de Zorrilla

(١٥٠٨ — ١٥٧٠) شيئاً كثيراً فى كتابه « ذكريات بلد الوليد » Recuerdos

de Valladolid متشابه ظاهرة من « حكاية تدل على عدل الله سبحانه وتعالى »

التي نجدها فى ألف ليلة ، وملخصها أن نبياً كان معتكفاً فى جبل يجرى أسفلهُ نهر ، فبصر بفارس يسقى حصانه ثم يمضى ناسياً كيسه ، فيقبل رجل فيأخذ الكيس ويمضى به ، فإذا عاد الفارس ليلتمس الكيس وجد فى الموضع خطاباً فيطالبه به ويقتله ، فيقع الشك فى عدالة الله فى قلب النبى — كما نرى عند الراهب فى كتاب ثوريلى — ولكن الله يوحى إليه بحقيقة الأمر ، وهى أن أبا الفارس

سرق من أبي اللص نفس المبلغ ، وأن الخطاب كان قد قتل أما الفارس .
وكذلك لا تخلو قصص ألف ليلة من بعض القصص الإسبانية [الإسلامية] الشعبية
كأسطورة « كنز طليطلة » El tesoro de Toledo التي نجدها في الأساطير التي
ذاعت في المشرق عن فتح العرب للأندلس وما وجدوه في خزائن ملوك القوط
من الكنوز ، وهي أساطير اندرجت فيما بعد في مادة مدوناتنا التاريخية (*) (٣٦) .
وقد أُرِجأتُ إلى آخر هذا الكلام « حكاية الملك الذي فقد كل شيء »
El rey que todo lo perdió ، إذ من الممكن أن يكون هيكلها قد قُبِسَ
من الأصل الذي نشأت عنه « قصة الفارس السفار » (**) Historia del caballero
Cifar (حوالي ١٣٠٠ م .) ويقول فرناند مَرْتِينِيث Ferrand Martinez —
مصنف هذا الكتاب ، وكان أسقفًا ممثلًا لكنيسة مدريد في كنيسة طليطلة
الجامعة (†) — في مقدمته إن هذا الكتاب تُرجم من الكلدانية ، ومن هذه
الأخيرة إلى عجمية أهل الأندلس . وكان الناس في العصور الوسطى يعنون
بالكلدانية العربية . ثم إن الأستاذ س . ف . فاجنر C. F. Wagner أشار ،
في بحثه عن مصادر ذلك الكتاب (□) ، إلى أن الجزء التهذيبي من القصيدة —

(*) انظر : ألف ليلة ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، حكاية تتعلق ببعض مدائن الأندلس التي
فتحها طارق بن زياد .

(*) ذهب جنفالد بالثيا — كما سبى الفارسي فيما بعد — إلى أن الأصل العربي للفظ
Cifar هو سَفَّار أي جوال . وقد أخذت برأيه وجعلت اسم هذه القصة على هذا النحو مع
إضافة أداة التعريف التي يقتضها المقام .

(†) لكل بلد من بلاد إسبانيا الكبيرة كنيسة جامعة « كاتيدرال » ، وفي كل كنيسة
جامعة عدد من كبار القساوسة ينتخبون واحداً منهم يسمى العميد الكبير arcediano يمثل
كنيستهم في مجلس الأساقفة في طليطلة ، العاصمة الدينية لإسبانيا . وكان الأندلسيون يسمونه
في مدينتهم الأرجدياقن (راجع معجم سيمونت) ، وكان Ferrand Martinez يتولى هذه
الوظيفة حوالي سنة ١٣٠٢ . ومؤلف الكتاب هنا يقطع بأن مصنف « الفارس سفر »
هو فرنان مَرْتِينِيث ، بينما متننذ بلايو يرجح فقط أن يكون هو المؤلف .

Cf : MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I, pp. 293 sqq.

(□) CHARLES PHILIP WAGNER, *The Sources of el Cavallero Cifar*
(Revue Hispanique, X, 1903).

وهو الذى يدور حول ما يقدمه الملك مِنْتُون Menton إلى ولديه جَزْفِين وَرُبُون Roboán من النصائح والأمثال الأخلاقية — منقول بحذافيره عن « كتاب زهور الفلسفة » (أى عن أصل عربى) . وفى الكتاب ، إلى جانب ذلك ، فصول — كفصل الصياد والقُبْرة المَوْقَّة ، و « اختبار الإخوان » — مقتبسة من كتاب « سلك الكتاب » .

وإلى جانب هذا الجزء الثانوى من القصة المُستَقى من أصول عربية ، لا نشك فى أن هيكَل القصة مأخوذ من « ألف ليلة » — وأرجو أن آتى بالدلائل على ذلك فى القريب — لا من أسطورة بلاثيداس Placidus أو حكاية القديس يوستاكيو San Eustaquio . وأسماء أبطال القصة نفسها عربية ، فسِفَار Cifar مشتق من اسم عربى هو « السِّفَار » ومعناه الرحالة ، والرحلة هى الطابع الغالب على ذلك الفارس . واسم زوجته جَرِيْمَا Grima لا يمكن أن يكون إلا تحريفاً لـ « كريمة » ، وهو اسم ذائع للنساء عند المسلمين . وفَلَّك Falac لفظ عربى يدل على موضع . وتفكير جريما فى أن تنشى^{*} فى مِنْتُون ملجأ لعابري السبيل من أولاد الناس Fijosdalgo viandantes^(*) يبدو وكأنه إشارة إلى الصوفيين الجوالين ، وهى جماعات صوفية إسلامية تشبه جماعات الرهبان المتسولين عند النصارى^(٢٧) .

ف ١٦٢ — قصص الفروسية ، قصة زياد الكنانى :

كتب هذه القصة مؤلف أندلسى مجهل اسمه ، ولكننا نستطيع القطع بأنها

(*) « أولاد الناس » مصطلح معروف فى كتب التاريخ الإسلامى ابتداء من العصر الأيوبرى . ويبدو أنه اختصار لمبارة مثل : أولاد الناس المحترمين أو ذوى المكانة ، ويراد به أبناء المساكين أو من نسبهم نحن « أبناء البيوت » ؛ وهو يقابل فى المصطلح الإسلامى لفظ hidalgo لأن أصله hijo de algo أى ابن لسان معروف أو ذى مكانة . وقد أشار إلى هذه العلاقة بين المصطلحين العربى والإسبانى أميريكو كاسترو Americo Castro .

كُتبت بعد عصر المرابطين . وقد نشرها فرانشيسكو فرناندز دى جنثالث Francisco Fernández y González عام ١٨٨٢ ، اعتماداً على مخطوطها فى مكتبة الإسكوريال ، وعنوانه الكامل « كتاب فيه حديث زياد بن عامر الكنانى ، وما جرى عليه من العجائب والغرائب بقصر اللوالب وبحيرة العجب » . وهى قصة فروسية تضاهى قصص ألف ليلة (*) ، ويقول فيها منندذ يلايو : « إن ميلاد زياد وتربيته ، ورياضات الفروسية التى يمارسها فى شبابه ، وولعه بالأميرة المحاربة « سَفْدَة » وفوزه بها بعد غلبه إياها فى معركة فى الميدان ، ورحلاته وتجهوله فى شتى البقاع ، ووصوله إلى رياض الأميرة التى تسمى « قوس الحسن » ، وعجائب البحيرة المسحورة وقصر اللآلى ، وإيقاظه الأميرات الثلاث الأسيرات ، ثم الرحلة المليئة بالمخاطر التى تقوم بها الغزاة الجميلة (وهى رحلة تذكرنا بقاء السيد ديجو لوبيث دى هارو Don Diego López de Haro مع السيدة ذات ساق العنزة La dama pie de cabra فى « كتاب نبلاء البرتغال » El Nobiliario portugués) وفتح مدينة الجوس عباد النار ، ثم اعتناقه الإسلام ، وأعماله الأخرى التى تفوق ذلك كله مبالغة وإغراقاً فى الخيال ، وأخيراً عقاب الله إياه لإقدامه على الزواج بأكثر من أربع نساء مخالفاً بذلك شريعة الإسلام ، كل ذلك يكون سلسلة من الحوادث البالغة الغرابة ، التى يمد الإنسان فى مطالعتها رياضة ومتعة ، والتى تمتاز بميزات كثيرة أهمها أن مداها محصور فى حدود معقولة جداً ، إذا قورنت بما نجلده فى قصص « عنتر » و « أماديس دى جاولا » Amadis de Gaula من المبالغات المفرطة وانعدام الانسجام » (**) (٢٨) .

(*) المؤلف يأخذ هنا عن منندذ يلايو ، وعبارة هذا الأخير تقول إن قصة زياد الكنانى تضاهى « الجيّد » من قصص ألف ليلة .

Cf : MENÉNDEZ Y PELAYO, op. cit. I. p. 71.

(**) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I. p. 71

ف ١٦٣ — جراثيان وابن طفيل :

من القصص العربية التي استلفت انتباه دارسي الأدب المقارن « قصة الصنم والملك وابنته » التي نجدتها في مخطوط مورييسكي بمكتبة الإسكوريال ، وقد تولى نشرها الأستاذ غرسية غومس ، وقام بدراستها وتحليلها وانتهى إلى أن هذه القصة هي المصدر المشترك الذي قبس منه ابن طفيل القالب القصصي لـ « حي بن يقظان » ، وجراثيان يلتazar الفصول الأولى من « السكر يتيكون » El Criticón .

والواقع أن « قصة الصنم » تتفق مع الرواية الثانية التي يوردها ابن طفيل عن أصل حي بن يقظان ، وهي التي تقول إنه لم يتولد من الطين بل إنه ثمرة علاقة غير مشروعة بين أخت الملك وأحد رجاله ، وهي رواية لا يذكرها الناس كثيراً . ذلك أن قصة الصنم تقول إن الأميرة حُجرت عن الناس في محبس لتنجو من طالع سيئ تنبأ لها به المرافون ، فاستسلمت في محبسها لابن الوزير . وكلتا الأميرتين — في « قصة الصنم » وقصة « حي » — تضع وليدها في صندوق من الخشب وتلقى به في اليم دون أن يشعر بها أحد ، فتحمله الأمواج إلى الشاطئ ويستقر على الأرض وقد تصدعت جوانبه ، ويتحرك الطفل فتعطف عليه غزالة وتبنّاه . وتذهب « قصة الصنم » إلى أن الصبي نما واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله . وقد استخدم ابن طفيل هذا القسم من القصة ليحشد فيه مذهبه الفلسفي ، ولكي يدلل فيه على ما بين العقيدة والأفلاطونية الحديثة من انسجام . وتلك هي الغاية التي استهدفها من تأليف قصته ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سلف (ف ١٠٧) ؛ فهو يريدنا كيف ينتقل « حي » من مجرد تأمل المظاهر الطبيعية إلى إدراك نشوة الاتصال بالله .

وكذلك تتفق الحكايتان في حلقاتهما الأخيرة : فبعد قصة الصنم تقول إن الفيلسوف المعلم نفسه لقي أباه الذي كان قد خلع عن عرشه ونُفي عن بلاده ، وفي قصة ابن طفيل يلتقي « حي » بـ « أسال » العالم المتدين . وفي كلتا القصتين

نرى الواصل إلى الجزيرة — بعد « حى » (والمعلم نفسه) — يظن أن كلا منهما شخص آخر مثله ، في حين أن حياً (والمعلم نفسه) يهربان ويروعان الرجلين روعاً شديداً فيعكفان على الصلاة . وفي كلتا القصتين كذلك نجد « حياً » و « المعلم نفسه » يقترب من ذلك الشخص المجهول له في حذر ، ويتمعجب من الصوت الإنساني أول سماعه . وفي قصة « حى بن يقظان » نجد « أسال » يلحن « حياً » اللغة ويحدثه عن الناس ، فيرغب في معرفتهم والذهاب إليهم . وتنتهى القصة بأن يعود مع صاحبه الناسك إلى الجزيرة ، بعد أن يثسا من متابعة الناس لها في مذهبهما الدينى . أما « قصة الصنم » فتنتهى بتعرف الابن وأمه الأميرة أحدهما للآخر .

وقد كان اليسوعى بارتولوميو Bartolome Pou قد أشار في القرن الثامن عشر إلى هذا التشابه الجلى بين قصة حى بن يقظان والفصول الأولى من الكريتيكون ، ثم قام منندو بلايو بتحليل أوجه الشبه بينهما في المقدمة التى كتبها لترجمة بونيس بويجيس لقصة « حى » (نشرت عام ١٩٠٠) . ولكن ، لما كانت رسالة حى ابن يقظان قد نشرت للمرة الأولى مع ترجمتها اللاتينية سنة ١٦٧١ على يد بوكوك — أى بعد ظهور الجزء الأول من « الكريتيكون » بعشرين سنة — فقد ظلت مسألة انتقال الفكرة من الكتاب العربى إلى كتاب جراسيان موضع شك ، لأن التشابه بين الكتائين أظهر من أن يُمارى فيه . فلما عثر غرسيه غومس على « قصة الصنم » أسفر السر بعض الشيء ، إذ أنه يبين فى بحثه أنه من الممكن جداً أن يكون جراثيان قد عرف هذه القصة ، إذ كانت شائعة متواترة بين الموريسكيين ، وأيده فيما ذهب إليه أن التشابه بين « قصة الصنم » و « الكريتيكون » أقوى من تشابه هذا الأخير وقصة ابن طفيل . وإذن ، فهذان الأثران الجليلان من آثار الأدب الإسباني قد نهلا من مورد واحد : قصة واحدة تناولها كل من المؤلفين ، وصاغها فى قالب أدبى بديع ، وحلها ما أراد عرضه من الآراء الفلسفية أو الرمزية^(٢٩) .

(هـ) الشعر القصصى فى إسبانيا الإسلامية

ف ١٦٤ — نظرية ريبيرا :

دل الأستاذ ريبيرا Julián Ribera y Tarrago — فى بحث نشره عام ١٩١٥ — على أننا نجد عند أوائل مؤرخى الأندلس من المسلمين « آثاراً من شعر قصصى لابد أنه كان مزجها فى الأندلس خلال القرنين التاسع والعاشر » .

وقد بينا فيما سلف أن أهل الأندلس استعملوا — إلى جانب العربية — لهجة أمجية دارجة . ولقد قال دوزى إن الشعر العربى النصيح لم يعرف شعر الملاحم القصصى أو مجرد الشعر القصصى ، إذ الشعر العربى كله كان غنائياً أو صفيًا(*) ، فوعى ريبيرا ذلك [وانصرف عن البحث عن القصص العربى فى الشعر] ، ومضى يلمس ما فى كتب التاريخ الأندلسى من بقايا أسطورية ذات أصول محلية ؛ إذ غلب على ظنه أن هذه العناصر الأسطورية قد اندرجت فى كتب التاريخ الإسلامى الأندلسى ، بالضبط كما حدث لأشعار الملاحم القشتالية من انتشار نظمها واندراجها فى اللونات النصرانية فى زمن متأخر . ذلك أنه ، علاوة على ما تحدثنا به المراجع من أن نفرا من الأندلسيين وصف أحداث فتح الأندلس وما تلاه من حروب فى قصائد طوال — كيجى الغزال الذى لا يبعد أن يكون من أصل إسبانى ، وتمام بن علقمة الذى تزوج ابنة رومانوس قومنس أندلوسيا (جنوب إسبانيا) على أيام القوط — فإننا نجد المؤرخين المسلمين يوردون فى ثنايا أخبارهم حشداً من الأساطير ، بعضها من أصول مشرقية وبعضها الآخر إسبانى أصيل ، بعضها رفيع نصيح وبعضها شعبى دارج . ولا يبعد أن هذه الأساطير كانت قد كتبت فى الأصل باللاتينية ، ومنها كذلك ما هو موضوع

(*) DOZY, *Hist. des Musulmans d'Espagne*, vol. I (Leiden, 1861) p. 18.

ابتكره الإسبان المسلمون الذين بقى عرق قوميتهم الأولى ينبض فيهم . ونكاد نقطع بأن هذه الأساطير كانت جارية على ألسن الناس بالعجمية الدارجة . ومن أمثلة تلك الأساطير ذات الطابع القومى ما يدور حول « كرم أرطباس » القوطى الذى لجأ إليه نفر من رؤوس العرب يطلبون ضياعا ، فخط من شأنهم ثم وهبهم من أراضيه شيئا كثيرا^(*) . ومنها ما يقول إنه كان « أول قومس بالأندلس » وما يحكى كيف غصبه عبد الرحمن الداخل ضياعه ، فذهب إليه وحدته حديث الند لفند ، فأعجب عبد الرحمن بعقله وسميته ورد إليه جانبا من ضياعه وأقامه « قومساً »^(*) . [ويقول خليان ريبيرا تعليقا على هذا الخبر الأخير : « . . وهذه الحكاية تحمل كل الملامح التى تدل على أنها قد بنيت على أساس من أقصوصة شعبية منطلومة : فذلك السبب الذى توردته القصة تعليلا لقبض عبد الرحمن لضياع أرطباس ، وقولها إن هذا السبب هو أن عبد الرحمن « نظر إلى قبته (قبة أرطباس) يوما فى بعض غزواته معه ، وحوّلها من الهدايا غير قليل — إذ كانت الهدايا تتلقاها فى كل محلة من ضياعه — فنفس ذلك عليه ، فقبضت منه » لا يمكن أن يصدر إلا عن خيال شعبي ، وكذلك تصوير أرطباس مقبلا إلى القصر « فى هيئة رثة » ، وسياق المحاورة بين الاثنين واعتبارهما متساويين فى الجلالة ؛ هذا كله خيال شعبي خالص . بل إن الأسلوب النثرى العربى الذى صيغت فيه ليبدو شغافا ينم عن قلبه الشعرى الأول ، فهو فياض بهذه التشبيهات والأفكار والعبارات التى يمتاز الشعر بها . ولا يمكن القول بأن هذه الرواية قد تصورها وكتبها عربى ، ولا بد أن يكون الراوية هنا إسبانيا ومسيحيا أندلسيا من أنصار أشراف القوط ، أنشأ ذلك الخبر ، ورمى من وراء إنشائه أن يفسر واقعة سياسية ذات أهمية عليا للشعب المسيحي

(*) سبق أن أوردنا هذا الخبر بنس ابن القوطية ؛ انظر ص ٢٠٥ من هذا الكتاب .

(**) سبق أن أوردنا هذا الخبر بنصه ، انظر ص ٢٠٤ من هذا الكتاب .

الأندلسي : هي إنشاء قاسم الأندلس ، إذ من الواضح أن هذا هو هدف الأقصوصة » (*) .

يبد أن الأسطورة التي يرى ريبيرا فيها مشهدا كاملا من مشاهد القروسية ، ودرة من الشعر الأندلسي القصصى فى مراحل الأولى ، فهى هذه التى يرويها ابن القوطية ، ونسوقها بنصها نقلا عنه :

« فلنرجع إلى ما بقى من خبر موسى بن موسى : حشد [رجال] فأتى إزراق ابن منبيل ، صاحب وادى الحجارة وثرها ، وكان على طاعة موروثه للخلفاء ، وكان من أجل الناس . فلما نازله موسى بن موسى وتحرك إليه إزراق لمحاربته ، فقال له موسى مشافهة :

— يا إزراق ، لم آت لمحاربتك ، إنما أتيت لمصاهرتك ! نشأت لى ابنة جميلة ، ليس باندلس أجمل منها ، فأردت أن لا أنكحها إلا من أجل أحداث الأندلس ، وأنت هو !

فأجابته إزراق إلى ذلك ، وعقد النكاح ، وتوجه موسى بن موسى راجعا إلى ثمره ، وبعث إليه بزوجه . فلما بلغ الخبير [الأمير] محمداً أقامه وأقمده ، وعلم أنه سيخسر الثغر الأدنى كما خسر الثغر الأعلى . فوجه إليه أمينا يمتحن طاعته وما هو عليه ، فصرف الأمين وقال :

— سيظهر ما أنا عليه من الطاعة أو [ال]معصية . .

فلما تشفى من زوجته خرج فى نفر يسير من أتباعه ، فلم يسلك محجة ، ولا وقعت عليه عين أحد يعرفه ، حتى وقف على « باب الجنان » ، فقامت فى القصر رجة ، وتبادر الفتيان إلى الأمير محمد يبشرونه ، فأمر بإيصاله ، وعنفه على مصاهرة عدوه . فأعلمه إزراق بالامر كيف كان ، ثم قال له :

— ما يضرك أن يكون وليك يطا ابنة عدوك ؟ إن أمكننى أن أسأله

بهذه المصاهرة إلى الطاعة فعلت ، وإلا فأنا في جملة من يقاقله في طاعتك !
 فاستندمه أياماً ، ثم حباه وكساه وصرفه . فلما بلغ ذلك موسى بن موسى
 حشد إليه وحصره بوادي الحجارة . فإن إزراقاً راقداً في القصب المطلبية على نهر
 وادي الحجارة ورأسه في حجر زوجته ، وقد انتشر أهل وادي الحجارة إلى
 كرومهم وبساتينهم ، فدفع عليهم موسى بن موسى من معه ، فألقاهم في الوادي .
 فسُرت الجارية بوالدها ، فبهت إزراقاً وقالت له :

— انظر ذلك السبع ما يعمل !

فقال لها :

— وكأنك تفخرين على بآبيك .. أو هو أشجع مني أو لا كرامة له ! (*)
 ثم أخذ درعه فألقاها على نفسه ، ثم خرج فتلاحق بموسى . وكان إزراق
 من أرمى الناس برمح ، فانتزعه بزرقة لم تعد قدمه ، فأحس منها ما أحس ،
 فقوض (كذا) راجعاً فات قبل أن يبلغ تطيلة (**) .

فهذه الرواية قد صرت في الطريق العادي الذي تمر به الأساطير كلها ، فإن
 الملاحم الشعرية الأسطورية تنشأ حول حقيقة تاريخية ، ثم تُنثر بعد ذلك
 ويدرجها للورخون في مدوناتهم بعد أن يجردها من كثير أو قليل من قلبها
 الشعري الأول . وفي هذا الخبر الذي سقناه تتجلى معالم الشعر الشعبي والخيال
 الشعري الساذج : فهي تبدو في ذلك الجيش الذي يظهر على حين غرة أمام
 مدينة نام صاحبها وألقى برأسه في حجر زوجته ؛ وفي ما يزعمه قائد هذا الجيش
 من أنه رسول أتى ليعرض زينة على صاحب الحصن ؛ ونراها في ذلك الجواب
 الغامض الذي يرد به إزراق على رسول الملك ، وقد تعمد القصاص أن يجعله
 غامضاً ليحفظ على الرواية طلاوتها ؛ ونراه في رحيل إزراق سرا إلى قرطبة ؛ وفي

(*) أى : إما أن يثبت أنه أشجع مني أو لا أدع له كرامة .

(**) أبو بكر بن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة ريبيرا (مدريد ١٨٦٨)
 ص ٩٨ — ١٠٠ . وقد تركت النص كما أورده الناشر ، إذ ليس لدى الأصل المخطوط .

الرجة التى شملت القصر واضطراب الأمير ومبادرة الفتيان إليه يشرؤنه ؛ ونراه فى تلك المحاورة التى دارت بين إزراق والأمير ، وهى محاورة يتحدث فيها إزراق فى أسلوب لا يصدر إلا عن أبسط العوام ؛ وفى سرور زوج موسى وغرها بما فعله أبوها بزوجها ، وهو غر يترك فى النفس أثراً بعيداً وإن لم يكن محتمل الوقوع . [فهذه كلها عناصر لا تصدر إلا عن أشعراء الجماهير وناظمي الملاحم]

وقد استنتج ريبيرا من هذه النتائج أنه كان لأهل الأندلس شعر قصصى شعبي ، واستكنه ضامضياً كما يكون تأمل النبوة الحظ ، ومن الممكن أن تكون هذا الشعر القصصى قد عاش طائفة وجدت بين ظهراني أهل الأندلس جماعة يصنع قلوبهم أفرادها الحب للفن لهذا الشعر ومواضعها ، ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة قد وجدت بين الطائفة الأوروية التى عاشت بين ممسكى الأندلس ، وأولئك الصيغالب الذين كان لهم أثر عظيم خلال فترة معينة من العصور الإسلامية من تاريخ إسبانيا ، ثم يقول ريبيرا : « وما دينا قيداً أظهرنا اتصال أجيال القصور الأوروي فى الأندلس » ، فليقل بعزيباء بعد ذلك أن تكون هذه الأجيال هى الخيط الذى يمثل تلاحم الشعر القصصى الإسباني فى القرن التاسع الميلادى بظهور منه فيما بعد فى الآداب الأوروبية .^(٢٢)

ف ١٦٥ — ما يمكن أن يكون لهذا الشعر القصصى الفرنسى من أثر

فى الشعر القصصى الفرنسى والإسباني

و بعد أن أثبت ريبيرا وجود أدب قصصى شعبي فى الأندلس فى القرن التاسع الميلادى ، مضى يتساءل : هل من الممكن أن يكون لهذا الأدب أثر فى الشعر القصصى الإسباني والفرنسى الذى ظهر بعد ذلك ؟ ثم أقبل يقارن أسطورة إزراق بالشعر القصصى الإسباني والفرنسى ، فوجد أن الشعر القصصى الأندلسى البدائي لا يبدو لنا مجرد محاكاة جامدة لأدب أجنبي ، فهو يروى أخباراً

كانت ذكرياتها غضة ماثلة فى الأخلاق ، إذا ذكرنا أن المدة بين وقوع الحادث الذى تدور الأسطورة حوله وبين اندراجها فى مدونة تاريخية لا تكاد تمدو قرناً من الزمان تنشأ خلاله الأسطورة التى تدرج فى ثنايا المدونة ، وتلك الأساطير الأندلسية تتفق فى هذا مع الأساطير الإسبانية ، ومن بعض النواحي مع الأساطير الفرنسية ، اللتين ظهرتا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وتتفق تلك الأساطير الأندلسية كذلك مع الإسبانية فى أنها نشأت فى النواحي والأعصر التى حفلت بالصراع والحروب ، وتتفق مع الإسبانية والفرنسية فى أن شخصياتها تاريخية .

ثم إن هناك فكرة سياسية تتخلل هذا القصص الأندلسى ، فكرة نشأت عن شعور من السخط العام على استبداد السادة الإقطاعيين ، وهو يرينا كيف أنه فى غمار الفوضى والاضطراب اللذين شملتا تلك المصور يعقد النصر الباهر بلواء المخلصين للسلطان المركزى ، وهو — أى القصص الأندلسى — يتفق فى هذا مع الشعر القصصى الإسبانى والفرنسى . ثم إن الوقائع البارزة فى القصة ذات طابع فرسوى : مبارزات بين أبطال ، بالضبط كما نرى فى القصصين الإسبانى والفرنسى . وإذا تدخلت المرأة فى سيرالحوادث فإنما لتلهب حمية الفرسان ولتستثير النخوة فى نفوسهم ، أما وشائج القرابة وعواطف الحب فتجىء فى الموضع الثانى . وإذا تحدث هذا القصص الأندلسى عن الحب كان حديثه ساذجاً بعيداً عن تزويقات أهل الظرف أو أهل الخيال والمأطفة الجموح ؛ وهو يتفق فى هذا مع القصص الإسبانى وفيه مشابهة من الشعر القصصى الفرنسى الذى سبق إلى الظهور . ومدار الحوادث فى هذا القصص عمل حربي عادة ، والقصص يعتمد إلى رواية الوقائع مباشرة فى أسلوب طبى صادق ودون مقدمات ، بل يبلغ من صدقه وسذاجته أن يحتفظ بالطابع الحلى . ويحرص القصص على رواية أخبار الرسل (*) وما يحملون من رسالات بضير المتكلم ، كما هو الحال فى فقرات المحاورات ، وهو يتفق فى هذا

(*) لا يقصد بالرسول هنا الأنبياء ، بل حملة الرسائل والسفراء وما إلى ذلك .

مع القصص الإسبانى تماماً ، ومع الفرنسى من بعض الوجوه .

وخلاصة هذا كله أن قصص البطولة الأندلسى إنما هو قصص إنسانى (*) ، لا يلجأ إلى الخوارق أو العناصر غير الطبيعية كالشياطين والجن ، وهو لا يتكلف التعبيرات المعنوية المجردة ، ولا يتصنع التفصح لى يزوق قصته ويشوق القارئ إلى تعقبها بذلك كله . وهو يختار حادثاً ذا معانٍ وسرماً سامية ، ثم يصوغ حديثه عنه فى تسلسل طبيعى إنسانى ؛ وهو يتفق فى هذا أيضاً مع القصصين الإسبانى والفرنسى القديم .

وإلى جانب هذه الخصائص العامة ، هناك علامات تدل على وجود هذا الشعر القصصى الأندلسى ، وهى علامات محدودة جدية جداً بأن يشار إليها . « فكثيراً ما ينسب الشعر القصصى الفرنسى إلى شخصية فرنسية أعمالاً قامت بها شخصية أخرى . ومن ذلك أن ينسب إلى شرلمان — وهو الشخصية الرئيسية لشعر الملاحم الفرنسية — القيام بمغامرات ليس من الممكن أن يكون قد قام بها ، ولا بد أنها كانت تُروى منسوبة إلى غيره ، وتعنيها هنا فى مطلبنا هذا مغامرة منها بالذات ، لأن لها مغزى خاصاً هنا : فهى تحكى أن شرلمان خرج من بلاده منفياً ، وقصد بلاط ملك مسلم فى إسبانيا ، وعاش فى هذا البلاط فارساً مجهولاً ، ولكنه بلغ من التقدم والظهور ما جعله آخر الأمر يتزوج الأميرة ابنة هذا الملك .

« وهذه الحلقة من مغامرات شرلمان — كما يرويها القصص الفرنسى — تحمل كل العالم التى تدل على أنها مقتبسة من حكاية أخرى ألفها رجل فرنسى على علم بما كان يجرى فى إسبانيا من الأمور . إذ الواقع أنه كثيراً ما كان يحدث

(*) « الإنسانى » هنا نسبة إلى الإنسان ، لا إلى الإنسانية ، وربما جاز استبداله بلفظ

« بشرى » .

فى إسبانيا المسلمة أن يصل المحاربون المقبولون من أوروبا إلى مراكز اجتماعية ممتازة كما رأينا قبلًا^(*).

« ومن بين هذه للعالم اثنان استلقتا من انتباهى أكثر مما استلقت غيرها : أولهما أن الملك المسلم الذى يتوارد ذكره أكثر من غيره فى الملاحم الفرنسية — كأنشودة « رولان » مثلا — هو ملك مرقسطة بالذات ، أى ذلك الملك الذى يرد ذكره فى حديث لزراق صاحب وادى الحجارة .

« والثانى أن اللقب الذى يطلق فى الروايات العربية على لزراق صاحب وادى الحجارة — ذلك البطل المسلم الجرىء الشهم ، وهو ، كما يورده ابن القوطية هكذا : مُنْت Mont (ومُنْتِيل Montell فى صورة التصغير) — يُطلق فى الشعر القصصى الفرنسى على فارس عربى شجاع حارب إلى جانب شرلمان فى إسبانيا ، وهو أومُنْت Omont و Eaumot و Almonte .

[« وخلاصة هذا : أننا نجد فى الشعر القصصى شخصيتين تاريخيتين يذكّرهما القصص الأندلسى القديم .

« وذلك التوافق كله أكثر من أن نستطيع نسبته إلى مجرد المصادفة ، وخاصة إذا ذكرنا أنه لا يقع فى ظواهر ثانوية بل فى ظواهر أصيلة . ذلك أن مقدار الآثار الشرقية فى الأدب الفرنسى كثير لا يمكن الغض من شأنه ، ولقد اعترف جانروا بذلك فقال : « إن القصص الأصلية التى بنيت عليها الأقاصيص المعروفة بالفابليو (fabliaux = خرافات) يكاد يكون معظمها من أصل مشرقى^(*) .

(*) الإشارة هنا إلى ما ذكره المؤلف فيما تقدم من كلامه عن الصفاة وما كانوا يفعلون إليه من السكّانة فى المجتمع .

Cf : JULIAN RIBERA, *Disertaciones y Opusculos*. I, pp. 133 sqq.

(٣٤) JEANROY, *Les origines de la poesie lyrique en France au moyen-âge*, p. 11.

« أجل ، والأمر الذى مردون أن ينبه عليه أحد هو أن هذه التأثيرات كلها أقيمت من إسبانيا ؛ والسبب فى عدم التنبيه إلى ذلك هو الرغبة فى نسبة هذه التأثيرات إلى علاقات مباشرة ، أو إلى عوامل أخف على النفس ، كالعلاقات بالإمبراطورية البيزنطية (*) . فكثير من القصص الشرقية أقيمت إلى إسبانيا ، قبل وصولها إلى فرنسا ، ومن إسبانيا انتقلت إلى غيرها من الأمم حاملة طوابع ظاهرة لا يشك فيها تنبؤ عن سرورها بشبه الجزيرة » [(**)] .

ويضيف ريبيرا أن هناك نفراً من نقاد الأدب الفرنسيين — مثل بواسوناد BOISSONADE : *De nouveau sur la Chanson de Roland* — يذهبون إلى أن هذه الملحمة العظيمة أنشئت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، ويرون أنها صدى لاشتراك نفر من الفرنسيين فى الحروب بين المسلمين والنصارى فى ناحية أرغون (٣١) .

وكان منندذ بيدال قد قال قبل أن تظهر بحوث ريبيرا : « إنه لمن العبث أن نلتمس فى أشعار الملاحم الإسبانية الأولى مؤثرات عربية » ، وذهب إلى أن كل ما نجمده هو بعض ألفاظ حربية (مثل *algara* = الغارة و *adalides* = الدليل ، وما إلى ذلك) ، وبعض التقاليد الإسلامية كأداء خمس الغنيمة للملك اتباعاً للشعر الإسلامى ، ولا شئ بعد ذلك . وقال : « إننا لا نجد آثاراً عربية

(*) يشير ريبيرا هنا إلى تعالى الفرنسيين على الإسبان فى العصر الماضى ، وأنقذتهم من أن يعترفوا بأن إسبانيا عليهم أى فضل أو سبق . وقد كان أعلام الباحثين فى الأدب الفرنسى الوسيط فى القرن الماضى ، من أمثال جاستون بارى وچانزوا وبواسوناد ، لا يقرون أن إسبانيا شعراً قصصياً على الإطلاق . وقد كان من الحماز التى دفعته إلى هذا البحث الذى نحن بصدده الرغبة فى الانتصاف لبلده من دعاوى الفرنسيين . وهو هنا يقول إن الفرنسيين يفضلون أن يقولوا إن الآثار الشرقية فى أدبهم قد أتتهم عن طريق الاتصال بالدولة البيزنطية ، على أن يعترفوا بأنها أتتهم عن طريق إسبانيا .

(**) لم يورد المؤلف هذه الفقرة التى أوردتها بين حاصرتين ، ولكى رأيت ضرورة إيرادها استكمالاً للكلام وتيسيراً على القارئ العربى ، حتى يلم بأطراف هذه النظرية الجلية التى قال بها جليان ريبيرا .

ظاهرة إلا فى الأغانى الدارجة المسماة « الأغانى الموريسكية » ، وأناشيد الحدود
 Romances moriscos y fronterizos ؛ فهناك نلقى فى الشعر القصصى
 القشتالى آثاراً يَبِينُ لَذوق المسلمين الأندلسيين فى العصر النصرى وعاداتهم .

نم إننا لا نستطيع تجاهل الأثر الإسلامى . وإذا كنا نسلم دون نزاع بأن
 الجرمان كانت لهم أغانى ذاعت بين القوط الغربيين ، فينبغى أن نسلم — من باب
 أولى — بوجود شعر قصصى عند الأندلسيين المسلمين . نعم إن خصائص المجتمع
 الذى يصفه الشعر القصصى الأسبانى تتفق مع ما يذكره « تاكيوس » من
 أوصاف المجتمع الجرمانى القديم ، ولكن هذا الاتفاق لا يمنع من القول بأن
 الكثير من هذه الخصائص عربى فى نفس الوقت ، [إذ أن المجتمع الجرمانى
 البدائى يشبه المجتمع العربى البدوى ، وهما يشتركان معاً فى خصائص كثيرة]
 كالكرم ، وتنظيم الجيوش (نظام الولاء العربى) (*) ، وروح الثأر ، وأداء دية
 القتل ، وشعور الشرف . . ويضاف إلى ذلك أن السيد القمبيطور قضى ردها
 طويلاً من عمره فى خدمة ملوك الطوائف المسلمين ، عاملاً فى جيوشهم ، (بل إن
 اسمه تحريف من اللفظ العربى « سَيِّدى ») . ونتيجة لهذا أننا نراه فى « ملحمة
 السيد » يسلك مسلحاً حسنًا مع من غلبه من المسلمين ، كما يقرر الأستاذ بيدال
 نفسه . وإذا ذكرنا إلى جانب ذلك أن « البُويما » (أى ملحمة السيد) ذات
 طابع ثعربى (ونحن نكتفى هنا بالإشارة إلى أقدم ما وصلنا من صور هذه
 الملحمة) ، إذا ذكرنا ذلك كله لم ندهش لما نجد فى الشعر الأسبانى من آثار

(*) يشير المؤلف هنا إلى ما قرره كثير من المؤرخين من وجوه التشابه بين نظم الحرب
 عند القبائل الجرمانية وجيوش العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فقد كانت جيوش الجرمان
 تتكون من فرق تسمى الكوميتاتوس comitatus ، أى الرِّدَّات ومفردها الرِّدْفه وهى الجماعة
 من المحاربين تلتف حول زعيم ظاهر ، ويسمى كل فرد من أفرادها كوميس comes أى
 رديف ، وكانت تربط أفراد الردفة بالزعيم صلة ولاء شخصى قريبه الشبه من ولاء العرب ، وهى
 التى يشير إليها المؤلف هنا .

إسلامية واضحة . وهل يعقل أن لا يكون المسلمين أثر في هذا الشعر حتى القرن الخامس ، مع ما نعرفه من وجود فنّي الشعر الإسباني المعروفين بالثغري fronterizos والمورييسكي moriscos نتيجة لوجود الثغور والمسلمين إلى جوار الإسبان طوال قرون كثيرة قبل ذلك ؟

ومهما نذهب في بحث هذا الموضوع ، فإننا نجد أنفسنا آخر الأمر أمام أصليين اثنين يحتل أن يكون الشعر القصصى الإسباني قد صيغ على مثال أحدهما : هما الجرمانى والأندلسى . فأما عن الجرمانى فهو بعيد سمعياً ، حمله القوط الغربيون إلى إسبانيا بعد أن تميزت خصائصه بسبب اتصال الجرمان بالإمبراطورية الرومانية قروناً طويلة . وأما الأندلسى الإسلامى فأقرب صلةً ، وإن كنا لا نجد حلقة الوصل بينه وبين الشعر القصصى الإسباني . نعم إنه إسلامى الطابع ، ولكنه إسبانى الروح . لأى هذين الأصلين نميل ؟^(٣٢) .

(و) الشعر

ف ١٦٦ — الزجل فى الأدب الأوروبى :

يعتبر الفن الشعرى الذى ابتكره مقدم بن معافى القبرى ، والذى نجد أظهور نماذجه فى ديوان ابن قزمان (ف ٥١) « المفتاح العجيب الذى يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التى صُنّت فيها الطرز الشعرية التى ظهرت فى العالم المتحضر أثناء العصر الوسيط » ، كما قال خليان ريبيرا وأيده بالبراهين . وقد تجلّت الدراسات التى قام بها ذلك الأستاذ حول موسيقى « السكتيجات » (Las Cantigas أى الأغاني) ودواوين التروبادور (Troubadores أى المغنين الجوالين) والتروفير (Troveros فريق آخر من المغنين المتجولين) والمينيزينجرز

(die Minnesaenger = منشدو المِنَّة Minne وهي مقطعات الأغاني القصيرة)
 عن إثبات انتقال محور الشعر الأندلسي إلى جانب الموسيقى العربية إلى أوروبا
 « عن نفس الطريق الذي انتقل به الكثير من علوم القدماء وفنونهم — لا ندرى
 كيف — من بلاد الإغريق إلى روما ، ومن روما إلى بيزنطة ، ومن هذه إلى
 فارس وبغداد والأندلس ، ومن ثم إلى بقية أوروبا » .

هذا ولم تنتقل إلى أوروبا أنغام الموسيقى وحدها ، بل صاحبها الأغنيات
 التي تُنغنى بها ، وكان من الطبيعي أن يكون لها آثار في الطرز الشعرية التي
 وجدت هناك .

ف ١٦٧ — (١) فرنسا :

أضاءت دراسة ديوان ابن قزمان التي قام بها ريبيرا — شيخ المستشرقين
 الإسبان — جوانب مشكلة كبرى ، هي مشكلة أصول الشعر الأوروبي . فقد
 كان الناس يحسبون أن طراز الشعر البروفنسي قديم جداً ، وفي ذلك يقول مننذ
 بلايو : « إن لغة « أوك » La Langue d'Oc قد فرضت طريقها في النظم ،
 وأوزانها وقوالها الشعرية ، وخصائص أساليبها الأدبية ، على فنون الشعر
 الناشئة : الإيطالية والجليقية البرتغالية la galaico-portuguesa والقطلونية
 والإسبانية ، بل على مدرسة « المينسجر » الألمانية » . ويقول في موضع آخر :
 « إن جميع مذاهب الشعر الرفيع الملهذب الحواشي ، التي ظهرت قبل القرن
 السادس عشر ، إنما نشأت — مباشرة أو غير مباشرة — عن ذلك الإزهار العابر
 القصير المدى الذي أزهره الشعر اللنجندوكتي » (*) . بيد أن هذه السيادة —
 التي أدركها الشعر البروفنسي خلال النصف الثاني من العصور الوسطى ، من غير

(*) Cf : MENÉNDEZ Y PELAYO, *Antología de poe a liricos Castellanos*, tomo I (Madrid, 1944) pp. 103-104.

شك — لا يمكن أن تشمل الطراز الشعري الأندلسي (يقصد الزجل)، إذ أن هذا الأخير أقدم من ذلك الشعر البروفنسي بزمان طويل .

والواقع أن أوائل التروبادور البروفنسيين استخدموا أقدم القوالب الزجلية الأندلسية ، وتغنوا بغرامياتهم الجارحة للحشمة بنفس الحرية وعدم التحرج الذين نراهما عند ابن قزمان . وفي العصر الذي عاش فيه الشاعر ميركامون Cercamon — أي قبل عصر الكونت دي پواتيه Le Comte de Poitiers — جد على الشعر البروفنسي « تقليد جديد » لم تبق لفا منه نماذج ، ولكن الأغلب أنه هو نفسه الذي سار عليه من أتوا بعده مباشرة . ومن بين المنظومات التي تصبح نسبتها إلى « كونت پواتيه » قطعة تاريخها ١١٠١ نظمت على النحو التالي :

Pois de chantar m'es pres talenz
farai un vers don sui dolenz
non serai mais obedienz
de Peitau ni de Lemozi

إن لي شوقاً إلى الغناء
ولهذا سأنظم أنشودة أتغنّي فيها بآلامي
ولكنني لن أكون عاشقاً
في پواتو أو في ليموزين (*)

والتغيير الذي أدخله « الكونت دي پواتيه » على الطريقة الأندلسية يقلخص في وضع « المخرجة » في نهاية الفصن لا في أوله ، واعتباره إياها « قفلاً » أو نهاية finida ، وجعله قافية أول بيت من هذه « القفلة » يرد في القطعة ، على نفس قافية البيت الذي قبل البيت السابق عليها . خذ مثلاً :

(*) ترجمت هذه القطوعة بحسب ما أورده متننذ پيدال في المرجع الذي سأذكره هنا . ولا بد أن أشير إلى أن متننذ پيدال يحمل السطر الثالث من هذه القطعة هكذا :

non serai mais obidienz

Cf : R. MENÉNDEZ PIDAL, *Poesia arabe y poesia europea* (coll. Austral, 3 a ed. Buenos Aires, 1946) p. 28.

Toz mos amics prec a la mort
que vengan tut e m'onren fort,
qu' eu ai avut joi e deport
loing e pres et en mon aizi.

Aissi guerpisc joi e deport
e vair e gris e sembeli.

لأننى أرجو كل أصدقائى أنهم عند موتى
يقبلون جميعاً ويحتفلون فى تكريمى
لأننى كنت دائماً محتفظاً بنبطى ومرحى
سواء أ كنت قريباً أم بعيداً أم فى يبتى

وهكذا أترك السرور والراح
وأترك شارات الفروسية والفرو الأسمر والأبيض (*)

وعلة هذا التعديل الذى أدخله الكونت جيم* د بيتيو* واضحة تماماً ، إذا
ذكرنا أنه أخذ قالب الشعر الذى كان يتغنى به الجمهور جماعةً واستعمله فى نظم
مقفى* ينشد للسادة والسروات ، وهو شعر لا يحتاج إلى « خرجة » ، ومن هنا
جعلها قفلاً أو نهاية finida . وشعر جيم* د بيتيو هذا لا ينحرف عن الطريقة
الأندلسية إلا قليلاً ، ولا سيما عن الطريقة المحسنة التى انتهجها الوشاحون . وأما
من أنى بعد ذلك من الشعراء البروفنسيين فقد زاد انحرافهم عن الطريقة

(*) أسقط المؤلف هذه القطعة من الطبعة الثانية من الكتاب رغبة فى الاختصار ،
فأرى أن آتى بها لئلا توضح الفقرة السابقة عليها . وقد راجعت نصها فى المرجع الذى
سأذكره واخترت الصورة الثانية ، وأخذت من هذا الكتاب الأخير ترجمة القطعة . انظر :

MARTIN DE RIQUER, *La Lirica de Las Trovadores. Antologia comentada*, tomo I (Barcelona, 1948) p. 32.

(**) هكذا كان يكتب اسم هذا الأمير الشاعر فى عصره Guilhem de Peitieu (١٠٧١ — ١١٢٧) ، وكان كُنْداً ليوانتيه ودوقاً على أ كويتانيا ؛ واسمه يكتب الآن
بحسب صورة هذا الاسم فى الفرنسية الحالية Guillaume وفى الإسبانية Guillermo .

الأندلسية ، وظهرت مخالفتهم لها ظهوراً واضحاً ، حتى وصلوا إلى ما نعرفه عندهم من تشابك القوافي على نحو متعاكس متكلف لا تستلزمه ضرورات موسيقى الشعر أو إيقاعه ، ولكنه ناتج عن نسيانهم طريقة الزجل ؛ وقد أدى هذا النسيان إلى أن أصبح اعتسافهم هذا ابتكاراً جاء عفواً . ورغم ذلك كله فإننا نجد قوالب زجلية صرفة في شعر مؤان دِ مونتودون (Moine de Montaudon = راهب مونتودون) ، وج . رينولد G. Raynold ، وج . ماجريت G. Magret ؛ ومجد كذلك في سداسيات مراكبرو Marcabru قوالب تشبه ما نعرفه عند كونت پواتيه .

وقد ظل نظام هذا الطراز الشعري الأندلسي ذى الأغصان (أى الزجل) باقياً في صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى ، ولا سيما في هذا النوع من الألحان المعروف بالرونْدو (rondó) وهى ترجمة للفظ العربى « نُوبة » أى نظام تعاقب فريق من العازفين على عزف قطعة موسيقية) ، فيعزف عازف لحناً موسيقياً يقابل الخرجة نرمز له بالحرفين ا ب (ab) ، ثم يلي ذلك غصن موسيقى من ثلاثة ألحان متشابهة ، يليها لحن فى نفس نغم الخرجة ، فيصبح وزن الغصن ا ا ا ب aaab ، ويحىء بعد ذلك لحن فى وزن الخرجة الأولى ا ب (ab) . وهناك أغان فرنسية شعبية مثل أغنيتى « الشقية فى زواجها » (La Mau Marieé) ووردة دنكرك La Reuse de Dunkerk مصوغة فى قالب الزجل ، بل إن هناك مقطعات فرنسية قصيرة شاعت بين الناس فى القرن السابع عشر سارت كلها على طريقة عرفت بالرونْديه le rondet أى النوبة ، وهى تذكرنا ببذور الزجل الأندلسي :

"Main se leva bele Aeliz;
dormez, jalous, je vos en pri;
biau se para, mieus se vesti
desoz le raim.
Mignotement la voi venir
cele que j'aim."

إن أليس الجميلة تصحو في الصباح
فناموا أيها الحساد ، أرجوكم
وهي تزين زينة حسنة ، وتلبس ملابس أحسن
تحت أغصان الكرم
ولماني لأراها مقبلة في رقة
تلك التي أحبها ...

ف ١٦٨ — (ب) إنجلترا :

وكان الزجل الأندلسي شائعاً في إنجلترا كذلك ، إذ يبدو أنه كان القالب الشعري ذا الأغصان الذي صُبَّت فيه بعض الأغاني الشعبية القديمة التي كانت تقال في العذراء وبعض أناشيد عيد الميلاد ، كتلك التي نَجدها في شعر دوميريل Du Meril ، وهي أزجال أغصانها في اللغة الإنجليزية الدارجة والبيت الرابع من كل غصن باللاتينية . بل لازالت قوالب الأزجال باقية إلى الآن في الأغاني الشعبية الإيرلندية والأسكتلندية (وخاصة في هذه الأخيرة) ، حيث نجد رباعيات من الطراز الذي كان يصوغه مسلمو الأندلس ، ونظامها : ااااب (aaab) .

ف ١٦٩ (ح) ألمانيا :

تضم أغاني المينيزنجر Minnesaenger قطعاً نَجِد نظام القوافي فيها شبيهاً بنظامها في الزجل الأندلسي . ومثال ذلك القطعة التالية للمشد هِرمان دِر دامن : Herman der Damen

Got hat wunders vil gewundert
Manich tusent manich hundred
Eynez han ich uz gesundert
Das ist wunderbere.

إن لله عجائب مُعجَّب الناس بها كثيراً
وهي آلاف كثيرة وشتات كثيرة
وقد تبينت أنا واحدة منها
وهذا أمر عجيب . .

ف ١٧٠ - (٤) إيطاليا :

تأثرت إيطاليا بالثقافة العربية تأثراً بعيداً ، مثلها في ذلك مثل إسبانيا ،
إذ أن المسلمين احتلوا جزءاً من أراضيها ردحا من الزمن . وقد بلغ اتصال صقلية
بالثقافة الإسلامية أوجه في عصور ملوك النورمانيين (رُجار الثاني وغليوم
الطيب) ، وملوك دولة الموهنشتاوفن (فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور
ألمانيا وابنه مانفرد) ؛ وقد أثبت ذلك أماري Michele Amari وشاك
Adolf Frederik von Schack وغيرها .

وأما فيما يتصل بما كان للشعر الغنائي الأندلسي من التأثير في الشعر الإيطالي
فيمكننا أن نذكر على وجه التحديد - مهتدين بالدراسة التي قام بها الأستاذ ملياس
فاليكروسا - أننا نجد في الشعر الإيطالي موضوعات مما يختص به الشعر الشعبي
الأندلسي ، مثل موضوعي « الشقية في زواجها » أو الفَجَرِيَّات (la albada)
وما يشبهها ، وكذلك القالب الشعري للطراز المسمى بالكُونْتَراسْتو (contrasto)
ومعناه الخضم - وقد أثبت الأستاذ بيتزي Pizzi أنه يرجع إلى أصول فارسية ،
وكان يصاغ في قالب الزجل الأندلسي - ومن أمثلة ذلك قصائد الكُونْتَراسْتو
التي نظمها شيولو دال كامو Ciullo dal Camo .

أما ذلك الضرب من الشعر الديني الإيطالي الوسيط المسمى باللاودِس
- (laudes = مدائح) وكان ينظم في اللهجة الدارجة (بخلاف التريلات

اللاتينية التي لم يكن الجمهور يفهمها) — فإننا نجد أحسن نماذجه في شعر
جاكوبون دي تودي Jacopone di Todi ؛ وقالب « مدائح » هو الزجل
الأندلسي ، صافيا أحيانا ومحورا بعض التحوير أحيانا أخرى .

*Dolce amor di povertade
quanto ti degiamo amare
Povertade poverella
umildade é tua sorella
ben ti basta la scodella
e al bere e al mangiare*

أيها الحب الرقيق للفقير
كم ينبغي أن نحبك
أيها الفقر المسكين
إن الذلة أختك
إنه ليكفيك صحن صغير
للشراب والطعام

وكذلك تبدو أوزان الأزجال والموشحات في الطراز الشعري الإيطالي المعروف
بالبالاتا la ballata ، أي « المرقصات » ؛ وهو يمثل الشعر في أحسن صوره ،
وقد بلغ أقصى درجات تطوره ونموه عند لورنزو دي مديتشى Lorenzo di Medicis
والبوليزيانو El Poliziano ، وظلت طريقته مستعملة ، فنظمت فيها الأغاني
الكرنفالية cantos carnavalescos ، وهو طراز شعبي عني بنظمه الأدباء ،
وإن كانت موضوعاته مما لا يوجه إلا إلى العوام ، مثله في ذلك مثل أزجال
ابن قزمان . ويظهر طراز الزجل كذلك في « المدائح المقدسة » Laudes sacras
التي تشبه المنظومات الإسبانية المعروفة باسم « المديح الإلهي » a lo divino ؛
وكانت تستعمل في تلحين تلك المدائح المقدسة أنغام غير كنائسية ، كما كان الحال

مع « المديح الإلهي » . وكانت أوزان الأزجال تستخدم كذلك في بعض الأغاني الشعبية .

وإليك نموذجاً من شعر لورنزو دي مديتشي :

*Porgete orecchi al canto d'romiti,
oggi per vostro ben dell' ermo usciti.
Moi fummo al mondo giovanni galanti,
ricchi de possessione e di contanti,
ma sottoposti agli amorosi pianti
sempre d'amore sbeffati e scherniti*

أرهفوا أسماعكم إلى غناء النساك
الذي ينطلق اليوم لمتعتكم
لقد كنا في عالم الشباب الظرفاء
وكنا أغنياء بما نملك وبالمال
ولكن ، لما كنا تحت رحمة حسرات الهوى
فقد كنا دائماً موضع سخيرية الحب وغدره .. (٣٣)

ف ١٧١ — (هـ) البرتغال :

توجد في الأغاني الجالية — البرتغالية منظومات من طراز الزجل ، شأنها في ذلك شأن الكنتيجات (انظر الفقرة التالية) ، وإن كنا نلاحظ في خرجات تلك المنظومات الزجلية البرتغالية بعض الاختلاف عن المعروف في خرجات الأزجال ؛ ومثال ذلك الأغنية التالية ، وهي من الطراز المعروف « بأغنية الصديق »

La cantiga d'amigo من شعر ديونيس :

*Amigo, pois vos non vi
nunca folguei non dormi,
mais ora ja, des aqui*

que vos vejo, folgarei
e veerei prazer de mi,
pois vejo quanto ben ei.

يا صديقي ، لأنني لم أراك
لم تطرب نفسي ولم تذق عيني النوم
أما الساعة ... وحيث أنني من الآن فصاعدا
أراك ، فإنني سأطرب
وسأجد في نفسي سرورا
عندما أرى أيّ خير بين يدي

ومن أمثاله كذلك أغنية الأفيلا نيراس Las Avelaneiras وهي أغنية
تقليدية مرقصة للشاعر جوان زورو Juan Zorro :

Bailemos agora, por Deus, ay velidas,
so aquestas avelaneiras frolidas,
e quem for velida como nos, velidas,
se amigo amar
so aquestas avelaneiras granadas
verrá bailar.

فلنرقص الساعة ، بالله عليكم أيتها الأنسات
تحت هذه الأشجار المزهرة
وإن من كن أنسات مثلنا أيتها الفتيات
لفي حاجة إلى صديق حبيب
وتحت هذه الأشجار الزاهرات
يرقصن معه . .

ف ١٧٢ — (و) إسبانيا : كَنَتِيجَاتُ ^(*) ألفونسو العاشر Las Cantigas

: de Alfonso X

يكشف لنا تركيب الأزجال عن أوزان كثير من المنظومات التي كان مؤرخو الأدب الإسباني في حيرة من أمرها . ومثال ذلك « كَنَتِيجَات » (= أغاني) ألفونسو العاشر ، فقد أظهر ريبييرا أن معظمها من طراز الأزجال ، وإن كانت الخرجة تُنظم في بعضها على قافية سابقة مثل :

“Omildades con pobreza quer a Virgen coroadá,
mas d'orgullo con requeza e ela muy despagada
E desta razon vos dierei un miragle muy fremoso
que mostrou Santa Maria Madre do Rey grorioso
a un crerigo que era de a servir deseioso
e por en gran maravilla le foi per ela mostrada.

إن السيدة العذراء المتوجة لتفضل التواضع مع الفقر
على الغرور والغنى ، لأنها تحتقرهما احتقاراً شديداً
ولهذا السبب فإنني سأقص عليكم معجزة بالغة الجمال
صنعتها القديسة مارية أم الرب الجيد
لرجل دين كان راغباً في خدمتها
وقد صنعت العذراء هذه المعجزة لتريه إيّاها

(*) كَنَتِيجَة Cantiga معناه أغنية ، وهو يطلق بصيغة الجمع Cantigas بصورة خاصة على مجموعة من ٤٢٠ قطعة شعرية في مديح العذراء تنسب إلى ألفونسو العاشر ، الملك العالم . واللفظ يستعمل اصطلاحاً في هذا المقام ، ولهذا رأيت أن أرسمه كما هو بالحروف العربية ، مع إضافة هذا التوضيح .

هذا ، ونحو خمس أغان فقط من هذا الكتاب منظومة على الطريقة الجليقية الشعبية (المشتقة بدورها من الزجل) ، وتوسع أخرى مرسلة على الطريقة البروفنسية ؛ أما الباقي فنظوم في قوالب الأزجال .

ويبدو أن الملك العالم نظم هذه الكنتيجات لتتمشى مع ألحان موسيقية كانت موجودة بالفعل في ذلك الحين . ويتضح هذا إذا لاحظنا أن القالب الذي اتخذ لنظم حديث معجزات المذراء هو قالب العنصن الغنائى *La estrofa lírica* وهو أكثر تعقيداً وأعسر على التأليف من الأغصان التي تُستعمل في الشعر القصصى ، وأن طريقة الإنشاد الجماعى قد اتسع استعمالها ، مما كان يقتضى قطع سياق القصيد بين الحين والحين ليردد للنشدون لحنهم .

ويقول خليان ريبيرا : « إن هذا هو الذى اضطر الشاعر إلى تجزئة أبياته على أساس عروضى يقوم على جعلها أشطاراً غير مقفاة ، وذلك حتى يوائم بين ألفاظه وموسيقى ذات تركيب أشد منها تعقيداً . وهذا هو السبب فى أننا نجد فى الكنتيجات أبياتاً يتألف الواحد منها من أربعة وعشرين مقطعاً ، مما لا نجد مثله فى أدب أى لغة أخرى » . ثم يقول ريبيرا بعد ذلك : « وقد تغلب ألفونسو العالم على هذه الصعوبة بأحسن ما يمكن عمله فى هذه الحالة ، فإن نظم شعر يأتلف مع ألحان موجودة هو أبسر دائماً من صنع ألحان لشعر موجود » .

وإلى هذه النتيجة نفسها وصل ريبيرا عندما درس تركيب موسيقى « الكنتيجات » ، إذ أنها هى الأخرى قامت على أساس من الموسيقى الأندلسية الإسلامية^(٢٤) .

ف ١٧٣ — نائب الأسقف فى هيتا ، خوان رويث *El Arcipreste*

: de Hita, Juan Ruiz

يتجلى الأثر العربى عند خوان رويث *Juán Ruiz* — المعروف

بَارْتِيرِشْتِ دِهِيَا ، أى نائب الأسقف بناحية هيتا — على صورة لا يرقى إليها الشك . ونرى ذلك بوضوح في مواضع شتى من كتابه المسمى « كتاب الحب الطيب » El Libro del Buen Amor ، ومن أمثلة ذلك الرسالة التي تحملها تروتا كونفتوس Trotaconventos إلى المرأة المغربية ، وكلامه عن الآلات الموسيقية التي لا توافق الأغاني العربية . ويتجلى ذلك الأثر العربي كذلك في اعترافه بأنه صنع ألحانا مرقصة للمتبخترات والراقصات الموريسكيات las troteras y las danzadoras Moriscas ، وفي استعماله للألفاظ العربية في مواضعها ، كما أشار إلى ذلك دوزى وإنجلمان Engelmann وإجيلاذ Eguilaz في جوامع مفرداتهم (*) . ويقرر منندذ بلايو ذلك ، وإن كان يميل إلى القول بأن خوان رويث كان يعرف من العربية ما يصلح للاستعمال الدارج ، لا ما يمكنه من دراسة الفنون الأدبية .

ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن كتابه « كتاب الحب الطيب » يضم منظومات من طراز الزجل مثل :

*Santa María, luz del día
tu me guía todavía
Gáname gracia e benedición
et de Jesus consolacion
que pueda con devoción
cantar de tu alegría.*

أيتها القديسة مارية يا ضوء النهار
أنت ، يا من تهدينى أبدا
امنحني الرحمة والبركة
ولْيُوَاسِنِي يسوع
حتى أستطيع ، عن إخلاص وتقى

(*) ترجمت لفظ glosario (glossary, glossaire) بمباراة جامع مفردات ، وهي أصح

ما يقابل هذا المصطلح الغربي من مصطلح مؤلفي العرب .

أن أتقى بما تفيضه في قاي من المسرة

ومثل :

Mis ojos no verán luz
pues perdido he a Cruz
Cruz cruzada panadera
tomé por entendadera ;
tomé senda por carrera
como (taz el) andaluz.

إن عيني لن تريا النور
لأنني لم أعد أرى كروث
كروث ، تلك المذبذبة الخبازة
التي اتخذتها حبيبة

[وقد بالغت في تقديرى] إذ حسبت الطريق الضيق طريقاً واسماً
كما يفعل الأندلسيون [إذ يبالغون في تقدير كل شيء] (*) .

ويضم « كتاب الحب الطيب » كذلك حكايات من الممكن أن تكون
مستقاة — بطريقة غير مباشرة — عن كتب « سلك الكتاب » ليدرو ألفونسو
و « كلية ودمنة » و « السندباد » ، ومن الممكن أن يكون قد أخذ بعضها عن
رايموندو لوليو ، أو عن الدون خوان مانويل^(٢٥) .

هذا ، وكان حظ فن الزجل في شتى الآداب عظيماً ، بسبب اقترانه بالموسيقى
وما كان لهذه من الذبوع والانتشار .

(*) من السير جدا ترجمة أمثال هذه الأغنية ، لأنها كلام شعبي دارج لا يبدو جالاه
إلا في لنته ومصحوباً بموسيقاه ، ومن هنا فقدت معظم القطع التي ترجمتها هنا أكبر جانب من
قيمتها كشعر موسيقى عذب خفيف . وفي هذه القلعة بالذات لعب بالألفاظ كان من المستحيل
أداؤه باللغة العربية ، فالشاعر يتحدث عن امرأة اسمها كروث أى صليب ؟ وهو يدلها بقوله :
كروث كروثا ، كما نجد في أغنية شعبية مصرية تقول : « حج حجيج بيت الله ... » ؛ وقد
اجتهدت في أدائها على أحسن صورة ممكنة .

Cf : ARCIPRESTE DE HITA, *Libro de Buen Amor* (ed. Cejador y Frauca,
Madrid 1951) 1 p. 53.

ف ١٧٤ — أغنية العريبات الثلاث . الدواوين . آخر مظاهر الزجل :

من المقطعات الغنائية الصغيرة التي استند إليها ريبيرا في دراسته للموسيقى في
العصور الوسطى « أنشودة العريبات الثلاث » التي نجدها في « ديوان بلاثيو »
El cancionero de Palacio (*) (طبعة باربييري) وهذا مطلعها :

Tres morillas me enamoran

en Jaén :

Axa, Fatima y Marién.

Tres morillas tan garridas
iban a coger olivas
y fallabanlas cogidas *en Jaén ;*
Axa, Fatima y Marién.

Tres morillas tan lozanas
iban a coger manzanas
[y cogidas las fallaban] *en Jaén*
Axa, Fatima, y Marién

Dijeles : quien sois, senoras,
de mi vida robadoras ?

—Cristianas, que éramos moras *en Jaén :*

Axa, Fatima y Marién . . . etc.

وترجمتها :

عشت ثلاث فتيات عريبات

في جيان

عائشة وفاطمة ومريم . .

ثلاث عريبات بالغات الجمال

(*) لم أجد هذه القطعة في ديوان بلاثيو El Cancionero de Palacio طبعة فرايتسكا
فندريل دي ملياس Francisca Vendrell de Millas (برشونة ١٩٤٠) . وقد ذكر
منندز بيدال أنها توجد في السكاثونيرو موسيكال (El Cancionero Musical = الديوان
الموسيقى) . انظر :

R. MENÉNDEZ PIDAL, *Poesía árabe y poesía europea* (3a ed. Buenos Aires-Mexico, 1946) p. 40

ذهبن يجمعن الزيتون
فوجدنه قد جمع ، في جيان
عائشة وفاطمة ومريم . .

ثلاث عريبات فياضات بالحيوية
ذهبن يجمعن التفاح
فوجدنه قد جمع ، في جيان
عائشة وفاطمة ومريم ...

قلت لمن : من أنتن أيتها الفتيات
اللاتي سلبنني حياتي ؟
[فقلن :] مسيحيات ، وكنا عريبات ، في جيان
عائشة وفاطمة ومريم ... الخ (*)

وموضوع هذه الأغنية وموسيقاها يرجعان إلى عصر هارون الرشيد ، ومع
هذا فقد كان يُتغنى بها في إسبانيا في القرن السادس عشر ، ونقلتها إلى البرتغال
في القرن التاسع عشر السيدة ميخايليس فاسكونثيلوس Michaelis de
Vasconcellos (٢٦) .

ويطول بنا الأمر لو مضينا نعدد شعراء الإسبان الذين استعملوا فن الزجل
في نظمهم ، ويكفي أن نذكر « ديوان باينا » El Cancionero de Baena
وديوانى الشعراء ألفاريد جاتو Alvarez Gato وخيمينيث د'أوريا Jiménez
de Urrea وديوان سْتُونِيْجَا Stúniga ، و « الديوان العام » لمرناندو دِلْ كستيليو

(*) رأيت أن آخذ نص هذه الفقرات من تلك القصيدة كما أورده منندو بيدال في
المرجع المذكور في المامش السابق ، ص ٤٠ و ٤١ .

وغيرها كثير ؛ El Cancionero General de Hernando del Castillo وكلها تضم قطعاً منظومة على هذا الطراز . ونذكر من الشعراء الذين نظموا أزجالاً أثار يذ د فيلياً ساندينو Alvarez de Villasandino ، والراهب د ييجو البلسى Fray Diego de Valencia ، وغرسية فرننذ د خيرينا Garcia Fernández de Jerena ، ومونتورو Montoro ، ومُنْتِسِينُوس Montesinos ، وكرافاخالس Carvajales ؛ وغيرهم كثيرون . وقد نظم خوان دل إشيناً Juan del Encina وجيل فيلنت Gil Vicente أزجالاً كثيرة ، وهناك أزجال إسبانية أخرى في « أغاني اليهود » التي تهدد الأمهات بها أطفالهن ، وفي ترتيلات دينية تنشد في أنغام غير كنسية (أى أن موسيقاها مقتبسة من موسيقى الأزجال) . وإليك على سبيل المثال هذه القطعة الطائرة الصيت ، أغنية شهر مايو :

*Entra Mayo y sale Abril,
tan garridico le vi venir,
Entra mayo con sus flores,
Sale Abril con sus amores,
y los dulces amadores,
Comienzan a bien servir.*

أقبل مايو وولى أبريل
لقد رأيته مقبلاً بالغ الحسن والظرف

أقبل مايو بزهوره
وولى أبريل بغرامياته
وبدأ المهبون ذوو الرقة
يستمتعون بغرامهم ...

وقد ظلت أوزان الزجل مستعملة في الشعر الإسباني حتى القرن السابع عشر ،
فنجذ كالديرون في مأساة « حب بعد الموت » Amor después de la muerte

يرسل على أسنة الموريسكيين الأنشودة التالية ذات الطابع الزجلي الخالص :

Aunque en triste cautiverio
de Alá por justo misterio,
llore el africano imperio
Su misera ley esquiva . . .
Su ley viva !
Viva la memoria extrana
de aquella gloriosa hazana
que en la libertad de Espana
a Espana tuvo cautiva.
Su ley viva !

على الرغم من الأسر التعيس
الذى أرادها الله لنا بتقدير خفى عادل
فإننا نبكى عز الدولة الإفريقية
وما قُدر عليها من شقاء
وليحى دين الله أ
ولتحى الذكرى العجيبة
لذلك العمل المجيد (يريد فتح إسبانيا على يد المسلمين)
التي جعلت إسبانيا
أسيرة حريتها ...
وليحى دين الله ! (٣٧)

مراجع الكتاب

— نورد فى الصفحات التالية المراجع التى اعتمد المؤلف عليها فى تصنيف كتابه كما وردت فى الثبوت القائم بآخر الأصل ، دون تعديل إلا فى الترتيب .

— المراجع التى رجعنا إليها فى الترجمة أشرنا إلى كل منها فى موضعه من الكتاب ، وأوردنا معظمها فى فهرس الكتب والمؤلفين اللذين سيردان فيما بعد .

— نرجو القارئ أن يرجع إلى ثبوت المراجع الأندلسية الذى ذيلنا به كتاب « الشعر الأندلسى » لفرسية غومس ، الذى نشرناه سنة ١٩٥٢ بالقاهرة ، فقد أوردنا هناك الكتب وأصحابها بصورة أوفى مما وردت فى ثبوت المؤلف هنا .

— نحيل القارئ كذلك على ثبوت المراجع الأندلسية الذى أوردناه فى

كتابنا : *Essai sur la chute du califat umayyade de Cordoue* (القاهرة ١٩٤٨ ، بالفرنسية) .

(١) مراجع عربية

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله : التكملة لكتاب الصلة . نشر جزءاً منه كوديرا في المكتبة الأندلسية (ج ٥ - ٦ ، مدريد ١٨٨٧ - ٩٠) ، ونشر قطعة أخرى ألكون وجنثالث بالثيا في كتاب Miscelanea (مدريد ١٩١٥) ، ونشر قطعة أخرى عن مخطوط فامى ألفريد بل ومحمد بن شنب في الجزائر ١٩٢٠ .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعة تورنبرج ، لايدن ١٨٦٧ - ٧٦ .
أحمد الإسكندرانى : ابن زيدون ، في مجلة المجمع العربى بدمشق سنة ١٩٣١ ، ٥١٣ .

أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس : نشره وترجمه وعلق عليه لافوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى ، أبو عبد الله محمد : وصف إفريقية وإسبانيا . نص عربى وترجمة فرنسية ، نشرهما دوزى ودى خويه ، ليدن ١٨٦٦ .

— دراسة لإدواردو سافندرا ، مذيلة بجزء من جغرافية الإدريسى لم ينشره دوزى ودى خويه ، مدريد ١٨٨١ .

— ترجمة إسبانية لبلاسكت ، مدريد ١٩٠١ .

أبو إسحاق الإلبيرى : ديوان شعره . نشره غرسية غومس مع ترجمة إسبانية وتعليقات ، مدريد — غرناطة ١٩٤٤ .

ابن بدر ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد : اختصار الجبر والمقابلة ..

نشره وترجمه إلى الإسبانية خوسيه سانشيث بيريث ، في مدريد ١٩١٦ .
الأصبهاني ، أبو الفرج : كتاب الأغاني ، طبعة كوسجارتن . جريفسفالد
سنة ١٨٤٠ .

ابن أبي أصيبعة : ميون الأنباء في طبقات الأطباء . القاهرة ١٢٩٩/١٨٨٢
ألف ليلة وليلة : طبعة بولاق ١٢٥٩ هـ .

— ترجمة إنجليزية بقلم وليام لين ، لندن ١٩١٩ .

ابن بسام ، أبو الحسن علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . نشرت
منه كلية الآداب بجامعة القاهرة ثلاثة مجلدات : القسم الأول في مجلدين ، ثم
المجلد الأول من القسم الرابع . القاهرة ١٩٣٩ — ٤٥ .

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد : رحلته ، طبعة ديفريري وسانجوينتي ،
باريس ١٨٥٣ .

البكري ، أبو عبيد عبد العزيز : صفة إفريقية ، مستخرجة من كتاب
المسالك والممالك . نشرها وترجمها للفرنسية البارون دي سلان سنة ١٨٥٧ .
— طبعة الجزائر سنة ١٩١٠ .

ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد : جامع مفردات الأدوية والأغذية .
طبعة بولاق سنة ١٢٩١ / ١٨٧٤ .

— ترجمة ألمانية نشرها سودمر ، ستوتجارت سنة ١٨٤٠ .

— ترجمه للفرنسية لوسيان لكرك ، باريس ١٨٧٨ — ٨٣ .

ابن جبير ، أبو الحسين محمد : الرحلة . طبعة رايت ، لايدن ١٨٥٢ .

- الطبعة الثانية نشرها دي خويه ، لايدن ١٩٠٧ .
- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . طبعة فلوجل ،
ليبرزج ولندن ١٨٣٥ — ٥٨ .
- الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي : المقامات . طبعة دي ساسي ، باريس
١٨٤٧ — ٥٣ .
- مقامات الحريري بشرح الشريشي . بولاق ١٣٠٠ هـ .
- ترجمة إنجليزية بقلم ث . شينيري . لندن ١٨٧٠ .
- أعيد طبع الترجمة بإشراف Roedger ، ليبرزج ١٩٢٦ .
- ابن حزم القرطبي : الأخلاق والسير في مداواة النفوس . القاهرة ١٩٢١
- ترجمة إسبانية للأخلاق بقلم آسين . مدريد ١٩١٦ .
- طوق الحمامة . طبعة د . پتروث . لايدن ١٩١٤ .
- ترجمته الإنجليزية ، لنيكل . باريس ١٩٣١ .
- ترجمة روسية بقلم ا . ساليه . لننجراد ١٩٣٣ .
- ترجمة إسبانية بقلم غرسية غومس . مدريد ١٩٥٣ .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ترجمة إسبانية لها لآسين . مدريد ١٩٢٨ — ٣٢ .
- نقط العروس . نشره سيكو دي لوئينا في مجلة جامعة غرناطة ١٩٤١ .
- ابن حيان ، حيان بن خلف : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس . طبعة
أتونيا ، باريس ١٩٣٧ .
- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح : قلائد المقيان . طبعة باريس ١٨٦٠ ،
وبولاق ١٨٦٧ وهي أفضل وأكمل .

— مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مآلح أهل الأندلس ، القسطنطينية ١٣٠٢ هـ .

الحشنى ، الحارث بن أسد : تاريخ قضاة قرطبة ، نشر مع ترجمة إسبانية لريبيرا . مدريد ١٩١٤ .

ابن الخطيب ، لسان الدين : أعمال الأعلام فيمن بويج قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يمر ذلك من شجون الكلام . نشره ليثى بروفنسال ، رباط ١٩٣٤ .

— الإحاطة في تاريخ غرناطة ، مخطوط رقم ١٦٧٣ بمكتبة الإسكريال (١٦٦٨ في فهرس الغزيرى) ، و ٢٧٣٣ في المكتبة الأهلية بمدريد ، ورقم ٣٤ بالأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد .

— طبعة القاهرة ١٣١٩ / ١٩٠١ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، طبعة كاترمير . باريس ١٨٥٨ .

— ترجمة فرنسية بقلم البارون دى سلان . باريس ١٨٦٨ .

— أخبار البربر ومواليهم من زناة وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر وديوان المبتدا والخبر » وقد نشره دى سلان وطبعه في الجزائر ١٢٦٧ / ١٨٥١ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثاً بإشراف كازا نوا .

— كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤ / ١٨٦٧ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان . طبعة فستفالد ، جوتنجن ١٨٣٥ — ٤٣ .

— طبعة دى سلان ، باريس ١٨٣٨ — ٤٢ (غير كاملة) .

- ترجمة إنجليزية لها بقلم دى سلان ، باريس — لندن ١٨٤٣ — ٧١ .
- ابن دحية ، أبو الخطاب : المطرب من أعمار أهل المغرب ، مخطوط رقم ٧٧ بالمتحف البريطاني الشرق . [نشره الأستاذ إبراهيم الإيبارى والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوى بالقاهرة ١٩٥٤] .
- ابن رشد : شروح مؤلفات أرسطو ، ١٢ جزءاً . البندقية ١٥٦٠ .
- ما وراء الطبيعة . نص عربي مع ترجمة إسبانية وتعليق بقلم كارلوس كيروس ، مدريد ١٩١٩ .
- اتصال العقل الفعال بالإنسان ، نشره الأب مورانا مع ترجمة إسبانية ، سنة ١٩٢٣ .
- فصل المقال ، الطبعة الثانية مع ترجمة فرنسية بقلم ل . جوتييه ، الجزائر ١٩٤٢ .
- تهافت التهافت ، نشره الأب بويج . بيروت ١٩٣٠ .
- تلخيص كتاب المقولات ، نشره الأب بويج . بيروت ١٩٣٢ .
- ابن أبي زرع : الأنيس للمطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب ومدينة فاس ، طبعة تورنبرج ، أبسالا .
- ترجمة فرنسية بقلم بومييه ، باريس ١٨٦٠ .
- ترجمة إسبانية بقلم هويثي ، بلنسية ١٩١٨ .
- الزركشي : تاريخ الدولتين . قسطنطينة ١٨٩٥ .
- ابن زهر ، أبو العلا : التذكرة ، طبعة كولان ، باريس ١٩١١ .
- الزهراوي ، أبو القاسم : التصريف لمن عجز عن التأليف ، الجزء الخاص بالجراحة ، طبعة شانتيج . أ كسفورد ١٧٧٨ .

ابن سبعين ، عبد الحق : الأجوبة على المسائل الصقلية ، باريس ١٨٨٠
(مستخرجة من المجلة الآسيوية رقم ١٣ سنة ١٨٧٩)

السبكي: طبقات الشافعية . القاهرة ١٣٢٤ / ١٩٠٦ - ٧ .

ابن معيد المغربي ، أبو الحسن على : رايات المبرزين وشارات المميزين ،
نشره مع ترجمة إسبانية غرسية غومس في مدريد ١٩٤٢ .

الشافعي ، محمد : فهارس تحاميلية لكتاب العقد الفريد . كالكتنا ١٩٣٥
و ١٩٣٧ . انظر : مجلة الأندلس ، مجلد ٧ ص ٥٠٠ .

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، بولاق ١٢٩٩ .

الشقندي ، أبو الوليد : رسالة في فضل الأندلس ، في نفح الطيب المقرئ ،
ج ٢ ص ١٢٦ - ١٥٠ .

— ترجها غرسية غومس ونشر الترجمة في مدريد ١٩٣٣ .

الشهرستاني : كتاب الملل والنحل ، طبعة و . كيورتون . لندن ١٨٤٢ .

ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة
وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام المهدي وتاريخ الموحدين . مخطوط في أ كسفورد
رقم ٤٣٣ .

صاعد الطليطلي : طبقات الأم ، نشره شيعو في بيروت سنة ١٩١٢ وترجه
إلى الفرنسية بلاشير سنة ١٩٣٥ .

صحيح البخاري : طبعة كريل ، لايدن ١٨٦٢ - ٦٨ .

— ترجمة فرنسية بقلم هوداس ومارسياس ١٩٠٣ - ٨ .

- صفوان بن إدريس : زاد المسافر ، نشره ا . محداد . بيروت ١٩٣٩ .
- ابن طافيل ، أبو بكر : رسالة حتى بن يقظان ، ترجمها بوكوك إلى الإنجليزية ودلبعها في أ كسفورد سنة ١٦٧١ و ١٧٠٠ .
- نشرت في القاهرة والقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ .
- نشرها ليون جوتييه في الجزائر سنة ١٩٠٠ و ١٩٣٧ .
- ترجمه 'يونس بوجيس إلى الإسبانية ونشرها في مرتسطة سنة ١٩٠٠ .
- ترجمها بالثيا سره أخرى ونشر الترجمة في مدريد سنة ١٩٣٤ .
- ابن طملوس الجزري : المدخل إلى المنطق ، نص عربي وترجمة إسبانية لميغيل آسين ، الجزء الأول ، مدريد ١٩١٦ .
- ابن عبد الحكم : فتح مصر والأندلس ، طبعة ج . هـ . جوز ، لندن ١٨٥٨
- ترجمة إسبانية في الجزء الأول من مجموعة المدونات العربية ، ص ٢٨ وما يليها .
- عبد الله بن عبد الواحد الفهرى : كتاب الوثائق المستعملة ، مخطوط رقم ١١ بمكتبة الدراسات العربية بمدريد .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ١٣٢١ . فهارس تحليلية لمحمد الشافعى ، جزءان ، كلكتا ١٩٣٥ و ١٩٣٧ .
- ابن عذارى المراكشى ، أبو العباس : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزى ، لايدن ١٨٤٨ — ٥١ .
- ترجمه إلى الفرنسية فانيان ونشره في الجزائر ١٩٠١ .
- الجزء الثالث طبعة ليثى بروكسسال ١٩٣٠ .

- تصويبات لنص البيان المغرب ، بقلم دوزى ، لايدن ١٨٨٣ .
- ترجمة إسبانية قام بها فرناندز إى جنتال ، غرناطة ١٨٦٢ .
- أبو على القالى : كتاب الأمالى ، بولاق ١٣٢٤ .
- على بن يحيى بن القاسم : كتاب الوثائق (مخطوط رقم ٥ فى مكتبة مدرسة الدراسات العربية بمدريد) .
- الغافقى ، أبو جعفر أحمد : المرشد فى الكحل ، ترجمه ماكس مايرهوف ونشره فى برشلونة ١٩٣٣ .
- فتح الأندلس : مؤلف مجهول ، نشره مع ترجمة إسبانية خواكيم دجنتال فى الجزائر ١٨٨٩ .
- ابن قزمان : ديوانه ، طبعة نيكل (بحروف لاتينية) ، مدريد ١٩٣٣ .
- ابن القفطى : تاريخ الحكماء ، طبعة ليبرت ، ليبزج ١٩٠٣ .
- ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره جايانجوس ١٨٦٨ — ترجمه إلى الإسبانية ريبيرا مع مقدمة فى مدريد ١٩٢٦ .
- ابن مغيث : كتاب الوثائق (مخطوط بمدرسة الدراسات العربية فى مدريد)
- ترجمة إسبانية جزئية بقلم س . فيلا . مدريد ١٩٣١ فى Anuario de Historia de Derecho espanol .
- المقرى ، أبو العباس أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت . جزمان ، لايدن ١٨٥٥ — ٦١ .
- تاريخ الدول الإسلامية فى إسبانيا ، ترجمة إنجليزية جزئية لنفح الطيب

مع تعليقات بقلم ب . دجايانجوس . لندن ١٨٤٠ — ٤٣ .

— خطاب إلى المسيو فليشر عن الطبعة العربية لنفح الطيب بقلم دوزي .
لايدن ١٨٧١ .

المكتبة الأندلسية : نشر كوديرا وريبييرا في مدريد وسرقسطة من سنة
١٨٨٣ إلى ١٨٩٥ ، عشرة أجزاء هي : ج ١ ، ٢ : الصلة لابن بشكوال ١٨٨٣ ؛
ج ٣ : بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس للضبي ؛ ج ٤ : المعجم لابن الأبار
١٨٨٦ ؛ ج ٥ ، ٦ : التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ١٨٨٧ — ٩ ؛ ج ٧ ، ٨ :
تاريخ علماء الأندلس ١٨٩١ ؛ ج ٩ ، ١٠ : فهرست أبي بكر بن خير ١٨٩٥ .

موسى بن ميمون : دلالة الحائرين . طبعة سلومون مونك ، باريس
١٨٥٠ — ٦٦ .

— ترجمة فرنسية بقلم مونك ، باريس ١٨٥٢ — ٦٦ .

ابن النديم : كتاب الفهرست ، طبعة فلوجل ، ليبزج ١٨٧١ — ٧٢ .
النويري ، شهاب الدين أحمد : نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء
الثاني والعشرون ، وهو يتناول تاريخ المغرب والأندلس . نشره في مجلدين ماريانو
جسپار ريمبرو ، مدريد ١٩١٧ ؛ وكل منهما مذيّل بترجمة إسبانية له .
أبو الوليد الحيرى : البديع في وصف الزبيح . نشره هنري پيريس ،
رباط ١٩٤٠ .

ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، طبعة مارجليوث . ليبزج — لندن ١٩٠٧

(ب) مراجع غير عربية

ALONSO, M., *El "Tawil" y la hermenéutica sacra de Averroes*, en *Al-Andalus*, 1942, VII, 127—151.

— *Averroes, observador de la Naturaleza*, en *Al-Andalus*, 1940, V, 215-230.

ALFONSO X, *Libros del saber de Astronomía*. Ed. Rico y Sinobas. Madrid, 1863.

"*Aljamiado*", *Leyendas moriscas*, por GUILLÉN ROBLES, 3 vols. Madrid, 1886.

— *La literatura aljamiada*, Discurso por E. SAAVEDRA, Mem. Ac. Española, vol. VI.

ALVARO DE CORDOBA, *Opera*, en *Patrología latina de Migne*, vol. 121.

AMADOR DE LOS RIOS, J., *Historia crítica de la Literatura española*. Madrid, 1861-65.

— *Estudios históricos, políticos y literarios sobre los judíos de España*. Madrid, 1848.

AMARI, M., *Bibliotheca Arabo-Sicula*, Leipzig, 1857. Apéndice, 1875.

ANDRÉS, JUAN, *Origen, progresos y estado actual de toda la literatura*. Ed. italiana, 1782-98; trad. castellana, 1784-806. 7 vols.

"*Anónimo de Copenhague y de Madrid*". Ed. Huici, Valencia, 1917.

ANTUNA, P., MELCHOR M., *Ben Hayán de Cordoba y su obra histórica*. Escorial, 1924.

— *El polígrafo granadino Ben al-Játib en la Real Biblioteca del Escorial*, 1926.

— *Una versión árabe compendiada de la "Estoria de España, de Alfonso el Sabio"* en *Al-Andalus*, 1933, 105.

ASIN PALACIOS, M., *El filósofo zaragozano Avempace*, en *Rev. de Aragón*, 1901.

— *El averroísmo teológico de Sto. Tomás de Aquino*, en "Homenaje a Codera". Zaragoza, 1904.

— *El original árabe de la "Disputa del asno contra Fr. Anselmo de Turmeda"*. Madrid, 1914.

— *Aben-Masarra y su escuela*. Madrid, 1914.

— *La escatología musulmana en la Divina Comedia*. Madrid, 1919. 2ª ed. Madrid, 1943. En ella, Historia y crítica de una polémica, la trad. inglesa de Sunderland. Londres, 1926.

— *El místico murciano Ben Arabí* (monografías y documentos). I, Autobiografía cronológica. Madrid, 1925.

II, Noticias autobiográficas de su "Risalat alcods", 1926.

III, Caracteres generales de su sistema, 1926.

— *Abenhâzam 'de Córdoba y su Historia de las ideas religiosas*. Madrid, 1927-1932, 5 vols.

— *El Islam cristianizado*. Madrid, 1931.

— *Huellas del Islam*. (Sto. Tomás de Aquino, Turmeda, Pascal, San Juan de la Cruz), Madrid, 1941.

— *Ibn al-Sid de Badojoz y su "Libro de los cercos"*, en Al-Andalus, 1940, V. 45-154.

— *Avempace botánico*, en Al-Andalus, 1940, V. 255-299.

— *El "Abecedario de Yúsuf Benasaij el Malagueño"*, en Bol. Acad. Historia, Madrid, 1932, C, 195-228.

— *Glosario de voces romances registradas por un botánico anónimo hispanomusulmán* (siglos XI—XII). Madrid, 1943.

BACHER, *Moses ben Maimon*. Herausgegeben von Bacher, Brann, Simonsen und Guttmann, vol. I. Leipzig, 1908; vol. II, 1914

BASSET, RENÉ, *La poésie arabe antelamique*. Paris, 1880.

BLACHÈRE, R., *La vie et l'oeuvre du poète-épistolier andalou Ibn Darrag al-Kastallí*, en Hesperis, 1933.

BOER, T. J. DE, *The history of Philosophy in Islam*. Trad. inglesa de E.R. Jones. Londres, 1903.

(ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده . الطبعة الثانية ،

القاهرة ١٩٤٨)

BONILLA Y SANMARTIN, A., *Historia de la Filosofía española*. Tomo II : Los judíos. Madrid, 1911.

BROCKELMANN, C., *Geschichte der arabischen Literatur* Weimar, 1898. Suplemento, Leiden, 1937-1938. 4 vols.

CAETANI, L., *Anali dell'Islam*. Milán, 1905.

CANTOR, MORITZ, *Vorlesungen über Geschichte der Mathematiker*, 3.^a ed., 4 vols. Leipzig, 1907-908.

CARRA DE VAUX, BARON, *Les penseurs de l'Islam*. Paris, 1921-26.

CASIRI, M., *Bibliotheca arabico-hispana Escorialensis*. Madrid, 1760.

CHAUVIN, V., *Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes, publiées dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885*, 12 vols. Lieja-Leipzig, 1892-1922.

CODERA Y ZAIDIN, F., *Decadencia y desaparición de los almorávides en España*. Zaragoza, 1899.

COLIN, Dr. GABRIEL, *Avenzoar, sa vie et ses oeuvres*. Paris, 1911.

COUR, A., *Ibn Zaidoun*. Constantine, 1920.

DERENBOURG, H., *Les manuscrits arabes de l'Escorial*. Paris, 1884.

DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne*. Leyde, 1861. Ed. Levi-Provençal, Leyde, 1932. Trad. esp. de M. Santiago Fuentes. Madrid, Calpe, 1920.

— *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*. 1.^a ed. 1 vol. Leyde, 1849 ; 2.^a ed., 2vols. Leyde, 1881.

— *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*. Leyde, 1846-1863.

— *Notice sur quelques manuscrits arabes*. Leyden, 1847.

— *Commentaire historique sur le poème d'Ibn Abdoun, par Ibn-Badrout*. Leyde, 1846.

— *Poème d'Abou-Ishac d'Elvira contre les juifs de Grenade*. Recherches, 2.^a ed. I, 292.

— *Essai sur l'histoire des Todjibides, les Beni-Hâchim de Saragosse et les Beni-Comaûih d'Almérie*. Recherches, 2.^e ed 1, 221.

— *Le calendrier de Cordouc de l'année 961*. Leyde, 1873.

DUBLER, CÉSAR E., *Posibles fuentes árabes de la "Agricultura general"*, de Gabriel Alonso de Herrera, en Al-Andalus, 1941, VI, 135-156.

DUGAT, *Histoire des Philosophes et des Théologiens musulmans* (de 632 a 1258). Paris, 1878.

DUMAS, C., *Le héros des Makâmât de Hariri. Abou-Zéïd de Saroudj*. Alger, 1917.

EGUILAZ, L., *Poesía històrica, lírica y descriptiva de los árabes andaluces*. Tesis doctoral. Madrid, 1864.

Encyclopédie de l'Islam. Dictionnaire géographique, ethnographique et biographique des peuples musulmans, publié avec le concours des principaux orientalistes par M. Th. Houtsma. Leyde, Paris, 1908.

FERNANDEZ Y GONZALEZ, FRANCISCO, *Historia de Zeyad el de Quinena* (Museo Espanol de Antigüedades, tomo XI, 1882)

GARCIA GOMEZ, E. *Quasidas de Andalucía*. Madrid, 1940.

— *Un texto árabe occidental de la leyenda de Alejandro*, Madrid, 1929.

— *Un cuento árabe, fuente común de Ben Tofáil y de Gracián*. Madrid, Rev. Archivos, 1926

— *El "Parangón entre Málaga y Salé"*, de Ibn al-Jâtib En Al-Andalus, 1934, II, 183.

— *Ibn Mammati, compendiador de la "Dajira"* en Al-Andalus, 1934, 329.

— *Observaciones sobre la qasida maqsura del Qartachanni*, en Al-Andalus, 1933, I, 81.

— *Poemas arábigo-andaluces*. Madrid, 1930; 2.^a ed. 1940.

— *Bagdad y los reinos de Taifas*, en Rev Occidente, 1934, XII, 1-22.

— *El "Diwan" del Príncipe Amnistiado*, en Escorial, 1942.

GAUTHIER, LEON, *Ibn Thofail, sa vie, ses oeuvres*. París, 1909.

GAYANGOS, P., *Memoria sobre la autenticidad de la Crónica llamada del Moro Rasis*. (Memorias Acad. Hist. VIII, 1850.)

GOEJE, M. J. DE, *Die arabische Litteratur*, en P. Hinneberg, *Die Kultur der Gegenwart*, 1.^a parte, cap. VII. Berlin-Leipzig, 1906.

GOLDZIHNER, I., *Le dogme et la loi de l'Islam*. Trad. francesa de Arin. París, 1920.

GONZALBO, L., *Poetisas musulmanas*. Rev. Archivos. Madrid, 1905.

GONZALEZ PALENCIA, A., *Historia de la Espana musulmana*. 4.^a ed. Editorial Labor, Barcelona, 1945.

GRAETZ, *Les juifs d'Espagne*. Trad. Stenne. París, 1872.

GUILLÉN ROBLES, F., *Catálogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid*, 1889.

GUNDISALVI, DOMINICUS, *De Divisione philosophiae*. Ed. Baur. Münster, 1903.

"HADIZ", *Les traditions islamiques traduits par Houdas, O. et Marçias, W.*, 4 vols. París, 1903-14.

HORTEN, M., *Die philosophischen Systeme der Speculativen Theologen in Islam*. Bonn, 1912.

HUART, CL., *Littérature arabe*, 4.^a ed. París, 1923. Trad. inglesa de Lady M. Loyd.

HURTADO, J., Y GONZALEZ PALENCIA, A., *Historia de la Literatura española*, 5.^a ed. Madrid. 1943.

Jewish Encyclopedia, The. Nueva York-Londres, 1906.

JOURDAIN, A., *Recherches sur les traductions latines d'Aristote*. París, 1843.

JUYNBOLL, TH. W., *Handbuch des islamischen Gesetzes*. Leyde, 1910.

KAUFMANN, D., *Studien über Salomon ibn Gabirol*. Budapest, 1899.

LAFUENTE ALCANTARA, *Catálogo de los códices adquiridos por el Gobierno de Su Majestad en Tetuán*. Madrid, 1862.

LECLERC, L., *Histoire de la Médecine arabe*. París, 1876.

LEVI-PROVENÇAL, E. *La civilisation arabe en Espagne*. Vue générale. El Cairo, 1938.

— *L'Espagne musulmane au x.^e siècle*. Institutions et vie sociale. París, Larose, 1932.

— *Les "Mémoires" de Abd Allah*, dernier roi ziride de Grenade, en *Al-Andalus*, 1935, III, 233-344 ; 1936, IV, 29-143.

LEVY, L., *Maïmonides*. París, 1911.

LOPEZ ORTIZ, J., *La recepción de la escuela malequí en España*. Madrid, 1931, en *Anuario de Hist. del Derecho Español*.

MEHREN, A. F., *Etudes sur la philosophie d'Averroès*, concernant ses rapports avec celle d'Avicenne et de Gazzâli, en *le Muséon*, vol. VII.

MENÉNDEZ Y PELAYO, M., *Heterodoxos españoles*, vol. I, 1.^a ed. Madrid, 1880. *Orígenes de la Novela I*, Madrid, 1943.

— *De las influencias semíticas en la literatura española*, en *Estudios de crítica literaria*, Madrid, 1941, I, 193.

— *La doncella Teodor*, *íd.*, I, 219.

MENÉNDEZ PIDAL, JUAN, *Leyendas del último rey goda*. Madrid, 1906.

MENÉNDEZ PIDAL, R., *Sobre Aluacaxi y la elegía árabe de Valencia*, en "Homenaje a Codera", 393-409. J. Ribera. *El Archivo*, rev. Denia, I, págs. 380, 388, 393, 1887.

— *Rodrigo, el último goda*. Madrid. La Lectura, 1926.

— *Poesía árabe y poesía europea*, en *Bull. Hisp.*, 1938, y en *Col. Austral*, 1941.

MEYERHOF, M., *Esquisse d'histoire de la Pharmacologie et botanique chez les musulmans d'Espagne*, en *Al-Andalus*, 1935, III, 1-41.

— *Du nouveau sur Ibn Quzmân*, en *Al-Andalus*, 1944, fasc. 2.

— *Ueber die Pharmakologie und Botanik der arabischen Geographen Edrisi*, en *Archiv. f. Gesch. d. Natur. d. Naturwiss. u.d. Technik* (Leipzig, 1930), XII, 45-53 y 226-36.

— y SOBHY, G. P., *The abridged version of "The book of simple drugs" of Ahmad ibn M. al Ghafiqi*, by Gregorius Abu-l-Farag (Barhebraeus), Cairo, 1932. Res. en *Al-Andalus*, 1, 220.

MIELI, A., *La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale*. Avec quelques additions de H. P. J. Renaud. M. Meyerhof, J., Ruska. Leiden, 1939.

MILLÀS VALLICROSA, J. M., *Assaig d'història de les idees físiques i matemàtiques a la Catalunya medieval*. Vol. 1. Barcelona, 1931.

— *Influencia de la poesia popular hispano-musulmana en la poesia italiana*. Madrid, Revista Archivos, 1921.

— *La poesia sagrada hebraico-espanola*. Madrid, 1940.

— *Sobre el autor del Libro de las Cruces*, en *Al-Andalus*, 1940, V, 230.

MORATA, P. N., *Avempace*, en *Ciudad de Dios*, 1926. .

MORENO NIETO, J., *Estudio crítico sobre los historiadores árabe-espanoles*. Disc. en la Acad. Historia, 1864.

"Moriscos" : *Aljamiado* : *اظم*

MÜLLER, M. J., *Philosophie und Theologie von Averroès*, texto. Munich, 1859. Trad. Alemana, 1875.

MUNK, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe*. Paris, 1857. (Reimpresión en 1927).

— *Essai d'une trad. des Séances de Hariri*, précédé de quelques observations sur la poésie arabe. "Journal Asiatique", II, 540-66, 1834.

MÜNZ, J., *Moses ben Maimoun (Maimonides) sein Leben und seine Werke*. Frankfurt a. M., 1912.

NALLINO, C. A., *Intorno al Kitáb al-bayân del giurista Ibn Rushd*, en "Homenaje a Codera", pág. 67. Zaragoza, 1904.

NICHOLSON, *Literary History of the Arabs*. Londres, 1907.

— *Studies in islamic Mysticism*. Cambridge, 1921.

NYKL, A. R., *La poesia de ambos lados del Pirineo hacia el ano 1100*, en *Al-Andalus*, 1933, I, 357.

OLIVER ASÍN, J., *Un morisco de Tinne, admirador de Lope*, en *Al-Andalus*, 1933, I, 409.

PANO, MARIANO DE, *Coplas del Alhichante de Puey Monzón*. Zaragoza, 1897.

— *El recontamiento de Almicded y Almayesa*, en "Homenaje a Codera", 1904, pág. 35.

PÉRÈS, H., *La poésie andalouse en arabe classique au XI.^e siècle*. Ses aspects généraux et sa valeur documentaire. Paris, 1937. Resena de E. G. G., en *Al-Andalus*, IV, 283-316.

PIZZI, I., *Litteratura araba*. Milán, Hoepli, 1903.

PONS BOIGUES, F., *Ensayo biobibliográfico sobre los historiadores y geógrafos árabe-espanoles*. Madrid, 1898.

PRIETO Y VIVES, A., *Los Reyes de Taifas*. Estudio histórico y numismático de los musulmanes espanoles en el siglo v de la hégira (XI de J.C.). Madrid, 1926.

RAZI, AL-, *La crónica del moro Rasis*. Ed. Gayangos, 1850. (Complelada por R. Menéndez Pidal, en Catálogo de Crónicas de la Real Biblioteca)

RENAN, E., *Averroès et l'Averroisme*, 3.^a ed. Paris, 1861.

RENAUD, H.P. J., *La prétendue "Hygiène d'Abulcasis" et sa véritable origine*. Lisboa, 1941 (Extr. de Petrus Nonius, III).

— *Trois études d'histoire de la Médecine arabe en Occident*. Nouveaux manuscrits d'Avenzoar, en *Hespéris*, 1931, XII, 91-105.

REVISTAS : *Al-Andalus*. *Le Journal Asiatique*. *Rev. du Monde Musulman*. *Rev. des études islamiques*. *Der Islam*. *Riv. d. studi orientali*. *Isis*. etc.

RIBERA, J., y ASIN, M., *Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta para ampliación de estudios*. Madrid, 1912.

RIBERA Y TARRAGÓ, J., *Disertaciones y opúsculos*. Madrid, 1928, 2 vols. Contiene : El Cancionero de Ben Guzmán. —

Epica andaluza romanceada. — Orígenes de la filosofía de Raimundo Lulio. — Bibliófilos y bibliotecas en la España musulmana. — La enseñanza entre los musulmanes españoles. — La Crónica de al-Joxani. — Ben al-Qutiyya y su crónica. — Y otros estudios sobre Historia de la Música, historia árabe de Valencia, etc.

— *La música de las Cantigas*. Madrid, Real Acad. Española, 1922.

— *La música andaluza medieval en las canciones de trovadores, troveros y minnesinger*. Madrid, 1923-25.

— *La música árabe y su influencia en la española*. Madrid, Edit. Voluntad, 1927.

ROSENTHAL, E., *Ibn Khalduns Gedanken über den Staat*. Munich, 1932.

SAAVEDRA, F., *Discurso sobre la Literatura aljamiada*, en *Memorias de la Real Acad. Española*, VI, 155 y 304.

SANCHEZ PÉREZ, J. A., *Biografías de matemáticos árabes que florecieron en España*. Madrid, Acad. de Ciencias exactas, 1921.

SARTON, GEORGE, *Introduction to the History of Science*, vol. I. Baltimore, 1927; II, 1931.

SCHACK, A. F. DE, *Poesía y arte de los árabes en España y Sicilia*. Trad. del alemán por Valera, 3 vols., 3.ª ed. Sevilla, 1881.

SIMONET, F., *El siglo de oro de la literatura arabigo-española*. Tesis doctoral. Granada, 1867.

— *Historia de los mozárabes de España*. Madrid, 1897-1903.

SORIANO VIGUERA, JOSÉ, *Contribución al conocimiento de los trabajos astronómicos desarrollados en la escuela de Alfonso X el Sabio*. Madrid, 1916.

SPRENGER, A., MOHÁMED ALA, *A Dictionary of the technical terms used in the sciences of the muslimans*. Bengal, 1854.

STEINSCHNEIDER, *Die arabische Litteratur der Juden*. Frankfurt, 1902.

SUTER, H., *Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke*. Leipzig, 1900.

TÁLLOREN, O. J., *Los nombres árabes de las estrellas a la transcripción alfonsina*, en "Homenaje a Menéndez Pidal", II, 633. Madrid, 1925.

WULF, M. De, *Histoire de la philosophie Médiévale*. Lovaina, 1912.

WUESTENFELD, F., *Die Geschichtsschreiber der Araber und ihre Werke*. Göttingen, 1882.

— *Geschichte der arabischen Aertze und Naturforscher*. Göttingen, 1840.

— *Die Uebersetzungen arabischer Werke in das Lateinische seit dem XI. Jahrhundert*. Göttingen, 1877.

١ - فهرست الأعلام

١ - أعلام عربية أو وردت بالعربية

(١)

أحمد بن بقى القاضي : ٢٧٠
أحمد بن جفاف ، أبو جعفر (قاضى بلنسية) :

١١٧

أحمد بن حنبل : ٤٠٧ ، ٤١٠

أبو أحمد بن حيون : ١٢٩

أحمد بن خالد المروفي بالجلباب : ٣٧٧

أحمد بن سعيد الممداني : ٧١

أحمد بن سعيد بن أبي القياض : ٢١٧

أحمد بن الصفار : ٤٥٠

أحمد بن عباس (الوزير الكاتب) : ١٥٠ ،

١٠٩ - ١١٠

أحمد بن عبد الله الحبيبي : ٣٢٥

أحمد بن عبد الوهاب بن يونس = ابن

صلاة الله القرطبي : ١١ ، ٤٣٥

أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري

المعروف بآبى الباذى : ٢٢ ، ١٨٦

أحمد بن فرج بن منقيل : ٢٦٨ ، ٣٢٨

أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس : ٣٣

أحمد بن محمد بن الجصور : ١٧٣ ، ٢١٣

أحمد بن محمد بن موسى الرازي (المؤرخ) :

١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٠

أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجبي

الزاهد = ابن الأقلبي : ٧٣ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٩٩

أحمد المقرئ (الشاعر المعروف بالكساد) :

١٦٥ ، ١٦٦

أحمد بن هارون الغزي : ٢٨٠

أحمد بن وليد بن عبد الحميد بن عوسجة

الأنصاري = ابن أخت عبدون :

٣٣٠

أرفاء شتايجر : ٥٧٤

آسبن بلايوس : ١٤ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٣٢٥ ،

٣٢٩ ، ٣٣٧ ، ٤٣٠ ، ٥٥١

آبرو القرطبي : ٥٠ ، ٤٨٥ ، ٥٣٥

آياصوفيا : ٤٧٤

ابن الأبار : انظر : أبو عبيدة بن محمد

ابن عبد الرحمن بن الأبار القضاي

أبان بن عثمان الميشر : ٣٣٠

أبراهام بن صمويل بن حسداي : ٥٠١

أبراهام بن عزرا بن ميّر : ٢٦ ، ٥٠٠

أبراهام بن ليثي : ٥٧٦

إبراهيم بن إدريس الحسني : ٦٥

إبراهيم البلقادي : ٥١٨

إبراهيم تيبلي = خوان بيريت : ٥١٣

إبراهيم بن داود الطليطلي : ٢٦

إبراهيم بن سهل الإشبيلي (الشاعر) :

٢٢ ، ١٣٠ ، ١٦٥

إبراهيم بن قرقل (أو قرقول) : انظر :

أبو إسحاق إبراهيم بن قرقل (أو قرقول)

إبراهيم النظام : ٣٢٥

أبو إبراهيم بن يحيى الزرقالي : ٤٥١ ، ١٦ -

٤٥٣ ، ٥٧٦

إبره (نهر) : ٤٤

سالا : ٢٥١

أقراط : ٤٦٦

أنير الدين أبو حيان : ٢٤ ، ٢٥ ، ١٦٦ ،

١٨٧ ، ٢٣٨

إسماعيل (صمويل) بن النخلة : ١٥ ،
١٠٧ ، ١٠٨
ابن إسماعيل : انظر : عبد الرحمن بن
إسماعيل بن زيد
إشبان بن يافت : ١٩٨
أشبونة : ٢٨٨
إشيلية : ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٠ ،
٦٣ ، ٨٥ ، ٨٦ — ١٠٧ ،
١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ،
١٣٥ ، ٢٧٣ ، ٤٢٢ ، ٥٧٤
اشترقونة : ١٨١
الاشترقوني : انظر : أبو طاهر محمد بن يوسف
السرقسطي
أصبع بن خليل : ٤٠٨
أصبع بن الفرج : ٤١٩ ، ٥٠
أبو الأصبع عبد العزيز بن علي بن الطحان :
٢٧١
اصطف بن باسيل : ٤٦٣
الاصفهانى ، أبو الفرج : ١٠ ، ١١
الأصمى : ١٦٥
ابن أبي أصيبعة : ٣٢٩ ، ٤٧٩
الأصملى : ٦٥
اعتماد (الرميكية) : ١٦ ، ٩٤ ،
٩٥ — ٩٦ ، ٩٧
أعشى قيس : ٣٢ ، ٣٣
الأعلم الجليلوسى : ١٨٦
أغرغت : ٣٢٩
أغمات : ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٥
بنو الأفلح : ١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢١
ابن أفلح : انظر : جابر بن أفلح
أفلوطين : ٣٢٩
ابن الإفليل : ٣٣١
إقريطش : ٣١٨
الأقشيتين : انظر : أبو عبد الله محمد بن
موسى بن يزيد

أحد بن نصر : ٨
أخطل بن غارة : ١٥٩
الأخفش : ١٨٥
إدريس بن يحيى بن علي بن جود : ١٢٢
ابن إدريس الجزيرى : ٦١
الإدريسي : انظر : أبو عبد الله محمد
الإدريسي
أدلارد الباني : ٥٣٤
إدوارد وليام لين : ٩٩٣
الأذفولش : انظر : القونسو
الأراك ، الأرك (موقعة) : ١٢٦
إربل : ٢٨٤
أرتوبست د هيتا : انظر : خوان رويث
أرسططاليس : ٢٢ ، ٢٤ ، ١٦٩ ،
٣٣٤ ، ٥٠٠
أرطياس : ٦٠٤ — ٦٠٧
ابن أرفع رأسه : ١٦ ، ١٥٧
أركش : ١٠٤ ، ١٠٩
أرتالو د فيلا نونا : ٥٣٤
إسبانيا : ٢٩ ، ٧٧
استجة : ١٠٩
إسحاق الموصلى : ٥٣
أبو إسحاق الإلبيرى (الشاعر) : ١٥ ،
١٠٨
أبو إسحاق إبراهيم بن قرقل (أولقرقل) :
٢٣ ، ٣٩٨
أبو إسحاق إبراهيم بن المجيد : ٥٠١
أبو إسحاق بن دهاق : ٣٨٧
أبو إسحاق بن ملكون : ١٨٦
الإسكريال : انظر : مكتبة الإسكريال
الإسكندر : ٥٢٨ ، ٥٧٨
إسكندر الهالى : ٣٦١
الإسكندرية : ١٠ ، ١٢٥
أسلم بن عبد العزيز : ٤٣٣
إسماعيل بن بدر : ٢٠١
إسماعيل بن عبد الله الرعبي : ٣٣١

أوريولة : ٢٨٠
 أوغسطين (القديس) : ٢١٧
 أو كنفورد : انظر : مكتبة أو كنفورد
 إيزودور الإشبيلي : *
 إيزيدور الباجي ، القديس : ٥٣٨
 إيزيدورو خيل : ٥٨٤
 ابن أيمن : انظر : محمد بن عبد الملك بن أيمن
 أبو أيوب سليمان بن يحيى : انظر ابن جبيرول

(ب)

باب الصباغين : ١٠٠
 باب المطارين : ٦٨
 ابن مائة النجبي ، أبو بكر محمد : ١٧ ،
 ٢٢ ، ١٢٢ ، ١٦٥ ، ٢٩٧ ،
 ٣٣٥ — ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٤٦٩ ،
 ٥٠٢
 الباجي ، أبو الوليد : انظر : أبو الوليد
 سليمان الباجي
 باديس بن حبوس : ١٠٨ ، ١١٠
 باديس بن زيري : ٢٤٠
 ابن الباذن : انظر : أحمد بن علي بن أحمد
 ابن خلف
 البارون قوث شاك : انظر : شاك ،
 البارون قوث
 باسكوال دي جايا نجوس : ٥٧٩
 بالثيا ، جتال : ٢٧٩ ، ٣٣٤
 بيشتر (حصن) : ٦ ، ٥٩
 بيثنة بنت المعتد : ٩٧
 البجاني ، أبو مروان : ٤٦٧
 بجاية : ٣٣١
 بجاية : ١١٥
 بيجنت (البرشتر) : انظر بنجنيس
 البحري : ٤٠
 أبو بحر صفوان بن إدريس : ٤٣ ، ٢٧٩
 أبو بحر عبد الصمد : ١٠٥
 بجيا بن قافوذا : ٢٦ ، ٤٩٤ — ٤٩٧

إقليدس الأندلس : انظر : عبد الرحمن بن
 إسماعيل بن زيد
 ابن الأقيشى : انظر : أحمد بن محمد بن عيسى
 ألاكركن (المستشرق) : ١٧٦ ، ٢٧٩
 البيرة : ٥٧ ، ١٩٣
 القريد بل (المستشرق الفرنسي) : ٢٧٩
 الفونسو الأول ، المقاتل : ٣٣٥ ، ٤٩٨ ،
 ٥٧٩
 ألفونسو السابع : ٢٧٦ ، ٥٣٦
 ألفونسو السادس : ١٨ ، ٢٣ ، ٩١ ،
 ٩٤ ، ٢٧٢ ، ٥٣٦
 ألفونسو العاشر : ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٥٨ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ ، ٥٣٤ ،
 ٥٣٦ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ — ٥٧٦ ،
 ٦٢٣ ، ٥٨١ ، ٤٧٧
 الفاريد جاتو : ٦٢٨
 الفاريد د فيليا ساندينو : ١٥١ ، ٦٢٩
 ألمانيا : ٢٩ ، ٤٨٧
 للرية : ١٥ ، ٢٣ ، ١٠٩ — ١١٦ ،
 ١٢٩
 ألميدا جارت : ٥٨٤
 اليسانة : ٣٥٥
 أماري ، بيكيل (المستشرق) : ٩٨
 ابن الإمام ، محمد بن أحمد الخولاني : ٣٣٠
 أمبروزيو هويثي : ٢٤٩ ، ٢٥١
 امرؤ القيس : ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧
 أبو أمية الحجاري : ٩
 بنو أمية : ١١ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٨٦ ،
 ١٦٩ ، ١٩٣
 أنبا ذليليس : ٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،
 ٤٩٣ ، ٥٤٦
 أنجلترا : ٢٩
 إتريك الأرغوني : ٥٨١
 أنس القلوب (جارية) : ٦٩
 أنسيلمو د تورميديا (القديس) : ٢٨ ،
 ٥٨٦ — ٥٩١
 أنقرة : ٣٤
 أوجست كور (المستشرق) : ٨٦

بطليموس : ١١٧ ، ٨٥ ، ١٨ ، ١٦ ، ٥٥

— ١٧٢ —

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن محمد القواني

الطنجي : ٣١٨ — ٣١٩

بغداد : ٤ ، ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٥٣ ، ٦٠ ، ٨٧ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ،

١٧٢ ، ١٩٧

ابن البغواتي : انظر : أبو عثمان سمييد
ابن عبد

أبو البقاء صالح بن شريف الرندي : ٢٣ ،

١٣١

بقي بن مخلد : ٧ ، ٩ ، ٣٢٤ ، ٤٠٧ ،

٤٣٠ ، ٤٣٣

ابن بقي ، أبو بكر (الشاعر) : ١٢٥ ، ١٥٧ ،

بكر الكنتاني : ٥٨

البكري : انظر : أبو هيب الله عبد الله بن

عبد العزيز بن محمد البكري

أبو بكر إبراهيم بن تيفلويت : ٣٣٥

أبو بكر الأبهري : ١١

أبو بكر الأبيض : ١٥٧

أبو بكر بن أحمد الصنوبري : ٣٩

أبو بكر أحمد بن مالك الشامي : ١٦٥

أبو بكر الحافظ = ابن سيد الناس :

٢٥ ، ٢٣٨

أبو بكر حسن بن مفرج المافري = القبيسي

القرطبي : ٢٧٥

أبو بكر الرازي (الطبيب الفارسي) : ٣٢٥

أبو بكر بن سعيد : ١٢٥

أبو بكر الصابوني : ١٣٣ ، ١٦٥

أبو بكر بن صارم : ١٦٥

أبو بكر بن عبادة بن سم السماء : ١٥٣ ،

١٥٦

أبو بكر عبد العزيز بن القبطوثة : ١٢٥

أبو بكر بن العربي : ٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٧٣

أبو بكر القبيسي : انظر : أبو بكر حسن

ابن مفرج المافري

البخاري : ٩

پدرو بشكرال : ٢٧

پدرو الجليل : ٥٣٩ ، ٥٧٤

پدرو دل ريال : ٥٧٦

پدرو الطليطلي : ٥٠٢

پدرو القاسي : ٢٥٩

ابن براكان ، عبد السلام بن عبد الرحمن :

٣٣٢

البراق : ١٢٨

ابن البراق الوادي آشي ، أبو القاسم : ٢٤٢

ابن برقي ، عمر بن حفص : ٤٦١

ابن برد ، بشار : ٣٩ ، ٦١

ابن أبي بردة : انظر : أبو الطيب محمد بن

أحمد بن أبي بردة

البرزالي ، أبو محمد قاسم : ٢٨٤

البرشبري بيجنت : انظر : بنجفيس

برشلونة : ١٢ ، ٩١ ، ١٣٣ ، ١٧٦

ابن برغوث ، محمد بن عمر : ٤٥١

برقة : ٦٣ ، ٦٤

برلين : انظر : مكتبة برلين

برنالدو العربي : ٥٧٦

بروقالس : ٥٠٣

بروقلس : ٣٢٩

برونيتو لاثيني : ٥٧٢

بريتو بيس : ٧

ابن بسام : انظر : أبو الحسن علي بن بسام

الشتري

بستهون (المستشرق) : ٢٤٩

بسطة : ١٣٢ ، ٢٨٣

ابن بشكواله : انظر : أبو القاسم خلف بن

عبد الملك

البصرة : ٣٧ ، ١٨٠

بطرس الجليل : انظر : پدرو الجليل

البطروحي ، أبو إسحاق نور الدين : ٢٣ ،

٣٤٨ ، ٤٥٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٩

بطليموس : ٤٥٦ ، ٥٧٥

بلنسية : ١٧ ، ١٨ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ٩٣ ،
١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٦٥ ،
٢٧٣ ، ٢٧٧

البلوطي : انظر : منذر بن سعيد البلوطي
بل (حسن) : ٤٣٣
البليلار : ١٣٥
ابن بليلة ، الأسعد بن إبراهيم (الشاعر) :
١١٢

البلينة : انظر : أبو عثمان سعيد
ابن البناء (الرياضي) : انظر : أبو العباس
أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي
يفتو : ١٨٧

بنجنيس (الأسقف) : ٤٨٦ ، ٥٠

ابن يهرام الجستانی : ٤٦١

بها بن باقودا : انظر : بجا

بو ، بارنلوم : ٣٥١ ، ٦٠٢

البودلية : انظر : للكتبة البودلية

بوكاشبو : ٥٨١

بوكوك (المستشرق) : ٣٣ ، ٣٥١

بوميه (للمستشرق) : ٢٥١

بونس بوميس (للمستشرق) : ٥٠ ،

١١٩

بباسة : ٤٥٦

البباسة : انظر : يحيى بن إسماعيل البباسة

ببيرة ، الظاهر (سلطان مصر) : ١٣٥

ببيرة : ٦٠ ، ٤٤٠

ابن البطار : انظر : ضياء الدين أبو محمد

عبد الله بن أحمد

ببيرة سبت أبلج : انظر : سبت أبلج

ابن البين ، أبو عبد الله (الشاعر) : ١٢١

ببيرة دانيل (هوية الفيلسوف) : ٥٣٤

(ت)

ببيرة : ٦١٢

التجبي ، محمد بن عبد الرحمن بن علي : ٢٨٠

(٤٢٢)

أبو بكر بن مزار (الشاعر الوزير) : ١٥٠ ،

٣٠ ، ٨٥ ، ٨٩ — ٩٤ ، ٩٧ ،

١١٦

أبو بكر بن غازي : ٢٥٦

أبو بكر محمد بن أحمد الرقوتي : ٢٥ ،

٤٥٧ ، ٥٧٣

أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي : ٨ ، ٦١ ،

٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٣ ، ١٨٥ ، ٢٨٧ ،

٣٣٠

أبو بكر محمد بن زهير : ١٢٩ ، ١٥٧ ،

أبو بكر محمد بن حاتم : ٢٥ ، ٤٢٩ ،

أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل : ٢٤ ،

٣٣٧ ، ٤٣٧ ، ٣٤٨ — ٣٥٣ ،

٣٥٤

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان (الأسقف ،

الزجال) : ٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ،

١٥٨ — ١٦٦ ، ١٦٥ ، ٦٢٠ ،

أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن

القوطية : ٣ ، ٨ ، ٩ ، ٨٨ ، ١٨٥ ،

١٩٣ ، ٢٠٢ — ٢٠٦ ، ٢٦٩ ،

٤٢١

أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد الغضني

الداني = ابن البانة : ١٥ ، ٩٧ ،

١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٥ ،

١٥٧ ، ٢٤٠

أبو بكر محمد بن فتحون الأوربولى : ٣٩٧

أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف

الطرطوشي الملقب بابن أبي رندة :

١٧٤ ، ١٢٥ ، ١٧

أبو بكر الخزومي : ١٢٥ ، ١٦٥ ،

أبو بكر يحيى بن الصيرفي : ١٢٣ ، ٢٤١ ،

أبو بكر يحيى بن يحيى = ابن السمينة :

٣٢٥

بلايو ، منندو : ٣٥١ ، ٤٥٦ ، ٥٨٥ ،

بلج بن بصر : ١٩٩

بلش : ٩٢ ، ٢٧٦

جامعة الجزائر : ٣١
جامعة الدول العربية : ٢٤٥
جايناجوس : ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠ ،
٤٤٣ ، ٢٤٠
جبريل سيونيتا : ٣١٣
جبل قاسيون : انظر : قاسيون (جبل)
ابن جبير ، أبو الحسين محمد : ١٢٩ ، ٢٣ ،
١٣٣ ، ٣١٦ — ٣١٨
ابن جبيرول ، سلمون بن يهوذا : ١٧ ، ٨ ،
٢٦ ، ١٢٢ ، ٣٣٢ ، ٤٩٣ ،
٤٩٦
ابن جعدر ، أبو الحسن علي : ١٦٥
ابن أبي جرادة : ٢٤٤
جريرتوس : ٥٣٤
جريرت : ٤٨٧
جرى بيريز : ٥٧٦
الجرجاني ، أبو الفتوح : ١٥ ، ١٠٧
جرسون بن سلومون : ٥٣٨
ابن الجزائر ، أبو جعفر أحمد : ٤٦١
جزائر فرطناطش : ٣١١
الجزيرة الخضراء : ١٠٤ ، ١٠٩ ، ٤٤٣
جزيرة شقر : ٢٩٦
ابن جزى ، أبو عبد الله محمد : ٣١٩
جسپار ريمرو : ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٥٧٨
ابن الجسور : انظر : أحمد بن محمد بن الجسور
أبو جعفر أحمد الصبي : ٢٢ ، ٢٦٦ ،
٢٧٦
أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد العافق :
٤٧٢ — ٤٧٤
أبو جعفر بن سعيد : ٢٣
أبو جعفر عبد الرحمن بن أحمد الأزدي =
ابن القصير : ١٨١
أبو جعفر بن عثمان المصنف : ٤٥ ، ٦١ ،
٦٥ ، ٦٢
أبو جعفر بن الفراز : ١١٢

التربة الصالحية : ٣٧٦
التطلي ، الأحمى : ١٢٥ ، ١٥٧
تطيلة : ١٣٥ ، ٤٢٣
تمام بن علامة : ٥٦ ، ٦٠٣
أبو تمام : ٤٠
أبو تميم محمد بن النصور ، المزعز القاطم : ٦٣
تنس : ٤٢٢
تود ، الملكة : ٥٥
توران شاه : ١٣٥
توربان الزائف : ٣٥٦
تورميدا : انظر : أنسيلود تورميدا
تورنبرج (المستشرق) : ٢٥١
توما الأكوبي : ٣٦١ ، ٥٣٥ ، ٥٧٣
تونس : ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢٥٩ ،
٢٧٧
ابن التيباني : انظر : أبو غالب تمام بن غالب
تيبولوس : ٨٦
تيرسو دي مولينا : ٥٢٤
ابن تيفلويت : انظر : أبو بكر إبراهيم بن
تيفلويت
تيكنور : انظر : جورج تيكنور
تيمورلك : ٢٦٠

(ث)

ثرفانتز : ٥٩٧
ثيوفراست : ٢١٧

(ج)

جابر بن أفلح الإشبيل : ٢٢ ، ٤٥٦
ابن جابر ، أبو عبد الله محمد : ٣١٩
الجاحظ : ٣٢٤ ، ٥٨٤
الجارية العبادية : ٩٧
حافة (كوند برشلونة) : ١٣١ ، ٢٧٧
چاكابون دودى : ٦٢٠
جالان (مترجم ألب ليلة) : ٥٩٣
حاليوس : ٤٦٤ ، ٤٦٦
ابن جامع ، علي : ٣٧٤

جيراردو الكريوني : ٤٦٦ ، ٤٣٩
جيرمو الأورقي : ٣٦١
جيرمو ، كوث يواتيه : انظر : جيم
ديتيو
جيل الروماني : ٣٦٨
جيم ديتيو : ٦١٥ ، ٦١٦
جين أرمون دآسيا : ٥٧٥
جيوم ، كوث يواتيه : انظر : جيم
جيورحانو برونو : ٤٩٣

(ح)

حاتم طي : ٣٤
ابن الحاج ، أبو عبيد الله (مدغليس
الزجال) : ١٦٥
الحارث بن أسد الحنفي : ٨
الحارث بن حنزة : ٣٢ ، ٣٣
حارة القناديل (بالقاهرة) : ٣٧٤
حامد بن سمجون : ٤٦٧
أبو حامد القرطبي : ٢٢ ، ٣١٢
أبو حامد الفزالي : ٢٢ ، ٢٣٧ ، ٤٩٤ ،
٥٤١
ابن حانوك : انظر : موسى بن حانوك
الحباب : انظر : أحمد بن خالد
ابن الحباب : أحمد بن عبد العزيز : ٢٠٨
ابن حبان البستي : ٢٠٨
حبوس بن ماكسن : ٤٤٩
ابن أبي حبيب الجزري : ١٦٥
حبيب الصقلي : ٧٢
ابن حبيب ، عبد الملك : انظر : عبد الملك
ابن حبيب
ابن حبيب ، أبو الوليد : انظر : أبو الوليد
ابن حبيب
ابن حبيش : انظر : أبو القاسم بن حبيش
ابن الحجاج : انظر : أبو عبد الله بن الحسين
ابن أحمد بن الحجاج

أبو جعفر المنصور : ١٩٧
أبو جعفر بن حريرة : ١٥٧
أبو جعفر الوقشي : ٥٥
جلال الدين السيوطي : ٣٧ ، ٢٣ ، ١٨٠
ابن جلجل : انظر سليمان بن جلجل
ابن جماعة الكنتاني : ٢٨٢
جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك :
١٨٧ — ١٨٧
ابن جناح ، أبو الوليد مروان : ٤٨٩
٤٩٢ —

جنتالك ، دومنجو : ٣٣٢
جنتالو سنشد أويدا : ٥٥٠
جنتالو دبريو : ٥٩٦
جنجرة : ٦١ ، ٦٦ ، ١٢٤
ابن جنون ، أحمد : ١٦٥
أبو جنيس : انظر : يوسف بن هارون
الرمادي
بنو جهور : ١٢٧
ابن جهور ، أبو الحزم : انظر : أبو الحزم
ابن جهور
ابن جهور ، عبد الملك : انظر عبد الملك
ابن جهور
ابن جهور ، أبو الوليد : انظر : أبو الوليد
ابن جهور
جوتا : انظر : مكتبة جوتا
جوجوييه : ١٨٧
جودا بن قيس : ٣٣٧
جودي بن عثمان النعوي : ١٨٥
جورج تيكنور : ٥٧٩
الجوف (بفر الأندلس) : ٣٣٢
جولدسيهر : ٤٩٦
ابن الجلياب الأنصاري : انظر : أبو الحسن
علي بن محمد بن الجلياب
جيان : ٩١ ، ١٦٦ ، ١٧٧
الجلياني ، ابن فرج : انظر : ابن فرج الجلياني
جيجان (معنية) : ٦ ، ٥٨

أبو الحسن الشقرى الوادى آشى : ١٣٣ ،
١٦٥

أبو الحسن بن عصفور الإشبيلي : ١٨٦
أبو الحسن على بن إسماعيل = ابن سيده :
١٦٧ ، ١٨٥ ، ١٩٠

أبو الحسن على بن بام الشنريق : ٧٧ ،
٣٧ ، ٦٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ،
٩٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ٢١٠ ،
٢٥٧ ، ٢٨٨ — ٢٩٦

أبو الحسن على بن محمد بن الجياب الأنصارى
القرطابى : ٢٥٢

أبو الحسن على بن محمد الحضرى المروى
بابن خروف الإشبيلي : ١٨٦
أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن على
القرشى = القصادى : ٤٥٧

أبو الحسن النباهى : ٢٥٥ ، ٢٥٦
حسين بن حاتم : ٢٤٠

الحضرى (الشاعر) : ٩٧ ، ١٠١
ابن حصن : انظر : على بن حصن
حصن بن على : انظر : بنى (حصن)
ابن أبى حصن : انظر : أبو زكريا بن
أبى حصن

حصن واط : انظر : واط (حصن)
الحفرة (وقعة) : ٣

ابن حفصون : انظر : عمر بن حفصون
حفصة الحجارية : ٧٣

حفصة الركوية : ٧٣ ، ١٢٧ — ١٢٨ ،
٢٤٢

الحكم الثانى للتنصر : ٩ ، ١٠ ، ٦٠ ،
٦٢ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ،

٢٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤٣٤ ،
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،
٤٤١ ، ٤٤٨

الحكم بن هشام (الرضى) : ٣ ، ٤ ،
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧

ابن الحكم ، عبد العزيز بن حكم بن أحمد :
٣٣٠

ابن الحجاج النخعى : ١٤٢
أبو الحجاج بن الأحمر : انظر يوسف بن
الأحمر

أبو الحجاج اليباسى : ١٣٣
أبو الحجاج الشيربلى : انظر يوسف الشيربلى
أبو الحجاج بن عيسى : انظر : يوسف
ابن عيسى

أبو الحجاج يوسف بن طماوس : ٣٦٢
الحجارى : انظر أبو عبد الله محمد بن
إبراهيم الحجارى

ابن الحجام : انظر : يعيش بن سعيد
ابن حجر : انظر : اسرؤ القيس
ابن الحداد الوادى آشى : انظر : أبو عبادة
ابن محمد بن الحداد

ابن هذا : انظر : محمد بن يحيى بن أحمد
الحرانى : انظر : يونس بن أحمد الحرانى
ابن حرب : انظر : محمد بن أحمد بن حرب
حرقوس : انظر : عثمان بن سعيد السكتانى
الحريرى : انظر : أبو محمد القاسم بن على بن
محمد بن عثمان الحريرى

ابن حريق : انظر : على بن حريق
أبو الحزم بن جهور : ١٤ ، ٨٠ ، ٨٢ ،
٨٤

ابن حزم القرطابى : انظر : أبو محمد على
ابن حزم

ابن حزم ، أبو النيرة : انظر : أبو للنيرة
ابن حزم

حسانة التميمية : ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٩
حصداى بن شبروط : ٩ ، ٢٦ ، ١٢٢ ،

٤٦٣ ، ٤٨٨
الحسن البصرى : ٥٢٠

الحسن بن هانى : ٥
الحسن بن الميثم : ٥٣٤

أبو الحسن الباجى : ٣٧٤
أبو الحسن بن سراج : ١٢١

أبو الحسن بن سعيد بن البطورنة : ١٢١

ابن الحرط : انظر : عبد الحق بن عبد الرحمن
ابن الحرط

ابن خروف : انظر : أبو الحسن علي بن
محمد الحضرمي المعروف بابن خروف
الإشبيلي

الحشني : انظر الحارث بن أسد الحشني
ابن أبي الحصال : انظر أبو عبد الله محمد
ابن أبي الحصال

الحضر : ٣٧٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤

أبو الخطاب بن دحية : ٢٨٣

ابن الخطيب : انظر : لسان الدين بن الخطيب
ابن خفاجة الشقري (الشاعر) : ١٧ ،
١٢٣ — ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٤٠

ابن خلدون ، عبد الرحمن : ٣٣ ، ٢٥ ،
١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ،
٢١١ ، ٢٥٩ — ٢٦٦ ، ٤١٥

خلف الأحمر : ٣٧

خلف بن عبد الله بن مخارق : ٤٣٤

ابن خلصكان : ٦٤ ، ١٣٣

خلوة (جارية) : ٦٩

خليان ربيرا : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٥٠ ،
٦٥ ، ١١٧ ، ١٤٢ — ١٥٢

١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٦٨ ،

٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٦٠٣

٦٠٧ —

خليل بن عبد الملك القرطبي : ٣٢٨

خليل النقلة : ٣٢٥ ، ٣٢٦

خوارزم : ٣١٢

خوان ألفونسو : ٥١٩

خوان أندريس : ٥٣٣ — ٥٣٦

خوان بيرث = إبراهيم تيبلي : ٥١٣

خوان د تيمونيدا : ٥٨١

خوان دل لاثينا : ٦٢٩

خوان ، الدون (الملك) : انظر : الدون

خوان (الملك)

أبو الحكم عمرو الكرماني : ١٧ ، ٤٥٥ ،
٤٦١

حامد الراوية : ٣١ ، ٣٤

حمدة بنت زياد : ١٢٨

ابن حمديس الصقلي : ١٥ ، ٩٧

حمدين بن أبيان : ٤٦١

ابن حمدين ، محمد بن علي : ١٦٢ ، ٢٧٧

الحراء (قصور) : ١٤٠ — ١٤١

ابن حميد : انظر : أبو عبد الله بن حميد

الحمدي : انظر : أبو عبد الله محمد بن فتوح

الأزدي الحمدي

الحميري : انظر : أبو عبد الله محمد بن عبد الله

ابن عبد المصم الحميري

ابن حنبل : انظر : أحمد بن حنبل

حنش بن عبد الله الصنعاني : ٤٢٣

أبو حنيقة النعمان : ٤١٣

حيان بن خلف بن حسين بن حيان ،

أبو مروان : ٤ ، ١٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٢٠٧ ، ٢٠٨ — ٢١١ ، ٢١٦

حور مؤمل : ٤٤ ، ١٢٧

ابن حوط الله : انظر : عبد الله بن سليمان ...

ابن حوط الله البلنسي

ابن حيان : انظر : حيان بن خلف

ابن حسين

أبو حيان : انظر : أحمد الدين أبو حيان

حيوج : انظر : أبو زكريا بن داود

ابن حيون : انظر : أبو أحمد بن حيون

حي بن عبد الملك : ٣٢٨

(خ)

ابن خافان : انظر : أبو نصر الفتح بن خافان

الخافديان (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ،

ابنا هاشم) : ٣٩

ابن الخبازة : انظر : ميمون بن الخبازة

ابن الخراز : انظر : يحيى بن عبد العزيز

ابن الخراز

الدجاج : انظر : رشيد بن محمد بن فتح
الدجاج

ابن دحية : انظر : أبو الخطاب بن دحية
ابن دراج : القسطلی : ٦١ ، ٦٥ ، ٢٤٠
ابن دهلون : انظر : عبد الغفار بن دهلون
دمشق : ٤ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٦٠
دناش بن لبراط : ٤٨٩

دلس سسكوتوس : ٤٩٣
دوجا ، جوستاف (المستشرق) : ٣٠٤
دوزی ، راینهارت پیتر آن : ١٠ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ،
٢١١ ، ٢٤٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩

٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٤٨٧
دومنچو جنزاله : ٤٩٣ ، ٥٣٧
دومینیکو کومبارینی : ٥٨٢
دومینیکوس جندیسالی : انظر : دومنچو
جنزاله

الدون خوان (الملك) : ٩٩
دون خوان ماتویل : ٢٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٥ ،
٦٢٦

دويره (نهر) : ١١
ديار بكر : ١٧٢
ديجو أورنادو دی مندوتا : ١٨٠
دی خويه (المستشرق) : ٣١٧
دی ساسی : انظر : سلسنتر دی ساسی
دی سلان (البارون المستشرق) : ٢٦٠ ،
٣١٠

ديكارت : ٣٤٤
ديعوقريط : ٢١٧
ديوسقوريدس : ٩ ، ٦٠ ، ٤٦٢
٤٧٤ ، ٤٦٥ —

(ذ)

ذيان (قبيلة) : ٣٤

خوان رويث (نائب الأسقف في هيتا) :

٦٢٤ — ٦٢٦

خوان قاليرا : ١٣٢ ، ١٣٦ ،
١٧٤

خوان ما نويل ، الدون : انظر : الدون
خوان ما نويل

خورخه ما نريك : ١٣٢
أبو الحيار مسعود بن مفلت : ٢١٥ ، ٤٤١
أبو الحيار ، هارون : انظر : هارون بن
نصر القرطبي

ابن خير ، أبو بكر : انظر : محمد بن خير
ابن خير القيسي : انظر : محمد بن عبد الله
ابن عمر
الحيرالدا : ١٢٦

خبران الصقلي : ١٠٩
ابن خيره : انظر : أبو القاسم محمد بن إبراهيم
ابن خيرة

خيل پيريد : ١٩٧ ، ١٩٨

خيل د تيلادوس : ٥٧٦

خيل فينلت : ٦٢٩

خيمينيث د أوريا : ٦٢٨

(د)

الداخل : انظر : عبد الرحمن بن معاوية
دار الكتب المصرية : ٢١٩ ، ٢٤٤ ،
٢٥١

دارا (ملك الفرس) : ١٢٠
دال كامو : انظر : شيولو دال كامو
داني الجبيري : ٢٤ ، ٢٧ ، ٧٣ ، ٥٥١

٥٧٣ —

الداني : انظر : أبو الصلت أمية الداني
دانية : ١٣٥ ، ٢٨٤
داود الأسفهانى : انظر : أبو سليمان داود
ابن علي
أبو داود : ٢١٥

رشيد الدولة بن عبيد الله بن صامح : ١٥١
 رشيد بن محمد بن فتح الدجاج : ٢٣٠
 الرشيد بن المعتمد : ٩١ ، ١٥٧
 الرشيد ، هارون : انظر : هارون الرشيد
 ابن رشيد السبكي : انظر : أبو عبد الله
 محمد بن عمر بن رشيد السبكي
 ابن رشيد القيرواني : ٨٦ ، ٩٢
 الرصافة : ٥١
 الرصافي : انظر : محمد بن غالب الرصافي
 (الشاعر)
 الرعي ، إسماعيل : انظر : إسماعيل بن
 عبد الله الرعي
 الرعي ، شريح : انظر : شريح بن محمد بن
 شريح الرعي
 ابن الرقاء (الشاعر) : ١٢٩
 رفيع الدولة بن المعتمد بن صامح : ١١٥
 ابن أبي الرقاق : ١٩٥
 الرقوطي : انظر : أبو بكر محمد بن أحمد
 الرقوطي
 الركونية ، حفصة : انظر : حفصة الركونية
 رمادة (قرية) : ٦٨
 الرمادي : انظر : يوسف بن هارون
 الرمادي
 رمضان ، شهر : ٣٢٦
 رملة بنت عثمان بن عفان : ٤١٩
 رميك (التاجر الإشبيلي) : ١٦ ، ٩٥
 رندة : ٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٩
 الرندي ، أبو البقاء : انظر : أبو البقاء صالح
 ابن شريف الرندي
 الرندي ابن عباد : انظر : ابن عباد
 الرندي
 روبرت دي رتبس : ٥٣٩
 روجر بيكون : ٥٣٤
 روجر الثاني : انظر : رجار الثاني
 رودريجو : ١٩٨
 ابن الرومية : انظر : أبو العباس أحمد
 ابن الرومية

ابن ذكوان ، أبو العباس القاضي : ٦٥ ،
 ٨٠

(ر)

الرازي (الطبيب الفارسي) : انظر : أبو بكر
 الرازي
 الرازي (المؤرخ) : انظر : محمد بن موسى
 وابنه أحمد بن محمد بن موسى وحفيده
 عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى
 رأس الأسطوب : انظر : رامن بير
 الثاني
 الراضي بن المعتمد : ٨٩ ، ٩٧
 رامن بيرنجوير الثاني : ٩١
 رامن ل : انظر : رايغوندو لوليو
 رامون منتدز بيدال : ١٥٥ ، ١٩٧
 رايت ، وإيام (المستشرق) : ٣١٧
 رايشكه (المستشرق) : ٣٣
 رايغوندو لوليو (الأسقف) : ٢٤ ، ٢٧ ،
 ٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٦٨ ، ٥٣٤ ،
 ٣٥٧ ، ٥٤٣ — ٥٥٠ ، ٦٢٦
 رايغوندو مارتين : ٢٧ ، ٥٤٠ — ٥٤٢
 الربض (هيج) : ٦٩
 ربض قرطبة : ٥٢
 ربيع بن زيد (الأسقف) : ٤٨٧
 ابن ربيعة : انظر : لييد بن ربيعة
 أبو الربيع بن سالم : ١٣١
 رجار الثاني (ملك صقلية) : ٣١٣ ،
 ٦١٩
 رذمير الأول : ١٧٦
 رزين بن معاوية الصديري : ٢٥ ، ٣٩٦
 ابن رزين : انظر : عبد الملك بن رزين
 الرشاطي : ٢٢
 ابن رشد ، أبو الوليد محمد : ٢٤ ، ٢٧٣ ،
 ٣٤٧ ، ٣٥٣ — ٣٦٩ ، ٤٢٧ ،
 ٤٦٩ ، ٥٠٣

ابن زهرى ، أبو العلاء : انظر : أبو العلاء
ابن زهرى
ابن زهرى ، أبو مروان عبد الملك : انظر :
أبو مروان عبد الملك بن زهر
الزهراء (مدينة) : ٦٠ ، ٤٤٠
الزهرأوى ، أبو القاسم خلف : انظر :
أبو القاسم خلف الزهرأوى
زهر بن أبي سلمى : ٣١
زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون : ٤٢١
زيان بن أبي الحلات : ١٣٣
زيان بن مردائش : ٢٧٧
زيد بن ثابت : ٤١٣
أبو زيد السروى : ١٨٠
أبو زيد عبد الرحمن السهلى : ٢٣ ، ٣٩٨
أبو زيد محمد بن علي الكرخى : ٣٢
ابن زيدون ، أبو الوليد : انظر : أبو الوليد
أحمد بن زيدون الخزومى
بنو زبرى : ١٠٨

(س)

سابور (مذهب دولة بني الأنطس) : ١١٧
سارة القوطية : ٢٠٢ ، ٢٠٤
ابن سارة الشترينى : انظر : أبو محمد عبدة
ابن سارة الشترينى
ساقدر ، إدواردو : ٣١٣ ، ٤٨٨ ،
٥٠٨
سالومون يهوذا : انظر : ابن جبرول
سان سرفاندو : ٥٧٦
سانشد پيريد : ٤٤٣ ، ٤٥١
سبت أبلنج (بيعة) : ٤٦٧
سبته : ٢٨٣
ابن سبعين : انظر : أبو محمد عبد الحق
ابن سبعين
سجوتو : ١١٦
سحنون بن سعيد : ١٩٤ ، ٤١٩

رياض بن مروان : ٦٩
رياض قرطبة : ٧٤
رييرا ، خليان : انظر : خليان ريبيرا
ريكيوندو (الأسقف) : انظر : ربيع
أبن زيد

(ز)

الزاب : ٦٣
زاج الطليطلى : ٥٧٦
الزاهرة (مدينة) : ٦٧ ، ٦٩
زاينولد (المستشرق) : ٢٢٠
الزبدي : انظر : أبو بكر محمد بن الحسن
الزبدي
الزرقالى : انظر : أبو إبراهيم بن يحيى لزرقالى
ابن زرقون (القاضي) : انظر : أبو عبدة
محمد بن زرقون
ابن زروقة : انظر : أبو عبدة محمد بن
إبراهيم بن زروقة
زرياب : انظر : علي بن نافع
الزقاق : ٧٧
ابن الزقاق : انظر : علي بن عطية الزقاق
ابن الزكان الأوسى : ٤٥٧
أبو زكريا بن أبي حفص : ١٣٣ ، ٢٧٧
أبو زكريا بن داود الفارسى للنبوز بجوج :
٤٨٩ ، ٢٦
أبو زكريا السراج : ٣٩٠
الزلاقة : ١٧ ، ١١٦
الزخمى : ٣٤
ابن زمر : انظر : أبو عبدة محمد بن
يوسف بن زمر
ابن أبي زنين : انظر : أبو عبدة محمد
ابن أبي زنين
بنو زهر : ٢٣ ، ٤٧١
ابن زهر ، أبو بكر : انظر : أبو بكر
محمد بن زهر

سليان المستعين : ٦٥ ، ٧٣
 ابن سمجون ، حامد : انظر : حامد بن
 سمجون
 ابن السمع : انظر : أبو القاسم أميخ بن
 محمد المهري
 ابن سمرة : ٥٨
 السموأل بن عادي : ٣٥
 السيسر الإلييري : انظر : أبو القاسم خلف
 ابن أفرج الإلييري
 ابن السمينة : انظر : أبو بكر يحيى بن يحيى
 ابن سناء الملك : ١٥٩ ، ١٦٠
 سنيكا : ٢١٧ ، ٣٢٣
 السهروردي ، شهاب الدين : ٣٧٥
 سهل بن إبراهيم الاستنجي = ابن العطار :
 ٤٤٢
 ابن سهل : انظر : إبراهيم بن سهل الإشيلي
 (الشاعر)
 ابن سهل الضرير : ٤٥٦
 السهلة : ٣٣٤
 السهيلي : انظر : أبو زيد عبد الرحمن
 السهيلي
 السوس : ١٩
 سوسة : ٢٨٢
 سوق عكاظ : ٣٢
 ابن سيار : انظر : قاسم بن محمد بن سيار
 سبويه : ١٨٥
 سيجر البراباني : ٣٦١ ، ٣٦٩ ، ٥٧٣
 السيد القمييطور : انظر : القمييطور ، السيد
 ابن السيد البطليوسي : انظر : أبو عبد الله
 ابن محمد بن السيد البطليوسي
 ابن سيد الناس : انظر : أبو بكر الحافظ
 ابن سبده : انظر : أبو الحسن علي بن إسماعيل
 سير بن أبي بكر بن تاشفين : ١٢٠
 سيف الدولة بن هود : ٢٣
 سيكو د لوثيا : ٢٢٠

ابن السراج : انظر : محمد بن السراج
 ابن أبي سرح ، عبد الله بن سعد : ٤١٣
 سرقسطة : ١٧ ، ٦٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
 ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٢ ،
 ١٦٥ ، ٣٣٣ ، ٤٦٦
 سرقوسة : ٩٧
 سركامون (الشاعر) : ٦١٥
 ابن سعد الخير ، أبو الحسن علي : ١٣٤
 سعيد بن جودي : ٦ ، ٥٧ — ٥٨ ،
 ٢٥٩
 سعيد بن عبد ربه : ١٥٦ ، ٤٦٣
 أبو سعيد بن الأعرابي : ٣٢٧
 ابن سعيد العنسي ، أبو جعفر أحمد (الشاعر) :
 ١٢٧
 ابن سعيد الفر ناطلي : انظر : علي بن سعيد
 المغربي
 ابن سعيد المغربي : انظر : علي بن سعيد
 المغربي
 بنو سعيد (العنسيون ، أصحاب المغرب) :
 ٢٤٢ — ٢٤٨ ، ٢٧٣
 سفيان الأندلسي : ٢٢
 ابن سقيل : انظر : سليمان بن زقيبيل
 سكن بن إبراهيم : ٢١٠
 سكيا پاريللي (المستشرق) : ٥٤١
 سلفستري دى ساسي : ٣٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧
 سلمة بن سعيد : ٤٣٨
 سليم بن منصور (قبيلة) : ١٩٣
 سليمان بن جلجل : ١١ ، ٤٦٥
 سليمان بن داود (وزير بني الأحمر) :
 ٢٥٧
 أبو سليمان داود بن علي الأصفهاني
 الظاهري : ٤١٤ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
 سلمان بن زقيبيل (أو سقيل) : ٤٩٨ ،
 ٥٠١
 سليمان بن عبد الرحمن (الأمير) : ٥١
 سليمان بن عبد الملك : ٢٠٢

الشراني ، عبد الوهاب : ٢٣٨
الشفندي : انظر : أبو الوليد إسماعيل بن محمد
الشفندي

شقوية : ٣٣٢ ، ٥٠٨

شقورة : ٩٤ ، ١٧٧

شقايا بن شعا : ٣ ، ٣٢٣

شلب : ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣

الشلوبيني : انظر : أبو علي عمر الأزدي
الشلوبيني

ابن الصباط المرسطى : ٤٥٧

ابن الشعر : انظر : عبد الملك بن انشمر

ابن شنب ، محمد : ١٦١ ، ٢٧٩

شفت ياقب : ١٢ ، ٣١٤

شفترية : ٣٢٣

شفتين : ١٢٠ ، ٢٨٨

شنجول : انظر : عبد الرحمن بن أبي عامر

الشفتري : ٣٤

شنيل (قصر) : ٤٨ ، ١٤٠

الشهرستاني : ٣٢٩

المهرزوري : ٣٢٩

ابن شهيد : انظر : أبو عامر بن شهيد

شوق ضيف : ٢٢٠ ، ٢٤٥

ابن الشيخ : انظر يوسف بن الشيخ البلوي
المالقي

شيولو دال كامو : ٦١٩

(ص)

الصابوني : انظر : أبو بكر الصابوني

ابن صاحب الصلاة : ٢٤٢

ابن صارم : انظر : أبو بكر بن صارم

ابن صارة الشنقي : انظر : أبو محمد عبدة
ابن سار

صاعد البخداي : ١٢ ، ٦٠ ، ٦٦

— ٦٨ ، ١٧٣ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ،

سيمونيت ، فرانسكو خافير : انظر :
فرانسكو خافير سيمونيت

ابن سينا : ٥٠٠

السيوطي : انظر : جلال الدين السيوطي

(ش)

ابي : انظر : أبو بكر أحمد بن مالك

الشاوي

الشايشي : ٣٩

شاد : ٥٨

الشاطي : انظر : ابن محمد الشاطي

الشافعي ، محمد بن إدريس : ٢١٥ ،

٣٢٤ ، ٤١٤

شاك ، البارون قون : ٤٦ ، ١٧٤

ابن أبي شاعر (الفلكي الهندس) :
٤٥٧

الشام : ١٠

شبطون بن عبد الله : ٣

شتاينشايدير ، موريتس : ٤٨٩

ابن شخيص : انظر : محمد بن شخيص

الشراحب (قصر) : ٩٠

المرطوسي : انظر : محمد المرطوسي

المرف (ناحية) : ١٠٢

ابن شرف البرجي : انظر : أبو الفضل

جعفر . . . بن شرف البرجي

شرلمان : ٦٠٩

شريح بن محمد بن شريح الرعيني : ٢٣٧

شريس : ١٠٩

الشريشي : انظر : أبو المباس أحمد الشريشي

الشريف الطليقي : انظر : مروان بن

عبد الرحمن بن مروان بن الناصر

الشريف النراطي (شارح مقصورة حازم) :
١٣٣

شرين : ٢٧٣

الششتري : انظر : أبو الحسن الششتري

الوادي آشي

(ابن البطار) : ٢٣ ، ٣٣٧ ،

٤٧٩ — ٤٨١

(ط)

طارق بن زياد : ٥٧ ، ١٩٩

أبو طالب عبد الجبار المثني : ٢٩٦

ابن طاهر : انظر : أبو عبد الرحمن محمد

ابن طاهر

ابن أبي طاهر : ١٩٧

أبو طاهر محمد بن يوسف المرقسي

الإشتراقي : ١٨١

الطبري محمد بن جرير : ١٩٣ ، ٤٠٨

ابن الطيني ، انظر : أبو عبد الله محمد

ابن الطيني

ابن الطعان : انظر : أبو الأصبح عبد العزيز

ابن علي بن الطعان

الطراز الفرائدي : انظر : أبو عبد الله محمد

ابن سعيد

ابن الطراوة : انظر : عبد العزيز بن الطراوة

طرطوشة : ١٣٥ ، ١٧٤

الطرطوشي : انظر : أبو بكر محمد . . .

الطرطوشي

طرفة بن العبد : ٣٢ ، ٣٤

طروب (جارية) : ٤٠ ، ٥٧

طريانة : ١٠٢

طريف الرواسي : ٣٣٠

ابن طفيل : انظر : أبو بكر محمد بن عبد الله

ابن طفيل

ابن الطلاع : انظر : محمد بن فرج بن الطلاع

الطامسي : انظر : أبو عمر الطامسي

طليطلة : ٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ،

٢٧ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٩٥ ،

٣١٥ ، ٣٣٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٣ ،

٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ،

٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٩٨

صاعد الطليطلي : انظر : أبو القاسم صاعد

الطليطلي

صبح الديكسية : ٦٥

صخرة الولد : ٢٩٦

ابن صديق : انظر : أبو عمر يوسف بن

صديق

ابن صفر : انظر : محمد بن صفر

ابن الصفار : أبو الوليد يونس بن الصفار

صفوان بن إدريس : انظر : أبو بحر صفوان

ابن إدريس

صفي الدين الهندي : ٣٨٧

سقلية : ٧ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٣٥ ، ٣١٧ ،

٦١٩

ابن صلاح الله القرطبي : انظر : أحمد

ابن عبد الوهاب بن يونس

صلاح الدين الأيوبي : ١٦٦ ، ٢٤٢

أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني : ٢٢ ،

١٢٥ ، ١٦٥ ، ٤٦٩

ابن صمادح ، المعتصم : انظر : المعتصم

ابن صمادح

بنو صمادح : ١٥٧

صمويل بن طيبون : ٥٠٣

صمويل بن النخلة : انظر : إسماعيل

ابن النخلة

الصميل بن حاتم : ١٩٩

الصنعاني ، حنش : انظر : حنش بن عبد الله

الصنعاني

الصنوبري : انظر : أبو بكر بن أحمد

الصنوبري

ابن الصيرفي : انظر : أبو بكر يحيى

ابن الصيرفي

ابن سيقل : انظر : محمد بن وهب بن سيقل

(ض)

الضيبي : انظر : أبو جعفر أحمد الضبي

ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد

ابن طلوس : انظر : أبو الحجاج يوسف
ابن طلوس

طنجة : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١

أبو الطيب محمد بن أحمد بن أبي بردة : ٤٣٦

ابن طييون ، موسى : ٤٥٦

بنو طييون : ٢٦

ابن الطيلسان : انظر : أبو القاسم قاسم بن
الطيلسان

(ع)

ابن عابد : انظر : أبو عبد الله محمد بن عابد

عاصم بن زيد التيمسي ، أبو الخثمي : ٣ ،

٥٨ ، ٥١

عاصم بن محمد (الأشتين) : انظر :

أبو عبد الله محمد بن موسى بن زيد

ابن عاصم : انظر : أبو بكر محمد بن عاصم

أبو عاصم بن شهيد : ٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٧

أبو عاصم بن عبدوس : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤

١١٩

أبو عاصم بن مسلمة : ١١٧ ، ٢١٢

ابن أبي عاصم : انظر : للنصور محمد بن

أبي عاصم

عائشة بنت أحمد : ٧٣

بنو عباد : ١٥ ، ١٩ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٥ ،

١٠٤

ابن عباد الرندي : ٣٦٩ ، ٣٩٠

ابن عباد القاضي : انظر : أبو القاسم محمد

ابن عباد (القاضي ، صاحب إشبيلية)

ابن عبادة القزاز : انظر : أبو عبد الله محمد

ابن عبادة القزاز

عباس بن فراس : ٥٨

عباس بن ناصح : ٥٨

أبو العباس أحمد الصريشي : ٢٣ ، ١٨١

أبو العباس أحمد بن الرومية : ٢٣٨

أبو العباس أحمد بن عيشون : ٢٨٠

أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي

(ابن البناء) : ٢٥ ، ٤٥٧

أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى : انظر :

أحمد بن محمد بن عيسى

أبو العباس أحمد النباقي : ٤٧٨

أبو العباس الرياني : ٣٧٢

أبو العباس بن العريف : ٢٣ ، ٢٧٣ ،

٢٨٣ ، ٣٣٢ ، ٣٦٩ — ٣٧١

عبد البر بن فرسان : ١٢٩

ابن عبد البر : انظر : يوسف بن عبد البر بن

عاصم النمرى القرطابي

عبد الجبار بن المعتض : ١٠٤

عبد الجليل بن وهبون الرسي : ١٧ ، ٩٧ ،

١١٦

عبد الحق بن عبد الرحمن ، يعرف بابن

الحراط : ٤٢٨

ابن عبد الحكم المصري : انظر : عبد الرحمن

ابن عبد الحكم المصري

عبد الحميد بن بسيل : ٢٠١

ابن عبد ربه : انظر : أبو عمر أحمد بن محمد

ابن عبد ربه

عبد الرحمن الأزدي : انظر : أبو القاسم

عبد الرحمن بن يزيد الأزدي

عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد المهندس

(يلقب بإقليدس الأندلسي أو بإقليدسي) :

١٢ ، ٣٣١ ، ٤٥٠

عبد الرحمن بن الحكم الأوسط (الأمير) :

٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٢٠٨ ، ٣٢٥ ، ٥٢٧

عبد الرحمن الداخل : انظر عبد الرحمن

ابن معاوية

عبد الرحمن السهيلي : انظر : أبو زيد

عبد الرحمن السهيلي

عبد الرحمن بن أبي عاصم (شنجول) :

٦٥ ، ٢١٤

عبد الرحمن بن عبد الحكم المصري : ١٩٦

عبد الرحمن بن محمد (المرتضى) الرابع : ٢١٤

- ١٥٠، ٥٧، ١١٤، ١٩٥، ٢٠٣، ٣٢٧، ٢٠٨
 عبد الله بن محمد بن تاسم بن هلال : ٤٣٩
 عبدالله بن محمد بن موسى بن يزيد (الأفشين) :
 ٢٨٢
 عبد الله بن محمد بن يحيى التجيبي : ٤٣٨
 عبد الله بن المقفع : ٥٨١
 عبد الله بن يحيى بن دحون : ٢١٥
 أبو عبد الله بن الحسين بن أحمد بن الحجاج :
 ٣٩
 أبو عبد الله بن حيد (قاضى بلنسية) : ٣٦٢
 أبو عبد الله الذهبي : ٢٠٨
 أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد
 ابن غليون الحولاني : ٣٩٦
 أبو عبد الله قسوم : ٣٧٢
 أبو عبد الله بن المجاهد : ٣٧٢
 أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحباري : ١٧
 ١٠٤، ١٩٠، ٢٦٦
 أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن زروقة :
 ٢٧٤
 أبو عبد الله محمد الإدريسي : ٢٢
 ٣١٦ — ٣١٧
 أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي :
 ١١٢، ١٥
 أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال الفانقي :
 ١٢٠، ١٢٣، ١٧٧
 أبو عبد الله محمد بن زرقون (الفاضي) :
 ١٨٩
 أبو عبد الله محمد بن أبي زمين : ٩، ١٢
 ٦١، ٧١، ٤٤٢
 أبو عبد الله محمد بن سعيد بن علي الأنصاري =
 الطراز الترماني : ٢٨٠
 أبو عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي :
 ٢٣، ١٨٧، ٣٣٤، ٣٣٦
 أبو عبد الله محمد بن الطيني : ٢١٣
 أبو عبد الله محمد بن عابد : ٢٧٥
- أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر : ٧٨، ٩١، ٩٣
 عبد الرحمن محمد بن عيسى بن فطيس ،
 أبو الطارف : ٣٩٥
 عبد الرحمن محمد بن معمر : ٢٤٠
 عبد الرحمن بن مروان الجلبقي : ٥
 عبد الرحمن المستظهر بالله : انظر : عبد الرحمن
 ابن هشام الخامس
 عبد الرحمن بن معاوية الداخل : ٢، ٣
 ٥١، ٥٢، ١٩٩، ٣٢٣
 عبد الرحمن بن مقان الأشبوني : ١٢٢
 عبد الرحمن المهندس : انظر : عبد الرحمن
 ابن إسماعيل بن زيد
 عبد الرحمن الناصر : ٧، ٨، ٩، ١٠
 ٦٣، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣
 ١٩٩، ٢٠٠، ٤٦٢، ٤٨٧
 عبد الرحمن بن هشام الخامس (المستظهر
 بالله) : ٦١، ٧٣، ٢١٤
 عبد السلام بن السمح بن نابل : ٤٣٧
 ابن عبد الشهيد ، عمر : ١١٢
 عبد العزيز الريني (السلطان) : ٢٥٦
 عبد العزيز بن الطراوة : ١٨٧
 ابن عبد العزيز ، أبو بكر (الكاتب) :
 ٩٤، ٩٣
 ابن عبد العظيم الوادي آشي : ١٦٦
 عبد الغفار بن دشلون : ١٦٦
 عبد الله بن إبراهيم الأصيل : ٤٣٨
 عبد الله بن بلسكين : ٢٤٠
 عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن
 ابن حوط الله البلنسي : ٢٣٨، ٣٩٩
 عبد الله بن عبد الرحمن الناصر : ٩
 ٤٣٤ — ٤٣٥
 عبد الله علي بن عبد الله : انظر : النيلمور
 تورميديا
 عبد الله بن محمد المرواني (الأمير) : ٤، ٦

ابن عبدوس : انظر : أبو عامر بن عبدوس
ابن عبدون : انظر : أبو محمد عبد الحميد
ابن عبدون الجلي
ابن أخت عبدون : انظر : أحمد بن وليد
ابن عبد الحميد بن عوسجة الأنصاري

عيس : ٣٤

عبيد الله بن عمر . . . بن جعفر القيسي
الشافعي : ٤٣٧

عبيد الله محمد الاستحي : ٥٧٦

عبيدليس بن محمود : ٥٨ ، ٦

أبو عبيدة : ٣٢

أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري :

٣١١ — ٣٠٩ ، ١١٣ ، ١٥

ابن عتاب : انظر : أبو عبد الله محمد بن

عتاب بن محسن

أبو المتاهية : ٣٩

عثمان بن ربيع : ٢٨٥

عثمان بن سعيد الكتاني ويسرف بحر قوس :

٤٣٣

عثمان بن عفان : ٤٣٣

عثمان بن محمد بن حامس : ٤٠٩

عثمان بن وكيل : ٤٣٣

أبو عثمان بن سعيد المعروف بالبلينة : ١٥٦

أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغوتش : ٤٥٣

ابن العديم : انظر : ابن أبي جرادة

بنو عذرة : ٤٣

الوراق : ١٠ ، ١١ ، ٥٣ ، ٥٦

ابن عربي : انظر : محي الدين بن عربي

ابن العربي : انظر : أبو بكر بن العربي

ابن العراء ، أبو علي : ٣٦٢

عريب بن سعد : ١٩٣ ، ٢٠٦ — ٢٠٧ ،

٤٨٧

ابن العريف : انظر : أبو العباس بن العريف

عصا الأعمى : انظر : أبو القاسم الحضرمي

ابن عصفور الإشبيلي : انظر : أبو الحسن

ابن عصفور الإشبيلي

أبو عبد الله محمد بن عبادة الفزاز : ١١٤ ،

١٥٤ ، ١٥٧

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الأبار

الفضاعي : ٢٣ ، ١٠٥ ،

١٣٣ — ١٣٤ ، ١٩٧ ، ٢٦٦ ،

٢٧٣ ، ٢٧٧ — ٢٨٠

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم

الخيرى : ٣١١

أبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن : ٢٧٣ ،

٢٨٣ ، ٤٢٤

أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن رشيد

السيني : ٢٥ ، ٣١٨

أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي الحميدي :

١٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٣٧

أبو عبد الله محمد بن الكتاني : ٤٦٦

أبو عبد الله محمد بن معمر المالكي = ابن

أخت غانم : ١٥ ، ١١١ ، ١١٢

أبو عبد الله محمد بن ناجية الوراق : ١٦٥

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك :

٣١ ، ١٣٩ — ١٤٢ ، ١٦٦ ،

٢٥٦

عبد الملك الأسقف : ٥٠ ، ٤٨٦

عبد الملك بن جهور : ٦٣ ، ٢٠١

عبد الملك بن حبيب : ٥٠ ، ١٩٣ — ١٩٦ ،

٤١٩

عبد الملك بن رزن : ٧٨ ، ١١٦ ، ٣٣٤

عبد الملك بن سعيد : ٢٤٣

عبد الملك بن الشر : ٥٢

عبد الملك بن مروان الجزيري : ٢٤٠

عبد المظفر بن عمر : ١٦٦

عبد الواحد المراكشي : ١٩ ، ٩١ ، ١١٨ ،

٢٤٨ — ٢٥١ ، ٣٥٤

عبد المؤمن بن علي : ٢٣ ، ٥٣٦

عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر : ٥٥

العبدري : انظر : رزن بن معاوية العبدري

أبو علي التتائي : ٢١٠
 أبو علي القالي : ١١ ، ٦٠ ، ١٧٢ ،
 ١٨٥ ، ٤٤٠
 ابن عمار : انظر : أبو بكر بن عمار
 عمر بن حفصون : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٥٧ ،
 ٥٨ ، ٢٠٩ ، ٣٢٧ ، ٤٦٧
 عمر بن عبد العزيز : ٢٠٣
 عمر بن نابل : ٢٠٨
 عمر بن نور الدين الأنصاري : ٢٥
 أبو عمر أحمد بن عفيف : ٢٠٨ ، ٤٢٣
 أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه : ٦ ، ٨ ،
 ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ — ٦٣ ، ١٥٤
 ١٦٩ — ١٧٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 أبو عمر الطلمنكي : ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
 ٣٣٠
 أبو عمر عبد الله بن رشيد بن النوشريسي :
 ٣١٨
 أبو عمر بن عياد : ٢٧٦
 أبو عمر محمد بن عفيون الشاطبي : ١٦٥ ،
 ٢٨٢
 أبو عمر يوسف بن صديق : ٢٦ ، ٤٩٨
 عمرو بن كلثوم : ٣٢ ، ٣٤
 أبو عمرو بن محمد بن عيشون : ٢٨٢
 عنترة : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
 عياض بن موسى اليحصي : ٢٢ ، ٢٧٤ ،
 ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٣٩٧
 عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي :
 ١٩٨
 عيسى بن جابر (عيسى د جابر) : ٥٠٨
 عيسى بن فطيس : ٢٢٠
 ابن أبي عيسى الياضي : ٢٠١
 أبو عيسى بن ليون : ١٧ ، ١١٦
 أبو العيش : ٥٧٦

ابن المطار : انظر : سهل بن إبراهيم
 الاستنجي
 ابن عفيف : انظر : أبو عمر أحمد بن عفيف
 ابن عفيون الشاطبي : انظر : أبو عمر محمد
 ابن عفيون الشاطبي
 عقيل بن عطية : ٢٣
 أبو العلاء بن زهر : ٢٢ ، ٣٣٦
 أبو العلاء المعري : ٤٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٣
 أم العلاء الحجازية : ٧٣
 ابن علاف (الشاعر) : ٣٩
 ابن هلقمة : انظر : محمد بن هلقمة
 علي بن الإمام السرقسطي : ٣٣٨
 علي بن حريق : ١٦٥
 علي بن حصن : ١٥ ، ٤٤ ، ٨٨
 علي بن حمود الحسني : ٦٥
 علي بن خلف (الفيلسفي) : ٥٧٦
 علي بن سعيد الغري : ٢٤ ، ١٢٣ ،
 ١٣٥ — ١٣٧ ، ١٦٦ ، ٢١١ ،
 ٢٢١ ، ٣١٨
 علي بن أبي طالب : ٥٢٥
 علي بن عطية ، بن الزقاق (الشاعر) :
 ١٢٣ ، ١٢٤
 علي بن القاسم الصنهاجي : ٤٤٣
 علي بن نافع ، زوياب : ٤٤ ، ٥٢ — ٥٤ ،
 ٥٢٧
 علي بن يوسف بن تاشفين : ١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٧٧ ، ٢٩٧
 أبو علي بن الحسين بن علي الفاسي : ٢١٣
 أبو علي الحسين بن محمد بن فيره بن حيون
 ابن سكره الصدق ، يعرف بابن
 الدراج : ٢٧٤ ، ٢٧٩
 أبو علي بن سكرة الصدق : انظر : أبو علي
 الحسين ... بن سكرة الصدق
 أبو علي عمر الأزدي الشاويبي : ٧٣ ، ١٦٦ ،
 ١٨٦ ، ٢٤٤

(ف)

القاق : انظر : مكتبة القاق باستامبول
قادر يك : ٥٧٤
القارابي : ٥٠٠
قارس : ١٠
قاس : ٢٥
قاليرا ، خوان : انظر : خوان قاليرا
قايان : ١١٩ ، ٢٤٨
قيريزي أكوپندني : ٥٣٤
الفتح بن خافان : انظر : أبو نصر الفتح
ابن خافان
ابن فتحون : انظر : أبو بكر محمد بن فتحون
الأورولي
لحم البلوط : ٤٣٩
أبو القدا : ٢٤٨
فرائسكو خافيرسمونيت : ٣١١ ، ٤٨٨
فرائسكو فرناندو إى جنتالت : ٦٠٠
ابن فرج الإلييري : انظر : أبو القاسم خلف
ابن فرج الإلييري = السمسير
ابن فرج الجياني : ٤٣ ، ٦١ — ٦٢
ابن فرحون : ٢٦٦
فردريك الثاني : ٣٨٨ ، ٦١٩
ابن فرسان : انظر : عبد البر بن فرسان
ابن الفرغى : انظر : أبو الوليد عبداقة ...
المعروف بابن الفرغى
فرغليط : ١٧٧
فرغوريوس الصوري : ٣٢٩
ابن فرقد : انظر : أبو القاسم إبراهيم
ابن فرقد
فرناندو الثالث : ١٣١ ، ٥٧٧
فرنسا : ٢٩
فستفد (المستشرق) : ٣١٠
فضل (مقنية) : ٥٤

ابن عيشون ، أبو العباس أحمد : انظر :
أبو العباس بن عيشون
ابن عيشون ، أبو عمرو محمد : انظر : أبو عمرو
محمد بن عيشون

(غ)

الغازي بن قيس : ٤١٨ ، ٣
الغافقي ، أبو جعفر أحمد : انظر : أبو جعفر
أحمد بن محمد بن السيد الغافقي
أبو غالب تمام بن غالب التيباني : ١٨٩
ابن أخت غام : انظر : أبو عبد الله محمد
ابن عمر المالكي
ابن غانية : انظر : يحيى بن غانية الليورقي
غريب بن عبد الله : ٥٨ ، ٤
غرسية غوس : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
٤٢ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ،
٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
٨٣ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ،
١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
١٤٠ ، ٢٠٨ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ،
٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٦٦١
غرناطة : ١٥ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ،
٤٤ ، ٩٩ ، ١٠٧ — ١٠٩ ،
١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ — ١٤٢ ،
١٦٦ ، ١٩٦ ، ٢٥١ — ٢٦٦ ،
٥٠٧
الغزال : انظر : يحيى بن حكم الغزال
الغزالي : انظر : أبو حامد الغزالي
غزلان (جارية) : ٥٣
ابن غلبون : انظر : أبو عبد الله ...
ابن غلبون الخولاني
غليوم الطيب : ٦١٩
الغني بالله : انظر : محمد الغني بالله (سلطان
غرناطة)
خيططة : ١٩٣ ، ٢٠٢

أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي :
٢١٣

أبو القاسم فيد بن نجم : ٤٦٧

أبو القاسم قاسم بن الطليسان : ٢٨٠

أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة = ابن
العوامى : ١٦٥ ، ١٧٨

أبو القاسم محمد بن عباد (الغاضى ، صاحب
لشبيلى) : ٨٦

أبو القاسم محمد بن فيره الرعنى الشاطبي : ٤٠٦

أبو القاسم بن وضاح : ٣٦٢

قاسيون (جبل) : ٣٧٦

العالى : انظر : أبو علي القالى

قالى قلا : ١٧٢

القاهرة : ١٠ ، ٢٥ ، ٢٦٠

القبلى القرطبي : انظر : أبو بكر حسن بن
مفرج الماقرى

ابن القبطونه : انظر : أبو بكر عبد العزيز
ابن القبطونه

ابن القبطونه : انظر : أبو الحسن بن سعيد
ابن القبطونه

بنو القبطونه : ١٢٣

ابن قتيبة : ٣٦

ابن القراز : انظر : أبو جعفر بن القراز

قرطاجنة : ١٣٣

قرطبة : ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ،

٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ،

٦٨ ، ٧٧ ، ٨٠ — ٨٦ ، ٩٣ ،

٩٥ ، ٩٨ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ،

١٩٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٤٤٠ ،

٤٨٨

ابن قرقل (أو قرقل) : انظر : أبو إسحق
إبراهيم بن قرقل (أو قرقل)

قرمان : ٥١ ، ٥٨

قرمونة : ١٠٩

قريش : ٣٢

أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن
شرف البرجى : ١١٠ ، ١١١ —

ابن فطيس : انظر : عبد الرحمن بن محمد بن
عيسى بن فطيس ، أبو المطرف

الفنجدى : ١٨١

القولما : ٣١٢

ابن أبي القياض : انظر : أحمد بن سعيد بن
أبي القياض

فيترو : ٥٨٤

فيد بن نجم : انظر : أبو القاسم فيد بن نجم
ابن فيره الرعنى : انظر : أبو القاسم محمد بن

فيره الرعنى الشاطبي

فيلون الإسكندرى : ٣٢٩

(ق)

قاسم بن أصبغ : ٩ ، ١٧٤ ، ٢٠٧ ،
٣٩٤

قاسم بن محمد بن سيار : ٤٣١ — ٤٣٢

أبو القاسم إبراهيم بن فرقد : ١٣١ ، ٢٨٠

أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى المرتلى :
٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٣

أبو القاسم أصبغ بن محمد للهوى ، ابن السمح :
٤٤٩

أبو القاسم بن حبش : ٢٧٦

أبو القاسم الحضرى (عصا الأعمى) : ١٥٧

أبو القاسم خلف الزهراوى : ١١ ، ٤٦٥ ،
٥٣٤ ، ٥٣٩

أبو القاسم خلف بن عبد الملك = ابن
بشكوال : ٢٢ ، ١٨١ ، ٢٦٦ ،

٢٧٣ — ٢٧٧

أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيرى =
السميسر : ١٥ ، ١١٢ — ١١٣

أبو القاسم صاعد بن عبد الرحمن الطليطلى :
١٧ ، ٢٠٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ — ٢٤٠ ،

٣٢٣ ، ٣٢٩

(ك)

- القزاز : انظر : أبو عبد الله محمد بن عبادة
القزاز
ابن قزمان (الزحال) : انظر : أبو بكر محمد
ابن عبد الملك بن قزمان
القزويني : ٧٨
قسطل بن لوقا : ٥٧٦
قسطله دراج : ٦٥
قسطنطين الهابج : ٤٦٢
القسطنطينية : ٣٤ ، ٣٥ ، ٢٩٨
قسوم : انظر : أبو عبد الله قسوم
ابن قسي : انظر : أبو القاسم أحمد بن الحسين
بن قسي المرتلي
بنو قسي : ٥
قشتالة : ٢٣ ، ٢٧ ، ١٣٧ ، ٢٥٩
القصر الكبير : ٢٣٩
ابن القصير : انظر : أبو جعفر عبد الرحمن
ابن أحمد الأزدي
قطاوية : ٥٠٣
القطعي : ٣٢٩
القصادي : انظر : أبو الحسن علي بن محمد
ابن علي القرشي
قلمة أيوب : ٢٧٧
قلمة رباح : ٤٣٩
قلمة يحصب : ٢٩٦
القلقاط : انظر : محمد بن يحيى القلقاط
قلم (مقنية) : ٥٤
القميطلور ، السيد : ١٧ ، ٧٧ ، ١١٦ —
١١٢ ، ٣٠٥ ، ٢٩٣ ، ١١٢

(ل)

- لابرويير : ٢١٧
لافونتي ألكانتارا : ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٥٢
لايسيك : ٥٠٠
لايدن : انظر : مكتبة لايدن
ابن الابانة : انظر : أبو بكر محمد بن عيسى
ابن محمد الأحمي الهادي

- قنتورية : ٣١٩
القطرة : ٦٩
ابن القوطية : انظر : أبو بكر محمد بن
عمر بن عبد العزيز بن القوطية
قونكة : ٢٧٥
القيروان : ٣٢٧

مالقة : ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨
مالك بن أنس : ٣ ، ١٩٢ ، ٤١٤
ابن مالك : انظر : جمال الدين محمد بن عباد
ابن مالك
المأمون بن ذى النون : ١٥٧ ، ١٧٥ ،
٢١٢ ، ٥٧٦
المتحف البريطاني : ٢٨٤
متممة (جارية) : ٥٤
المتنبي (الشاعر) : ٣٤
المتنبي ، أبو الطيب : ٤٠ — ٤١ ، ٤٢ ،
١٠٥ ، ٨٦ ، ٨١ ، ٦٤
المتوكل بن الأنطس : ١١٧ ، ٧٨ — ١١٨ ،
١٥٨ ، ١٢٠
أبو المتوكل : ١٦٥
مجاهد الصقلي : ٩٧ ، ١٠٧
ابن المجاهد : انظر : أبو عباد بن المجاهد
ابن مجيد : انظر : يحيى بن مجيد
ابن عباس : انظر : عثمان بن محمد بن عباس
محمد بن أحمد بن حرب : ٧٥ ، ٢٢٩
محمد التميمي : ١٦
محمد بن تومنت : ٧٣ ، ٢٣٨ ، ٣٦٢
محمد بن أبي الخطاب القرشي : ٣٢
محمد بن خير بن عمر بن خليفة : ٢٢ ،
٢٨١
محمد بن رمضان : ٥٢٠
محمد بن السراج : ٤٨٢
محمد بن سليمان الصكي = ابن الوروري :
٣٢٨
محمد بن شخيم (الشاعر) : ٦١
محمد الشرطوسي : ٥١٨
محمد بن صقر : ١٢٩
محمد بن عبد الجبار الهدي : ٦٥
محمد بن عبد الرحمن (الأمير) : ٥ ، ٦ ، ٧ ،
٩ ، ١٠ ، ٣٢٤ ، ٤٠٧ ، ٤٣١ ،
٤٦١
محمد بن عبد الرحمن الفاسي : ١٣١

ابن لبراط : انظر : دناش بن لبراط
لبلة : ٢٠٩
ابن لبون : انظر : أبو عيسى بن لبون
ليبد بن ربيعة : ٣٢
لحم (قبيلة) : ١٠٦
لدريق : ١٩٨ ، ١٩٩
لسان الدين بن الخطيب : ٢٥ ، ١٠٥ ، ٦٤ ،
١١٩ ، ١٣٧ — ١٣٩ ، ١٦٦ ،
٢١٠ ، ٢٥٢ — ٢٥٩ ، ٣٠٢ ،
٣٣١ ، ٤٨٢
لفت : ٢٨٠
لثونة (قبيلة) : ١٩
لوب دقيجا : ٥١٣ ، ٥٩٤
لورقة : ١١٦ ، ٢٧٦
لورنزدى مدينتي : ٦٢٠
لوزل : ٢٦ ، ٥٠١
لويس شيخو : ٢٣٩
لينتز : ٣٥١
ليرة : ٢٧٦
ليفي بروفنسال : ١٥٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠ ،
٢٤٩ ، ٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠ ،
٣١١
ليفي بن التبان : ٤٩٨
ليفي بن جرسون : ٥٠٣
ليون : ١٢
ليوناردو اليزي : ٥٣٤

(م)

ابن ماء السماء : انظر : أبو بكر عباد بن
ماء السماء
ابن الماحشون : ٥
ماردة : ٥
ماركوس بيرث : ٥٨٣
ماركوس يوسف مولر : ٢٧٩ ، ٣٥٧
مارية القبطية : ٣٢٨
ماسينون : ٤٣

أبو محمد عبد الله بن ساره (أو ساره)
 الشنقي: ٨٦، ١٢١
 أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الجبلي: ١٦،
 ١١٨، ١٢٢، ١٢٣، ٤٦١،
 ٤٦٧
 أبو محمد علي بن حزم القرطبي: ٩، ١٤،
 ٤٣، ٥٨، ٦١، ٦٨، ٧٤ —
 ٧٧، ١٧٤، ١٨٩، ٢٠٧،
 ٢١٣ — ٢٣٩، ٢٣٣، ٣٢٩،
 ٣٣١، ٤٢٦، ٥٠٣
 أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان
 الحريري: ١٨٠
 محي الدين بن عربي: ٨، ٢٤، ١٣٣،
 ١٦٥، ١٦٦، ٢٣٨، ٣٣٢،
 ٣٣٣، ٣٥٦، ٣٦٩، ٣٧١ —
 ٣٨٦، ٥٤٠، ٥٤٣، ٥٤٥،
 ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩،
 ٥٦٤
 ابن خوارق: انظر: خلف بن عبد الله
 ابن خوارق
 الخزومي: انظر: أبو بكر الخزومي
 أبو الخفي: انظر: عاصم بن زيد التميمي
 مدرسة الحديث الكاملية: ٢٨٤
 مدرسة الدراسات العليا بمرسية: ٢٨
 مدرسة الترجين بطليعلة: ٢٧، ٣٦٧،
 ٥٧٢
 المدرسة المنصورية: ١٨٨
 مدريد: ١١، ٣٣٤، ٥٩٨
 مدغليس: انظر: ابن الحاج
 المدور: ١٠٩
 ابن مدير: ٢٧٥
 ابن المديني، محمد بن حزم بن سكر:
 ٣٢٧
 مدينة سالم: ٧٠، ٤٢٣
 مرار القعسي: ٣٤

محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي:
 ٣٣٠
 محمد بن عبد الله بن مسرة: ٨، ٢٦٨،
 ٣٢٦ — ٣٣٢، ٤٩٣
 محمد بن عبد الملك بن أيمن: ٩، ٣٩٥
 محمد بن عتاب: انظر: أبو عبد الله
 محمد بن عتاب بن محسن
 محمد بن علقمة: ١١٦
 محمد بن علي بن هاني: ٣٠٢
 محمد بن عيسى الإلبيري: ٣٣٢
 محمد بن غالب الرصافي (الشاعر): ١٣٠
 محمد الفتي بالله (سلطان غرناطة): ١٣٨،
 ١٤٠، ١٤١
 محمد بن فرج بن الطلائع: ١٤، ٤٢٧
 محمد بن مزين: ٥، ٢١٢
 محمد بن من: انظر: ابن صادح، المعتصم
 محمد بن مفرج المافري (يعرف بالفتي):
 ٣٣٠
 محمد بن للنذر النيسابوري: ٤٣٩
 محمد بن موسى الرازي: ٨، ١٩٣، ١٩٦،
 ٢١٠
 محمد بن النحاس: ١٨٨
 محمد بن هاني الإلبيري الإشبيلي: ٨، ٦١،
 ٦٣ — ٦٤، ١٥٧
 محمد بن وضاح بن بزيع: ٣٩٤
 محمد بن وهب بن صيقل: ٣٢٧
 محمد بن يقي: ٣٣٠
 محمد بن يحيى بن أحمد بن الحذا: ١٢،
 ٤٢٢
 محمد بن يحيى القفطاط: ٦، ٥٨
 محمد بن يوسف الشامي: ٢٤٠
 محمد بن يوسف الوراق: ٣٠٩
 ابن محمد الشاطبي: ١٦٥
 أبو محمد عبد الحق بن سبعين: ٢٤،
 ٣٨٦ — ٣٩٠

٥٧٦ ، ٤٧٦
ابن مسلمة : انظر : أبو طاهر بن مسلمة
مسوفة (قبيلة) : ١٩
مشاق البصرة : ١٨٠
المشرق (مجلة) : ٢٧٩
معلم بن يعقوب : ٥٠١
مصاييح (جارية) : ٥٤
المصحف : انظر : أبو جعفر بن عثمان المصنف
مصر : ٣٣ ، ١٢٥
أبو المطرف عبد الرحمن بن وائد اللخمي
الأندلسي : ١٦ ، ٣٣٧ ، ٤٦٦ ،
٤٦٧ — ٤٦٨
المظفر بن الأقطس : ١٦ ، ١١٧ — ١١٨ ،
٣٩٧
ابن المعتز : ٣٩
المعتمد بن صراح : ١٥ ، ١١٠ — ١١٣ ،
١٥٤
آل المعتمد بن صراح (صاحب المرية) :
١١٦ — ١١٣
المعتضد بن عباد : ١٥ ، ٨٥ ، ٨٦ — ٨٩ ،
٩٠ ، ٩٨ ، ١٠٠
المعتضد العباسي : ٨٧
المعتمد بن عباد : ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٠ ،
٤٦ ، ٨٥ ، ٨٨ — ١٠٧ ، ١٢٠ ،
١٣٩ ، ٢١٦ ، ٣١٢
المرعي : انظر : أبو العلاء المرعي
المرزقاني : انظر : أبو تميم معد بن المنصور
أبو معشر : ٥٣٨
ابن المعلم الطنجي : انظر : أبو يحيى بن المعلم
الطنجي
ابن معمر ، عبد الرحمن : انظر : عبد الرحمن
ابن محمد بن معمر
ابن معمر المالكي : انظر : أبو عبد الله
محمد بن معمر المالكي

مراكش : ٢٣ ، ٢٤ ، ١٣٥
مريبطر : ١٧ ، ١١٦
للرقي : ٦٥
ابن مرتزبل : ٤٠٨
ابن مرتين : ٨٥
ابن مردائش ، محمد : ١٢٨ ، ١٦٥ ،
٢٤٢
مرسية : ١٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١١٦ ،
١٣٣ ، ١٦٥ ، ٢٧٦ ، ٥٧٣
ابن المرعزي : ١٦٥
مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر
(يكنى أبا عبد الملك ويلقب بالشريف
الطليق) : ٧٢ ، ٧٣
أبو مروان حيان بن خلف بن حسين
ابن حيان : انظر : حيان بن خلف
ابن حسين
مريانو دي بانو لمي رواتا : ٥٧٢
مريم بنت أبي يعقوب الفيصولي : ٧٣
المرية : ٣٣٢
أبو مروان عبد الملك بن زهر : ٢٢ ،
١١٨
ابن مزين ، محمد : انظر : محمد بن مزين
ابن مزين ، يحيى : انظر : يحيى بن إبراهيم
ابن مزين القرطبي
المستظهر : انظر : عبد الرحمن بن هشام
الخامس
المستعين بن هود : ١٧٦
المستكني بالله : ٨٠
المستنصر : انظر : الحكم الثاني المستنصر
المسجد الجامع بقرطبة : ٦٥ ، ١٩٤
ابن مسرة : انظر : محمد بن عبد الله
ابن مسرة
ابن مسعود (الشاعر) : ٢٢ ، ٧٢
مسلمة بن القاسم : ٨
مسلمة المجريطي : ١١ ، ٣٣٣ ، ٤٤٨ ،

- معهد بلنسية د دون خوان بـمـدريد : ٥٩٥
ابن مغيث : ١٧
أبو القيرة بن حرم (الوزير) : ١٢ ،
٦٩ — ٧١
المفضل : ٣٢ ، ٣٣
ابن مغلث ، أبو الحيار مسعود : انظر :
أبو الحيار مسعود بن سليمان بن مغلث
ابن مقانا الأشبوني : انظر : عبد الرحمن
ابن مقانا الأشبوني
مقبرة باب تافزوت : ٣٥٦
مقبرة الخير : ٧٤
مقبرة الرضى : ٦٩
مقبرة مومرة : ٢٧١
القتدر بن هود : ١٧ ، ٧٨
مقدم بن معاني القيرى : ٦ ، ٢٩ ،
١٥٣ — ١٥٦ ، ٦١٣
القرى ، أبو العباس أحمد : ٨١ ، ٨٦ ،
١١٨ ، ١٣٢ ، ٣٠٢
القرزى ، تقي الدين : ٢٣٨ ، ٣١١
مكتبة الإسكريال : ٢٠٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧٩ ،
٢٨٧ ، ٣١٩ ، ٣٣٧ ، ٣٥١ ،
٣٥٨ ، ٤٠٢ ، ٤٥٦ ، ٥٣٣ ،
٦٠١ ، ٦٠٠
المكتبة الأهلية بباريس : ٢٨٩ ، ٣١٣
المكتبة الأهلية بـمـدريد : ٣٥٧ ، ٣٨٦
مكتبة أ كسفورد : ٢٨٩ ، ٣٣٧ ، ٤٩٩
مكتبة برلين : ١٨١ ، ٣٣٧
المكتبة البودلية : ١٩٤
مكتبة جوتا : ٢٨٩
المكتبة العربية الإسبانية : ٢٧١
مكتبة الفاتح باستامبول : ٤٧٤
مكتبة لايدن : ١٨٨ ، ٤٥٨
مكتبة الحجم للملكى الإسباني قنارخ : ٣١ ،
١٧٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٨٩ ، ٤٤٣
أبو مكنوم عيسى المروى : ٣٩٦
- مكرم بن سعيد : ١٥٤
مكناسة : ١١٧
مكة : ٢ ، ٣٢
مكي بن أبي طالب : ٩
ملشور أنطونيا : ٢٠٨ ، ٢٥٨
الملك الصالح : ١٣٥
ابن ممانى : ٢٩٣
مناحيم بن سروق الطرطوشى : ٤٨٩
منازجرد : ١٧٢
منت اشم = كازا مونتيضا : ٢١٦
ابن منثيل : انظر : أحمد بن فرج بن منثيل
منذر بن سعيد البلوطى : ٩ ، ٢٠١ ،
٤٣٩ ، ٤٤٠ —
المنذر بن هود : ١٠٧
المنصور محمد بن أبي عامر : ١١ ، ١٢ ،
١٣ ، ٤٥٥ ، ٦٠ ، ٦٥ — ٦٦ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٣٣٢ ،
٣٣٣ ، ٤٠٥ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ،
٤٦٦
أبو منصور بن جبير : ١٨١
منتذ بيدال : انظر : رامون منتذ بيدال
للهدية : ٩٨
ابن اللواعينى : انظر : أبو القاسم محمد بن
إبراهيم بن خير
موان د موتودون : ٦١٧
اللؤعن بن هود : ١٧ ، ١٢٢
مورانا ، الأب : ٣٥٧
مورلى : ٥٣٤
مورور : ١٠٩ ، ١٣١ ، ٤٣٧
ابن الورورى : انظر : محمد بن سليمان العكى
موريس الإسباني : ٣٦٨
موسى بن جدير الحاجب : ٢٠١
موسى بن حانوك : ٤٨٩
موسى سفردى : ٥٧٩
موسى بن عزرا : ٤٩٨
موسى بن عمران الليرتلى : ٣٧٢

النفري : انظر : أحمد بن هارون النفري
تقفور فوكاس : ٢٣٧
الهرجوري : ٣٢٨
أبو نواس : ٥٦ ، ٣٩ ، ٥
ابن النوشريسي : انظر : أبو عمر عبد الله
ابن رشيد
ذو النون المصري الإخيمي : ٣٢٨
بنوفى النون : ١٦
نونة فاطمة بنت ابن اللقي : ٣٧٢ ، ٣٨٦
النيسابوري : انظر : محمد بن المنذر النيسابوري

(ه)

هارون الرشيد : ٥٦ ، ٤١٣
هارون بن نصر القرطبي ، يكنى أبا الحيار :
٤٣٣
هار توبج هير شفيد : ٥٠٠
ابن هاني : انظر : محمد بن علي بن هاني
ابن هاني : انظر : محمد بن هاني الإلييري
الإشبيلي
ابن هاني* الإشبيلي : انظر : محمد بن هاني*
الإلييري الإشبيلي
ابن هاني* الإلييري : انظر : محمد بن هاني*
الإلييري الإشبيلي
هرمان الألمانى : ٣٦٧
هرمان در دامن : ٦١٨
هرمان القلاشى : ٥٣٩
المهروى : انظر : أبو مكتوم عيسى
هشام بن أحمد الكتانى الرقشى : ١١٦ —
١١٧
هشام بن الحكم اللؤيد : ١١ ، ٦٢ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ١٨٥ ، ٤٣٦
هشام الرضى بن عبد الرحمن : ٣ ، ٢٠٠
الهمدانى : انظر : أحمد بن سعيد الهمدانى
ابن هند ، عمرو : ٣٤
ابن الهندى القرطبي : ٤٤١
هنرى پيريس : ٣١ ، ٢٨٧

موسى بن ميمون : ١٧ ، ٢٤ ، ٣٦١ ،
٤٥٤ ، ٥٠٢
موسى الزبونى (أو الأربونى) : ٣٣٧ ،
٣٤١ ، ٣٥١ ، ٥٠٣
مولر : انظر ماركوس يوسف مولر
مونك : ٣٣٧
ميخائيل فاسكو ثليوس : ٦٢٨
ميخائيل الأسكتلندى : انظر : ميكل سكوت
ميخائيل الفزيرى : ٢١٢
ميكل سكوت = ميخائيل الأسكتلندى :
٣٦٧ ، ٥٣٩
ميلياس فاليكروسا : ١٥٥ ، ٤٥١ ،
٤٩٨ ، ٤٩٩
ميمون بن الحبازة : ١٢٩
ابن ميمون : انظر : موسى بن ميمون

(ن)

النايفة الديباني : ٣٢ ، ٣٣
ابن نابل ، عمر : انظر : عمر بن نابل
ابن ناجية : انظر : أبو عبد الله محمد بن ناجية
الناصر : انظر : عبد الرحمن الناصر
النباتى : انظر أبو العباس أحمد النباتى
النباهى : انظر : أبو الحسن النباهى
نجمدة الحيرى : ٢٠١
النحاس : انظر : أحمد بن محمد بن إسماعيل
النحاس
النحلي (الشاعر) : ١١٢
نزهون بنت القلاصى : ١٢٥ ، ١٦٥
نسطاس بن جريج : ٤٦٢
أبو نصر الفتح بن خافان : ٢٢ ، ٨٤ ،
٩٦ ، ١١٩ ، ٢١١ ، ٢٥٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٦ — ٢٩٩ ، ٣٣٦
بنو نصر (أصحاب غرناطة) : ١٣٧
ابن النفرة : انظر : إسماعيل (صمويل)
ابن النفرة ويوسف بن إسماعيل بن
النفرة

هنيدة (جارية) : ٥٣

هوتو : ٤٨٧

بنو هود : ١٧ ، ٢٣ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ٤٥٤

هوهشتاوفن : ٦١٩

هويه ، پير دانييل : انظر : پير دانييل هويه

الهميم بن أحمد بن أبي غالب : ١٦٥

ابن الهميم ، عبد الرحمن بن إسحاق : ٤٦٣

(و)

وادی آشی : ١٤٢ ، ٣١٩ ، ٣٤٨

وادی الحجارة : ٣٠٩

الوادی الكبير : ٤٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠

وادی لك : ١٧٥

ابن واضح ، محمد : ٩

واط (حصن) : ١٩٣

ابن وافت : انظر : أبو للطرف عبد الرحمن

ابن وافت اللخمي الأندلسي

الوراق : انظر : محمد بن يوسف الوراق

وشقة : ٥٧٩

ابن وضاح : انظر : أبو القاسم بن وضاح

وقش : ١١٦

الوقشي ، أبو جعفر : انظر : أبو جعفر

الوقشي

الوقشي الطليطل : انظر : أبو الوليد الوقشي

الطليطل

الوقشي ، هشام : انظر : هشام بن أحمد

الكتاني الوقشي

ابن وكيل الزاهد : انظر : أحمد بن وكيل

الزاهد

ابن وكيل ، عثمان : انظر : عثمان بن وكيل

ولادة بنت المستكفي : ١٤ ، ٨٠ ، ٨٤

١٢٧

ولة : ٨٩

الوليد بن عبد الملك : ١٧٦

أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي : ١٤

١٥ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٨٠ ، ٨٦

١١٩ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١١٩

أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي : ٧٨

١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٦٦ ، ٢٩٩

٣٠٢

أبو الوليد بن جهور : ٨٣ ، ٨٤

أبو الوليد بن حبيب : ٨٨

أبو الوليد سليمان الباجي : ١٤ ، ١٧٤

٢١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦

أبو الوليد عبد الله بن نصر الأزدي القرطبي

المعروف بابن القرشي : ١٢ ، ٧١

٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠

٢٧٢

أبو الوليد الوقشي الطليطل : ١٦ ، ١٧

١٨٦

أبو الوليد يونس بن الصفار : ٢١٥

وهب بن ممرة : ٢٠٧

أبو وهب عبد العلي بن وهب : ٣٢٥

ابن وهبون : انظر : عبد الجليل بن وهبون

للمرسي

(ي)

يبرة : ١١٨

يأيسة : ١٣٥

ياقوت الحموي : ٢٣٧

يحيى بن إبراهيم بن مزين القرطبي : ٤١٩

يحيى بن إسماعيل الياسي : ٤٥٧

يحيى الجزار (الشاعر) : ١٢٢

يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز : ٤٣٤

يحيى بن غايّة البورقي : ١٢٩

يحيى بن حكم الغزال : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٦٠٣

يوحنا القمشقي : ٥٨٦
 يوحنا الصليبي : ٣٩٠
 يوحنا كبلر : ٥٣٥
 يوحنا هنرويتينا : ٣١٣
 يوسف بن الأسمر ، أبو الحجاج (صاحب
 غرناطة) : ٣١٩
 يوسف بن تاشفين : ١٨ ، ١١٤ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣
 يوسف الشربلي ، أبو الحجاج : ٣٧٧
 يوسف بن الشيخ الباوي المالقي : ١٧٩
 يوسف بن إسماعيل بن النفرلة : ١٠٨
 يوسف بن عبد البر بن عاصم النمرى الفرطى :
 ١٦ ، ١١٨ ، ٢١٠ ، ٣٩٦
 يوسف بن عيسى ، أبو الحجاج : ١٨٦
 يوسف الفهرى : ١٩٩
 يوسف بن محمد الهمداني : ٤٣٧
 يوسف بن هارون الرمادى (أبو عمر) :
 ١٢ ، ٦١ ، ٦٨ — ٦٩ ، ١٥٣ ،
 ١٥٦
 يولوجيوس : ٥٧١ ، ٥٩ ، ٥٠
 يونس بن أحمد الحراني : ٩ ، ٤٦١ ،
 ٤٦٧
 يوهان بوكستورف : ٥٠٠

يحيى بن ذى النون : ٢٣٩
 يحيى بن مجبر : ١٢٩
 أبو يحيى بن المعلم الطنجي : ٢٩٩
 يحيى بن هذيل : ٢٥٢
 يحيى بن يحيى الليثي : ٤
 يعرب : ١٠٦
 يعقوب بن أبا ماري : ٥٠٣
 يعقوب بن دانا : ٥٠٠
 يعقوب الفيروزي : ٥٠٢
 يعقوب المصور الواحدى : ٢٣ ، ١٢٦
 يعيش بن سعيد بن محمد بن عبد الله المعروف
 بابن الحجام : ٣٩٥
 ابن يسمور ، أبو الفتح جمال الدين موسى :
 ١٣٥
 يهودا الجزيرى بن شلومون : ٥٠٩
 يهودا بن طيبون : ٤٩٩
 يهودا بن ليثى (هاليقي) : ٢٤ ، ٤٩٩
 يهوذا بن داود : انظر : أبو زكريا
 ابن داود
 يهوذا السكوهن : ٥٧٥
 يهوذا بن موسى بن موسكا : ٥٧٦
 يوحنا الجودسديقي : ٥٣٤
 يوحنا بن داود الإسباني : ٥٣٧ ، ٥٣٨

ب — أعلام إفريقية أو وردت بغير العربية

- | | |
|------------------------------------|---|
| Alcántara, Lafuente : ٢٠٢٤١٩٨ | Diego Hurtado de Mendoza : ٥١٨ |
| Abraham Halevi : ٥٧٦ | Domenico Comparetti : ٥٨٢ |
| Adelardus Batense : ٥٣٤ | Dozy, R. : ٣٠٣ |
| Alejandro de Hales : ٣٦١ | Dugat, G. : ٣٠٣ |
| Almeida Garret : ٥٨٤ | Duns Scottus : ٤٩٣ |
| Alpetragius : ٢٣ | Eben Guefet = ابن واند : ١٦ |
| Alvarez Gato : ٦٢٨ | Esteruel : ١٨١ |
| Alvarez de Villasandino : ٦٢٩، ١٥١ | Fabrizi Gerolamo da Acquapendente : ٥٣٤ |
| Ambrosio Huici : ٢٥١ | Fadrique : ٥٧٤ |
| Anselmo de Turmeda : ٥٩١-٥٨٦ | Faux Turpin : ٥٣٦ |
| Arnaldo de Villanova : ٥٣٤ | Francisco Fernández y Gonzalez : ٦٠٠ |
| Avicbrón : ١٢٢ | Fortunatas, Islas : ٣١١ |
| Bacon, Roger : ٥٣٤ | Gabriel Sloneta : ٣١٣ |
| Banqueri, J.A. : ٤٧٥ | Galland : ٥٩٣ |
| Bartolome Pom : ٦٠٢ | Garci Pérez : ٥٧٦ |
| Baza : ٢٨٣ | Gerardo di Cremona : ٥٣٩ |
| Beaumier : ٢٥١ | Gil de Teblados : ٥٧٦ |
| Bernaldo el arábigo : ٥٧٦ | Gil Vicente : ٦٢٩ |
| Brunetto Latini : ٥٧٢ | Giralda, La : ١٢٦ |
| Bibliotheca Arabico Hispana : ٢٧١ | Goguyer : ١٨٧ |
| Campo de Calatrava : ٤٣٩ | Guillen Arremon de Aspa : ٥٧٥ |
| Capeza de Estopa : ٩١ | Guillermo de Auvernia : ٣٦١ |
| Casa Montija : ٢١٦ | Gonzalo Sánchez de Uceda : ٥٥٠ |
| Cercamón : ٦١٥ | Herman der Damen : ٦١٨ |
| Compano di Novara : ٥٣٤ | Herman di Dalmatia : ٥٣٩ |
| Le comte de Poitiers : ٦١٥ | Hermannus Alemanus : ٣٦٧ |
| Ciullo dal Camo : ٦١٩ | |
| Diego de Canizares : ٥٨٣ | |

- de Herrera, G.A. : ١٧٥
 Huecas = بلد ، وقش : ١١٦
 Huet, Pierre Daniel : ٥٣٤
 Huector Vega = بلد ، وبده : ١٩٣
 Instituto de Valencia de don Juan : ٥٩٥
 Isidoro Gil : ٥٨٤
 Jaime el Conquistador : ٢٧٧
 Jacapone di Todl : ٦٢٠
 Jehudá el Cohen : ٥٧٥
 Jil Pérez : ١٩٧
 Jiménez de Urrea : ٦٢٨
 Johannes Buxtorf : ٥٠٠
 Johannes von Goddesden : ٥٣٤
 Johannes Hispanus Abendaud : ٥٣٧
 Jorge Manrique : ١٣٢
 Juan del Encina : ٦٢٩
 Juan Hesronita : ٣١٣
 Juan Pérezy : ٥١٣
 Juan de Timoneda : ٥٨١
 Krehl, L. : ٣٠٣
 Lafuente Alcántara : ٢٥٢، ١٩٨
 Leonardo Pisano : ٥٣٤
 Lope de Vega : ٥٩٤ ، ٥١٣
 Lorenzo di Medicis : ٦٢٠
 Lunel : ٢٦
 Marcos Pérez : ٥٨٣
 Mariano Gaspar Rímero : ٢٥١
 Mariano de Pano y Ruala : ٥٢٢
 Maurtilus Hispanus : ٣٦٨
 Michael Scottus : ٥٣٩ ، ٣٦٧
 Michaelis de Vasconcellos : ٦٢٨
 Millas Vallerosa : ١٥٥
 Moine de Montaudon : ٦١٧
 Morlay : ٥٣٤
 Moses Sefardi : ٥٧٩
 Otto I : ٤٨٧
 Pedro del Real : ٥٧٦
 Pedro el Venerable : ٥٧٤ ، ٥٣٩
 Pierre Daniel Huet : ٥٣٤
 Pinto : ١٨٧
 Pococke : ٢٣
 de Poitiers, le comte : ٦١٥
 Pou : ٣٥١
 Reiske : ٢٣
 Robert de Retines : ٥٣٩
 Saint Jean de la Croix = San Juan
 de la Cruz : ٣٩٠
 San Eulogio de Córdoba : ٥٧١
 Schiaparelli : ٥٤١
 Seco de Lucena : ٢٢٠ ، ٢٢١
 Sorrión : ٢٧٣
 Sylvestre de Sacy : ٢٣
 Tirso de Molina : ٢٢٥
 Turmeda, Anselmo de : ٥٩١-٥٨٦
 Vélez = بلد ، بلش : ٩٢
 Véleza : ٢٢٦
 Villasandino, Alvarez de : ٢٢٩، ١٥١
 Viterbo : ٥٨٤
 Wright, W. : ٣٠٤
 Yehudá Ben Moseh : ٥٧٦
 Zag de Toledo : ٥٧٦

٢ - فهرست الكتب

(١) كتب عربية أو وردت بالعربية

أخبار شعراء الأندلس ، لابن ماء السماء :
٢٨٧

أخبار الشعراء بالأندلس ، لـ محمد بن هشام
ابن سعيد الخير الرواقى : ٢٨٦
أخبار الفتنة الثانية بالأندلس ، لأبى الحسن
السالى : ٢٤١

أخبار القرطبيين ، لابن الطليسان : ٢٨٢
أخبار القرطبيين ، لـ عياض بن موسى : ٢٨٣
أخبار قضاة قرطبة ، لابن يشكوكال : ٢٧٤
أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة ، لابن عفيف :
٤٢٣

أخبار مكة والمدينة وفضلهما ، للهروى :
٣٩٦

الأخبار المجموعة : ٨ ، ١٩٨ - ٢٠٢
أخبار ملوك الأندلس ، لأحمد بن محمد الرازى :
١٩٧

اختصار المبسولة ، لابن رشد (الجد) :
٤٢٧

اختصار مشكل الآثار ، لابن رشد (الجد) :
٤٢٧

اختلاف الموطآت ، لأبى الوليد الباجى :
٤٢٦

الأخلاق والسير ، لابن حزم : ٢١٦ ،
٢١٧ - ٢١٨

أدب الكتاب ، لـ يدرو ألفونسو : ٢٨ ،
٦٢٦ . وانظر : سلك الكتاب
الأدوية المفردة ، للإدريسي : ٣١٣

(١)

آداب المعلمين (المتعلمين ١) ، لابن عفيف :
٤٢٣

أبحاث دوزى : ٢٩٣

ابن الملك والدرويش ، لأبراهيم بن حسداى :
٥٨٥

الإطال ، لابن حزم : ٢١٨

إنحاف السادة ، لـ سيد مرتضى : ٥٦٦

انصال العقل القفال بالإنسان ، لابن رشد :
٣٥٧

الإحاطة بتاريخ غرناطة ، لابن الخطيب :
٢٥٧ ، ١٣١

الاحتفال فى تاريخ أعلام الرجال ، لابن
عفيف : ٢٧٥

إحصاء العلوم ، لفارابى : ٣٦٣ ، ٣٨٠

إحكام الفصول فى أحكام الأصول ، لأبى الوليد
الباجى : ٤٢٥

أحكام القرآن ، لابن أمية الحجارى : ٤٣٣

أحكام النہى ، لابن الطلاع : ٤٢٨

الأحكام ، لعبد الحق الإشيللى : ٣٩٦

الأحوال ، لـ نون خوان مانويل : ٥٠٠ ،
٥٨٥

أخبار أرطباس (فى تاريخ افتتاح الأندلس
لابن القوطية) : ٢٠٤ - ٢٠٦

أخبار دولة النونية ، لأبى حامد بن تاشفين :
٢٤١

وَضَمْنَا هَذِهِ الْعَلَامَةَ (*) إِلَى جَانِبِ الْكُتُبِ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَسْمَاءَ
لِلْكِتَابِ وَارِدَةٌ فِي فِهْرِسْتِ الْكُتُبِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ .

السيد البطليوسي : ١٧٧ ، ٣٣٤
 * أقوال كتاب العرب في بني عباد ، لعوزي :
 ٢٩٣
 الاكتفاء ، لابن الميم : ٤٦٣
 الإكليل المشتعل على ذكر عبد الجليل ،
 لابن بسم : ٢٨٩
 ألف ليلة وليلة : ٢٦ ، ٢٨ ، ٦٠ ، ١٩٥ ،
 ٥٢٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩٩
 الألفية ، لابن مالك : ١٨٧
 الإلماع في أصول علم الحديث ومبادئه ،
 لقاضي عياض : ٣٩٨
 الأمالي ، لأبي علي الفاي : ٦٧ ، ١٧٣ ،
 ٣١١
 الإمامة والخلافة ، لابن حزم : ٢٢٠
 الأمثال ، لأبي الوفا مباشر بن فائق : ٥٧٧
 * الأمثال ، لسانث دفرثيال : ٥٨٠ ، ٥٨٢ ،
 الأم ، للشافعي : ١١
 الأمير والدرويش ، لأبراهام بن صمويل :
 ٥٠١
 الإنباه ، لابن الحذا : ٤٢٢
 الإنجيل : ٢١٩
 أنساب مشاهير أهل الأندلس ، لأحمد بن
 محمد الرازي : ١٩٧
 الأنساب ، لسماعي : ٣٩٨
 الأنساب ، لقاسم بن أصبغ : ٣٩٥ ، ٤٢٠
 الإنصاف في التنبه على الأسباب الموجبة
 لاختلاف الأئمة ، لابن السيد البطليوسي :
 ٣٣٤
 الأنوار السنية ، لابن حرب : ٤٢٩
 أنوار الأفكار ، للانصاري الخزرجي :
 ٢٨١
 الأوراق ، لصولي : ٢٨٦
 الإيصال إلى فهم كتاب الحصال ، لابن حزم :
 ٢١٨
 الإيضاح ، لفارسي : ١٨١
 الإيعاء في الفقه للباقي : ٤٢٥
 الأئمة من المصنفين ، لعارك بن مروان : ٤٠١

الأدوية المفردة ، لغافقي : ٤٧٢
 الأدوية المفردة ، لابن واند : ٤٦٩
 * أرجات هابوشم ، لموسى بن عزرا : ٤٩٩
 أرجوزة ابن سينا : ٥٤٢
 أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ،
 للقرى : ١٣٢ ، ٢٨٣
 الاستذكار ، لابن عبد البر : ٣٩٧
 الاستكمال ، للمؤمن بن هود : ٤٥٤
 الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر :
 ٣٩٧
 الاسم والمسمى ، لابن باجة : ٣٣٧
 أسماء رجال الكتب الستة ، لعمر بن
 نور الدين : ٤٠٠
 الأسباط ، لحمد الراوية : ٣٤
 الإشارة في أصول الفقه ، للباقي : ٤٢٦
 إصلاح الأخلاق ، لابن جبرول ، ٤٩٤ ،
 ٥٠١
 * الأصول الإسلامية للكمينديا الإلهية ،
 لميجيل آسين بلايوس : ٥٥١
 * أصول القصة ، لندد بلايو : ٥٩٥
 * أصول الكلمات ، لإيزودور الإشبيلي :
 ٣١١
 اعتبار الكتاب ، لابن الأبار : ٢٧٨
 الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن
 عباد ، لابن بسم : ٢٨٩
 الإعلام ، للرشاطي : ٣٩٨
 لإعلام الأعلام ، لابن الخطيب : ٢٥٨
 الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين ،
 لابن دحية : ٢٨٤
 الأغاني ، للأصفهاني : ١١٨
 اقتحاح الأندلس ، لابن القوطية : ٢٩ ،
 ٢٠٢ - ٢٠٦
 الإنصاح ممن عرفه بالأندلس من الصلاح ،
 لابن الحاج البليقي : ٣٠٦
 أفق الدنيا ، للرفاعي : ٤٥٢
 الانتصاب في شرح أدب الكتاب ، لابن

(ب)

الباهر ، لابن الحداد البصرى : ٤٠١
بد الماروف ، لابن سبعين : ٣٨٨
بداية المجتهد ، لابن رشد : ٣٥٨
البديع فى وصف الرقيم ، لأبى الوليد بن
حبیب الحميرى الإشبیلی : ٧٨ ، ٢٨٧
برهام ويواصف (يوصافات) : ٢٨ ،
٥٠٠ ، ٥٠١

البشرى فى تأويل الرؤيا ، لابن الحذا :
٤٢٢

بنية المتمس ، لفضي : ٢٧٦
البلاغة والشعر ، لأرسطو : ٥٣٩
بهجة المجالس وأنس المجالس ، لابن عبد البر :
١٧٧

* بوريدات د بوريدادى : ٢٨ . وانظر :
سر الأسرار

* يونيو : ٢٨
البيان والتحصيل ، لابن رشد (اجد) :
٤٢٧

البيان للغرب ، لابن عذارى : ٢٤٩
البيان الواضح فى الملم القادح ، لابن علقمة :
١١٦ ، ٣٠٥

(ت)

تاج للفرق فى تحلية علماء الشرق ، لبلوى :
٣١٩

التاج المحلى ، لابن الخطيب : ٢٥٨
* تاريخ إسبانيا العام ، لألفونسو الحكيم :
١١٦ ، ١١٧

تاريخ الأندلس ، لابن الحكيم الرندى :
٢٥٢

تاريخ الأندلس ، لعيسى بن أحمد بن محمد
الرازى : ١٩٨

تاريخ المربة وبجانة ، لابن الحاج البلديق :
٣٠٥

تاريخ بنى أمية فى الأندلس ، لماوية بن هشام
الشيبينسى : ٢١٠

تاريخ بنى نصر ، لابن الفارق : ٢٥٢

تاريخ دمشق ، لابن عساكر : ٢٨٥

تاريخ شعراء الأندلس ، لابن القرصى :
٢٧١

تاريخ شعراء الأندلس ، لابن ماء السماء :
٢١٠

تاريخ صلحاء الأندلس ، لابن الطيلسان :
٢٨٢

تاريخ الطبرى : ٢١٣

* تاريخ العرب ، لذريق الطليطلى : ٥٧٢

تاريخ علماء الأندلس ، لابن القرصى :
٢٠٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٣

تاريخ علماء البيرة ، لابن مفرج : ٢٨٥

تاريخ فقهاء البيرة ، لأبى الاصمغ عيسى
ابن محمد : ٢٦٧

تاريخ فقهاء قرطبة ، لابن حيان : ٢٠٨

تاريخ قضاء قرطبة ، لخضفى : ٢٦٦ ، ٢٦٧

تاريخ الكتاب الأندلسيين ، لأبى عمرو
ابن عيشون : ٢٨٢

تاريخ مالقة ، لابن عسكر : ٣٠٥

تاريخ مكة ، للزراقى : ٣٣

التاريخ ، لأبى جعفر الخزرجى : ٢٤٠

التاريخ ، لعبد الملك بن حبيب : ١٩٤

* التاريخ العربى ، ليدرو كل كرال : ١٩٨

التبصرة ، لابن مسرة : ٣٢٨ ، ٣٢٩

التبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة ،
لابن البانة القانى : ٢٤١

التبيين لمسائل المهندس ، لباي . ٤٢٦
* التتري والنصراني ، لرايموندو لوليو :
٥٥٠

ثنية التوراة ، لموسى بن ميمون : ٥٠٢
تجريد الصحاح الستة ، لهروى : ٣٩٦
تحصيل غرض القاصد في تفصيل الرمز الوافد ،
لابن خاتمة : ٣٠٦ ، ٤٨١

تحفة الأديب ، لتورميدا : ٥٨٧
تحفة الأصحاب ومحنة الإعجاب ، لأبي حامد
الفرناطى : ٣١٢

تحفة الحكام : لابن عاصم : ٤٢٩
تحفة القادى ، لابن الأبار : ٢٧٩
تحفة السكبار في أسفار البحار ، لأبي حامد
الفرناطى : ٣١٢

* تحكيمنى : ليهودا الجزيرى : ٥٠١
التخليص على أساسيد الموطأ ، لابن الفرطى
المالطى : ٣٩٩

تدبير التوحيد ، لابن باجة : ٣٤١ ، ٣٤٧
٥٤٠ ، ٣٤٧

ترتيب المدارك في معرفة أصحاب مالك ،
لميان بن موسى : ٢٨٣ ، ٣٩٨
ترجمان الأشواق ، لابن عربى : ٣٧٤ ،
٥٤٩ ، ٥٤٤

التسديد إلى معرفة التوحيد ، لباي : ٤٢٥
تسمية الرجال المذكورين في الموطأ ، لابن
مزين : ٤٢٠

التعاليم الصالحة ، لتورميدا : ٥٨٧
تعديل الكواكب ، لساعة المجرطى : ٤٤٨
التعديل والتجريح ، لباي : ٤٢٥
التعريف والإعلام ، لسميل : ٣٩٩
التعريف بمن ذكر في موطأ مالك ، لابن
الحذا : ٤٢٢

التعريف لمن عجز عن التأليف ، لزهراوى :
٤٦٦

التفريع في الفقه ، لابن الجلاب : ٥١٣
تفسير الحوفي لكتابات الكسانى : ١٨٥

تفسير الموطأ ، لابن مزين : ٤٢٠
التصيرة ، لابن جابر : ٥١٢
تقويم الأسقف ريكوندو :
تقويم الدهر ، لأبى الصلت بن أمية الدافى :
٣٣٤

تقويم ربيع بن زيد : ٢٠٧
التقويم القرطى ، لمريب بن سعد : ٤٦٥ ،
٤٨٧

تهديد المهمل وتغيير المشكل ، للجبائى : ٤٠٢
التكملة لكتاب الصلاة ، لابن الأبار : ٢٧٤
التلخيص في أعمال الحساب لابن البناء الفرناطى :
٤٥٧ ، ٢٥

الطود : ٢٨ ، ٥٧٤
التهديد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ،
لابن عبد البر : ٣٩٧

التنقيح ، لابن جناح : ٤٨٩
تهافت التهاوت ، لابن رشد : ٣٥٧
تهذيب صحيح مسلم ، لابن حرب : ٤٢٩
التوراة : ٢١٩

التوطئة ، لكثلوبنى : ١٨٦

(ث)

ثمار علم العدد ، لساعة المجرطى : ٤٤٨

(ج)

جامع بيان العلم ، لابن عبد البر : ٤٣٥
* جامع الحجج في جدال الكافرين ، لتوما
الأكوينى : ٥٤١

الجامع لصفات النبات ، للإدريسي : ٤٧٤
الجامع لفرحات الأغذية والأدوية ، لابن
البيطار : ٤٧٩ — ٤٨١

* جسيم دانتى : ٥٥٣
حذوة القنيس ، للحميدى : ٢٧٦
الجزولية ، لأبى موسى بن عيسى الجزولى :
١٨٦

- حياة الحيوان ، للدميري : ٣٩
 * حياة المستهترات ، لبرانتوم : ٥٨٤
 * الحيوانات ، لوليو : ٥٩٥
 حى بن يقطان ، لابن طفيل : ٢٨ ،
 ٣٤٩ — ٣٥٣ ، ٥٤٠ ، ٦٠١

(خ)

- الحصال الجامعة ، لابن حزم : ١٤ ، ٢١٩
 الخطب وسير الخطباء ، لابن الحذا : ٤٢٢
 خلق الجنين وتدبير الحبال والمولود ، لعريب
 ابن سعيد : ٢٠٧ ، ٤٦٥
 * خنجر الإيمان ضد السامعين واليهود ،
 لرايموندو صرتهين : ٣٦٨ ، ٤١١

(د)

- الدرج ، لابن سبعين : ٣٨٨
 دور الثمر في شمراء الأندلس ، لرشيد
 الدين محمد بن إبراهيم الرطواط : ٢٧٢
 الدورة الفاخرة ، لابن عربي : ٣٧٤
 الدورة المضية ، لابن سبعين : ٣٨٨
 دلالة الحائرين ، لموسى بن ميمون : ٣٦٧ ،
 ٥٠٢

- الديارات ، للشابثي : ٣٩
 الديوان ، لابن عربي : ٣٧٦ و ٣٧٧
 الديوان ، لابن الهندي : ٧١
 * ديوان باينا : ٦٢٨
 * ديوان پلاتيو : ٦٢٧
 ديوان ابن حمديس : ٩٨
 * الديوان العام ، لهرناندو دل كاستيليو : ٦٢٨
 ديوان ابن قزمان : ٢٢ ، ١٥٧ ، ٦١٣ ،
 ٦١٤
 ديوان المتنبي : ١٩٠

- الجل ، للزجاجي : ١٨١
 جل النحو العبراني ، لأبي زكريا حايوج :
 ٤٨٩
 جهرة أشعار العرب ، لقريشي : ٣٣ ، ٣٧
 جهرة أنساب العرب ، لابن حزم : ٢٢٠
 * جورج دندان ، لموليير : ٥٨٠

(ح)

- * الحب العايب ، لحوان رويث : ٦٢٥ — ٦٢٦
 حجاب خلفاء الأندلس ، لعيسى بن أحمد
 ابن محمد الرازي : ١٩٨
 الحجة والدليل في نصرة الدين القليل ،
 ليهودا هاليقي : ٤٩٩ . وانظر :
 الكتاب الحزري
 حدائق (أو حديقة) الأزاهر ، لابن
 حاصم : ٤٣٠
 الحدائق ، لابن السيد البطليوسي : ٣٣٤
 الحدائق ، لابن فرج الجياني : ٦١ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩١
 حديقة الارتفاع ، لابن مسلمة : ٢١٢
 الحديقة في معنى الحجاز والحقيقة ، لموسى بن
 عزرا : ٤٩٩
 الحروف ، لابن مسرة : ٣٢٩
 حساب المثلاث ، لجابر بن أطلح : ٤٥٦
 الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، لآدم
 ميتز : ٣٩
 * حكاية الأمير إيراستو ، ليدرو هورتادو دلا
 فيرا : ٥٨٣
 حكم الفلاسفة ، لحنين بن إسحاق : ٥٧٨
 * الحكمة ، لحايه الأول : ٥٧٧
 * الحكمة الإنشائية ، لابن عربي : ٣٧٦
 الحكمة في مخلوقات الله ، للقرالي : ٤٩٦
 الحلل المرقومة ، لابن الخطيب : ٢٥٨
 الحلة السبراء ، لابن الأبار : ٢٧٨
 الحاسة ، لأبي تمام : ٣٤
 * الحياة الجديدة : لدانتي : ٧٥ ، ٥٧٣

رسائل إخوان الصناء : ١٧ ، ٣٣٣ ،
٤٥٥ ، ٤٩٨ ، ٥٨٨

روح الشعر ودوح الشجر ، لابن الجلاب
القهرى : ١٢٦

الروس الأنف ، لأبي القاسم السهيلي : ١٨٧ ،
٣٩٨

روى القوطاس ، لابن أبي زرع : ٢٥١
الروس المطار في خبر الأقطار ، لعبد المظفر
الحميري : ٣١١

ريحان الأواب وربان الشباب ، لابن المواقيني :
١٧٨

ريحانة الكتاب ، لابن الخطيب : ٢٥٩

(ز)

زاد المسافر ، لأبي بحر صفوان بن إدريس :
١٣٠ ، ٢٩٩

زهر البساتين ، لابن الطليسان : ٢٨٢
الزهرة ، لابن داود الأصفهاني الطاهري :
٤٣ ، ٦١ ، ٢٨٧

زينة المجالس ، لابن عبد البر : ١١٨

(س)

سراج الأدب ، لابن أبي الحصال : ١٧٧
سراج الملوك ، للطرطوشي : ١٧ ، ١٧٤
— ١٧٦ —

السراج ، لموسى بن ميمون : ٥٠٢
السراج في الخلاف ، للباجي : ٤٢٦
سفرها خزر ، ليهودا هاليقي : ٤٩٩
سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر ، لابن
بسام : ٢٨٩

سلك الكتاب ، ليدرو أوتزو : ٥٧٩
السلوان المطاع ، لابن عفر : ٥٧٨
السماء والعالم ، لابن رشد : ٥٣٩
السماع وإفادة التصحيح ، لابن رشيد السبتي :
٤٠٢

* ديوان المعجرات ، لحنانود مرتين : ٥٩٦
ديوان المحسنات ، لابن عبد ربه : ٦٣

(ذ)

ذخائر الأعلاق ، لابن عربي : ٣٧٥
الذخيرة في محاسن أهل المزية ، لابن إسحاق :
١٢٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩

* ذكريات بلد الوليد ، لتوريليا : ٥٩٧
الذيل المذيل ، لابن الجسور : ١٧٤

(ر)

رايات المرزبن وشارات الميزين ، لابن سميذ
المغربي : ٣٠ ، ١٣٥ ، ٢٤٦
* رباعيات مملكة ميورقة ، لتورميذا :
٥٨٧

الرحلة المغربية ، للعبدري : ٣١٨
الرد على جالينوس ، لفخر الدين الرازي :
٥٤٢

رسالة الاسطرلاب ، لمسلمة الجرجي : ٤٤٨
رسالة الأنوار ، لابن عربي : ٣٧٥
رسالة التابعين ، لابن حيان : ٢٠٨
رسالة التواضع والزواجر ، لابن شهيد : ٧٣
رسالة ابن حزم : ٢٤٧
رسالة السجن والمسجون ، لابن غصن :
٢١٢

رسالة الشقندي : ٣٠ ، ٢٩٩
رسالة الغراء ، لموسى بن ميمون : ٥٠٢
رسالة الغفران ، لأبي الملاء الممرى : ٥٥٢
رسالة في الردة ، لموسى بن ميمون : ٥٠٢
رسالة في العمل بالصفيحة ، للزرقالي : ٤٥٢
الرسالة المصرية ، لأبي الصلت أمية الداني :
١٢٥

رسالة النفس ، لابن رشد : ٥٣٩
رسالة الوداع ، لابن باجة : ٣٣٧ ،
٣٣٨ — ٣٤١

(ص)

- صحيح البخارى : ٣٩٤
صحيح مسلم : ٣٩٤
الصديق والمحجوب ، لرايموندو لوليو :
٥٤٣
صفة قرطبة وخطوطها ، لأحمد بن محمد
الرازى : ١٩٧
الصلة ، لابن بشكوال : ٧١ ، ٢٧٣
* الصلة الإسيانية : ١٩٨
صلة الصلة ، لابن الزبير : ٢٧٦

(ط)

- الطالع السعيد في تاريخ بنى سعيد ، لعل بن
سعيد : ٢٤٧
الطبقات ، لابن أبي دليم : ٤٢٠
طبقات الأمم ، لصاعد الطليطلى : ٢٣٩ ،
٣٣٢
طبقات الأولياء ، لعمر بن نور الدين : ٤٠٠
طبقات أئمة الفقهاء ، لابن فيره : ٤٠٢
طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي : ٢٣٧
طبقات كتاب الأندلس ، للأقشيتين : ٥٠
طبقات المحدثين ، لابن فيره : ٤٠٢
طبقات النحويين واللفويين ، لابن خزرج :
٢٧٥
الطبيعة ، لابن سينا : ٥٣٧
طبيعة العدد ، لمسلم المجرىطلى : ٤٤٩
طرفة مصر في تاريخ دولة بنى نصر ، لابن
تقطيب : ٢٥٨
طريقة عمل الاسطرلاب ، لقرطبي : ٤٥٢
طوق الحمامة لابن حزم : ١٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
٢١٤ ، ٢٢٩ — ٢٣٦

(ح)

- العالم ، لأبي على القالى : ١٧٣

- سطح الجمان وسقيط المرجن ، لابن الإمام :
٢٩٩
سطح الآلى ، للبكرى : ٣١١
السندباد : ٢٨ ، ٥٧٤ ، ٥٨٠ ،
٥٨٢ ، ٦٢٦
السنن الأبين والمورد الأمن ، لابن رشيد
السبقى : ٤٠٢
السنن وأحكام القرآن ، لقاسم بن أصبغ :
٩٣٥
سنن الصالحين ، للبايى : ٤٢٦
سنن المنهاج وترتيب الحاج ، للبايى :
٤٢٥
سيرة النبي ، لابن هشام : ٣٣

(ش)

- الشجرة ، لابن مفرج : ٢٨٥
شجرة الحكمة ، لصاعد بن فتون : ٣٣١
شرح آية الوصية ، للسهيلى : ٣٩٩
شرح أسماء العقار ، لابن ميمون : ٤٧٤
شرح ابن بدرون للقصيدا العبدونية : ١١٩ ،
١٧٨
شرح فى الجمل ، للسهيلى : ٣٩٩
* شرح الرمز ، لرايموندو صرتين : ٥٤١
شرح كتاب الحكم ، لابن عباد : ٣٩٠
شرح لرسالة الحيوان ، لابن رشد : ٣٥٥
شرح المنهاج ، للبايى : ٤٢٦
شرح للوطأ ، للبايى : ٤٢٥
شعر الخلفاء من بنى أمية ، لعبد الله بن مغيث
الأنصارى : ٢٨٦
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة : ٣٥
* شعر عرب إسبانيا وصقلية وفنهم ، للبارون
دى شاك : ٥٠
شفاء الأمراض فى انتهاك الأعراض ، لابن
فرج الإلبيرى : ١١٣
الشفاء بشريف حقوق المصطفى ، للعقرى :
٢٨٣

(ف)

- فتح مصر والأندلس ، لابن عبد الحكم :
١٩٦
الفتوحات المسكية ، لابن مربي : ٣٧٦ ،
٣٧٧ — ٣٧٩ ، ٤٤٧
الفرائض ، لموسى بن ميمون : ٥٠٢
فرحة الأنفس ، لابن غالب : ٢٤٠
* فردوس دانق : ٥٥٥
فصل المغال ، لابن رشد : ٣٥٧
الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم :
١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢١ — ٢٢٩
القصص ، لصاعد البغدادي : ٦٧
قصص الحكم ، لابن مربي : ٣٧٦
فضائل أهل المغرب ، لابن حزم الفانقي :
٢٤٢
فضائل بني أمية ، لقاسم بن أصبغ : ٢٩٥
فضائل قرين ، لقاسم بن أصبغ : ٣٩٥
فضل النحر ، لأبي حيان القرطبي : ١٨٩
فقهاء قرطبة ، لابن عبد البر التري : ٢٦٧
الفلاحة ، لابن العوام : ٤٧٥ — ٤٧٨
فهرست ابن خير : ٢٦٦ ، ٢٨١
* فهرس المدونات في المكتبة المسكية بمدرسة :
١٩٧
فوات الوفيات ، لابن شاكر السكتي :
٣٨٨
الفوائد الفقهية ، لابن حرب : ٤٢٩
الفوائد المنتخبة ، لابن الحكيم الخمي :
٢٨٢
الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة ، لابن
يشكوال : ٢٧٤

(ق)

القبالة : ٢٨ ، ٥٧٤

- العالم ، لمحمد بن أبان بن سيد الخمي :
١٨٩
العبر وديوان المتدا والخبر ، لابن خلدون :
٢٦٠
مقالة المنجز وبداية المستوفز ، لصفوان بن
إدريس : ٢٩٩
* المجانب ، لرايموندو لوليو : ٥٨٢
عدة المستنجز وعقلة المستوفز ، لملي بن
سعيد : ٢٤٧
العقد الفريد ، لابن عبد ربه : ٨ ، ١٥٣ ،
١٦٩ — ١٧٢
العلوم الفاخرة ، لابن مخلوف : ٥٦٦ ،
٥٧٠
العمدة ، لابن رشيق : ٣٩
عنوان المرقصات ، لملي بن سعيد : ٢٤٦
* مود على ملحمة رولان ، ليواسوناد :
٦١١
عيون الأثر ، لابن سيد الناس : ٤٠٠
عيون الإمامة ونواظر السياسة ، لأبي طالب
المرواني : ٢٧٥
عيون الأنباء ، لابن أبي أصيبعة : ٤٧٩
العيون (أو الفنون) الستة في أخبار سبعة ،
لعيان بن موسى : ٢٨٣

(غ)

- * غابة الطالمة المتنوعة ، ليروميشيا : ١٦٩
غاية الحكيم ، لمسلم المهرجلي : ٤٤٩
غرائب أخبار السندين ، لابن الطليسان :
٢٨٢
غرائب حديث مالك ، لقاسم بن أصبغ :
٤٢٠
الغرة الطالمة في شعراء المائة السابعة ، لملي
ابن سعيد : ٢٤٧
الغوامض والمبهات ، لابن فيره : ٤٠٢

الكتاب المنطوقى ، تأليف ابن الأثير :
١١٨ ، ١٧٨ ، وأما : المنطوقى
الكتبة الكامنة ، لابن الحبيب : ٢٥٨
* السكرتيكون ، لبلتازار حراثيان : ٢٨ ،
٦٠١ ، ٦٠٢
كشف الأسرار (الأسرار ٢) عن علم وضع
حروف الجبار ، لفلمدادى : ٤٥٨
كشف الحجاب عن علم الحساب ، لفلمدادى :
٤٥٨
كشف الظنون ، لحاجي خليفة : ٢١٠
الكشف عن مناهج الأدلة ، لابن رشد :
٣٥٧
كلام في الأسطوانات ، لابن باجة : ٣٣٧
الكليات في الطب ، لابن رشد : ٣٥٣ ،
٤٦٩ — ٤٧١
كليلة ودمنة : ٢٨ ، ٥٥٠ ، ٥٧٤ ،
٥٨٠ ، ٥٨١ — ٥٨٢ ، ٥٩٣ ،

٦٢٦

الكامل والتمام ، لابن الميثم : ٤٦٣
* الكند لوكانور ، للدون خوان مانويل :
٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥
* الكوميديا الإلهية ، لداني : ٢٧ ، ٥٤٨ ،
٥٥١ — ٥٧٣
الكون الأصغر ، لابن صديق : ٤٩٨

(ل)

اللاى ، للبكري : ١٧٧
اللاى المنوعة في الأحاديث الموسوعة ،
لسيوطى : ٥٥٧
اللمعة البدرية في الدولة النصرية ، لابن
الخطيب : ٢٥٨
* الليالى العشر ، لبوكاشيو : ٣٠٦ ، ٥٨٠

(م)

المآثر العاصرية ، لابن حيان : ٢٠٨

المدح الملقى في التاريخ المجلى ، لمولى بن سعيد :
٢٤٧
القرآن : ٤٠٢ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ١٧٧ ،
٢١٩ ، ٣٢٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ،
٥٧٤ ، ٥٦٦
قصص الأنبياء ، لثعالبى : ٥٥٣
قصة زياد الكنانى : ٥٩٩
* قصة المارس الفار ، لفرائد صرثيث :
٥٩٨
القصيدة المبدئية ، لابن عبيدون : ١١٨
القصيدة المفصورة ، لحازم القرطاجنى : ١٣٣
قلائد العيان ومحاسن الأعيان ، لابن خافان :
١٢٥ ، ٢٩٧ ، ٣٣٦
قول في اتصال العقل بالإنسان ، لابن باجة :
٣٣٨

(ك)

* الكافر والعلماء الثلاثة ، لرايموندو لوليو :
٥٥٠ ، ٥٥٠
الكافية الشافية ، لابن مالك : ١٨٧
الكامل ، لأبى العباس المبرد : ١٨٩
كاثنة ميورقة وقلب المدو عليها ، للمنزوى :
٣٠٥
الكتاب الحزرى ، لهالقي : ٢٦ ، ٥٥٠ ،
٥٥٠ ، ٥٥١
الكتاب الرجارى ، للإدريسى : ٣١٣
* الكتاب السعيد في عجائب الدنيا ، لرايموندو
لوليو : ٥٥٠
* الكتاب انشوقى ، لعيسى بن حابر : ٥٠٨
كتاب العين ، للخليل بن أحمد : ١٨٩ ،
١٩٠
كتاب في جمع ما يتضمنه كتاب مسلم البخارى
والموطأ والسنن والنسائى والترمذى ،
لهروى : ٣٩٦

- للرشد في الكحل ، للشافعي : ٤٧٢
مراكز الإحاطة ، لبد الدين البشتكي المصري :
٢٥٧
مروج الذهب ، للمسعودي : ٥٩٢ ، ٥٩٣
الزهر في علوم اللغة ، للسيوطي : ٣٣
الساحة المجهولة ، لأحمد بن نصر : ٤٤٧
مسالك إفريقية وممالكها ، للوراق : ٣٠٩
المسالك والممالك ، للبكري : ٣١٠
المستجد من فعاتل الأجواد ، للفتوحى :
٢٨٧
المستقصية ، لابن مزين : ٤٢٠
المستلحق ، لابن جناح : ٤٨٩
مسند ابن أبي شيبة : ٤٠٧
المسهب في غرائب الغرب ، للحجباري :
٢٤٣ ، ٢٧٢
مشاهد الأسرار ، لابن عربي : ٣٧٥
المشتمل في الشروط ، لابن أبي زمنين :
٤٢١
المشرق في حل المشرق ، لعلي بن سعيد :
٢٤٥
المطرب من أشعار أهل المغرب ، لابن
هحية : ٢٨٤
مطمح الأنفس ومسرح التأمل ، لابن
خاقان : ٢٩٧
المنظرة : ١٦
المعارف ، لابن قتيبة : ٣٢٤
المعارف في أخبار كورة البيرة ، لابن مطرف
الفساني : ٢٨٦
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، لعبد الواحد
المراكشي : ٢٤٨
معجم الأدياء ، لياقوت : ٣٣
المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي ،
لابن الأبار : ٢٧٤ ، ٢٧٩
معجم المستعجم ، للبكري : ٣١٠
المعرب في عاين المغرب ، لابن حزم
الشافعي : ٢٤٢

- ما بعد الطبيعة ، لابن رشد : ٣٥٩
ما وراء الطبيعة ، لابن سينا : ٥٣٧
المباحث الشرقية ، لفخر الدين الرازي :
٥٤٢
المتين ، لابن حيان : ٢٠٩ — ٢١٠
* محادثة الحمار للأب أنسيلمو تورميديا :
٥٨٧ — ٥٩١
مجموع في رجال الأندلس ، لابن سيدال :
٢٧٥
* مجموعة مخطوطات خيل : ٥٩٥
عاشن المجالس لابن العريف : ٣٩٦
محاضرات الأبرار ، لابن عربي : ٣٧٩
المجاورة والمناكرة ، لموسى بن عزرا :
٤٩٨
الحكم والمحيط الأعظم ، لابن سيده : ١٦٠
المحلي في الخلاف العالي في فروع الشافعية ،
لابن حزم : ٢١٩
مختار الآلى ، لابن جبرول : ٤٩٤ ، ٥٠١
مختصر ابن عبد الحكم : ١١
المختصر في لمن العامة ، لابن حرب : ٤٢٩
مختصر كتاب العين ، للزبيدي : ١٨٩
مختصر المختصر ، للبايجي : ٤٢٦
المختص في اللغة ، لابن سيده : ١٧ ،
١٩٠
مدارك الحقائق ، لابن المقرئ : ٤٢٨
المدخل إلى صناعة النطق ، لابن طملوس :
٣٦٣ — ٣٦٦
المدخل إلى الهندسة ، لسلمة الجرجي :
٤٤٩
المدونة ، لسجنون بن سعيد : ٤١٥
* مدونة برغش : ٧٠
مدونة ابن أبي زمنين : ٧١
* المدونة المستمربة : ١٩٨
* مرشد الحياة الإنسانية ، ليوحنا دكاپوا :
٥٨١

بطليطة ، لابن مظاهر : ٢٧٤
منح المدح ، لان سيد الناس : ٤٠٠
المن بالإمامة على المستضعفين ، لابن صاحب
الصلا ، البرقي : ٢٤٢
منهاج السداد ، لابن المقرئ : ٤٢٨
مواقع النجوم ، لابن عربي : ٣٧٣
موطأ مالك : ٣ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٧٦
ميران العدل ، لابن رشيق : ٢٨٢
ميزان العمل ، للغزالي : ٥٠١
* ميلو ، لاثيو دثندوم : ٥٨٤

(ن)

الناسخ والمنسوخ ، لغام بن أصبغ : ٣٩٥
النبات ، للبكري : ٣١١
النبراس في ذكر خلفاء بني العباس ، لابن
دحية : ٢٨٤
نبح الحياة ، لابن جبرول : ٢٦ . وانظر :
ينبوع الحياة
* النبوات ، لتورميديا : ٥٨٧
النجم من كلام سيد العرب والعجم ، لابن
الأقلبيشي : ٣٩٩
نخبة الاختيار من أشعار ذى الوزارتين
أبي بكر بن عمار ، لابن بسام : ٢٨٩
نزهة البصائر والأبصار ، لأبي الحسن
النباهي : ٢٥٢
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، للإدريسي :
٣١٣
نظام المرجان في المسالك والممالك ، لابن
الدلال : ٣١٥
النظر والعمل ، لزهراوي : ٤٦٦
نقح الطيب ، للمقرئ : ٢٢٠ ، ٣٠٣
التفحة المسكية في الرحلة المسكية ، لمل بن
سعيد : ٢٤٧
النفس ، لابن سينا : ٥٣٧
النفس ، للإسكندر الأفروديسي : ٣٣٨

معيان الاختيار ، لابن الخطيب : ٢٥٨
المغرب عن عجائب المغرب ، لأبي حامد
الفرناطلي : ٣١٢
المغرب في اختصار المدونة ، لابن أبي زمين :
٤٢١
المغرب في حلى المغرب ، لعلي بن سعيد
المقرئ : ١٣٥ ، ١٧٧ ، ٢٤٥
المغني في الطب ، لابن البيطار : ٤٧٩
المفاضلة بين سائفة وسلا ، لابن الخطيب :
٢٥٩
المفتاح ، للقي التبان : ٤٩٨
مقاصد الفلاسفة ، للغزالي : ٥٣٨
مقال في البرهان ، لابن باجة : ٣٣٧
* مقالات في الأخلاق والسياسة ، لبيكون :
٢١٧
مقامات الحريري : ١٨٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ،
٥٩٢
المقتبس ، لابن حيان : ٢٠٨ — ٢٠٩
المقتطف من أزهار الطرف ، لمل بن سعيد :
٢٤٦
المقدمات لأوائل كتب المدونة ، لابن رشد
(الجد) : ٤٢٧
المقصورة (القصيدة) ، لحازم القرطاجي :
١٣٣
* مكحلة طائفة محمد ، ليدرو بسكال : ٥٧٢
* المكتبة الإسكورية الربية الإسبانية ،
لميخائيل العزيزي : ٥٢٣
* ملحة السيد : ٦١٢
ملك النحل ، لمحمد بن محمد اللخمي القرناطلي :
١٧٩
ملوك الأندلس ، لابن ينق : ٢٧٢
الممالك ، للإدريسي : ٣١٣
منه الجعارة ، لجودي بن عثمان : ١٨٥
المنتخب ، لابن لبابة : ٤٠١
منتخب كتاب جامع المقدرات ، لغافقي :
٧٤٣ — ٤٧٤
المنتخب من تاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة

١٧٧
واسطة السلوك ، لأبي هو موسى بن يوسف :
٥٧٨
الواصفة ، لعبد الملك بن حبيب : ١٩٤ ،
٤١٦
الوثائق المستعملة لابن مقيث : ٤٤٣

(ي)

يلبوع الحياة ، لابن جبيرول : ٢٢٦ ،
٥٣٨ ، ٤٩٣
اليواقيت والجواهر ، للشمراني : ٥٦٧
يقيمة الدهر ، لثعاللي : ٣٩ ، ١٢٥

نقط العروس ، لابن حزم : ٢٢٠
النكت ، لأبي القوت الصنعاني : ٦٦
نهاية الأرب ، للنوري : ٢٥١
نواذر اللغة ، لأبي علي القالي : ١٨٩ ، ١٨٩
نية ابن زيلون : ٨٣

(هـ)

الهداية إلى فرائض القلوب ، لبجيا بن فاقوذا :
٥٠٩ ، ٤٩٤ — ٤٩٧ ، ٥٠٩
هزار افسانه : ٥٩٢

(و)

واجب الأدب ، لموسى بن محمد الصفي : ٥٩٢

ب — كتب إفريقية أو وردت بغير العربية

- An abridged version of the Book of Simple Drugs*; M. Meyerhof and G. Sobhy : ١٧٢
- Antología Española*; Pascual de Gayangos : ٥٩٣
- Antologia de poetas líricos Castellanos*; Menéndez Y Pelayo : ٦١٤
- Die arabische Literatur der Juden*; Moritz Steinschneider : ٤٨٩
- Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis*; Michaelis Casiri : ٥٣٣ ، ٤٨١
- Blanquerna*; Raymundo Lullo : ٥٤٩ ، ٥٤٣
- Le Calendrier de Cordou de l'année 961*; R. Dozy : ٤٨٨
- El Cancionero de Aben Cuzman*; Nykl, A.R. : ١٦٢
- El Cancionero de Baena* : ٦٢٨
- El Cancionero de Palacio* : ٦٢٧
- El Cancionero General de Hernando del Castillo* : ٦٢٩
- Catálogo de Crónicas de la Real Biblioteca* : ١٩٧
- Chronicon Burgeuse* : ٧١
- Cobles del Regne de Mallorca*; Turmeda : ٥٨٧
- El Collar de Perlas*; Gaspar Rimero : ٥٧٨
- Continuatio Hispana* : ١٩٨
- Convita*; Danti : ٥٧٣
- Coplas del Albichante de Puey Monzón* : ٣١٩
- Lus Coplas del Peregrino de Puey Monzón*; Mariano de Pano Y Ruata : ٥٢٤
- Die Cordovaner Arib ibn Su'd der Sekretar und Rabbin Zaid der Bischof*; Dozy : ٤٨٨
- El Criticón*; Gracián : ٦٠١
- La Crónica General de España*; Alfonso X : ٥٧٤ ، ٥٧٢
- Crónica Mozárabe* : ١٩٨
- La Crónica Sarracina*; Pedro del Corral : ١٩٨
- Disciplina Clericalis*; Pedro Alfonso : ٢٨
- Disertaciones y Opúsculos*; Juan Ribera : ٦١٠
- Disputa del asno contra fray Anselmo de Turmeda* : ٥٨٧
- La Escatología Musulmana en la Divina Comedia*; Asín Palacios : ٥٥٢
- La Escuela de traductores de Toledo*; G. Menéndez Pidal : ٥٧٩
- Esquisse d'histoire de la pharmacologie chez les musulmans d'Espagne*; Meyerhof : ٤٧٢
- Estudios sobre Azraqiel*; Millas Vallicrosa : ٤٥١
- Estudio sobre la invasión de los Arabes*; E. Saavedra : ٤٨٨
- Estudios y discursos de crítica histórica y literaria*; Menéndez Y Pelayo : ٥٥٠ ، ٥٥١
- Fons Vitae*; Dominicus Gundissalinus : ٤٩٣

- Georges Dandín; Molière* : ٥٨٠
Gesch der arabischen Aerzte; Wues-
enfeld : ٤٧٢
- Die hebraische Uebersetzungen. . .;*
Steinschneider : ٥٠١
Al-hidaja ila Fara-id al Qulub;
A. S. Yahuda : ٤٩٦
Histoire des sciences mathématiques
en Italie; Guillermo Libri : ٤٨٨
Historia de la literatura espanola;
M. G. Ticknor : ٥٧٩
Historia del caballero Cifar; Ferrand
Martinez : ٥٩٨
Historia de los Heterodoxo Espano-
les; Menéndez Pelayo : ٥٤٠
Historia de los Mozárabes de Espana;
Francisco Javier Simonet :
 ٤٨٨, ٤٨٦
Historia del Príncipe Erasto; Pedro
Hurtado de la Vera : ٥٨٢
A History of Medieval Jewish Philo-
sophy; Isaac Husik : ٥٠٠
Huellas del Islam; Asín Palacios :
 ٥٨٧, ٥٤٧
- Ibn al-Sid de Badajoz y su libro de*
los cercos; Asín Palacios : ٣٣٥
Ibn Masarra y su Escuela; Asín
Palacios : ٥٤٧, ٥٤٥
The Improvement of Moral Qualities:
St. Wise : ٤٩٤
La Impunación de la secta de Ma-
homa; San Pedro Pascual : ٥٧٢
- Kitab Tabakat al Umam; R. Bla-*
chère : ٤٤٦
- Leyendas de José hijo de Jacob y de*
Alejandro el Magna; F. Guillén
Robles : ٥٢٧
Libre de bons ensenyaments; Tur-
meda : ٥٨٧
- Libre Felix de les meravelles del*
món; Raymundo Lullo : ٥٥
El Libro de Buen Amor; El Arcip-
reste de Hita, Juan Ruiz : ٦٢٥
El Libro del Amigo y del Amado:
Raymundo Lullo : ٥٤٩
El Libro del Gentil y los Tres Savis;
Raymundo Lullo : ٥٥٠
Il Libro della Scala e la questione
delle fonti árabe-espagnole della
Divina Commedia; Enrico Cerulli
 ٥٥١
Libro del Tártaro y del Cristiano;
Raymundo Lullo : ٥٥٠
Libro de los Estados; Don Juan
Manuel : ٥٠
Libro de los Exemplos; Sánchez de
Vercial : ٥٨٠
La Lirica de Las Trovadores;
Martin de Riquer : ٦١٦
El literalismo de los traductores
de la corte de Alfonso el Sabio;
J. Millas Vallicrosa : ٥٧٦
Le livre de l'agriculture d'Ibn al-
Awam, trad. Clement-Mullet
 : ٤٧٥
- Manuscritos aljamiados de mi Coll-*
ección; Pablo Gil : ٥٢٩
Manuscritos Arabes y Aljamiados
de la Biblioteca de la Junta; J.
Ribera y M. Asín : ٥١٣
Mélanges de philosophie juive et
arabe; Salomon Munk : ٤٩٣
Memorial Histórico Espanol; Ed-
uardo Saavedra : ٥٠٨
Los Milagros; Gonzalo de Berceo :
 ٥٩٦
Milo; Mathieu de Vendome : ٥٨٤
Notas sobre los traductores toled-
anos Domingo Gundisalvo y Juan
Hispano; P. Manuel Alonso : ٥٣٨

- De nouveau sur la Chanson de Roland*; Boissonade : ٦١١
- Opusculs et Traités d'Abou'lWalid Merwan ibn Djanah de Cordoue*; Joseph et Hartwig Derenbourg : ٤٩١, ٤٨٩
- Origenes de la novela*; Menéndez Pelayo : ٥٩٣, ٥٨٣, ٥٢٥
- El original Árabe de la disputa del asno contra fr. Anselmo Turmeda*; Miguel Asín Palacios : ٥٨٨
- Les origines de la poésie lyrique en France au moyen-âge*; Jeanroy : ٦١٥
- Patrición de Herencias entre los Musulmanes del Rito Malequi*; José A. Sánchez Pérez : ٤٥٨
- Poemas Arabigo-Andaluces*; Garcia Gomez : ٣٠
- Poesía árabe y poesía europea*; Menéndez Pidal : ٦٢٧, ٦١٥
- La poesía heroicopopular Castellana y el Mester de la Clercía*; Manuel de Montoliu : ٥٩٦
- Poesía Medieval*; Luis Gonzalez Simon : ٥٩٦
- La Poesía Sagrada Hebraicoespañola*; José M. Millas Vallicrosa : ٥٠١, ٤٩٩, ٤٩٨
- Poesía y arte de los Arabes de España y Sicilia*; Von Schack : ٥٠
- La poésie Andalouse en Arabe Classique au XI Siècle*; Henri Pérès : ٣١
- La poésie arabe anté-islamique*; René Basset : ٣٠
- Proemio*; El Marqués de Santillana : ٢٩٩
- Las Profecías*; Turmeda : ٥٨٧
- Prolegomena zu einer erstmaligen Herausgabe des Kitab al-Hidāya ilā Fara'id al Qulub*; A. S. Yahuda : ٤٩٧
- Proverbes arabes de l'Algérie et de Maghreb*; Mohammad Ben Che-neb : ١٦١
- Pugio fidei*; Raymundo Martin : ٥٤٠
- Qasidas de Andaluza*; Garcia Gomez : ٣٠
- El recontamiento de Al-Micded y Al-Mayesa*; Marianode Pano : ٥٢٨
- Recuerdos de Valladolid*; Alonso de Zori a : ٥٩٧
- Selected poems of Moses ibn Ezra*; H. Brody : ٤٩٨
- Selomo ibn Gabirol com poeta y filósofo*; Millas Vallicrosa : ٤٩٤
- Silva de varia lección*; Pero Mexia : ١٦٩
- The Sources of el Cavallero Cifar*; Charles Philip Wagner : ٥٩٨
- Speculum historiale*; Vincent de cauvais : ٥٨١
- La Théologie Ascétique de Bahya bn Paquda*; Georges Vajda : ٤٩٤
- Vies des dames galantes*; Brantôme : ٥٨٤
- Vita Nova*; Dante : ٥٧٣, ٧٥

٣ - فهرست المصطلحات

(١) مصطلحات عربية أو وردت بالعربية

الإمبراطورية البيزنطية : ٦١١
الإمبراطورية الرومانية : ٦١٣
الأمويون : ٣٨ ، ٢
أنشودة رولان : ٦١٠
الأوزاعية : ١٩٣
* أوك (لغة) : ٦١٤
أولاد الناس : ٥٩٩
* لميدوم : ٤٩٤

(ب)

الباطنية : ٣٣٠ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤
* البالاتا (ضرب من الشعر الأوروبي) :
٦٢٠
* اليزمون (فن شعري عبري) : ١٥٥
البصريون : ١٧٢

(ت)

التاريخ (في الأندلس) : ٢٢ ، ٢٣ ،
٣٠٦ - ١٩٣
تاريخ الأدب : ٢٨٥ - ٣٠٤
التاريخ الطبيعي : ٣١٩
التاسوعات : ٣٢٩
التأليف العلمي : ١٦
التأليف المرسوعي : ٨
التجيبون (أصحاب سرقسطة والشر الأهل) :
١١٠

(١)

الآناسات الثلاث (موضوع شعري) : ٧٣
الآباضية (فرقة من فرق الحوارج) : ٣٢٤
الاتجاه الشعبي الخارج (في الشعر الأندلسي) :
١٤٢ - ١٦٦
إخوان الصفاء : ١١ ، ٥٨٨
الأدب (فرع من فروع الثقافة العربية) :
١٥ ، ١٦٧ - ١٨٢
الأدب الحميادي = الأدب المستعجمي : ٢٥
الأدب العبري : ٤٨٩
أرجوزة : ٥٦ ، ٥
الأساطير الإسلامية : ٢٧
الإسراء : ٥٥١
الإسكولاستيون : ٣٣٢ ، ٣٣٨ ، ٣٤٧ ،
٣٥٣
الأسلوب الحفاجي (في الشعر) : ١٢٤
الاعتزال : ١١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧
الأعراف : ٥٦٦
الأغاني الإسبانية : ٢٨
* الأغاني الكرشالية : ٦٢٠
الإغريق : ٣٢
الأغصان : انظر غصن
الإقطاعيون : ٦٠٨
* ألباتا : ١٥٥
الألبادا : ١٦٣
الألبافا : (موضوع شعري) : ١٥٥

المصطلحات التي بجوارها هذه العلامة (*) موجودة أيضاً في فهرست المصطلحات
الإفرنجية .

(خ)

- الخرجة : ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ٦١٥
الخصوم : ٤٣٠
الخيادية : انظر أيضا : كتابات المستعجبين :
٥٠٧
الحوارج : ٣٢٤

(د)

- الدراسات التلغودية : ٩ ، ٢٦ ، ١٠٧
الدراسات العبرية : ٩ ، ١٥
الدولة الأموية : ٧
دولة عالية : ٧
الدولة المبادية : ١٠٦
ديوان التحقيق : ٥٠٧
ديوان النداء : ٦٥

(ر)

- الرافضة : ٢٨٢
رمضان ، شهر : ١٦٢
روضيات ابن خفاجة : ١٢٤
الرياضيات : ٨ ، ١٧ ، ٢٢

(ز)

- الرجل : ٨ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ،
١٦٦
زجل لمسياني : ١٥١
الرجال والزحلون : ١٥٦ — ١٥٧ ،
١٥٨
الزرقالية : ٤٥١
الزندقة : ٢١
الزهريات : ٧٣

(س)

- السمط والسموط : ٣٢ ، ١٤٣

تحرير العقود : ١٧

التخميس : ٨٦

التراجم : ٢٢

* التروبادور : ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٦١٣ ،

٦١٥

* التروثير : ٦١٣

* التسيبغات اللاتينية : ١٥٥

التشريع : ٢

التصريق : ٣٣٠

التصوف : ٣٧١ — ٣٩٠

التصغير (في الأزجال والوشحات) : ١٥٦

التنزل : ١٦٢

التفسير : ٩

تواريخ النواحي : ٣٠٤ — ٣٦٠

(ث)

التيوصوفية : ٤٦

(ج)

الجاكارا : ٥٨٤

* جامع مفردات : ٦٢٥

الجرمات : ٦١٣

الجغرافية : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠٩ — ٣١٩

الجوارى الفلاميات : ٣٩

(ح)

الحب الأفلاطوني : ٤٣

الحب المذري : ٤٣

الحديث : ٩ ، ٢٢ ، ٣٩٣ — ٤٠٢

* حرب الاسترداد ، (لاريكونكيستا) : ٢٧

الحروب الصليبية : ٥٩٥

الحضرة والحضرات : ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧

حكومات اللديات : ١٣

حي الريم : ٤٦٥

(ط)

الطاب : ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٦١
الطوائف : ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٨٧ ، ١٠٠ ،
١١٧ ، ٢٠٧ — ٢٤١ ، ٣٣٢ ،
٤٢٦ ، ٤٥٠
الطويلة (لباس للرأس) : ٩٢

(ظ)

الظاهرية (مذهب) : ٩ ، ١٤ ، ٢١٥ ،
٢٣٧

(ع)

العامة : ١٢
العباسيون : ٢ ، ٣٨ ، ٥٩
العجمية : ١٤٢
عصر الإمارة : ٥٠ — ٥٨ ، ٦١
عصر الخلافة : ٥٩ — ٧٩ ، ١٩٣ —
٢٠٧
عصر الطوائف : ٧٩ — ١٢٣
العصر القوطي : ٣٢٣
عصر الولاة : ١
العصور الوسطى : ٢٩ ، ٣١٤ ، ٣٣٦ ،
٣٣٨ ، ٣٥١ ، ٤٦٩ ، ٤٨٨ ،
٥٥٠ ، ٥٧٩ ، ٥٨٥ ، ٥٩١ ،
٥٩٨ ، ٦١٤ ، ٦٢٧
العلوم الإغريقية : ٢٧
العلوم الدينية : ٩ ، ٢٢
عيد القديس يوحنا : ٢٩
عيد يناير : ٢١

(غ)

الفن والأغصان : ١٤٣ — ١٥٩

المنة : ٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨

سورة يوسف : ٥١٤

(ش)

الشافعيون : ١١
الشافعية : ٤٣١ — ٤٣٩
الشامية : ١
الشرع : ٢٣
الشروط : ٢٨٢
الشعر : ٢ ، ١٩ ، ٣٠ — ١٦٦ ،
٦١٣ — ٦٣٠
الشعر البروقنسي : ١٦٣ ، ٥٣٥ ، ٦١٤ ،
٦١٥
الشعر الجاملي : ٣١ — ٣٧ ، ٦٦
الشعر العبري : ٢٦
الشعر العبري الحديث : ٤٨٩
الشعر الثنائي : ١٢ ، ٢٩
الشعر القصيح : ٥٠ — ١٤٢
الشعر القديم المجدد : ١٢٤
الشعر القصص : ٤١ ، ٦٠٣ — ٦١٣
شعر الملاحم : ٢٨ ، ٤١
الشعراء : ١٢ ، ١٧
شعراء بلاط : ٦
الشعبة : ٦

(ص)

الصعاليك ، قصص : ١٨ ، ٥٩٢
الصفرية : ٣٢٤
الصفحية : ٤٥١ ، ٤٥٢ — ٤٥٣ ،
٥٧٦
الصقالبة : ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣
الصوفية : ٣٢٧ ، ٣٣٢
الصيدي (نوع من النسيج) : ١٩٤

العنوس : ٢٢٠

الفنوصية : ٣٢٩

(ف)

الفابليو : ٥٣٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨٤ ، ٦١٠

الفاطميون : ٧

فتح الأندلس : ١٩٥

الفتنة الكبرى : ١٣

فتنة النصاري : ٣

* الفجريات (موضوع شعري) : ١٥٥ ،

٦١٩

* القَرَائِل : ٥٨٦

الفرسية العربية : ٦

الفقرات ، في الزجل والموشحة : ١٣٧

الفقه : ٢٢٤ ، ٢١٨ ، ٤١٣ — ٤٤٣

الفقه الشافعي : ٩

الفقه المالكي : ٩

الفقهاء : ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ،

١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ،

٩٥ ، ١٠٠ ، ١٦٦ ، ٢٧٣ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٤٤٧ ، ٤٣١

فدهاء مالكيون : ١٢

الفلسفة : ٨ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٢ ، ٢٣ ،

٦٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ — ٣٩٠ ،

٤٥٠ ، ٥٣٦ — ٥٧٣

الفلك : ٨ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ،

٣٤٨ ، ٤٤٧

(ق)

القراءات : ٩ ، ٤٥٥ — ٤٠٩

القشتاليون : ٧

قصر الخلافة : ٨

القصاصد الوثنية : ٣٣

قصص الإسماعيلي : ٢٨

القصص الأندلسي : ٢٩

* قصص الصعاليك : ١٨ ، ٥٩٢

القصة الفلسفية : ٢٨

القضاء في الأندلس : ٢٧٠

قضاة الأندلس : ١٩٥

القفل (في الزجل والموشحة) : ١٥٩

القفلة (في الزجل والموشحة) : ٦١٥

القوط : ٥٩٨

القيسة : ١

(ك)

الكتا واكتا : ٤٦٤

* كدار (لغة) : ٤٩٤

* الكنتيجات : ٢٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٣

* الكوتراستو : ٦١٩

(ل)

اللغات الرومانية : ٢٩

اللفة الدارجة : ٦

* الالهجات الرومانية : ٦

اليوثيون : ٧

(م)

المالكيون : ٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

للالكية : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٤ ، ١٩٣

التصوفة : ٢٣

المدائح للفدسة : ٦٢٠

للدرة الفرنسكية : ٥٤٧

المدح : ١٢ ، ١٣٦

المذهب الشافعي : ٧

المذهبات : ٣٢ ، ٣٣

المرابطون : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ،

٢١ ، ٢٣ ، ٥٥ ، ٩٧ ، ٩٩ —

(ن)

- النبايا : ٢٣
 النبريون : ٧
 النحو : ٢٢ ، ٢٣ ، ١٨٥ — ١٨٨
 النحو العبري : ٢٦
 النصاري : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٦ ، ٩١ ،
 ١٠٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٨١ ،
 ٢٧٧ ، ٣٣٢ ، ٤٥٧ ، ٤٨٥ ،
 ٥٠٧ ، ٥١٩ ، ٥٣٥ ، ٥٤٣ ،
 ٥٧٣ ، ٥٩٩ ، ٦١١
 نظرية الحقيقتين : ٥٤٠
 النقد الأدبي : ٢٢
 نكاح النعمة : ٣٣١
 النهضة الإغريقية : ٢٢
 التورمان : ٨٩ ، ٩٧ ، ٦١٩

(هـ)

هيج الرطب : ٣

(و)

وثائق : ١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٤١

(ي)

- اليانية : ١
 اليهود : ٩ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٨ ،
 ١٨١ ، ٣٣٢ ، ٤٥٧ ، ٥٤٠ ،
 ٤٨٨ — ٥٠٣ ، ٥٧٣
 اليهودي التائه : ٣٧٢

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ،

١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ —

١٢٥ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٣٣٢

المركز (في الزجل والموشحة) : ١٤٣

المروانيون : ٧٢ — ٧٤

المريدون : ٣٣٢

المتجمون (كتابات) : ٥٠٥ — ٥٢٩

المستعربون : ٥٩ ، ٦٠ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٥٩

١٢٦ ، ١٥٦ ، ٤٨٥ — ٤٨٨

معاجم الرجال : ١٢

معاجم اللغة : ١٨٩ — ١٩٠

المتزلة : ٤٣٦ ، ٣٣٠

المراج : ٥٧٢ ، ٥٥١

المعلقات : ٣١ — ٣٤

مكتبات قرطبة : ١٣

مكتبة القصر : ١٠ ، ١٢ ، ٦٥

الملكية : ٣٣١

الملكية الأدبية : ٥٩١

الملكية العقارية : ٢١٢

* المن : ٦١٤

* المنيزنجير : ٦١٣

المهدى : ٧

الموالي : ٥٥ ، ٧

الموالي : ١٥٧

الموحدون : ١٩ ، ٢٣ ، ٥٥ ، ١١٥ ،

١٢٦ — ١٣٧ ، ١٦٥ ، ٢٧٧ ،

٥٣٦

* الموريسكيون : ٢٥ ، ١٦٦ ، ٣١٩ ،

٥٩٥ ، ٥٥٧

الموسيقى الأندلسية : ٢٨ ، ٢٩

الموسيقى العربية : ٦١٤

الموشحة : ٦ ، ٢٩ ، ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٤٣ ،

١٥٣ ، ١٥٥

(ب) مصطلحات إفرنجية

Albada : ٦١٩ ، ١٥٥	Kedar : ٤٩٤
Albata : ١٥٥	Laudes sacras : ٦٢٠
Ballata : ٦٢٠	Minne : ٦١٤
Cantigas : ٦١٣ ، ٥٧٤	Minnesaenger : ٦١٤
Cantos carnavalescos : ٦٢٠	Los Moriscos : ٥٠٧
Comitatus : ٦١٢	Novela picaresca : ٥٩٢ ، ١٨٠
Comes : ٦١٢	Oc : ٦١٤
Contrasto : ٦١٩	Pizmón : ١٥٥
Coplas : ١٣٢	La Reconquista : ٢٧
Dignitates : ٥٤٧ ، ٥٤٥	Responsorio latino : ١٥٥
Edom : ٤٩٤	Romance : ١٤٢
Estudio : ٥٧٤	Romances : ٥١٩
Fabliaux : ٦١٠ ، ٥٨٠ ، ٥٣٦	Troubadors : ٦١٣
Fraile : ٥٨٦	Troveros : ٦١٣
Glosario : ٦٢٥	

محتويات الكتاب

الفصل الأول

مقدمة تاريخية

ف ١	١
-----	-------	---

الفصل الثاني

الشعر

ف ٢	— الشعر في الجاهلية	٣١
ف ٣	— الشعر العربي بعد الإسلام	٣٨
ف ٤	— الخصائص العامة للشعر الأندلسي	٤٢
ف ٥	— موضوعات الشعر الأندلسي	٤٣

(١) الشعر القصص

١ — عصر الإمارة

ف ٦	— طلائع شعراء عصر الإمارة	٥٠
ف ٧	— زوايا وابشكاراته	٥٢
ف ٨	— يحيى النزال وتعام بن عاتمة	٥٥
ف ٩	— الأمير عبد الله . سعيد بن جودي . شعراء البلاط	٥٧

٢ — عصر الخلافة

ف ١٠	— طلائع شعراء عصر الخلافة	٥٩
ف ١١	— ابن عبد ربه . سعيد بن منقر البلوطي	٦٢
ف ١٢	— ابن هاني . الزبيدي	٦٣

صفحة

١٣	— شعراء النصور ...
١٤	— صاعد البغدادي ...
١٥	— الرمادي ...
١٦	— الوزير أبو الفيرة بن حزم ...
١٧	— ابن أبي زمين . ابن الهندي . حبيب الصقلي ...
١٨	— شعراء الروائيين ...
١٩	— أبو محمد علي بن حزم القرطبي ، جانبه الشعري ...
٢٠	— خصائص الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ...
٧٧	...

٣ — عصر الطوائف

(أ) قرطبة

٢١	— أبو الوليد أحمد بن زيدون ...
٨٠	...

(ب) إشبيلية

٢٢	— المعتضد بن عباد ...
٢٣	— المعتد ...
٢٤	— المعتد وابن عمار ...
٢٥	— اعتاد ...
٢٦	— شعراء بلاط المعتد . ابن حمديس الصقلي ...
٢٧	— شعر المعتد في سموده ...
٢٨	— الرابطون في إشبيلية ...
٢٩	— شعر المعتد في منفاه ...
٣٠	— شهرة الملك الشاعر ...
١٠٥	...

(ج) غرناطة

٣١	— أبو الفتح الجرجاني ، أبو إسحاق الإلييري ...
١٠٧	...

(د) للرية

٣٢	— الوزير أحمد بن حمديس ...
٣٣	— المتصم بن صادق صاحب الرية وشعراء بلاطه ...
٣٤	— آل المتصم ...
١١٣	...

(هـ) يلنسية ومرسية

ب ٣٥ — ابن وهيب . ابن لبر . الوقتى ١١٦

(و) بطليوس

ب ٣٦ — المظفر بن الأملس ١١٧

ب ٣٧ — ابن عبدون ١١٨

(ز) سرقطة

ب ٣٨ — ابن باجة ١٢٢

٤ — عصر المرابطين

ب ٣٩ — ابن خفاجة . ابن الزقاق . أبو الصات الداني ١٢٣

٥ — عصر الموحدين

ب ٤٠ — أبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية . حمدة بنت زياد ١٢٦

ب ٤١ — أبو بكر محمد بن زهر ١٢٩

ب ٤٢ — أبو البقاء الرندي ١٣١

ب ٤٣ — ابن الأبار ١٣٣

ب ٤٤ — علي بن سعيد المغربي ١٣٥

٦ — مملكة غرناطة

ب ٤٥ — ابن الخطيب (كشاعر) ١٣٧

ب ٤٦ — ابن رزمك ١٣٩

صفحة

(ب) الاتجاه الشعبي الدارج

ف ٤٧ — نظرية ريبيرا الجديدة	١٤٢
ف ٤٩ — مقدم بن معاذ البري ، مبتكر الموشحة	١٥٣
ف ٥٠ — أوائل الزجالين	١٥٦
ف ٥١ — ابن قزمان وديوانه	١٥٨
ف ٥٢ — مدرسة ابن قزمان	١٦٤

الفصل الثالث

الأدب

ف ٥٣ — « الأدب » كفن من فنون الفكر العربي في الأندلس	١٦٩
ف ٥٤ — ابن عبد ربّه وكتابه « المقدر الفريد »	١٦٩
ف ٥٥ — أبو علي الفاي . ابن الجسور	١٧٢
ف ٥٦ — أبو بكر الطرطوشي وكتابه « سراج الملوك »	١٧٤
ف ٥٧ — ابن أبي الحصال . ابن عبد البر . ابن الأقطس . ابن اللواعين	١٧٧
ف ٥٨ — يوسف بن الشيخ البلوي المالقي	١٧٩
ف ٥٩ — اللغزون لقامات الحريري والمعلقون عليها	١٨٠

الفصل الرابع

النحو ومعالجة اللغة :

ف ٦٠ — أوائل النحويين الأندلسيين . الزيدى . أبو علي الشلويني . ابن مالك أبو حيان	١٨٥
ف ٦١ — معاجم اللغة	١٨٩

(١) كتب التاريخ العام

١ - عصر الخلافة

١٩٣	ف ٦٢ — عبد الملك بن حبيب
١٩٦	ف ٦٣ — آل الرازي
١٩٨	ف ٦٤ — الأخبار المجموعة
٢٠٢	ف ٦٥ (١) — « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر بن القوطية
٢٠٦	ف ٦٥ (ب) — عريب بن سعد

٢ - عصر الطوائف

٢٠٨	ف ٦٦ — أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان
٢١٢	ف ٦٧ — محمد بن مزين . ابن مسلمة . ابن أبي الفياض
٢١٣	ف ٦٨ — ابن حزم القرطبي
٢١٧	ف ٦٩ — آثار ابن حزم في الفلسفة والعربية وعلوم الدين والتاريخ
٢١٨	ف ٧٠ — في الفقه والأسول
٢١٩	ف ٧١ — في علوم الدين
٢٢٠	ف ٧٢ — في التاريخ
٢٢١	ف ٧٣ — كتاب الفصل
٢٢٩	ف ٧٤ — آثار ابن حزم الأدبية : « طوق الحمامة في الألفة والألاف »
٢٣٧	ف ٧٥ — مدرسة ابن حزم
٢٣٩	ف ٧٦ — أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الطليطلي
٢٤٠	ف ٧٧ — تواريخ الدول

٣ - عصر المرابطين والموحدين

٢٤١	ف ٧٨ — ابن صاحب الصلاة . عبد الملك بن محمد بن علي أبو مروان الباجي
٢٤٢	ف ٧٩ — بنو سميد
٢٤٨	ف ٨٠ — عبد الواحد المراكشي

صفحة

٤ - مملكة غرناطة

- ف ٨١ - ابن الخطيب ٢٥٢
 ف ٨٢ - عبد الرحمن بن خلدون ٢٥٩

(ب) التراجم وفهارس الكتب

- ف ٨٣ - ابن عبد البر والحشي ٢٦٧
 ف ٨٤ - ابن القزويني ، المجازي ٢٧٠
 ف ٨٥ - ابن بشكوال ومصادره ٢٧٣
 ف ٨٦ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاي) ٢٧٧
 ف ٨٧ - ابن خير ٢٨١
 ف ٨٨ - معاجم التراجم الخاصة : القاضي هياض ، ابن دحية .. ٢٨١

(ج) تاريخ الأدب

- ف ٨٩ - طلائع المؤلفات في تاريخ الأدب ٢٨٥
 ف ٩٠ - أبو الحسن علي بن بسام الشنفريني ٢٨٨
 ف ٩١ - ابن خالون (أبو نصر الفتح محمد بن عبيد الله القيسي) .. ٢٩٦
 ف ٩٢ - الشنندي (أبو الوليد إسماعيل بن محمد) ٢٩٩
 ف ٩٣ - ابن الخطيب والمقرئ ٣٠٢

(د) تواريخ النواحي

- ف ٩٤ - أم المؤلفات في هذا الباب ٣٠٤

الفصل السادس

الجغرافية والرحلات

- ف ٩٥ - الوراق . البكري ٣٠٩
 ف ٩٦ - ابن عبد النعم الحميري . أبو حامد الغرناطي ٣١١
 ف ٩٧ - الإدريسي ٣١٢
 ف ٩٨ - ابن جبير ٣١٦
 ف ٩٩ - الصبدي ، الجغرافيون في العصر الغرناطي ٣١٨

الفلسفة واللاهيات

ف ١٠٠ — أصول الفلسفة في الأندلس ٣٢٣

(أ) المدرسة الأفلاطونية الحديثة

ف ١٠١ — محمد بن عبد الله بن مسرة ٣٢٦

ف ١٠٢ — مدرسة ابن مسرة ٣٣٠

(ب) المدرسة المشائية

ف ١٠٣ — عودة الدراسات الفلسفية الى النشاط ٣٣٢

ف ١٠٤ — أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني ٣٣٤

ف ١٠٥ — ابن السيد البطليوسي (عبد الله بن محمد بن السيد التحوي) ٣٣٤

ف ١٠٦ — ابن باجة ٣٣٥

ف ١٠٧ — ابن طفيل ٣٤٨

ف ١٠٨ — ابن رشد : حياته ومؤلفاته ٣٥٣

ف ١٠٩ — آراء ابن رشد الفلسفية ٣٥٨

ف ١١٠ — تلاميذ ابن رشد ٣٦٢

ف ١١١ — الرشدية ٣٦٧

ف ١١٢ — ابن العريفي (أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله بن

العريفي الصنهاجي) ٣٦٩

(ج) التصوف

ف ١١٣ — محي الدين بن عربي ٣٧١

ف ١١٤ — مؤلفات ابن عربي ٣٧٦

ف ١١٥ — الخصائص العامة لمذهب ابن عربي الفيلسوف اللاهوتي ٣٧٩

ف ١١٦ — ابن سبئين ٣٦٨

ف ١١٧ — ابن عباد الرندي ٣٩٠

صفحة

الفصل الثامن

علم الحديث

ف ١١٨ — الحديث والسنة	٣٩٣
ف ١١٩ — كبار المحدثين الأندلسيين	٣٩٤
ف ١٢٠ — ابن عبد البر	٣٩٦
ف ١٢١ — معاجم رجال الحديث	٤٠١

الفصل التاسع

القراءات وتفسير القرآن

ف ١٢٢ — القراءات : أبو عمرو الداني . وابن فيره الشاطبي	٤٠٥
ف ١٢٣ — تفسير القرآن . بقر بن مخلد	٤٠٧

الفصل العاشر

علم أصول الفقه

ف ١٢٤ — المذاهب الفقهية	٤١٣
ف ١٢٥ — مذهب مالك ، دخوله الأندلس	٤١٧
ف ١٢٦ — كبار فقهاء المالكية في الأندلس : أبو الوليد الباجي وأبو الوليد بن رشد	٤١٨
ف ١٢٧ — فقهاء مالكيون آخرون : ابن عاصم	٤٢٧
ف ١٢٨ — فقهاء الشافعية	٤٣١
ف ١٢٩ — فقهاء المذهب الظاهري	٤٣٩
ف ١٣٠ — تحرير الوثائق والشروط والقرائن (قسم المواريث)	٤٤١

الفصل الحادي عشر

الرياضيات والفلك

ف ١٣١ — أصول الدراسات الرياضية والفلكية في الأندلس	٤٤٧
ف ١٣٢ — مسلمة المجرطي ، لإقليدس الأندلس	٤٤٨

محتويات الكتاب

٧١٣

صفحة

- ف ١٣٣ — الزرقالي ، بنو هود أصحاب سرقطة ٤٥٠
ف ١٣٤ — جابر بن أفلح . البطروجي الرطوي القلصادي ٤٥٥

الفصل الثاني عشر

الطب والنبات

- ف ١٣٥ — أوائل الأطباء ٤٦١
ف ١٣٦ — كتاب ديوسقوريدس في الأندلس ٤٦٢
ف ١٣٧ — أبو القاسم الزهراوى . ابن واند ٤٦٥
ف ١٣٨ — ابن رشد . بنو زهر . ابن الدوام ٤٦٩
ف ١٣٩ — أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الفائق ٤٧٢
ف ١٤٠ — ابن البيطار ٤٧٨

الفصل الثالث عشر

الآثار الأدبية لغير المسلمين

من الأندلسيين

(١) المستعربون

- ف ١٤١ — إشارات آبرو القرطبي . القس بنجنيس . ربيع بن زيد الأسقف ٤٨٥

(ب) اليهود

- ف ١٤٢ — أبو زكريا حيوج . ابن جبرول . بسبا بن ماقوذا . ابن صديق ... ٤٨٨
ف ١٤٣ — موسى بن عزرا . يهودا هاليفي . أبراهام بن داود . الجزيري .
بنو طيبون ٤٩٨
ف ١٤٤ — موسى بن ميمون . المترجون ٥٠٢

الفصل الرابع عشر

أدب المستعجمين

- ف ١٤٥ — مؤلفات ذات طابع تفسيري أو ديني ٥٠٧

صفحة

١٤٦	ف — الشعر الموريكي	٥١٤
١٤٧	ف — القصة الموريكية	٥٢٤

الفصل الخامس عشر

آثار الأدب الأندلسي

١٤٨	ف — آراء الأب خوان أندريس في القرن الثامن عشر	٥٣٣
-----	---	-----

(أ) الفلسفة

١٤٩	ف — مرجو طليطلة . الرشديون . اليهود	٥٣٦
١٥٠	ف — رايونديو مرتين	٥٤٠
١٥١	ف — رامن آل	٥٤٣
١٥٢	ف — داني والإسلام	٥٥١

(ب) العلوم

١٥٣	ف — ألفونسو العالم والثقافة الحربية	٥٧٣
-----	-------------------------------------	-----

(ج) التربية

١٥٤	ف — المواعظ السياسية الأخلاقية	٥٧٧
-----	--------------------------------	-----

(د) القصص

١٥٥	ف — كتاب سلك الكتاب	٥٧٩
١٥٦	ف — كتاب كلية ودمنة	٥٨١
١٥٧	ف — السندباد	٥٨٢
١٥٨	ف — برلام ورواصف (يوسفات)	٥٨٥
١٥٩	ف — الدون خوان مانويل	٥٨٥
١٦٠	ف — تورسيداد	٥٨٦
١٦١	ف — ألب لية ولية في الأدب الإسباني ، قبل القرن الثامن عشر	٥٩٢
١٦٢	ف — قصص الفروسية ، قصة زياد الكفاني	٥٩٩
١٦٣	ف — جراثيان وابن طفيل	٦٠١

(ه) الشعر القصصى فى إسبانيا الإسلامية

- ٦٠٣ نظرية ريبيرا — ١٦٤
 ٦٠٧ القصصى الفرنسى والإسباني — ١٦٥
 ما يمكن أن يكون لهذا الشعر القصصى الأندلسى من أثر فى الشعر

(و) الشعر

- ٦١٣ الزجل فى الأدب الأوروبى — ١٦٦
 ٦١٤ (ا) فرنسا — ١٦٧
 ٦١٨ (ب) إنجلترا — ١٦٨
 ٦١٨ (ج) ألمانيا — ١٦٩
 ٦١٩ (د) إيطاليا — ١٧٠
 ٦٢١ (هـ) البرتغال — ١٧١
 ٦٢٣ (و) إسبانيا : كنتاجات ألفونسو العاشر — ١٧٢
 ٦٢٤ نايب الاسقف فى هبنا ، خوان رويث — ١٧٣
 ٦٢٧ أغنية المربيات الثلاث . الدواوين . آخر مظاهر الزجل — ١٧٤

مراجع الكتاب

- ٦٣٣ ١ — مراجع عربية
 ٦٤٢ ب — مراجع غير عربية

فهارس الكتاب

- ٦٥٣ ١ — فهرست الأعلام
 ٦٥٣ ا — أعلام عربية أو وردت بالعربية
 ٦٨٢ ب — أعلام إفريقية أو وردت بغير العربية
 ٦٨٤ ٢ — فهرست الكتب
 ٦٨٤ ا — كتب عربية أو وردت بالعربية
 ٦٩٦ ب — كتب إفريقية أو وردت بغير العربية
 ٦٩٩ ٣ — فهرست المصطلحات
 ٦٩٩ ا — مصطلحات عربية أو وردت بالعربية
 ٧٠٤ ب — مصطلحات إفريقية
 ٧٠٥ محتويات الكتاب
 ٧١٦ تصويبات

تصويبات

صفحة	سطر	اقرأ
٤	٢١	يحيى بن حكم النزال
١٥	٥	ابن النفرة
٢٢	٧	أبا نصر الفتح بن خاقان
٢٢	١٤	جابر بن أفلح الإشبيلي
٢٨	١٢	كتاب « سلك الكتّاب »
٥٠	٣	التي قام بها
٥١	١٢	ومنتضى
٥٥	١٨	يحيى بن حكم البكري المعروف بالنزال
٦٥	٢٠	شنجبول
٦٥	٢١	علي بن حمود الحسني
٦٦	٨	وقد أجمل ابن بسام
٧٤	٢	« مقبرة الخير » في « رياض قرطبة »
٧٤	١٨	(انظر فقرة ٧٤)
٧٨	١٠	وبرّ ابن طاهر
٨٦	١٤	أبو محمد بن صاره
٩٩	٤ (هامش)	حول الناحية الأسطورية من شخصية ابن الأحمر
١٠٧	١٦	ابن النفرة
١١٢	الأخير	وكان بائقة عصره
١١٩	١٨	ابن زيدون في رسالته الهزلية إلى ابن عبدوس

صفحة	سطر	اقرأ
١٢٣	١٤	ابن الصيرفي
١٥٢	١٠	أما عن الحب فقد عشقت
١٥٦	١٥	أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي
١٥٨	١٦	جمع بين الضربين اللذين ذكرناهما
١٦٠	١٧	Verbena (= احتفال شعبي)
١٦١	١١	شرط الخلاعة
١٦٥	٨	أبي الصلت أمية بن عبد الميز الداني
١٧٣	٩	الأحاديث التي تنسب إلى الرسول
١٨٠	٢	مقامات أبي محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري
٢٠٨	٣	وكان أبوه خلف
٢٠٨	٥	عمر بن نابل
٢١٠	٦	معاوية بن هشام الشيبيني
٢٢٠	١٢	وأعاد نشره سيكود لوثينا
٢٣٣	٨	وبين الطل التي ينجم عنها الحب
٢٣٤	٤	وأضمن أن الحل عليكم سيبعد
٢٤١	١٧	ابن الصيرفي المتوفى سنة ٥٧٠/١١٧٤
٢٧٤	١٦	وعم بين صاحب في الأخذ عنه راغب
٢٧٧	١٥	ليستصرخ أبا زكريا بن أبي حفص
٢٨٣	١٠	محمد بن عتاب
٢٨٥	١٨	عثمان بن ربيع
٢٨٩	١٠	« نخبة الاختيار من أشعار ذى الوزارتين أبي بكر
		ابن عمار »

صفحة	سطر	تصويبات
٣١١	١٢ و ١٠	ابن عبد النعم الحيرى
٣١٩	١٥	ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتى الطنجى)
٣٢٧	٢١	وسمع أبا سعيد بن الأعرابى
٣٥٦	٥	أبو الحسين محمد بن جبير
٣٦٢	٤	أبو القاسم بن وضاح
٣٦٣	٩	كتاب « إحصاء العلوم »
٣٦٨	١٥	فكتب راييموندو مارتين كتابه « خنجر الإيمان « Pugio Fidei »
٣٨٨	الأخير	المسائل الصقلية
٤٢١	»	جمع فيه بين شرح الموطأ وتفسير القرآن
٤٦٦	٢	كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف »
٤٦٦	٥	ونقله إلى العبرية « شم طب »
٥٠٣	٩	وكالونيوموس بن ماير
٥٧٩	٤	كتاب « سلك الكتاب » الذى ألفه پدرو ألفونسو
٥٨٢	١٤	وفى كتاب السكند لوكانور للدون خوان مانويل
٦١٩	١٧ و ١٨	الطراز المسمى بالكونتراستو ومعناه « المتقابل »
٦٨٦	الأخير	النبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة ، للأمير عبد الله الزيرى
٦٨٩	١٩ (عمود ١)	رسالة التابعين ، لابن حبان البسق.
٦٨٩	٣ (عمود ٢)	روح الشعر ودوح الشعر
٦٩٠	الأخير	الشفاء بتعريف حقوق للمصطفى ، لقاضى عياض

تم والحمد لله

ser reconocidas y valoradas como conviene, y exigen para ello conocimientos suplementarios de nuestra lengua y de nuestra cultura no árabe con mayor desarrollo y perfección.

En todos sentidos estimo, por tanto, como un extraordinario acontecimiento la aparición en su versión árabe de este manual de González Palencia, mi llorado colega. Al felicitar por haberla llevado a cabo a mi amigo el profesor Hussain Monés, me permito hacer votos por que este esqueje que hoy planta con tan buena mano en el surco común sea pronto un gran árbol cuya sombra nos cobije a unos y a otros en la paz de la fraternidad y del trabajo.

Emilio García Gómez.

hace escribir estas líneas. La curiosidad, el interés y hasta la pasión que los orientales de hoy, y particularmente la nueva generación de eruditos egipcios, ponen en el estudio de la cultura árabe-andaluza es un fenómeno novísimo, y quien como yo ha trabajado por esta aproximación desde 1928, cuando las relaciones eran prácticamente nulas — con la excepción de los esfuerzos de Ahmad Zaki Bāsā —, puede medir con exactitud el enorme progreso realizado. Buen jalón en este camino de acercamiento ha sido, entre tantos otros, la fundación en Madrid del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos, cuya labor es ya sumamente fecunda y al que auguramos y deseamos un espléndido porvenir. Cabalmente uno de sus mejores directores ha sido mi querido amigo el profesor Hussain Monés, ya hispanista desde hace muchos años y excelente conocedor de la lengua española, que es quien ha tomado a su cargo la benemérita y difícil empresa de traducir el manual de González Palencia, y quien ha tenido la amabilidad de pedirme que escribiera estas líneas de presentación.

Gracias a la labor del profesor Hussain Monés, el libro de mi eminente compatriota guarda en árabe las mismas ventajas que en castellano, acrecidas por el hecho evidente de que los textos citados van en su lengua original, y no en versiones fatalmente deformadoras, por buenas y bien intencionadas que sean. Pero su utilidad en árabe ha de ser mucho mayor. De un lado, informará a los egipcios y al mundo islámico en general de la manera con que enfocamos nuestro pasado árabe medieval y de cómo reivindicamos glorias que estimamos nuestras y pertenecientes a nuestro ancho y universal patrimonio. De otra parte, permitirá a los árabes rectificar esos métodos nuestros, en la amplia medida en que ha de consentírsele el mayor conocimiento de una lengua que no en vano sigue siendo la suya materna. Por último, espero que hará ver a los actuales eruditos del Próximo Oriente musulmán cómo, según dije al comienzo, al-Andalus y su cultura no son simples apéndices de la general civilización árabe, sino un mundo, no diré del todo aparte, pero sí con peculiaridades muy señaladas y reacciones espirituales y raciales muy singulares en muchos aspectos con frecuencia olvidados, que esperan

Es muy de agradecer, por tanto, el esfuerzo de quien se ha preocupado de este gran público y de poner en sus manos un balance, por provisional que sea, de la labor realizada hasta una determinada fecha. Y esto es justamente lo que se propuso hacer, y lo logró con buen éxito, aquel infatigable investigador, aquel trabajador incomparable que se llamó don Angel González Palencia, cuya vida cortó prematuramente la muerte, en octubre de 1949, con una trágica brusquedad de la que aún no nos hemos repuesto. Entre sus innumerables actividades, González Palencia fué profesor de Literatura arábigo-española en la Universidad de Madrid, sucediendo precisamente a don Julián Ribera, que en 1927 abandonó voluntariamente la cátedra para retirarse a Valencia. Como preparación para sus oposiciones, González Palencia hizo un útil resumen de cuanto se sabía hasta ese momento en el campo de la literatura arábigoandaluza; resumen que publicó en 1928 en la acreditada serie de manuales que publica la Editorial Labor con el título de "Biblioteca de iniciación cultural" (núms. 164-165). La obra tuvo el éxito que merecía, y hubo de reeditarse, muy revisada y puesta al día, en 1945. En ella están tratados, de muy cómoda y exhaustiva manera, no sólo todos los aspectos de la literatura arábigo-española, sino incluso la literatura escrita en árabe por los no musulmanes (mozárabes y judíos), la literatura aljamiada, e incluso los influjos — comprobados, discutidos o posibles — de la cultura andaluza medieval sobre la española en particular y la europea en general. No hemos de engañarnos respecto al libro. En primer término, está escrito desde un punto de vista muy personal, reflejo en cierto modo de una escuela, a la sazón batalladora y polémica, e influido por tendencias y gustos individuales, aunque con la claridad, objetividad e imparcialidad que el autor gustaba de hacer resplandecer en toda su producción. Además, ya hemos dicho al principio el panorama en que vino a insertarse y que posteriormente se ha complicado mucho más. Ha de valorarse, pues, en su época y en su momento, con relación a dicho panorama, por lo mucho que da y por la excelente orientación que aporta, y no por lo que en él falta o por lo que desde su tiempo ha cambiado.

Una de estas muchas cosas que han cambiado desde su tiempo se relaciona precisamente con la oportunidad que me

lengua extraña a la nuestra actual, pero por hombres en cuyas venas corría una sangre ibérica que influía fatalmente en su sensibilidad y en sus gustos, dentro de una religión y de una civilización forasteras. Y entre esos eruditos hay que mencionar en primer término al gran don Julián Ribera, precursor clarividente de tantas investigaciones actuales y arquitecto genial de un edificio, por él planeado, aunque todavía no se haya terminado de construir.

En un terreno tan vasto y tan nuevo como son los estudios sobre la cultura árabe en general, y más particularmente sobre la cultura arábigo-andaluza; en un terreno, además, en que los especialistas son por fatales razones muy escasos, no sé si es un mal, pero en todo caso una realidad, que se prefiera lo nuevo a lo sabido, los análisis a las síntesis, conquistar nuevas tierras a administrar las ya conquistadas. Cada investigador se adentra en su mina, y cava su galería, desentendido, o poco menos, de lo que ocurre en la superficie. Un manuscrito nuevo vale, infinitamente más que todas las obras publicadas. Una edición de un texto recién descubierto (¡y los descubrimientos se multiplican !) hace olvidar cualquier intento de censo o crítica. Esta discontinuidad en el espacio se agrava con la anarquía en el tiempo. Cuando excepcionalmente tenemos una síntesis aceptable — como es el caso del *Ensayo* de Pons Boigues —, perdura, aunque anticuada, con una vigencia inverosímil. Cuando, debidos a autores españoles y extranjeros, empezamos a disponer de estudios sobre la poesía arábigo-andaluza, el censacional descubrimiento de las ^Ajáryas romances en ^{vv}*muwassahas* árabes y hebreas vuelve a poner todo en cuestión. ¡ Todo en cuestión ! : ésta sería la fórmula para resumir un estado de cosas, sumamente agradable para los investigadores, cuyo afán de novedad puede saciarse en cualquier momento, pero en extremo despistante para el gran público.

Presentación

La historia política de la España musulmana ha sido, desde los comienzos del arabismo internacional, objeto de las más variadas curiosidades, hispánicas y forasteras, y la lista de sus cultivadores se honra con nombres ilustres de las más distintas nacionalidades. No así la historia de la literatura arábigo-andaluza, o mejor dicho, la historia de la cultura arábigo-andaluza en general. Ciertamente es que algunas de las más relevantes figuras de su elenco fueron, y siguen siendo, estudiadas, de modo separado y monográfico, por eruditos españoles y europeos, occidentales y orientales; pero era más bien como apéndices, o, a lo más, como singularidades geográficas, dentro de una historia general del portentoso desarrollo de la cultura árabe medieval, concebida como un todo unitario. Un libro como el del Barón de Schack, *Poesía y arte de los árabes en España y Sicilia*, era excepción en la bibliografía europea del siglo XIX. No se tenía conciencia de que la cultura arábigo-andaluza era, dentro de la cultura árabe general, algo más que una provincia geográfica, remota y extrema, y que constituía, en muchos casos, un orbe propio, con leyes distintas, fenómenos peculiares y singularísimos problemas.

Sobre los antecedentes que se quieran y que puedan buscarse, con las concomitancias de detalle que se puedan añadir, esta conciencia sólo se creó en España, muy a fines del pasado siglo y comienzos de éste, gracias en especial a la escuela de arabistas españoles que fundó Codera, que han realizado los nombres gloriosos de Ribera y Asín y que sigue agrupando a los eruditos hispánicos de la actualidad. Todos ellos estuvieron y están deseosos de reivindicar y de añadir a los anales patrios—a la manera como otros ingenios lo habían hecho desde muy antiguo con la cultura hispanorromana y aún con otras anteriores—estas páginas insignes, escritas, sí, en una

Advertencias

No es ésta una mera versión árabe del texto de D. Ángel González Palencia, sino dicho texto original ampliado con el desarrollo textual de las citas del autor o con el mismo texto a que él se refiere. A veces he reproducido las citas de González Palencia tal como él mismo las presenta; otras, he creído conveniente ampliarlas, a fin de poner más de manifiesto su valor significativo.

Sabido es que el autor español se vió obligado, dadas las exiguas dimensiones concedidas a su libro por una colección de iniciación, a espigar los textos. Libre yo de esta traba, he podido desarrollar las citas en su integridad, creyendo servir con ello el interés del lector. De todos modos, estas ampliaciones van siempre entre paréntesis.

La letra ف , que acompaña los párrafos, es una abreviatura de la palabra árabe قرة .

Los números volados que aparecen en algunas palabras corresponden a las notas que serán publicadas en un libro aparte, éspecie de apéndice del original español.

Agradesco sinceramente a mi amigo D. Emilio García Gómez su amabilidad de prologar, con toda su autoridad y pluma sumamente expresiva y elegante — una de las mejores de la literatura española de hoy —, esta traducción.

El Traductor

A la memoria de mi amigo, el autor de este libro,

D. Ángel González Palencia,

*como símbolo de estima de la escuela egipcia de estudios
andaluces a la escuela de arabistas españoles.*

Á. GONZÁLEZ PALENCIA

Historia de la Literatura Árabe-Española

Traducción Árabe

Por

HUSSAIN MONÉS

Profesor en la Universidad del Cairo.

El Cairo, 1955